الحائز على جائزة الدولة

حول العالم فى ٢٠٠ يوم

أنيـــس منصـــور

حول العالم فى ٢٠٠ يوم

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى عام ١٩٦٣
وصدرت طباعته التالية فى، ١٩٦٤ـ ١٩٦٦ـ ١٩٦٦ـ ١٩٦٦ـ ١٩٦٩ـ
١٩٧٠ـ ١٩٧٢ـ ١٩٧٣ـ ١٩٧٤ـ ١٩٧٥ـ ١٩٧٦ـ ١٩٧٧ـ
١٩٧٩ـ ١٩٨٠ـ ١٩٨٢ـ ١٩٨٤ـ ١٩٨٧ـ ١٩٨٨ـ ١٩٨٩ـ
١٩٩٠ـ ١٩٩١ـ ١٩٩٣ـ ١٩٩٥

الطبعة الخامسة والعشرون
طبعة دار الشروق الأولى
١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م
طبعة دار الشروق الثانية
١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م

الغلاف بريشة
الفنان الكبير: حسين بيكار

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ
رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

المحتويـــات

مقدمة
الطبعة الرابعة والعشرين

قبل أن أدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة فى أواخر سنة ١٩٦٢ ، رأيت أن أعطيه لإبراهيم المعلم الطالب بكلية الهندسة وابن صديقى الناشر محمد المعلم. أردت أن أعرف ما الذى يجده أو لا يجده شاب متفتح فى هذه الرحلة الطويلة. وقرأه. وأسعده ذلك. وكانت له ملاحظات وجيهة، أخذت بها. وأسعدنى أن يكون ذلك هو رأى الشباب فى رحلة شابة أيضا.. أول وآخر رحلة يقوم بها صحفى شاب فى الدوران حول الأرض..

وعندما أردت أن أعترف بفضل هذا الشاب الذى هو الآن صاحب دار الشروق ورئيس اتحاد الناشرين العرب، شكرت والده المشهور. وتضايق الشاب، وأنا أيضا. وأنتهز هذه الفرصة لأشكره متأخرا على ملاحظاته العميقة. وإمعانا فى الامتنان للأستاذ إبراهيم المعلم أقنعته بأن يغرى ابنه شريف المعلم بأن يكون فى قلب صناعة وإدارة مطابع دار الشروق. وقد فعل..

ولما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٦٣ ، كان ثمنه ستين قرشا. والطبعة الفاخرة كانت بسبعين قرشا. ولما نشرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب عن (دار المعارف) كان ثمنه جنيها. وتوالى نشره من (المكتب المصرى الحديث) حتى تجاوز ثمنه العشرين والثلاثين جنيها.. ثم عاد الكتاب إلى (دار الشروق) التى كان اسمها قبل ذلك (دار القلم)..

ونفدت الطبعة الثانية ولقيت حفاوة لا مثيل لها من القراء والأدباء، ومن طه حسين والحكيم وكامل الشناوى وحسين فوزى ولويس عوض، ومن المشير عبد الحكيم عامر.. ورأيت أن أقلب فى صفحات الطبعة الثانية. ولا أعرف السبب. فأنا عادة لا أقرأ كتبى بعد

نشرها. وتنقطع صلتى بها بمجرد صدورها لأننى أكون مشغولا بكتاب آخر . . ولو حبسونى مع كتبى التى بلغت الآن أكثر من مائتى كتاب، فلن أمسسها. وقد جربت ذلك. فلا أكاد أقرأ وأقول لنفسى: الله يا واد . . إيه الكلام ده؟! حتى أصاب باكتئاب!! فقد كنت أتمنى أن أكتب أحسن وأجمل. ولذلك أسارع فى غلق الكتاب ولا أعود إليه . . ولكن هذه المرة قرأت وقررت أن أعود لا إلى قراءتها وإنما إلى كتابتها. فما الذى أكتبه؟ أربط الفصول بعضها ببعض، وحذفت كلمة (جدا) من كثير من الصفحات. فلأن هذه البلاد التى رأيتها لأول مرة قد بهرتنى، فقد استخدمت كلمة (جدا) كثيرا جدا . . وإذا رأيت أنت أنه ما تزال هناك كلمة جدا فى مناسبات كثيرة، فعذرى أننى كنت مفتونا بالجديد البديع الذى رأيته وعايشته لأول مرة . .

وقد حدث أن درت حول الأرض مرة أخرى سنة ١٩٨١، ولكن بعكس المرة الأولى - وكانت هذه الدورة من مصر إلى أوروبا إلى أمريكا إلى هاواى ونيوزيلندا وأستراليا ثم إلى مصر . . ولما عدت، لم أكتب سطرا واحدا، فكل الذى أحسست به فى الرحلة الأولى لم أعد أشعر به فى هذه المرة. حاولت. ولكن لم أجد ما أقوله . .

وقد حدث لى ذلك مرة أخرى . . فعندما ذهبت لأداء العمرة سنة ١٩٦٩، كانت تجربة نفسية دينية فلسفية صوفية. وسجلت كل الذى عايشته وعانيته وكابدته فى كتاب لى بعنوان (طلع البدر علينا). وقد أديت العمرة بعد ذلك ثلاثين مرة، وحججت بيت الله الحرام سبع مرات . . وصليت فى داخل الكعبة عشر مرات، ولم أكتب سطرا واحدا. حاولت. ولم أجد ما أقوله . . فكل الذى هزنى وأثارنى وأذابنى وأبكانى قد جاء فى كتاب (طلع البدر علينا).

وبعد ذلك لم يطلع البدر لا فى عقلى ولا فى قلبى، ولم يتحرك قلمى.

وعندما زرت كوريا الجنوبية . . ثم كوريا الشمالية، لم أجد ما أقوله . . وكل الذى أحسست به هو أننى أرى نسخة ضعيفة من اليابان . . وقد كتبت عن اليابان فى هذا الكتاب، ثم عدت إلى كتابته بشكل أعمق فى كتاب آخر هو (أنت فى اليابان وبلاد أخرى) ولم أجد ما أقوله . .

إنها التجربة الأولى . . الصدمة الأولى . . القبلة الأولى . . وبعد ذلك لم أشعر بشىء جديد يبهرنى ويهزنى . . وينطلق القلم على الورق يكتب ما يهبط عليه . .

ويوم طلب منى أستاذنا د. طه حسين أن يقرأ هذا الكتاب ليقدمه للقارئ، أسعدنى

ذلك . . وفى اليوم نفسه ، كنت قد كتبت مقالا بعنوان (أطال الله عمر الفقيد) . . أما الفقيد فقد كان طه حسين ! ! فقد اتصل بى سكرتير تحرير جريدة (الأخبار) ليلا يقول لى : إن طه حسين قد مات . . أتوا له بالأطباء . . وذهب الرجل إلى ربه . والمطلوب أن أملى عليه بعض المعلومات عن فقيد وعميد الأدب العربى طه حسين . . وأمليته وقلت : لا طه حسين ولا العقاد ولا الحكيم سيدخلون الجنة . . فقد كانت لهم كتب عن محمد ﷺ وباعوها وكسبوا من ورائها . . فلا ثواب لهم . . ثم إنهم من الناحية الدينية لهم اجتهادات يراها غيرهم كفرا بينا . . إلخ .

وقبل الفجر ، اتصل بى سكرتير التحرير ، وقال لى : ولا مات ولا حاجة . . إنه حى يرزق !

ولكن كان المقال قد ظهر فطلبت من سكرتير طه حسين المرحوم توفيق شحاته ألا يطلع طه حسين على المقال الذى كتبته . .

وطلب منى التليفزيون المصرى أن أعد لقاء بين طه حسين وأدباء مصر فى برنامج (نجمك المفضل) . وذهبت إليه بالأدباء فى بيته (رامتان) . وكانوا يوسف السباعى وثروت أباظة وأمين يوسف غراب وعبد الرحمن بدوى وعبد الرحمن صدقى ونجيب محفوظ وكامل زهيرى . . وعندما استدعانى طه حسين إلى غرفته فى الدور العلوى من الفيلا قال لى : أشكرك يا سيدى على مقالك الجميل الذى عنوانه (أطال الله عمر الفقيد) . وأحب أن أؤكد لك اليوم أنه لا أنا ولا أنت ولا أستاذك العقاد وصديقك الحكيم سوف ندخل الجنة ، ولا كل هؤلاء الأدباء الذين دعوتهم اليوم ، إلا إذا غفر الله ما تقدم وما تأخر من ذنوبنا وهناك عبارة للفيلسوف فولتير يقول فيها : هات لى سطرا واحدا من مقال كتبه أشد الناس حرصا وأنا أجد فيه ما يجعله يستحق الشنق ! هاها . . هاها !

* * *

وتحيرت بعض الوقت ما الذى أكتبه بعد (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) . فقد نجح نجاحا لا يتوقعه أحد . وأعلنت منظمة اليونسكو أنه أكثر الكتب انتشارا وشعبية فى العالم العربى . .

وطلبت منى وزارة التعليم فى مصر أن أوافق على طبعه ، ويكون مقررا على الطلبة لقاء مبلغ كبير جدا من المال . وأسعدنى العرض ، ولم أتردد فى الاعتذار عنه . فإننى أفضل أن يختارنى القارئ على أن أكون مفروضا عليه . . أن أكون متعة وراحة له ، على أن أكون واجبا مفروضا عليه !

وقد رأيت الطلبة يصرخون من كتب طه حسين المقررة عليهم، رغم سهولة وجمال عبارتها . . ويصرخون أكثر من كتب العقاد: عبقرية عمر . . وعبقرية محمد . . لدرجة أن طه حسين قد رصد مكافأة لمن يقول له: إنه فهم كتاب العقاد (عبقرية عمر) . . فإذا كان الكتاب صعبا هكذا، ثم مفروضا على الطلبة، فمن الذى يقرأ للعقاد كتابا بعد ذلك؟! ولهذا رفضت . .

وتذكرت قصة للفيلسوف الوجودى الإسبانى (أونامونو) عن طبيب بارع كانت له اهتمامات أدبية. فكان يكتب القصة القصيرة . . وكان الناس لا يجدونها ممتعة. وامتنع الناس عن الذهاب إليه كطبيب فكانوا يقولون: ولكن قصصه رديئة!

مع أنه من الممكن أن تكون القصص رديئة، ويبقى هو طبيبا ممتازا! ولكن الناس ينظرون إلى الشخص بكل صفاته ـ فإن لم تعجبهم إحدى الصفات، لم يصدقوا بقية الصفات!

وقد وقعت فى هذه المصيدة أنا شخصيا. فقد أعجبنى أحد المحررين الشبان. أسلوبه جميل وبسيط ومخلص فى عمله . . وسمعت أنه يضرب أمه. ففزعت وعملت على فصله من عمله. ولم أسترح إلا عندما طرد من مؤسسة (أخبار اليوم) . . مع أنه ممتاز صحفيا!

وأذكر أننى حضرت جلسة للرئيس السادات. وكان يتحدث عن تعديل وزارى . . وقيلت آراء كثيرة فى بعض المرشحين . . وكان الرئيس السادات معجبًا بأحد المرشحين، ولكن قيل له: ياريس إنه طلق زوجته، وألقى ملابسها من النافذة. مع أن الطلاق فى حد ذاته يكفى!

وعدل الرئيس السادات عن اختياره وزيرا، برغم اقتناعه بكفاءته!

ومن الممكن أن يكون الكاتب دميما، ومع ذلك فهو عظيم. وفى أدبنا العربى عرفنا دمامة: الجاحظ والحريرى والبحترى وأبى حيان التوحيدى . . وكان مصطفى صادق الرافعى أطرش والمازنى أعرج . . وشوقى يتهته وإبراهيم ناجى يثأثأ ـ ولكنهم رغم ذلك عظماء!

وليس أقبح شكلا من أستاذنا العظيم سقراط. ولكن ما أروع الذى قال . .

ولما حاولت أن أجرى حديثا مع مارلين مونرو، أجمل مخلوقات الله. قال لى مدير

أعمالها: ولكنها لاتعرف كيف تتكلم. . فالذى تراه على الشاشة لا كلامها ولا حركاتها. . إنها تؤدى فقط ما يقترحه آخرون!

وقد توهمت طبعا أنها مادامت جميلة هكذا، فلابد أن يكون كلامها كذلك. . مع أن جمالها من صنع الله، وكلامها من أدائها ومن صنع الآخرين!

وعندما أصدرت ورأست تحرير مجلة (أكتوبر) طلب منى الرئيس السادات أن أخبر وزير الدفاع بأن الرئيس يرى أن تشترى القوات المسلحة عشرات الألوف من هذه المجلة، ولكنى لم أفعل لأن الذى يجد صحيفة أو مجلة تحت بابه أو على مكتبه دون أن يسعى إلى ذلك، فإنه لا يقرؤها. . ويشعر أنها مجلة كاسدة. . وإلا ما وجدها هكذا ملقاة عند قدميه أو يديه. . ثم صارحت الرئيس السادات بذلك بعد سنوات. ووجد الحق معى!

* * *

ولم يكن (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) إلا باكورة سلسلة من أدب الرحلات. . فقد أصدرت بعد ذلك (أعجب الرحلات فى التاريخ)، وجاء هذا الكتاب بعد نكسة سنة ١٩٦٧، محاولة لرفع الأمل عند الشباب. . ورسما لنماذج من الكفاح والمغامرات فى الأرض والماء والهواء. . واستدعاء لنماذج رفيعة للذين لم يعرفوا اليأس. . ولولاهم ما عرفنا الكثير جدا من كنوز الأرض وخفايا البحار وما وراء القمر والكواكب الأخرى، وما فى أعماقنا النفسية والجسمية. .

وأصدرت كتبا أخرى هى: اليمن ذلك المجهول. . وأطيب تحياتى من موسكو. . وبلاد الله خلق الله. . وغريب فى بلاد غريبة.

وكان هذا الكتاب هو الحافز الأول لمئات الألوف من الشبان أن يسافروا. . وعندما ذهبت إلى أستراليا فى سنة ١٩٨١ أدهشنى أن أجد هذا الكتاب متصدراً مكتبات كثير من المصريين. . وأدهشنى أكثر أن أجد توقيعى على هذه الكتب مع تحياتى لهم بأن يروا أكثر مما رأيت، وأن يكونوا أسعد حالا ـ وهذا ما حدث!

وكان هذا الكتاب هو أول كتاب يفوز بجائزة الدولة فى (أدب) الرحلات. . وليس فى الرحلات. .

وقد قرأت الكثير من كتب الرحلات، ولم أجد أنها أدب. . قرأت ما كتبه الرحالة

محمد ثابت . . كل كتبه التى تبدأ بهذه الكلمات الثلاث : جولة فى ربوع : إفريقيا . . أوروبا . . آسيا . . أمريكا . .

لقد كان هذا الكتاب مذهلا لى . . فقد ذهب المؤلف إلى كل الدنيا وكتب عنها . . ولم أتصور لحظة واحدة أننى سوف أسافر وأكتب . وعندما بدأت أكتب قررت ألا أكون مثل الأستاذ محمد ثابت . فالذى كتبه لم يكن أدبا . وإنما كتبه أقرب إلى الدليل السياحى . .

وقرأت ما كتبه الكاتب الأمريكى جون جنتر . . وكتبه : فى داخل : أوروبا . . فى آسيا . . فى داخل : إفريقيا . . فى داخل : أمريكا . . فى داخل : أمريكا اللاتينية . . ولا شك فى أن كتب جون جنتر مفيدة . ولكن الطريقة التى يكتب بها لا أستطيعها ولا أظن أحدا غيره استطاع . . فهو يكلف عددا من الباحثين أن يكتبوا له عن البلاد . وبعد أن يكتبوا يذهب هو لزيارتها . ثم يعود لقراءة ماكتبوه ويدخل بعض العبارات هنا وبعض النكت هناك . مع توقيع عليها باسمه الذى أصبح علامة تجارية رابحة !

ولكن الذى كتبه الرحالة جيمس متشنر هو الشىء الممتع . فهو يدرس ويقرأ كثيرا ويسافر . والذى يكتبه بعد ذلك هو أقرب إلى الرواية الأدبية السياحية . . ويحتاج إلى قارئ عاشق مدله وعنده صبر على المادة الغزيرة التى يقدمها للقارئ . .

وقبل ذلك قرأت رحلات (السندباد العصرى) للدكتور حسين فوزى وابن بطوطة وابن جبير وماركو بولو . . وحرصت على ألا أكتب مثلهم . . وهم مختلفون عنى مزاجا وثقافة وعصرا . .

وقد اختلفت عنهم جميعا ، كما يشير إلى ذلك أستاذنا الكبير محمود تيمور فى مقدمته . . وأستاذ أساتذتنا طه حسين أيضا .

* * *

كما ظهرت فصول من هذا الكتاب مترجمة إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية . .

ثم ظهرت ترجمة كاملة باللغة الصينية . وهى المفاجأة الكبرى ، والتى لم أصدقها لا فى البداية ولا فى النهاية . فعندما جاءني صديقى المرحوم ممدوح رضا وقال لى إن صديقا صينيا قرر ترجمة هذا الكتاب بعد أن قرأه ، لم أصدق ذلك . . أو أسعدنى ذلك . . أو

تمنيت ذلك، وإن كنت لا أعرف: كيف يترجم كتاب بهذا الحجم في الصين الشيوعية، وليس فيه هجوم لا على روسيا ولا على الدولة الرأسمالية.. فهو كتاب رحلات وأدب وفن وفلسفة وليس كتابا سياسيا. وإن كانت البداية هدفها سياسى والنهاية شىء آخر تماما..

ثم فوجئت بالكتاب مترجما فعلا إلى الصينية. واختفى الذى ترجمه، ولا أعرف اسمه حتى الآن. وإن كنت قد ذهبت إلى السفارة الصينية ليقرءوا اسمه على الغلاف.. وفى نفس الوقت أردت أن أعرف أين هو لكى أتقدم له بعظيم شكرى وعميق الإعجاب لصبره الطويل فى الترجمة ولما أبديت دهشتى أن كان قادرا على ترجمة الكلمات العامية والقفشات المصرية، كان رد ممدوح رضا: إنه عاش فى مصر عشرين عاما، حتى كاد يكون مصريا..

ولم أفهم حتى الآن لماذا عندما كنت فى جزر هاواى سنة ١٩٥٩ كيف تذكرت زجلا كان مكتوبا على (إمساكية) شهر رمضان قرأته وحفظته عندما كنت طالبا فى مدرسة (أبو حمص الابتدائية) فى محافظة البحيرة.. عندما تذكرت:

إن كنت يوم رايح كفر الدوار

على الشمال زور أبو حمص

تلاقى محلى عليه فنيار

فيه البضائع راحه ترقص؟!

كيف قفزت هذه الكلمات.. ولماذا؟ ولماذا تذكرتها فى جزر هاواى مع أننى لم أتذكرها فى أى وقت ما بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٥٩.. لا يوجد عندى سبب واضح لذلك.. إلا إذا كان نوعا من التداعى بين كلمتى الجنة والنار ـ الجنة هى هاواى طبعا؟!

أردت أن أعرف، وسألت عددا من أساتذة علم النفس، وسألونى ألف سؤال لكى يعرفوا الظروف والبيئة والجو الذى أعجبنى والذى لم يعجبنى.. وأسماء الرجال والنساء والأطعمة.. وكانت أكثر كلماتهم وضوحا: يجوز.. ربما.. لعل..

ولم أجد تفسيرا لاعندهم ولا عندى. ونحن الآن سنة ٢٠٠٠ ـ أى بعد أكثر من ستين عاما!! ألا ترى أن العقل الإنسانى غريب وعجيب؟! وأن الذاكرة هى مخزن للأسرار والألغاز.. واللعب بعقولنا؟! ومناقشات علماء النفس تؤكد معنى واحدا: أنه لابد أن

يكون هناك سبب قوى جعل هذه المعلومة القديمة تقفز من عمق عشرين عاما . . ولكن تظل لغزا محيرا بعد ستين عاما!

* * *

فالذى كان ظاهراً فى الدنيا الواسعة سنة صدور الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣، قد اختفى.

لقد مات الرئيس الأمريكى جون كيندى اغتاله جاسوس روسى أمريكى، واغتيل هذا الجاسوس فى نفس اللحظة وضاعت معالم أبشع جرائم القرن. وظهرت أفلام تحكى كيف مات ومن الذى قتله. . وهل هم الروس؟ هل هى المخابرات المركزية؛ لأنه كان داعية سلام. .

وقبل ذلك اغتال الرئيس كيندى أجمل جميلات الدنيا مارلين مونرو. . وبكيتها وحزنت على جمالها وشبابها. هل هو الذى قتلها، لأنه قال لها أسرارا كثيرة أذاعتها؟! أهى المخابرات الأمريكية، لأنها أصبحت خطرا على الرئيس الذى اغتالوه لأنه صار خطرا على أمريكا؟!

ولم أنس لا جمالها ولا دلالها. . وقد اشتريت كل الكتب بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية عن حياة ومأساة مارلين مونرو أملا فى أن أصدر كتابا عنها. . واخترت عنوان هذا الكتاب هو: شقراء العذاب. . أو مارلين وإخواتها. . مارلين لا قبلها ولا بعدها. .

وترجمت مسرحية (بعد السقوط) لآخر أزواجها الأديب الأمريكى الشيوعى آرثر ميللر. وفى هذه المسرحية قسوة مجرمة على هذه الفتاة الجميلة البريئة الساذجة. فهو يرى أن مارلين مونرو لم تكن تعرف قدرها. . ولم تعرف أنها هى مصدر ثراء كل الذين حولها. وليس لأحد منهم فضل عليها. . فهى صاحبة الفضل على المخرج والمنتج والمؤلف. . وترجمت هذه المسرحية، لكى أفضح المؤلف المتوحش. . الجراح بلا رحمة، لأبدع مخلوقات الله في هذا القرن. .

ومات البابا يوحنا الثالث والعشرون. وكنت قد ذهبت إلى الفاتيكان لحضور (المجمع المسكونى)، أى المؤتمر العالمى. وفى هذا المؤتمر، تقدم الكاردينال بيا الألمانى اليهودى الأصل بوثيقة يطلب فيها تبرئة اليهود من دم المسيح. فيهود هذا الزمان ليسوا مسئولين عن

يهـود ذلك الزمـان. ولذلك لامبرر لأن يلعنهم الكاثوليك فى صلواتهم. وصدر القـرار بغسل أيدى اليهود من دم المسيح!

وسبقت ذلك محاولة فى أمريكا، عندما ظهرت على مسارحها مسرحية (بن هور)، ثم ظهـرت فيلما على الشاشـة عرضـوه فى سينمـا (المسـرح المصـرى) فى هوليـود بطولة شارلتون هستون وفتاة إسرائيلية. . والفيلم يبدأ بأن الأسد الذى يرمز إلى شركة مترو. . لا يحرك رأسه يمينا ولا شمـالا. فيثير دهشة الناس. ويقال لهم بعد ذلك إن الذى سوف يحدث يجب أن يجمد الدم فى عروق الأسد وكل إنسان. . وقد أنفقوا على هذا الفيلم مائتى مليون دولار. . من أجل لحظة واحدة. هذه اللحظة عندما يرى الأمير (بن هور) السيد المسيح حاملا صليبه فى طريق الآلام صاعد فى طريق الجلجثة، فإن هذا الأمير يفزع ويهم بأن يذهب لإنقاذ المسيح أو لأن يحمل عنه صليبه. . والأمير بن هور يهودى. . ولكنه غاضب على صلبه وعلى عذابه. . فمن أجل هذه اللحظة، لحظة تبرئة اليهود من دم المسيح وصلبه بعد ذلك، أنفقوا هذه الملايين.

وقد كان هناك اتفاق على لقاء بين الرئيس كيندى والبابا يوحنا الثالث والعشرين. وقد تأجل اللقاء بسبب وفاة البابا. . وقد تم اللقاء فى السماء بين البابا والرئيس الذى لقى مصرعه بعد ذلك بأيام!

وفى هذه السنة، ماتت صديقتى المطربة الفرنسية إديث بياف. . فقد رأيتها قبل ذلك فى مقاهى باريس. وجلست إليها مرة واحدة. وكانت وهى مخمورة تتحدث عن مجدها على الأرصفة وفى الحانات. . كانت تغنى مخمورة للمخمورين. وكانت تقول: فلا أنا أدرى ما أقول ولا هم. . هاها هاها. .

أما صديق عمرها الكاتب الفرنسى الكبير جان كوكتو، فلم يكد يسمع بنبأ وفاتها، حتى سقط هو الآخر كأنه كان حريصا على أن يكون أول من يلقاها فى السماء. . بعد أن ضاقت بهما الأرض!

* * *

وعندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب جاءنى اثنان من الشبان بقميص وبنطلون. أما الملامح فهى هندية. وتقدم أحدهما فى أدب وعتاب يقول: أنا من جزر المالديف!

وكنت كتبت أقول إننى تصورت يوما ما أن (مالديف) هو اسم الرجل الذى رسم خريطة آسيا . . ولم أعرف أن مالديف هى اسم ألف جزيرة فى المحيط الهندى . وأن ابن بطوطة قد زارها وأسماها (ذيبة الحمل) وأنه عمل قاضيا وتزوج هناك .

أما هذا الشاب الذي كان طالبا فى الأزهر ، وعز عليه أن يكون مثل هذا الكلام عن بلاده فهو الآن الرئيس عبد القيوم رئيس جمهورية المالديف ! وعندما جاء الرئيس عبد القيوم إلى مصر زرته وتذكرنا ما كان . . ثم بعث لى برسائل عديدة يدعونى إلى بلاده لأراه وأراها بعد أربعين عاما . . لأعرف ماذا حدث فيها وماذا أحدث فيها !

ومع صدور الطبعة الأولى أيضًا احتلت الفضيحة الجنسية لوزير الدفاع البريطانى بروفومو كل وسائل الإعلام ، ومع صدور هذه الطبعة الرابعة والعشرين تحتل الفضيحة الجنسية للرئيس كلينتون كل ورقة وشاشة . . فوزير الدفاع البريطانى كانت له علاقة بحسناء كانت عشيقة للملحق العسكرى السوفيتى .

واستقال بروفومو . . والرئيس كلينتون كانت له علاقات ، آخرها وأشهرها بفتاة يهودية هى مونيكا التى فضفضت بعلاقتها بالرئيس لواحدة يهودية أخرى فى وزارة الدفاع الأمريكية ، وألقت الفضيحة فى فرن الدعاية الحزبية للانتخابات القادمة سنة ٢٠٠٠ . ولن تنجح كل المحاولات لإقالة الرئيس . . وليس فى نيته أن يستقيل وإلا كان معنى ذلك إقرارا بكل التهم الموجهه إليه من أنه كذاب وأنه اعترض سير العدالة . .

وعندما كنت فى جزر هاواى ركبت طائرة بمحرك واحد ندور بها حول بركان انفجر حديثا . . ولم أفزع يوم ركبت الطائرة . فقد كان هدفى أقوى وهو أن أرى وأصور وأنفرد بذلك فى الصحافة العالمية . وقد حدث . ولكن عندما أتذكر هذه الفعلة أرتعد ! ! إذ كيف أركب طائرة صغيرة جدا فوق بركان وبحيرة من النار تحتنا ؟ ! وكيف أن حرارة البركان جعلتنى أخلع ملابسى ولا أفكر لحظة واحدة فى أن هذه الطائرة كان من الممكن أن تنفجر فى أى لحظة ! ! أصابنى الخوف العابر فقط عندما هبطت هذه الطائرة فى مطار هونولولو . . ولفت الطيار نظرنا إلى أننا نجونا بأعجوبة أو معجزة . . فقد نفذت بعض الحمم البركانية بين جناحى الطائرة على مدى مليمترات من مخزن الوقود !

وعند صدور الطبعة الأولى ، ارتفعت إلى السماء حول الأرض أول سيدة . . إنها رائدة الفضاء السوفيتية فالنتينا . . وقد تحدث إليها الزعيم خروشوف ، وسألها : وهو يدللها : قولى لى يافاليا . . هل أنت خائفة ؟

قالت : أبدا . .

وسألها : هل تعرفين أنك مفخرة الشعوب السوڤيتية كلها؟

قالت : شكرا .

قال : نحن جميعا نشكرك يافاليا على شجاعتك ومغامرتك الأولى من نوعها في التاريخ . .

وأخجلني ذلك . . فقد تضاءلت مغامرتي أمام المغامرة الجبارة لهذه الفتاة التي تزوجت في الفضاء زميلا لها ، وأنجبت فتاة تعمل طيارة في سلاح الطيران السوڤيتي . . ولها مشكلات في تكوينها وعقلها . . وذلك بسبب أن أمها حملت بها في منطقة انعدام الوزن!

وفاز بجائزة نوبل في الأدب شاعر صديق عرفته في الإسكندرية هو الشاعر اليوناني سفريادس . . الذي يعرفونه باسم سفيريس . . ولا أدعي أنني قرأت كل ما أبدع . . وإنما بعض المقطوعات الشعرية الرفيعة . . ولابد أنها بالغة العظمة في لغتها اليونانية . . ولم يفز الشاعر الروائي اليوناني كازانتراكس الذي اشتهر في العالم بعد ظهور فيلم من تأليفه هو (زوربا) . وبسبب هذا الفيلم ظهرت ترجمات لبعض رواياته مثل (إعادة صلب المسيح) و(العبد لله) . . وفوجئت في التليفزيون المصري برجل من الإسكندرية يقول إنه ترجم ملحمة كازانتراكس المسماة (عوليس) وهي من ٤٠ ألف بيت من الشعر ، وإنه استغرق في ترجمتها عشر سنوات . . ابتلعت فيها عمره وكل فلوسه ، ولا يعرف أين ينشر هذه الملحمة بصورة محترمة . . ومجرد النظر إليه يجعلك تحس أن هناك فارقا ضئيلا بين الحب والجنون - حبه للشاعر وجنونه في التخريب الذاتي بصحته وماله!

* * *

وقد تجددت محاولة تحويل هذا الكتاب إلى مسلسل تليفزيوني . المرة الأولى كان الفنان صلاح ذو الفقار هو المرشح لأن يقوم بدوري في هذه الرحلات . . وكانت المكافأة كبيرة . ولكنني اعتذرت . أما السبب فهو أن الشاشة حركتها أكثر وكلامها أقل . . وهي بذلك تجرد العمل الأدبي من أدبه وفنه . . وتجعله مجرد رحلة مثل الفيلم الشهير (حول العالم في ٨٠ يوما) للكاتب الفرنسي جيل فرن . .

ثم عاد التليفزيون وقد وعد بأن يترك مساحة للأدب الجميل . واعتذرت لأن هذه

التجربة الفاشلة تتكرر كل يوم. فمعظم الروايات الأدبية فشلت على الشاشة. . فالصفحات في الكتاب تتحول على الشاشة إلى لقطة واحدة أو نظرة أو كلمة. .

ثم طلبت منى السيدة سوزان مبارك أن أوافق على تحويل هذا الكتاب إلى قصص للأطفال. . وانتهزت انشغالها الشديد بالكتاب والمكتبات واعتذرت عن ذلك أيضا. . فأنا أكره أن أتطوع إلى أن يكرهنى الناس صغارا لتتأكد لهم هذه الكراهية كبارا.

وقبل أن تصدر هذه الطبعة الرابعة والعشرون أعطيتها لعدد من الشبان من طلبة الجامعات ـ عشرين من كليات الطب والهندسة والزراعة والآداب والحقوق والفنادق، بنين وبنات. وانتظرت يوما. . وأسبوعين وجاءنى الرد والملاحظات. . وأسعدنى أن يكون هذا هو رأى هذا الجيل بعد أربعين سنة من صدور الطبعة الأولى.

وفى آخر صفحة من رحلتى هذه كتبت أقول: «وفى اللحظة التى هبطت أرض مطار القاهرة. . كانت شفتاى فى قدمى. . فقبلت أرضا حبيبة عزيزة. . وكانت هذه القبلة هى فى الوقت نفسه نقطة البداية والنهاية فى وقت واحد. . فمن هنا بدأت دورتى حول الأرض مبتدئًا بالهند. . وهنا انتهت دورتى حول الأرض قادمًا من إيطاليا. .» وهذه النقطة فى نهاية هذا السطر هى الشىء الوحيد الذى أحاول بعد ٢٢٨ يوما ومئات الصفحات أن أضعها فى نهاية هذا الكتاب. .

ولكنى فى هذه الطبعة الجديدة أرفع هذه النقطة. . لأن الرحلات لم تنته ولأننى على سفر دائم بين الناس وبين الكتب وبين الأفكار، وهذه المقدمة ليست هى النهاية، فقد أيقظت فى أعماقى وأنعشت مالا نهاية له من علامات الاستفهام والتعجب والعطش والجوع. . لعلى أقول أسهل وأجمل وأمتع وأرفع. . فاتحا الشهية إلى عمل وأمل. . كثير من الأمل، وكثير جدا من العمل

أنيس منصور

القاهرة ٢٠٠٠

مقدمة الطبعة التاسعة
بقلم : محمود تيمور

التزمت أخيراً فى سلسلة الصور الوصفية التى أعالج بها رسم شخصيات الأدباء المفكرين المعاصرين لى، أن أجمع فى كل حلقة بين اثنين من هذه الشخصيات، صاحباهما تتسع بينهما دائرة المشابهات، أوعلى العكس من ذلك تتسع بينهما دائرة الفروق. فلما أمسكت بالقلم لأصور صديقنا الأستاذ «أنيس منصور»، حاولت جاهدا أن أجد له شبيها، فلم يتيسر لى الشبيه، وحاولت كذلك ما وسعتنى المحاولة أن أجد له نقيضا، فعز على أن أوفق إلى النقيض، فقد رأيتنى أمام امرئ ليس من السهل اكتناه أمره، واجتلاء سره.

نظرت إليه على أنه من الملائكة، فلم تنكشف لى شخصيته بهذا الاعتبار، وعددته من زمرة الشياطين، فاستبان لى أنى ظالم له، ذلك لأنه فى الحق مزاج طريف نادر من الملائكية الطاهرة، والشيطانية الماكرة..

أمشاج من المتناقضات تتراءى لك فى هذه الشخصية العظيمة، فإذا أنا أفردت صاحبها بالحديث، دون أن أقرنه بغيره، فإنه هو نفسه ــ فى الحق ـ ذو شخصيتين أو أكثر من اثنين!

يتحدث إليك، فلا تدرى: أيهزل أم يجد؟ ويعرض عليك الرأى، فتحار فيه: أيصارح أم يداور؟

إنه لغز عصى لى وإن هذا اللغز ليتبلور فى نقطة واحدة، هى ابتسامته.. تلك الابتسامة التى تجمع فى تضاعيفها معالم شخصيته.. وما أشبهها بجنين فى بطن أمه خلال الأشهر الأولى من تخلقه، فهو على الرغم من صغر حجمه، ودقة تكوينه، يحوى كل العناصر التى يتشكل منها الإنسان المستقبل.

أنت تواجه هذه الابتسامة، كما تواجه «ابتسامة الچيوكندا» . . مبهوتا حيران، لا تملك لها تحليلا ولا تعليلا . . هل هى ابتسامة كاملة الشكل، ناصعة المعنى؟ هل هى ظل ابتسامة لا تظهر من الحقيقة إلا الأبعاد التى يظهرها الظل، لا تكشف سترا، ولا تعطى خبرا؟ هل هى شروع فى ابتسامة لا تعرف ما وراءها؟ هل هى خاتمة ابتسامة، فاتك أن تتابع مراحلها، لتستبين مراميها؟ ما لونها؟ ابتسامة ترحيب هى؟ أم ابتسامة استهزاء؟ أم ابتسامة اللامبالاة؟ أتراها تدل على واحدة من هذه الدلالات، أم هى تحوى كل هذه الدلالات مجتمعة فى وقت واحد؟

مهما تطل القول فى التحليل والتعليل، فليس ثمة إلا حقيقة واحدة: إن ابتسامة «أنيس منصور» هى «أنيس منصور» نفسه ـ هى هو ـ أو قل: هو هى، لا انفصال بينهما ولا اختلاف.

سر «أنيس منصور» يكمن خلف ابتسامته، فإذا تفطنت إلى طواياها بدا لك الرجل بكل ما فيه.

ربما دار بينك وبينه نقاش، وتفترقان على رد، ولا تكاد تخطو خطواتك، تاركا إياه، مستعيداً حديثه إليك، حتى يتصاعد الدم إلى وجهك، إذ يغيم الجو من حولك بأصداء هذا الحديث، وإذا أنت تقول لنفسك: شد ما هزأ بى الرجل، وشد ما نال منى! . . وسرعان ما تقصده مهتاج الخاطر، لتعتب عليه، كى يعتذر إليك، فيلاقيك رابط الجأش، ساكن النفس، وتحاول ما استطعت أن تستعيد من ألفاظه ما يعينك على مؤاخذته، فلا تظفر بما أردت، وتتراجع عن مطلبك، وكأنك أنت المعتذر إليه عن تسرعك، إذ تلوح لك فى ذلك الوقت« ابتسامة الچيوكندا» على وجهه . . حتى أنه هزأ بك، ونال منك . . حتم أيضا أنه لم يفعل ذلك قط . . ولا غرابة فى أن يجتمع هذان النقيضان فى ابتسامة صديقنا «أنيس منصور»!

تقدم له مقالك ليجيز نشره، فيقرؤه في ترحاب، ثم يقول لك: مقال هائل! ويثير قوله فيك نوازع الشك واليقين فى آن واحد، فلا تدرى: أمقالك هائل فى الجودة أم هائل فى السخف؟ وتتوارد على سمعك جملته الهائلة، فيعتريك من هولها دوار!

إذا قرأت له مقالا فى تقدير شخص أو تقييم كتاب، وجدت نفسك فى متاهة، تسائل نفسك: أمادح هذا الناقد أم قادح؟ وتجهد عقلك عبثًا فى سبيل الوصول إلى خط فاصل: هل المقال يرفع الشخص أو الكتاب إلى الأوج؟ أو هو يخسف به الأرض؟ ولو كنت ممن

وهبهم الله تلك الحاسة السادسة التى هى لون من ألوان البصيرة النيرة، أو الحدس الكاشف، لو وجدت نفسك من عباراته المتلونة أمام جهاز كهربى لأكبر قوة معطلة لا يلبث أن يتصدى لحاستك السادسة، فيلقى عليها بضع إشعاعات، فإذا هى ترفع راية التسليم!

يطالعك الفصل الذى يكتبه فى أدب أو فن أو ضرب من ضروب المعرفة، فتفرغ من مطالعته وقد طاب لك أن تراجع نفسك فيما وعيت: هل كسبت جديداً؟ هل أفدت شيئًا؟ ولا يلبث أن يلهيك عن الجواب شعورك بأن وجدانك عامر بما أصبت من المتعة، حافل بما غمرك من البهجة، وفى دخيلتك تطلع إلى المزيد.

أجمع الظن أن «أنيس منصور» خريج الدراسات الفلسفية الجامعية قد استفاد منها أنه ألقى بمذاهبها ونظرياتها وأعلامها جانبًا، ولم يأبه لها جميعًا، ولملم شتاته، متجها إلى ينابيع الحياة الفياضة، فكانت فلسفته إزاءها أن يرتوى بها، ويروى منها قراءه الأعزاء. . فلقد ربا بنفسه أن يكون معلم فلسفات، وعارض نظريات، ومحلل مشكلات، وأبى على نفسه إلا أن يكون صانع مسرات. . إنه «مخرج» لأفلام المباهج الفكرية، فعمله يحمل من اسمه الأنيس أكبر نصيب.

من الدراسين من يجعلون قراءاتهم الدراسية كنزهم الثمين، ومرجعهم الوثيق، ولكن «أنيس منصور» جعل كل ما قرأه فى دراسته الفلسفية الجامعية نقطة بدء وانطلاق. . فمضي يحلق فى مطالعاته، لا يقنع بنوع، ولا يقف عند حد، يصوب ويصعد، تارة يغوص إلى أعماق «أرسطو»، وطورا يعكف على «دلائل الخيرات»، ولا ينسى نصيبه حينا من قصص تباريح الهوى والشباب، يقرأ المعرفة واللامعقول، ويخوض فى المعقول واللامعقول، يمضى فى ذلك مدفوعا بالنزعة العارمة إلى تعرف المجهول فى كل جانب من فكر أو أدب أو فن. .

إن «أنيس منصور» من «قوارض» الكتب والمجلات والنشرات، وكل ما خطه قلم على ورق. . يقرأ لك المائتين من الصحائف، ويحسن هضم ما قرأ، ثم يعرض عليك خلاصاتها فى سياق رائع. . وهو مرهف الذوق فى الاختيار والعرض، لا ينتقى لك إلا ما يشغل ذهنك، ويملأ سمعك، من موضوعات الساعة وقضايا العصر، فإذا عرض لك الماضى ربط بينه وبين الحاضر، ونفى عنه جفافه ووحشته، وأدنى إليك قطوفا من أطايب الثقافة والفكر فى القديم والحديث.

ذلك كله، جعل من «أنيس منصور» كاتبا صحفيا، أصيل الثقافة، رفيع الطراز، تتسم فصوله وتعليقاته بالطابع الموسوعى الذى يقفك على أكثر من جانب ويدور بك فى أكثر من زاوية، ولا يدعك إلا ملمّا بأشتات الموضوع الذى يعرضه عليك..

«لأنيس منصور» أسلوبه الذاتى، وهو أسلوب تتضح به شخصيته، وأكبر عناصره تلك الجاذبية التى تجعل قارئه يحرص على أن يتابعه علي تواصل الأيام.. كأنه يتابع رسالة موصولة الحلقات، أو لكأنه يوالى الاستماع لقصص «ألف ليلة وليلة» التى لم يمل «شهريار» الاستماع إليها فى لياليه الطوال..

والجاذبية فى أسلوب «أنيس منصور» تريدك على أن تدور معه حيث يدور بقلمه فيما يتناول من الموضوعات، وهو فيها يوما من «الأحرار» ويوما من «المحافظين»، ويوما من «العمال»، وأنت فى جميع أحواله يحدوك بطرافة عرضه ورشاقة تصويره على أن تقرأ له، وتقتنع بما يقتنع به، ولا تخرج آخر الأمر، إلا وأنت راض عن نفسك وعنه، مطمئن إلى موقفك منه، وإن لم تكن تدرى عن أى شيء رضيت، وفى أى موقف استقر بك المقام.

مفتاح الطابع الشخصى لكتابات «أنيس منصور» هو: «المفارقات»... لا يكاد يخلو منها مقال أو حديث له، بل إنها هى القالب التقليدى للكلمات اللاذعة أو الباسمة التى يذيل بها أحاديثه، ويجريها مجرى الحكم والأمثال.. وهو فى هذا الطابع شبيه «أوسكار وايلد» ولابد أنه أعجب به فى هذه الناحية، ووافق منه هوى.. وليس من شك فى أن «المفارقات» عنصر خلاب، وسلاح نفاذ، إذ هى تقوم على أساس المفاجأة والإثارة، وتنطوى على التهكم والسخرية والمفاكهة، وفى هذا من يشد الانتباه، ويهز المشاعر.. وذلك ما جعل «أنيس منصور» مفتونا باتخاذ هذا العنصر الخلاب، والسلاح النفاذ.

أما لغة «أنيس منصور» فهى جانب آخر من ابتسامته «الچيوكندية».. حينا يطالعك بالفصيح من التعبير، فيبهرك بما يتخير من اللفظ، وطورا يتعمد متطرفا اتخاذ كلمات علمية متطرفة، علي حين أن مقابلاتها العربية لا تغرب عنه، ولا تستعصى عليه.. مرة تأخذه «الجلالة» اللغوية، فيستمسك باستعمال كلمة «اللمسات» للتعبير عما يقال له «الرتوش»، وحينا تجنح به نزعة اللامبالاة، فيجرى قلمه بكلمة «صرماتى» بدلا من كلمة «الإسكافى».

و«أنيس منصور» مؤلف كثير الإنجاب.. ولقد يتعذر على القارئ أن يلاحق كتبه التى

يوالى إصدارها . . وهو شغوف بانتخاب أسماء لكتبه تروعك بطرافتها ، فهو صاحب كتاب «ساعات بلا عقارب» ، وكتاب «وداعا أيهال الملل» وغيرهما من الكتب التى تحمل لطائف الأسماء .

ولا ريب فى أن كتابه «حول العالم فى مائتى يوم» من خير ما أنتج . . ولعل إيثارى له يرجع إلى شغفى بالرحلات وكتب الرحلات ، حتى أنى أقحمت نفسى فى هذا الميدان ، بما كتبته فى وصف بعض السفرات التى قمت بها فيما وراء البحار . .

وكاتب الرحلات الناجح لابد أن تتوافر له ألمعية الملاحظة ورهافة الفطنة ، وسرعة الالتقاط والقدرة على استبانة الملامح والمعالم ، وبخاصة ما يدق منها على النظرة العابرة ، وما يتصل منها بالعادات والسلوك والأوضاع الاجتماعية التى لا تخلو من غرابة . . وكل هذه المؤهلات تستجمع للأستاذ «أنيس منصور» وهو يضرب بعصاه الأرض ، ويمعن نظراته هنا وهناك ، فتخترق فى الزوايا والخبايا . .

وفى هذا الكتاب تتجلى روح الظرف والمنادمة ، وفيه أوصاف شائقة للمشاهدات والانطباعات فى أسلوب كثير التوابل .

ولى مع ذلك الكتاب قصة :

اشتريته ، واستعظمت حجمه ، فتهيبت أن أشرع فى قراءته ، كما استعظمت من قبل «الإلياذة» و«الأوديسة» ، متهيبا أن أمضى فى قراءتهما بادئ بدء . وتركت كتاب «أنيس منصور» على مكتبى أخالسه النظر بين يوم ويوم ، لا أمد إليه يدًا . . رحلة طويلة عريضة استغرقت مائتين من الأيام ، وأكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير . .

وساعة وجدتنى أتملى بعض صحائفه ، والنظر فيما حوت من صور ، وبغتة ألفيتنى كأنما تهبط بى طائرة حوامة «هيلوكبتر» فى قلب «هنج كونج» . .

وسرعان ما طوتنى زحمة الناس فى أسواقها وطرقاتها ، أتطلع إلى مبانيها الشواهق وأجوب دروبها الملأى بغرائب السلع ، ثم أعطف على نواديها الليلية ذات الطابع البراق . . ووقعت عينى على هذه الفقرة :

«الصينى رجل متفوق فى عمله ، يفكر بيديه ، ويتفلسف بمعدته . . والموسيقى تدل على براعة الصينيين فى شىء واحد ، هو أنهم استطاعوا أن يحبسوا عشرات القطط والفيران فى آلاتهم الموسيقية . فالبيانو صراع دائم بين دجاجة وراءها عشرات من

الكتاكيت الصغيرة، ضد عرسة كاسرة. . أما القيثارة فهى تشبه أفعى قد تكومت على صدر أحد الحواة تنتظر عصفورا أطلقه أحد المتفرجين. . أما بقية الأصوات الموسيقية فهى تشبه ضرب الحلل بالملاعق. . ثم ضرب المستمعين بالجزم».

ومضيت أقرأ. . واندمجت فى القراءة. . وكل جارحة فى جسدى تبتسم!

وأقبلت على «اليابان». . وأنست ببنات «الجيشا». . وهبطت «أمريكا» وزرت «هوليوود». . وتركت مدينة السينما والهوى والشباب. . ونسيت نفسى، حتى أيقظتنى الصفحة الأخيرة من الكتاب، فإذا بى لم أقرأ إلا شطر الكتاب الثانى، فعدت إلى الشطر الآخر من أول صفحة، لأستكمل قراءة الرحلة.

ولقد أعادت رحلة «أنيس منصور» إلى ذاكرتى كتاب «جول فرن» المسمى: «الطواف حول الأرض فى ثمانين يوما». . والشىء الباعث على الحيرة هنا هو: «كيف استطاع «جول فرن» إتمام طوافه فى هذه المدة القصيرة، وهو يتخذ وسائل المواصلات القديمة، من بواخر بدائية، إلى فيلة بطيئة الخطا، إلى نعال غليظة تعوق السير ـ على حين استنفذت رحلة «أنيس منصور» أكثر من ضعف هذه المدة، وهو الذى كان لا يترك فى تنقلاته طائرة إلا ليستقل أخرى؟ . . إن هذا حقا لغز، وما أحسب أن حله بالأمر اليسير!

ليس كتاب «أنيس منصور» المحتوى على رحلته هو كل ما كتب من هذا اللون. فالحق أن فصوله ومقالاته ليست إلا رحلات متواصلة. سواء أكانت فى آفاق الأرض المحدودة، أم كانت فى العوالم الفكرية التى ليس لها من حدود . . . .

محمود تيمور

١٩٧٢/٦/٢٣

مقدمة الطبعة الثالثة
بقلم : طه حسين

هذا كتاب ممتع حقًا تقرؤه فلا تنقص متعتك بل تزيد كلما تقدمت فى قراءته .

ومع أنه من الكتب الطوال جدًا فميزته الكبرى هى أنك حين تقرؤه لا تحتاج إلى راحة وإنما تود لو تستطيع أن تمضى فيه حتى تبلغ آخره فى مجلس واحد ، لأنك تجد فيه المتعة والراحة والسلوى وإرضاء حاجتك إلى الاستطلاع .

ومن المحقق أن هذه الرحلة الرائعة يمكن أن تقرن إلى الرحلات العربية القديمة .

ومن يدرى لعل أن تمتاز منها ببعض الخصال ، فصاحب الكتاب حلو الروح خفيف الظل بعيد أشد البعد عن التكلف والتزيد والإدلال بما يصل إليه من الغرائب التى يسجلها فى كتابه .

وإنما هو يمضى فى الكتابة مع اليسر والإسماح ، مرسلا نفسه على سجيتها ، مطلقًا لقلمه الحرية فى الجد والهزل وفيما يشق وما يسهل ، لا يتكلف الفصحى ولا يتعمد العامية . وإنما كتابه مزيج معتدل منسجم من اللهجتين . . وهو لا يقصد إلى أن يبهرك ولا إلى أن يغرب عليك فى لفظ أو معنى وإنما يستجيب لطبعه ويظفر بإرضاء الطباع السمحة التى تكره التكلف والتحذلق والإسفاف .

ولقد أخذت فى قراءته ذات يوم فكان أشد ما أضيق به العوارض التى تعرض فتصرفك عما أنت فيه على كره لهذا والضجر به . والإحساس الذى لا يفارقك فى أثناء القراءة هو أنك مع الكاتب تشهد ما يشهد ، وتسمع ما يسمع وتجد ما يجد من ألم أو لذة من سخط أو رضى ، تسافر معه تقيم حين يقيم مع أنك لا تبرح مكانك . وإنما هى براعة

الكاتب وإسماحه يستأثران بك ويخيلان إليك أنك تلزمه فى حركته وسكونه كأنك ظل له لا تفارقه؛ وأشهد بأنى وجدت هذا الشعور منذ أخذت فى قراءة الكتاب إلى أن فرغت منه.

وما أرى إلا أنى سأعيد قراءة فصول كثيرة منه وهذا أقصى ما يتمنى رحالة أن يبلغ من نفوس قرائه.

ومع أن الكاتب يسمى كتابه «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» فهو قد طوف فأكثر التطواف ووصف فأحسن الوصف، فهو لم يزر العالم كله، وإنما زار الأجزاء البعيدة منه فى الشرق الأقصى وفى أمريكا.

وما زالت هناك بلاد كثيرة لم يلم بها ولم يتحدث عنها، هو لم يزر من الصين إلا هونج كونج، ومن يدرى ماذا يقول لنا لو أنه زار الصين وبلاداً أخرى كثيرة فى آسيا كآسيا الوسطى الروسية وكإيران وتركيا وجزيرة العرب.

ولا أذكر العالم العربى فى آسيا فأكثر الناس يعرفون عنه الكثير.

وما زالت أمامه أجزاء خطيرة من العالم يجب أن تضاف إلى الصين وإلى الأجزاء الآسيوية الأخرى التى لم يزرها. وهو وقد زار بعض البلاد الأوربية، ولكنه لم يزرها زيارة الرحالة. كما أنه فيما أعلم لم يزر بلاداً كثيرة فى أوربا. ولم يزر روسيا الأوربية ولم يزر البلقان. وتبقى بعد هذا كله قارة كاملة تدعوه إلى زيارتها فى إلحاح وهى القارة الإفريقية على اختلاف أقطارها.

لست أقول هذا ناقداً له وإنما أقول متمنيًا عليه زيارة هذه البلاد كلها ووصفها كما وصف البلاد التى زارها مهما يكلفه ذلك من مشقة فى السفر والإقامة والكتابة بعد ذلك. وما دام قد بدأ فأحسن البدء فيجب عليه أن يتم ما بدأه فيزيد فى إمتاع قرائه، ثم هو لا يمتع قراء هذا الجيل وحدهم وإنما يمتع أجيالا أخرى كثيرة كما استمتعت أجيال كثيرة برحلات العرب وبكثير من رحلات الأوربيين.

ومن المحقق أن الذين سبقوه من أصحاب الرحلات لم يزوروا الأرض كلها ولم يصفوها، وإنما اكتفوا بما زاروا من بعض الأقطار. ولكن الأستاذ الكاتب يستطيع أن يصدق بيت أبى العلاء:

وإنى وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

فأبو العلاء لم يغل فى هذا البيت لأنه أتى فى شعره وفى بعض نثره بكثير مما لم يسبقه العرب إليه. ولم يلحقوه فيه إلى الآن. فما يمنع كاتبنا من أن يأتى فى الرحلات بما لم يستطعه من سبقه من الرحالين. ولعله آخذ فى بعض ذلك فيما يأتى من الزمان. وليس من شك فى أنه أتى فى رحلته هذه بما لم يسبقه إليه أحد من معاصريه. وأنا أكره له أن يصدق عليه بيت المتنبى:

ولم أر فى عيوب الناس عيبا ... كنقض القادرين على الكمال

وفيه والحمد لله قدرة على الأسفار واحتمال للمشقات وقد منحة الله من الشباب والقوة وحسن الصبر والاحتمال ما يمكنه من ذلك إن أراد. وأنا أرجو أن يعينه الله على ما قد يحاول من ذلك، ولا أخفى عليه أنى مشوق كل الشوق إلى أن أقرأ وصفه لإفريقيا. وليكن ذلك فى جزء أو جزءين. وهو قد أثبت بكتابه هذا أن الله قد يسره للتطواف فى أقطار الأرض ووصف ما يزوره منها كأحسن وأمتع ما يكون الوصف. وما أظن أن «أخبار اليوم» تحول بينه وبين ما يسره الله له. فليعزم وليتوكل على الله، وأنا أهنئه بكتابه هذا وأتمنى له النجاح والتوفيق حتى يبلغ من إتمامه ما نحب.

طه حسين

القاهرة فى أغسطس ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الثانية

بعد أن انتهت رحلتى حول العالم، عدت من جديد إلى السفر. لقد جمعت القليل جداً من ملابسى، وبعض الأوراق. واتجهت فى سيارة جيب إلى أقصى الجنوب.. إلى الكونغو. ولم تتحرك هذه السيارة خطوة واحدة. ومع ذلك فقد وصلت بها وبسرعة ٥٠٠ كيلو فى الساعة إلى مدينة كوكيا تفيل فى الكونغو!

وهذه الفزورة لها حل: فإننى ركبت عربة جيب فى داخل طائرة تابعة للأمم المتحدة مرافقًا لقواتنا العربية التى ذهبت تحمى ثورة الشعب بزعامة لومومبا.. وكانت هذه السيارة محاطة بالقنابل والمدافع وشباب مصرى أسمر أقوى من القنابل والمدافع يحمى قضية الحرية فى القارة السوداء..

وارتفعت الطائرة وانخفضت درجة الحرارة فى داخلها فقد كانت طائرة غير مكيفة.. وبدأت أرتجف من البرد وكأنني عريان فوق جبال الهملايا.. أو كأننى سقطت فى ميناء سيدنى فى عز الشتاء. وعادت الطائرة إلى مطار القاهرة لتصلح جهاز التكييف. ثم ارتفعت الطائرة وارتفعت درجة الحرارة وكدنا نختنق. ولا أعرف إن كان الغرض من ارتفاع درجة الحرارة هو إتاحة الفرصة للمواد الملتهبة لكى تنفجر وتنتهى هذه الرحلة، ونتحول من مسافرين إلى شهداء من أجل السلام فى بلاد أخرى.

ونزلت الطائرة إلى أرض القاهرة، وتم إصلاح جهاز التكييف. وحمدنا الله. وعدت إلى مكانى أمام عجلة القيادة أميل بصدرى عليها محاولا أن أستريح أو أهرب من المسامير التى برزت في كل جانب من جوانب السيارة..

وهبطت الطائرة فى الخرطوم فى الشتاء الدافئ..

وعادت لتهبط مرة أخرى بين الأحراش فى الكونغو(*) .

وبعد أيام رجعت إلى القاهرة . . فقد استغرقت هذه الرحلة ألوف الأميال وثلاثة أيام . . وقد سجلت بذلك أطول وأقصر رحلة قمت بها فى حياتى!

* * *

وسافرت إلى الكويت للمرة الثانية . . ورأيت هذه الدولة النامية قد تغيرت معالمها بسرعة . . وزحفت على الصحراء بيوتها الجميلة الأنيقة . . ورأيت شيئا أهم وأعظم من بيوتها الجميلة . . رأيت شعب الكويت الذى اتسعت آفاق وعيه ومسئولياته نحو الكويت ونحو الأمة العربية . ولى فى الكويت أصدقاء كثيرون . أدباء وشعراء وساسة . وكلهم ثروة لنا، وطليعة للوعى العربى فى شبه الجزيرة وفى الخليج العربى .

وتمنيت أن أؤلف كتابا عن الكويت . وأرجو أن أتمكن من ذلك .

* * *

ووقعت أحداث فى العالم، غيرت معالم الخريطة . .

وكنت أتمنى أن أسجلها . وسأفعل إذا ما اتيحت لى الفرصة بعد ذلك . .

انطلق الرصاص على رئيس سيلان بأندرانيكة . وظهرت بعده زوجته العظيمة فى مكانة الشرف للمرأة الآسيوية . .

وقتل الرئيس كنيدى . . وهو تلك الظاهرة الغريبة فى تاريخ أمريكا . فهو يرأس دولة رأسمالية بعقلية سلامية . قتله يهودى بولندى وجاء يهودى آخر وقتل القاتل . . وضاعت معالم الجريمة فى وضح النهار . ولكن المؤكد أن أمريكا خسرت شابا عظيما . والعالم كله أيضًا . وبكت عليه عيون فى كل الدنيا . . بكت شبابه وشجاعته وحبه للتعايش السلمى بين الشعوب . .

ونهرو مات . . ذلك الرجل العظيم الذى كان أروع معالم الهند وآسيا . .

والعقاد الذى ولد مع نهرو فى العام نفسه مات هو أيضا . . إنه أكبر المفكرين العرب، وأوسعهم أفقًا وأعلاهم رأسا وأشدهم حرصًا على كرامة الفكر والإنسان . .

ومات أجينالدى الزعيم الفلبينى . . وهو يشبه الزعيم المصرى أحمد عرابى باشا . .

وغرقت جزيرة بالى الجميلة على أثر بركان عنيف . . أضاع معالم الجزيرة . هدم

(*) اقرأ كتابى «بلاد الله . . خلق الله . .» .

معابدها وجبالها الساحرة. . وهربت القرود المقدسة تحتمى فى أشجار جوز الهند، ولكن هذه الأشجار تحولت إلى وقود. . وأصبحت الجزيرة شعلة من الماء!

وظهرت دولة جديدة هى ماليزيا تضم الملايو وجزراً أخرى قريبة من إندونيسيا. . وسنغافورة أصبحت دولة مستقلة.

وأصبحت لنا سفارة فى أستراليا هذه القارة الغنية السعيدة. . تماماً كما كنت أحلم بذلك. .

* * *

وحذفت من هذه الطبعة الثانية كلمة «جداً». . وإن كنت فى كثير من الأحيان قد نسيت ذلك. . فقد سجلت فى الطبعة الأولى فرحتى بالعالم الواسع الملون الباهر الساحر. . واحتفظت بهذه الدهشة. . وأبقيت نبرتى العالية. . فمن الصعب أن يندهش الإنسان ويصرخ بصوت منخفض. . وليست علامات «التعجب» المنتشرة فى كل الكتاب، وليست كلمات «جداً». . إلا دليلا على أن دهشتى لم تنته. وحماسى لم يخمد. . فالذى رأى ما رأيت، وسمع ما سمعت، كيف لايندهش؟ وكيف لا يفكر بعد هذه الدهشة فى معنى العجائب التى يراها!

فالدهشة هى بداية المعرفة الإنسانية.

فالإنسان يندهش وبعد ذلك يتساءل. . وبعد أن يتساءل يفتش عن الإجابة. وقد تساءلت كثيراً جداً، وحاولت أن أجيب بقدر ما أستطيع.

وإذا كنت فى الطبعة الأولى قد اندهشت وتساءلت، ففى هذه الطبعة الثانية قد أجبت كثيراً. وعملت بنصيحة الأصدقاء. فقد نصحونى بأن أعيد قراءة ما كتبت. وقد فعلت. وأن أجعل الكتاب كله حلقات مترابطة. وأن أحتفظ لها بروح المرح والخفة وأن أخفى وراء هذا المرح بعض المعلومات. وقد فعلت وأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك.

وقد لاحظت ــ مثلا ـ أننى كنت مبهوراً جداً بالراديوهات الترانزستور فى اليابان. وكنت أتأمل هذا الجهاز العجيب بدهشة لا تنتهى. وقد أصبح هذا الراديو من صناعاتنا. وأصبح فى متناول الأطفال.

حتى صناعة اللؤلؤ اليابانية التى رأيتها وكتبت عنها لأول مرة فى تاريخ الصحافة العربية، هى الأخرى أصبحت من المشروعات العلمية عندنا. فهناك محاولات جادة لزراعة اللؤلؤ فى مياه البحر الأحمر.

وقد لقى هذا الكتاب جمهوراً متعطشًا لمعرفة الدنيا، وانتشر فى كل مكان. ونفدت طبعته الأولى بسرعة أدهشتنى وضايقت الدار التى نشرته. فهى حريصة أن يبقى الكتاب معروضًا فى المكتبات وقتًا طويلا. يسأل عنه الناس، ويتحدثون عنه.. ولكن هذا الكتاب فاجأ الجميع بأنه اختفى فى حوالى ثلاثة شهور.. عشرة آلاف نسخة فى مائة يوم!

وتلقفت هذا الكتاب أجهزة الإعلام كلها.

الصحف تتحدث عنه. وأشارت إلى المتعة التى يلقاها كل قارئ..

فليس أسهل من أن يلف القارئ الدنيا وهو جالس فى مكانه.

والإذاعة تناولته على شكل سلاسل..

واقترح أستاذنا الكبير محمد التابعى أن يصوره التليفزيون فى حلقات..

وبحث عن هذا الكتاب قراء من اليمن ومن غينيا وغانا والكونغو وموريتانيا.. ووجدت نفسى مضطراً إلى أن استرد نسخًا من هذا الكتاب كنت قد أهديتها إلى أصدقائى؛ فسحبتها وأنا حائر بين الألم والسعادة..

ثم كانت هذه الطبعة الثانية التى أعترف بأننى أدخلت عليها تعديلات جوهرية وربما كان من الأنسب أن أقول: إننى أعدت كتابة الطبعة الأولى. وأضفت إليها حتى يصبح هذا الكتاب ممتعًا ومفيدًا فى الوقت نفسه.

وقد أقسم لى توفيق الحكيم بشرفه وأولاده بأنه اشترى نسخة من جيبه.. أى من فلوسه! ألا ترى أن هذا الكتاب قد أحدث تغييراً جذريًا فى فلسفة بخيل عظيم مثل توفيق الحكيم؟!

وأعترف بأن نفاد الطبعة الأولى بهذه السرعة يشجعنى ولا شك على أن أكتب رحلاتى إلى أوربا وإلى الشرق الأوسط فيما بعد. فقد سافرت إلى أوربا ١٦ مرة.. رأيتها وهى منهارة.. على شكل صفيح أسود، وطوب وطين وفحم.. ورماد على وجوه النساء، وفى أفواه الأطفال وفى أفكار الرجال.

ورأيتها وهى تتلألأ فى الليل، وهى حية نظيفة أنيقة فى النهار..

ورأيت الشرق الأوسط.. رأيت العراق بعد ثورة الطاغية عبد الكريم قاسم..

ورأيت الأردن وسوريا ولبنان.. وعندى ما أستطيع أن أقوله.. وقد وقعت أحداث، وظهر واختفى أشخاص.. وشاعت آراء ومواقف.

لعلى قد أسرفت فى وعودى. ولكن القارئ مسئول عن هذا الإسراف، فهو الذى شجعنى. وأنا أستمد من تشجيع القارئ حماستى ومتعتى وأملى فى الحياة..

وأنا فى كل مرة أفكر فى رحلتى الطويلة جداً هذه.. أتذكر القصة التى يرويها الكاتب الأمريكى جيمس متشنر، الذى ألف أروع قصة عن جزر هاواى. فهو يقول: إنه فى كل مرة يسأله الناس عن سبب ذهابه إلى جزر هاواى مرة أخرى يقف على لسانه سؤال آخر يوجهه إلى نفس الشخص الذى يسأله: ولماذا أنت فى جزر هاواى؟

ولكن حياءه يمنعه من توجيه هذا السؤال.. أو رده أو صده.. كأنه كرة ارتطمت بالحائط..

وأصبح من عادة متشنر كلما سأله إنسان عن سبب وجوده فى هذه الأماكن النائية أن يقول له: يا سيدى حدث أننى عندما ذهبت إلى جزر هاواى لأول مرة.. أحببت فتاة حلوة.. سمراء رقيقة صوتها حرير.. وشعرها حرير أبيض.. والحياة معها حرير.. وعقارب الساعة كانت أيضا من الحرير.. إننا لا نشعر بالزمن.. وقررت فى يوم من الأيام أن أتزوجها وذهبت لأشترى لها من أحد محلات المجوهرات هدية على شكل قلب ذهبى، وبينما أنا عائد إلى الفندق هاجمنى بعض اللصوص وضربونى وسرقوا المحفظة. ولا أدرى بالضبط ماذا حدث بعد ذلك لقد فقدت وعيى.. وفقدت ذاكرتى أيضا!. وعندما أفقت وجدت سلسة من الذهب ملفوفة حول عنقى ويتدلى منها قلب ذهبى. ولم أستطع أن أعرف ما معنى وجود هذه السلسة. فأنا لم أعد أتذكر شيئًا بالمرة وسافرت بعد ذلك إلى الهند. وعلى سفوح جبال الهند.. كنت أتفرج على بعض الطيور وبعض الناس المساكين الذين يزحفون على الأرض فى قناعة وسعادة تامة. وبهرتنى هذه القناعة وأخذتنى هذه السعادة. وسقطت على الأرض. لا أعرف كيف سقطت.. ربما كان السبب هو أننى ضغطت بعض الشىء على أحد الأحجار.. وشكرًا لهذه الأحجار الكريمة.. فعندما سقطت على الأرض ارتطم رأسى بحجرة أخرى أكثر كرمًا من الأولى.. وفى هذه اللحظة استعدت ذاكرتى.. وتذكرت بوضوح شديد جداً هذه القصة. فقررت السفر إلى جزر هاواى لألحق بحبيبة القلب التى حرمنى اللصوص منها.. وسافرت إلى هاواى وسألت عن الحبيبة.. ووجدتها أمًا لعشرة أطفال وقد زاد وزنها فأصبح حوالى مائة كيلو.. ولاحظت أن الذراع التى كنت أستند عليها وأنا أمشى إلى جوارها قد أصبحت مليئة بالعضلات. ولما عرفت أن زوجها يعمل حداداً عذرتها وتمنيت له مزيداً من الأطفال وتمنيت لها مزيداً من العضلات وتمنيت لنفسى مزيداً من القصص لكى أرد بها على السؤال الذى يتكرر دائمًا: ولماذا أنت فى جزر هاواى؟

وهذه القصة ابتكرها متشنر مفسراً بها سبب وجوده فى هاواى ـ مع أن الإنسان ليس في حاجة إلى أسباب خارقة ليكون فى مكان ما . . فى أى مكان. إن أهل هاواى أنفسهم لم تخلقهم معجزة وإنما جاءوا وتكاثروا ولا يزالون هناك . .

أما السبب الحقيقى الذى جعل الكاتب الأمريكى يسافر إلى هاواى فهو أنه كان ضابطًا فى البحرية. سبب بسيط جدّا. ولكنه ليس جميلا .

وأنا شخصيا أحب القصة التى ابتكرها وأفضلها على السبب الحقيقى الذى ليس جميلا ولا ممتعًا ! وأتمنى أن يسألنى الناس هذا السؤال ، وأتمنى أكثر أن يسعفنى خيالى بقصة جميلة لسبب وجودى فى كل هذه البلاد التى ستقرأ عنها فى هذا الكتاب . .

* * *

أما الذى كسبته من هذه الرحلة المرهقة التى تركت علامات عميقة فى نفسى. فالجواب على ذلك جاء فى آخر صفحة من قصة الكاتب الفرنسى «جيل فرن» التى ظهرت على الشاشة وعنوانها : «حول العالم فى ٨٠ يومًا» . . ففى الصفحة الأخيرة يسأل الخادم بطل هذه القصة واسمه فيلياس فوج : ما الذى كسبته من هذه الرحلة؟ أنت تراهنت على مبلغ عشرين ألف جنيه . ولكن أنفقت ١٩ ألف جنيه . . والألف الباقية أعطيتنى إياها؟

والذى لا يعرفه هذا الخادم هو أن الرحلة نفسها ممتعة ومثيرة ومفيدة . .

وأن المكسب هو المشوار . . هو الشوق والحنين . . وانتظار الناس حولى لكى أقول لهم ما رأيت وكيف رأيت . .

ولو طلبت منى أيها القارئ أن ألقى قلمى الآن وأدور حول العالم من جديد ، نفس الطريق ، ونفس الأمراض ، ونفس المخاوف ، فإنى لن أتردد . . فليس فى الدنيا أروع من السفر وذكريات السفر ، وليس أروع من أن يستمتع بقراءتها بعد ذلك كل الذين لم يسافروا ، وكل الذين يحلمون ببلاد بعيدة جديدة!

أنيس منصور

القاهرة فى أغسطس ١٩٦٤

مقدمة الطبعة الأولى

ركبت البغال فى أعالى الهملايا، وركبت النفاثة من هوليود إلى واشنطن، وكان الأمريكان ينظرون لى بإعجاب وحسد، فقد كانت النفاثة شيئًا جديدًا، وركبت الفيل وركبت زورقًا وظللت واقفًا ست ساعات، فقد كانت المياه مليئة بالأفاعى والتماسيح فى أقص جنوب الهند، وأكلت الموز بالشطة فى سنغافورة، وشربت الشاى بالملح فى إندونيسيا، وأكلت الأناناس مع الغربان فى سيلان، وأكلت الخبز المصنوع من السمك فى جزيرة بالى، وأكلت الضفادع والثعابين البرية فى هونج كونج، وأكلت البيض وهو ملىء بالكتاكيت، وحتى لا أصاب بقليل من القرف فإنهم فى الفلبين يضيفون إليه بعض الفلفل والملح، وارتديت الدوتى فى كيرالا، ولبست الكيمونو فى طوكيو ومشيت ربع عريان فى هونولولو؛ وكان لى أصدقاء من أصحاب الملاليم، وأصدقاء من أصحاب الملايين. . وكانت صداقتى لا تستغرق إلا ساعات أو أيامًا، وبعد ذلك أرحل إلى بلاد جديدة. . .

لقد كان العالم كتابًا كبيرًا عريضًا طويلا غنيًا بألفاظه ومعانيه. . كنت أقرأ بعقلى وقلبى، وأقلب الصفحات بيدى ورجلى. . وكنت أضع حقيبتى الوحيدة فى مهب الطائرات والعواصف؛ ودخلت المستشفيات فى إندونيسيا، وفى اليابان دخلت مستشفى الولادة، وفى أستراليا دخلت مستشفى الملكة، وفى أمريكا دخلت عيادة كل أطبائهامن المصريين؛ كنت أكتب ليلا ونهارًا، وكنت أبعث بمقالاتى لأخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة والجيل، وعندما أجد متسعًا من الوقت كنت أكتب مذكراتى.

* * *

فلم أكن وحدى. . كانت الصحف تسبقنى إلى السفارات، وكانت تسبقنى إلى أكشاك بيع الصحف حول العالم كله.

بل إنني وجدت نسخة من «أخبار اليوم» فى أحد محلات السجائر فى «السوق الدولية» بمدينة هونولولو . . ولما سألت عن صاحبها الذى تركها فإذا به أحد رجال السفارة الأمريكية فى كمبوديا!

وكنت كلما وجدت مقالاتى منشورة أحسست أنها صواريخ . . صواريخ متعددة المراحل ترفعنى إلى أعلى، وأعلى . . حتى اتخذت لى مداراً فوق . . فوق ما كنت أتصور!

* * *

لقد كان الغرض من رحلتى هذه أن أسافر فقط إلى ولاية كيرالا فى الهند وأن أكتب تحقيقًا صحفيًا عن الولاية الوحيدة فى الهند التى فاز فيها الحزب الشيوعى بحكومة ١٠٠٪ . . وقد ثار حزب الحكومة المركزية على هذه الولاية واتهم حكومتها بالطغيان والاستبداد، والتدخل فى معتقدات الناس، وتغيير كتب التاريخ . . .

وقابلت رئيس وزرائها نامبود ريباد. وهو رجل متوسط القامة ممتلئ، وله رأس كبير، وقابلنى حافى القدمين، وكذلك أولاده . . وكان يضع يده على رأسه كلما سألته سؤالا، وكنت كلما تطلعت إليه لأسمع الجواب، كانت حركات يديه تخفى صورتى لينين وماركس على الحائط وراءه . . وفى كل مرة ينفعل كنت أنحنى أجمع الكتب التى سقطت على مكتبه وكلها عن ستالين! . .

وكان هذا الحديث الذى دار بينى وبينه هو الصاروخ الذى دفعنى إلى الدوران حول الأرض . . فقد نشر هذا الحديث فى نفس اليوم الذى سقطت فيه الوزارة فى كيرالا!

ونقلت الحديث وكالات الأنباء العالمية. فقد كنت الصحفى الوحيد الذى قابله فى أثناء الأزمة . . وكنت آخر من خرج من مكتبه، متوقعًا هذه الكارثة له . .

* * *

وبعد ذلك سافرت إلى التبت لأقابل الدلاى لاما . . وقابلته . . وتحدثت إليه عن حياته، عن أزمته . . وعندما طلبت أن أقابله، رفضت السلطات، فذهبت إليه فى بيته، ورفض الحراس أن أقابله . . وقابلت وزراءه وادعيت أننى مريض قادم من مصر، وأن شفائى على يديه . . ونقلونى له على محفة . . وأنا ملفوف بكل ما عندى من بطاطين. فقد كنا فى الصيف، وكان الجو بارداً جداً فوق الهملايا . .

ومن تحت البطاطين والأغطية أخرجت الكاميرا وصورته . . . وصورت أمه لأول مرة في حياتها ولأول مرة فى العالم!

* * *

وسافرت إلى جزيرة سيلان بحثا عن العشرين عامًا التى قضاها الزعيم أحمد عرابى باشا . . ذهبت إلى المكتبة . . وذهبت إلى صحيفة «الأوبز رفر» الإنجليزية التى هاجمت عرابى باشا طول مدة إقامته . وحصلت على وثيقة نادرة سجلت فيها الصحيفة كيف كان نزول عرابى وأصحابه إلى الجزيرة . . وكيف كان وماذا كان يأكل . . وكيف أن الصحف الإنجليزية اندهشت جداً عندما سئل عرابى باشا : هل الدين الإسلامى يحرم تعليم البنات؟ فأجاب : لا . . وسألوه : هل يحرم تعليم البنات لغة أخرى غير لغة القرآن؟ فأجاب : لا . . وسألوه : هل الدين الإسلامى يتنافى مع الطب؟ فأجاب : لا . . فقالوا له : حتى لو كان الطبيب الذى يكشف على زوجتك ليس من دينها؟ فأجاب : لا .

وذهبت إلى البيت الذى كان يعيش فيه فى مدينة كولومبو ولا يزال يقتسمه اثنان أحدهما صحفى والآخر طبيب . وذهبت إلى البيت الذى كان يعيش فيه بمدينة كاندى . . ومكتوب على هذا البيت باللغة الإنجليزية «عربى باشا» بحذف الألف . . وينطقونها أيضا هكذا . وقد أخبرنى أصحاب البيت أن جدهم قد أوصاهم بالاحتفاظ به كما هو ، دون تغيير . .

وقابلت عميد مدرسة الزاهرة الإسلامية وأطلعنى على وثيقة نادرة عن يوم افتتاح هذا المعهد الدينى الكبير . . وكيف حضره عرابى باشا وكيف أنشد له الطلبة نشيداً جميلا . . ونقلت الوثيقة وترجمتها ونشرت النشيد . .

* * *

وفى إندونيسيا زرت مواطنة مصرية جميلة ولطيفة وكريمة اسمها فوزية . . وهى متزوجة من أحد أبناء إندونيسيا ، الذى يملك مصنعًا للزجاج فى مدينة بوجور . . وكان معى فى هذه الزيارة سفيرنا العمروسى والصديق لطفى متولى ملحقنا العسكرى فى ذلك الوقت ، والدكتور محمود رضوان مستشارنا الثقافى . والصديق أحمد والى ملحقنا الصحفى فى جاكرتا فى ذلك الوقت . .

وفى إحدى الجلسات أطلعتنى السيدة فوزية على تحضير الأرواح عن طريق «السلة» . . ولم أصدق فى أول الأمر . . ولكن لاحظت أن كل الذين معى رجالا ونساء

يصدقون. وأعادت التجربة . . ووسط البخور والهدوء والآيات القرآنية . . رأيت السلة وهى تتحرك وتكتب . . ولاحظت أن هناك اثنين يحملان السلة وأنها تتحرك وتكتب بلغات مختلفة . .

واستحضروا أرواح بعض المصريين . . ولاحظت أنها تكتب . . وأنها تكتب بعض النكت المصرية . . ولم أصدق أيضا . .

وأخذت عربة السفير والتقطت من الشارع اثنين لا أعرفهما . . وحملا السلة، ورحنا نتلو الآيات القرآنية ونلتزم الهدوء . . وكانت السلة تكتب بلغات لا يعرفها معظم الحاضرين . . فقد كانت تكتب بالألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية، وهى لغات أعرفها جيدًا .

إلى أن طلبت من الحاضرين أن يستحضروا روح المرحوم والدى . . وكتبت السلة أنه لا يريد أن يحضر . . فشعرت بشىء من الارتياح . وقلت لابد أنها أكذوبة . . وأخيراً حضرت الروح وكتبت .

ولم تنته دهشتى فقد كان خطها طبق الأصل من خط والدى، وخصوصا إمضاءه .

وكتبت عن هذه الظاهرة . . ولا أعرف حتى الآن أى تفسير علمى لما حدث!

وعندما سافرت إلى مانيلا قابلت سفيرنا الظواهرى، وهو ابن الشيخ الظواهرى، شيخ الأزهر الأسبق .

وروى لى أن له أخًا كان مغرمًا بتحضير الأرواح وأنه منذ وفاة أخيه، يكره هذه السيرة . ولا يحب الكلام عن الأرواح، ولكنه مع ذلك يؤمن بوجودها .

وبعد أن تحدثت إليه عن الأرواح، أصابه الفزع، فهو لم يعد يستطيع أن ينام فى الظلام . . لابد أن تضاء المصابيح كلها .

وهذا ما أصابنى أنا . . فلم أتمكن من النوم فى الظلام حتى بعد أن عدت إلى القاهرة . . وكنت أخجل من السيدة والدتى ــ التى قالت عنها السلة إنها مريضة جدًا ــ وكانت مريضة فعلا، وكنت أتظاهر بأننى أقرأ فى الليل . . وكانت والدتى تنهض من فراشها وتطفئ النور وأنا نائم . . فكنت أنزعج وأعيد النور . . وظللت كذلك وقتًا طويلا .

وفى إحدى المرات خجلت من هذا الفزع الصبيانى، فأطفأت النور. . ولم أعد أفتحه عندما أنام.

* * *

وسافرت إلى جزيرة بالى. . أقصى جزيرة فى إندونيسيا ذات الثلاثة آلاف جزيرة!

وهى جزيرة غريبة نساؤها عاريات. . لا يلبسن شيئًا فوق الحزام، أى النصف العلوى كله عريان تمامًا. . وهن لذلك فرجة!

* * *

وسافرت إلى أستراليا، وهى القارة التى لم يرها صحفى عربى قبل ذلك. . وناديت بأن تكون لنا سفارة وأصبحت لنا سفارة، وقابلت فيها المصرية الوحيدة التى تعمل فى أحد المطاعم. . ولكن وجدت ٣٥ ألف لبنانى. وقابلت أفراد أسرة أسكيف. وكلهم من أصحاب الملايين وكان أحدهم يبيع الأقمشة على ظهر حصان. وفى إحدى الحفلات التى أقامتها الجالية اللبنانية للقنصل الدكتور كريم عزقول. . ارتفع الستار. . وسمعت موسيقى عبد الوهاب وأغانى أم كلثوم.

وشعرت بالسعادة، فقد كانت حفلة تكريم لفن بلادى وعظمة بلادى.

وفى أستراليا عندما كنت أجلس مع الرسميين كانوا لا يعرفون اسمى. وإنما كانوا يقولون: يا مستر ناصر. . قل لنا يا مستر ناصر. . أو ماذا رأيت فى بلادنا يا أحد أبناء ناصر.

وكان يسعدنى أن أسمع اسم ناصر فى أستراليا. . وكانوا يسألوننى: هل صحيح لم يعد عندكم أجانب؟ فأقول: عندنا أكثر مما عندكم؟ ويسألوننى: هل صحيح أنكم تكرهون الإنجليز؟ فأقول: لا نكرههم. . ولكن نكره الاحتلال. .

وكانوا يقولون - وهم أبناء إحدى دول الكومنولث البريطانى - نحن نكره الإنجليز. . وكنت أقول عندما كانوا مستعمرين كرهناهم. .

* * *

وسافرت إلى الفلبين ولم أتمكن من رؤية السبعة آلاف جزيرة التى تتكون منها. . اكتفيت بثلاث جزر فقط. واحدة منها يسكنها ثلاثة أرباع سكان الفليبين. والثانية عبارة

عن مطعم صغير والثالثة كان قد أغرقها المد بالليل . . وذهبنا نتفرج عليها عندما ينسحب عنها ماء المحيط الهادى . .

وأرجو أن أتمكن من زيارة بقية الجزر!

* * *

ورأيت جزيرة هونج كونج هذه المستعمرة البريطانية التى يملكها مليون صينى وتقع على حافة الصين التى يسكنها ٧٠٠ مليون صينى. إن هونج كونج أجمل فترينة فى العالم كله . . فيها المال والجمال، فيها العملية البسيطة جدّا التى كان يحلم بها أجدادنا جميعًا وهى كيف يتحول التراب إلى الذهب . . وفيها العملية البسيطة التى نعرفها كلنا ونمارسها كلنا وهى كيف يتحول الذهب إلى تراب .

* * *

وفى اليابان سافرت إلى جزيرة اللؤلؤ وكتبت لأول مرة فى الصحافة العربية عن كيفية صيد وتربية وزراعة وصناعة وتجارة اللؤلؤ فى اليابان.

وانبهرت وشعرت بسعادة لا حد لها وأنا فى بلاد كلها ألوان وفن وحياة وحيوية . .

* * *

وعندما سافرت إلى جزر هاواى ركبنا من مدينة هونولولو طائرة خاصة وراح زميلى أحمد يوسف كبير مصورى «أخبار اليوم» يصور بالألوان البركان الذى ثار، والذى كانت تحوم حوله كل الطائرات المسافرة من اليابان إلى أمريكا ومن أمريكا إلى اليابان . . وكنا نطير فوق البركان وكنا نشعر بحرارة النار، ونحن فى داخل الطائرة . . لقد درنا فوق الفوهة التى مساحتها عشرات الأفدنة، أكثر من ستين مرة . . درنا حتى دخنا . . والتقطنا أول صور فى العالم عن هذا البركان . . فقد كنا إلى جوار البركان يوم ثار . . ووصلت إليه الطائرة بعد ساعتين . .

ونشرنا صور البركان فى مجلة (آخر ساعة) قبل أن تنشرها مجلة «لايف» الأمريكية التى أرسلت أربعة من كبار مصوريها . .

* * *

وفى أمريكا ألقيت نظرة أخيرة على الفاتنة الرقيقة الحزينة الراحلة مارلين مونرو . . ولا تزال عبارتها : إزيك يا أنت . . ترن فى أذنى . . فقد عاشت وحيدة محبوسة فى جمالها، وفى مجدها وفى قمم الشهرة والمال والجمال، وماتت من شدة البرودة.

فكل القمم باردة، وكل القمم ضيقة.

* * *

وعندما عدت إلى أوربا كانت هذه المرة الأولى التى أدخل فيها أوربا عن طريق أمريكا . . ولكنها كانت المرة السادسة عشرة التى أزور فيها أوربا من جديد . .

* * *

وأنا لا أدعى أننى ألممت بكل شيء . . ولا رأيت كل شيء . . ولا حتى رتبت هذا الكلام، وإنما نشرته كما كتبته . . بنفس الانطلاق والسرعة والمرح . . فقد كان المرح والسخرية هما «التعويض» الوحيد الذى كانت تناله نفسى من التعب والإرهاق والوحدة.

فقد كنت مسافراً وحيداً . . فى يدى حقيبة بها ملابس قليلة جدّاً، وكلما بليت الملابس ألقيتها واشتريت غيرها . .

وقد مللت السؤال الذى لا يتغير فى جمارك العالم كله : هل هذه كل أمتعتك؟

فأهز رأسى قائلا : نعم.

ويسألوننى : لماذا؟

ويكون ردى : أريد أن أكون خفيفًا . . فلا أستطيع أن أحمل حقيبة ثقيلة، وقلبًا ثقيلاً أيضًا!

وقد جاءت صفحات هذا الكتاب صورة لأفكارى ومتاعبى ومشاكلى . . فقد كتبتها، جالسًا مقرفصًا . فى سريرى، هربًا من البعوض، وأحيانًا خوفًا من الأفاعى والعقارب، وكتبتها تحت أشجار الموز، وكتبتها فى ظلال جوز الهند، وعلى منضدة أستأجرتها من حديقة الدومين فى مدينة سيدنى، وكتبتها على مصابيح الجيشا فى كيوتو، وسجلتها وأنا مريض، وسجلتها وأنا خائف من الطريق الطويل الذى لم يمش فيه أحد قبلى . .

وكنت أتفاهم بكل اللغات التى أعرفها، وكنت أتفاهم بالإشارة. . وكنت أتفاهم عن طريق التراجمة، وعن طريق تراجمة للتراجمة. .

وأنا أتمنى أن يكون عندى وقت لكى أكتب كل رحلاتى إلى أوربا والشرق الأوسط وأفريقيا، بتفصيل وعمق. .

* * *

وسيرى القارئ أننى فى هذا الكتاب أحاول أن ألعب على كل أصابع البيانو، البيضاء والسوداء. ولا أستطيع أن أدعى أننى عزفت لحنًا عظيما، ولكنه لحن فى استطاعته أن يأخذك، أن يجعلك تعتذر عن موعد غرامى جميل!

وقد جاءت بعض فصول الكتاب غير متناسبة، وأحيانًا كنت أكرر بعض المعانى، تمامًا كالمطرب الذى يعيد ويزيد!

وقد حذفت عشرات من الفصول السياسية لدرجة ستجد أنك أمام صفحات قليلة عن دولة أقمت فيها كثيرًا مثل الفلبين!

فقد حدث أننى سافرت إلى الهند ومن الهند إلى سيلان ومنها إلى سنغافورة، ومن سنغافورة إلى إندونيسيا ومن إندونيسيا إلى الهند مرة أخرى. فقد جاءتنى برقية تطلب منى أن أسافر فورًا لأكتب عن الصراع بين الهند والصين. . وبعد ذلك عدت إلى سنغافورة ثم إلى إندونيسيا ومنها إلى أستراليا. . فأنا أذكر الهند وإندونيسيا فى أماكن متعددة. . فكثيرًا ما كتبت عن الهند وأنا فى إندونيسيا. . أو فى أستراليا. .

وبرغم مرضى وعذابى ومخاوفى وطول الطريق، وانتقالى من الحر فى الهند إلى الجليد فى أستراليا، إلى الحر والمطر فى الفلبين إلى المطر فى هونج كونج، إلى العواصف والرعد فى اليابان، إلى الدفء والبراكين فى هاواى، إلى الجليد فى نيويورك. . رغم كل هذا كتبت ولم أتوقف عن الكتابة!

ولكن يعزينى عن هذا كله : أننى رأيت الدنيا، وأننى درت حول العالم. . وأننى رأيت من العالم أكثر مما يراه رواد الفضاء المحبوسون فى براميل من المعدن تنطلق بسرعة ٢٨ ألف ميل فى الساعة وعلى ارتفاع ٢٠٠ ميل عن الأرض. . لقد رأوا الدنيا من فوق، ولكنى مشيتها، رأوا الغابات والمحيطات، وأنا رأيت المدن والقرى والناس. .

ويعـزينى أن المـلايين تمنـوا أن يفـقـدوا نصف عـمـرهم أو ثلاثة أرباع عـمـرهم، وأن يسافروا مثلى ـ هكذا قال المشير عبد الحكيم عامر للأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين!

وقـد حـاولت فى هـذا الكتـاب أن أقـدم بعـض مـا تمنوه. وأتمنى لكل قـارئ أن يسـافـر مثلى، وألا يتعذب مثلى، وأن يسافر هو وأهله وأحب الناس إليه. لا أن يسافر وحده. وليس له أحد، ولـم يكن له أحد يودعه عند سفره من القاهرة، ولـم يكن له أحد يستقبله عند عودته إلى القاهرة.

خرجت وحيداً، ورجعت أكثر وحدة!

* * *

والمسافر كما يقول المثل الإنجليزى: يجب أن يكون له عينا صقر ليرى كل شىء، وأن تكون له أذنا حمار ليسمع كل شىء، وأن يكون له فم خنزير ليأكل أى شىء، وأن يكون له ظهر جمل ليتحمل أى شىء، وأن تكون له ساقا معزة لا تتعبان من المشى. وأن يكون له ـ وهذا هو الأهم ـ حقيبتان: إحداهما امتلأت بالمال والثانية امتلأت بالصبر!

وقد حفظت هـذا المثل جيداً.. وإن كنت قد نسيت كثيراً ما الذى أفعله كالصقر وما الذى أفعله كالحمار.. ولكن لم أنس أن أكون جملا وأن أصبر. فاللّه مع الصابرين. وقد كان اللّه معى.. لقد أنقذنى من الموت عدة مرات.. أنقذنى من بعوض مرض الفيل، وأنقذنى من الغرق، وأنقذنى من الضياع فى الغابات..

وكنت أقول دائما: إنه دعاء أمى.. فليس لها فى الدنيا من عمل سوى أن تدعو لى.. وهى كثيراً ما تدعوا الله وكنت أندهش لهذا الإسراف فى الدعاء، وهذا الإلحاح على اللّه. ولكن عندما رأيت الدنيا، ومتاعب الدنيا الواسعة، أدركت أنها على حق، فهناك أشياء كثيرة لم أكن أعرف أنها تستحق الكثير جدّاً من عناية الله!

* * *

ولم أنس طول الرحلة هؤلاء الجبابرة من المغامرين من أمثال ماركوبولو.. وابن بطوطة.. ولم أنس الذين داروا حول العالم فى سفن شراعية مثل ماجلان وفاسكو داجاما.. وكولومبوس وأمريكو فسبوتشى.. هؤلاء العباقرة الذين ركبوا سفناً بدائية فى محيطات مجهولة. وفى ظروف بدائية.. بلا طعام ولا دواء ولا خرائط.. لقد كنت أذكرهم فى كل قارة اكتشفوها وأنحنى إجلالاً لهم.

ولم أنس أبدا تلك الرحلة الوهمية الساحرة التى كتبها القس سويفت بعنوان «رحلات جيلفر» . . فهذا البطل جيلفر قد ألقت به السفينة فى بلاد الأقزام . . وربطوه بالحبال وسحبوه إلى قصر الملك ، وانتقل من بلاد الأقزام إلى بلاد العمالقة ، وكان الأطفال يلهون به بسبب الشبه الشديد بينه وبين الإنسان . . ثم ألقت به الأمواج إلى أرض المثقفين وهم أناس فى حالة غيبوبة عقلية ولديهم مشاريع وهمية . . ووراء كل واحد منهم خادم يذكره بماذا يريد أن يقول ، وماذا يريد أن يقترح . . وبعد ذلك سافر إلى بلاد السحر . . فهناك رأى كل عظماء التاريخ ، الذين أكدوا له أن التاريخ كله كذب فى كذب ، وأن المؤرخ يكتب ووراءه مدفع الحاكم القوى ، فهو يكتب تاريخ الرجل القوى . . ألقت به السفينة بعد ذلك إلى أرض فيها أناس فى غاية البلاهة ؛ وهؤلاء الناس تحكمهم خيول فى غاية العقل . . واحتاروا فى أمر جيلفر هل يعتبرونه إنسانًا أى غبيًا مع أنه ذكى ؛ أو هل يعتبرونه حصانا ذكيًا مع أنه ليس حصانا . .

وأخيرًا طردوه لأن له جسم الإنسان وذكاء الحصان ! !

وبعد ثلاث سنوات من هذه الرحلة التى أدرك فيها جيلفر أن كل شىء فى الدنيا نسبى . . فأنت طويل فى بلاد الأقزام . . وقزم فى بلاد العمالقة ؛ وغبى فى بلاد الخيول ، وكذاب فى العالم الآخر . وبعد هذه السنوات من العذاب والهوان ، دق باب بيته . وفتحت له الزوجة الباب ، ثم طبعت قبلة على خده .

وهو منذ تلك القبلة الكريمة الباردة أخذ يكره الإنسان ويحب الحيوان . . وكلما ازدادت معرفته بالناس ، ازداد عشقه للحيوان !

ولم أجد أحدًا يقبلنى عند عوتى ، ولا أحدًا أقبله .

وحمدت الله ، فأنا أحب الناس ، فى كل مكان . . ولا أريد أن أكره أحدًا كما فعل جيلفر فى كل البلاد .

فأنا أحب الأسود والأسمر والأصفر والأبيض . وكل إنسان مربوط بظروفه . . وكل إنسان مدفوع إلى الأمام بتاريخه . . والعالم يتكلم بعدة لغات وعدة مصالح .

ورأيت أن الفوارق بين الناس قليلة جدًا . . فكل الناس تحت الجلد متشابهون !

* * *

إننى لم أعرف الكثير جدًا من هذه الدنيا ، ولم أعرف إلا القليل جدًا من نفسى . . فعيناى مفتوحتان على الدنيا ، ولكننى بلا عينين عندما أنظر إلى داخلى . . إلى الزحام فى

داخلى . . إلى الوحشة المظلمة فى أعماقى . . إلى الإنسان الذى نسيته يصرخ ولا أسمعه ولا أتبينه . . ولا أعتقد أننى سأستطيع يومًا ما . . فقد اتسعت المسافة بينى وبينه . . أو . . بينى وبينى . . وإنى فى حاجة إلى ترجمان . ترجمان صديق . . يخبرنى ماذا أريد أن أقول لنفسى . . ماذا أريد من نفسى ، ماذا أستطيع . . ما الذى أقدر عليه . .

إن كل الذى استطعت أن أعرفه فى دورانى حول العالم هو أننى أستطيع الكثير . . وأن كل إنسان يستطيع أن يفعل الكثير . . أن يأكل رغيفًا فى اليوم ، وأن يعمل عشرين ساعة . . دون أن يتعب .

ففى كل إنسان قوة هائلة ، لا يستطيع أن يستغلها . .

وفى كل إنسان كنز من الحيوية والقدرة على الفهم والقدرة على الاحتمال والصبر .

وأننا لا ننفق من هذا الكنز إلا القليل . .

وأن الإنسان يأكل ويشرب وينام أكثر مما يجب .

وأنه يعمل أقل مما يجب . .

وأنه يخاف أكثر مما ينبغى . .

وأنه لا يعرف نفسه . . وأنه لا يعرف حدوده الشاسعة الواسعة . .

وربما كانت هذه عدوى فلسفة «اليوجا» . . فلسفة الاحتمال والصبر . . فلسفة الزهد فى الحياة . . فلسفة السلام مع الناس ومع النفس . . فلسفة معانقة الجوع والعطش . . فلسفة التمرد على الخوف والتمرد على الجبن . .

وربما كانت هذه الفلسفة هى المرض الوحيد الذى أصابنى وأنا أنتقل من معبد إلى حانة ، ومن حانة إلى غابة . . إلى جبل . . إلى قمة جبل . . إلى طائرة فوق محيط فى أثناء عاصفة والناس نيام . . والظلام حالك . . فوق السحاب . . ساعات من الاستسلام . . لا أسمع إلا محركات الطائرة . . أما قلبى فكان لا يدق . . كأنما كان يكتفى بقلب آخر فى مصر يدق من أجلى . . ويخفق لى . .

وعدت إلى مصر الغالية العزيزة . .

وفى الطائرة ألصقت فمى بالنافذة أقبل بلادى، وفى المطار مددت ذراعى أعانق كل الناس.. فبلادى هى أكرم بلد وأهلى هم أطيب الناس!

* * *

وانتهت رحلة الغريب فى عالم غريب..

أنيس منصور

القاهرة فى نوفمبر ١٩٦٢

الهند

كل شيء كثير!

بعد لحظات في مدينة بومباى ستشعر بأنك لست غريبا . . ولا أحد غريب عنك ، وإذا حاولت أن تتجه إلى أى إنسان ، فقد لا يتجه إليك . احتراما لحريتك الشخصية فى الحركة ، وفى اختيار أى اتجاه يعجبك . وفى الوقت نفسه من الممكن أن يتجه ناحيتك أى إنسان عن غير قصد . فتظن أن عدم القصد فى الحركة والاتجاه هى ظاهرة عامة . ولكن من المؤكد أن أحدا لا يصطدم بأحد . . على نحو ما يحدث عندنا فى شوارع القاهرة .

ففى القاهرة فى استطاعتك أن تجد شللا من الناس يمشون بالعرض وعلى مهل ، كأن الشارع خال تماما . وكأنهم وحدهم المشاة . ويدهشهم جدا أن يقوم واحد مثلك بتنبيه الناس إلى أن هذا شارع عمومى . والدهشة التى ستراها على وجوههم ليس معناها أنك نبهتهم إلى حقيقة لم يكونوا يعرفونها ، وإنما نبهتهم إلى أنك قليل الذوق فقط!

وفى الهند فى استطاعتك أن تستغنى عن أذنيك . فكل الذى تسمعه لا معنى له ، فهم يتكلمون لغات كثيرة ولهجات كثيرة جداً . حتى اللغة الإنجليزية وهى إحدى اللغات الرسمية فى الهند ، لهم طريقة خاصة فى نطقها . وعلى الرغم من أنهم يتكلمون الإنجليزية بشكل سليم ، من الناحية النحوية ، فإن اللهجة الهندية تجعلها لغة أخرى ويصعب عليك فهمها فى كثير من الأحيان .

أنا شخصيا حاولت ذلك فى الدقائق الأولى . .

وكانت النتيجة أننى أدركت أن معرفتى بالإنجليزية أحسن بكثير جداً من ملايين الهنود . وبينى وبينك أنا زودتها شوية . . لأن هناك هنودا بالملايين قد تعلموا فى إنجلترا!

ومعنى ذلك أنك من حين إلى حين ستعتمد على أذنيك فى التفاهم بهذه اللغة الإنجليزية . .

ولكن ستعتمد على عينيك أكثر . . .

فأنت ستملأ عينيك بأشكال وألوان لم تكن تخطر لك على بال . . فالوجوه غريبة جدًا . . وستلمح على الأقل فى أى جهة تتجه إليها ، عشرين شخصا فيهم شبه كبير جدا من المهاتما غاندى . . وفى أول لحظة قد تتصور أن هؤلاء الناس أقارب لغاندى . وبعد ذلك ستفهم أنه ليس من الضرورى أن يكون الأقارب متشابهين إلى هذه الدرجة . . ثم ستدرك بوضوح أنك فى الهند . . بلاد الديانات والخرافات والملايين والأمراض والفقر والزهد والتسامح وغاندى والماعز والبقرة والمغزل وشركة إير إنديا !

* * *

مطار مدينة بومباى غريب من أول نظرة . .

فهو مطار كبير . . والجو قاتم أو خانق . . فهو قاتم بالوجوه الكثيرة التى ازدحمت فى كل مكان والتى تنظر إليك دون أن تركز عليك . فلست الوجه الذى يستأهل الفرجة . فهناك ألوف غيرك قد نزلوا من الطائرات قبلك ومعك وسينزلون بعدك .

أذكر أننى عندما نزلت من الطائرة وجدت سيدة تبتسم . . ملامحها بيضاء وملابسها بيضاء أيضا . ولا أعرف إن كانت هذه وردة التى رأيتها فى شعرها أو بقعة حبر أحمر فاقع . . ولكن من المؤكد أن ابتسامتها شخصية جدًا . . أى موجهة ناحيتى . . وظننت ، وربما كان هذا وهمًا أو غرورًا منى ، أنها إحدى سيدات السفارة . موظفة . . سكرتيرة . . زوجة أحد الموظفين الهنود جاءت لاستقبالى . . ولاحظت أن ابتسامتها مليئة بالوعود : وعد بأن تجد لى لوكاندة مريحة . وعد بأن تقدم لى فنجانا من الشاى الهندى الذى على أصله . . وعد بأن أركب فى سيارتها وأرى المدينة كلها فى ساعات . . وعد بأن أجد لديها عددا من الكتب التى تعطينى فكرة شاملة سريعة عن هذه البلاد الواسعة . . وعد بأن تركز نظرتها على عينى أكثر ، وتركز ابتسامتها على ابتسامتى أكثر فأكثر . .

وخجلت من نفسى . . فقد كانت هذه السيدة لا تنظر إلى أحد . . وإنما تنظر فى كل هذا الاتجاه . . ولا تبتسم لأحد ، وإنما تبتسم للمطار كله . . وللطائرات كلها . . وللسماء الواسعة . . كانت ابتسامتها لله . .

فقد كانت عمياء !

وكأننى أكفر عن هذه الخطيئة، خطيئة النظر إلى سيدة عمياء، تصورت أن ابتسامتها من أجلى، ونظراتها من أجلى، وأنها جاءت من أجلى، رحت أنظر إلى الناس نظرة عامة . . وأبتسم لهم ابتسامة عامة . . كأننى أتفادى النظر إليهم، وأتفادى الابتسامة إلى واحد منهم .

وفى الزحام، وكل شىء هنا فى زحام، ضاعت ابتسامتى وضاعت نظراتى . . ورحت أتساند على أجساد الناس بعينى، حتى لا أقع فى دوامة الألوان . . ودوامة الروائح الغريبة . .

إن أول شىء يواجهك وأنت نازل إلى بلاد الهند، هى هذه الروائح . . إنها بحر آخر بالإضافة إلى بحر المطر . . وبالإضافة إلى بحر الرطوبة، وبالإضافة إلى بحر الناس . .

هذه الروائح لا تعجبك أبدا . .

لقد وهبنى الله ـ الذى لا يحمد على مكروه سواه ـ حاسة شم غير عادية . . فأنا أتعذب بها . لأننى أستطيع أن أشم روائح أشياء كثيرة لا يمكن أن تهتدى إليها الأنف العادية . وكثيرا ما توهمت روائح لا وجود لها . . تماما كما يحلم الإنسان وهومفتوح العينين . . فأنفى هو الآخر عنده أحلام يقظة!

ولكن فى الهند لم أعرف بالضبط ما اسم هذه الروائح : هل هى أطعمة أو بخور أو جثث موتى أو عرق . . وطين ومطر وأنواع أخرى من الطين لم أعرفها، ومن الرمل لم نسمع عنها . .

وعرفت بعد ذلك أنه يوجد فى بومباى أعشاب وأطعمة وأبخرة تتصاعد من الأرض . . ومن الحقول ومن البيوت والدكاكين، ومن الأجسام الحية والأجسام الميتة التى تحرم بعض الديانات الهندية دفنها، وإنما تتركها للصقور والنسور تمزقها وتأكلها وتطير بها . . أو تطير ببقاياها . . أو من الأجسام التى أحرقها أهلها بالزيت والدهن .

أما الرطوبة الموجودة فى الجو فهى عبارة عن ملايين من الستائر الرقيقة . أو ملايين الملايين من الخيوط الرقيقة التى تتعلق عليها هذه الروائح كأنها ملايين الملايين من الذباب والبعوض!

وعندما اقترب منى الجرسون طلبت إليه أن يحقق لى هذه الأمنية الغالية : كوبا من الشاى!

ويبدو أن كوب الشاى ليس أمنية ولا شيئا غاليا عند أحد من الناس فى الهند. ولعل لهجتى هذه قد أضحكته - إن كانت ترجمتى صحيحة لهذه الابتسامة المعكوسة على وجهه - فقد كان يبتسم من حاجبيه حتى شفته العليا وربما كانت هذه ابتسامة. . وربما كانت محاولة لعدم الاكتئاب . .

وطبيعى جدا ألا يكون كوب الشاى شيئا كبيرا فى بلاد الشاى. . تماما كما يطلب سائح أجنبى طبق فول مدمس فى مصر، ثم يتوقع من الجرسون أن ينحنى له إجلالا وإكبارا لأنه كلفه بشىء نادر!

فول فى مصر، وشاى فى الهند، وسمك فى اليابان، ونبيذ فى إيطاليا، ولحمة فى أستراليا، وأرز فى إندونيسيا، ليس بالشىء المهم!

وتذكرت ما فعلته فى إحدى المرات عندما كنت أزور ألمانيا لأول مرة من حوالى عشر سنوات. فقد طلبت من إحدى الجرسونات فى مدينة ميونخ أن تأتى لى بقطعة من اللحم المشوى، فضحكت الفتاة بصوت مسموع وضحكت أنا أيضا، ولكن لسبب آخر. فأنا ضحكت عن طريق العدوى. فالجو يعدى بالضحك والمرح. . وقد أخفيت بضحكتى هذه رغبتى الحقيقية فى أن أعرف بعد ذلك السبب الذى من أجله ضحكت هذه الفتاة. هل أنا أخطأت فى اللغة الألمانية؟ لايمكن. فالذى قلته لا يتعدى عشر كلمات. ويستحيل أن أخطئ فى لغة أتكلمها منذ أكثر من عشر سنوات. ولكن الذى حدث بعد ذلك جعلنى أصر على أن أعرف ما الذى أضحك هذه الفتاة الحلوة. وإن كنت فى ذلك الوقت لاحظت أن حلاوتها قد نقصت فى نظرى قليلا. فشعرها أكرت، وشفتها رفيعة جدا، ثم إنها تهرش عادة وراء أذنها، وليس سبب ذلك أنها تضع القلم هناك كثيرا، تماما كما يضع الفلاح خشب المحراث على عنق الثور أو البقرة، ولكن سبب ذلك أنها لا تستحم. . وقد سجل أنفى شيئا يدل على ذلك عندما اقتربت منى. .

وقررت أن أسألها لأنها همست إلى زميلاتها وروت شيئا فضحكن ضحكا عاليا. . وعندما عادت ومعها اللحم سألتها بإصرار، عن الذى أضحكها من كلامى. وتمنعت، ولاحظت أنها ليست أقل جمالا كما تصورت، وإنما هى جميلة فعلا. وأنها تضع الورود فى ملابسها. . وورودا حقيقية ثم عصيرا لهذه الورود أيضا. والذى قالته لى هذه الفتاة جعلنى أضحك من الذى قلته لها، وعلى الذى قلته للجرسون الهندى فى مطار بومباى أيضا. فقد قلت لها ما ترجمته بالعربية هكذا: بالله ألا سمحت لى بقطعة من اللحم المشوى جداً إن كان هذا ممكنا.

طبعا، عبارة سخيفة، ولغة أسخف. وإذا وجهتها أنت إلى أية فتاة فى مطعم أو حتى فى «مسمط» ولم تضحك فهى غلطانة.. وإذا لم تمسك هذه الفتاة أقرب ملاحة أو فوطة وتضعها فى فمك، فهى ولا شك لا تعرف معنى الكرامة الوطنية. فليست هذه لغة ولا لهجة!

وإنما عذرى أننى تعلمت ذلك فى الكتب.. علمونا أن نكون مؤدبين جداً. على أمل أن ننسى كلمة «جداً».. ونكتفى بأن نكون مؤدبين فقط!

وفهمت من الفتاة الألمانية أن هذه العبارة تكفى جداً: قطعة لحم مشوية من فضلك!

وفهمت أيضا أنه لا داعى لأن أقول عبارة «مشوية جداً». لأن معنى ذلك أننى أقطع كل أمل فى أن يستمر الكلام بينى وبينها.

فأنا إذا قلت لها: قطعة لحم فقط فسوف يدور هذا الحوار بيننا هكذا: تقول هى: قطعة لحم؟

فأقول: نعم.

وتقول هى: مشوية؟

فأقول: ممكن تكون مشوية جداً.

وترد هى: مشوية جداً إلى أية درجة؟

وأقول مندهشا: هل عندكم درجات للمشوى أيضا؟

وتقول وهى تبادلنى الدهشة بدهشة أخرى: وأنتم كيف يكون اللحم عندكم؟ أليس على درجات؟

فأقول وقد أحسست أن المناقشة قد أضيف إليها طعم العسل: والله فى مصر أفضل أن آكلها مسلوقة!

فتقول: هل تحب أن تأكلها هنا مسلوقة؟

وتسألنى بلهفة وكأن كرامتها قد جرحت، إذ كيف توجد لحوم مسلوقة فى مصر ولا توجد لحوم مسلوقة فى ألمانيا؟. وإذا كان عندنا نيل فى مصر فعندهم فى ألمانيا أنهار مثل الراين وفروعه: إذا كنت تريد لحما مسلوقا فهو موجود..

وكأننى انكسفت من أن أصبح تلميذا لواحدة فنانة شاءت الظروف أن تجعلها جرسونة فى مطعم : إننى سآكل أى شىء يعجبك أنت!

ولأول مرة أشعر بالامتنان للبعوضة التى لسعتنى فى قفاى . . فأعادتنى بذلك إلى مطار بومباى لألمس بيدى قدح الشاى فأجده أقل التهابا من قفاى . وأعادتنى إلى العبارة التى قلتها وأضحكت الجرسون الهندى . وقد فهمت فيما بعد أن ابتسامة هذا الجرسون ، تعتبر نوعا من القهقهة بالنسبة للهنود الذين لا يضحكون عادة .

فكأن هذا الجرسون قد قهقه بحاجبين عاليين جداً عندما قلت له : بالله أحضر لى كوبا من الشاى الهندى المعتبر إذا كان هذا ممكنا .

وواضح جداً أن سؤالى سخيف ، لأن هذه هى بلاد الشاى . ولابد أن يكون الشاى متوافرا ولابد أن تكون مهمة الجرسون أن يأتى بالشاى ، فى أى وقت لمن يطلبه . . سواء كان الطلب على طريقتى ، أو على طريقة الهنود . وفى الحقيقة لم ألاحظ هنديا واحدا يشرب الشاى خارج البيت . . ويظهر أنهم يفضلون عمل الشاى فى البيت لأسباب لم أعرفها حتى الآن . . أى حتى الساعات الأولى من وجودى فى مدينة بومباى!

وأشرت إلى الجرسون مرة أخرى أن يأتى لى بالصحف التى صدرت فى ذلك اليوم وحرصت بأدب واضح أن تكون باللغة الإنجليزية . ولا أعرف كيف استقبل الجرسون إشارتى إلى أن تكون هذه الصحف بالإنجليزية . لا أعرف كيف كان رد الفعل . خصوصا بعد أن لاحظ الجرسون أننى لا أثق فى ذكائه . . فأشار الجرسون بيده ورأسه بما يدل على أن هناك رجلا مختصا ببيع الصحف . .

وذهبت إلى البائع واشتريت الصحف ، وقلبت فيها ، ولم ألاحظ شيئا يلفت النظر . . وربما الذى لفت نظرى هو وجود صفحات أدبية . . ولاحظت أن هناك مناقشات تدور حول الأدب الأمريكى . . ورأيت صورة لكاتبة فرنسا الشابة ـ التى كانت شابة ـ فرانسواز ساجان . . ثم رأيت بعض النكت لبرناردشو .

وهززت رأسى كأننى شعرت بالاطمئنان على أن الأدب العالمى بخير . .

وخرجت من المطار لأتمشى فى الشارع . .

وهبت عواصف من الروائح العنيفة . . ورأيت على الأرض بقعا من الدم وعندما أطلت النظر إليها لم تكن دما . . وإنما لونها أقرب إلى الدم البنفسجى قليلا . . وهو اللون

المعروف فى الريف باسم «دم الغزال» . . ولم أشعر أننى فى حاجة إلى أن أسأل أحدا عن سبب وجود هذه البقع . . إنه نوع من اللبان يسمونه ـ بان ـ يمضغه الناس هنا . . ثم يبصقونه على الأرض، على عكس ما يفعله أبناء اليمن الذين يمضغون القات، ثم لا يبصقونه على الأرض، وإن كان هذا اللبان لا يصيب الناس هنا بالخمول، لأنه عبارة عن لبان نباتى . . فهو مجموعة من الأعشاب وثمار الأعشاب يصنعونها أويلفونها فى ورق، ثم يمضغونها . . وثمنها أغلى من ثمن اللبان الأمريكانى، وبائع اللبان يجلس على الأرض . . ومعظم الناس هنا أقرب إلى الأرض، وفى الليل تجد مئات الألوف نياما على الأرض . . دون أن يفصل بين أجسامهم وبين الأرض شوال أو سجادة أو حتى مخدة.

وبائع اللبان يبيعه فى ورق شجر . .

والناس كلهم يمضغون اللبان . . بائع اللبان وأستاذ الجامعة والوزير . . واللبان مفيد للأسنان، تماما كما نعتقد فى الريف عندنا أن «اللبان الدكر» مفيد للحلق أو مزيل للبلغم . . واللبان يغذى الأسنان ويصبغها بلون وردى . . وربما استفادت شركات معجون الأسنان العالمية من هذا اللون الأحمر فوضعته فى معجون الأسنان . . فمعجون الأسنان الفرنسى: إيماى ديامان لونه أحمر، وهو يصبغ اللثة بلون وردى. وكذلك معجون الأسنان الإنجليزى «سجنال» به مادة حمراء تشبه الأحمر الذى يضعه الهنود فى هذا اللبان . .

وربما كان الغريب فى أمر اللبان الهندى هو أنه يشبه اللبان الدكر؛ لأنه معروض بصورة بدائية . . وفى الوقت نفسه بشكل خام، ومن الأفضل تصنيعه محليا.

ولكن الذى يدهشك هو كيف يبصق إنسان محترم على الأرض، ولا أعرف إن كان السبب هو شعوره بأنه لا يضيف إلى الأرض شيئا بهذا البصق، فهى قذرة، وإن كانت هذه البصقات أشبه ببقع فى لوحة سريالية قاتمة . . أو ربما كان السبب هو أن اللون الأحمر لايخرج من المناديل مهما غسلوها. أذهلتنى هذه الفكرة . .

وكأننى توليت تعذيب نفسى فى كل مرة أرى واحدا يمضغ، فأظل طول الوقت أتوقع أن يبصق أمامى على الأرض!

وكثيرا ما خاب أملى، فحمدت الله على أن أكثر من عشرين شخصا لم يبصقوا أمامى على الأرض!

وبسرعة لاحظت أن الرجل الهندى رشيق. ممشوق القوام. وبين الهنود رجال طوال.. كالعمالقة.. ولاحظت أن بشرتهم مشدودة وإن كانت أميل إلى اللون الأصفر.. وهذا اللون خليط من الأصفر والأسود، ولمسة أزرق. أما الملامح فأوربية.. جرمانية.. الشفة رفيعة، والأنف دقيق، والعينان واسعتان، والفك انسيابى، والجبهة متوسطة، والشعر أسود فاحم ناعم.. كل الشعور سوداء فاحمة فى لون الليل فى الشتاء. والأسنان مستوية وناصعة البياض. ولا توجد أكراش.. كما أن أصابع اليدين رفيعة كأصابع عازفى البيانو..

ولكن أول ما يلقاك من الهنود هو رائحة غريبة يضعونها فى الشعر، وهى مستخلصة من جوز الهند.

أما السيدات فهن أميل إلى السمنة.. وخصوصا الأرداف.. وتضع كل واحدة نقطة حمراء فى أسفل الجبهة.. تدل على أنها متزوجة. وشعرها أسود جدا تحسدها عليه كل نساء أوربا وأمريكا.. ووجهها مستدير.. وشفتا المرأة أميل إلى الامتلاء.. وعنقها مسحوب.. وأذناها صغيرتان.. والمرأة الهندية يجب أن تستر كتفيها وساقيها.. أما ماعدا ذلك فليس عورة. فهى مثلا تكشف بطنها كلها.. كل الوسط وأسفل النهدين، وأعلى العجز. وسرتها تبدو واضحة تحت السارى الهندى الذى هو قطعة واحدة من القماش الحريرى.. قطعة واحدة ولا نعرف كيف تلفها حول نفسها.. الهنديات خارج الهند يراعين التقاليد طبعا، فيخفين هذا الجانب من الجسم. ولذلك لا يمكن أن نرى هندية واحدة فى شوارع القاهرة وقد عرت هذه الشقة الحرام من جسمها.. وإلا كانت فضيحة!

وهذه المنطقة من الهند ممنوع فيها شرب الخمور منعا باتا.. لا على الأرض ولا فى الطائرات ولا فى السفن القريبة من الميناء.. ومسموح فقط للأجانب وبترخيص خاص، وفى الفنادق فقط. أما فى الأماكن العامة فمستحيل. وعندما تهبط من الطائرة يسألك رجال الجمارك إن كانت معك خمور. فإذا كنت هنديا احتجزوا الخمور.. أما إذا كنت أجنبيا، فيسمح لك عادة بأخذ زجاجات الخمور معك!

وقد لاحظت منظرا غريبا وأنا مسافر فى الطائرات الهندية إلى نيودلهى.. لقد ارتفعت الطائرة إلى طبقة عالية من الجو. وشعرت بالبرودة الشديدة جدًا وطلبت من المضيف ـ فقد كان رجلا لأن الدنيا ليل ـ أن ينقذنى ببطانية.. ثم ببطانية أخرى.. ولكن

هذه الأغطية لم ترحمنى من الهواء البارد الذى يتسلل إلى قدمى من أرضية الطائرة وجوانبها وسقفها. وطلبت من المضيف الرجل أن يلحقنى بأى كوب شاى ساخن جداً. وأى إسبرين إن أمكن. وغاب ليعود معه كوب من مشروب بارد جداً لا أعرف طعمه.. وربما كان من المشروبات الغازية مثل الكوكا أو السيدر أو غيرهما.. وعدت أطلب إليه كوبا من أى شراب ساخن.. حتى من الماء الساخن.. ويبدو أن الساعة كانت متأخرة، وأننا على موعد مع الفجر.. ولا أعرف إن كانت الديوك تؤذن فى الهند.. أو أن الفيلة هى التى ترفع زلاليمها، ابتهاجا بقدوم الفجر.. ولكن الرجل لم يعد. أو لعله انشغل عنى بشىء ما.

وأشار جارى بأن آخذ لى «بُقّا» من هذه الزجاجة التى فى يده وكان تحت الغطاء والدم يضرب فى عينيه وفى وجهه، وأنفاسه اللاهثة تتعالى، وزجاجة الخمر تكاد تسقط من يده.. ولكنى رفضت أن أرتكب هذه المخالفة لقانون البلاد، أيا كانت الأسباب. وحتى لو فكرت فى أن أخالف القانون، فليس بهذه الصورة، ولا بهذه الزجاجة.. ولا يمكن أن يكون فمى هو الثانى، وفم هذا الرجل المخمور هو الفم الأول.

وعندما اقترب المضيف منا، سحب جارى زجاجته، وأخفاها تحت الغطاء وتعالى شخيره.. واعتقد أن المضيف قد يعرف هذه الحيلة.. ولأنه رآها كثيرا. فلم يشأ أن يهتم.. وأشار برأسه أنه هو شخصيا لا مانع عنده من أن أدفئ نفسى بجرعة من هذه الزجاجة، وأنه سيبعد عنا وبذلك يتستر علينا. وناولنى كوبا من الشاى الساخن..

وكل ما أحسست به هو حرارة الكوب، وحرارة السائل الذى فى داخله.. أما طعمه فأنا لا أعرفه، ولم أتبينه بوضوح..

وبعد ساعات من الطيران المؤلم اكتشفت أن جارى قد ألقى بالزجاجة تحت قدميه.. لقد أفرغها على الأرض بشىء من الامتنان، فقد كانت الزجاجة صاحبة الفضل الأول والأخير فى أنه اشتعل بالدفء، وفى أنه نام.. وفى أن نومه كان شخيرا عاليا، فأطار النوم من عينى ومن عيون أناس آخرين إلى جوارنا!

وفى ضوء النهار الذى تسلل إلينا من فوق السحاب. ومن تحت السحاب رأيت وجوه الناس بوضوح. لقد كان معظمهم من الهنود.. وإن كان الرجل الجالس إلى جوارى فاتح اللون.. فهو رجل إسبانى.. مع أن ملامحه لا تفترق عن الهنود فى شىء..

وقد بادرنى هذا الرجل بالكلام.

وكنت ألمح من النافذة المساحات الواسعة جداً للأراضى الهندية.. لونها أميل إلى الحمرة.. تماما كلون قرع العسل.. أو فى لون المانجو الهندى. والمساحات الخضراء واسعة ولونها قاتم.. ولم أستطع أن أتبين نوع النبات المزروع فى التربة..

وعرفت من الرجل الإسبانى أنه سينزل فى فندق اسمه «فونسيكا» وسألته إن كان لهذا الاختبار أى سبب واضح فأجاب بأنه يعرف هذا الفندق، وأنه يتردد كثيرا على الهند.

وعرف أننى مصرى فهز رأسه وهو يقول لى : مصر والهند.. مهد الحضارة الإنسانية.. فأنت لن تشعر بالغربة فى هذه البلاد.

وعرفت فيما بعد أنه كان محقا فى آرائه عن الهند.

فهم أناس طيبون جداً، وفى غاية الهدوء. وحبهم للسلام قائم على شعور عميق. وكراهية الهنود لإسالة الدماء تنبع من أعمق أديانهم وتاريخهم.. فالزهد هو العنصر المشترك فى كل الديانات الهندية.

ففى الهند أناس لا يأكلون اللحوم، ولا المواد المستخرجة من الحيوانات فلا يشربون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا الجبن، ولا يأكلون البيض، ولا السمك، ولايذبحون الأبقار.. لأن البقرة مقدسة، وهى رمز الحياة والخصوبة. وهى حيوان سعيد فى الهند. وسعادة البقرة واضحة فى دلالها ودلعها وتمخطرها فى الشوارع.. فى أحسن الشوارع.. وفى دخولها أحسن المحلات دون أن يمسها أى إنسان..

أما الثور فعلى الرغم من أن أمه بقرة وجدته بقرة، وابنته بقرة أيضا، إلا أنه ليس محترما، وتنطبق عليه أقسى القوانين والعقوبات. فهو منبوذ.. وفى الهند فئة من المنبوذين عددها حوالى ٦٠ مليون نسمة.. ولاأعرف بالضبط عدد الثيران. ولكن هذا الحيوان المنبوذ يجر العربات ويحرث الأرض ويضربه الفلاحون على قفاه ليل نهار. واليد التى تضربه على قفاه، هى اليد نفسها التى ترتفع بالتحية لأمه أو لجدته أو حفيدته!

ولم ألاحظ أن هناك أية تفرقة جنسية عند الهنود غير هذه التفرقة بين الثور والبقرة!

وظلت كلمات هذا الرجل الإسباني ترن في أذني وقتا طويلا، وربما كان سبب التصاق كلماته في أذني أنه قالها بلهجة أعجبتني. أو أنه قالها في لحظة كنت أتهيأ فيها عقليا لفهم الحياة في الهند. وإن كنت أخالفه في رأيه في الهنود إذا تقاتلوا فلا حدود لهذه المعركة.

لم أعرف بالضبط ما الذي يقصده، ولا أي أنواع الهنود، فأنا لم أر شجارا في الهند، لم أر اثنين قد أمسك واحد منهما في خناق الآخر لأتفه الأسباب كما يحدث في إسبانيا وإيطاليا واليونان وتركيا، ومصر!

ورويت لهذا الإسباني ما الذي أصابني عندما زرت إسبانيا، وكيف أنني لأسباب تافهة جدا، وجدتني في خناقة دامية مع إحدى بائعات الفاكهة في مدينة مدريد.. مع أنني لم أتجاوز حدود الأدب، إلا إذا كنت قد نسيت أن أقول لسيدة غجرية تبيع التفاح بالواحدة ياصاحبة العصمة!

وتشاء الصدفة أن يكون فندق «فونسكيا» هذا قريبا من سفارتنا بنيودلهي.. وصاحب هذا الفندق رجل برتغالي، والبرتغال كانت لها مستعمرة صغيرة على الشاطئ الغربي للهند اسمها «جوا»، وكلها من الهنود ولكنها نقطة ارتكاز قديمة جدا للبرتغاليين عندما رست سفنهم من مئات السنين على ساحل الهند؛ وقد استردت الهند هذه المستعمرة بعد ذلك..

وكل موظفي هذا الفندق من أبناء «جوا» أيضا..

ولهم طريقة خاصة في الكلام. ولسبب غير واضح يفخرون بأنهم من هذه المستعمرة الصغيرة.

وفي هذا الفندق عدد كبير من الأوربيين. ومن الغريب أنني وجدت معظمهم من أبناء السويد والنرويج، ولا أعرف ما الذي يبيعونه إلى الهند، ربما كان الورق والحديد والصلب.

وقد أعجبني هذا الفندق، ففيه مطعم أوربي وفيه أيضا أطعمة أوربية. وهم يحرصون على أن يقدموا الطعام الأوربي. فمثلا يقدمون الشوربة الساخنة، مع أن الجو نار والعة. وهم حريصون على أن يقدموا المسطردة. والمسطردة والعة نار أيضا.

والهنود يأكلون أطعمة حريفة.. حراقة.. وهم يضعون هذه الشطة أو هذا الفلفل

على كل طعام وشراب. بل لاحظت أنهم يضعون ذلك على الحلويات. على السكر مثلا. وعلى الجاتوه الذى يقدمونه مع الشاى. وهذه ظاهرة موجودة فى كل البلاد الحارة. فعلى الرغم من أن الشمس تتولى وضع الشطة فى كل شعاع، وفى كل حجر وفى كل نسمة هواء إلا أن أهالى البلاد الحارة لا يكتفون بهذا القدر من الشطة الشمسية فيضيفون هذه الشطة النباتية.

ربما كان السبب هو أن حرارة الجو تؤدى إلى كسل فى الكبد. وإلى خمول فى الجسم، فيحس أبناء البلاد الحارة بانسداد أنفسهم عن الطعام. وربما كان عدم الإقبال على الطعام الذى سببه الجو، هو الذى دفعهم مع ذلك إلى الزهد، فالزهد والتقشف ليس شيئا صعبا وليس شيئا غير طبيعى. وإنما هو حالة تمليها الضرورة؛ فالزهد يتمشى مع انسداد نفوس الناس عن الأكل والشراب؛ فهم لا يريدون أن يجعلوا تقشفهم بلا ثمن.. بلا مقابل.. ولذلك يجعلون للإضراب عن الطعام معنى دينيا. ربما يجازيهم الله عليه!

واشتهار هذه المناطق الحارة بالشطة والفلفل وكل التوابل. هو الذى استدرج الأوربيين إليهم. وجعلهم يخوضون حروبا دامية من أجل الحصول على التوابل، حتى كانت التوابل تساوى وزنها ذهبا.

وغرف هذا الفندق، مقفلة ليلا ونهارا. وطبعا كل فندق أيضا تفاديا للحرارة والذباب والبعوض. وفى الهند وحدها مئات الأصناف من البعوض وفيها كل أمراض البعوض والذباب وفيها كل حشرة خلقها الله، لها أصل وفصل ومعجبون وضحايا.. ثم علماء يدرسون ويسجلون حركاتها. وفى الهند مراكز للأبحاث لها سمعة عالمية..

وفى الغرفة ـ غرفتى طبعا ـ يوجد جهاز تكييف.. أو على الأصح جهاز تبريد هوائى. وهو يجعل درجة حرارة الغرفة باردة. ولكن يسمح فى الوقت نفسه بدخول الرطوبة. ولأن هواء الغرفة بارد طول الوقت كنت أحتاج إلى كثير من أكواب الشاى. ومع أكواب الشاى يدخل البسكويت والمربى والبيض واللبن والزبدة والجبن، ونظرات لا أنساها من عيون الجرسونات.. فيها الكثير من النقد وفيها الكثير من الإشفاق. وفيها أكثر من ذلك: خوف من هذا المتوحش الذى يأكل كل هذه الممنوعات دون أن تنطبق السماء على الأرض. أين عدالة السماء؟ أين رحمة الأبقار؟ أين غضب الآلهة؟ كيف تسكت على أجنبى مثلى يأكل البيض ولا تنهد الدنيا، ويشرب اللبن ولا تزحف مياه المحيط فتغرق الهند من أجل هذه الخطيئة التى يرتكبها بنظام: ثلاث مرات فى اليوم!

وبشعور من يريد أن يؤكد لهذا الجرسون المسكين أن هذه ليست مخالفات لقانون السماء، كنت آكل البيض وأشرب اللبن في حضوره ؟ فلا السماء وقعت، ولا هو اقتنع!

ولا أدعى أبدا أن شجاعتى قد لازمتنى طول الوقت . . أبدا. لقد تخلت عنى منذ نزلت أرض بومباى. لقد دخل جسمى الكثير من المخاوف، لقد أصبحت أنا الخوف نفسه . . الخوف من ماذا ؟ لا أعرف. الخوف من أن أصاب بأى مرض؟ لا أعرف . . أى الأمراض ؟ إننى خائف بصفة عامة.

وعلى الرغم من أن المستشار الصحفى فى سفارة الهند فى القاهرة قد أفهمنى أنه لا داعى للخوف. فهذا الخوف إهانة له . . وإهانة لخمسمائة من ملايين الهنود يعيشون فى سلام ومعظمهم لا يعرف المرض . .

ولكن رغبتى فى أن أعرف، هى التى تغلبت على خوفى، فأنا أريد أن أعرف بأى ثمن . . أريد أن أمشى فى شوارع الهند وحواريها. وأن ألمس أبقارها وأن أملأ أنفى ببخور معابدها . . ما الذى يمكن أن يحدث ؟ لا شىء!

إن الدكتور فاوست الذى تحدثت عنه أساطير العصور الوسطى باع نصف عمره لكى يعرف . .

إن حواء هبطت من السماء إلى الأرض . . وضحت بالسماء وجنة السماء، لأنها أرادت أن تعرف . . أن تعرف طعم التفاحة. أو طعم المعصية فقررت أن تعرف. فكأنها اختارت المعرفة، بأى ثمن. لو كان ذلك هو النزول إلى الأرض. وكانت تلك الأرض هى الهند!

إننى لا أبالغ فى قيمة ما سأعرفه . .

ولكن الذى جعلنى أبالغ هو خوفى الشديد من كل مرض. وسبب خوفى هو أننى أجهل الطب. وسبب خوفى أيضا أن الأمراض قد لازمت حياتى. ولا أقول لازمت جسمى. فقد رأيت المرض فى بيتنا . . لم يبرحه . . وحتى الآن . . وقد رأيت الأطباء يدخلون ويخرجون . . يدخلون وجيوبنا ملأى، ويخرجون وجيوبنا فارغة. وجيوبهم ليست ملأى أيضا. فالذى كان يملأ جيوبنا الصغيرة، لا يمثل إلا ركنا هزيلا من جيوبهم الكبيرة!

وعندما ذهبت إلى سفارتنا، جلست إلى شاب لطيف من موظفى السفارة وراح

يحدثنى عن حياته فى الهند ثم كشف لى عن عنقه . . لقد كان ملتهبا . وقبل أن يغطى عنقه مرة أخرى أشار إلى أ ن عنقه ملتهب منذ أربع سنوات . . وعندما غصت فى مقعدى وأسأله عن السبب أجاب بأن مياه الهند مليئة بالطفيليات . وأن الأرض تختلط بالمستنقعات والمجارى وأنه لا يمكن لإنسان أن يشرب الماء فى الهند إلا إذا كان مغليا . . ولا أن يستحم طبعا!

وهنا تأكد لى جهلى الشديد بطرق غلى المياه وتطهيرها . ومررت على كل موظفى السفارة أسألهم ما الذى يفعلونه كل صباح . كيف يشربون ؟ كيف يغسلون وجوههم وأجسامهم . وإن كانت الإصابة بمثل هذا المرض الجلدى تظهر بعد أيام أو بعد أسابيع أو بعد سنوات . . ثم كيف تكون الوقاية منه . . وكيف يكون العلاج إذا لم تنفع الوقاية ؟

وأتيت بزجاجات الكولونيا . . وزجاجات الكحول . . تماما كما كنت أفعل فى باريس .

فالفندق الذى نزلت به فى باريس فى الحى اللاتينى كان اسمه «نيودلهى» أيضا ! وهو بالقرب من ميدان سان ميشيل . وليس بهذا الفندق دش ولا حمام . . ومعظم الفنادق والبيوت فى باريس ليست بها حمامات . وإنما عليك أن تحمل ملابسك وتستحم فى أحد الحمامات العمومية . والحمام العمومى يبعد عن اللوكاندة مئات الأمتار . . أو إذا كنت كسولا ، ولابد أنك كذلك ، ما دمت فى بلاد حارة وذهبت إلى باريس فى الربيع أو فى الصيف فعليك بزجاجات الكولونيا . . والزجاجة كان ثمنها عشرة قروش . ثم هات قطعة من الإسفنج وبللها . . وامسح جسمك كله . . كل يوم . وعلى فكرة معظم رجال ونساء باريس لايعرفون الماء . ويقال إن هذا هو الشىء الوحيد الذى تعلمه محمد عبدالوهاب من فرنسا لأنه يستخدم الكولونيا فى الاستحمام!

ونصحنى بعض الأصدقاء من غير الهنود طبعا ، أن ألقى بالكحول على جسمى بعد الاستحمام بالماء الساخن . ونصحونى أيضا بأن أحلق لحيتى بعد الحمام حتى لا تتسرب الطفيليات إلى دمى ، خصوصا أن دمى يسيل بعد كل مرة أحلق فيها . وهنا أدركت أن إطالة اللحية فى الهند حكمة طبية . . فهم يهربون من الطفيليات الموجودة فى الماء بأن يتركوا شعرهم يطول ولا يسيلون دماءهم بأمواس الحلاقة . بعض الهنود فقط من طائفة السيخ هم الذين يفعلون ذلك . وعددهم حوالى مائة مليون نسمة . ثم يضع هؤلاء السيخ سيفا صغيرا إلى جوار اللحية دليلا على أنه ليس بسبب البخل أطالوا لحاهم . والدليل

على ذلك أنهم وضعوا آلة الحلاقة إلى جوار الشعور الملفوفة فى شبكة تشبه الشبكة التى تضعها المرأة عندنا، قبل ذهابها إلى الحلاق، أو إذا كانت على البلاج وتخشى من الهواء، هذا إذا كان شعرها ناعما. أما إذا كان خشنا، فهذه الخشونة تجعله فى مأمن من الهواء طبعا!

ونصحنى آخرون بأن أطيل لحيتى . . وإطالة اللحية فى الهند شىء غير ملفت. وربما ظن بعض الناس أننى مجامل للهنود. أو أننى توطنت . . تماما كما يفعل المستشرقون الذين يزورون البلاد العربية . . أو كما يفعل الفنانون فى باريس!

وأطلقت لحيتى أسبوعا. وبدأت أشعر بالوخز تحت الشعر. وخشيت أن أهرش. وتفاديت الهرش بالفعل لأن الهرش سيؤدى إلى ظهور دمامل. وأخشى أن تلتهب الدمامل وبذلك تصبح أكثر تعرضا لأى مرض جلدى. وبإرادة من حديد، لم أهرش مطلقا. ولكن فى يوم ضبطت نفسى متلبسا بالهرش فى أثناء النوم! وحلقت لحيتى بالمقص . . ثم بالموس . .

وبعد ذلك كنت أستخدم الكولونيا، فكانت تلسعنى وتكوينى كأنها مليون موس حلاقة . . وكأن هذه الأمواس جميعا نوع من ماء النار المتجمد!

ولاحظت فى الصحف الهندية أنه لايوجد إعلان واحد عن أمواس الحلاقة. وهذا طبيعى. ولم ألاحظ أيضا أى إعلان عن صابون الحلاقة. واستنتجت من ذلك أن هناك أمواسا أخرى يصنعونها فى البيوت. وأن هناك نوعا من الصابون يصنعونه فى البيوت. أو ربما كانوا يلجئون إلى استخدام بودرة نباتية. تزيل شعر الوجه واللحية. والشارب أحيانا . . ووجدت هذا النوع من البودرة. وخوفى من الجروح ومن أمواس الحلاقة ومن الطفيليات، جعلنى أفكر فى استخدام هذه البودرة. ولولا أننى خشيت فى آخر لحظة أن تكون لهذه البودرة آثار مؤذية لا أعرفها لاستعملتها!

وفى يوم جلست بغرفتى المخنوقة . .

ولابد أن أصف شكل الغرفة لتعرف كيف جلست. الغرفة بها سرير ـ طبعا بها سرير ـ والسرير بالضبط تحت جهاز التكييف. ولو نمت والجهاز مفتوح فسأقوم من النوم وأنا لوح ثلج. ومعنى ذلك أننى لن أقوم. وإذا أقفلت جهاز التكييف ونمت. فمعنى ذلك أننى سأقوم من النوم مسلوقا، أى غارقا فى شوربة من العرق.

وكان الحل هو أن أغير وضع السرير.

وغيرت وضع السرير والمقاعد والمناضد والأباجورة.

على كل حال جلست أمام المنضدة فى نفس الوضع السابق..

ووجدت أن عواصف من جهاز التكييف تلسعنى فى جنبى.. فأدرت المنضدة والمقعد إلى وضع آخر.. وضغطت على الجرس.. وبعد دقائق جاء الخادم لأطلب منه أن يعاوننى على إصلاح جهاز التكييف وأن يقفل الحنفية التى ينزل منها الماء بصورة تضايقنى وأن يربط مفتاح النور لأنى أخشى أن تؤدى هذه الرعشة الموجودة فى اللمبات إلى عمل ماس وإحراق الغرفة وتعطيل جهاز التكييف.

وبدون أن يقول لا أو نعم أو حاضر أو ربما أو حتى يهز رأسه ضرب الباب وراءه واختفى.

وبعد دقائق جاء نفس الجرسون ومعه ثمانية أشخاص. واستوضحته عن سبب مجىء كل هؤلاء الأشخاص؛ فقال لى إنهم سيصلحون كل ما فى الغرفة: واحد لإصلاح التكييف والثانى لإصلاح النور والثالث لإصلاح الحنفية والرابع لإصلاح المقعد الذى أجلس عليه فقد شكا منه زبون سابق ونسيت إدارة الفندق أن تصلحه.. أما الخامس الذى جاء بعد ذلك فهو يريد مجموعة من طوابع بريد مصر!.. أما السادس فهو أحد سعاة السفارة.. والسابع هو سائق التاكسى الذى نسيت أن أدفع له الأجرة.. والثامن الذى جاء بعد ذلك فهو صاحب التاكسى جاء يسألنى كم دفعت للسائق لأن العداد كان مكسورا!

وهذا هو أول استقبال رسمى قابلتنى به نيودلهى عاصمة الهند العظيمة بسكانها الذين يبلغ عددهم ٤٩٠ مليونا وبضع مئات من الألوف!

باسم الله ..

سأدعوك إلى مطعم «موتى محل» أشهر المطاعم الشعبية فى الهند . . المطعم صغير . . وعلى بابه يقف أحد الهنود فى درجة حرارة تشبه درجة حرارة أسوان فى المصيف . ووراء باب المطعم توجد درجة حرارة أقل من ذلك بثلاثين درجة مئوية . عدد المناضد قليل . الإقبال شديد جداً على هذا المطعم .

لا تحاول أن تقرأ قائمة الطعام . فغيرك أشطر . ضع إصبعك على أى شىء واطلبه من الجرسون .

أنت لا تعرف ما الذى ستأكله . . كثيرون مثلك حاولوا وفشلوا . سيأتى لك «الجرسون» بأكواب من الماء، نصف باردة ؛ فهم فى الهند لا يشربون الماء المثلج . إنهم يواجهون الحرارة القاتلة . . بشرب الشاى . . والشاى فيه سكر قليل . . وهو طبعا أحسن من أى شاى تشربه فى القاهرة فى أى مكان . شاى له ورق وله طعم ولون ورائحة . . ما علينا !

وبعد الماء ستحضر السلطة . أشكال وألوان . كثيرون من الأجانب عندهم حب استطلاع شديد . أكلوا من كل شىء . . وفى نهاية كل صنف ينفخون من النار . . من الشطة يعنى !

هناك أرز به قطع من الفراخ . . لا بأس .

وهناك مكرونة بها أشياء ، أغلب الظن أنها جبنة ومعها بعض الطماطم . وطعم آخر لا يمكن أن تعرفه . . ومن الصعب عليك أن تعرفه . . لأن كل ما تستطيع أن تقوله للجرسون : إيه الرائحة دى ؟!

لا داعى فقد تكون هذه هى رائحة الجرسون نفسه . ويصبح سؤالك بائخا جداً . ولكن

بعد التجربة والرمرمة فى الأكل، وجدت أن أحسن طعام هناك هو «التندورى» وهذه هى الكلمة الهندية الوحيدة التى عرفتها بعد ساعة من وصولى إلى المدينة ، إنها فرخة كاملة . . فرخة شكلها غريب . مصبوغة باللون الأحمر، أحمر فاقع . . لقد غمسوها فى هذا اللون ٢٤ ساعة . والفرخة مشدودة ممطوطة . . جناحاها طويلان ورجلاها طويلتان . وعلى ظهرها أثر كدمات . أو آثار ضرب عنيف . . هكذا تصورت . . فقد وجدت هذه الفرخة المشوية بها علامات عميقة فى جسمها . وتخيلت أنهم فى الهند ينطلقون وراء الفراخ ويضربونها حتى تموت ثم يرمونها فى اللون الأحمر . وبعد ذلك ينقلونها إلى النار، ثم إليك !

ولكن الأمر مختلف عن ذلك . فهى فرخة عادية . ذبحوها، ثم صنعوا بها هذه العلامات العميقة فى جسمها . بعد أن سلخوها تماما كالأرانب . وهذه العلامات تسهل عملية وصول النار إلى جسم الفرخة، ثم وضعوا فيها بعض الفلفل أو بعض الشطة . قليلا جدا .

أما فيما عدا هذه الفرخة فلا يوجد طعام يستحق الذكر فى الهند كلها . . هذه الفرخة هى العلامة المميزة للمطبخ الهندى .

نسيت أن أقول لك إنه لا داعى لاستخدام الشوكة والسكين . . بيدك أحسن وأسهل . . ولست وحدك الذى يفعل ذلك . . فكل الناس حولك يأكلون بهذه الطريقة . ومع هذه الفرخة يقدمون لك نوعا من الخبز يشبه الرقاق وهو على هيئة أوراق الشجر الكبيرة . واسم هذا الخبز «بان» وطعمه لذيذ .

وبعد ذلك أطلب أى فاكهة طازجة . . فهذا أفضل وأحسن . . المانجو هنا ثمن الرطل منها يساوى قرشين أو أقل من ذلك . فهى أرخص وأكثر أنواع الفاكهة هنا .

بقى شيء مهم . انتظر سيقدم لك الجرسون مجموعة من الحبوب والحجارة ، مد يدك إليها، لا تخف . إنها مجموعة من الينسون والحبهان والمستكة وقطع من سكر النبات . . ونباتات أخرى لم أعرفها حتى الآن ولكن سأسأل عنها فيما بعد . تستطيع أن تضع منها ما تشاء فى فمك . يقولون إنها تساعد على الهضم . .

وأنت حر فى أنت تأخذ هذه الأعشاب المهضمة هنا فى المطعم أو أمامه . . فأمام المطعم يجلس رجل يبيع اللبان، نوعا ممتازا من اللبان . هذا اللبان عبارة عن خليط كبير من أعشاب وأملاح ونباتات وبهارات . . تصل إلى العشرين . . ويضعها لك فى ورقة شجر .

وعليك بعد ذلك أن تمضغها . سيكون لونها أحمر . . سيمتلئ فمك . سوف تحرك شفتيك كالجمل تماما . . تمضغ وتنفخ . وإذا ظهر شيء من بين أسنانك أو نزل على شفتيك فلا تمسحه . فالناس حولك كذلك . . انظر إلى نفسك في المرآة عندما تعود إلى البيت . لا تخف من نفسك ستبدو كأنك أكلت إنسانا بدمه . . وفي استطاعتك أن تبصق على الأرض وأمام الناس . وإذا رفعت رأسك إلى أعلى بحركة عصبية وظن الناس أنك محافظ العاصمة فلا تكذبهم . . فهو يفعل مثلك تماما !

وستكتشف أن اللبان ليس أكلة شعبية . . أبدا ، فثمنها غال . . يصل إلى روبية . والروبية ثمنها حوالى سبعة قروش . . .

والناس هنا يجدون متعة في مشاهدة بائع «اللبان» وهو «يحوج» هذه المضغة ويختار لها الألوان البيضاء والحمراء والصفراء والسوداء . . وكلما تأخر البائع في عملية الخلط كان معنى ذلك اهتماما خاصا بالزبون . .

وإذا لم يكن يعجبك هذا «اللبان» الهندى فإليك أى لبان آخر لا قيمة له كاللبان الأمريكاني أو اليوناني . . وعليك أن تواجه احتقار الناس إذ كيف تبلغ بك الغباوة هذه الدرجة فتتصور أن هناك في الدنيا لبانا أحسن من اللبان الهندى ؟!

وعلى فكرة ، أنت طبعا أعجبك الأكل . . إنه لذيذ وغريب . . وهو أكل أرستقراطى . . بقى شيء أهم من هذا كله ، ويؤسفنى أن أقوله لك . ولكن الصراحة لا عيب فيها . . عليك أن تضع يدك في جيبك وتدفع حسابك . . فنحن في الهند . . ويجب أن تفعل كما يفعل أهل الهند . . فلا أحد هنا يدعو أحدا إلى الغداء أو العشاء . .

فادفع الحساب لنفسك !

مرة أخرى . .

وهذا منظر آخر : محل جايلورد في نيودلهى . . المحل ضيق والأضواء خافتة وفيه تكييف هواء . . وتدخله أحسن العائلات . .

الزمن : الساعة الخامسة بعد الظهر . الأمطار شديدة جدّاً . . والحرارة مرتفعة خانقة . .

في اللحظة التى أدخل فيها المحل . . أرى فتاة تبتسم وأحييها فترد التحية . وأفسح لها الطريق فتتقدمنى .

وأشير إلى أحد المقاعد . . فتجلس . .

ويجيء الجرسون فأسألها ماذا تريدين فتهز رأسها . . فأقول للجرسون : تعال بعد شوية . .

وأقترب منها قليلا دون أن أسألها عن شيء . .

أنا : تعرفى أن ملامحك شرقية خالصة . . مش كده !

هى : . . . .

أنا : طبعا أنت شرقية ، أمال يعنى هى الهند دى غربية . . أما سؤال بايخ صحيح .

هى : . . .

أنا : تعرفى أن البنات فى بلدنا لما الواحد يعاكسهم يعملوا زيك كده . . برضه ما يردوش . .

هى : . . .

أنا : قال إيه دلال . . وقال إيه تقل . . على كل حال بعض الرجالة بيحبوا الدلال ده . لأن هذا يغرى الراجل أكثر . . يخليه يحس أنه أمام حاجة صعبة . . وإنه لازم يعمل مجهود كبير علشان يكسبها . . يخطفها . . لأن الراجل بطبعه صياد يحب يمسك بندقية ويضرب . ويحب يخطف البنت من أنياب الأسد ، ويمكن مفيش هناك لا أسد ولا أرنب . . والبنت عارفة الحكاية دى . . تلاقيها هى كمان تسوق فيها . . مش بس كده . وأول ما تعرف أن الرجل متعلق بيها . . تقول له : فلان خطبنى . . وفلان بيتكلم . . وفلان بيتقدم . يعنى هى عاوزه تخلق له أكثر من أسد وتحط نفسها بين أنيابهم . وعليه هو بقى أن يشدها من هذه الأنياب الوهمية . . إشمعنى العرسان والخطاب ما ظهروش إلا دلوقت ؟ كانوا فين قبل كده؟ المهم أن البنت عاوزه تخلق صعوبات للراجل . . وأكثر من كده . . تروح تكلمه عن أهلها وأصلها وعن أخلاقها . وتحط نفسها فوق فوق . . يعنى فوق جبل علشان يحفى وراها . . يطلع لها الجبل كمان . . برضه مش عاوزه تردى؟ زى بعضه . . أنا حافرض إنك مش موجودة . وأكلم نفسى . أنا عاجبنى الكلام . . الله يا واد إيه الحكم وإيه الكلام اللى زى الجواهر اللى بتنزل من بقك؟ برضه مش عاوزه تضحكى؟

هى: . . . .

أنا: وفيه حاجة بتعملها المرأة . . تتظاهر بأنها خلاص وقعت فى دباديب الراجل . . ويشعر الرجل بأن المرأة تخلت عن دلالها وتقلها . وأنها لم تستطع أن تقاومه . . وينبسط وكرشه يكبر . ويقول يا واد مفيش منك . طبعا الرجل حمار لأنه مش فاهم إيه الحكاية . . ولو كان الراجل ياخد باله من الصياد لما ييجى يضرب بالرصاص يلاحظ أن الرصاصة عندما تخرج من البندقية أحيانا تكون شديدة لدرجة أنها تخليه يقع على الأرض . ولكن فى الوقت نفسه تكون الرصاصة قد أصابت الفريسة . . فاللى يشوف الصياد وهو واقع يتهيأ له أن الرصاصة جات فيه هو . . فى حين أنه هو القاتل . . وكذلك المرأة اللى يشوفها واقعة ومستسلمة كده . يتهيأ له إنها هى القتيل مع أنها القاتلة . برضه كلامى ما لوش معنى؟ طيب جاملينى . . قولى كده حاجة تدل على إن إحنا قاعدين مع بعض . . بينى وبينك أنتم أكثر منا كلاما . . أنا لم أجد هنا فى بيت واحد عندكم راديو ولا حتى فى سيارة ولا فى مكتبة . . وعرفت الحقيقة وهى أن الهنود كل واحد قد بلع الراديو اللى عنده . . فالراديو اختفى من البيت وظهر على ألسنتهم . . علشان . . كده كلامكم كثير . . بايخة النكتة دى؟

هى: . . .

أنا : طيب اضحكى . . اجبرى بخاطرى . . أنتم كده وحشين مع الأجانب . . برضه مش حتتكلمى . . هزى رأسك زى أنا ما عملت للجرسون . . اغمزى بعينك . . طيب اعطسى . طيب خدى نفسك ، انفخى بمناخيرك زى كلب البحر . على فكرة إحنا عندنا أكبر جنينة حيوانات فى الدنيا . . وفيها حيوان زيك . ساكت زيك . . بلاش حكاية الحيوانات دى . .

هى: . . .

أنا: يعنى عاوزة تفهمينى أن الهنود مع الأجانب بالشكل ده ؟!

هى: . . .

«ويجىء الجرسون يسأل ماذا نريد» .

أنا: اتنين حاجة ساقعة . . دا حتى انتم أخذتم البرود من الإنجليز مع أن بلادكم نار فى

نار . . الهـواء نار . . والشـمس جـهنم . . والأرض والعـة . . والشطة والعـرق والرطوبة . . حاجـات تخلى الواحـد يتـجنن . . أنا كنت أفـهـم إن لما واحـد يـيـجى يعاكسك زيى . . طبعا دى مش معاكسة ولا حاجة كنت تيجى واخداه . .

هى : . . .

أنا : بالحضن على طول . . برضه مش عاوزه تضحكى خايفة من الناس . . إنت عارفة كام واحد شايفك دلوقت . . مائة واحد . . كلهم بيقولوا عليك كلاما لا يعجبك . كلهم بيقولوا إيه البنت البايخة دى . . إيه الحجر ده . . إيه البقر ده . . مش عاجبك ده سيبيه . . قولى له يسكت . . إنما على رأى المثل : لا أنا عاوزك ، ولا قادر على بعدك . . إنت مكسوفة منى ؟

هى : (ضحكت وهى تنظر إلى ناحية من المطعم) . . .

أنا : (نظرت فوجدت رجلا بكرش ومعه فتاة صغيرة) اسمعى إنت عارفة أنا قابلت كم راجل فى بلدكم دى . . مئات من الوزراء والسياسيين والصحفيين والأدباء والرهبان والسواقين . . ولم يضايقنى إلا رجال السلك الدبلوماسى . . قعدتهم تقرف . . تصورى إنت إنك قاعدة مع راجل طول الوقت يقول لك : ربما . قد يكون . فيما أعتقد . . من المحتمل . . من المفروض . . كلام بالشكل ده . . يقرف ولا لأ . . طبعا يقرف . وأنا لما أشوف واحدة زيك وأرمى نفسى عليها كده . . من غلبى . وحياتك من غلبى كل الكلام ده . ويعنى كويس كده إنى أتكلم طول الوقت وإنت ساكتة . . برضه من غلبى . والله ، ماشفت واحدة حلوة من نهار ما جيت البلد دى .

هى : . . .

أنا : يا نايمين قوموا اسحروا . . يانايم وحد الدايم . . يانايمة نامت عليكى حيطة . يا بت ردى . . يابت انطقى . . نشفت ريقى الله ينشف . . طريقك فى البلد اللى غرقانة مطر وطين دى . .

هى : . . .

أنا : شوفى بقى . . أنا حاغنى لك بشويش . . مش عاوزه تسمعى أغانى بلدنا . والله فيه شبه كبير من أغانيكم . . أقول لك إيه . . أقول لك : عطشان يا صبايا . . أقول لك

النحل يا هوه . . أقول لك واحد اتنين . . خمسة فى ستة بتلاتين يوم . . اسمعى أغنية يقولها الناس فى الفلاحين عندنا : يا عم جوزة من الهند متركب عليها غاب . . ومدندشة بالدهب ومجمعة الأحباب . أنا خت منها نفس والعقل منى غاب . . ياعم جوزة من الهند . . الله الله . . ياسلام ياواد . ياسلام . اسمحى لى أبدى إعجابى بنفسى وكمان حاسقف لنفسى . التسقيف هنا فى بلدكم مالوش المعنى اللى عندنا . . أقول لك حكاية بقى . . طيب قولى أيوه .

هى : . . .

أنا : زى بعضه كأننى باتكلم فى الراديو . أحكى لك حكاية . أول ما جيت البلد دى . ضربت الجرس ما جاش الجرسون . مرة واثنين وثلاثة . . وبعدين زهقت . فوقفت قدام باب الأوضة ولقيت جماعة من الجرسونات واقفين فقعدت أسقف لهم . والتفتوا جميعا ولكن ولا واحد منهم اتحرك . . وإنما راحوا يضحكون وأنا مندهش جدا . . أسقف وبرضه عاملين بيضحكوا . . مش فاهم أنا . . وأخيرا ناديت واحد منهم . ولما دخل الأوضه قلت له : إزاى يا أخى أنا عمال أسقف ومفيش واحد منكم راضى يتحرك . فقال لى : احنا كنا فاكرين حضرتك حترقص . لأن التسقيف عندنا فى الرقص بس . ولكن مش علشان تنادى الجرسون . . وعلشان كده إحنا وقفنا مبسوطين منتظرين نشوف رقص بلدكم ! .

هى : . . .

أنا : الله يوجع دماغك .

(وأخرجت من جيبى بعض النقود ووضعتها فى الطبق وأشرت إلى الجرسون وقمت) .

هى : إلى أين أنت ذاهب يا قيس ؟

أنا : إيه؟ بتقولى إيه؟ وبتتكلمى عربى فصيح يخرب بيتك . طيب قولى كده من الصبح يا فضيلة الشيخة . .

هى : أدينى قلت يا دلعدى . . .

أنا : وكمان بالبلدى ؟ إنت منين . . وساكتة ليه طول الوقت . . ومين جابك هنا؟

هى: جابنى هنا . . حضرتك .

أنا: حضرتى يعنى إيه ؟

هى: طبعا أنا جاية علشان حضرتك . . لأنك مش حتعرف طريق البيت . . وأدينى جيت أنا والسواق . . وهو واقف بره . .

أنا: سواق بتاع مين؟ .

هى: بتاع الناس اللى إنت معزوم على الغدا عندهم . .

أنا: يابنت الإيه . . وإنت بتشتغلى عندهم إيه . .

هى: مربية . .

أنا: مربية لمين . . دا الأستاذ اللى انت بتشتغلى فى بيته معندوش أولاد . . يمكن مربية له هو . .

هى: إيه بقى الكلام ده . .

أنا: . . .

هى: سكُت ليه؟ بقى علشان ما أنا لابسة سارى وسمره شوية وشعرى له ضفيرة بقيت هندية خلاص . . بقيت شكل الناس دول . . مفيش حاجة تخلينى أفترق عنهم . . الدم . . مش باين . .

أنا: الدم إيه . . دمك كان واقف ولا قاعد أنا عارف . يقطعك ميت حتة . .

هى: ياللا بينا . .

أنا: بينا إزاى؟ بس أفهم . . إيه اللى خلاك انكتمت طول الوقت . . إيه خلاك قاطعة النفس مرة واحدة كده . .

هى: هو إنت إديتنى فرصة . . أنا بصيت لقيتك دخلت فى عبى مرة واحدة كده . . وهات يافلسفة . والناس اللى قاعدين قدامنا هناك فى الركن قعدوا يقولوا من بعيد لبعيد . . اسكتى . . ما تتكلميش . خليه هو يتكلم . . وأنا لما كنت بضحك كانوا همه اللى بيضحكونى . .

أنا: ناس مين دول؟ أنا ماشفتش حد خالص!

هى : ده . . اللى اسمه مش عارفه إيه . . اللى ساكن جنبينا . .

أنا : عرفته الكلب . . هو اللى عمل الفصل ده .

هى : مش تقوم بقى ؟

أنا : آه نقوم بقى . . أنا تعبان شدى إيدى . .

هى : ياه . . للدرجة دى . . إنت زعلان منى ولا إيه ؟

أنا : وأنا حازعل منك ليه . . بس أنا عاوز الناس اللى شافوك ساكتة يشوفوك وإنت بتتكلمى ويشوفوك وإنت بتشدينى . . وبتتحايلى علىّ علشان أقوم . يعنى عاوز رد اعتبار لكرامتى . .

هى : تكونش عاوز تغنى . .

أنا : عاوز والله . . قولى معايا : كسفوه . . كسفوه . . ولما جه يتكلم كبسوه . . . كبسوه . .

هى : ياريتنى فضلت هندية على طول .

أنا : يا ريتك . . كنت لقيت حاجة أكتبها .

هى : بقيت وحشة دلوقت ؟

أنا : بس لازم أنا اللى أمشى قدامك . . فى الهند كده . .

(ووقفت أمام الباب . . وتقدم منا السائق) .

هى : صحيح . . . تعرف بقى حضرتك إن كل الكلام اللى أنا قلته ده تمثيل فى تمثيل .

أنا : إزاى بقى؟

هى : تعرف بقى إنِّى مش مربية عند فلان ده . . تعرف أنِّى زوجة صاحب السيارة دى .

أنا : يانهار إسود . . إنت مراته . . ياخبر . والله أنا آسف جدّاً . . إنما بقى الكلام اللى أنا قلته ده مدح لذوقه . . إنه راجل عنده ذوق وعرف يختار . .

هى : أيوه عرف يختار مراته لكن ما عرفش يختار أصحابه . .

أنا: لأ . . أرجوك مش للدرجة دى . ثم إنى ما أعرفكيش . .

(وتوقفت السيارة فجأة . . وظهر صديقى وركب إلى جوار السائق).

أنا: أهلا إنت فين ؟

هو: «ينظر إلى الفتاة» فين إزاى؟ . مش راحت تجيبك. مش كان فيه ميعاد بيننا . . أنا أرسلت لك أخت مراتى . .

أنا: مين ؟

هو: مين إيه ؟ مش واخد بالك ؟ ليه حصل حاجة؟ . دى أخت مراتى إزاى مش عارفها يا أخى : إنت مش قابلتها يوم حفلة السفارة . .

أنا: اسمع . . أرجوك ! وقف العربية . . نزلنى هنا . . أنا دماغى حيطق. . نزلونى . . نزلونى هنا . . يا فرقة ممثلين. . يا فرقة الريحانى وإسماعيل ياسين يا فرقة كاريوكا. . نزلونى . .

هو وهى: على فين ؟

أنا: أروح أكتب الكلام ده كله . .

«مفيش ستار علشان ينزل».

صاحب القداسة رفض!

فى الصباح الباكر جاءت الصحف . .

والصحافة فى الهند ممتازة . . صفحاتها أنيقة . والطباعة جيدة. والموضوعات معروضة عرضا ممتازا. وأسلوب الصحفيين هنا لا يختلف عن أى صحفيين فى أوربا وفى أمريكا أيضا .

قرأت مجموعة من الكلمات ألقاها الزعيم الهندى نهرو فى البرلمان. فصيح جدا نهرو، ومناقشاته حقيقية . والناس هنا يحبونه . بل يكنون له شيئا أكثر من الحب. ولا يخفون خوفهم عليه وعلى صحته . ويتساءلون : ماذا يحدث للهند بعد نهرو ؟

ويؤكد الهنود أنه لا يوجد رجل واحد يقف إلى جوارنهرو . . أو يصل إلى مركزه . وإن كانوا يذكرون فى الوقت نفسه رجالا ممتازين يقفون وراءه. ولا يبعدون عنه كثيرا!

والناس الواقعيون يقولون إنه لا خوف على الهند. ولا خوف على الشعوب بعد وفاة زعمائها. فقد عاشت الشعوب ومات الأفراد. وليس هؤلاء الأفراد الممتازون إلا سائقى سيارات التاريخ. فإذا مات سائق السيارة فالسيارة تتوقف من تلقاء نفسها إلى أن يظهر سائق آخر وبسرعة ومع سرعة انطلاق السائق الجديد يتنهد بعض الركاب، ولكنهم يمضون فى طريقهم . والزعماء هم آباء الشعوب. . وقد عاشت الشعوب بعد وفاة آبائها . . فأنت مثلا، ألم يعش أبوك بعد وفاة أبيه ؟ لقد عاش وأنجبك، وأنت بعد والدك ستعيش وهكذا.

ولكنهم فى الهند يشيرون إلى نهرو بتقديس أو احترام.

ويسمونه البانديت جى . . أى صاحب السيادة أو سيادة الرئيس . . وبالفعل نهرو

شخصية فذة. تاريخه السياسى طويل. دخل السجن وتعب. وخرج من السجن واستأنف كفاحه. وهو رجل مثقف وواسع القراءة وتعلم فى إنجلترا. وله كتب وله أسلوب فى الكتابة باللغة الإنجليزية. ثم عنده إحساس غريب بأنه أب للشعب الهندى على اختلاف ألوانه وأديانه .

وهو يتصرف على أنه أب .

وقد وصفه غاندى بقوله: صدقونى إذا كان جواهر لال نهرو ليس فى السجن الآن؛ فليس معنى ذلك أنه خائف من السجن. فنهرو قادر على أن يذهب إلى المشنقة وهذه الابتسامة العريضة على وجهه!

وظلت هذه الابتسامة على وجهه حتى اليوم كأنه ينفذ أمرا صدر من غاندى بأن يبتسم دائما ؟

وقد كنت فى نيودلهى فى أحلك المواقف السياسية بالنسبة للهند .

ففى الشمال يوجد زحف صينى على الحدود . . أو على الخط المعروف باسم خط ماكموهان . .

ويوجد الدلاى لاما الذى هرب من التبت أمام القوات الصينية، والذى من أجله سافرت إلى الهملايا . .

وفى أقصى الجنوب توجد ولاية كيرلا التى نجح الحزب الشيوعى فى أن يفوز فى انتخاباتها بالحكم. وبذلك جاءت وزارة شيوعية رغم إرادة نهرو. أو رغم أنف حزب المؤتمر الذى يتزعمه نهرو . .

والرأى العام والصحف تطلب من نهرو أن يضرب . .

ولكن نهرو لا يضرب. فليس الضرب من سياسته . . فلا هو يريد أن يضرب الصين فى هذه المناطق الجبلية من أقصى شمال الهند . . لأنه ليس من المعقول أن تفقد الهند صديقتها الصين من أجل بضع مئات من الكيلومترات الجبلية . .

ولا يستطيع أن يضرب مواطنيه فى كيرلا . .

ودارت المناقشات فى البرلمان وثار عليه أحد أعضاء حزبه . ولكنه كان أعقلهم وأكثرهم هدوءا.

كانوا يضربون المنصة بأيديهم . وكان يبتسم . وكانت ابتسامته تشرق وتخفت بسرعة . كأنها شرر ولاعة . . وبنفس الهدوء الذى دخل به البرلمان خرج منه . .

وتصدر الصحف تؤكد أن نهرو هادئ . إذاً فكل شيء هادئ . .

وقد حدث أن أدلت ابنة نهرو وهى رئيسة حزب المؤتمر الذى يتزعمه أبوها فى مؤتمر صحفى فشتمت الشيوعيين فى جنوب الهند. وسئل أبوها عن رأيه . فأجاب بأن هذه هى ابنته . ثم ضحك وقال: لا أريد انشقاقا آخر فى داخل أسرتى !

والرئيس نهرو من مواليد ١٨٨٩ من مدينة الله أباد وهى نفس السنة التى ولد فيها العقاد وطه حسين والمازنى وهتلر وشارلى شابلن والفلاسفة مارتن هيدجروجبرييل مارسيل والمؤرخان توينبى وعبد الرحمن الرافعى . وهو ولاشك أكثرهم حيوية ونشاطا وأحبهم أيضا . فهو إلى جانب أنه كاتب وسياسى وزعيم هو إنسان من أشد الناس إيمانا بالسلام بين الشعوب . .

وأذكرعبارة لنهرو تقول: الاشتراكية بالنسبة لى ليست فقط نظرية أعشقها ، وإنما هى عقيدة حيوية . وأتمسك بها من كل عقلى وقلبى .

وهو صادق فيما يقول. . والناس يعلمون أنه صادق وأنه حريص على ذلك فى داخل الهند. . وفى خارجها أيضا . وموقفه بين الكتل السياسية فى العالم، والتزامه جانب الحياد بين المعسكرات السياسية . تؤكد أنه يريد أن يحقق السلام فى العالم كله. .

وهو مطلب صعب ولا شك. ولكنه يساوى ما يبذله من مجهود فى سبيل تحقيقه. .

والصحف التى أطالعها كل يوم تؤكد هذا المعنى .

وتؤكد أن الصين حتى لو صبغت جبال الهملايا بلون الدم . . فإن هذا لن يغير من موقف الهند. أقصد لو صبغت هذه الجبال بدماء الهنود طبعا!

والصحف أيضا تتحدث عن الدلاى لاما ، ذلك المعبود الذى يحكم بلاد التبت روحيا. هذا الشاب الطيب هرب ومعه بعض الرهبان إلى الهند وقطع فى هذه الرحلة ألوف الأميال الجرداء على ظهر جمل. ويقال على ظهر بغلة. ويقال على ظهور حوارييه والمؤمنين به . وأنا لا أصدق هذا الرأى الأخير . فقد رأيت المناطق الجبلية التى مشى عليها الدلاى لاما بعد ذلك وأعتقد أنه لا يكفيه مليون مؤمن لكى يركبهم عبر هذه الجبال

والوهاد، وفى تلك الليالى الباردة. . أى ثلث سكان التبت. خصوصا أن بلاد التبت صحراء باردة جدًا. ولذلك يسمونها سقف العالم. حيث توجد أقدم النظم التى عرفتها البشرية وعدلت عنها لسخافتها : الحاكم الإله الذى يختاره الرهبان. . ثم أغرب من هذا كله نظام تعدد الأزواج. . أى عدد من الأزواج للمرأة الواحدة !

والصور التى أراها للدلاى لاما تؤكد أنه شاب رشيق ووسيم ومرح. . فعلى الرغم من المصائب التى انحطت فوق دماغ شعبه المؤمن فى التبت وفى العاصمة لهاسا، فإن قداسته لا يتوقف عن الابتسام. لماذا؟ ربما كان السبب، هو أن الدلاى لاما باعتباره إلها لايحق له أن يحزن. فهو يجب أن يؤكد لشعبه مدى قدرته على الاحتمال. . فهو يضحك ، تماما كما تضحك الشمس من وراء السحب. . والأمطار لاتهمها !

أو لعله يريد أن يقول لشعبه إنه كان يعرف ذلك من قبل. وأن الذى حدث هو كلام مكتوب فى اللوح المحفوظ عنده. أليس إلها؟ بلى إنه إله عظيم قادر على كل شىء . ومن ضمن قدراته التى لم تظهر بعد أنه سيعود إلى التبت وسيطرد الصين من بلاده. عدد الصينيين حتى هذه اللحظة ٧٠٠ مليون نسمة !

وقد قرأت كل ما كتبت الصحف عن الدلاى لاما . .

ونزلت إلى المكتبة أشترى كتبا عنه . لم أجد إلا كتابا واحدا كتبه رجل سويدى عن بلاد التبت. وكتابا آخر كتبه رجل ألمانى عن بلاد التبت أيضا .

ولم أجد مجموعة التصريحات التى أدلى بها الدلاى لاما عن هذه الرحلة السرية الخطيرة التى قام بها فى حماية المؤمنين من رجاله ورغم الحراسة الصينية الشديدة على حدود الهند. . ورغم أن الحكومة الصينية وعدت كل من يعثر على الدلاى لاما حيا أو ميتا بمبلغ كبير من المال، فإنه استطاع أن يهرب . ويقال إنه هرب ومعه أكياس من الذهب . . ويقال من الماس. ويقال من الأسرار والطلاسم التى ستؤدى ـ إذا ما وصل إلى الهند سالما ـ إلى خراب بيت ماوتسى تونج! .

هكذا نشرت الصحف الهندية. ولابد أنها كانت تسخر من الدلاى لاما، ولكن واجب الضيافة يحتم عليها أن تلتزم الأدب. والتزمت الأدب الشديد!

وعندما بدأ الدلاى لاما يدلى بتصريحات للصحف يهاجم فيها الصين، محرجا بذلك حكومة الهند، أشاروا عليه أن يلتزم هو أيضا الأدب.

والتزم الأدب ولم ينطق إلى أن قابلته أنا ، فخرج عن حدود الأدب وشتم . . شتم الهنود الذين يحرسونه ويمنعون زائرا كريما ـ هذه كلمته ـ مثلى جاء يزوره من آخر الدنيا ليسأله عن الصحة وليدعو له الله أن يعيده إلى بلاده سالما!!

وتمشيا مع أقدم التقاليد الدبلوماسية أرسلت خطابا إلى قداسة الدلاى لاما فى مدينة ميسورى فى أقصى الشمال من الهند أستأذن فى المثول بين يديه . . وكان خطابى فى غاية الأدب طبعا .

وأذكر أننى قلت فى الخطاب ما نصه بالحرف الواحد : «سيدى ومولاى اسمح لعبد ضعيف جداً جاء من مصر (عدد سكانها ٣٠ مليونا) كلهم يحبونك وحزينون على ما أصابك على أيدى أعدائك من الصينيين . اسمح له بأن يتشرف فيلمس بيده النظيفة طرف ثوبك . . ولقداستك الحق فى أن تختار المكان من الثوب الذى يشرفنى أن ألمسه . . واسمح لهذا العبد أيضا أن يسألك عن صحتك الغالية . . بل التى لا تقدر بمال . . واسمح له بأن يتشرف بالجلوس على مسافة تسمح له بأن يراك ، وتسمح له فى الوقت نفسه أن يسمع صوتك الهامس . واسمح له إن شئت أن يلتقط لك صورة ترفع قدره فى عين القراء فى مصر والعالم العربى . . وإذا وافقت يا صاحب القداسة ، فهذا ما يتوقعه العبد من مولاه العظيم . وإذا لم تفعل ياصاحب القداسة ، فإنه لن يفقد الأمل ، ولن يعود إلى القاهرة فى الطائرة التى تقطع المسافة فى ١٥ ساعة إذا لم تتوقف . وقد لايعود إلى القاهرة وإنما سيموت من الحسرة على أنه لم تسعده لقياك . . فإذا مات من أجلك فستظل روحه ترفرف حولك . .

فارحم هذه الروح من الدوخة حولك ، واسمح لها بأن تسعد بالقرب من طلعتك البهية . وأدام الله قداستك . وأطال فى عمر ألوهيتك . . المخلص دائما والمسكين إلى أن تأذن له . . » .

وانتظرت طويلا . . ورحت أقطع الوقت فى شرب الشاى وأكل الأناناس وشرب اللبن والبيض وإغاظة كل جرسونات اللوكاندة . .

وفى يوم دق جرس التليفون وكان المتحدث أحد موظفى اللوكاندة وقال لى إن خطابا جاءنى من الدلاى لاما . .

وقررت فى هذه اللحظة أن أحلق لحيتى . وأن أغرق جسمى فى الكولونيا . . وأن أتعطر لكى أكون جديرا بهذا الشرف الذى لم يسبقنى إليه أحد . وتخيلت العناوين التى

ستصدر بها صحف «أخبار اليوم» فى القاهرة : أول صحفى يقابل الدلاى لاما . . أو حديث للدلاى لاما مع أخبار اليوم . . الدلاى لاما يوقع بأصابع قدميه على صورته هدية منه لقراء صحف أخبار اليوم . . التوقيع بأصابع القدم تقليعة لنجوم السينما فى أمريكا . . أكبر دليل على أن الدلاى لاما أمريكانى . . إلخ .

وسمعت طرقات على الباب . . وكان الجرسون ومعه الخطاب . وبسرعة فتحت الخطاب وطارت عيناى من أول الصفحة إلى آخرها . . إخص عليك دلاى لاما . إخص على الذين جعلوك إلها . . إنهم مجموعة من البهائم لا تستحق إلا شابا أبله مثلك!

لقد كان الخطاب بالرفض .

قداسته يعتذر عن مقابلتى لانشغاله .

انشغاله فى أى شىء هذا الدائخ . العريان الذى لا يجد قوت يومه . . هذا الصعلوك الذى استغل سذاجة الناس فجعل من نفسه إلها . . هل من المعقول أن أصل إلى الهند ثم أكون على مسافة ساعات منه ولا أراه . . لا يمكن يا قداسة اللاما . . أو جناب الدلاى . . لا يمكن أن أعود إلى القاهرة دون أن أراك أو دون أن أتحدث إليك . . الموت أهون . . اعتزال الصحافة والكتابة والانتحار أهون من هذا كله . . إنك طاقة القدر بالنسبة لى . . وأنا الذى سأفتحها بيدى وأطلب من الله ما أريد وسأقفلها بيدى أيضا . . أنا أفهم أنك تتأله على غيرى يا طريد الاشتراكية !

ورحت أقلب فى الأوراق أبحث عن أصل هذا الشاب . وكيف وقع الاختيار عليه ليكون إلها . .

على كل حال لا تزال أمامى بضعة أيام فى العاصمة قبل أن أتمكن من السفر . .

إله فى انتظار !

الآن أصبحت عندى فكرة واضحة عن الدلاى لاما الرجل الذى يحكم بلاد التبت . هذا الشاب ليس له أصل واضح. فلا أبوه إله ولا أمه . ولا أى إنسان من أسرته تصادف أن اقترب من بيت الناس الذين حكموا بلاد التبت من ألوف السنين. وإنما هذا الشاب وقع عليه الاختيار ليكون إلها. فهو إله بالاختيار. أى إن الناس لم يولدوا ليجدوا أنفسهم مؤمنين به . وإنما انتظروه وتوقعوه وآمنوا به . . ثم إنهم يعرفون أمه ويعرفون أباه. وأبوه وأمه من الفقراء وعليهما ديون كثيرة مستحقة. ولابد أن تكون السيدة والدته قد طلبت حلة من جارتها . أو كوزا من الأرز أو قالبين من السكر، ومن المؤكد أنها لم ترد هذه السلفيات .

أما كيف يختارون قداسته؟ فهذا سر من أسرار الرهبان الذين يحكمون هذه البلاد حكما حقيقيا ، وليس الدلاى لاما إلا ذيلا لهم ، أو إلا واجهة للدكان الخفى الذى يديره هؤلاء الناس. وأنا أعرفهم وقد رأيتهم وصافحتهم ولا أزال أشعر بالامتنان لهم لأنهم اختاروا هذا الشاب الساذج . . . وأنا أعود فأؤكده الآن .

فهؤلاء الرهبان، لا أعرف عددهم بالضبط، يختارون من بينهم واحدا ولابد أن يكون هذا الواحد أكبرهم سنا وأكثرهم صلعا. لابد أن تكون مساحة الصلع التى عنده أكبر من أى صلعة موجودة فى الأديرة. لا أعرف كيف يتأكدون من ذلك. وأقرب إلى ظنى أنهم يقومون بعمل مسابقة فى جمال الصلع بين الرهبان. حتى يفوز هذا العجوز. ولا شك أن مركز هذا العجوز من الناحية الدينية، يسمح جداً بتزوير أية انتخابات ولو كان شعر رأسه طويلا كثيفا كشعر الأسد . .

وبعد أن يختاروا هذا العجوز الأصلع يطلبون إليه فى عشرين يوما . . ويقال ثلاثة وعشرين يوما أن يبحث لبلاد التبت عن إله . . ويظل هؤلاء الرهبان يبكون ليلا ونهارا

ويرجون هذا الراهب أن ينقذ البلاد من الشياطين التى تتربص بها . . فى هذه الأيام العشرين . ولكن الراهب الأصلع يحبس نفسه فى صومعته يفكر . وفى الوقت نفسه يفكر فى طريقة لإنقاذ البلاد من الشياطين فى الأيام التى خلت من وجود إله . وأخيرا يتعطف الراهب ويتلطف ويعلن أنه قد عثر على طريقة . . وأن هذه الطريقة ستؤدى بغير شك إلى اختيار أصلح الآلهة لحكومة التبت !

وفى احتفال مهيب فى مدينة لهاسا ، عاصمة التبت يظهر الراهب ويعلن للشعب فى صمت وأسى أن مهمته شاقة جدا ، ولكنه فى الوقت نفسه لابد أن يوفقه الإله إلى اختيار إله جديد . فمن الظواهر الغريبة فى هذه البلاد أن الإله يختفى فى سن الثالثة والعشرين . . لا أحد يعرف أين يذهب هذا الإله . ولكنه يختفى ، وفى الوقت نفسه تظل روحه ترفرف حول بلاد التبت من أولها لآخرها . مساحتها نصف مليون كيلو متر مربع ! أى نصف مساحة مصر .

والطريق الذى سيسلكه الراهب الأصلع معروف للرهبان . فهو عادة يحمل طعامه وشرابه وبعض ملابسه إلى شاطئ إحدى البحيرات ويظل ينظر إلى سطح الماء ليلا ونهارا . تماما كما تنظر أنت إلى مرآة فى ضوء الشمس عشرين يوما متواصلا . دون أن تغيب الشمس وبعد هذه المدة المعروفة لدى الرهبان ، يرى الراهب الأصلع ، الذى انعكست صورة وجهه على الماء ومن الماء إلى صلعته صورة الغلام الصغير الذى سيكون إلها للتبت . ويرى ملامحه ويتأكد منها . . من عينيه ومن أنفه . . وخصوصا من أنفه . لأنه لايمكن أن يكون الإنسان إلها إذا كان أنفه ضيقا وإذا كان يتنفس بصوت عال . فالتنفس بصوت عال يقلل من هيبة الآلهة !

ويتأكد الراهب الأصلع من ملامح الطفل الذى يراه . وفى الوقت نفسه يتأكد من ملامح والديه . ويؤكد الرهبان أن كل هذا يبدو واضحا فى الماء . ويؤمن الراهب العجوز بأنه قادر أيضا على أن يعرف عنوان بيت هذا الطفل ويصف شكل البيت . . تماما كما يفعل الذين يفتحون المندل فيرون فى الفنجان الذى به قطرات زيت ، شكل الناس وعناوين بيوتهم .

وبعد أن تتم ملامح الصورة أمام الراهب ، ينحنى راكعا أمام البحيرة . . شاكرا للإله السابق معاونته الصادقة فى اختيار خلفه العظيم . ويعود الراهب إلى صومعته وقد استراحت نفسه . ويعم الفرح التبت . لأنها قد وجدت لها الإله المناسب . وتظل أيدى

الناس معلقة. ويظل الدعاء معلقا بين السماء والأرض. وتظل العيون حائرة بين ملامح الإله الجديد. . أما أحلام الناس فهى طائشة ضائعة، لم تتحدد لها وجهة بعد. .

ورحمة بهؤلاء المؤمنين، يعلن الراهب أنه قد حدد يوم كذا ليكون احتفالا بالإله الجديد. .

وتستريح نفوس الناس. وينتظرون. .

أما الراهب العجوز، فهو يذهب إلى إحدى القرى القائمة على إحدى البحيرات التى وقع اختياره عليها، ويختار الطفل الذى رآه على صفحة الماء. وينقل هذا الطفل إلى الدير. . وتجرى على الطفل بعض العمليات القاسية جدا من بينها ختان الطفل. . ومن بينها أيضا رسم علامات على ظهره وعلامات على قفاه وعلامات على قدميه . . هذه العلامات يستخدمون فيها الإبر الملتهبة .

ويقال : إن سبب ذلك هو تطهير هذا الإله من الشياطين . . أو تمييزه عن غيره من الناس . خصوصا إذا جاء الموت . .

وبعد ذلك يدخل هذا الطفل المقدس الدير . . وهناك يتلقى أصول العبادات وأصول هداية الناس. وكيف يكون إلها . . فالبشر هم الذين يعلمونه كيف يكون إلها عليهم وعلى غيرهم. . ـ أى كيف (يتفرعن) عليهم! وهم طبعا يتظاهرون أمام الناس بالتقديس له . ولكنهم فى الواقع يستخدمونه لأغراضهم. . فهم الذين صنعوا هذا الإله، وهم الذين يعبدونه !

ويتقدم الشعب بكل أنواع التقديس لهذا الإله الجديد الذى لا يراه الناس إلا نادرا. وفى المواسم الدينية . . وفى هذه المناسبات السعيدة يقدمون له الهدايا والطعام والأموال. . وإلى جانب أنه إله فهو حاكم للتبت. وله كل أموال هذه الدولة الصغيرة التى تضم أناسا يعيشون فى ظروف قاسية جدا تجعلك تتساءل: ولماذا يعيشون ؟

وعندما كانت الصين تهاجم الدلاى لاما ، كانت تسخر منه بقولها إن خروجه من التبت هو فى الواقع إطلاق لسراحه فقد كان سجينا فى الأديرة. . ثم تقول أيضا : إن الصين قد أطالت عمر الدلاى لاما عندما طردته . . فالدلاى لاما ، يعلم أن كل الآلهة الذين حكموا التبت قد اختفوا وهم فى الثالثة والعشرين. . فالرهبان هم الذين يتولون قتل هؤلاء الآلهة !

والدلاى لاما هو أحد اثنين يحكمان التبت . .

فهو الحاكم الروحى الذى يملك الأرض ومن عليها وما عليها . . وهو يقيم فى دير فوق تل بالقرب من العاصمة . .

أما الثانى فاسمه (بانشا لاما) وهويحكم التبت إداريّا . . ولكن هذا الحاكم لا قيمة له ولذلك يعيش طويلا . . يعيش إلى أن يموت كأى مواطن عادى!

والتبت تشبه جمهورية «سان مارينو» التى تقع فى شمال إيطاليا، فهى إمارة مستقلة استقلالا تاما وعليها سور مرتفع . وكان بها أحد أندية القمار وبها برلمان ويحكمها اثنان من الملوك! . . جمهورية يحكمها ملكان! كل واحد منهما لمدة ستة أشهر . . وهى الجمهورية الوحيدة فى أوربا الغربية التى بها حكومة شيوعية!!

والفارق الوحيد هو أن التبت قاومت النظام الشيوعى . . ولكنها الآن قد ضمت نهائيا للصين الشيوعية . . وقد أقام الصينيون بها طرقا طويلة ممتدة على حدود الهند . وأطاحوا بهذا النظام الدينى وعينوا بصفة مؤقتة أحد رجال الدين ليتولى هذه السلطة الروحية للدلاى لاما . . ظاهريا طبعا !

وبعد أن عرفت ما أراه ضروريّا عن الدلاى لاما الذى أرسل خطابا رقيقا يعتذر فيه عن مقابلتى ، فقابلت خطابه هذا بإجراء غيرمهذب وغير رقيق . . تشهد بذلك سلة المهملات . . قررت أن أراه وأتحدث إليه ، وليكن ما يكون!

بعد هذا كله بدأت أبحث عن طريقة للسفر إلى مدينة ميسورى حيث يرابط الدلاى لاما ورجاله فى سفوح الهملايا فى أقصى شمال الهند وعلى مقربة من حدود التبت . .

إن الرحلة إلى ميسورى هذه لن تكون بالسيارة أو بالقطار . . وإنما سوف أدلك على الطريقة التى رأيت بها الدلاى لاما . . وأنا آخذك من يدك لمقابلة قداسة الدلاى لاما . . والأخذ باليد سيتكرر كثيرا ، كلما أهلت علينا طلعة الدلاى لاما . . ومن الممكن أن تسافر إلى ميسورى على قدميك . . ومن الممكن أن تسافر إليها على ظهر حمار أو ثور . . أو بطائرة هليوكوبتر . .

أما من نيودلهى فالرحلة ستكون فى سيارة خاصة تستأجرها ذهابا وإيابا ، وأجر السيارة حوالى عشرة جنيهات إذا ذهبت ورجعت فى نفس اليوم . . أما إذا بقيت حتى الصباح فيجب أن تدفع أكثر . . هناك وسائل مواصلات أخرى كالقطار مثلا ، ولكن

القطار يقطع هذه المسافة في ١٨ ساعة ليلا ونهارا . . والطريق من نيودلهى إلى ميسورى متعة، هذا إذا كان عندك صبر على المرور فى الطين والوحل والأمطار . ولا تغضب إذا فوجئت بأن السائق قد توقف فجأة ثم ترك السيارة بلا سابق إنذار . فلا تظن أنه هرب وإنما قد اعترضت طريقه بقرة، والبقرة مقدسة، ولذلك فهو لا يستطيع أن يطردها أو يلمسها، وإنما يجب عليه أن يتركها حتى تمشى من تلقاء نفسها، وفى هذه الأثناء لا مانع من أن يركع لها ركعتين . .

لاتضحك ولا تندهش فهناك ماهو أعجب وما هو أكثر غرابة من ذلك . . ستجد القرى على الجانبين شبيهة بالريف المصرى . . بيوت من الطين وأناس كالطين أيضا . ولكن هنا العدد أكبر والأمراض واضحة على وجوههم وعلى أجسامهم . . ستجد حولك مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية . . مع الأسف هذه الأراضى لا قيمة لها . فالأمطار تحولها إلى بحيرات ويموت البذر والزرع . . وإذا تبقى للفلاح شىء أخذته السيول . . أخذت أبناءه وطيوره وحيواناته ثم هدمت بيته فلا يبقى له شىء .

كل عام تحدث مجاعات فى بلاد الهند الغنية بالأرض والماء والأشجار، ويموت من المرض والسيول والجوع مئات الألوف . ومع ذلك لم تتمكن الدولة من وضع برنامج يطبقه الناس لتحديد النسل .

ستجد ببعض البلاد أن وسيلة المواصلات الوحيدة فيها هى الدراجات والدراجة يقودها شاب ويركب وراءه أربعة أوخمسة من الناس .

كل واحد منهم فى حجم هذا الشاب مرتين وثلاثا . وسترى الإرهاق والعرق على وجهه والناس مشغولون فى كلام وحديث .

ستقول : أعوذ بالله، هذه وحشية .

قل ما تشاء فلقمة العيش صعبة هنا . إن الركاب يتعبون أيضا من أجل الملاليم التى سيعطونها له . إن حالتهم تدعو إلى الشفقة أيضا . وسترى أن هذا الشاب يقطع بدراجته مسافات تبلغ عشرة الكيلومترات وهويلهث .

وعلى الجانبين ستجد أشجارا . هذه الأشجار لها أرقام مسلسلة . فالدولة رقمت الأشجار . فقد كان الناس يقطعونها ليستخدموا خشبها فى الأفران . وكانت الحكومة تفاجأ باختفاء جانب من الأشجار فجأة . . فلا تعرف من الذى قطعها . ولذلك جعلت لها أرقاما ليسهل على الحراس أن يتمموا عليها .

سأروى لك مشهدا رأيته وأعتقد أنه يتكرر كثيرا . وقفت بى السيارة أمام سيل جارف وانتظرنا بعيدا حتى يتوقف المطر . ظللنا سبع ساعات . ونحن فى السيارة نأكل ونشرب ولا نعرف كيف نقطع الوقت ، ومن حين لآخر نفتح النوافذ للتهوية وكان السيل يجتاح البيوت ومن تحت البيوت تظهر رءوس الناس . . النساء والرجال والأطفال والأبقار وبعض الناس كان يصعد إلى الأشجار . . ولكن هذه الأشجار كان يسبق الناس إليها عدد كبير من الطيور بعضها متوحش جداً كالصقور السوداء .

وقد رأيت طفلا يقاوم السيول ويصرخ . ولا أحد يستطيع أن ينقذه ، ولم يكد الطفل يصل إلى حجر مرتفع ويمد يده عليه حتى رأيناه يرتد ويختفى تحت الماء . لقد كان فى استقباله ثعبان ضخم لدغه ، فقتله . وراح الثعبان يسبح حيا . . أما الطفل فظهر بعد لحظات جثة طافية .

لم أنم تلك الليلة . وظللت أحلم أننى أنام تحت شجرة . وفجأة تتحول الشجرة إلى أفاع وإلى حيات ، على هيئة غصون تتلوى . . ولهذه الغصون أوراق ، وهذه الأوراق هى أجنحة البعوض . . أما الثمار فهى تشبه رءوس النمور والقرود وكلها تبرق . . فأصحو من النوم منزعجا وأتمنى أن أبقى متيقظا حتى الصباح .

لعلك تقول لى : إننى نسيت الموضوع الأصلى وهو الرحلة . . إن هذا من صميم الموضوع . . وإلا فماذا عساك أن تفعل أو تفكر فى رحلة تطول إلى ١٤ ساعة ولا تستطيع أن تتقدم أو تتأخر .

وعندما تصل إلى مدينة ديرادون ستجد أن المنظر قد تغير قليلا . . فالمدينة مليئة بالمحلات التجارية لأنها مدينة سياحية . ولكن الناس هم الناس ستجد أسماء مطاعم وفنادق وبارات . . طبعا قد لا تلتفت إلى ذلك ولكن لو عرفت أن كلمة «بار» هذه من الكلمات النادرة جداً فى الهند ، فستعرف أنك فى مدينة راقية . فالخمور ممنوعة فى الهند ، ومسموح بها لعدد قليل جداً من المحلات العامة وفى أيام معينة وساعات معينة .

وبعد ذلك تبدأ الصعود فى الطريق الجبلى . هذا الطريق يجب ألا تمشى فيه السيارة أسرع من عشرة كيلو مترات فى الساعة . سيكون المشى بطيئا جدا والسائق هنا يسمع القوانين وينفذها حرفيا . وربما كل الناس فى الهند كذلك . وبعد ذلك سيبدأ الصعود إلى الجبل . الطريق مرصوف وجميل . إنه يشبه أى طريق جبلى فى أوربا . ويظهر أن كل المناطق الجبلية واحدة ومتشابهة . الطريق طوله ١٢ كيلومترا . هذا الطريق يدور ويدور

حول الجبل. كما يدور الشال حول العمامة. . أو «الألشين» حول ساق عساكر الحدود. . ستقطع السيارة هذا الطريق فى ساعة بالضبط.

الفنادق هنا كلها جيدة . ستكتشف أنك أحضرت معك الملابس الصيفية. . وستذهب إلى الفندق. . والفندق جيد. وحجراته واسعة جداً. وهى لذلك باردة جداً. . وفى الغرف شيء غريب لا يعجبك وهو أن أبوابها مفتوحة معظم الوقت. أو يمكن قفلها بصعوبة. ولا تعرف إن كان السبب هنا هو أنه لاداعى لقفلها بالمرة. أو أن صناعة المفاتيح لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا الفندق.

هذا الفندق اسمه «شارل فيل» وقد عرفت هذا الفندق من نيودلهى. فالذى يملك هذا الفندق هونفس الرجل الذى يملك الفندق الذى أسكنه فى نيودلهى.

ووسيلة المواصلات واحدة هنا وهى الريكشا. .

والريكشا عبارة عن محفة تشبه عربة كارو قد نزعت عجلاتها. . وبدل العجلات والحصان أو الحمار، يوجد عدد من الهنود القصار القامة يحملون هذه المحفة وينطلقون بك فى أى اتجاه . وهم يلهثون وتزداد وجوههم صفارا وتزداد عيونهم احمرارا . وتحس أنك إنسان رأسمالى أو إقطاعى . أو على الأقل فيك كل عيوب الإقطاعيين والرأسماليين ، بالمعنى الذى تشير إليه أكثر الكتب الاشتراكية تطرفا. . فأنت تستأجر إنسانا، أو تستعبد إنسانا أو تركب إنسانا كأنه حيوان. . كأنه ليس آدميا مثلك. وتضع رجلا على رجل، فوق كتف هؤلاء المساكين. . فهل بعد هذا تسمى نفسك متحضرا؟!

ولكن ما الذى يمكن عمله. . فأنت لست المسئول عن هذا النظام غير الإنسانى. وإنما المسئول الأول والأخير هو الفقر . . وصعوبة المواصلات هنا ، وندرة الحيوانات أيضا . . وكثرة الناس، وشدة الحاجة ، ثم تشريفك إلى هذه المنطقة!

ولو فعل كل إنسان مثلك وعدل عن الركوب لأسباب إنسانية لارتكب أكبر الجرائم ضد الإنسانية . . إنك بذلك تقتل هؤلاء الناس من الجوع. . فأنت من اللحظة التى تريد أن تعاملهم كبشر، تقتلهم أيضا من الجوع. . ومن الممكن أن تفعل مثلى فتعطيهم مبلغا من المال على سبيل الصدقة، ولكن كم فقيرا تستطيع أن تتصدق عليه. . كم فقيرا فى دولة بها ملايين الفقراء ؟!

على كل حال ، اركب ودع هذه المشكلة الإنسانية لدولة الهند فهى مشغولة بها أكثر

منك . . وقبل أن يذهب بك الخيال مثلما ذهب بى، يجب أن تتأكد من أنهم سيسمحون لك بزيارة الدلاى لاما . . من هم الذين سيسمحون؟ إنهم نفس الذين رفضوا زيارتى له!

وهنا اسمح لى أن أروى لك ما حدث . . فإنه شيء مثير جداً . . ولنترك الريكشا جانبا. فليست لها أية ضرورة ولا قيمة الآن مادام الطريق البعيد جداً إلى الدلاى لاما مسدودا!

لقد اتصلت بالتليفون بقصر الدلاى لاما.

وعرفت أن قداسته ينزل فى قصر اسمه «بيرلا هاوس» . وهذا القصر محاط بحديقة اسمها «الغابة المقدسة» . كل أشجارها مقدسة . . وممنوع منعا باتا أن يدنو منها إنسان . ولا أعرف لماذا يقدسون الأشجار فى هذه المناطق. ربما لأنها نادرة. فهم يمنعون أنفسهم من الاستفادة منها . . أو ربما كانت خدعة إنجليزية ليمنعوا الناس من الاقتراب من هذا البيت أو من ملعب الجولف. الحقيقة أننى لم أتأكد من هذه الواقعة . ولو أردت فلن أجد أحدا. . فنحن هنا فى قمة الدنيا. . نحن هنا فى جبال الهملايا الشاهقة . .

وفى التليفون ذكرت اسمى ووظيفتى . . وأكدت ما جاء فى خطابى . ولكن الذى حدثنى قد صارحنى بأنه هوالذى بعث بالخطاب . وأن قداسة الدلاى لاما مشغول جدا هذه الأيام. ولم أشأ أن ألعن آباء الدلاى لاما؛ ولم أشأ أن ألعن آباء هذا السخيف الذى كلفته حكومة الهند برعاية شئون الدلاى لاما حتى لاينطق أو حتى لا يكلم أحدا من الناس، أو حتى لا يتصل بالصحفيين ويدلى بتصريحات تؤدى إلى أزمة بين الصين والهند. . وأفهمنى هذا السخيف بأن هذه هى مهمته وأنه مضطر إلى التمسك بوظيفته . وأنه لن يسمح لى ولا لغيرى بمقابلته هذه الأيام.

وحاولت ألا تنتهى المكالمة عند هذا الحد، وقبل أن ترن سماعة التليفون فى أذنى معلنة نهاية آمالى، قلت له: إذن أنتظر يوما أو اثنين. .

وعاد هو بكل قنزحة يقول لى : أو أسبوعا. .

وأقفل السكة فى وجهى. وفى هذه المرة ازداد إصرارى . فالدلاى لاما الآن على مسافة مئات الأمتار منى . وكان فى الصباح على مسافة مئات الكيلومترات. .

ولم أكمل فطورى، وارتديت ملابسى الخفيفة جداً. فقد نسيت أن الجو هنا بارد كسويسرة فى أوائل الربيع . وارتديت البالطو، وابتلعت قرصين من الإسبرين، وأشرت

إلى أحد عمال الريكشا أو تنابلة الريكشا على الأصح، وحملونى والمسافة طويلة باردة وهم يلهثون ويسعلون ويوجعون قلبى من الألم. ويتوقفون ليستريحوا، وينظرون إلى وجهى، لعلى أقدر مجهودهم. وقدرت مجهودهم طبعا. ولكن لم أجد قلبى رقيقا بعد هذه المكالمة التى صدمتنى فى أعز ما أملك . . صدمتنى فى آمالى.

ونزلت بى الريكشا فى طريق منحدر. وعلى اليمين وجدت لوحة عليها : الغابة المقدسة . . ولم أجد شيئا يستحق القداسة . . لا الغابة ولا الدلاى لاما . وأشرت إلى الذين يحملون الريكشا أن ينزلوا إلى مداخل فيلا الدلاى لاما . .

ووقفوا عند بوابة من الخشب والأسلاك.

واقتربت منها . وسألنى العسكرى: هل عندى موعد؟ فقلت : طبعا على موعد مع صاحب القداسة . .

وسمح لى بالتوجه إلى بوابة أخرى.

وعلى الجانبين كنت ألاحظ أبناء التبت . . إنهم جميعا يرتدون الملابس الحمراء، ولاحظت أن هذه الملابس يلبسونها على اللحم. رغم برودة الجو. وأن هذه الملابس تشبه الروب دى شامبر وقد لفوها بحزام . . ثم إنهم حفاة تماما كرهبان الفرنسيسكان. ولاحظت أن معهم عددا قليلا جدا من النساء . وهذه طبعا ليست مشكلة. فهم يؤمنون بتعدد الرجال للمرأة الواحدة! ولاحظت أنهم غسلوا ملابسهم ونشروها . وشممت رائحة الطعام، ويبدو أن الطعام كثير . والسعادة واضحة على وجوه هؤلاء الناس. رغم أنه من الصعب أن تتبين مشاعر هذه الوجوه الجامدة لكن بصيصا غريبا يلمع فى عيونهم يمكن إدراكه بسهولة على أنه سعادة!

ووجدت أمامى خيمة . . وهذه الخيمة بها جنود هنود. واقتربت منهم وقلت بصراحة لابد أن أقابل الدلاى لاما . . لابد . إن أحد الهنود الملحقين بخدمة الدلاى لاما قد رفض طلبى الذى أرسلته من نيودلهى، ثم عاد فأكد هذا الرفض فى التليفون. وإنه لا يمكن أن أصبح على هذه المسافة القريبة وأبقى بعيدا عن عينيه وأذنيه. لابد أن أقابله وبأى شكل وبأية طريقة حتى لو أدى ذلك . . وقبل أن أكمل هذه العبارة - وفى الحقيقة لم أكن أعرف كيف سأكمل هذا التهديد الذى لامعنى له، والذى لا يمكن أن أحققه - تقدم منى أحد الرهبان، ورآنى وحيانى. وسألنى باللغة الفرنسية: ماذا تريد؟ فشرحت له حكايتى. وشرحت له كيف أن أحد الهنود قد أساء إلى سمعة الدلاى لاما . وأننى مضطر أن أكتب

هذا الذى دار بينى وبينه . وهى فضيحة . . ثم إننى أريد أن أعرف إن كان هذا هو رأى الدلاى لاما فى كل من يجىء لزيارته من أقصى الدنيا . .

ورأيت على وجه هذا الراهب الذى يرتدى الملابس القاتمة، ويعمل رئيسا للوزراء؛ أنه لم يسترح إلى موقف هذا الهندى وإلى موقف كل الهنود الذين صادروا حرية الدلاى لاما . . والذين حبسوه فى هذا المكان باسم حمايته والدفاع عنه .

وهز رأسه واختفى .

وجلست أتحدث إلى أحد الجنود وأروى لهم ما رأيت فى الهند وما الذى أعجبنى . . واخترعت لهم مجموعة من القصص، وأنا أتصور أن هذه القصص قد تكون لها أية قيمة فى مقابلتى للدلاى لاما أو فى تسهيل هذه المقابلة الصعبة . . فوصفت لهم المظاهرات التى ملأت شوارع القاهرة تهتف بحياة الدلاى لاما . . ثم الطوب الذى سقط فوق سفارة الصين الشعبية احتجاجا على الموقف الشائن من قداسة الدلاى لاما . . ثم أخرجت من جيبى ورقة مكتوبة باللغة العربية وقلت : إن هذا خطاب من والدتى توصينى بأن أطلب إلى الدلاى لاما أن يباركها ويشفيها من مرضها . . وخطابات أخرى من تلميذات المدارس ونجوم السينما والصحفيين والفنانين ومضيفات الطيران . . الجميع يطلبون البركات من قداسة الدلاى لاما .

فأنا لست صحفيا فقط، وإنما أنا مندوب عن ملايين المصريين الذين أوفدونى للسؤال عن صحته والاطمئنان على أنه بخير وعافية . فإذا عرفت ذلك وتأكدت منه بنفسى - ولا بد أن يكون بنفسى - كتبت إلى القاهرة لتهدأ المظاهرات، ويتوقف ضرب سفارة الصين بالطوب!

وهذه مهمتى ببساطة . .

ثم إننى بدأت أشكو من البرد . . وإذا بى أطالب - وهذا حقى - الدلاى لاما أن يشفينى بعد أن تسلل البرد إلى جسمى وأنا فى بيته المقدس!

وهز الجنود رءوسهم موافقين على مطالبى العادلة . .

ولم يكن لهؤلاء الجنود أى نفوذ أو قيمة . . ولكنى كنت أحاول أن أقنع نفسى . . وأن أتمرن على الاختراع أو أستعد لمواجهة أى احتمال آخر .

وظهـر الوزير وقبل أن أصـارحه بلهـفتى وقلقى . أشار برأسه قائلا : لقـد أطلعت قداسته على هـذا التصرف السخيف من جانب الرجل الهندى وهو سيقابلك غدا . .

إذن هناك خلاف بين الدلاى لاما وبين الهنود المكلفين بحراسته . . ووزراء الدلاى لاما ، المثقفون الذين يتكلمون لغة فرنسية سليمة حريصون على التمرد على هذه القيود التى فرضتها الهند . . فكأننى أول مناسبة يثبتون فيها وجودهم ويخالفون تعاليم الحكومة الهندية ويسمـحون لى بمقـابلة الدلاى لامـا ، رغم أنف هذا الرجل الهندى الذى يتـولى العلاقات العامة لصاحب القداسة .

وشكرت رئيس الوزراء ، وطلبت إليـه أن يبلغ صـلواتى لقـداسـة الدلاى وأن يبلغ الوزراء تحياتى . .

وشكرت الجنود . . وشكرت رجـال الريكشـا . . وأعـفـيتـهم من حـملى إلى الطريق الصاعد . وطرت من الفرحة . . بعد أن أعطيتهم مبلغا كبيرا من المال . . وظلوا يلاحقوننى بالريكشـا وأنا أرفض أن أركـب مـعـهـم . وحـاولوا إقناعى بأن هـذا حـقى ، وأنا أرفض . وحاولوا أن يفهمونى أنهم أقوياء ، وكان إصرارى على الرفض .

ولأول مرة أشـم هواء نقيـا . . ولأول مرة أمـلأ صـدرى . ولأول مرة أجـدنى فى قـمة العالم ولأول مرة أتمنى أن يطلع النهار بسرعة .

وفى الفندق طلبت طعـاما ساخنا وكثيرا ، وابتلعت حبوبا منومة أستعجل بها طلوع الشمس . . .

* * *

وطلعت الشمس . . .

واليوم فقط أشم هواء حقيقيا . .

هواء لا تمتصه أجهزة التكييف من الشوارع . .

هواء ليس نفاية الناس . . ولافضلة خيرهم . .

هواء لم تدوخه المروحة المشنوقة فى السقف . .

هـواء اليـوم مـن الجبل . . النـافذة مفـتوحة أمـامى . . الطـبيعة كـلها رائقة جميلة مغسولة . .

المطر جعلها مصونة مكنونة فى ورق سلوفان . . أو كأنها تغطت بالحرير الهندى الشفاف . كل شىء له لون ثابت صادق لا يتغير . . كل شىء صدق . لاسياسة ؛ لا أديان ؛ لا لغات ؛ لا جنسيات . فهذه الأشجار قد ظهرت قبل الدين والسياسة واللغة . ظهرت قبل الإنسان وماتزال كما كانت عالمية فى معناها وكلامها وألحانها وعطورها .

طول ليلة أمس كانت الأمطار ثقيلة تلطم وجه الأرض . كأن ثقبا فى السماء قد انفتح . أو كأن الملائكة كانوا يغسلون الكواكب والنجوم استعدادا لأحد أعيادهم التى لا نعرفها . .

فى هذه اللحظات غرقت قرى كثيرة فى الهند . هلك فلاحون . أما الأبقار والجاموس فقد استراحت من أصحابها . انفلتت . . . إن الليلة إجازة عندها من المحراث والعربات . أما الأطفال الذين باغتهم المطر فقد ماتوا . . وتحولت جثثهم إلى زوارق طافية تركبها الغربان والصقور وتقفز إليها الأفاعى . . لقد استراح هؤلاء الأطفال أيضا . .

وأمام الفندق الذى أقيم فيه مئات من عربات الريكشا . . ينام فيها أصحابها . إنها مأواهم الوحيد وهى بقرتهم الحلوب . إن أول شىء يعملونه فى الصباح هو أن يعرضوا الريكشا فى الشمس لكى تجف حتى لا ينفر منها الزبون . . وليس مهما أن تجف ملابسهم هم . .

النافذة ما تزال مفتوحة على شاشة من فضة . . على شاشة من زجاج لامع . . كل شىء ساكن . كأنه ينتظرنى أن أرسمه . . كل شىء يحاول أن يقلد الصور المطبوعة . فالشجرة لا تتحرك ولا الورد ولا الدروب اللامعة التى تشبه أشرطة من الحرير الأزرق مطرزة بعلامات بيضاء . . وعلى الحوائط صور بنات جميلات . صورة لأودرى هيبورن . . وصورة أخرى لمارلين مونرو . . وصورة لأنجريد برجمان . . صباح جميل فعلا . كل شىء حلو .

كل شىء صنعته السماء . . فالإنسان لم يصح من نومه بعد ليفسد هذا الجمال الإلهى !

كل شىء هادئ كأنه ينتظر منى أن أتمم عليه . . أن أناديه بالاسم فأقول : أشجار السرو هنا؟!

فينحنى صف من الأشجار على هيئة «نعم» وتطير العصافير إلى أعلى وتتحول : كل منها إلى نقطة فوق كلمة نعم .

وأنادى الورود وأنادى البلابل . . وأملأ صدرى منها ولا حاجة لى أن أناديها . .

كل شيء يحولك إلى شاعر . ويجعل قلمك فرشاة . . ويجعل لك ألف رئة وألف أذن . ويغريك بأن تمد يدك تلمس ما تراه كأنه قطعة من الحلوى . . وتشعر أنك أمام مائدة ضخمة وأنك وحدك فى صدر المائدة . . وأنك الداعى وأنك المدعو . . وأنك صاحب البيت والضيف . وأنه لا معنى لأن تنتظر أحدا . فليس هناك أحد سواك . .

ومن بعيد أسمع بعض الأجراس . . إنها أجراس معلقة فى أعناق الأبقار . لقد بدأت بنات الطبيعة فى رحلتها اليومية الأبدية . إذًا أبناء آدم لم يستيقظوا بعد، فما تزال الدنيا بخير ماداموا نياما : فالفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها .

ولا يوقظ الفتنة إلا الشمس وإلا الجوع . . فالشمس هنا عكازة الفقراء . . فهى وحدها تدق أبواب أصحاب الأعمال والسائحين وتفتح نوافذهم . . ومن نوافذهم يرون الباعة وعربات الريكشا . .

وتبدأ الشمس تتحسس طريقها وراء السحاب . . والسحاب هو «رغوة» الصابون التى غسلت بها الملائكة السماء والأرض . . ذاب الصابون ولم يبق إلا هذه الرغوة هائمة مثل إيشارب حول رأس الهملايا .

وتعود الشمس تهز الأشجار . . فتتساقط من الأشجار قطرات الندى كأنها دموع على الهدوء والسلام الذى ولى . وأما الطيور فتنهض مذعورة وتصرخ كلها فى وقت واحد كأنها جنود باغتها رئيسها فراحت توهمه أنها لم تنم . . أو كأنها تريد أن تعتذر للنهار عن هدوء الفجر وسلام الليل . . وكأن الراحة خطيئة يجب الاعتذار عنها . .

والماء الذى نزل من السماء . تحاول الشمس أن تسترده الآن . . إنها تبخره . . إنها ترفعه إلى أعلى ليسقط فى شباك السحب . . فالشمس هى أمهر صياد . . إنها تلتقط الماء من الأرض وتخفيه فى السحب .

وكلما ارتفعت الشمس فى السماء تعالت الأبخرة من الأرض تحييها . . أبخرة الأتربة والتلال والأشجار وبقايا الناس والحيوان وأنفاس الزهر والثمار والتوابل والدموع والخنازير والأبقار وعرق الكادحين النائمين على الأرض المبللة . .

وكأن الليل يسوى بين الناس . . بين الغنى والفقير ، بين الهندى والأوربى بين اللاجئين من أبناء التبت وبين من جاءوا يتفرجون عليهم . . بين البوذى والسيخ . . بين المسلم والذين يعبدون النمل . .

وعندما طلع الفجر اختفى الناس ولم يبق إلا ما صنعته السماء للناس . .

وعندما طلعت الشمس ، اختفى ما صنعته السماء ، وظهر ما صنعه الناس بالناس وللناس . .

زحام شديد من الكلام الصينى والهندى والإنجليزى والعربات والحيوانات والروائح والصراخ واللعنات . . والباب يدق ويدخل الخادم بوجهه الذى لامعنى له والذى له رائحة وفى يده الصحف والشاى . .

وألقيت على الفقيدة الراحلة ـ على الطبيعة الجميلة ـ نظرة وداع . .

لقد فتحت النافذة ، فانفتحت نفسى . . ورأيت الناس فانسدت نفسى . . فسددت النافذة .

واختفى الصباح الجميل . . فى مدينة ميسورى!

وقبل الموعد المحدد ذهبت إلى حيث البوابة الأولى . . والبوابة الثانية . ومشيت فى طريق على جانبيه رهبان . . .

ثم مشيت فى طريق آخر مرصوف بالظلط الأحمر والأصفر .

ووجدت نفسى وجها لوجه أمام القصر الإنجليزى الذى يقيم فيه الدلاى لاما . . القصر أصفر اللون . . ونوافذه بنية اللون . . وله زجاج نظيف كبير . . وأمام القصر مدينة صغيرة . . وبها عدد كبير جدّاً من الناس . قد سبقونى إلى هذا المكان .

وبين لحظة وأخرى يظهر أحد الرهبان ويهمس بكلام وعبارات . لابد أنها شبه مقدسة . . ولابد أنها تشبه الـ د . د . ت . تقتل السموم والشرور التى تحوم حول المكان وتريد أن تنقض على الدلاى لاما . . ففى الهند آلهة كثيرون وليسوا على وفاق مع قداسته . . رغم أن قداسته بوذى أو فيه شىء من البوذية . .

ويختفى هذا الراهب ويظهر راهب آخر وحركة فمه مختلفة عن الأول وكأنه يستخدم كلمات أكثر إبادة للشرور والشياطين . . ويظهر ثالث . . وينظر يمينا وشمالا ولا ينظر لنا . . لأنه لاخوف منا . . ويبدو أنه تأكد من خلو الجو تماما من كل سوء . . .

أما وجوه الناس فأشكال وألوان ومعان غريبة . . هذه أم ومعها طفلها كلما حاول أن يتكلم سدت فمه . وهمست فى أذنه بكلام غير مفهوم طبعا . . ويسكت الطفل ويحاول

أن يقاطع أمه وهى تصلى . . وهذه عجوز أتت ببقرتها . . وهذا شاب مجذوم . . وهذا رجل يحمل على كتفه اثنين من الأطفال . .

وفجأة يظهر راهب . . كأنه يباغت الشرور التى لابد أن الدعوات لم تصبها والصلوات لم تسقطها . . ثم يظهر الرهبان جميعا ويفسحون الشرفة للدلاى لاما الذى يرفع يده ويحنى رأسه ومن وراء منظاره الزجاجى تلمع عيناه . . تلمع أكثر من ملابسه الملونة الزاهية بالأحمر والأزرق والأصفر . .

ويقترب منا قداسته بضعة سنتيمترات ويقول :

تكد . . ثك . . ره . . لى . . آه «لحظة صمت» . . بى . . أهو . . لى تهوه . . شى . . منه . . بو . . تو . . توهان . . هاما . . سوفوت «صمت طويل» . . اده له . . آه!

ليست هذه أخطاء مطبعية . . وإنما هوكلام حقيقى . . كلام مقدس له أول وله وآخر . وأنا رأيت أوله وهويخرج من بين شفتين ناعمتين رقيقتين تستديران وتصبحان كخاتم سليمان ، ثم تمتد إحداهما إلى الأمام فى اشمئزاز مقدس ، والأخرى تهبط إلى أسفل فى قرف إلهى . . ورأيت آخر هذا الكلام وهوينزل فوق رءوس حانية عارية .

رأيت الكلام ينزلق على الرءوس فتتلقفه الأيدى المبسوطة عند الركبتين . . ورأيت معناه فى العيون الدامعة والصدور التى تعلو وتهبط وتلهث حائرة بين معانى هذه الآيات البلكونية ـ فقد كان قداسته واقفا فى البلكونة ـ ولابد أن هذه البلكونة ترمز إلى إحدى السماوات أو الأبراج التى فى السماء .

وفجأة يختفى الدلاى لاما . . ويقفل الرهبان الأبواب وراءه حتى لا يصاب بأنفاسنا الإنسانية الآثمة . . وحتى لا تزعجه أصوات المؤمنين الذين يطلبون المزيد من الآيات والنظرات . . والمزيد من لعناتى أنا !

١٢ ساعة ذهابا وإيابا فى الوحل والمطر والبرد ورائحة العفونة والبعوض وبعد ذلك : تكك . . تكد . . موه . . أوه!

روح ياشيخ منك لله !

وعدت فى قرف شديد إلى الفندق . . ولم ألتفت إلى الحشد الذى يمثل عددا من أبناء التبت لم تسعدهم الظروف لمشاهدة الدلاى لاما . ولو مددت يدى أو رجلى لقبلوها بالترتيب حسب الحروف الأبجدية!

وفى اللوكاندة، اتصلت برئيس وزارة التبت أطلب إليه أن يوافق على مقابلتى للدلاى لاما. لا أن أراه عن بعد. . فلم تكن هذه مقابلة. . إنما هى مواجهة. كما يتواجه المجرمون والكلاب البوليسية فى أقسام البوليس.

ولك الآن أن تعرف أينا المجرم وأينا الكلب البوليسى، بعد أن عرفت من طريقة خروج الحروف والكلمات من بين شفتى الدلاى لاما!

وبعد أن عرفت الكلب البوليسى الآن، فلايمكن أن أكون أنا المجرم. فالاعتداء على راحتى وعلى آمالى واضح جدا!

وقد لمست من صوت رئيس وزراء التبت لهجة ليست ودية بالمرة. فلاأعرف إن كان الرجل قد رجع فى كلامه. أو كان الرجل الهندى الذى يتولى قطع العلاقات العامة والخاصة للدلاى لاما قد أثر عليه.

ولاحظت أننى ذهبت فى كلامى معه إلى أقصى درجات التوسل والرجاء، وفهمت من رئيس الوزراء أنه لا يستطيع أن يقابل الصحفيين فى هذه الأيام. واستوضحت منه معنى «هذه الأيام». . فهذه الأيام بالنسبة لنا نحن البشر معناها هذا الأسبوع أو هذان الأسبوعان على الأكثر. ولكن بالنسبة للآلهة. . فلا بد أن تكون «هذه الأيام» معناها السنوات أو القرون!

ومع عبارة خرجت من فم رئيس الوزراء تقول: اتركنى أفكر. . بدأت أنا فى التفكير. .

وفى الصباح الباكر كنت قد نفذت فكرتى. .

وجاءت الريكشا وتمددت عليها ملفوفا بالبطاطين وملفوفا بالفوط والبشاكير. واندهش الناس. وقلت لهم بصوت غير واضح: إننى مريض وعلاجى الوحيد عند قداسة الدلاى لاما. .

وبين طيات ملابسى توجد كاميرا. .

أما الرجل الذى يحمل الريكشا من الخلف فهومصور محترف، وقد استدرجته إلى هذه المنطقة بين الجبال وراء أمل براق جدًا هو أننى موفد من إحدى شركات السينما العالمية لعمل فيلم عن الدلاى لاما. . ووعدته بأن يكون ضمن الذين سيشتركون فى تصوير هذا الفيلم. وأشهد أن هذا الشاب المصور كان فى غاية الإخلاص. ومع الأسف لا أعرف اسمه الآن فقد أحضر معه عدة كاميرات وعشرات الأفلام.

واجتزنا الحواجز الواحد بعد الواحد . . واقتربنا من الحديقة . ودخلت الباب الخارجى والصالة والسلالم .

ورآنى رئيس الوزراء فسبقنى إلى فوق ، إلى حيث يعيش الدلاى لاما . . ويبدو أنه أدرك هذه الحيلة . وأدرك أيضا أن هذا انتصار على الرجل الهندى قاطع العلاقات العامة . .

وعلى المحفة صعدت السلم .

الآن أصف لك البيت أولا . . السلم من خشب كسلالم البيوت الإنجليزية ، ومفروش عليه سجاد من جلود الأغنام أو الجمال أوحيوان اللاما . . ولكن الخشب والجدران نظيفة كلها . وتفوح منها رائحة أقرب إلى البخور . وكل شىء هامس تماما . . والسلم ضيق ودرجاته ضيقة . وهو يلتوى فجأة . وعند الالتواء تجد نفسك فى مواجهة لوحات على الجدران . والأرض مغطاة بسجادة فخمة ، جميلة الألوان . . وتتدلى من السقف نجفة . وكل الأبواب مقفلة . ولكى يضعوا المحفة على الأرض ، كان لابد من زحزحة بعض المناضد والمقاعد . .

وابتسم رئيس الوزراء وأشار لى بأن أنهض من تحت البطاطين وأنه لاداعى لهذه الحيلة التى جازت على الرجل الهندى . وأن هذا يكفى . ولكنى تمسكت ببعض الأغطية وبعض الفوط الملفوفة حول عنقى . ورغم حرارة الجو فى هذا القصر الدافئ ورغم خوفى من تيارات الهواء عند انفتاح شباك أو باب . فإننى ظللت ملفوفا مربوطا وعلى استعداد لأن أقول آه . . بأعلى صوتى .

ومن ورائى انفتح باب صغير . وعند انفتاحه انحنت الرءوس التى ظهرت فجأة ، وتقدم الدلاى لاما . .

والآن أراه بوضوح وأصفه لك عن قرب : شاب متوسط القامة . لامع الوجه والابتسامة أيضا . . وصوته غليظ وشعر رأسه قصير . ويمشى مرفوع القامة . وقد لاحظت لمعانا غريبا فى عينيه . مع ميل إلى أن يغمض عينه اليسرى عند الضحك . . وهو لا يضحك وإنما يقهقه . ولم يكد يرانى حتى تعالت ضحكاته ومد يده المقدسة ووضعها على رأسى ، ثم لمس أنفى . ولا أعرف إن كان المقصود هو أنفى بالذات ، أو أن يده أخطأت الطريق إلى فمى لعلى أقبلها . . ثم اتجه مباشرة إلى كرسى وثير وجلس واضعا شبشبا على شبشب . . فبعد أن جلس خلع الشبشب الذى يرتديه . ثم وضع واحدا منهما

على الآخر. تماما كما كنا نفعل فى الريف عندما نتشاجر ، فنضع طوبة فوق طوبة دلالة على أن المعركة مستمرة. وكنا نقول ونحن صغار: طوبة فوق طوبة تبقى المعركة منصوبة!

ولاحظت أن قدمى قداسته لاترقى إلى المستوى اللائق.. ثم إن أظافره مصبوغة بلون أصفر. لا أعرف إن كانت هذه صبغة أو أى شىء آخر..

وتحت الأغطية صرخت بشكل مكتوم : الله يخرب بيتك يا دلاى!

فقد وجدت فى ساقيه آثاردمامل.. آثار هرش.. أى أنه بيده التى لامست وجهى قد هرش فى ساقيه.. وهنا فقط لم أعد فى حاجة أن أقوم بتمثيل دور الرجل المريض. فأنا بالفعل مريض وأنا فى انتظار أى مرض. والذى هربت منه فى نيودلهى ، قد سبقنى إلى ميسورى.. وعلى أعلى المستويات.. فوق الهملايا، وعند رجل إله!

وقلت : آه ـ ردا على سؤال منه ، فقال المترجم: هل أنت مريض؟ وقلت : آه ـ ردا على سؤال آخر : وهل أنت صحفى ؟

وقلت : آه ـ ردا على سؤال لم أكن أتوقعه : وهل تريد حديثا معى وصورا أيضا؟

وهنا نزعت الأغطية. بعد أن أحسست بأننى خنقت نفسى من غير مبرر. وأن بعض هذه الأغطية كان يكفى للضحك على «قاطع العلاقات» الموجود فى الدور الأرضى..

وجلست إلى جوار الدلاى لاما، لكى تظهر لى أول صورة نشرت له فى العالم العربى. أو صورة تنشرها «أخبار اليوم» للدلاى لاما.. وأنا أبتسم له وهو أيضا. وسبب ابتسامتى أننى رويت له نكتة. وسبب ابتسامته أنه يضحك عادة. وأنه ليس فى حاجة إلى أى سبب لكى يضحك. وفى صورة أخرى لم أنشرها بعد ما رأيت نفسى أقهقه. أما السبب فهو أن الدلاى لاما طلب منى أن أبلغ تحياته إلى المؤمنين به.. المساكين فى شوارع القاهرة والإسكندرية والمنصورة وغيرها من المدن!

سألت الدلاى لاما : كيف هربت من التبت إلى الهند؟

فأجاب بصوت غليظ : سر..

وسألته : هل أخذت معك كميات من الذهب ؟

فأجاب : سر . .

قلت : هل تنوى نشر مذكراتك بعد ذلك ؟

فأجاب : سر . .

سألته : ما سر حرصك على أن يكون كل شىء سرا ؟

فأجاب : سر . .

قلت : ولكن كل شىء معروف عنك . . فمعروف عدد رجالك . . وماذا تأكلون وماذا تشربون . . إن الذين يتولون حراستك هم الذين ينشرون أخبارك فى كل مكان .

فأجاب : إننى أعرف ذلك .

قلت : إذًا لا يوجد أى سر . .

فضحك . . ثم عدت أسأل الدلاى لاما : هل أستطيع أن أعرف كيف تعيش هنا ؟

وأشار إلى ملابسه وإلى غرفة فى مواجهتنا وضحك . .

وهنا التفت إلى المترجم أسأله إن كان المقصود هو أن قداسته قد زهق وأنه يكاد يطلع من هدومه . .

ولكن المترجم لم يشأ أن يقول شيئا . .

وعدت أسأله : ما الذى قلته قداستك الآن؟

فضحك ولم يقل شيئا .

وتلفت إلى المترجم أسأله . ويظهر أن المترجم يريد أن يقول لى : هذا سر .

وسألت الدلاى لاما : هل جاء دورك لكى تختفى فى سن الثالثة والعشرين كما هى العادة؟ أم وجودك فى بلاد أجنبية يجعلك تعدل عن هذه العادة؟

وضحك .

وقبل أن ينطق قلت له : هذا رأى الصحف الصينية!

وسألته : ما هى حدود قدرتك كإله؟

وأعتقد أن السؤال كان صعبا ولم يكن متوقعا!

فأشار إلى الغرفة الضيقة .

والتفت المترجم يقول : إنه يصلى دائما . .

أى أنه يطلب من آلهة أكبر أن تعاونه على أداء رسالته . .

يعنى هذا الدلاى لاما غلبان مثلنا !

وطلبت إلى الدلاى لاما ، قبل أن ينهض وقبل أن يزهق من عشرات الصور التى التقطت له ، والتى التقطها المصور الهندى صاحب الطموح العظيم، أن يسمح لى بتصوير صاحبة القداسة والدته . فالناس يتلهفون على التطلع إلى وجهها السماوى . .

وهز رأسه بالموافقة . .

وألقيت بآخر اللفات التى خنقت عنقى ، واتجهت إلى الغرفة الضيقة التى كثيرا ما أشار إليها قداسته . .

والغرفة ضيقة جدا . .

وعلى الأرض توجد سجادة ضيقة . . سجادة للصلاة . .

وأمام السجادة توجد لفة كبيرة من الورق . . هذه اللفة تضم الأدعية والتراتيل التى يؤديها الدلاى لاما ، كل يوم فى الصباح قبل أن يباشر مهام ألوهيته . . واللفة يبلغ طولها نحو عشرين مترا . . والكلمات مكتوبة عليها بالطول . . أى السطر الواحد طوله عشرون مترا . . ولكى نقرأ السطر الذى يليه يعيد اللفة من أولها إلى آخرها . . واللفة الواحدة بها عشرون سطرا طوليا .

وليست هذه إلا إحدى اللفائف الخاصة بهذا اليوم فقط . وقيل لى إن قداسته يقرأ حوالى عشرين لفة فى اليوم الواحد!

إلى هذه الدرجة هو مشغول فى الدعاء لشعبه الطيب؟

وعلى الجدران توجد لوحات للطواويس . .

لا أعرف إن كانت هذه اللوحات لها أية دلالة دينية عند البوذيين الذين ابتدعوا منصب الدلاى لاما فى أواخر القرن التاسع عشر . . أو أن هذه اللوحات تخص الإنجليز الذين كانوا يسكنون هذا القصر . وأنهم أتوا بها من إيران مثلا . .

وقد لاحظت فيما بعد عندما زرت قصر الإمام أحمد ملك اليمن السابق فى صنعاء مثل هذه اللوحات التى تضم مجموعة من الطواويس الملتهبة الألوان ؛ ولم أجد أحدا أسأله عن دلالة هذه الطواويس ، وإن كنت أعرف أنها لوحات مرسومة على سجاجيد إيرانية .

ولعل الدلاى لاما قد استعار ألوان ملابسه من هذه اللوحات .

وبينما أنا مندهش للفائف الطويلة ، وللسجادة التى تشبه شريطا من الورق مقصوصا بغير عناية . . وللشبشب الصغير جدا الموضوع فوق السجادة ، حتى لا تطير ، إذ انفتح الباب أو الشباك فجأة . .

وفى هذه اللحظة تقدم أحد الرهبان وزغدنى فى جنبى .

والتفت لأراه وقد أمسك زجاجة عطر . وعلى الطريقة البدوية لمس يدى بالزجاجة فنزلت قطرة من عطر لونه أصفر . وأدنيت العطر من أنفى . وكان لا بأس به . وقبل أن أسأله عن مصدر هذا العطر ، وإن كان يشفى من الأمراض ، وجدته قد اختفى . .

وبعد أن أطلت التأمل فى الغرفة التى ليس بها أى شىء أكثر مما قلت ، والغرض من التأمل هو أن أبين للدلاى لاما . أن فى الغرفة شيئا يغرى بالتفكير والتأمل . والذى فكرت فيه وتأملته هو كيف يعتقد هذا الرجل العبيط أنه إله !

وخرجت بسرعة لأن السيدة والدته فى انتظارى . .

والله فرجت يا واد . . الدلاى لاما وأمه أيضا !

والله طاقة القدر انفتحت لى مرتين !

والطريق إلى غرفة قداسة الأم عبارة عن ممر صغير . ولم ألتفت إلى شىء فى الممر . فلم يكن هناك أى شىء .

وانفتح الباب . وطلت سيدة تضع منظارا على عينيها . والسيدة ترتدى فستانا من النايلون الأبيض . وظننت أننى جئت فى الوقت غير المناسب خصوصا وأن قداستها ما تزال فى قميص النوم .

ولكن قداستها ابتسمت وأشارت لى بالجلوس وهى تمد يدها تسلم علىّ . . توقفت مدة أخرى . فأنا لم أكن أعرف أن السلام على قداستها ليس حراما . . وقابلت ابتسامتها وبساطتها بقولى : أنا كنت أتصور إنك أكبر سنا !

فقالت وكلها أنوثة عادية جدا : كم سنى!

قلت : فى الأربعين .

فضحكت وهى سعيدة جدا . هل تعرف أن أمى ماتزال على قيد الحياة وأنها شابة ! ومعنى ذلك أنها صغيرة . . ولكن ما معنى أنها ما تزال على قيد الحياة؟ هل كان المفروض أن أمها تموت وهى فى ريعان الشباب، تماما مثل الدلاى لاما الذى يجب أن يختفى فى أجمل سنوات عمره! لا أعرف ولم أستوضحها . فمنظرها وملابسها وخجلى والزكام الذى بدا يغزو أنفى ويلسعه من الداخل، كأننى تنشقت بمليون بعوضة، كل هذا منعنى من الاستمرار فى الكلام معها وفى التقاط صور لها فى أوضاع مختلفة . . فى الفستان ووراء الناموسية النايلون أيضا .

وعدت أسألها : هل كنت تتوقعين أن يكون ابنك دلاى لاما؟

قالت : شعرت بهذا . وكنت أحيانا أحلم بأنه على رأس جيش، وأحيانا بأنه يطير فى السماء. وكان المرحوم زوجى يتهمنى بالجنون . .

وقد رأيت وجه قداستها يتلون بالاحمرار، عندما أكدت لها أنها شابة . . وأنها أصغر بكثير جداً مما تصورت .

حتى أم الإله لم تنس أنها أنثى . . وربما كانت هى الوحيدة التى لا يعنيها أمر دولة التبت من أولها إلى آخرها . إن دخولها إلى الهند قد ملأ غرفتها الصغيرة بالملابس النايلون والأبيض والأحمر والسوتيانات . وأعتقد أننى لمحت بعض اللبان الأمريكى وبعض السجائر أيضا!

وسألتنى قداستها : من أى بلد أنت ؟!

فقلت : من القاهرة عاصمة مصر .

وقالت : وهل جئت لترى صاحب القداسة ابنى ؟!

قلت : طبعا .

وسألتنى : ما رأيك ؟

وهل يكون لى رأى . طبعا رفعت يدى مضمومتين إلى أعلى، أحيى مجرد ذكر اسم صاحب القداسة الدلاى لاما !

واستأذنت منها . . لأتركها على حريتها تنزع الفستان النايلون وترتدى مسوح الراهبات . فهى راهبة طبعا . ولا يحق لها أن تتزوج لعدة أسباب :

أولا ؛ لأنها أنجبت إلها والتبت لا تؤمن بتعدد الآلهة . . وثانيا ؛ لأنها أنجبت أربعة إخوة للدلاى لاما ، رجلين وامرأتين . وإحدى ابنتيها تعيش فى منطقة دار جيلنج على مسافة قريبة من الدلاى لاما ، هذه المنطقة هى أحسن مناطق الهند فى زراعة الشاى . ويوجد شاى عالمى باسم دار جيلنج . ولعلك تلاحظ أيها القارئ أنه مضت عدة صفحات لم أشر فيها إلى كوب واحد من الشاى دخل به جرسون أو رفضت أن أشربه . . والحقيقة أننى فقدت طعم الشاى واللبن والنوم والدنيا . . وفى اللحظة التى تحققت فيها أمنيتى برؤية الدلاى لاما بدأت أشعر بالزكام والسعال ، وفقدت طعم الشاى واللبن والحياة .

ونزلت السلم بدون ريكشا . وقد سبقنى الشيالون ـ أو الذين يحملون الريكشا ـ ولم ألتفت كثيرا إلى الناس على الباب أو أمام الباب . حتى ضابط العلاقات الهندية ، لم أجد فى نفسى رغبة فى أن أنظر إليه . ورأيت أنه من العبث وتبديد الطاقة أن أنظر إليه بشىء من الشماتة . . أو الاحتقار!

وخرجت والناس المؤمنون والرهبان يتلفتون ناحيتى . وكل عيونهم تحسدنى وتقول بكل لهجات أهل التبت . يا بختك . . إتس . . إتس !

والكلمتان الأخيرتان هما اللحن المميز للزكام والسعال الذى انتقلت عدواه من صاحب القداسة إلى أنفى !

ولم أعرف على أى شىء يحسدنى هؤلاء الناس؟ هل يحسدوننى على المشوار الطويل الذى قطعته من مصر إلى الهند؟ أم من العاصمة الهندية فى سيارة قديمة حتى وصلت إلى هذه المناطق الجافة القاحلة؟ أم على المغص الذى بدأ يلعب بأحشائى؟

أما السعال فقد انفرد بتمزيق صدرى . . كأن السعال «فنان» عصبى المزاج ، كلما كتب شيئا راح يمزقه . . ولكنه بدلا من أن يلقى بما يمزقه فى فمى أو فى أنفى . فإنه يحتفظ به فى صدرى . فى مكان ما فى صدرى!

إتس . . إتس . . وإخص على قداستك !

* * *

وبنفس السيارة الطويلة العريضة عدت إلى نيودلهى ، بعد أن ودعت الشيالين ، وودعت

المصور الذى تركته يحلم بذلك اليوم الذى تجيء فيه عدسات السينما العالمية لتلتقط قصة حياة صاحب القداسة، ويكون هو من ضمن الواقفين وراء الكاميرات . .

وعندما ودعته ، اضطررت إلى أن أقرصه. فقد كان نائما فى أحلام سعيدة . . وفى ركن من السيارة بدأت أقرص نفسى ، لأتأكد إن كنت حيا أو ميتا، فلم أصدق نفسى وأنا أقول باللغة العربية : أول صحفى فى العالم كله يقابل الدلاى لاما شخصيا ، ويأخذ منه الزكام . . ومن المؤكد أننى أول صحفى فى الكرة الأرضية يصور أم الإله، ولو طلبت منى أن أتزوجها لوعدتها فورا!



حفاة تقدميون جدا!

انتهت مهمتى الأولى فى الهند . .

والمهمة الثانية هى أن أذهب إلى ولاية «كيرالا» فى أقصى جنوب الهند، لأكتب قصة الصراع بين الحزب الشيوعى وبين الحكومة المركزية فى نيودلهى . . فالهند مجموعة من الولايات كل واحدة لها برلمان ولها وزارة . وهى جميعا تتلقى التعليمات من الحكومة المركزية . وبعض ولايات الهند يبلغ سكانها ثمانين مليون نسمة!

وولاية «كيرالا» تقع على الساحل الغربى للهند . . إلى الجنوب من هذا الساحل .

ويقال : إن اسمها «خيرالله» . وإن هذه التسمية قد أطلقها العرب على هذه البلاد . والمسلمون قد دخلوا إلى الهند من هذه النقطة، واليهود أيضا . فعندما انهدم المعبد فى أورشليم هرب اليهود على سفن فينيقية إلى هذه البلاد وأقاموا لهم معابد كثيرة . وخصوصا فى مدينة كوتشين .

عاصمة هذه الولاية اسمها «ترفندروم» . . الاسم فقط جميل . . ولكن المدينة نفسها ليست كذلك .

جعلت ألف فى شوارع نيودلهى بحثا عن أية معلومات عن ويلاة كيرالا . . لم أجد فى المكتبات إلا منشورات صغيرة . وأحيانا فصولا ضمن الكتب . وفى نيودلهى مكتبات ممتازة بها كل الكتب التى صدرت فى إنجلترا بالذات .

ولم يكن أمامى إلا الحزب الشيوعي . وذهبت إلى مركز الحزب الشيوعى وسألت عن كتب هذه الولاية . وهناك وجدت بعض الكتب . وبحثت عن خريطة لهذه الولاية أيضا

وبدأت أجمع كل ما تنشره الصحف الهندية عن الموقف فى كيرالا . . عن مظاهرات الطلبة ورجال الدين. وعن الهجوم على رئيس الوزراء نامبودريباد. وجمعت صوره وخطبه. ولاحظت أنه رجل قوى الحجة. وأن له تعبيرات خاصة. وهذه التعبيرات مألوفة ومتكررة عند كل الزعماء الشيوعيين. وقد ساعدتنى وزارة الخارجية الهندية. فأبرقت إلى ولاية كيرالا وطلب إلى المسئولين هناك أن ينتظرونى وأن يحجزوا لى مكانا فى أحد الفنادق. وسافرت بعد أيام إلى مدينة «مدراس» فى طريقى إلى ترفندروم عاصمة كيرالا.

و«مدراس» مدينة كبيرة واسعة . .

وهى تقع على الشاطئ الشرقى للهند إلى الجنوب. وهى أيضا لا تختلف عن المدن الأخرى ففيها نفس الروائح وربما كانت هناك أقوى. والجو هناك طبعًا حار والرطوبة عالية والبعوض كثير جدًا. والناموسية المزدوجة لسريرى لا تكفى لحجز البعوض. والفليت الذى يرشون به غرفتى لا يقتل البعوض. وأن هناك احتمالا كبيرا فى القضاء على أنا إذا استمرت الرشاشة تبصق هذه المواد السامة فى وجهى.

وجلست فى ردهة الفندق الكبير أقلب الصحف. ووجدت أشياء طريفة. قرأت موضوعا عن البوليس النسائى. فقد لجأت هذه الولاية إلى الاستعانة البوليس النسائى وجعلت له زيا خاصا. ويبدو أن هذه الفكرة قد أثارت سخرية الناس؛ وأنا أعرف كيف يسخر الهنود، ولكن لا أعرف كيف يضحكون. فربما كان الشعب الهندى هو الشعب الوحيد فى كل القارة الآسيوية الذى لا يضحك أو من النادر أن تجد على وجه زى إنسان أى بارقة ابتسامة . . على عكس كل القارة الآسيوية التى تضحك شعوبها التوازن الدولى!

وقرأت مقالا طريفا . . والمقال على شكل نداء موجه إلى الشعب فى ولاية مدراس . .

المقال يطلب من الناس أن يكفوا عن قتل الثعابين . .

ويتساءل الكاتب لأى سبب يقتل الناس هذه الزواحف المسكينة . . هل هناك عذاب أو لعنة أصابت كائنا حيا فحزن فقطع أرجله وفضل أن يزحف على بطنه مثل الأفاعى؟ ألا توجد فى قلوب الناس رحمة . . ألا يذكر الناس أن الله لم يخلق لهم الأيدى ليقتلوا بها الكائنات التى بلا يدين ولا رجلين؟ ثم لماذا يقتل الناس هذه الأفاعى؟ يقتلونها لكى يسلخوها . . ثم يبيعوا جلدها . . ولا يمضى وقت طويل حتى يتحول الجلد إلى حزام لامرأة. أو جزمة لفتاة . . أو شنطة يد لعروس . . فهل كل هذه المجازر الشائنة من أجل إرضاء المرأة؟ هل المرأة تساوى كل هذه الدماء؟

ثم من الذى يذبح الأفاعى من أجل المرأة؟ إنه الرجل . . الذى أذلته المرأة وجعلته كالأفعى، يزحف على يديه وعلى رجليه وعلى شرفه . وعلى جثة كرامته!!

إن الرجل ينسى ما فعلته المرأة به . .

أو لعله يتذكر جيدا ما فعلته المرأة . ولذلك فهو يقتل هذه الحيوانات المسكينة انتقاما من المرأة!

وشىء مهم جدا أشار إليه الكاتب . .

وقال لنترك هذه الاعتبارات الإنسانية . . إن هناك اعتبارا اقتصاديا مهما جدا، يحتم علينا، ولأسباب وطنية، أن نترك هذه الثعابين تعيش بيننا . . كما تعيش حيوانات أخرى كثيرة لا فائدة لها ولا ضرر أيضا . . إن هذه الثعابين تأكل الفيران، والفئران إذا لم تأكلهاالثعابين فإنها تأكل حقول القمح . .

ويصرخ الكاتب قائلا : هل عرفتم هذه الحقيقة؟ إن الفئران هى التى تأكل القمح قبل أن يتحول إلى دقيق لكم ولأولادكم . . فلماذا لا تتركون الأفاعى والثعابين تدافع عنا بلا مقابل!

والفكرة وجيهة . . وهى مشكلة من المشاكل الموجودة فى هذه المنطقة . ولابد أن لها نظيرا فى ولايات أخرى .

ورفعت سماعة التليفون لأسأل عاملة التليفون : هل قرأت صحف اليوم؟ ولم تفهم هذا السؤال الذى يعتبر دخولا فى موضوع لا تعرف هى عنه أى شىء . .

أو لعل هذه الفتاة قد تعودت معاكسة النزلاء، ولذلك فهى لا تستبعد أن يكون كلامى معها مجرد مداعبة . . وسيكون لهذه المداعبة ما بعدها . .

يجوز . . وكان ردها استنكاراً ملفوفا فى ثوب مهذب من الدهشة المهنية ـ أى الدهشة المهنية ـ أى الدهشة التى تحتمها طبيعة المهنة ـ وأعدت السؤال مع شىء من التوضيح فقلت لها : هل قرأت ما كتبته الصحف اليوم من أنه يجب على المواطنين ألا يقتلوا الثعابين التى تأكل الفئران التى تأكل القمح؟ هل هذا رأيك أنت أيضا ورأى اللوكاندة؟ هل أنتم تقتلون الثعابين، أمأنكم من أنصار الحياة . . أى أن الإنسان يجب أن يعيش وأن يترك غيره يعيش . غيره من الناس والأفاعى؟

وبالاختصار هل فى غرفتى ثعابين أو فئران؟

أما الضحك الذى سمعته فى التليفون فلم يقابله إلا غيظ شديد منى . . وألم متواصل فى خدودى وفى قفاى . . قبلات وصفعات من البعوض الذى تسلل إلى داخ الناموسية . . وأنا أعتذر عن استخدام كلمة «تسلل» هذه . فمعناها أن البعوض قد وجد صعوبة فى الوصول إلى وجهى . والحقيقة أن الطريق كان مفتوحًا .

وكان رد عاملة التليفون أن كاتب هذا المقال رجل مجنون . . والحقيقة أنها قالت صحفى مجنون!

وقبل أن تسألنى عن صناعتى، اكتفيت بهذه الشتيمة الموجهة إلى أحد أبناء مهنتى . ودخلت الغرفة فى انتظار ثعبان أو فأر!

وفى الليل خرجت أتمشى فى المدينة . . وركبت أحد التاكسيات . . إنها هنا كثيرة . فالتاكسيات فى مدينة نيودلهى كلها من ماركة موريس الصغيرة . وكل سائقيها من طائفة السيخ . فالسائق يملأ المقعد وعمامته تضرب فى سقفه . ومنظره غريب جدا . . إن الذى يراه فى القاهرة يحس لأول وهلة أنه حانوتى . . أو سائق عربة موتى . والمرور هنا أيضا على اليسار . وكل دو الكومنولث البريطانى تمشى سياراتها على اليسار، مثل قطارات السكك الحديدية . . أى على عكس المرور عندنا وفى كل الدنيا!

وسألت سائق التاكسى : هل تعرف كيرالا!

وأجاب : طبعًا .

وسألته عن الأحوال هناك وما رأيه هو الشخصى . وأصبح رأيه معروفا عندما قال لى إنه من مواليد كيرالا، وإنها جميلة . وإن الأزمة السياسية التى فيها لابد أن تنتهى ولابد أن ينتصر حزب نهرو مهما فعل الشيوعيون . وعرفت منه على الرغم من أنه شيوعى . ولكنه يعيب على الحزب الشيوعى هناك تفككه . فلو كان الحزب قويا لبقى فى الحكم إلى الأبد .

ولم أجد فى آرائه السياسية ما يشجعنى على الاستمرار فى هذه المناقشة . . وسألته عن الحياة هناك وعن الأمراض . وعرفت منه أنه لا توجد أية أمراض مشهورة . وإنما هناك كل الأمراض الموجودة فى الهند مضافا إليها مرض الفيل . وهذه الإضافة ليست من عند السائق . وإنما من عندى أنا والذى أضافها ليس أنا الذى يكتب الآن، وإنما أنا الذى يخاف . الذى فى خوف دائم من كل مرض . ومن اسم أى مرض .

والذى قرأته عن مرض الفيل أرعبنى.

فهذا المرض ينقله الذباب وينقله البعوض أيضًا . .

دودة هذا المرض لا تنشط فى الدم إلا بعد منتصف الليل والساعة الثانية صباحا. أى فى الوقت الذى يكون فيه المريض نائمًا. ولا شك أن هذا يعتبر فى منتهى الذوق من الدودة الحقيرة . . حتى الدود عنده ذوق فى الهند!

فإذا جاء الطبيب ليكشف عن سر التهاب عين أو أنف المريض أوعنه فلابد أن يكون ذلك فى هذه الساعات من الليل. فدودة مرض الفيل لا تعمل إلا فى هدوء، أى فى هدوء المريض . . فإذا تحرك المريض توقفت عن العمل . .

وهم فى هذه المناطق من الهند يلجئون إلى نوع من الذباب أو الحشرات التى تمتص دم الأماكن الملتهبة فى الجسم. ولكن مرض الفيل المعروف، والذى يؤدى إلى تضخم جسم الإنسان، لا علاج له. وإن كان بعض الأطباء يستخدم مركبات السلفا. ولكن حتى الآن ليس له علاج أكيد. . فمرض الفيل هو نوع من التورم. . النفخة فى كل أعضاء الجسم دون أن يكون ذلك مؤلمًا. . أى أنه مرض النفخة غير المؤلمة!

وهذه الدودة إذا دخلت الجسم انطلقت إلى الأعضاء الداخلية بسرعة. . وظلت كامنة هناك تنمو وتنضج فى صمت، ولا تظهر أعراض الإصابة بها إلا بعد مائة يوم. . ولا تنضج الدودة تماما إلا بعد سنة!

والدودة الرفيعة الدقيقة الخاصة بالإنسان لها اسم رقيق جدًا هو : لولو . .

ومعلوماتى أيضا أن هذه الديدان الفيلية موجودة فى كل جزر المناطق الاستوائية، وموجودة فى إفريقيا وأستراليا . . أى باختصار فى كل البلاد التى سأقوم بزيارتها . . أما الوقاية منها فكل الكتب الطبية تؤكد أن الـ د. د. ت. هو أحسن شىء اخترعه الإنسان والـ د. د. ت. الغرض منه طبعا القضاء على البعوض الذى يحمل هذه الدودة. . وليس علاجا للمريض إذا أصيب بها. فليس أمامى إلا الوقاية : أولا بالـ . د. د. ت. وثانيا الناموسية.

فإذا عرفتَ أيها القارئ أنه توجد هنا فى هذا الجانب من الهند جميع أنواع البعوض وجميع أمراض البعوض، ويوجد معهد خاص بدراسة البعوض الذى يوجد منه فى الهند وحدها ٢٥٠ نوعًا، أدركت المأساة التى أعيشها. أو أدركت المأساة التى أنطلق إليها بسرعة ٢٥٠ كيلو مترا فى الساعة ـ هى سرعة الطائرة الصغيرة فى أحسن حالاتها!

وربنا يستر . . وربنا هو الذى ينجى من المرض قبل الإصابة به وبعد الإصابة به. ولا أحد يعرف أين يموت ولا متى ولا كيف ولا بأى شىء. ثم إنه ليس من الضرورى أبدا أن أموت بكل هذه الأمراض. ثم إن البعوض فى الهند ليس فى حاجة إلى شخص غلبان يضاف إلى الـ ٥٠٠ مليون نسمة الموجودة فى الهند. فالبعوض ـ ولله الحمد ـ لا يشكو من قلة العمل ولا نقص الغذاء.

وبهذا الاستسلام والتوكل على الله سافرت إلى ولاية كيرالا . . ونزلت الطائرة فى مطار عريان من الأشجار ومن الناس . . الدنيا حر طبعًا. وإن كانت هناك نسمة خفيفة تدل على أننا على شاطئ البحر. والناس هنا عددهم أقل والقليل منهم يتفرج على هذه الطائرة. وملابسهم هنا تغرى بالفرجة فهم يرتدون «الدوتى» هذا ما عرفته فيما بعد. وهو قطعة من القماش ملفوفة حول الجسم وملفوفة من الخلف. لم أحاول أن أعرف كيف يلفونها ثم يتحركون بها وبسرعة. . كل الناس الذين رأيتهم فى المطار حفاة. . وبعضهم يرتدى الجاكتة وفى جيوب الجاكتة توجد أقلام باركر أو شيفرز. ولكنه مع ذلك أيضا حافى القدمين!

ومن بعيد لمحت أشجار جوز الهند. والكثير جدًا من الأشجار التى لا أعرف أسماءها. وبعد ذلك بدت الأرض كلها خضراء.

وتقدم منى شخص كل ملامحه تدل على أنه أحد الرسميين. وسألنى إن كنت فلانا الفلانى؛ فقلت نعم. فلم يرحب بى وإنما أخبرنى على الفور أنه تلقى من وزارة الخارجية إشارة تفيد بأننى قادم إلى هذه الواية وإنه قد أعد لى كل ما أريد. وحجز لى غرفة فى الفندق الكبير أو الوحيد فى العاصمة. وإنه سيحاول غدا أن يحدد لى موعدا مع من أريد من الوزراء أو رئيس الوزارة. .

وشعرت بالارتياح الشديد. .

ونقلتنى السيارة إلى الفندق. والفندق واسع جدًا. ومريح. وغرفتى كانت على الحديقة. . الغرفة صغيرة ولها حمام ملحق بها. ولا أعرف لماذا لم أجده مريحًا فى ذلك الوقت. ربما كان سبب ذلك أنه لا توجد ناموسية. ولكن الناموسية منصوبة حول سريرى. . وأمام غرفتى ترابيزة وإلى جوارها كرسى لا يثبت فى مكانه. لا أعرف من الذى ينقله فى المساء ثم يأتى به فى الصباح. نفس الكرسى. فقد علمت الكرسى بأن كتبت عليه اسمى. ومن الغريب أن كل الكراسى تختفى ثم يعود كل واحد إلى مكانه. .

ومنظر الأشجار العالية جميل . . والجو هادئ. والهواء منعش. والناس فى حالهم، ولون الأعشاب أخضر أميل إلى الزرقة. ولم يزعجنى إلا الغربان وهى تخطف الأناناس من الأطباق أمامى. وفى الأيام الأولى لوجودى فى هذه المدينة كنت أضيق بالغربان وبسوء أخلاقها. ولكن عندما عرفت أن الأناناس يشبه الخيار عندنا، فى رخص الثمن وفى كثرته، كنت أرجو أن تخلصنى الغربان من هذه الكميات الهائلة التى لا أعرف كيف أنتهى منها . .

والأناناس لذيذ. والموز والمانجو هنا ليس لذيذة بالمرة. فالموز كبير جدًا فى حجم القثاء. والمانجو أحيانا فى حجم البطيخة الصغيرة. ولكنها غير لذيذة ولكن توجد كميات كبيرة من الكوكونتس . . أو البندق الهندى. وهو لذيذ الطعم جدًا. ويأكلونه هنا ساخنا مثل أبو فروة.

وقد لاحظت وجود عدد من الصحفيين من السويد والنرويج ومن ألمانيا وعرفت أنهم جاءوا إلى هنا لنفس السبب . .

الكل يريدون أن يعرفوا ما الذى يحدث لهذه الوزارة الشيوعية الوحيدة فى كل الولايات الهندية . . أو كيف تغير الوضع فى إحدى ولايات الهند . . أوما مدى قوة نهرور؟

واندهشت جدًا كيف أن الصحفيين السويديين والألمان الأوروبيين غير حريصين إطلاقًا على أن يلتقطوا صورة لرئيس الوزارة. صورة لهم مع رئيس الوزارة.

إن أحدًا فى مصر لن يصدق أبدا أننى جئت إلى هذه البلاد وقابلت رئيس الوزارة إلا إذا ظهرت معه فى صورة . . أوعلى الأقل زملائى الصحفيين!

بل إننا كثيرا ما نجد فى الصحف المصرية والعربية صورة لصحفى مع أحد الوزارة، كأن القارئ لا يصدق أو لن يصدق إلا إذا نشرت الصحف صورته مع الوزير . . مع أن مقابلة صحفى لوزير فى القاهرة ممكن جدًا. ومقبول جدًا. ولن يندهش أحد لم ير صورة لصحفى والوزير معًا!

ومفهوم من كلامى هذا أننى لابد أن أظهر فى صورة مع سيادة رئيس وزارة كيرالا الذى قلب الدنيا فى الهند . . والذى أصبح مركز آمال الأحزاب الشيوعية فى الهند. وفى كل آسيا. فهو يعتبر نقطة تحول خطيرة فى الحركة الشيوعية فى الهند.

اتصلت بوازرة الاستعلامات. وطلبت تحديد موعد مع رئيس الوزارة. ولم تكن هناك أية صعوبة فى مقابلته وطلبت مقابلة وزير الشئون وهو وزير مسلم اسمه عبد المجيد. ولم أجد أية صعوبة.

فى كل مرة أتحدث إلى وزير فى بيته يدور هذا الكلام بالحرف الواحد.

أقول: ولكن أنا لا أعرف البيت.

فيقول: السائق يعرف.

ـ أى سائق!

ـ سائق أى تاكسى!

وفعلا وجدت أن أى سائق تاكسى يعرف بيت أى وزير. فمدينة تريفاندروم عاصمة ولاية كيرالا صغيرة وليس فيها إلا شارع واحد رئيسى.. ثم إن بيوت الوزراء معرفة لأنها بيوت رسمية. وليست بيوتا خاصة.

هذا ما تصورته ولكن الواقع شىء آخر.. الواقع أن جميع شوارع وميادين العاصمة ليست لها أسماء، بل كل مدن الولاية يوجد بها شارع له اسم.. وإنما لكل شارع أوصاف. فيقال: الشارع الذى يبدأ بالمتحف وينتهى بالمعبد، أو الذى يبدأ بالحلاق وينتهى بالجزمجى، هكذا.

فهؤلاء الوزراء إذا لا يهربون من الإجابة على أسئلتى وإنما هذا هو الجواب الوحيد الذى يملكه أى واحد.. حتى رئيس الوزراء..

تحدد الموعد فى الساعة الحادية عشر صباحا فى بيت رئيس الوزراء «نامبودريباد» وهو الرجل الثانى فى الهند فالصحف لا تتحدث إلا عن رجلين: نهرو وهذا الرجل.

إنه ابن الأكابر. فأبوه من أعرق عائلة دينية فى كيرالا على الإطلاق فهو ينتسب إلى أسرة «نامبودرى» وهم سادة طائفة الناير وسادة الأسرة المالكة التى تسمى ثامبى.. ويكفى لتعرف مكانة هذه الأسرة أن المنبوذين كان يجب أن يقفوا على مسافة عشرة أمتار من أى فرد من طائفة الناير وعلى مسافة ١٥ متراً من طائفة الثامبى ولكن على مسافة ٣٥ متراً من طائفة نامبودرى!

هذا هو إذاً ابن الأشراف المتدينين جداً الذى يتزعم حكومة شيوعية ملحدة. ومنذ أيام سأله الصحفيون ما هو الحل؟.. فقال: فى يد الله!

فضحكوا قائلين: وهل تؤمن بالله!

فأجاب: يعنى!

فقالوا: يعنى إيه؟!

وكان رده: أهوه كلام.

وهذا الرجل قد تشرد باسم الحزب الشيوعى ودخل السجن وكان عضواً بارزا فى حزب المؤتمر الهندى حتى سنة ١٩٣٤ حين انشق عنه، وتزعم «لجنة كيرالا للحزب الشيوعى» سنة ١٩٣٩ . . وهذا هو الاسم الحقيقى للحزب الشيوعى فى كيرالا الآن . . ودفع ما ورثه من أبيه للحزب . . وقد قدر لى هذه الثروة بحوالى ٥٠ ألف جنيه.

والطريق إلى بيته يمر فى غابة من الأشجار المحلية . . الطريق رطب ظليل هادئ ساكن . . وتدخل السيارة فى بوابة عليها حراس ويقول لهم السائق كلامًا لم أفهمه، ولابد أن يكون معناه إننى على موعد.

وقفت أمام بيت من طابقين له حديقة صغيرة. وأمام المدخل يتقدم مناسكرتير خاص . . إنه حافى القدمين أيضا ككل سكان كيرالا . . وينظر فى ورقة معه ويقرأ اسمى ويقول لى: نصف ساعة كفاية . .

فأقو له: كفاية أشكرك.

وفى المدخل توجد غرفة استقبال، انتظرت فيها لحظة حتى يتصل برئيس الوزراء فى التليفون ويخبره بحضورى.

على الحائط صورة لغاندى يبدو أن الرئيس السابق قد تركها فى هذا المكان أوربما كانت صورة جديدة . . فغاندى فيها يلبس قميصا أحمر اللون!

* * *

وأشار السكرتير إلى السلم قائلا: اتجه إلى اليسار دائمًا وادخل مباشرة.

واتجهت إلى اليسار، إلى السلم، فالطابق الثانى إلى اليسار. ودفعت الباب أمامى . . وكان الرئيس نامبودريباد فى وجهى جالسًا إلى مكتب كبير . . المكتب عليه كتب معدولة ومقلوبة . . الكتب تتناسب مع ضخامة الرجل، إنه ممتلئ الجسم، ويبدو أكثر امتلاء عندما

يتحدث . . ولما وقف ليسلم على رأيته قصير القامة وكنت أراه فى الصور طويلا ثم جلس واتجه لى مباشرة وقال دون أن يعطينى فرصة للكلام :

ـ من القاهرة؟

ـ أيوه .

ـ منذ متى هنا؟

ـ فى كيرالا من أسبوعين . وفى الهند كلها من شهر .

ـ أين؟

ـ فى نيودلهى والولايات الشمالية .

ـ مراسل دائم؟

ـ إنى جئت فى مهمة خاصة .

ـ ما اسم الصحف التى تمثلها؟

ـ اسمها دار أخبار اليوم .

ـ أخبار . هذه كلمة هندستانية معناها الصحف اليومية .

ـ عندنا صحيفة يومية اسمها الأخبار والصحيفة الأسبوعية اسمها أخبار اليوم .

ـ وكم صحيفة فى القاهرة؟

ـ الصحف الكبرى ثلاث .

ـ كلها بأية لغة؟

ـ بالعربية . ولكن هناك صحف أخرى بلغات أخرى . . بالفرنسية والإنجليزية واليونانية والأرمنية .

ودهش جداً لهذا العدد من الصحف الأجنبية وأمال رأسه للوراء وقال : ولماذا كل هذه الصحف!

ـ لأن عندنا جاليات أجنبيه تقرأ كل هذه الصحف .

ـ وماذا يعمل هؤلاء الناس عندكم؟ وكم عددهم؟

ـ بضع مئات من الألوف.

ـ ياه لماذا؟ وهل هناك يهود؟

ـ بضعة آلاف.

ـ وأية لغة يتكلم اليهود عندكم؟

ـ العربية ولغات أجنبية أخرى لكن معظمهم من المصريين الذين عاشوا فيها من أجيال.

ـ الشيوعية ما أخبارها؟

ـ ممنوعة قانونًا. لا نشاط شيوعى عندنا؟

ـ ما اسم عاصمة سوريا؟

ـ دمشق.

ـ دمشق فيها نشاط شيوعى أقوى من النشاط الذى كان فى القاهرة.

ـ كان فيها.. على كل حال لم تعد الشيوعية مشكلة إنما المشكلة هنا.

ـ هنا..! فين؟

ـ فى كيرالا. أو فى الهند كلها.

وضحك. ولمعت عيناه جدًا ووضع يده على رأسه الكبير وهو عندما يتحدث يتهته طويلا ثم يشهق ويفهق ويفتح فمه ويرجع برأسه إلى الوراء ثم يندفع منه الكلام كأنه احتبس ثم أفرج عنه مرة واحدة.

وعاد يقول: هنا لا توجد مشكلة شيوعية. ليس لنا مشاكل. وإنما هى مشاكل الأحزاب الأخرى الضعيفة. ماذا نعمل نحن؟ لقد جئنا بصورة دستورية.

ـ لتقوموا بإلغاء الدستور فيما بعد؟

وضحك نامبودريباد وكأنه يقول: قديمة!

وقلت: هذا هو مصدر الخوف منكم.. ليس اليوم ولكن غدًا.

ـ لا داعى للتفكير فى الغد. أنا أريد أن يناقشنى واحد منهم الآن. . دعوتهم إلى المناقشة والجلوس معى على مائدة واحدة وأنا أقدم لهم ما عندى وهم يعرضون ما عندهم. . رفضوا. قالوا عندنا كتاب أسود. . انتظرناه. فلم يصدر حتى الآن. . ماذا أعمل؟

ـ لا شيء إلا أن تبقى فى الحكم كما أنت. مهما كان رأيهم ورأى المتظاهرين لقد رأيتهم أمس بالألوف.

ـ يهتفون لنا. .

ـ كلا. . يهتفون ضدكم. .

ـ أنا لا أخاف من المظاهرات. .

ـ إذاً ما الذى تخاف منه؟ . .

ـ بينى وبينك لا شيء نحن أقوياء! وأنا لا أراهم كذلك. . أين كانوا ماذا فعلوا للناس. أين كشف حسابهم. . كل ما يقولونه هم: استقيلوا. .

ـ طبعًا غير معقول أنه تستقيل حتى لو هدأت الأحوال. . وهم يعلمون ذلك والصحف كل يوم تكرر هذا المعنى. .

ـ إنهم يعطلوننا وبالتالى يعطلون مصالح الشعب. ومن بين هذا الشعب أناس أتوا بهم إلى البرلمان وأتوا بهم فيما قبل للوزارة. . من الذى يستفيد من هذا كله. .

ـ لاحظت أنك بعد مقابلتك للرئيس نهرو صرحت فى أكثر من مؤتمر صحفى أنك متفائل جدًا وأن احتمال تدخل الحكومة المركزية بعيد جدًا. . فعلى أى أساس بنيت هذا التفاؤل.

ـ مجرد إحساس لا أكثر ولا أقل.

ـ يعنى لا يوجد تصريح من نهرو بذلك.

ـ لا.

ـ إن خصومك عندما قابلوا نهرو كانت لهم تصريحات مخالفة. . فقد شعروا أن تدخل الحكومة قريب جدًا وتأكدوا من أن رئيس الجمهورية سيطردك أنت ووزارتك الشيوعية! وأنهم لذلك متفائلون.

ولمعت عيناه تحت المنظار الغليظ وعاد يتهته ويشهق ويختلج فى مقعده جدّا ثم يبتسم ساخرا، وهو يقول: كل الإحساسات غير مضبوطة . . ومن أجل هذا نحن نطالب بأن تكون هناك أسس علمية لا خلاف عليها . . هذا هو أساس الخلاف بيننا وبينهم . . المسألة عندهم عواطف ومشاعر . . والمسألة عندنا أرقام وقضايا منطقية . . طبعا لا بد أن يكون هناك خلاف طبعا . . لاشك فى هذا وكأنه كان يتحدث إلى نفسه ونظره إلى السقف .

ـ وهذا هو أيضا سبب الثورة عليك فى الكنائس . . لأنك ضد هذه المشاعر التى ليست علمية . .

ـ ضدها . . أبدا ، ماذا فعلت . . أجراس الكنائس أليست تدق كل يوم ؟

وفجأة دقت الأجراس وارتعش رئيس الوزراء فوق مقعده! وكأنه سمع صوتا يقول له: إن الله معنا . .

ثم عاد يقول: لقد سمعت . . ماذا فعلت أنا . . الصلاة قائمة . . ورجال الدين آمنون . . يقولون لك إننا ملحدون هذا صحيح ولكن هل قضى إلحادنا على دينهم . . هل دعونا إلى ذلك . . إنهم كاذبون أفاقون . . ليس لديهم ما يقولونه !

ـ عندهم ما يقولونه عن الأراضى والعقارات وقانون إصلاح الأرض .

واعتدل فى جلسته ونظر إلى نظرة جادة شرسة، وكأننى أحد أصحاب الأراضى جئت أعترض على صدور القانون . . وبعد لحظة عندما تأكد أننى لست كذلك ابتسم وراح يحرك يديه الاثنتين قائلا: هل تعرف أن القانون أصله من اقتراحات أحزاب المعارضة . . ما رأيك؟ فإذا تقدم به الشيوعيون صار كذا . . لماذا وافقوا عليه أولا . . ثم وافقوا عليه ثانيا . . والآن يعارضونه لقد وافقوا عليه أول الأمر على أساس أنه لن ينفذ ووافقوا عليه للمرة الثانية على أساس أنه بعيد الاحتمال . . فلما حملناه محمل الجد . . . ثاروا !

وفجأة وبلا أى مقدمات تلفت ناحيتى واقترب منى قائلا وعاد يسأل من جديد؛ والصحف تطبعونها باللينوتيب؟

ـ نعم . . .

ـ باللينوتيب أو الحروف تجمع ثم تربط وتطبع عليها الصحف .

ـ عندنا لينوتيب وأنترتيب. والدار التى أعمل بها عندها ٢٠ ماكينة لينوتيب. . وتوزيع صحيفتنا الأسبوعية يقرب من ٤٠٠ ألف.

ـ رقم كبير جدًا، وباللغة العربية؟

ـ نعم . .

ـ وما أخبار العراق؟

ـ قرأتها فى الصحف. .

ـ والأحوال مستقرة فى العراق بعد ذلك ياترى!

ـ لا أعرف. .

وحاولت أن أسأله أنا. . وأنا أقاطع أسئلته التى تنطلق الواحد وراء الآخر. قلت: وهل هناك أحزاب شيوعية أخرى لها نفس قوة حزبكم هنا؟

ـ طبعًا هناك حزب شيوعى فى ولاية إندارا وكانت له أغلبية الأصوات وإن لم تكن له أغلبية الأعضاء. . ولا أستبعد أن يكون بالغ القوة فى الأعوام القادمة.

ـ وأحزاب شيوعية فى الولايات الأخرى. .

ـ إنها فى حاجة إلى تنظيم.

ـ ومتى ستنظم كلها وتصبح قوية؟

وضحك كثيراً وبرقت عيناه وأدركت أنه سيتفادى الجواب على هذا السؤال الذى معناه: متى تسيطر الأحزاب الشيوعية كلها على الهند؟

وأجاب: الذى تقصد إليه بعيد. . فالموقف عندنا صعب جدا. . فنحن منقسمون إلى أقسام كثيرة طائفية لغوية. . وأنت ماذا سترى فى ولاية كيرالا!

ـ قابلت رجال الدين.

ـ أنا أعرف ماذا قالوا لك أنا أعرفهم أكثر منك. . وهل قابلت زعماء المعارضة؟ وأعرف ماذا قالوا لك. . وهل قابلت رجل الشارع؟ هل هو ضدنا؟ لا أعتقد.

ـ وقابلت رئيس الوزراء وأنت تعرف ماذا قال لى. .

وضحك ونظر إلى التمثال الأبيض على مكتبه . . إنه تمثال لينين . . وأمامه كتب أخرى عليها أسماء لينين وماركس .

وهنا دخل أحد أبنائه . ولما سألته إن كان هذا ابنه؟ قال : نعم .

ونادى رئيس الوزراء أولاده الذين كانوا فى الداخل . . وجاءوا . . إنهم ثلاثة من الأطفال وفتاة . . والتفوا حول أبيهم ووقفوا جميعًا يتطلعون إلى عدسة التصوير . . وكان أبوهم وراءهم . . كأنه أكبر الأطفال سنا . . مع أنه أخطر الرجال فى الهند مركزًا وأشدهم عنادًا ، ولكنه كان لا يعرف هل يبقى فى الحكم . . أم يخرج ! . . هل يستقيل أم يعزل!

إنه رئيس وزراء ، ولكنه لا يملك من أمره شيئًا .

وكنت آخر صحفى قابله وهو رئيس وزراء ، فقد قرر نهرو إقالته من الوزراة بعد مقابلتى له مباشرة!

* * *

وفى الليل سقطت الأمطار بغزارة . بل إن كلمة بغزارة هذه ليس لها معنى على الإطلاق . فالذى حدث لا يمكن أن يكون مطراً . . . وإنما هو نوع غريب من ذوبان السماء فوق أدمغة الناس . . السماء كانت قبة من الثلج سخنتها الشمس فسقطت مرة واحدة . وتحولت الأرض إلى قنوات . . إلى بحيرات ، وتحول الناس بقدرة قادر من مشاة إلى سباحين . .

وبين الناس نزعت حذائى . . بل لم يكن لهذا الحذاء أى معنى . وعذرت الناس الذين لا يلبسون أحذية . .

وملأت المظاهرات كل مكان وفى اتجاه واحد .

ومشيت فى اتجاه المظاهرات وأنا أعرف أنها ضد الحكومة فقط . ولكن أى الأحزاب ضد الحكومة؟! لا أعرف . والذى استطعت أن أفهمه فقط من هتافات المتظاهرين هى كلمة : سندباد أو إنداباد . ومعناها يعيش .

والناس هنا يتكلمون عدة لغات من بينها لغة . . ما لا يلم . . والتاميل . . وفى الهند كلها توجد ألف لغة ولهجة ومائتا دين . .

وانهالت الهتافات . وارتفعت المشاعل . ووقف أحد الحفاة يخطب فى الناس . وانفض

الناس يهتفون. وفى صباح اليوم التالى لم أر شيئًا غريبًا لا فى الشوارع ولا فى المحلات التجارية.

لقد انتهت المظاهرات فى سلام. وعاد الناس إلى عملهم. ولكنهم فى الوقت نفسه ينتظرون سقوط الوزارة.

* * *

وبقى كل شىء على ما هو عليه..

وعدت إلى الفندق، كأن شيئًا لم يحدث.. واستأنفت نشاطى الغذائى..

وهذا النشاط يبدأ عادة بأن أشير إلى الجرسون، وبعد لحظات تجىء أكداس الأناناس وبعد دقائق تخطفها الغربان.. ويضحك الجرسون وأشير إليه بأن يأتى بالأناناس وتجىء الغربان وتخطف الأناناس لانشغالى بمقاومة البعوض وابتلاع بعض الأقراص والحبوب.. ثم لانشغالى بعد ذلك بتطهير أثر البعوض بالمواد المطهرة. وأتوهم بعد ذلك أننى نجوت من المرض.

وبعد الغداء وعلى غير العادة جاء مدير الفندق يسألنى إن كنت لا أزال فى حاجة إلى البالطو. ولم أفهم ما الذى يقصده. فعاد يقول لى: البالطو الذى أخذته للوقاية من المطر!

فصرخت: يا خبر.. لقد جرفته الأمطار وضاع فى الزحام أمس.

وتركنى الرجل دون أن أكمل اعتذارى عن البالطو الذى استعرته منه أمس..

وضاع، وقبل أن أكمل حلاقة لحيتى، لأكون فى حالة معنوية جيدة تسمح لى بالاعتذار الكامل عما حدث مع استعدادى لدفع ثمنه، جاءنى الجرسون ومعه الفاتورة.. وكان ثمن البالطو سبعة جنيهات.

دفعتها والنار والعة فى كل جسمى، كأننى سقطت فى إحدى مستعمرات البعوض.. فقد كان البالطو قديمًا ممزقًا وقذرًا.. وكان من الواجب أن يحاسبنى على تكاليف غسله فى المطر. رغم أنه ضاع بعد ذلك. وأنا لا أستبعد أن يكون أحد جرسوناته قد سرقه.. فقد لمحت واحدًا منهم فى المظاهرة.

هذا ما قلته لنفسى وأنا أغالطها. فقد كان من المستحيل أن أعرف أحدًا أو ألمح أحدًا، أو حتى أرى أحدًا!

وعلى مسافة بضع مئات من الكيلومترات، من عاصمة كيرالا توجد بقعة مقدسة للهند الحديثة . .

والآن أصف لك ما الذى أراه، وكيف أراه . .

أنا أجلس الآن فى آخر شبر من بلاد الهند. هذا الشبر اسمه «رأس كومورين» . . وعنده تلتقى مياه بحر العرب من الغرب ومياه خليج البنغال من الشرق ومياه المحيط الهندى من الجنوب. . أما البحر الرابع فهو يهطل فوق رءوسنا منذ ٢٤ ساعة وبلا توقف . . ولو سقط هذا المطر وبهذه الصورة المخيفة لمدة ساعة واحدة فى القاهرة لأمسك كل ساكن فى القاهرة بسنارة ووضع طوق النجاة حول عنقه، وربط أمام باب شقته فى الدور الثانى زورقًا كبيراً!

وأنا جالس على الأرض. . ومعى أحد أغنياء ولاية كيرالا . إنه من الأسرة التى كانت مالكة . واسمها «ثامبى» إنه تعلم فى إنجلترا . . ومع ذلك يمشى حافى القدمين. ويلف حول وسطه فوطة تمامًا كالتى كان يلبسها قدماء المصريين . . ويضع على عينيه منظاراً أمريكيا غاليًا. وفى جيب قميصه الحريرى قلم شيفرز من الذهب . . وفى يده ساعة من الذهب والماس. ومع ذلك يجلس على الأرض. . إنها التقاليد. ونتناول طعام الغداء . ولم نحضر معنا طبقًا واحداً ولا شوكة ولا سكينة. وإنما أحضرنا معنا عدداً من الأوانى الصغيرة فى حجم سلطانية الزبادى. وجاء معنا خادم عارٍ تمامًا إلا من فوطة يد صغيرة جداً لفها بشكل ما!

ووضع الخادم أمام كل واحد منا ورقة من أوراق شجر الموز، خضراء ناعمة مغسولة . فهذه الورقة هى الصينية وهى الأطباق . . وأفرغ لكل منا كمية كبيرة من الأرز المسلوق ووضع عليه ملعقة من زيت جوز الهند. . ثم بدأ يفرغ العلب أو الأوانى الصغيرة . وأعطى كل واحد ملعقة . . ملعقة بطاطس مسلوقة . . ملعقة تابيوكا، وهى تشبه البطاطا ثم ملعقة كارى فى طعم النار . . وألوانًا وأشكالا من المانجو المخلل والمملح والمخلوط بالمربى والمانجو بلا ملح ولا شطة . . وبعد ذلك قطعًا من الموز المجفف والموز المشوى . . وحبوبًا غريبة الأشكال والألوان . . وبعض الزبادى بالطماطم . . كل ذلك قد وضع الواحد إلى جوار الآخر على ورقة الموز . . ثم وضع كوبًا من النحاس به سائل لونه بنى . . هذا السائل هو عصير الدوم . . وهو ملىء بالشطة أيضًا .

والخطوة الثانية هى أن يتركنا الخادم على حريتنا . أما حريتنا فهى أن نلخبط هذا كله

بأيدينا وأن نجعل منه كرة واحدة وأن نأكلها بالهناء والشفاء؛ ولم يكن فى هذا الطعام لحم. فصاحب البيت من الهندوس الذين لا يأكلون اللحوم. . حتى اللبن لم يكن حليبًا، وإنما هو لبن زبادى. . والزبادى عبارة عن خميرة صنعتها البكتريا. . يعنى ليس حراما!

ولاحظت أن زوجة صاحب الدعوة جاءت وسلمت وجلست وتحدثت بعض الوقت بلغة إنجليزية سليمة. . وعندما نهضنا للطعام ـ أى وقفنا لكى نجلس للطعام ـ انسحبت فى هدوء، ولم تأكل معنا. ويبدو أن هذه هى العادة فى البيوت المحافظة. . فالنساء لا يأكلن مع الرجال.

وبعد هذا الغداء النباتى الخفيف اتجهنا إلى نهاية الهند ونزلنا منحدراً من الرمال واتجهنا إلى الصخور التى كان يتعبد عليها رهبان الهند بين الماء والعواصف فى وحدة أو وحشة تامة. .

وفى هذا المكان البعيد الهادئ أقامت الهند مبنى تذكاريًا للمهاتما غاندى. هذا المبنى لا يضم شيئًا. . وإنما فيه صندوق حديدى مكتوب عليه: «هنا يرقد رماد المهاتما غاندى».

فبعد مقتل غاندى أحرقوه. وما تبقى من جسمه من رماد وضعوه فى هذا الصندوق الحديدى!

كأن غاندى أراد أن يمد فى حدود بلاده. . أراد أن يضيف إليها ولو قليلا. . أراد أن يعطيها بعض الذى أخذه منها. . مع أنه عاش جائعًا عاريًا حافيًا. . فأعطاها حفنة من رماد حياته. . لقد أعطاها الكثير جدًا!

وتركنا معبد غاندى. . وصفت السماء. . كأن السحاب ستار ارتفع أو نزل لتظهر الشمس المحرقة على مسرح الكون. . حتى العواصف سكنت. . كأن الطبيعة حبست أنفاسها. وبدأنا نحن نلهث وننفخ. . وعادت السحب مرة واحدة ونزل المطر. . وبدأ موج البحر يثور. . كأن الطبيعة تحاول أن تفصل بين البحور الثلاثة. . فهناك ثورة على الحدود كالتى بين الهند وباكستان وبين ألمانيا وروسيا. . أو كأن البحر لحاف استراحت تحته العواصف لحظات ثم ضربته وخرجت.

لقد اكتشفت هنا حقيقة مهمة لم أكن أعرفها. .

اكتشفت سر هذا التقلب فى الأرض والسماء. . فنحن هنا فى منطقة خط الاستواء. .

وخط الاستواء هو «حزام» عريض من النار تلفه الأرض حول وسطها وهى لذلك تتمايل وتتعوج وتتقصع . . بكتفيها وساقيها وصدرها . . كأن السحب هو شعرها الأسود الغزير، وكأن الرعد هو بعض أسنانها، وكأن البراكين هى دقات قلبها . . وحركاتها ليست رشيقة كأنها راقصة مبتدئة . . مع أنها عجوز وعمرها بالملايين . . ولكنها لم تتقدم فى فن الرقص، فليس هناك أحد ينافسها.

وعندما لا يجد الإنسان أو الحيوان أو حتى الأرض من ينافسها؛ فسترى نفسها أعظم راقصة فى الكون.

وفجأة سكن كل شىء: الهواء والموج والمطر والسحاب . . كأنها لحظة تغيير «النمر» كما يحدث فى الكباريهات . . وأظلم كل شىء.

وكأن الأرض توقفت عن الاهتزاز، وكأنها ألقت بحزامها فى وجوهنا وقالت: طيب ارقصوا أنتم!

. . . . . ورقصنا من الألم!

* * *

ونحن أطفال كنا نتصور أن الطريق إلى الجنة يمر على النار . . وأن هذا الطريق معلق فوق نار جهنم كحبل الغسيل. وأن هذا الحبل أدق من شعرة الرأس وأكثر حدة من موسى الحلاقة . . وأن الإنسان يمشى على هذا الموسى أو على هذه الشعرة وقد يسقط فى النار، وقد يصل إلى الجنة! ولم نسأل أنفسنا فى ذلك الوقت: ولماذا يصل إلى الجنة ولماذا يقع فى النار! وهل هذا الحبل حقيقى أو هو مجرد رمز؟ وشغلتنا الدنيا عن الآخرة وعن الجنة والنار ولم نسأل أو نتساءل.

وكأننا أرجأنا هذه الأسئلة إلى سن الشيخوخة أو المرض أو الإحالة إلى المعاش والتفكير فى هذه الأشياء على مهل.

ولكننى منذ أيام وجدتنى أفكر ليلا ونهارًا فى هذا الخيط الدقيق الذى يمر على النار إلى الجنة . . فأنا هنا فى الليل لا أدرى ماذا أفعل . . لا شىء أبدًا . . فلا سينما ولا سهرات ولا حفلات ولا موسيقى ولا غناء ولا راديو فى أى مكان . . ليس فى الفندق ولا فى المطاعم ولا فى السيارات ولا عند الجيران . . وأنا لا أستطيع أن أستمع إلى أى جار . . ففوق السرير مروحة تدور ليلاً ونهارًا . وفى الحمام مروحة . وفوق، عند السقف جهاز

تكييف . . فأنا أشعر دائمًا أننى على ظهر مركب . . أو أننى لم أهبط من الطائرة بعد . . وفى كل مرة أدخل إلى السرير أشعر أننى لابد أن أربط حزامى وأنظر من الشباك إلى السحب والبرق والرعد . . تمامًا كما يفعل المسافرون فى الطائرة .

أو كأننى أعيش فى وابور طحين . . إنه يطحن ساعات الليل والنهار ويجعلها ناعمة كالدقيق . . ولكن ليس لها أول ولا آخر !

وأنزل من السرير وأدخل الحمام فأجد على الباب ورقة صغيرة تقول : لقد وضعنا الـ د . د . ت . من أجل صحتك ، على كل حال إذا شعرت بأى ارتفاع فى درجة الحرارة ففى استطاعتك أن تستدعى الأطباء الآتية أسماؤهم . . وقد اتفقت معهم إدارة الفندق .

ملحوظة: طبعًا نفقات انتقالهم واستدعائهم فى ساعة متأخرة من الليل على حسابك . . ونحن فى خدمتك دائمًا . .

وعلى الباب الرئيسى للغرفة أجد هذه اللافتة : «إذا لم تكن أطفأت النور والمروحة وجهاز التكييف فيحسن بك أن تفعل الآن . فنحن نفكر لصالحك» .

وأنا أتمنى أن أقفل هذه الطواحين كلها وأنعم بلحظة هدوء . . لحظة واحدة . . ولكن إذا أقفلتها قتلنى الحر وخنقنى العرق . . وإذا تركتها ونمت هلكت من هذه العواصف . وإذا فتحت النوافذ دخل البعوض وإذا بقيت فى الغرفة فهذا عذاب .

وإذا خرجت فإلى أين أذهب . فالدنيا حر جدًا والمطر غزير جدًا . ولا توجد مطاعم فيها موسيقى ولا أماكن يسهر فيها الإنسان إلى ما بعد العاشرة مساء . .

وإذا ذهبت لكى آخذ دشًا عملا بنصيحة بريجيت باردو ، فهى عندما لا تجد ما تعمله أو تفكر فيه فإنها تذهب إلى الحمام ، فإنى أرثى لحالى أنا . . فالماء ملىء بمواد زيتية عجيبة ولا يكاد يمر على جسمك حتى تشعر بأكلان شديد جدًا . . وإذا لم أستحم ازداد هذا الأكلان .

وإذا عطشت فماذا أشرب . . هل أشرب طول الليل وطول النهار شايًا وقهوة لأنها مكونة من ماء مغلى . . إذًا فقل على النوم السلام . . وكذلك فى الأكل وفى المشى وفى الحديث إلى الناس أيضًا إنهم يتحدثون الإنجليزية . كثير منهم . والذين يتحدثون الإنجليزية لا تفهم منهم شيئًا . وقليلون جدًا يتحدثون الإنجليزية بطلاقة ورصانة رائعة !

وأنا هنا أتمنى أن يخترع لى «العلماء» جهازًا يشبه الراديو . ولكنه جهاز لاستقبال الهواء

فقط . فأنا أضبطه مثلا على بلاج سيدى بشر فيأتى بهواء سيدى بشر ، أضبطه على بلاجات الريفيرا والكوت دازير وشاطئ ميامى فإذا هذا الهواء كله حرير ناعم حلو معطر يهفهف على وجهى!

الدنيا هنا واسعة جداً . والناس طيبون جداً . وكل شىء عندهم .

ولكننى أراها ضيقة ، أضيق من عين الإبرة . ومن هذه العين يخرج هذا الخيط الدقيق الذى أمشى عليه وأجلس ـ أقصد أنام ـ عليه القرفصاء ، والذى آكل منه . . كالجنين الذى يتغذى من الحبل السرى من بطن أمه . . إنه خيط دقيق أيضاً . فالذى أراه قليل ، والذى أسمعه قليل والذى أذوقه قليل ، وساعات النوم هى عدد أصابع إحدى يديك .

وأخيراً بدأ الخيط يتسع . . بدأت الشعرة الدقيقة تصبح صغيرة غليظة . ففى بلاد الهند مناظر طبيعية فاتنة حقاً . لديهم غابات وطرق زراعية وشواطئ ومدن جميلة وخصوصاً فى أقصى الجنوب . . بل إن الناس هنا ملامحهم حلوة : النساء وحتى الرجال أيضاً .

إن الصراط المستقيم بدأ يتسع ويلتوى . . إنه أصبح كأنه كورنيش على النيل والسين والراين . . لماذا؟

لأننى بعد أيام سأودع الهند!

* * *

وكلمات سألت عن سبب إقفال دواوين الحكومة قيل لى : إنه مهرام . . عيد مهرام!

وفى نفسى أقول : لابد أنه أحد الهنود أو أحد الزعماء . . فلا داعى للمناقشة . . والذين سألتهم ينطقون هذه الكلمة وكأنه حقيقة كالشمس ، فكيف أتساءل أنا عن الشمس . فأهز رأسى كأننى نسيت السيد مهرام هذا!

واستدعيت أحد الخدم ، وسألته فقال : إنه مهرام أحد خلفاء المسلمين . إن الاحتفال غداً سيكون ممتعاً . . لابد أن تراه .

وأقلب فى رأسى وكأنه جيب ممزق فى جلباب قديم . . وأسحبه إلى الخارج ، وأعيده مكانه . . وكأن رأسى جيب حقيقى كله ثقوب فيتساقط منه كل شىء . . من هو مهرام هذا . . هل هو محمد أو المهدى؟

وأخيراً انتهى مهرام هذا إلى «محرم» شهر محرم. وأعياد شهر محرم. وأنا لا أعرف ما هى أعياد شهر محرم فى الهند. . وحتى لا أعرف إن كنا فى شهر محرم أو فى شهر ذى القعدة. فالصحف هنا لا تذكر إلا الشهور التى تبدأ بيناير وتنتهى بديسمبر.

وذهبت إلى حيث ستبدأ المهرجانات وسمعت ورأيت الأعاجيب. . هذا العيد هو ذكرى يوم ١٠ محرم، يوم مقتل الحسين بن على. وهو عيد الشيعة، وفى العام الماضى رأيت مدينتى النجف وكربلاء فى العراق. وزرت مسجد الحسين والإمام علىّ. ورأيت أبناء العراق وقد لبسوا السواد ونقلوا السواد إلى أبوابهم ونوافذهم. . وأيامهم ولياليهم ملئوها بالدموع. . واتجهوا إلى أجسامهم فراحوا يضربونها بالحديد والسيوف، ندمًا على مقتل الحسين.

وهنا فى مدينة «تريفاندروم» عاصمة ولاية كيرالا. . يحتفلون بمقتل الحسين بصورة مزرية مضحكة، فيبدأ المهرجان بطبول تشبه طبول الأراجواز بالضبط؛ ويتقدم المهرجان عشرون شابًا وطفلا، وقد دهنوا أجسامهم بالزفت وراحوا يرقصون ويخرجون ألسنتهم للناس ويتهجمون على المحلات العامة وعلى المشاة ويطلبون منهم شيئًا لله وبالقوة، وقد التفوا حولى. . وكنت قد أطلقت شاربى ولحيتى ولبست بالطو مطر فصرت كأننى أحد المبشرين. .

وخشيت على ملابسى من الزفت فأعطيتهم بعض الروبيات فتركوا المهرجان وراحوا يقتسمونها. . وبعد هؤلاء «المزفتين» يجىء عدد آخر من العراة وقد صبغوا جلودهم باللون الأصفر الأرقط تمامًا كجلد النمر. . وصبغوا وجوههم باللون الأصفر وجعلوا فيها ملامح النمر أيضًا. . وبعد هذا يجىء الخليفة على ظهر الحصان وقد ارتدى طاقية صوف. . وأخيراً نموذج صغير من الفضة لمسجد الحسين. . والطبول والأصوات والصفير تكتسح الجميع!

ويتجهون إلى النهر وينزلون إليه جميعًا ثم يرمون فى النهر بمجموعة من الأيدى المصنوعة من الفضة ومن الذهب. . وأشياء أخرى فى كل بلاد الهند فى هذا اليوم.

ملحوظة: فاتنى أن أنبه إلى أننى أكتب هذا كله وأنا جالس مقرفص فى السرير وفى ناموسية. . والناموسية هى أغرب مخبإ ضد غارات الناموس. . مخبأ مرتفع مضاء، كل شىء فيه واضح. . والناموس الذى يغير على ساكن هذا المخبإ يطلق صفارات الإنذار قبل أن يلسعنى. . . أشكره!

فإذا جاءت أفكارى مقرفصة مثلى فاعذرنى، وإذا جاءت أفكارى منكوشة كشعرى فاعذرنى . .

والذى يرانى جالسًا يخيل إليه أننى قمت من النوم مع أننى لم أقم . . والذى يرانى نائمًا يخيل إليه أننى جالس، مع أننى أتحايل على النوم .

والذى يرى احمرار عينى يتوهم أننى شبعان نوم. إن احمرار عينى سببه أننى أمسحها فى جدران الليل . .

ولولا عجزى عن النهوض من الفراش لبحثت فى القاموس عن كلمة أخرى للناموسية، لأنها ليست عربية . وأعتقد أن المجمع اللغوى يسميها «المبعضة» نسبة إلى البعوض، وعلى وزن «المذبة» أى المنشة، لأنها «تذب» الذباب .

ولما كانت هذه الناموسية واسعة الفتحات لا تمنع إلا بعض الناموس كان لابد أن أغير اسمها إلى : المبعضة لبعض البعوض!

. . . والله أعلم؟

***

يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم . .

فلتت منى هذه العبارة وأنا أقلب فى الصحف التى صدرت اليوم . . لقد قرأت مقالا قصيراً يلعن أجدادى ويتهمنى بأخطر أنواع التهم . . ويقول إننى لم أر إلا كل ما هو قبيح وقذر فى الهند . وأن الهند التى فتحت ذراعيها لواحد مثلى كان جزاؤها منى . . إلخ!

فقد نشرت «الأخبار» و «أخبار اليوم» و «آخر ساعة» و«الجيل» كل ما كتبته عن الهند، ويبدو أن هذه المقالات قد ترجمتها وكالات الأنباء . . وقرأ الهنود هذه المقالات، وثاروا عليها .

ولما عدت إلى القاهرة بعد ذلك بشهور عرفت أن السفارة الهندية قد نشرت بلاغًا رسميا تلعن فيه الكاتب ـ الذى هو أنا ـ وتلعن فيه الفلسفة التى تعلمها وأوربا التى أفسدته . . وقالت إننى ذهبت إلى الهند أفتش عن باريس، وأننى ذهبت إلى معابد الهند أبحث عن صناديق الليل فى روما . . ولو عرفت السفارة الهندية أننى عندما ذهبت إلى باريس نزلت فى فندق اسمه نيودلهى، لعرفت مدى اهتمامى بكل ما هو هندىّ حتى فى فرنسا .

وهنا فقط أدركت أننى هدف حقيقى . . وأن أى هندى يستطيع ـ لو عرفنى ـ أن يلقى بى فى نهر من هذه الأنهار ، فأصبح طعامًا لا بأس به لبعوضة الفيل التى تنفخنى حتى أصبح فيلا ، ثم أصبح بعد ذلك لحمًا أبيض لحيوانات الغابة الرائعة القريبة من العاصمة .

ولكن إحساسى بأن الهنود متسامحون جدًا . وأنهم لا يحبون الدماء . وأنهم يقابلون كلماتى هذه بروح متسامحة ، جعلنى أفكر فى البقاء يومًا أو يومين آخرين قبل أن أحزم أمتعتى وأسافر إلى جزيرة سيلان أفتش فيها عن السنوات العشرين التى أمضاها الزعيم أحمد عرابى هناك . .

ولكن الحقيقة أننى ازددت خوفًا . وبدأت أفسر نظرات الجرسونات تفسيرًا خاصًا . فأنا لا أستبعد أن يكونوا قد قرءوا ما نشرته الصحف ولا أستبعد أيضًا أن تكون الغربان قد دربوها على الهجوم على وجهى وخطف عينى إذا لم تجد طعامًا . فكل شىء فى الهند ممكن . فهم يدربون القرود والثعابين والنمل .

لقد رأيت واحدًا من الهنود يخرج كيسًا به ثعابين ويطلق هذه الثعابين ، فإذا هى تزحف اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة . . ثم إذا هو يطبل ويزمر فتصبح هذه الثعابين على شكل حروف . . هذه الحروف يتكون منها اسمى . . بالتقريب . وأغرب من ذلك أن هذا الحاوى الهندى سألنى إن كان هذا اسمى ، فأنكرت أول الأمر فنطق هو باسمى كاملا .

ومن المستحيل أن يكون هذا الرجل قد عرف اسمى . فقد كنت فى الطريق بين نيودلهى ومدينة «تاج محل» . . وتوقفت بى السيارة فجأة . وخرج هذا الحاوى من حقول القصب !

ولذلك لا أستبعد أن تكون هذه الغربان قد سلطها أحد الحواة المثقفين الذين قرءوا هذا المقال . . أو أحد الحواة الذين يعملون للدولة كخبير فى تطفيش الأجانب من الهند . .

وكان لابد أن أنهى مدة إقامتى بالهند . . فلا يزال أمامى طريق طويل جدًا .

ولكن لو قدر لى أن أزور الهند مرة أخرى لفعلت ، فهى بلاد فيها كل شىء . .

كل الألوان وكل الأديان وكل الطبقات . . ومئات اللغات وألوف اللهجات . . والذين يملكون ألوف الملايين . . والملايين الذين لا يمكلون أى شىء حتى طعام اليوم الواحد .

تأملات هندية!

قالت الأسطورة: جلس الإله يستريح بعد أن خلق العالم. . وبدأ الإله يفكر فى حياة المخلوقات. . وكيف تكون هذه الحياة. وعرضت له مشكلة كم يكون عمر كل واحد منها.

وأخيراً قرر أن يجعل عمر كل كائن حى ٣٠ عامًا.

واستدعى الحيوانات واحداً واحداً، وبدأ بالحمار وقال له: جعلت عمرك ٣٠ سنة. ما رأيك؟

قال الحمار: يا إلهى ماذا فعلت؟ إن هذه الحياة طويلة. سأقطعها كلها فى العمل والكفاح. أتوسل إليك يا إلهى أن تنقص هذا العمل الطويل. اقصف عمرى أرجوك. .

وجعل عمر الحمار ١٨ سنة فقط. . وبعد ذلك استدعى الكلب وقال له: سيكون عمرك ٣٠ سنة. ما رأيك؟ وهنا نبح الكلب قائلا: يا إلهى هذا كثير. إن هذا العمر طويل. . لا أريده. . لا أستطيع أن أتحمله. . هل يرضيك أن أقضى العمر كله فى النباح ومطاردة الناس. . أرجوك يا إلهى. . اجعل عمرى قصيراً. .

وجعل عمره ١٢ سنة.

وجاء دور القرد وعندما سمع أن عمره سيكون ٣٠ سنة ثار وبكى وقال للرب براهما: يا إلهى حرام. . هذا كثير. . يرضيك أن أقطع كل هذه الشهور والسنين أقفز من شجرة إلى شجرة وأتعلق من ذيلى ٣٠ سنة. . أرجوك!

وجعل الإله عمره ١٠ سنوات. وأخيراً جاء الإنسان وقال له الرب: ما رأيك سيكون عمرك ٣٠ سنة. . هذا كثير أو قليل؟

وبكى الإنسان وقال: تقول ثلاثين يا إلهى. إن هذه حياة قصيرة جداً. إننى لم أبدأ حياتى إلا أخيراً لم أفرغ من بناء بيتى وزراعة بعض الأشجار وأريد أن أستريح. إن هذه الأعوام الثلاثين لا تكفى. ثم ما مصير زوجتى.. وما مصير أولادى عندما يكبرون ولا يجدون أباهم بينهم ماذا يفعلون؟! أرجوك يا إلهى. أتوسل إليك أعطنى عمراً أطول لكى أربى أولادى وأطمئن إلى مستقبلهم. أرجوك يا رب..

وأجاب الرب: سأعطيك ٣٠ سنة أخرى أخذتها من عمر الحمار والكلب هل هذا يكفى؟

فأجاب الإنسان: لا يا إلهى.. هذا لا يكفى لأن أولادى سيكون لهم أولاد، وأريد أن أرى أولاد أولادى.. أريد أن أعيش معهم.. أن أعانقهم أن أحتضنهم.. أرجوك يا رب.. أرجوك..

وقال الرب: لقد أعطيتك الكثير ولكنك كائن طماع لا تشبع. سأعطيك ٢٠ سنة أخرى أخذتها من حياة القرد فهل يرضيك هذا؟

وشكره الإنسان واختفى بين الغابات.

ومنذ ذلك اليوم وعمر الإنسان ٨٠ عامًا.

والثلاثون عامًا الأولى منها هى حياته هو. وهو فى هذه السن يكون قانعًا راضيًا.

وبعد ذلك تجىء الـ ١٢ سنة التى أخذها من عمر الحمار. وفيها يعمل الإنسان ويكد ليلاً ونهاراً من أجل أسرته.

وبعد ذلك يجىء الـ ١٨ سنة التى أخذت من عمر الكلب وفيها يتحول الإنسان إلى رجل يرقص ويلعب مع أحفاده ويخطف الطعام منهم ويقفز من مكان إلى مكان فلا يربطه بالناس إلا شىء قليل..

وبعد ذلك تجىء السنوات التى أخذها من القرد ويكون عجوزاً يندم على أيام النط من شجرة إلى شجرة.. ولا يجد من هذه الأشجار كلها إلا عكازاً فى يده!

وكل إنسان هو خليط من الحمار والكلب والقرد.

وقد عرفت تاريخ هذه المراحل وعليك أن تبحث عن نفسك. أى واحد من هؤلاء...

* * *

وعلى سبيل التجربة ومعرفتي لنفسي اكتشفت أمس أن ملابسي كلها ممزقة..

البنطلونات والقمصان ولاحظت أن ألوانها أيضًا تغيرت.. قميصي الذى كان رصاصيًا أصبح اليوم نحاسيًا.. وبنطلوني الذى كان نحاسيا أصبح اليوم برونزيا..

إنها أشعة الشمس والغسيل والمكوى وكثرة الاستعمال.. ولو عرفت كم عدد القمصان التي معي، لدهشت كيف أسافر بها خارج بلادنا. إن الذين رأوا الحقيبة التي أحملها لم يصدقوا أبدًا أنني سأبقى خارج القاهرة ٢٢٠ يومًا.. إنها ملابس تكفى أى إنسان لمدة أسبوع فى الإسكندرية.

ولكني قررت ألا أشترى أى ملابس من الهند ولا من إندونيسيا.. وقررت أن أشتريها من سنغافورة. ففيها ملابس جميلة ورخيصة. وعندما ذهبت إلى سنغافورة عدلت رأيي.. وقلت ما تزال أمامي بلاد أخرى أجمل وأحسن.. بلاش يا واد دلوقت..

والواد لم يصدق خبرًا.. وراح يلبس الممزق ويقلع الممزق..

وملابسي الصيفية تبدو شتوية هنا فى الهند..

إنها ثقيلة جدًا. مع أننا فى القاهرة نقول إنها خفيفة جدًا. وأحد أصدقائي ذهب فى نقدها لدرجة أنه قال لى: يا أخى بلاش الهدوم الشفتشي دى!

وأمس فوجئت بدعوة موجهة لى من رئيس وزراء منغوليا.. الدعوة فى فندق أشوكا الأنيق.

ولابد أن أرتدى بدلة كاملة. وهذه مسألة تضايقني جدًا. فأنا أكره الكرافتة وأكره الجاكتة وأكره الياقة التي تلتف حول عنقي. وأحس أنني مربوط من شعر رأسي إلى السقف، كأنني كيس قطن أو شوال أرز..

وتذكرت أن لى بنطلونًا عند الترزى، وطلبت منه أن يستعجل البنطلون.. واكتشفت أن هناك حذاء آخر عند الجزمجي. البنطلون يجب تصليحه والحذاء يجب تصليحه..

وأخيراً وقبل الحفلة بساعة حضر البنطلون والحذاء.

وحمدت الله؛ فأنا الآن على ما يرام ومن باب الاستطلاع نظرت إلى الحذاء فأعجبنى تصليحه.. لا توجد أية آثار للخيط ولا للماكينة أو الإبرة.. عال.. وأمسكت البنطلون فوجدت أن التصليح واضح جداً.. رقعة على اليمين ورقعة على الشمال والخيوط واضحة جداً.. الخيوط تمسك الرقعة حتى لا تقع. والخيوط ألوان أيضًا حتى لا تخفى على العين.. ولعل الرجل أراد أن يلفت نظرى إليها حتى لا أظن أنه لم يعمل أو لم يبذل مجهوداً..

وفى الحفلة التى شهدها نهرو ورجال السلك الدبلوماسى كلهم. أحسست أن هذه الحفلة قد أقيمت للفرجة على الرقعتين.. واحدة هنا وواحدة هناك..

وأحسست أن هذه الابتسامات الكثيرة موجهة لى.. كلها مواساة أو كلها تريقة.. ولم أجد مكانًا أضع فيه يدى. لا أستطيع أن أضعهما فى جيوبى، فهذا لا يصح وثانيًا هذا يكشف الرقعتين. ولا أستطيع أن أضع يدى فى يد أحد لأننى لا أعرف أحداً..

فوضعت يدى ورائى..

وكلما مر الجرسون الذى يحمل المشروبات. قلتُ له: أنا مريض.. آسف.. مريض.. شربت.. متشكر.

وأحيانًا كنت أنسى فأضع يدى إلى جوارى.

وأتذكر فأردهما إلى مكانهما فجأة فترتطمان فى سيدة فأستدير لأعتذر فأضرب واحدة أخرى.. أو واحداً آخر..

ووقفت إلى جور الحائط.. ظهرى للحائط..

وعاد الجرسون يطاردنى فقلت له: وحياتك مريض.. إننى مريض «باللوز»!

وهذا صحيح لأن الترزى قد وضع لوزة للبنطلون كالتى يضعها الجزمجى للحذاء القديم..

طبعًا لا داعى للندم.. إن الغلطة غلطتى أنا..

كان يجب أن أبعث ببنطلونى للجزمجى، وأن أبعث بجزمتى للترزى!

وهنا فقط أدركت أننى وحدى الذى ما أزال فى مرحلة الحمار؛ أى يجب أن أعمل. وعملت!

* * *

وفى الليل جلسنا معًا. . شلة. . وفجأة نهض واحد منا وأقفل الراديو على أم كلثوم وهى تقول: وأقول أقابلك فين!

وقال: تقابليه فين؟ هنا يا أختى فى النار والرطوبة. .

وجلس وكأنه قام بعمل عظيم. وهو فعلاً قام بعمل عظيم بل جسيم، لقد حرمنا من أغنية جميلة. . ثم التفت إلينا بحركة عصبية وقال: ما تحبوش تسمعوا كلام بلدى حلو؟

ولم ينتظر حتى يقول واحد منا: نعم. . والحقيقة أننا جميعًا لم نكن قادرين على أن نقول كلمة واحدة. . الدنيا ليل، والحرارة مرهقة، والرطوبة مرهقة أيضًا. ولا مانع من أن يقول أى شىء. فهو لن يضيف إلينا تعبًا ولا قرفًا أكثر من الذى نعانيه. .

وواحد منا وجد عنده بقايا قوة فقال له: قول يا أخى. قول يا سيدى. . نعم. سمع. هس!

وجلس صاحبنا على الأرض وظهره للمقعد وقال: يا جرح. . يا جرح. وقلنا لكنه فى نفس واحد: يا إيه؟ موال ده والا إيه؟

ولكنه مضى يقول الموال وهو ينظر إلى أعلى. كأن هناك فتاة تطل من ثقب السقف: يا جرح الجبال ماتوا. .

وأنت فاضل حى. .

منين أجيب لك الطبيب. .

صفصف علينا الحى. .

من الصغر للكبر عمال تآلمنى. .

راح تقول إيه بين أيادى الحى. .

رد جرحى وقال. .

ومين قال لك أنى أنا حى. .

مين اللى مات له طبيب ولسه فاضل حى . .

زى الضرير يمسك فى حبال دايبة . .

والشمعة بتموت ولهيبها بيفضل حى . .

ومن غير أى تفكير قال واحد آخر باللغة الصعيدية :

تعالَ يا طبيب شوف ما جراى . .

رش الدوا بالدناشى . .

وإن عشت يا طبيب لأديك ما جراى . .

وإن مت يا طبيب ما بدناشى!

وتفسير الكلمات الصعيدية : ما جراى الأولى معناها ما جرى لى . وما جراى الثانية معناها : فلوس . والدناشى الأولى معناها : قليلاً قليلاً . والدناشى الثانية معناها : ما بيدناشى! أرجو أن تكون قد فهمت . . وأنا أعتذر لإخوانى الصعايدة إذا كانت لهذه الألفاظ أى معانٍ أخرى خبيثة .

وقال ثالث : أحسن كلام بلدى سمعته هو الذى يقول :

ليالى الهجر تطلع شمسها بكره

وليلة الوصل تطلع شمسها المغرب

ومضى يقول : شوف المعانى الحلوة . . تصوروا ليلة الهجر طويلة . . شمسها تطلع فى اليوم الثانى . وليلة الوصل قصيرة شمسها تطلع بعد ما تغرب على طول . .

وسكتنا كأننا تعبنا من الكلام أو من الاستماع إلى الكلام .

وفجأة تحدث الصديق الأول وقال : حد فاكر أغنية : أكل المحشى ما ينفعشى ، للمطرب الشيخ الصفتى . . أغنية مشهورة قديمة . عاوزين تقولوا إن كلكم مودرن . كلكم شبان . . أعوذ بالله . . أنتم مالكم ما بتتكلموش كده ليه . . النهار ده إيه فى الأيام . . النهار ده التلات . يبقى اليوم معناه إيه يا أستاذ يا بتاع الأيام وفوائد الأيام .

ورد عليه واحد منا قائلاً : اسمع وأنا أقول لك . . شوف يا سيدى . الحكيم البلدى القديم قال :

السبت للصيد . .

والحد للبنا يا عم . .

ويوم الاثنين سافر . .

ويوم التلات خد دم . .

ويوم الأربع تداووا . .

وفى الخميس ينفك الهم . .

ويوم الجمعة شرح أحوال النساء يا عم . . يعنى النهارده ناخد دم إيه رأيك . . مش ننام أحسن . . أحسن ما نعيا النهارده ونتعالج يوم الأربع .

وكان التعب كخيط قديم . . تمزق الخيط وتفرقنا واحدًا وحدًا . . كل واحد يتثاءب . . كأن فى بطنه ذئبًا عاويًا ، يريد أن ينطلق إلى الفراش . . وكأن الفراش حمل وديع . .

ومشى كل واحد منا إلى غرفته . . وفجأة ارتفع صوت أم كلثوم يقول وكأنها تتحدث إلى النوم الذى لا أجده : ولما أشوفك يروح منى الكلام وأنساه!

* * *

منذ آلاف السنين كتب السلطان «بابار» أحد ملوك منغوليا مذكراته : لو عرف أبناء وطنى فوائد الشطة ، كما عرفها أبناء الهند لغزوا العالم كله!

ولحسن الحظ لم يعرف شعبه فوائد الشطة والكمون والفلفل . .

والأوربيون عندما اكتشفوا هذه البلاد امتلأت أنوفهم برائحة الشطة وأفواههم بطعمها . فنقلوها من الشرق إلى أوربا ، وكانوا يبيعونها بأسعار غالية جدًا ، كانت الشطة تباع بوزنها ذهبًا وفضة . .

وفى الهند وفى كل البلاد الآسيوية الحارة تجدهم يتناولون كميات كبيرة جدًا منها . . وأنت لا تعرف لون الشطة ، فقد تكون حمراء أو صفراء أو سوداء أو خضراء . . ولكنها تدخل كل الأطعمة . إنهم يضعونها أيضًا فى الفاكهة وفى الحلو .

المهم أن تكون هناك شطة!

ويظهر أن الشطة هذه لابد منها فى المناطق الحارة . فالناس من شدة الحرارة كسالى

جداً، والمعدة كسولة والكبد كسول، والدم يتسكع فى الشرايين، والفكر يتمسح فى الأعصاب. . كل شىء فى حالة تراخ تام.

والشطة هى النار التى تلسع كل عضو وكل فكرة. . وهى الكرباج الذى يبتلعه الهنود ليسوقهم من الداخل إلى الحياة.

وأمس صدر كتاب فى الهند لعالم إنجليزى كبير اسمه البروفيسور «راى».

هذا الكتاب كله عن مزايا الشطة التى تنشط الدم والهضم. . وإنه لولا هذه الشطة لمات الناس من الأمراض المعوية والكبدية. .

ومن رأيه أن الإنسان يجب أن يتناول الشطة بقدر ما يستطيع. وهو ينصح الأوربيين أبناء الشمال الذين يعيشون على اللحوم أن يضعوا القليل من الشطة فى اللحوم. وبذلك لا يصابون بالقرف الذى يصيبهم عادة. وأحسن طريقة لطبخ الشطة هى أن تضعها والطعام يغلى. . ففى هذه الحالة تتحول إلى مواد كيماوية نافعة جداً. . فهى أحسن بكثير من تناول أقراص قبل الأكل وأملاح بعد الأكل وحبوب فى أثناء الأكل، كما يحدث فى أمريكا وأوربا.

والذين لا يذوقون الشطة محرومون من متعة حقيقية. فالشطة هى لذة ملتهبة ولهيب لذيذ. .

ولو. . فلن أذوقها!

* * *

الهنود تعلموا من الإنجليز أشياء كثيرة والذى تعلموه ولا يزالون يؤدونه كما هو. . فهم تعلموا اللغة الإنجليزية وينطقونها بطريقة لا يمكن فهمها فى كثير من الأحيان. .

وتعلموا منهم النظام والطاعة. .

فهم يقفون في طوابير أمام الأتوبيسات وأمام شبابيك التذاكر. هم منظمون فعلاً وإدارات الحكومة والشركات منظمة والإجراءات فيها بسيطة. وكل الأعمال تتم بنظام.

وشىء آخر تعلموه أيضاً. . لا أعرف ماذا أسميه. ولكن سأذكر لك الأمثلة وعليك أن تجد الكلمة المناسبة. فقد اختلفنا هنا فى وصفها. .

مثلاً أنا أسكن فى أحد الفنادق . .

وفى الصباح يدخل الخادم يحييك ويشير إلى أنه سينظف الغرف . . وبعد لحظات يخرج . وبعد لحظات يجىء خادم آخر ويشير إليك أنه سينظف الغرف . . ولا يثير دهشتك أنه يوجد اثنان من الخدم لغرفة واحدة . . وبعد لحظات يخرج ويدخل ثالث . وهنا تلتفت ماذا عساه أن يفعل هذا الثالث والرابع . . وفى اليوم التالى يجىء ثلاثة أو أربعة آخرون طبعًا ليس هذا اهتمامًا غير عادى بشخصك . فأنت مهما كنت لا يعرفك أحد هنا . وهؤلاء الخدم معينون قبل تشريفك بزمان . .

وتفسير ذلك أن كل عمل له رجل خاص . . فالذى يعد لك السرير غير الذى يكنس لك الأرض ، غير الذى يغسل لك الحمام ، وغير الذى يأتى لك بالماء ، غير الذى يأتى لك بالفطور . . غير الذى يحضر لك العشاء . .

إنهم كثيرون جدًا وأجورهم رخيصة جدًا . .

أذكر أننى أشرت إلى أحد الخدم أن يجمع بعض الأوراق من الأرض فهز رأسه وبعد لحظات عاد ومعه خادم آخر وانحنى هذا الخادم وجمع الأوراق من الأرض .

وأذكر أن جهاز التكييف تعطل . وأشرت إلى الخادم فذهب وأحضر رجلاً آخر . . مع أن إصلاح جهاز التكييف لا يحتاج إلى أخصائى . . أو خبير فنى متخصص . فقد كنت أريد ربط مسمار فقط !

وحاولت أن أدق الجرس ليجىء الخادم ولكنه لم يفعل . . .

فاستخدمت التليفون ، وجاء الخادم ونبهنى إلى أن التليفون يجب أن أستخدمه فقط بعد منتصف الليل . أما قبل ذلك فيجب أن أستخدم الجرس . .

وحاولت أن أتفاهم مع أحد الخدم ويبدو أنه لم يفهم كلامى . فقلت له وأنا أضحك : ابعث لى المختص . . فأنا أريد أن أتخانق معه . . هل أنت المختص بالخناق !

فهز رأسه جادًا جدًا وقال إنه ليس المختص .

وجلست أقرأ . وبعد لحظات جاء الخادم ومعه رئيس الخدم . . فقلت له وأنا أضحك : أنت المختص بالخناق .

ولم يضحك الرجل وقال: لا . .

وخرجت . . وعرفت أنه سيأتى بمدير الفندق! . .

* * *

يقيم هنا فى الهند طبيب مصرى جاء يدرس بعوض الملاريا فى الهند وسيبقى هنا بضعة شهور . . زرته فى الفندق . . ليس في غرفته إلا كتب وخرائط وعينات للبعوض فى الهند . . وهو مشغول بالأمراض ومقاومتها . . وكيف ترش الـ د . د . ت . على الجدران بدرجة معينة وبطريقة معينة . .

قلتُ للدكتور: تفتكر إن الطريقة الوحيدة للقضاء على البعوض هى أن ترش البيوت فقط، وماذا ستعمل الهند فى المساحات المائية الهائلة والغابات والحقول؟ إن الناس معظمهم ينامون خارج البيوت . . فالبعوض سيصيبهم خارج البيت ولن ينتظرهم فى داخل البيوت حتى يعودوا . .

ولكن الدكتور قد أعد لكل سؤال جوابًا . وقال: إن البعوض لا يلدغ حيثما اتفق . فهناك قواعد للدغ البعوض . هناك بعوض يقيم بعض الحفلات قبل أن يمتص دم الإنسان، وهناك بعوض لا يلدغ إلا الإنسان النائم . . والبعوض لا يلدغ الإنسان المتحرك . على كل حال هناك ٤٣ نوعًا من أنواع البعوض موزعة على مقاطعات الهند .

وكل بعوضة لها طريقة فى نقل المرض .

ولكن الذى يلدغ عادة من البعوض هو الإناث فقط!

وبلاد الصين قد ضربت المثل على إمكان تحقيق المستحيل . فقد قضت على الذباب فى وقت قصير، الشعب كله قام وقضى على الذباب . والهند تحاول هى الأخرى أن تقضى على البعوض . فهناك وحدات طبية كثيرة تعمل على أسس علمية سليمة وتعاونها الصحة العالمية . . ويظهر أن النتائج مؤكدة .

وفجأة تلفت الدكتور قائلاً: طبعًا أنت ستضحك منى الآن . . طيب والله العظيم الست اللى هناك دى فيها شبه من بعوضة الفيل التى تنقل مرض الفيل . . وهو موجود بالهند بكثرة شديد جدًا . .

وسكت الدكتور وعاد يهمس فى أذنى ويقول: ولكن سيبك أنت . . ربنا المنجى . .

يعنى أنا لم أعتد أن أخذ أى دواء . . الوقاية خير من العلاج . . يجب أن ينام الإنسان فى ناموسية . .

قلت : وفى الشارع ماذا يعمل؟!

قال : ولا حاجة . . خليها على الله .

وسكتنا نحن الاثنين . . هو يفكر فى البعوض . وأنا أفكر فى الوقاية من البعوض . .

وأخيرًا تكلم الدكتور : على فكرة البلد اللى حتسافر لها . . هذه البلدة هى مركز بعوض مرض الفيل فى العالم كله . .

فصرخت فيه قائلاً : ياللا قوم بينا . .

ـ على فين!

ـ على الأجزخانة!

* * *

وفى اليوم التالى جاءنى صديق آخر ملهوف كأنه يحمل لى كنزًا ثمينًا : نصيحة كانت مثل طوق نجاتى . . هى المظلة التي سأهبط بها إلى بر الأمان . . هى دعاء الوالدين . . هى الحكم ببراءتى . . هى وصية الحكيم لقمان . . قال لى : أنت مسافر غدًا ، ولماذا اخترت هذه المنطقة بالذات؟ أنت لا تعرفها . .

ولم تكن هناك أية فائدة من المناقشة . ومد يده إلى المنظار فمسحه . لقد أخفى دموع عينيه . . ولكن المنظار فضحه . . إن منظاره الزجاجى كان يبكى من أجلى . .

البلاد التى سأسافر إليها غدًا تبعد خمسة آلاف كيلو عن هذا المكان . أمطار دائمة وعواصف ورعد وبرق . وأوحال . . كل قطرة عليها بعوضة ، وفى جناح كل بعوض مليون جرثومة . . وكلها فى انتظار أى إنسان . . فلماذا أكون أنا ذلك الإنسان دون سائر الناس؟!

ولكن لهفته وخوفه وقلقه كان معناها أنى المقصود بهذا كله . . بالمطر والوحل وكل الأمراض . .

فيجب ألا أشرب الماء . . لأن الماء فى موسم الأمطار يختلط بالمجارى ولا يمكن تطهيره إلا بغليه ثلاث مرات . . أول مرة لدرجة التبخر . وبعد ذلك أتركه حتى يبرد ثم يغلى مرة أخرى حتى درجة ٨٠ . . وبعد ذلك يغلى الماء لدرجة التبخر وأتركه حتى يبرد وأعصر عليه بعض الليمون . . !

ولابد أن أنام داخل ناموسية . لأن هذه المنطقة هى مركز توريد ذباب مرض الفيل . والإنسان عندما تلدغه هذه الذبابة فإنه لا يصاب بأى ألم ولا تظهر عليه أعراض هذا المرض فى نفس اليوم أو الأسبوع ، وإنما بعد سنوات!

هذا إذا تناولت الأقراص المضادة لهذا المرض . .

* * *

وإذا ذهبت إلى حديقة ، فيجب ألا يكون ذلك فى ساعة مبكرة من النهار ، أو ساعة متأخرة من الليل . ففى الحديقة أشجار لها عطر ـ طبعًا . فالبلاد مليئة بالغابات ويجب ألا تغرينى هذه العطور والألوان الحمراء والصفراء المنتشرة بين أزهار الشجرة وأوراقها . فهذه الأشجار تجتذب نوعًا من الأفاعى ، له سم يقتل بعد ٤٨ ثانية ـ أيوه ثانية ـ والذين شبهوا المرأة بشجرة تلتف حولها أفعى لم يكونوا خياليين . فالسم وراء العطور والألوان!

وهناك نوع من الأفاعى اسمها «الكوبرا السلطانية» أو «الكوبرا الملكية» بعضها ينام على الأشجار ذات العطور وبعضها ينام بلا عطور . وهذه الأخيرة . سمها يقتل فى نصف المدة . . أى فى ٢٤ ثانية . . أى قبل أن يقول الإنسان : آه . . يعنى الموت هنا أسرع من الصوت!

وإذا سمعت فى غرفتى صرصارًا فيجب ألا تغفل عينى فأنام . يجب ألا أنام أبدًا . فهناك نوع من الأفاعى صوته يشبه صوت الصرصار بالضبط . وهذا النوع من الأفاعى أعمى . ولكنه يهتدى بأذنيه إلى الأماكن التى يسمع فيه أنفاس النائمين . وهو يعض وليس سامًا . ولكن مفاجأة العضة يا ناس!!

انتهى بند الأفاعى . .

* * *

وإياى أن أسكن فى فندق له حديقة . . ففى هذه المنطقة ملايين القرود ، وكلها شرسة . وحادثة الصحفى الأمريكى الذى ظل طول الليل يكتب . وفى الصباح وجد الآلة الكاتبة

والأوراق وملابسه كلها غير موجودة . . وأبلغ إدارة الفندق . . وفى قسم البوليس أتوا له بالمتهم وفى يده السلاسل ومعه الآلة الكاتبة وكوم من الأوراق الممزقة . . وكان المتهم قردًا!

* * *

أما أحدث اكتشاف طبى، فهو أننى يجب ألا أصاب بأى إمساك . .

والإنسان معرض دائمًا للإمساك فى البلاد الحارة؛ لأنه يشرب سوائل مثلجة. ولأنه متعب ولا يعرف كيف ينام . . ولكن يجب ألا أسرف فى الشطة فهى ولا شك تؤدى إلى اختفاء الإمساك وظهور أمراض أخرى من بينها الإسهال والدوسنتريا. وهذا المرض الأخير - ولا داعى لتكرار اسمه - قاتل فى هذه البلاد.

* * *

ثم لا بد أن أضع منظاراً على عينى، لأن هناك نوعًا من التراب ملتهب . . إنه كالبارود . . إنه يجلو العين بمعنى أنه يمسح سوادها نهائيًا. فاحترس!

* * *

ووضع يده على كتفى: لكن ربنا يسترها وياك!

ثم عاد يقول: وأهم من هذا كله مدينة «الله أباد» وهي المدينة التى ولد فيها الرئيس نهرو . .

هذه المدينة بالقرب من إحدى القرى . . فيها أجمل فتيات الهند . . وكلمة «كده ولا كده» معناها أن أصحو من نوم ثقيل لا أعرف كيف بدأ فأجدنى مربوطًا من ذيل جلبابى وجلبابى مربوطًا فى ذيل فستان . . صاحبة الفستان هى عروسى الهندية . . كيف بدأ هذا؟ بدأ بأنى قلت كلمة كده ولا كده، أى أبديت اهتمامًا. فمعنى ذلك أن الفتاة أعجبتنى . والإعجاب معناه الحب والحب معناه الزواج فوراً. وأهلها يفرحون للعروسة ويحملون العريس على الأعناق بعد أن يدقوا رأسه بعصًا خضراء ويملئون فمه بشراب أحمر فيدوخ وتوضع أمامه النيران وعلى النيران يلقون بالسمن وتزداد النار اشتعالاً . . وبالرفاء والبنين!

وانتهت نصائحه . .

وهمست أنا فى أذنه : أنت سمعت هذا الكلام من فلان .

فقال : نعم .

قلت : أنا الذى قلت له هذه الحكايات كلها . . !

قال : يعنى هزار !

قلت : صحيحة كلها ، لكن ليس معقولاً يا أخى أن تتجمع كل هذه المصائب من أجلى وتصيبنى أنا وحدى دون السبعين مليونًا فى هذه الولاية .

قال : يعنى مسافر !

قلت : طبعًا مسافر . . !

قال : ويـاك . .

وسافرنا معًا وأنا أكثر خوفًا منه . . فأنا الذى أعطيته الطمأنينة التى لا أجدها . .

كنت كالشجرة التى تمددت تحتها روحه المسالمة وجعلته يغط فى نوم عميق . . أما أنا فتحرقنى الشمس وتهزنى الريح . .

. . ليس صحيحًا المثل الذى يقول : فاقد الشيء لا يعطيه !

فأنا فقدت الطمأنينة ومع ذلك أعطيتها له !

بل الذين يفقدون الأمل هم الذين يتحدثون عنه . والذين يفقدون الحب هم أكثر الناس تغنيا به . . إن الشمس التى هي مصدر الحياة للدنيا كلها ، ليست فيها حياة !

ملحوظة: نحن هنا فى الهند . . وكل الناس حكماء وفلاسفة !

* * *

لا تسمع فى مدن الهند صوت راديو ، ولا تجده فى البيوت ولا فى السيارات مع أنه معروض فى المحلات التجارية . والسبب أنهم يكرهون الضوضاء أو لا يقدرون على شرائه !

* * *

إذا تزوجت فى الهند ؛ فأنت ضامن أن حماتك لن تزورك أبدًا . لأن هذا حرام . . وإذا

زارتك فمرة واحدة كل بضع سنوات. ولا يجوز للحماة أن تأكل أو تشرب فى بيت ابنتها، لأن هذا حرام أيضًا. وإذا زرتها فالجيران هم الذين يقدمون لها الطعام والشراب..

* * *

وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة والأنهار التى تغرق مئات القرى كل يوم، فإنك تجد فى مدينة نيودلهى عربات لبيع الماء البارد، هذه العربات تابعة لمحلات كبيرة.

* * *

فى الهند توجد الموتوسيكلات التى تتسع لأربعة أو خمسة من الركاب وهى رخيصة وسريعة وتحل أزمة الأتوبيسات. وهى أحسن وسيلة لإنقاذ أزمة المواصلات فى القاهرة!

أول شىء يلفت النظر هو فساتين السيدات. إن المرأة تلبس السارى وهو قطعة من الحرير تلتف حول الساقين وترتمى على الكتف. ويبدو كأنه فستان من قطعتين منفصلتين تمامًا.. بلوزة قصيرة جدًا. وجيب تحت السارى، ويبدأ من تحت الوسط.. وأنت ترى منطقة عارية من جسم المرأة عرضها شبر. فإذا لفت هذا نظرك، وضبطتك المرأة وأنت تنظر إليها فإنها تندهش جدًا ويبدو عليها الضيق. كأنك أنت الذى زحزحت البلوزة عن الجيب!.. يا سم!

* * *

يسمون الجرسون هنا: بيرر وهى كلمة إنجليزية معناها: شيال وأعتقد أنها أحسن من كلمة «جرسون» الفرنسية التي معناها ولد أو شاب صغير. فأحيانًا يكون الجرسون فى سن الوالد أو الجد. وفى ألمانيا يسمونه: هر أوبر وفى إيطاليا يسمونه: كماريبرى. وفى العراق يسمونه: بوى وهى كلمة إنجليزية معناها ولد أى جرسون وفى العراق والكويت ينادون الجرسون مهما كانت سنه: تعال يا ولد!... ولكن فى الهند أحسن.. والعرب القدماء كانوا يسمون الجرسون بالندل.... ما رأيك؟

* * *

إنهم هنا يكرهون القسوة.. يكرهون أن يقضى إنسان على حياة إنسان أو حيوان.. إن الناس يكرهون تحديد النسل، لأن هذا قتل لأرواح بريئة.. إنهم يتركون الحيوانات ترعى

فى أحسن شوارع العواصم. الأبقار فى الشارع والقرود على الشجرة. ولا يقتلون النمل أو الصرصار أو الثعبان أو البورص فلها جميعًا رزق، ولنا جميعًا رب اسمه الكريم!

* * *

والهنود لا يدعون أحدًا إلى بيوتهم وإذا دعوك فلا تنتظر أن يقدموا لك شيئًا على الإطلاق.. وإذا سمعت الأطفال يروحون ويجيئون، وسمعت صوت ملاعق أو أطباق أو أكواب فمعنى ذلك أنهم انتهزوا فرصة المصابيح التى أضيئت بمناسبة زيارتك وجعلوا يغسلون أطباقهم وملابسهم؟

* * *

الشاى يقدمونه لك ومعه طبق من الحمص واللب المقشر وبعض اللوز أو البندق وبعض الأرز وقطع من الخبز، وكلها غارقة فى الشطة!

* * *

إن الشعب الذى عدده ٥٠٠ مليون نسمة لا يعرف معنى كلمة مليون، ولا ملايين فعندهم كلمة لاك وهى تساوى ١٠٠ ألف وعندهم كلمة: كرور وهى تساوى مائة لاك!

* * *

مركز المرأة فى آسيا كلها أحسن من مركزها فى أفريقيا. فهى هنا فى الهند رئيسة أعظم حزب وهو «حزب المؤتمر». وهي وزيرة ونائبة وزير ومستشارة وقاضية وهى وكيلة البرلمان ورئيسة مئات من الهيئات الرسمية.

* * *

كنت قرأت مرة للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا عبارة على لسان رجل مشكلته أنه لا يعرف كيف يحدد النسل فيقول: نحن فقراء غير قادرين على الذهاب إلى السينما أو الحدائق فماذا نعمل؟ إننا ننام فى ساعة مبكرة.. وتجيء الأولاد!

ومررت بهذه العبارة ضاحكًا ولم أقف عندها طويلاً.. والهند هى أحسن تفسير لهذه الجملة.. فالليل عندهم يبدأ من بعد الظهر حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى فلا سهرات ولا حفلات ولا سينمات!

وتجيء ملايين الأطفال.. طبعًا!

* * *

كل شىء هنا يتم ببطء شديد. الزمن بطىء والصيف بطىء، والشتاء بطىء والحياة بليدة جداً. إنها الحرارة التى تصيب الكبد فتنقل متاعبه إلى بقية أعضاء الجسم. ويقال إن الإنجليز عندما دخلوا هذه البلاد قرروا أن يعودوا إلى بلادهم لولا الكسل الذى أصابهم فمكثوا فيها ثلاثة قرون!

* * *

أحسن ما فى الهنود هو طريقة التحية عندهم.. فأنت لست فى حاجة إلى أن تصافح كل الموجودين عند دخولك وخروجك ووداعك.. وإنما يكفى أن تضم كفيك وترفعهما إلى أعلى.. وهذه تحية لواحد.. ولمليون واحد!

* * *

ليس على لسانى غير هذه الأغنية: أكلك نار.. شربك نار.. بعدك نار.. قربك نار!!

ولا يمكن أن يفهم أحد فى القاهرة معنى نار، إلا إذا سافر إلى الهند. النار حقيقة.. تخرج من أنفك وتدخل فى صدرك.. الطعام كله شطة حمراء وكما يوجد هواء سائل، توجد أيضاً نار سائلة توضع فى كل شىء. النار فى يدك وفى فمك، وفى معدتك.. نار يا حبيبى نار..

* * *

الهواء هنا غير موجود.. لقد زحف البحر على البر فانسحب الهواء. أنت تتنفس بخاراً من الماء. ولو سقطت سمكة من السماء الآن فلن أدهش، لأننا جميعا نخوض فى الماء.. بل لو سقطت هذه السمكة مشوية فلن أدهش، بل لو سقطت وهى فى منقار عصفور محشو بالأرز بالكارى ومكتوب عليها السعر فلن أدهش أبداً.. فنحن فى بلاد الملايين. ملايين الناس. والحواة والأديان واللغات والحيوانات.. كل شىء جائز!

* * *

لقد كنت فى الهند كالسيارة التى ارتفعت حرارتها، وتعطل فيها جهاز التبريد.. المروحة واقفة.. الماء يغلى. ولا أستطيع أن أوقف الموتور لكى تنخفض درجة الحرارة..

* * *

والجراثيم هنا تشبه السمك؛ إنها تسبح فى هذه البحار وتنتقل من إنسان إلى آخر وبسرعة، ويكون ضحاياها بالألوف!

* * *

ملابسى ملتصقة بجسمى. كأن عشرين جردلاً من الماء ألقيت على رأسى وعلى ظهرى.. ويبدو أن هذا منظر مألوف فى الهند.. فالأجانب لم يتعودوا بعد على هذه النار.. أما أبناء الهند فلا أحد يشكو من العرق أو من النار.

* * *

قرأت كتاب «أذرع وسيقان» لعبد الحميد جودة السحار. إنه عندما كان فى الهند كان ينام عاريًا وأمامه مروحة.. إننى فى نفس الوضع.. الغرفة مقفلة النوافذ.. وأنا عريان.. والمروحة أمامى كأنها فراشة دائخة.. وأنا أريد أن أنزع جلدى لأنه لحاف ثقيل يرفع درجة حرارتى. ولذلك اقترحت على مدير الفندق أن يأتى بمروحة أخرى لتقوم بتبريد هذه المروحة التى تبصق النار فى كل شىء حولها، وفى وجهى.

* * *

قرأت «السومرست موم» أن الإنسان فى الهند يشعر بأنه فوق.. فوق الناس جميعًا فحياته مستحيلة من غير أن يتخفف من كل ما يحمله من ملابس ومن طعام ومن هموم.. إن راحته الكبرى فى أن يجلس فوق.. فوق الجبال بعيدًا عن مشاغل الدنيا..

فعلا.. أستطيع أن أكون كما أريد هنا فى الهند.. أن أمشى عاريًا حافيًا.. أن أنام على المسامير.. فمثلى مئات الألوف.. أن أقف على ناصية أحد الشوارع وقد حلقت رأسى بالموسى ولففت غطاء حول نصفى الأسفل وفى يدى طبق كما يفعل رهبان البوذية.. وأنتظر من الناس أن يضعوا فى الطبق ما تجود به نفوسهم.. ولن أكون أعجوبة.. لن يلتفت أحد إلى هذا الشحاذ الذى ضاقت عنه بلاده، فجاء فى «بعثة شحاذية» إلى الهند..

ملايين الناس.. رائحون فى الشوارع وجالسون على الأرصفة.. ينظرون إليك ولا يهمهم أمرك.. أنت الآن فى الهند حر.. تمامًا.. بل أكثر حرية من أبناء الهند.. حر من عيون الناس ومن كلام الناس.

تستطيع أن تكتوى بالنار على الوجه الذى تريد . . بالهواء بالمطر بالمشى بالجلوس . . بالأكل بالإضراب عن الأكل .

نار ! ! وأرجو أن تكون الألف ممدودة حتى آخر هذه الصحيفة !

* * *

قررت أن أمسك نفسى ، ألا أصرخ ، ألا أكون عصبيًا . قررت ألا تكون لى أعصاب . قررت أن أكون مثل بيت انقطعت منه أسلاك النور والراديو والتليفون . وحتى عندما تسرى الكهرباء فى هذه الأسلاك يجب أن تكون فلسفتى هي : ودن من طين والودن الثانية من طين أيضًا .

لماذا؟ لأنه لا فائدة من الصراخ . . لا فائدة من الثورة . . فأنا لا أستطيع أن أصلح الدنيا حولى . ولا أستطيع أن أغير طباع الناس لكى تعجبنى . يجب أن أتغير أنا . . لا لكى أعجب الناس ، ولكن لكى أعيش مع الناس ، حتى لا أصطدم بالناس . . أو على الأقل لكى أستريح . .

وأقسمت بينى وبين نفسى أن تكون هذه هى فلسفتى اليوم فقط . واليوم على سبيل التجربة . .

ومددت يدى إلى الجرس . وضغطت عليه . وفى هدوء تام مددت يدى إلى كتاب وجعلت أقلب فيه . . صفحة بعد صفحة ، واستغرقت فى الكتابة والقراءة ، واكتشفت فجأة أنه منذ عشر صفحات لم يحضر الخادم . فنهضت بسرعة مندفعًا نحو الجرس . . وتذكرت الاتفاق بينى وبين نفسى وألقيت بنفسى فى المقعد . وتمنيت أن تكون نفسى هذه قد سبقتنى إلى المقعد . لكى أفعصها وأنا أرمى فوقها بثمانين كيلو من اللحم والشحم .

وفى هدوء تمثيلى جدًا مددت يدى إلى نفس الكتاب وقلبت فيه وأنا أقرأ الصفحات ولا أراها . وحاولت أن أقاوم غيظى فجعلت أغنى وأقول : يا عطارين دلونى الصبر فين أراضيه . . وقلت لنفسى . إذا كانت للصبر أراض فهى الهند . إنها تتحداك . . إنها تستنفذ أى رصيد من الصبر مهما كان . . إن النبي أيوب ـ عليه السلام ـ لو جاء إلى هذه البلاد لأحس أن صبره ليس إلا قليلاً من «الفكة» الصغيرة . فكل مواطن هنا مليونير فى الصبر وهدوء الأعصاب . . نعمة من عند الله . يعنى يبقى لا أكل ولا لبس ولا صبر كمان؟ !

وفجأة دق الباب ودخل الخادم . وفى هدوء قلت له : من فضلك عاوز شاى !

ولم يقل الخادم شيئًا واختفى وانطلقت وراءه أناديه . . وتذكرت الاتفاق الذى لم يمض عليه سوى دقائق . ثم قلت له فى هدوء : من فضلك عاوز شاى . يكون الشاى لوحده والمية السخنة لوحدها .

وأحنى الجرسون رأسه ومشى . . وناديته : يا أخى استنى لما أكمل كلامى . . المية تكون مغلية . . يعنى المية من غير شاى . . والشاى ناشف ومحطوط فى طبق . . وبينى وبين نفسى قلت : حتى لو جاب الشاى زى الطين والله ما أنا متكلم . . ساعة صبر مش قادر . . ساعة واحدة بس!

وبعد دقائق عاد الخادم ووراءه خادم آخر . . ووقفت أتفرج على البراريد والفناجين وأطباق الشاى الجاف ولم أفهم لماذا كل هذه الهيصة . . ولم أنطق بكلمة . وعندما خرج الاثنان وجدت ما يأتى : برادًا من الشاى ، وبرادًا من الماء المغلى ، وطبقًا من الشاى الجاف . . وبرادًا من القهوة . . ولم أجد قالبًا واحدًا من السكر . فمددت يدى إلى الجرس ، وجاء الخادم فى ثانية ، ودخل الغرفة وجمع كل البراريد وخرج دون أن يقول كلمة . ودخل خادم آخر ومعه ماء ساخن ، وطبق فيه شاى جاف وبعض السكر . . وخرج . وناديت الخادم لأفهم منه ما هذا الذى حدث . .

وعرفت أن الخادم الأول قرر أن يعمل فى مكان آخر من الفندق ، لما سألت عن السبب قال لى : إنك تهين الخادم .

فقلت : أهينه كيف؟ لا أعتقد أن هناك أى سبب يجعلنى أهين أى خادم هنا!

وناديت الخادم وسألته عن هذه الإهانة . . لكى أعتذر له إذا كنت مخطئًا ورفض الخادم أن يحدثنى عن حقيقة الإهانة . ولكنه أهاننى عندما قال : يا سيدى إنى خادم وليس من حقى أن أعترض . . مهما فعلت . مهما قلت . . فأنا خادم وأنت سيد . .

وهنا أحسست أننى مزقت الاتفاق بينى وبين نفسى وقلت : أرجوك أيها السيد . . أنا خادمك . . أريد أن أعرف لماذا أهنتك . . أرجوك . . إذا لم تقل فورًا فسأنزل للمدير وأطلب منه أن يكرهك على الاعتراف . . فأنت أهنتنى أيضًا . . إنك أهنتنى فى الصميم وجعلتنى أمزق اتفاقًا غاليًا!

وقال وهو لا يدرى معنى ما أقول : آسف يا سيدى إذا كنت قد تسببت فى هذا كله .

وأخيرًا قال : يا سيدى أنت كل يوم . . كل يوم تطلب منى نفس الطلب . وتطلبه

بالتفصيل . . إنك تقول : براد من الشاى ملىء بالماء المغلى وإلى جواره طبق به شاى جاف . . كل يوم تقول لى نفس الكلام . . كأننى حمار أو بغل . إنك تسىء الظن بى إلى درجة لا يتصورها العقل .

وقلتُ له : أنا آسف . . لى تجارب كثيرة فى الفنادق . . هذه التجارب جعلتنى أتوقع أن يحدث أى شىء . . وأنا لا أريد وجع دماغ . . آسف . .

وانحنى الرجل . . ورفع رأسه فى ضيق وهو يقول : هذه هى آخر مرة أعمل هنا . . أنا قررت ذلك . . وهذه هى آخر مرة أقدم لك فيها الشاى!

وأقفلت الباب وجلست وأعصابى مهتزة، تشبه أسلاك تليفونات لها دوى ولكنى لا أدرى ماذا يدور فيها . . ومددت يدى إلى براد الشاى . .

وعقدت اتفاقًا سريعًا بينى وبين نفسى . . وقررت أن أشرب فنجانًا من الشاى وفنجانًا من القهوة . . وبلا سكر . . وأنا أحتفظ بأعصابى فى براد . . (كلمة براد نسبة إلى البرد، مع أن الماء فيه يغلى) .

وأصبحت فى كل يوم أجلس أمام البراد وأصب ما أجده فيه دون أن أفتح فمى . لا بالكلام ولا بالشراب!

* * *

كل شىء هنا له معنى وله قصة يعرفها الناس . .

مثلاً، إذا نظرت إلى شعر الرأس . هل هناك شىء أبسط من شعر رأس الرجال؟ ولن أتعرض لشعر السيدات . فليست فيه أية تقاليع .

هناك رجال يطلقون شعر الرأس واللحية طول العمر . ودينهم يمنعهم من أن يقصوا شعرة واحدة . . ويضع الواحد منهم عمامة كبيرة ملفوفة حول شعر أطول من شعر أية امرأة، هذه العمامة ملونة : خضراء زرقاء حمراء . كأنها كرافتة وصاحبها يلونها كما يريد، ولحية طويلة أيضًا . ومعظمهم يضعون على اللحية شبكة كالتى تضعها الفتيات فوق الشعر . . وبعضهم يكتفى بأن يضع منديلاً مشدودًا حول اللحية .

هؤلاء هم «السيخ» وهم من أنشط الأقليات الهندية . وتجدهم فى كل مجال من مجالات العمل . ويظهر أن رجال السيخ يمتازون بقوام سليم . ولهم بنات وزوجات من أجمل فتيات الهند مع الأسف!

ويوجد فى مطعم «جايلورد» فى نيودلهى رجل من السيخ مشهور، وسبب شهرته أنه ليس فى رأسه أو وجهه أو لحيته شعرة واحدة. وهو لذلك حزين جدًا. إنه أقرع الرأس واللحية والشارب.. حتى حاجباه مرسومان بقلم من الفحم!

وهناك رجال يضعون المشط فى الرأس..

وهناك رجال يضفرون شعر الرأس بعد سن معينة. ويضعون فى هذه الضفائر مشطًا نصف دائرى.

ويوجد فى الهند أناس يحلقون شعر الرأس تمامًا.. بالموسى ويتركون مجموعة من الشعر فى منتصف الرأس ولا يحلقونها طول العمر..

وهناك المسلمون الذى يطلقون شعر اللحية، ولكنهم يقصرونه قليلاً بصورة تلفت النظر إلا أنهم ليسوا من السيخ. وهم لا يعرفون من اللغة العربية إلا «السلام عليكم».

أما شعر المرأة فطويل أسود يوجع قلب كل نساء أوربا!

* * *

والملابس تروى قصة أخرى..

فهناك «الدوتى» وهى قطعة من القماش الطويلة جدًا تلتف حول الجسم. وأحيانًا على شكل بنطلون يشبه اللباس الذى يرتديه أبناء البلد فى الإسكندرية.. قماشه أكثر من اللازم.

وهناك من يكتفى بأن يضع شريطًا من القماش يغطى به مساحة ضئيلة جدًا من الجسم من أسفل. أما الباقى فعريان.

هناك من يرتدى الجاكتة الطويلة جدًا كالبالطو وتحتها بنطلون ضيق جدًا وملاصق للساق.

والرجل العظيم نهرو كان يرتدى هذا الزى دائمًا..

وأشكال من الجاكتات والبنطلونات والملابس الداخلية غريبة..

أما رداء الرأس فهو أعجب.. هناك عمائم مشدودة، وعمائم مفكوكة، وعمائم لها «عرف» كالديك وعمائم لها ذيل كالطاووس.. وعمائم «زعرة» بلا ذيل ولا منقار.

* * *

إن الهند ليست دولة ولكنها قارة واسعة.

الرجل الهندى يستطيع أن يعيش فى أسوأ الظروف وفى أصغر مساحة من الأرض وبأقل طعام وشراب ممكن. ولا يشكو، يجد من دينه وفلسفة بلاده ما يجعله يرضى بهذا القليل من كل شىء.

ولكن أى أجنبى فى الهند يملك من الحريات ما لا يملكها فى بلده.. فأنت فى الهند تستطيع أن تمشى نصف «عريان» وأن تطيل لحيتك وشاربك. وأن تنظر إلى الأرض، وأن تنظر إلى السماء.. وأن تأكل الطعام فى يدك وأن تضعه على الأرض.. وأن تموت من الجوع وأن تموت من الشبع..

* * *

فى الهند صحافة تحتفى بك، وصحافة تشتمك، وصحافة تدعو لك، وصحافة تدعو عليك.. وصحافة تجعلك تكره الصحافة!

وبين الصحفيين الهنود من يعرف بلادك؟ كأنه يحدثك عن أسرته وأولاده.. وبينهم من ينظر إليك وإلى بلادك كأنها غير موجودة، وكأن الأراضى التى تحتلها بلادك هى مجرد «بياض» على خريطة الكرة الأرضية..

* * *

كل شىء هنا موجود، من الممكن أن تحب الهند وأن تكره آسيا كلها.. ومن الممكن أن تهنئ نفسك لأنك جئت إلى هذه البلاد.

ونهرو هو أعظم رجل فى الهند، ولا يعرف الهند من لم يعرف نهرو، ولا يعرف آسيا من لم يعرف الهند، ولا يعرف مستقبل العالم من لم يعرف آسيا!

والهند هى رأس آسيا.. وهى شعرها الطويل والقصير.. هى العمامة أم ديل، والعمامة بلا ديل. هى العنوان الذى كله معنى، وهى عنوان لا علاقة له بالموضوع. هى أغرب ما فى آسيا وأغرب ما فى الدنيا.. لكنها شىء كبير.. كبير جداً!

* * *

نشرت الصحف اليوم أن الحكومة قد تمكنت من القبض على ٨٠ قرداً.. وهذه القرود كانت تهجم على دواوين الحكومة وتمزق الدوسيهات، وقد اتفقت الحكومة مع عدد من الصيادين للقبض على هذه القرود بسعر ٨٠ قرشاً للقرد الواحد.

وتمكن هؤلاء الصيادون من إمساك القرود . . أما طريقتهم فهى أنهم أتوا بقرد صغير وراحوا يضربونه والقرد يصرخ . . فجاءت القرود الكبيرة لإنقاذه فسقطت فى الشبكة . .

واحتج الصيادون على ضآلة الأجر، وهددوا بإطلاق القرود . . فأعطتهم الحكومة عشرة قروش أخرى لكل قرد!

* * *

فوجئ الناس فى العاصمة هنا بأن وجوههم مغطاة بالسواد . . بالهباب . . وظن بعضهم أن هذا بفعل الشياطين أو الأرواح الشريرة وذهبوا إلى البوليس . . واكتشف البوليس أن هذا الهباب الذى يملأ وجوههم وأجسامهم وطعامهم قد هبط من إحدى مداخن المصانع المجاورة . . وليس بفعل الشياطين . .

* * *

فى الهند يسألون عن الجو وعن حال الجو، مع أن الهند صيف معظم السنة وليس هناك تغير ملحوظ فى الجو . . والصحف كذلك تهتهم أيضًا بالجو . . كأن هذه الصحف تصدر فى إنجلترا!

* * *

عندما وصل رئيس وزراء منغوليا إلى نيودلهى وزعت سفارة منغوليا هذه القصة الجميلة . والقصة لها مغزى . . وهى من الأدب الشعبى فى منغوليا . .

يقال : إنه كانت هناك دولة صغيرة سعيدة . ليس فيها فقر ولا مرض ولا شجار بين الناس . السماء فى وفاق دائم مع الأرض ورسائل السماء إلى الأرض يحملها المطر وتحملها الطيور وتكتبها الزهور وتخفيها الثمار حلاوة ورائحة جميلة . .

وفى يوم جلس الملك بين الحاشية يقول : بلادنا سعيدة وأعتقد أننى مصدر هذه السعادة . فلو لم أكن ملكًا عاقلاً عادلاً طيبًا ما وجدت البلاد هذه السعادة التى تراها على وجه الطفل وعلى وجه أمه وأبيه . .

ولكن الملكة تلفتت إلى الملك وقالت : بل لولا وجودى أنا . . إننى عرفتك شابًا طائشًا كثير النزوات . كل يوم على حال . . أنا التى وضعت عقلى فى رأسك . . ورأسك هو الذى يدير هذه الدولة وأنا التى أدير رأسك . . فأنا إذن التى أدير هذه الدولة . . أما سعادتها، فأنا مصدرها الوحيد . .

وتلتفت الملكة إلى الحاشية . .

ولكن أفراد الحاشية تهامسوا وقالوا فيما بينهم : إننا مصدر السعادة . فالملك لا يرى إلا بعيوننا ولا يحكم إلا بنا فنحن عيناه وأذناه ويداه . ونحن السلالم إلى الشعب ومن الشعب . . وإذا كان الملك عقلاً ، فلا عقل بغير جسم . . ونحن الجسم . .

واختلف الجميع . .

وأخيراً اتفقوا على أن يسألوا أحد الحكماء .

وذهبوا إلى أحد الحكماء وسألوه : ما سر السعادة فى بلادنا ، أهو الملك أهى الملكة ، أهم الحاشية؟

ولكن الحكيم نظر إليهم ضاحكًا وقال : لا أحد من هؤلاء ، وإنما سر السعادة فى بلادنا يختفى وراء أربعة من الأصدقاء هم : الفيل والقرد والأرنب واليمامة . . هؤلاء الأصدقاء الأربعة يعيشون فى سلام وحب وسعادة . .

وقال الحكيم : فى يوم اختلف هؤلاء الأربعة أيهم أكبر سنّا . . وأيهم أصغر سنّا . . ووقف الأربعة بالقرب من شجرة كبيرة فى السن أيضًا .

فقال الفيل : عندما كنت صغيراً كانت هذه الشجرة أقصر منى . .

وقال القرد : عندما كنت صغيراً كانت هذه الشجرة تلقى ظلا أصغر من جسمى .

وقال الأرنب : عندما كنت صغيراً كنت آكل أوراق هذه الشجرة وهى ما تزال على وجه الأرض . .

وقالت اليمامة : هل تعرفون أن هذه الشجرة كانت بذرة فى منقارى وأنا التى ألقيتها على الأرض . .

فآمنوا جميعًا بأن اليمامة هى أكبرهم سنّا ، ولذلك كانوا إذا ساروا صعد القرد على ظهر الفيل وصعد الأرنب على ظهر القرد . . أما اليمامة فهى تجلس على رأس الأرنب وهى وحدها التى تلتقط الثمار من أعلى الأشجار .

ومنذ ذلك اليوم لم تعد هناك ثمرة مهما كانت عالية لا يستطيع هؤلاء الأربعة أن يقطفوها . .

وعندما يكون هناك خطر فإن اليمامة تطير إلى أعلى وتدلهم على اقتراب الخطر . . فيهربون جميعًا . . الفيل يحمل القرد ، والقرد يحمل الأرنب ، والأرنب يحمل اليمامة . .

الخلاصة : لا يوجد شيء كبير أكثر من اللازم ولا يوجد شيء صغير أكثر من اللازم . . فالكبير فى حاجة إلى الصغير ، والصغير ينفع الكبير . .

والمثل الشعبى المصرى يقول : النواة تسند الزير . ومعنى ذلك أن الزير يحتاج إلى نواة لكى تسنده!

* * *

قرأت كتابًا بعنوان «الشرق شرق» للكاتب المرح چورچ ميكش ـ أرجو أن تنطقها چورچ ميكش فهذه إحدى أمنيات الكاتب الإنجليزى الجنسية المجرى المولد ـ والكتاب يتحدث عن الهند واليابان . وفورموزا ، وهونج كونج ، وتايلاند ، والفلبين ، وتركيا . . والكتاب ٢٩٠ صفحة ممتعة مضحكة . .

چورچ ميكش يدهش من الذين يقولون : إن آسيا «قارة» أو يقولون «الشعب» الآسيوى . . أو «الروح» الآسيوية . . أو التقاليد الآسيوية .

فآسيا ليست قارة وإنما هى مجموعة من القارات ، وكل واحدة منفصلة جدًا عن الأخرى . . فالصين قارة فى آسيا . . والهند قارة فى آسيا . . وكل واحدة مختلفة تمامًا عن الأخرى .

ويضحك من الذى يقول : «الشعب» الآسيوى ، لأن آسيا مجموعة من الشعوب المختلفة بعضها عن بعض . . فالهندى لا يشبه الصينى والصينى لا يشبه الفلبينى . . والأفغانى لا يشبه اللبنانى . . وكل واحد من هؤلاء له طريقة خاصة فى الأكل وفى الملبس . .

وإذا كانت معالم الجمال عند المرأة الصينية هى نعومة البشرة وقلة الشعر فى الجسم . . فليس كذلك عند المرأة الهندية . . أو عند الرجل من طائفة السيخ . . بل إن فى داخل كل دولة من هذه الدول ولايات كبيرة . كل واحدة تساوى عدة دول أوربية . . فى الهند وحدها توجد ولاية عدد سكانها ٥٠ مليونًا . وفى إندونيسيا جزيرة واحدة عدد سكانها ٦٥ مليونًا ، وفى اليابان جزيرة واحدة عدد سكانها ٤٠ مليونًا . . ففى هذه الدول شعوب وشعوب ، ومئات اللغات ومئات الأديان ، كالهند مثلاً . .

والذين يقولون «الروح» الآسيوية . . أي مجموعة الصفات التى يمتاز بها جميع أبناء آسيا . ماذا يقصدون؟ هل تستطيع أن تقول ما هو وجه الشبه بين اليابانى واليمنى أو بين المغولى والتركى . . لا توجد روح واحدة وإنما توجد عشرات الأرواح وكلها تتفق على شيء واحد هو كراهية «الاستعمار» . . كراهية الأجنبى . .

والكلمة الملعونة فى كل آسيا هى «الاستعمار» ، معناها استعمار رجل أبيض لرجل أصفر ، بغير سبب وبغير تقدير لظروفه . فالرجل الأبيض يقول للرجل الأصفر : أنت غير قادر على حكم نفسك بنفسك . إذن أنت قادر على حكم نفسك بغيرك . . وهذا الغير هو أنا؟

ولا تزال فى آسيا دروس وعبر وعظات لم يعرفها الغربيون بعد . أما أعظم درس للغربيين والبيض عمومًا فهو أنه لم يعد لهم عيش هنا . فإذا لم يكن واحد منهم يصدق ذلك فليحضر إلى هذه القارة ليرى!

سيلان

جزيرة الشاى

عندما وجدت نفسى مرة أخرى فى مطار مدراس شعرت بسعادة غريبة. ولم يكن عندى متسع من الوقت لكى أفتش فى نفسى عن أسباب هذه السعادة. أو لم أجد أى داع لأن أبحث عن أصلها ومن هم آباء وأجداد هذا الشعور الذى نزل ضيفًا على قلبى وعلى عقلى، فجعلنى أتمدد على كنبة خشبية وإلى جوارى رجل يهرش بصفة دائمة فى أماكن عميقة دقيقة من جسمه، ومع ذلك لا ألتفت إليه، وإنما أنظر إليه كأنه فتاة جميلة تضع الأبيض والأحمر تمهيدًا لظهورها فى أحد عروض الأزياء!

لهذه الدرجة كنت سعيدًا.. أو كنت مشغولا بسعادتى عن النظر إلى هذا الرجل أو إلى رجال آخرين.. حتى الضوضاء فى المطار لم تضايقنى. وحتى عندما جلسنا فى غرف متباعدة ومعلق على أبوابها كلمات ممنوع الخروج، ممنوع الدخول.. وحتى عندما فوجئت بأن صحيفة هندية أخرى قد نشرت تعليقًا على مقالاتى التى ظهرت فى القاهرة. وراحت تلعن اليوم الذى نزلت فيه بلادهم!

وإذا لم أكن مخطئًا، فأنا أعتقد أن مصدر شعورى بالسعادة هو أننى مسافر إلى بلد جديد.. لا أعرف إن كان هذا البلد أحسن من الهند، أو أغنى من ناحية الألوان الدينية والاجتماعية. لا أعرف.. إن الرحالة العربى ابن بطوطة قد أضاع ثلاثة أرباع عمره يتغزل فى جمال الهند. فقد قرأ على مدخل أحد المعابد الهندية فى العاصمة عبارة تقول: هنا.. فقط توجد الجنة!

ولكن يكفينى أن أذهب إلى مكان جديد. فأى بلد جديد هو الجنة بالنسبة للبلد الذى قبله.. فليس أروع ولا أمتع من رؤية بلد جديد.. من معرفة شىء جديد. من الخوف من جديد والقلق من جديد.. والاطمئنان من جديد!

وعندما تقدمت إلى ضابط الجمرك طلب منى جواز السفر. فأعطيته الجواز ووقفت. ويبدو أن سعادتى كانت زائدة عن اللزوم فلما سألنى عن وظيفتى وأين كنت فى الهند فأعطيته بضعة عناوين لأناس أعرفهم وآخرين لا أعرفهم فى الهند. ثم طلب منى بعدم اكتراث شديد أن أذهب إلى الغرفة المجاورة.

ولما سألته عن السبب لم يشأ أن يرد. ولكن لاحظت أن الوقت المتبقى لقيام الطائرة لا يزيد على عشر دقائق. فنبهته إلى أن الطائرة قد استقرت الآن على أرض المطار ومن الضرورى أن أذهب إليها فورا. ولكنه أصر على أن أبقى قليلا إلى أن يتصل ببعض المسئولين.

وأشار الرجل إلى خمسة من موظفى الجمرك وأمسك ورقة وقلمًا وسألنى فى غاية الجد:

ـ معك حشيش؟!

ـ لا...

ـ معك أفيون؟

ـ لا...

ـ معك ذهب؟!

ـ لا..

ـ معك مجوهرات؟

ـ لا...

ـ مخدرات طبية؟

ـ لا...

ـ مواد ملتهبة؟

ـ ملتهبة يعنى إيه؟

ـ آه.. طيب أشوف المواد التى معك وأنا أقول لك (وامتدت يده إلى حقيبتى وراح يقلب فيها.. فيجد قمصانًا وظروفًا وعلبًا فارغة وزجاجات حبر وكولونيا وأملاح الصواد والإسبرين) أمال فين المواد اللى أنت بتقول عليها..؟

ـ ياخى أنا ماقلتش حاجة . . أنا سألتك فقط . . مجرد استطلاع ، لكى أضيف إلى معلوماتى شيئًا جديدًا . . خصوصًا وأنا ما تزال أمامى مطارات كثيرة ورجال جمارك كثيرون . . مجرد حب استطلاع من جانبى فقط!

ـ معك قنابل . . أحماض . . أفلام تصوير . . أنت ماذا تعمل؟

ـ مكتوب فى جواز السفر . .

ـ لم أتمكن من قراءته . .

ـ أنا أدلك عليه . . (لاحظت على وجهه رغبة واضحة فى أن ألتزم حدود الأدب . وأقف عند المكان الذى يجب أن يلتزمه أى مسافر خارج من الهند) .

ـ بالضبط ماذا تعمل؟!

ـ مطرب ! (قلتها وأنا أحاول أن أكون ظريفًا) .

ـ معاك فلوس طبعًا؟!

ـ لا . . .

ـ معاك كم من الفلوس؟

ـ الستر (لم يفهمها) .

ـ بالعملة الهندية كم؟

ـ الستر لا يقدر بأى مال . .

ـ هل هو قطع من الأحجار الكريمة؟

ـ الستر كلمة عربية معناها شعورك بأنك لست فى حاجة إى أحد . . وأن يخرج الإنسان من بلد كما دخلها بلا فضيحة! (حاولت أن أضحك) .

ـ إذن كيف ستعيش في جزيرة سيلان؟

ـ سأعمل فى إحدى الفرق الغنائية هناك .

ـ الفرقة التى وصلت أمس؟

فقلت : لا أعرف (وأنا فعلا لا أعرف)!

ـ لحظة واحدة من فضلك!

ودار كلام باللغة الهندية طويل . . وظللت أضحك أنا . وأحسست أنى بايخ جدا . . وأن الضحك فى هذه الأوقات لعب بالنار وإشعال للبنزين فى مهب الريح .

واتجهت إلى الرجل وقلت له : إننى أداعبك فقط . . ومهنتى الحقيقة هى الصحافة . . صحفى يعنى . . والله صحفى فى بلدنا . . وأنا أحاول أن أداعبك قبل أن أرحل من بلادكم العظيمة بابتسامة عريضة . .

وجعل الرجل يقلب فى جواز سفرى وهو حائر بين الأسف والضحك والأدب والوقاحة ، والغناء والصحافة . .

وأخيراً قال لى : معك فلوس .

ـ معي هذه (وأعطتيه روبية هندية) .

ـ ما هذا؟

قلتُ إنها أزيد من المبلغ الذى نص عليه القانون . . فالقانون ينص على أن يحمل المسافر معه ٧٥ روبية وأنا معى ٧٦ روبية . . !

ولم تعجبه النكتة وراح يقلب فى الحقيبة . . وأشار إلى أحد الشيالين أن يحملها . وعندما خرجت من الجمرك طالعت إحدى الصحف . .

وفى الصحف الأولى قرأت أن أحد المطربين فى فرقة موسيقية قادمة من بيروت فى طريقها إلى كولومبو كان يخفى فى ملابسه سبائك من الذهب!

وقرأت أن هذه الفرقة الراقصة فتشوها تفتيشًا كاملاً . اشترك فيها رجال ونساء وكلاب البوليس . . وكان معهم ذهب ولؤلؤ وحشيش وأفيون . .

ومن المفروض أننى أحد أفراد هذه الفرقة!

وشكرت ضابط الجمرك واعتذرت له .

وتقدم لى هو أيضًا بالاعتذار الكافى ، لا عن التفتيش وسوء الظن بى ، ولكن على التأخير . . فقد قامت الطائر إلى سيلان . ولابد أن أنتظر طائرة أخرى فى اليوم التالى . .

ونمت جالسًا أو جلست نائمًا على مقعد غير مريح حتى صباح اليوم التالى . وكنت

أهرش تمامًا كأى واحد من موظفى المطار . . ولو رآنى أحد المهتمين بالقضايا السياسية لأعطانى الجنسية الهندية فورًا!

* * *

وفى اليوم التالى كأى تلميذ ضربوه علقة، ركبت الطائرة محطم الجسم. فلم تكن جلستى مريحة . . ولا ليلتى هادئة. فقد أحسست بأننى أخذت شلوتًا. والسبب هو محاولتى أن أكون ظريفًا وأن أنكت. وتعلمت ألا أضحك فى الهند بعد ذلك. وقررت أن ألتزم نفس السياسة فى جزيرة سيلان. فأبناء سيلان وأبناء الهند أولاد عم، إن لم يكونوا إخوة.

والمسافة التى تقطعها الطائر بين مدراس وكولومبو كانت الأساطير القديمة تتحدث عنها وعن وجود جسر تاريخى عبر المحيط الهندى. هذا الجسر أقامته القرود بأن تماسكت بعضها فى بعض. حتى قام أحد الأمراء وعبر على ظهر القرود من الهند إلى سيلان. ولذلك فالقرود حيوانات مقدسة!

فهنالك أكثر من قصة وأكثر من تاريخ يربط شبه جزير الهند، وجزيرة سيلان.

وفى الطائرة جلست إلى جوار رجل أوجع رأسى بالكلام. ولكنى استسلمت للنوم الذى كأنه سد أذنى بالقطن ووضع ترباسًا على فمى ودق مسمارين فى مقعدى، فلم أكن أتحرك لا يمينًا ولا شمالاً . . .

ولما يئس الرجل قرر أن يوقظنى بشخيره، ولكنى تمسكت بموقفى، أقصد بحالتى التى أنا عليها. وكل نكتة جاءت فى رأسى شنقتها فورًا. وكل محاولة للتعليق على شىء أخمدتها فى حينها. وتخيلت نفسى بطلاً يخوض معركة ضد الكلام. ونجحت فى أن أسكت نفسى بنفسى . .

حتى عندما هبطت الطائرة أرض سيلان ورأيت البهجة على وجوه الناس، وحتى عندما عرفت أن الطائرة قد أصابها عطل فى أحد محركاتها، وأننا وصلنا بمعجزة لم أهنئ نفسى على سلامة الوصول . . ولكن صفقت لنفسى لنجاحى فى أن أسكت . .

ونقلتنى السيارة من المطار إلى الفندق.

ولم أحدد الفندق الذى أريده . . . ولكن من نافذة السيارة وجدت المناظر جميلة . . وجدت النسيم يغسل نفسى . . وفتحت صدرى لكى أسهل للهواء الطريق إلى قلبى،

ويبدو أن قلبى نام. وأن عقلى استرخى. . . وانتشيت . وتمددت فى مقعدى وانتهزت فرصة لأبدى إعجابى للسائق ببلاده. وكأنه كان يتوقع ذلك فأضاف هو أيضًا أوصافًا جديدة إلى جزيرة سيلان. .

وفى شارع طويل على جانبه الأشجار العالية. انطلقت السيارة. وانحرفت. ودخلت فى بوابة من الأشجار الغليظة ثم توقفت. وأما باب الفندق وجدت عددًا كبيرًا من السائحين الإنجليز. . الوجوه بيضاء. والعيون حلوة. . والملابس نظيفة. . والكلام همس. . والضحك سعيد.

والفندق عبارة عن جناحين. .

الجناح الجديد هو الذى يضم المطعم وقاعات الجلوس. . والبار ومكتب الاستعلامات. . .

أما الجناح القديم فهو الذى نزلت به. .

وفى أعلى طابق كانت غرفتى. .

ومن نافذ فندق «مونت لافينيا» بجزيرة سيلان أطل على البحر. .

لا شىء غير عادى. . الموج العالى يضرب الشاطئ. الموج ثائر ولكن ثورته بيضاء. الموج أبيض والشاطئ أحمر. فلا استطاع البحر أن يغير لون الشاطئ ولا استطاع الشاطئ أن يغير لون البحر. السحب عالية جدًا. ولن يكون مطر قبل ساعة. الأطفال فى ملابسهم البيضاء وأحذيتهم البيضاء يركبون المراجيح. . . إعلانات (باتا) فى كل مكان. لا شىء جديد. ومن الممكن أن تجد هذه المناظر فى الإسكندرية أو بورسعيد.

ولكن لو أنك أمضيت شهرًا فى الحر والعرق والمطر والطين والنوم من الساعة الثامنة والتاسعة كل يوم، لو أنك ركبت طائرة ذات محركين يلعب بها الهواء ويلقى بها فوق سطح السحب. ورأيت وجوه المضيفات أصفر فى لون الليمون. . لو أنك مددت يدك إلى الصحف التى صدرت فى نفس اليوم ورأيت صورة طائرة ذات أربعة محركات قد اشتعلت فيها النار. . ولو تأملت المضيفة السمراء ذات العيون الزرقاء وهى تمسك قطعة من القماش الأحمر وتقول لك: إننا الآن سنمر على المحيط، وهذا هو جهاز النجاة. عندما تسقط الطائرة فى الماء، ضع هذا على صدرك، اربطه جيدًا. انفخ فى هذه الأنبوبة. ستبقى عائمًا حتى تجىء السفن أو الطائرات لإنقاذنا. . ولكن إن شاء الله نصل بسلام!

وبعدها بلحظة واحدة ترى الأضواء الحمراء تعلن أننا يجب أن نربط الأحزمة فالطائرة ستمر فى أحد المطبات الهوائية . .

لو أنك قضيت عشرات الساعات فوق السحاب وفوق الماء ، لا ترى الدنيا إلا من فوق . . لا تراها إلا على هيئة نقط وبقع وعلب كبريت . . لو أنك شعرت أنك لأول مرة تشم هواء قادمًا من البحر . . هواء طبيعيًا . . لو أنك شعرت هكذا لوجدت أن منظر البحر فى سيلان شىء عجيب غريب . حتى طعم الهواء . . حتى طعم الرطوبة الموجودة فى هواء سيلان . .

لقد كان منتهى أملى أن أصل إلى هذه الجزيرة وأستغرق فى النوم أى عدد من الساعات . وآكل كل الأشياء التى حرمتها على نفسى . . وبعد النوم أسهر حتى الصباح ، صباح أى يوم أو يومين أو ثلاثة . . . مش مهم!

ولكنى فى هذا اليوم أحسست بأننى لست فى حاجة إلى نوم أو أكل أو شرب أو سهر . . إن مجرد شعورى بأننى وصلت إلى هذا المكان من الجزيرة ، آمنًا سالمًا . . هذا الشعور ملأ عينى بالنوم ، ونفسى بالراحة ، ومعدتى بالطعام . . واكتفيت بهذا القدر .

إننى أتطلع إلى السقف فى الظلام . . كأننى أراه لأول مرة . وكأن الفنادق التى نزلت فيها كانت بلا سقف . . أو كأننى كنت أنام على السقف فليس فوق رأسى شىء ، إلا الضيق والقرف . .

إن المصابيح فى الغرفة أراها شيئًا آخر . . أراها مضيئة خافتة كأنها نهدا فتاة جميلة . . فتاة خرافية ترضع الليل لبنا مخلوطًا بالشاى . . ليس هذا غريبًا فنحن فى جزيرة الشاى . .

حتى السيجارة فى يدى لها معنى آخر . . إن دخانها يتصاعد إلى أعلى . . إننى أراها شيئا آخر . . أرى السيجارة قلمًا من نوع غريب . . القلم ساكن وحبره الأبيض هو الذى يتحرك ويكتب على ورقة فوقه . . القلم تحت والورقة فوق . . والحبر يتصاعد إلى الورقة . وأنا الذى يمسك القلم لا أعرف ماذا يقول .

هذه هى جزيرة الشاى ، أشهر شاى فى العالم . .

هنا مزارع ليبتون وبروك بوند . هذه الجزيرة استعمرها الهولنديون ١٥٠ سنة ، وطردهم البرتغاليون واستعمروها ١٥٠ سنة أخرى . وطردهم البريطانيون ولا يزالون فيها منذ ٢٦٣ عامًا . . والآن قد أصبحت جمهورية مستقلة كالهند وباكستان ولكن ضمن التاج البريطانى . .

قمت إلى النافذة أقفلها . . فإننى أحب البحر ولكن صوته يذكرنى بصوت مليون محرك طائرة ومليون مروحة ومليون جهاز تكييف. وحاولت أن أقفل النافذة فلم أستطع. فليست هناك نوافذ وإنما ستائر فقط.

وجلست أشرب الشاى . . شاى له أصل من ناحية اللون : أبوه الذهب وأمه الوردة . . الشاى هنا له وطن . . فالشاى فى هذا الفنجان مأخوذ من هذه الشجرة التى تبعد عنى مائة متر . .

* * *

وكان لابد أن أنتقل إلى فندق آخر فى قلب العاصمة. واخترت فندق «جول فيس».

وبقيت فى الفندق أيامًا . .

عندما اطلعت على كشف الحساب فى فندق «جول فيس» فى مدينة كولومبو عاصمة سيلان . . رقعت بالصوت فعلاً . . لا أعرف كيف، ولكن هذا ما حدث . .

ولما سألنى الصراف عما حدث قلت له : مغص كلوى من تغيير الجو . . وترحمت على أرخص وأحسن فندق تركته فى الهند. فى مدينة تريفاندروم عاصمة كيرالا كنت أنزل فى فندق ماسكوت، الفندق تديره الحكومة، الغرفة على الطرقة بها مروحة. والسرير فى منتصف الغرفة. وعليه ناموسية، وهناك غرفة كبيرة بها حمام، وفى الحمام «كوز» يتسع لطفل صغير عمره تسع شهور وقد ابتلع بطيخة!

ولكن الله يرحم أيام هذا الفندق.

ففى الساعة السابعة صباحًا يدق الخادم بابى ويفتحه ويدخل ويضع لى الصحف اليومية. وفى الساعة الثامنة والنصف أذهب إلى غرفة الطعام لأتناول الفطور : شاى وبيض وشمام أو موز أو مانجو وبعض البندق . . أي كمية تعجبنى ومربى وزبدة وعيش محمر.

وفى الغداء شوربة . . وسمك مقلى ثم لحم دجاج ومعه أرز بالكارى ولحم آخر . . ثم لحوم مشوية ومعها بعض جوز الهند المفروم وبعض المانجو المفروم وبعض البندق مرة ثانية وفنجان من القهوة . .

وفى الساعة الخامسة يدق الخادم باب غرفتى . .

ويضع صينية على منضدة صغيرة أمام الباب الذى يطل على حديقة جميلة بها أشجار جوز الهند والمانجو والدوم . . هذه الصينية عليها الشاى واللبن والبسكوت وبعض حبات المانجو والموز . .

وفى العشاء : شوربة ولحوم وفواكه بكميات كبيرة جدا . .

هل تعرف كل هذا بكم؟ لا أحد يصدق . . كل هذا بحوالى ١١٠ قروش!! كل هذا مع الاحترام التام والتحيات والسلام . . وهذا يفتح لك الباب وهذا يقفل لك الباب . وهذا ينزل لك الناموسية ، ورابع يرش الـ د . د . ت وخامس يسحب عليك الغطاء وسادس يقفل لك الأبواب ويسألك متى تشرب شاى الصباح . .

وطبعا كل هؤلاء ستدفع لهم البقشيش . .

كان ذلك فى الهند!

أما فندق «جول فيس» فقد حاسبنى على أساس ستة جنيهات غير القهوة والشاى والمكالمات التليفونية والصحف وغير ٥٪ نظير خدمة أخرى . . وغير أن رحم الله فندق ماسكوت . . إن المعلومات التى تجمعت عندى عن الفنادق التى أنزل فيها بعد ذلك قد أطارت النوم من عينى ، لاتنسى أننى أكتب سنة ١٩٥٩ .

* * *

يقال إن آدم ـ عليه السلام ـ عندما نزل من الجنة إلى الأرض كانت جزيرة سيلان هى أول مكان نزل فيه . وبعض الناس يعتقد أن مكان قدميه لا يزال واضح الأصابع .

وقد ذهبت إلى هذا المكان ولم أجد أثرًا لقدمى والدنا آدم . . وإنما وجدت الكثير من المياه والرطوبة . ولم أستبعد أن تكون رحلته من السماء إلى الأرض شاقة مرهقة . ولابد أن العرق تصبب منه . على كل حال إن الجبال ما تزال تحتفظ ببعض هذا العرق . . بعضه على هيئة بحيرات وبعضه على هيئة دموع فى أعيننا نحن السائحين ذوى الملاليم المحدودة!

وأحسست بيد على كتفى تضربها بعنف . . إنه أحد الأمريكيين التجار . لقد رأى الفاتورة وقال لى : ادفع يا بطل!

قالها بالعربية : فسألته وكيف تعلمت لغتنا؟!

فأشاره بيده: إنها قصةطويلة.. لقد كنت فى القاهرة وسهرت فى الأوبرج ورأيت أحسن راقصة عربية. إنها «نادية جمال»..

فقلت له: قصدك سامية جمال؟!

فأجاب مؤكدا.. لا.. لا.. إنها نادية جمال. أنا أعرفها.. حدثها عنى.. قل لها هل تذكرين فو.. فو.. فوستر..

قلت: كانت تدللك هكذا؟!

فأجاب: ادفع أولاً وأنا أحكى لك بعدين.

ودفعت وجاء يهمس فى أذنى: تحب تسمع حكاتيها؟

قلت: لا..

قال: لماذا؟

قلت: معنديش فلوس!

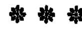
* * *

هذه الجزيرة الصغيرة تعتمد على زراعة الشاى وبيع الشاى للعالم كله ولا شىء يشغل الناس هناك غير بيع الشاى.. والشاى يزرعونه على سفوح الجبال. وكلما ارتفعت السفوح عن سطح البحر، كان الشاى أحسن.. والشاى الذى ينبت فى أرض منخفضة هو شاى ردىء جدا والشَّاى درجات. شاى ناعم وخشن، وطويل وقصير، ورائحته قوية أو ضعيفة، ولونه فاتح أو غامق.. ومعرفة طعم الشاى ووضعه فى رتبة أو درجة مسألة صعبة وليست سهلة كما كنت أتصور..!

أما شجرة الشاى نفسها فهى تعيش فى الأرض ١٤ سنة.. وجذعها غليظ وقوى.. وأوراقها تشبه أوراق الملوخية.. وفى كل يوم يقطفون أوراق الشاى.. طبعا ليس كل الأوراق.. وإنما التى ظهرت حديثا ولونها أصفر فاتح، وربما كان عدد الأوراق المقطوفة من شجرة لا يزيد على كبشة واحدة. وعملية الجمع مرة كل أسبوع.. ومرة كل أربع سنوات ينزعون كل أوراق شجر الشاى، وينزعون أغصانها أيضًا لكى ينبت عليها ورق أصفر جديد.. والشاى لا يمكن زراعته فى بلادنا؛ لأنه يحتاج إلى أمطار مستمرة وإلى حرارة شديدة وإلى ظلال وإلى تربة حمراء.

وكل فدان من الأرض به خمسة آلاف شجرة . . وهناك نظام جديد لزراعة الشاى ينص على زيادة عدد الأشجار إلى سبعة آلاف شجرة . . وهناك نظام جديد آخر يقضى بأن تكون زراعة أشجار الشاى بطريقة «التعقيل»، أى عن طريقة «العقل» كالعنب عندنا . . وكان الفلاح الهندى والسيلانى يعتمد على زراعة الشاى عن طريق البذور . .

وفى جزيرة سيلان مئات الألوف من الأفدنة مزروعة شايًا . . ولكن مع الأسف يملك الأجانب ٨٠٪ منها . . والأجانب هناك هم الإنجليز . . فلهم مزارع واسعة جدًا . والمزرعة تتكون من عشرات الألوف من الأفدنة تقوم فيها المصانع والفيلات الأنيقة جدًا للمهندسين وكبار الموظفين .



وانتشار الشاى فى العالم له قصص غريبة . . فيقال مثلاً إن أحد الملوك كان يغلى الماء فى «حلة» ليشربه فسقطت فيه ورقة من شجرة فلاحظ أنها أعطت الماء لونًا جميلاً . . وكانت هذه «الحلة» هى أول فنجان من الشاى فى العالم . وكان ذلك من خمسة آلاف سنة . .

وبعد ذلك انتقل الشاى من اليابان إلى الصين إلى سيلان إلى أوربا . .

والعملية التى يتم بها تحويل ورقة الشاى الخضراء إلى الورقة السوداء التى تراها تستغرق فى المصنع حوالى ٢٢ ساعة .

وتبدأ العملية بأن تنقل العاملات سلال الشاى إلى إحدى العربات وتنقلها العربات إلى المصنع . . وفى المصنع يوضع الشاى الأخضر على ألواح تتعرض للهواء الساخن الطبيعى أو للهواء الساخن الصناعى والغرض من ذلك هو تجفيف الرطوبة الموجودة فى الشاى على الأقل إلى النصف .

وبعد ذلك ينقل الشاى إلى عملية أخرى . . وهى وضعه فى الآلات لتحطيم أوراقه . . وبعد تحطيمها تجعلها مبرومة . . والغرض من تحطيم أواق الشاى هو إخراج العصارة الموجودة فيها .

وبعد ذلك تبدأ عملية تجفيف أخرى . . تجفف بخار الماء . . فلا يبقى إلا الشاى المركز فوق الورق المبروم المحطم . . ويدخل الشاى فى أفران كهربية تهزه بصورة مستمرة . .

وبذلك تصبح الرطوبة الموجودة فى الشاى هى عبارة عن ٣٪ من الماء الذى كان به عند دخوله المصنع . .

ثم ينتقل الشاى المحطم المجفف الذى أصبح أسود اللون، إلى الغرابيل تهزه، أما الشاى الناعم فينزل إلى الأرض النظيفة، والشاى الخشن يعود مرة أخرى لتحطيمه وتجفيفه من جديد.

وهذا الشاى الناعم ينتقل إلى عملية تجفيف فى الهواء العادى . .

وبعد التجفيف ينتقل الشاى إلى عملية فرز أخرى . . فرز حسب طول الورقة . .

* * *

ولكن العملية المهمة جدا بعد ذلك هى عملية رتب الشاى ودرجاته . .

والذى يحدث أن عينات صغيرة تؤخذ من الشاى فى المعمل، ويوضع الشاى الجاف فى الفناجين ويوضع عليه الماء الساخن لمدة ست دقائق . . ولابد من تغطية الفناجين . . وكل ست دقائق يتقدم الرجل «الذواقة» لتذوق طعم الشاى . . ويعرف بتجربته الطويلة، رائحة الشاى ودرجة حموضته ولونه . . والرجل الذواقة له طريقة خاصة فى معرفة رتب الشاى . . فهو «يشفط» الشاى بصورة عنيفة حتى يملأ به كل حلقه . . وينتظر لحظة ثم يلقى بكل ما فى فمه، ويجرب ذلك مئات المرات فى اليوم . .

والرجل الذواقة لا يشرب الخمر ولا يدخن لكى يحتفظ بحساسية فمه سليمة.

وتذوق الشاى يتم بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة للشاى.

وعن طريق تذوق الشاى يمكن معرفة درجته ومعرفة سعره أيضًا.

وكل الشركات لها معامل فى جزيرة سيلان ويبعثون بتقاريرهم إلى المركز الرئيسى فى لندن . . وفى لندن تجرى تجارب أخرى على الشاى . . وكثيرًا ما جاءت الأنباء من لندن تطلب من المعمل أن يعيد النظر ـ أقصد يعيد «التذوق» من جديد.

والشاى درجات . . وكل شعب له لون خاص من الشاى . . وهنا فى الشركات الإنجليزية أناس متخصصون . . كل واحد فى شاى خاص . . هذا فى شاى جنوب أفريقيا . . وهذا فى شاى بريطانيا . . وهذا فى شاى الجمهوريه العربية . والشريب عندنا يفضل الشاى الناعم الأسود القوى . فحتى يصلك هذا الشاى الأسود يكون قد قطع رحلة

طويلة من الحقل إلى النار إلى المعمل ثم إلى البورصة ثم إلى الصناديق، و١٥ ألف ميل فى البحر!

لا داعى لأن تهز فنجان الشاى ولا داعى لأن تقلبه على وجهه.. إننى سأقرأ لك هذا الفنجان وهو معتدل مستقر فى طبقه، وهو ملىء بهذا السائل الأحمر.

اسمع يا سيدى.. بهذا الفنجان الذى شربته أنت، يصبح عدد الفناجين التى شربت اليوم ٨٠٠ مليون فنجان فى العالم كله. والشاى الذى تشربه فى القاهرة قد جاء ثلثاه من الهند، والثلث الباقى من الصين. والصين هى أول دولة فى العالم عرفت الشاى.

ويكفى أن أقول لك: إن أول إنسان شرب الشاى كان فى سنة ٢٧٢٧ قبل ميلاد المسيح. هذا الإنسان هو الإمبراطور شن توانج. وكان من عادة هذا الإمبراطور أن يغلى الماء قبل شربه، وقد حدث وهو يشهد عملية غليان الماء أن ـ كما قلت لك من لحظات ـ سقطت ورقة جافة من إحدى الأشجار وانزعج الإمبراطور ولكنه لاحظ أن هذه الورقة قد غيرت لون الماء فوضع أوراقًا أخرى وأعجبه اللون والطعم. وكان الإمبراطور أول شريب للشاى فى العالم.

ويقال إن چنكيز خان قد نقل الشاى بهذه الصورة من آسيا إلى أوربا..

وبدأ الشاى ينتقل إلى كل هذه المنقطة حتى إن إمبراطور اليابان عندما عرف الشاى جعله خاصًا بالأسرة المالكة، وكان ذلك سنة ١٨٥ وكان الإمبراطور يقيم الحفلات لشرب الشاى..

وأوربا لم تعرف الشاى إلا فى القرن السادس عشر. وحرمته الكنيسة وهاجمه الأدباء والشعراء وأعلنوا الحرب على شرب الشاى الذى يفسد الأخلاق ويضعف القوى العاملة. وكان الأوربيون يشربون الشاى بغير سكر.

وتقول الأديبة الكبيرة مدام دى سفينيه: إن أول امرأة فى العالم خلطت الشاى باللبن هى مدام سابليه وكان ذلك فى سنة ١٦٨٠.

وأديب إنجلترا الكبير الدكتور جونسون اعترف صراحة بأنه يشرب الشاى وأن البراد الذى يصنع فيه الشاى لايبرد أبدًا. واعتبره المجتمع الإنجليزى رجلاً صريحًا أكثر من اللازم، بل قيل عنه إنه رجلا لا يستحى من إدمانه الشاى وتناوله علنًا أمام النساء!

وأوكد لك أن الشاى الذى ستشربه سيكون أجمل لونًا وأجمل رائحة فقد ذقت هذا

الشاى قبلك. فهنا فى مدينة كولومبو توجد بعثة رسمية من مصر، وقد رأيت البعثة وهى تتذوق الشاى وتختاره لك. . ورأيت عملية الخلط وذقت الشاى المخلوط. لقد رأيت الشاى الحقيقى. . هذا الشاى ستتولي وزارة التموين خلطه لك. لن تتركه للتجار كما حدث فى الشاى الذى تشربه الآن. فالتجار لا يخلطون الشاى كما يجب. إنهم يقدمون لك الشاى الصينى. أما الشاى الهندى أو السيلانى الممتاز فهم يحتفظون به.

وهذا الشاى الذى ستشربه قد رأيته على أشجاره. . رأيته أخضر اللون. أو على الأصح أصفر اللون. ومشيت مع هذا الشاى خطوة خطوة. ورأيت عملية «تمريك» أى جعل ماركات للشاى. . والشاى له درجات ورتب تبلغ الأربعين أو الخمسين رتبة. . رتب حسب لون الورقة وحسب لون التفل وحسب الطعم وحسب اللون وحسب الرائحة. . وكل شىء له أصول وقواعد.

وينقل الشاى فى صنادق كبيرة إلى معامل الشركات.

وهناك تجرى عليه تجارب غريبة. فالشاى الوارد من المزرعة يعرضونه على رجل «ذواق» وبالعربى الفصيح «ذواقة» مثل رجل علامة وبحاثة ورحالة. . وكل فنجان يتذوقه كتب عليه أنه من نوع كذا ودرجته من فئة كذا وسكره يجب أن يكون كذا. . هذا الرجل يتقاضى حوالى ٥٠٠ جنيه فى الشهر وهذا الرجل الذواقة لا يشرب الشاى أبدًا إنه قرفان منه. فهو يملأ عينيه وأنفه وفمه. إنه يقضى حياته كلها يضع الشاى فى فمه ثم يلقى به فى برميل كبير.

إن صانع الشاى لا يذوقه وإذا ذاقه فلا يشربه. . فاحمد الله أنك تشرب الشاى ولا تذوقه!

* * *

ومن المؤكد أنك لا تستطيع أن تعمل الشاى. . فالشاى الحقيقى له قواعد. . وأنا أنقل لك ما قرأته فى كتب «أصول الشاى»:

أولا: يجب أن تضع بعض الماء الساخن فى فنجانك قبل أن تصب فيه الشاى. .

ثانيًا: إذا غليت الماء يجب أن يكون ذلك مرة واحدة. فالماء الذى غلى كثيرًا يفسد طعم الشاى ولونه ورائحته. ويجب ألاتغلى الماء كثيرًا. ويكفى أن ترى الماء يغلى فتنزل البراد بعيدًا عن الوابور أو البوتاجاز.

ثالثًا: إذا كان البراد يتسع لأربعة فناجين مثلا يجب أن تضع فيه خمس ملاعق شاى صغيرة. يعنى ملعقة أزيد دائمًا. لماذا؟ لم أفهم. ولكن هذه هى الطريقة المثالية.

رابعًا: اترك البراد وبه الماء المغلى والشاى لمدة ست دقائق ولا بد أن يكون البراد مغطى لأن الضوء يفسد لون الشاى ورائحته وطعمه.

خامسًا: أحسن طريقة لتذوق الشاى هى أن «تشفطه» وأن تكون عملية الشفط هذه قوية حتى يملأ الشاى فمك وينبه كل أعصابك.. الطريقة الرقيقة الهوائمى فى شرب الشاى مفسدة لطعم الشاى.

طبعًا الطريقة المثالية هى أن تضع الشاى فى «قلة» أو إبريق وأن تشربه كما يفعل أبناء الريف ويكون للشاى ـ وهو ينساب فى حقلك ـ صوت كنقيق الضفادع.

لم يقل الرجل «الذواقة» هذه العبارة ولكنها محاولة منى لتعريب نظريته..

سادسًا: شرب الشاى من المستحسن أن يكون مع الأصدقاء وحبذا لو كان مع فتاة أنت تحبها. وسبب ذلك أن الشاى: يجب أن يشرب على فترات متباعدة، يجب أن تشربه على شوق.. أما إذا كنت وحدك فأنت تشربه مرة واحدة أو تتركه نهائيا.. ولذلك فاشرب الحلبة أو الينسون.. أحسن!

ولكن عندما تكون معك فتاة فإذا كان الشاى من صنعها فستجاملها وتشرب وستجد لذة. وإذا كان الشاى من صنعك فستجاملك هى وتشرب بلذة وستصدق أنت كلامها وتؤمن بأن الشاى مصنوع جيدًا.. وستشرب بلذة.. ولذة أخرى..

سابعًا: أحسن طريقة لشرب الشاى أن نشربه من غير سكر..

ثامنًا: رأيى الشخصى هو أننى جربت كل هذه القواعد ووجدتها فعلا مضبوطة فيما عدا القاعدة السابعة..

* * *

وأمس حدث لى شيء غريب..

أبناء الهند وسيلان يلبسون الدوتي وهو عبارة عن فوطة تلتف حول الوسط وليس فوقها إلا قميص.

وقد تجد من بين هؤلاء الناس من تعلم فى إنجلترا أو أمريكا ويتكلم الإنجليزية بطلاقة.

ولكن عندما انشغلت بحرارة الجو هنا وعندما أغرقتنى الأمطار الشديدة وجدت أن هذه الملابس هى أنسب زى، فالجو الحار لا ينفع معه البنطلون والجاكتة بل إن البنطلون عبء ثقيل جدًا والأحذية لا ضرورة لها ما دامت مياه الأمطار تصل إلى منتصف قصبة الرجل وأحيانًا إلى الركبة. . ثم إن الدوتى هذا يمكن رفعه إلى الخصر عند الضرورة. .

وقد حدث عندما كنت فى جنوب الهند أن استمرت الأمطار تتساقط يومين متواليين لا أستطيع أن أخرج من غرفتى. وإذا خرجت فلكى أتأكد من أن الأمطار لن تصل إلى سريرى. . ورأيت أنها فرصة لكى أجرب الدوتى. . وطلبت من مدير الفندق أن يعيرنى أى «دوتى» عنده. ودخلت الغرفة ووجدت أن الدوتى هو عبارة عن ملاية سرير. . ولكن كيف ألفها حول وسطى ثم كيف أربطها ربطًا متينًا حتى لا تسقط وبدون حزام. لم أتمكن. . فإذا ربطتها من هنا سقطت من هناك. . وقررت أن ألفها حول وسطى وأضع فوقها الحزام لكى يمسكها. . ولاحظت وأنا أمام المرآة أنه لاينقصنى إلا أن أضع على صدرى إبريقًا كبائع العرقسوس وأنزل إلى الشارع وأنادى: شفا وخمير يا عرقسوس!

وقررت أن أخرج. . إننى أحد الملايين. لن يلتفت إلى أحد. . ولكن لاحظت أننى شددت الدوتى على وسطى أكثر من اللازم. وإنه «دوتى» محزق قوى. دوتى بناتى كده. . ففككت الحزام وأعدت لف الدوتى وبحبحت الحزام قليلا وخرجت إلى الشارع أنظر إلى الناس، ولم يهتموا. . أو هكذا قلت لنفسى. . وبدأت أقوم بحركات عصبية، فالإنسان عندما يشعر بالحرج يحاول أن يضع يديه فى جيبه. . كأنه يتساند على نفسه حتى لا يقع.

ولكن لا جيوب. وحاولت أن أضع يدى على وسطى حتى لا يسقط الدوتى. . ومن شدة ارتباكى غصت فى الماء وتبلل الدوتى ووصل الماء إلى ركبتى وشعرت بالبرودة فى الزحام. . ورفعت الدوتى إلى أعلى. . وشددته فوق الحزام. . ووجدت أن الحذاء لا لزوم له. . فنزعت الحذاء وأمسكته فى يدى. ولاحظت أننى لا أزال ألبس جوربى. . فنزعت الجورب ووضعته فى الحذاء. . وانحشرت وسط الناس. . وفى الزحام تزحزح الدوتى وانسحب من تحت الحزام كأنه هو الآخر يريد التحرر. . وكأننى مغتصب له وهو يريد أن يعود إلى صاحبه. . كأن الدوتى حمام زاجل فإذا أطلقته عاد إلى الفندق.

ووضعت الدوتى على كتفى.

والصورة الآن هكذا: المطر على وجهى شديد جدًا.. شعرى منكوش.. وجوز جزمة فى يدى، والجزمة قد ابتلعت جوربى وزجاجتين من ماء المطر: الدوتى على كتفى.. والقميص التصق بجسمى.. وتلفت إلى الناس فوجدتهم مثلى..

وحمدت لله على أننى لم أنس ملابسى الداخلية - بعضها فقط!

لقد دفعت ثمن هذا اليوم غاليًا.. من السعال والزكام والعرق والنوم تحت أغطية من الصوف فى عز الصيف وفى قلب المنطقة الاستوائية!!

هنا منفى عرابى

عشرون عامًا من حياة الزعيم أحمد عرابى لا يعرفها أحد . . قضاها فى المنفى لم يقربه أحد . . لم يتحدث إليه أحد . . لم يكتب عنه أحد . . الذين عرفوه ماتوا . . الذين اشتركوا معه فى الجهاد ماتوا . . الذين أحبوه وساروا وراءه ماتوا ، لم يبق منهم إلا خادمة عجوز تسكن بالقرب من بيته فى مدينة كاندى ، إنها لا تتكلم ولكن عندما تسمع اسم عرابى تبكى . . لم يبق إلا أربعة من أصدقاء أبنائه فى كنجوود كوليدج ، ولكل واحد من هؤلاء قصة ورواية . . ولم يبق إلا سيدة أخرى هى التى تملك البيت الذى كان يسكنه أحمد عرابى . . !

* * *

ولكن كيف عاش عرابى؟ وأين كان يسكن؟ وماذا عمل؟ وما المشروعات التى تقدم بها؟

هل تعلم أن عرابى هو الذى أدخل الطربوش إلى الجزيرة؟

وهل تعلم أن المسلمين يرتدونه حتى اليوم؟

هل تعلم أن عرابى هو الذى أدخل الزى المصرى إلى الجزيرة؟ حتى الأطعمة أدخلها عرابى . .

هل تعلم أنه ـ وهو الذى لم يتعلم الإنجليزية إلا فى رحلته من السويس إلى سيلان ـ دعا المسلمين إلى تعلم اللغة الإنجليزية ، وأن المسلمين هنا ثاروا عليه ؛ إذ كيف أن الإنجليز اضطهدوه ونفوه ثم يتعلم لغتهم بعد ذلك؟

* * *

وعندما زار الدكتور محمود فوزى وزير خارجية مصر جزيرة سيلان دعته (مدرسة الزاهرة) فى ١٧ من مايو سنة ١٩٥٥ لرفع الستار على لوحة أحمد عرابى . . واللوحة رسمها أحد الطلبة عن صورة من إحدى مجلات القاهرة . . وتحدث فى ذلك اليوم مدير المدرسة السناتور عزيز . . وروى كيف أقام عرابى فى هذه البلاد وكيف كانت مشروعاته وكيف أحبه الناس . .

وفى نهاية كلمة السناتور عزيز وقف طلبة المدرسة ينشدون باللغة العربية التى لا يفهمونها نفس النشيد الذى ودعت به المدرسة الزعيم أحمد عرابى يوم ١٢ من سبتمبر سنة ١٩٠١ ، أى قبل رحيله إلى مصر بستة أيام . . وكان ذلك آخر تكريم لعرابى .

وقف الطلبة ينشدون :

بحمدك يا بارئ العالمين

وأنت الرحيم وأنت المعين

فبارك سرنديب فى علمها

ومعهد آدابها الزاهرة

وأحسن لأبنائها الآخرة . . . .

. . . . إلخ

و«سرنديب» هى جزيرة سيلان كما كان يسميها العرب . .

وعندما سمع الزعيم عرابى هذا النشيد بكى وأطال البكاء . . وقد تعود فى أيامه الأخيرة أن يبكى من شدة الأسى والحزن . . وكان يخشى أن يموت بعيداً عن بلاده التى أحبها . . وكان الشيب قد توج رأسه تمامًا مع أنه لم يكن قد تجاوز الستين إلا قليلاً ولكنه شاب قبل الأوان .

وقصة العشرين عامًا تبدأ بعد الحكم على عرابى بالنفى مدى الحياة .

نقل عرابى من القاهرة إلى السويس ومعه ستة من زملائه فى الثورة . .

كان عددهم جميعًا ٥٧ من الرجال والنساء . . وفى مدينة ميناء السويس ركبوا الباخرة الإنجليزية «ماريوتيس» وهى سفينة صغيرة حمولتها ١٣٩١ طنا . . وكان يحرسهم عشرون

من الجنود المصريين يرأسهم موريس بك . . وكان يرافق الزعماء السبعة مترجم هو سامى عطا الله .

قطعت الباخرة الرحلة فى ١٤ يومًا . . ولم تقع حوادث فى أثناء الرحلة . . ولكن عكف الزعماء جميعًا على تعلم اللغة الإنجليزية . . حتى عرابى كان يضع فى جيبه كتابًا عن تعلم اللغة الإنجليزية وكان ينصح بقية الزعماء بضرورة تعلم هذه اللغة .

وتدل التقارير على أن صحة الزعماء كانت طيبة جدا فيما عدا عبد العال حلمى فكان يشكو دائمًا من ضيق التنفس، وكثيرًا ما كان يصحو من النوم يصرخ، فينهض الباقون لإنقاذه . . ولا يعرف أحد على التحديد نوع المرض الذى كان يشكو منه . وعبد العال حلمى هو أول من مات من هؤلاء الزعماء . . فقد توفى فى مدينة كولومبو وله قبر يزوره المسلمون . وعلى مدخل الضريح يوجد اسم عبدالعال حلمى .

وفى أثناء الرحلة شكا عرابى من اللحوم التى تقدمها السفينة .

وسأل إن كانت من لحم الخنزير فقيل له إنها ليست كذلك . . فسأل إن كانت هذه الأبقار قد ذبحت أو خنقت . . فقيل له إنها مخنوقة . . وامتنع عرابى عن تناول اللحوم هو وكل المصريين من ركاب السفينة . .

وقبل أن تصل الباخرة إلى سيلان كانت صحيفة «الأوبزرفر» السيلانية الأسبوعية قد نشرت مقالاً شنيعًا فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ هاجمت فيه عرابى وثورة عرابى .

وفى اليوم التالى أعلنت الصحيفة أن الباخرة التى تنقل عرابى قد غادرت مياه السويس فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ وأنها ستصل إلى ميناء كولومبو يوم ١٠ أو ١١ من يناير سنة ١٨٨٣ .

وأنقل كلام الصحيفة نفسها ـ وهى المصدر الوحيد ـ بتاريخ ١٩ من يناير عام ١٨٨٣ :

«بدأ الناس يفدون من كل أنحاء الجزيرة . . معظمهم جاء من مدينة كاندى . . جاءوا ومعهم أطفالهم ونساؤهم، ومعهم حيواناتهم . . إنهم جميعًا يحلمون برؤية البطل عرابى . . ويسمونه أحمد عرابى المصرى» .

وفى يوم ٢٠ من يناير كتبت نفس الصحيفة : «ظهرت فى الأفق من بعيد الباخرة التى تقل الثوار المصريين وفى مقدمتهم أحمد عرابى ، ويبدو أن الباخرة لن ترسو على الشاطئ

قبل الكشف على صحة الباشوات، وعلى ذلك فلن يتم نزولهم إلى الشاطئ قبل صباح اليوم التالى. . وعلى المسلمين فى الجزيرة أن يستحضروا من جديد مبادئ الدين الإسلامى، فهو الدين الذى يدعو إلى الصبر والكفاح».

وأنقل الآن الوثيقة الوحيدة فى العالم التى تصف كيف تم نزول الزعماء إلى ميناء كولومبو. . إننى أنقل عن صحيفة الأوبزرفر أيضًا:

«اقتربت الباخرة من الشاطئ. لا شىء غير عادى عليها، كل ما هناك هو بعض العساكر المصريين بملابسهم الزرقاء، وبعض بحارة الباخرة. . والشىء غير العادى هو الموجود على الشاطىء. . الناس يقفون على أطراف أظافرهم. . أرى الآن أن أحد الزوارق قد ابتعد عن الشاطىء وكان عليه بعض كبار الضباط البريطانيين، صعدوا إلى الباخرة. وأقاموا فيها حوالى ساعة ونصف ساعة. . ولا بد أنهم تحدثوا إلى عرابى وإلى الزعماء. . أما لماذا طال الوقت فلأن أحدًا من الزعماء لا يعرف اللغة الإنجليزية. . ولابد أن الضباط البريطانيين قد طمأنوهم على الحياة هنا».

وقالت الصحيفة: «وقد صعد مراسلنا إلى ظهر السفينة وقابل عرابى. . وهو يسجل أن عرابى يبدو عليه أنه إنسان طيب وأن السماحة واضحة على وجهه وله ابتسامة فيها بساطة وفيها كبرياء أيضًا. . ويبدو من كلامه وحركاته أنه إنسان من السهل أن تحبه. . والزعماء قد سألوا المراسل عن الحياة فى الجزيرة وعن مستوى المعيشة، إن هذا يدل على أن الزعماء السبعة قد وطنوا أنفسهم على الحياة فى الجزيرة واستسلموا للأمر الواقع!».

وكتبت صحيفة الأوبزرفر فى ٢١ من يناير سنة ١٨٨٣ تصف نزول الزعماء فقالت بالحرف الواحد: «لقد كانت الحماسة أمس بالغة. . وارتفعت اليوم إلى أقصاها. . فقد هز القلق الناس بدرجة غير معقولة وكل واحد منهم يريد أن يرى الزعيم المصرى عرابى. . المسلمون أكثر المتفرجين قلقًا. . وكانت الساعة المحددة للنزول إلى الشاطئ هى السابعة، لكن البوليس لاحظ أن النزول سيكون عسيرا جدا، ولذلك طلب من الجماهير أن تبعد عن الميناء وإلا فلن ينزل عرابى بل سيبقى فى السفينة».

ومضت الصحيفة تقول: «إن أول من نزل إلى الشاطئ كان على فهمى وأفراد أسرته. . نزلوا فى زورق وفى صمت تام والجماهير تتهامس فقد تصوروا أنه أحمد عرابى. وحتى عندما نزل إلى الشاطئ وركب إحدى العربات صارت الجماهير تطارده وهو يبتسم. . ».

وبعد ذلك وقفت سيدة بجلباب تركى من الحرير الأسود ونظرت إلى الجماهير ثم رفعت النقاب عن وجهها وأعادت النقاب . . لقد كانت بيضاء اللون كأية فتاة أوربية ملامحها جميلة جدا . . وكانت هناك ثمانى نساء أخريات شقراوات كأنهن أوربيات . . ثم نزل بعد ذلك محمود سامى ومحمد فهمى ، الاثنان معًا وتحير الناس أيهما يكون عرابى باشا .

أما عرابى باشا فقد نزل من الباخرة فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، نزل هو وأفراد أسرته وكان عددهم ستة . وهنا هتفت الجماهير . . وهجموا على عرابى يقبلون قدميه ويديه . . وكان الرجل عالى الرأس كأنه يستقبل مظاهرة فى القاهرة أو الإسكندرية . . وأحس الناس بحيرة شديدة هل يمشون وراء عرابى دون أن يروا بقية الزعماء . . أم ينتظرون حتى يروا البقية . . لم يصبر على هذا الامتحان العسير إلا القليلون جدا ، وظلوا يتطلعون إلى بقية الزعماء . . أما الألوف فقد مشت وراء عرابى . .

ثم نزل طلبة باشا وأفراد أسرته وعددهم ثلاثة .

ونزل يعقوب حلمى باشا وأفراد أسرته وعددهم ١٢ . . ولما تلفت يعقوب باشا إلى الجماهير راح يحييهم ويصافحهم واحداً واحداً . . وظن هؤلاء الواقفون أنه عرابى باشا فأشار يعقوب باشا إلى أن عرابى قد نزل منذ وقت طويل . .

وآخر الذين نزلوا إلى الشاطئ كان أحمد فهمى باشا ومعه خمس من بناته ومثلهن من الأولاد . . وكان بادى الحزن والأسى . . وظن بعض الواقفين على الشاطئ أنه مريض . . فتقدم بعضهم يعطيه ثمار جوز الهند ، وكان يقبلها شاكراً . ونزل كل واحد من هؤلاء الزعماء فى بيت مستقل . . أما الزعيم عرابى فقد نزل فى بيوت متعددة ثم استقر فى بيت واحد .

وفوجئ الزعماء بأن هذه البيوت لا يوجد بها أثاث ! !

ونشرت صحيفة الأوبزرفر مقالاً طويلاً تتساءل فيه إن كانت الحكومة البريطانية تعلم ذلك أو أن الاتفاق تم مع حكومة الخديو على هذا كله . . ثم قالت : «إن الجزيرة ترحب بقدوم هؤلاء المتمردين ولا مانع عندها من أن تخلى لهم جانبًا من مستشفى الأمراض العقلية . . أو تبنى لهم بيتًا واحداً عالى الجدران كالسجون ، واسع النوافذ كالقصور» .

ولم يمض وقت طويل حتى علم كل المصريين أن الخديو قد جعل لكل منهم مكافأة يومية قدرها روبية ــ أي ثمانية قروش بسعر اليوم ـ كلهم فى ذلك سواء .

وتقول الصحيفة إن مراسلها قابل الزعيم عرابى فى بيته وسأله: وماذا ستصنع بأولادك؟!

فقال عرابى: سأدخلهم المدرسة.

ـ ولكن المدرسة مسيحية وعلى رأسها قسيس؟

ـ هذا لا يؤثر فى الموقف فأولادى حفظوا القرآن.

ـ وهناك مدرسة خاصة للبنات.

ـ هذا أحسن على كل حال..

ـ هل عندك مانع فى أن المرأة المسلمة يعالجها طبيب مسيحى؟

ـ لا مانع.

ـ وهل المرأة المسلمة تثق فى العلاج الذى يصفه الطبيب المسيحى؟

ـ إنها تترك الأمر لضمير الطبيب نفسه.

ـ وهل للرجل غير المسلم ضمير؟

ـ أعتقد ذلك.

وعلق المراسل على ذلك بقوله: ليس عرابى بالرجل الجاهل. ولكنه يعرف كيف يصوغ معلوماته القليلة فى عبارة ترضى البسطاء من الناس.

وبعد نزول عرابى وزملائه إلى جزيرة سيلان واستقرارهم فى مدينة كولومبو لا نسمع عنهم أية أنباء. ولا نرى أى كلام عنهم فى الصحف.. فقد سكتت صحيفة الأوبزرفر تمامًا، ولم تعاود شتم عرابى إلا بعد أن صدر عفو الخديو عباس حلمى الثانى فى ١١ من يونيو عام ١٩٠١.

وقد أقام عرابى فى كولومبو حتى سنة ١٨٩٢ فى بيت موجود الآن فى حى بوريلا وفى شارع أوف كوتا؛ والبيت كانت مساحته كبيرة جدا لا تقل عن عشرين فدانًا. وكان معظم هذه المساحة حديقة واسعة أو على الأصح غابة.. وقد نزعت أشجار هذه الحديقة وأقيمت عليها البيوت.. أما البيت الذى كان يسكنه عرابى فلا يزال كما هو فيما عدا

بعض التعديلات التى أدخلت عليه . . فقد كان للبيت مدخلان : أحدهما يطل على الشارع والثانى لا يزال يطل على الحديقة . . وقد انقسم هذا البيت الآن إلى قسمين . . القسم المطل على الشارع يسكنه الصحفى «دفنون مالدريتش» رئيس قسم الأخبار بصحيفة «تايمز أوف سيلان» المسائية وتوزيعها ٢٠ ألف نسخة . . وقد حضر إلى القاهرة أيام العدوان الثلاثى على بورسعيد . . ويدفع إيجاراً شهريا قدره ٢٠٠ روبية أى ١٦ جنيهاً .

وهذا الجانب من البيت مكون من أربع غرف واسعة عالية الجدران . . والجدران لا تزال سميكة ـ طوبتان ونصف الطوبة ـ والغرفة التى على يمين الداخل كان يجلس فيها عرابى ويستقبل ضيوفه . . ثم جعلها غرفة نوم . . وبعد ذلك نقل غرفة نومه إلى الداخل . . حيث القسم الثانى من البيت الذى يقيم فيه الآن صاحب هذا البيت الدكتور رولاند فوسيريا طبيب الحميات بالمستشفى الحكومى فى كولومبو .

قال لى الدكتور رولاند إنه اشترى هذا البيت فى سنة ١٩٢٢ وكانت المنطقة المحيطة به كلها من الغابات والأعشاب البرية . . وكان يملك هذا البيت رجل آخر هو أوبسيكا باندرانيكا ابن أخى رئيس الوزراء الراحل باندرانيكا . ثم أدخل عدة تعديلات على البيت . . فأضاف إليه جراجًا للسيارات . . وعددًا من الأبواب والنوافذ .

وقال الدكتور أيضًا : إنه سمع عن عرابى باشا ، وكل الذى يعرفه أنه رجل طيب وأنه كان مشغولاً بالقراءة والصلاة وأنه أحد زعماء المسلمين . . ولم يره شخصيًا ، ولكنه سمع من والده أن عرابى رجل عظيم . . ووالده لم يتحدث إليه . . وكان منظر عرابى يقنعك بأن هذا الرجل بطل من الأبطال .

وقد أقام عرابى فى هـذا البيت تسع سنوات بالضبط . واعتلت صحته . وطلب من السلطات البريطانية أن تأذن له بالسفر إلى الشمال حيث الجو أحسن ، وسمحوا له .

وعرابى باشا كان له نشاط فى كولومبو .

فهو الذى دعا إلى تعلم اللغة الإنجليزية . . وكان يخطب فى المسلمين ويردد الحديث القائل : من تعلم لغة قوم أمن شرهم ومكرهم .

ولأول مرة يرى الزعيم عرابى الغضب والتمرد فى عيون المسلمين . . إنهم بدءوا ينشقون عليه . . فقد لاحظ أن الذين يترددون على داره قد نقص عددهم . . فلما سأل عن السبب قالوا له : دعوتك لتعلم الإنجليزية ! !

ورأى عرابى أن يذهب هو إلى بيوتهم . وراح يستميلهم ويقنعهم الواحد بعد الآخر . . واقتنعوا به ودعاهم عرابى لإنشاء مدرسة للمسلمين يتعلمون فيها أصول الدين . . وطلب من المسلمين أن يتبرعوا بالقليل من أموالهم لإنشاء مدرسة للتفقة فى الدين . . ونجح عرابى فى أن يجمع ٢٥ ألف روبية ونجح فى أن يأخذ من الحكومة البريطانية مثل هذا المبلغ . وفى يوليو سنة ١٨٩٢ وضع عرابى أساس «المدرسة الزاهرة» التى أصبحت الآن «الزاهرة كوليدج» ولا يزال الجانب الذى أنشئ فى عهد عرابى موجوداً حتى الآن وقد أضيفت إليه أجنحة عديدة حتى أصبحت تتسع لألفى طالب .

وأصبح عرابى الرئيس الفخرى لهذه المدرسة . .

وبين الحين والحين كان عرابى يزور المدرسة رغم أن المسافة بين مسكنه الجديد والعاصمة كولومبو تزيد على المائة كيلو متر من الطرق الجبلية الصعبة . .

وترك عرابى فى كولومبو جثمان الزعيم عبد العال حلمى الذى توفى فى ١٠ من مارس سنة ١٨٩٢ . ولا يزال له ضريح يزوره المسلمون . .

* * *

أما يعقوب سامى ومحمد فهمى وطلبة عصمت . .

فقد انتقلوا مع عرابى وأقاموا معه فى مدينة كاندى .

أما البيت الذى سكنه عرابى فى مدينة كاندى فهو لا يزال قائمًا !

إنه فى شارع هالولا . وهالولا هو اسم إحدى القرى التى ينتهى بها هذا الشارع . . والبيت مقام على ربوة وكان إيجاره الشهرى مائة روبية . . وقد استأجرته السلطات البريطانية من أسرة فيمانيكا . والبيت من دورين . وهو عبارة عن غرفتين كبيرتين فى الطابق العلوى بينهما صالة واسعة . . وهناك سلم خشبى يفضى إلى الدور الأرضى حيث توجد ثلاث غرف . . إحداها كان ينام فيها عرابي والأخرى لزوجته أو لزوجاته .

وقد أقام عرابى فى هذا البيت عشر سنوات . .

وكان فى مدينة كاندى بيت آخر يقيم فيه محمد بك وهو أكبر أبناء عرابى ويقال إن زوجته كانت سيدة من سيلان . وكانوا يسمونه الباشا الصغير . . وفى مدينة كاندى توفى محمد فهمى فى يوليو سنة ١٨٩٤ ، واندثرت الآن معالم قبره . .

وقد شاهدت هذا القبر فى مدينة كاندى . . وبعد ذلك توفى يعقوب سامى فى أكتوبر سنة ۱۹۰۰ ودفن بجوار محمد فهمى . .

وبدأت بعد ذلك السنوات المريرة فى حياة عرابى باشا . . وأصبح بياض شعره كالثلج ، بل ودنياه كلها صارت بيضاء مبهمة فقد ضعف بصره . . وفى سنة ۱۹۰۰ أفرج الخديو عن طلبة باشا ، فعاد إلى مصر ومات بعد خمسة شهور . . ومحمود سامى البارودى فقد بصره نهائيا وعاد إلى مصر . ومات فى ديسمبر سنة ١٩٠٤ . . وبقى علىّ فهمى وعرابى معًا . .

ورحت أفتش فى مدينة كاندى عن الذين عرفوا عرابى . . أو عرفوا أولاده ، معظم الناس سمعوا عنه ولم يروه .

قابلت شرى جورو وهو سمسار متقاعد فى الثالثة والسبعين من عمره وقال لى إنه رأى عرابى باشا . وكان رجلاً ضخمًا طويلاً ممتلئًا . . إنه نوع غريب من الناس لم يكن مألوفًا بالنسبة لهم . . فالناس يمشون إلى جواره وكأنهم أقزام . . وكان عرابى باشا يركب حصانه وينتقل بين الشوارع ويخرج إلى الجبل أو يزور بعض أصدقائه . .

وقال شرى جورو إن أولاد عرابى كانوا زملاءه فى مدرسة سانت بول . . كانوا ثلاثة أو أربعة . . إنه لا يذكر على التحديد . . وكانت أشكالهم تلفت النظر . . فقد كان لونهم أبيض . . وكانوا منعزلين . . ولا يتحدثون إلى أحد .

وسألنى إن كنت أعرف أحدهم الآن فقلت له أعرف أحدهم هو المرحوم عبدالسميع وكنا نعمل معًا فى جريدة الأهرام سنة ١٩٥٠ . . وقد توفى منذ سنوات . .

وسألنى : هل كان أبيض اللون؟!

قلت : لا .

قال : أنا لا أعرف هذا . . ولابد أنه ولد بعد ذلك . فقد كان عرابى متزوجًا من عدد من نساء سيلان . . وكن صغيرات فى السن جميعًا .

أما صاحب البيت الذى يسكنه عرابى فهو «فيما نيكا» الأب وكان صديقًا لعرابى . وبعد سفر عرابى إلى مصر قرر صاحب البيت وهو من أغنياء كاندى ومن أصحاب مزارع الشاى أن يحتفظ له باسم عرابى . . ولا يزال اسم عرابي مكتوبًا بالإنجليزية على جانب الربوة التى أنشئ عليها . . الاسم هو «عربى هاوس» .

وقد توفى وأرملته تعيش الآن. وورث البيت ابنه الدكتور فيمانيكا الذى مات سنة ١٩٥٦ . . وأرملته تعيش الآن فى لندن. . وقد زارت مصر فى سنة ١٩٥٨ . .

وأهدت سفارتنا فى سيلان علبتين من النشوق كان يستخدمها أحمد عرابى.

ولا يزال الطابق العلوى من هذا البيت مقفلاً. . فقد أمرت السيدة بإقفاله حتى تعود. . وقد علمت من أخت زوجها التى تقيم الآن فى كولومبو بشارع هوجز كورت رقم ١٤ . . أن فى هذه الغرفة المقفلة صوراً للزعيم عرابى وبعض الأدوات والملابس التى كان يرتديها، وأن زوجة أخيها احتفظت بهذه الآثار تنفيذاً لوصية زوجها الدكتور فيمانيكا.

وقالت لى أخت الدكتور فيما نيكا: إنها تذكر بوضوح عرابى باشا. . إنه لم يكن يتحدث إلى أحد. ولكنه عملاق وضخم وإنه كان يركب الحصان، وإن الناس كانوا يحترمونه جدًا. . وأن هذا الشارع كان معروفًا فى أيام عرابى باسم عربى. . وأنها تعلم أن أحد أولاده كان يسكن بالقرب منه.

وقالت لى: إننى أذكر واقعة واحدة. . أذكرها لأننى رأيت فيها لأول مرة المرأة المصرية. . فقد رأيت سبعًا منهن أو أكثر. وكن جميلات ولونهن أبيض وعيونهن جميلة. . هذا اليوم احتفل فيه عرابى «بطهور» أحد أولاده. . وقد ذهبت أنا وأختى إلى بيت عرابى. . ورأيت المصريين والمصريات. وقد جلست النساء فى الطابق الأرضى. . ولم أر زوجة عرابى. وسمعت فى ذلك الوقت أن له زوجة بيضاء. وأنه تركها فى القاهرة، وأنه تزوج من بنات سيلان، ولا أحد يعرف كم عددهن. . وأنا أعلم أن المسلمات يجدن فى زواج شخصية مثل عرابى باشا شرفًا لكل أسرتها. .

وقال الصحفى محمد رفيق نائب رئيس تحرير الأوبزرفر أيضًا، إن جده كان صديقًا لعرابى باشا. . وإن تاريخ حياة جده هذا قد سجله على فؤاد طلبة ابن طلبة باشا فى كتابه عن «سيلان الساحرة دائمًا» وأنه عندما مات جده كان عرابى باشا فى مقدمة المشيعين. وأن المسلمين رأوا فى هذا شرفًا عظيمًا. . وكانت هذه هى آخر مرة يرى الناس فيها عرابى باشا. .

وقال لى محمد رفيق: إن عرابى باشا هو الذي أدخل الطربوش فى الجزيرة. وأننى سمعت من والدى أن أحدًا لم يكن يلبس الطربوش قبل عرابى. . وأن عرابى هو الذى أدخل البنطلون الأبيض أو السروال إلى الجزيرة.

وقال أيضا: إن عندهم طاهية فى البيت هى ابنة الطاهية التى كانت تعمل فى بيت عرابى. . وأن هذه الطاهية لا تزال حتى الآن تقدم أطعمة غير مألوفة فى الجزيرة من بينها الكنافة والقطايف والغريبة والباذنجان والقوطة المحشوة. . وتصر الطاهية على تقديم هذه الأطباق لأنها تحية للزعيم الذى يحب هذه الأطعمة وكان يطلبها منها دائمًا. .

أما الطاهية العجوز نفسها فليس لديها إلا الدموع. . وهى ترفض أن تتحدث عن عرابى باشا.

والكلمات القليلة التى سمعتها منها معناها: أن الناس هم الذين قتلوا عرابى. . وأن القتلة هم هؤلاء المسلمون. . فلو كانوا أقوياء لطردوا الإنجليز من مصر ومن الجزيرة. . وأن المسلمين كانوا يتزاحمون على عرابى. . ولكن عرابى كان يتأوه آخر الليل دون أن يشكو لأحد. .

والكلام الذى فهمته منها أن عرابى فى آخر أيامه كان قد يئس. . ولم يمنعه من فقدان الأمل، إلا إيمانه بالله وبعدالة قضيته. .

وفى أيامه الأخيرة كان يتحدث عن قرب سفره إلى مصر. . ولم تكن لدى عرابى معلومات محددة عن سفره، ولكنه شعور يتردد فى نفسه. . وكان أصدقاؤه يستمعون إليه وهو يتحدث عن حنينه إلى الوطن ويشفقون عليه. وكان عرابى يقول دائمًا: أريد أن أموت فى بلدى، وأن أدفن فى الأرض التى دافعت عنها. وقد سامحت كل الناس وعفوت عنهم. .

وأصدر عباس حلمى الثانى قرار العفو عن عرابى وعن علىّ فهمى. .

وأحس عرابى بالسعادة. وكان يتحدث دائمًا عن الوطن والعودة، وأن الله لم يخيب أمله. وأن الله قد حقق له الشىء الوحيد الذى يريده. .

وواجه عرابى مشكلة لم تكن فى حسابه. .

لقد صدر قرار العفو ولكنه لا يعرف كيف يعود إلى مصر. . فليس معه مال. .

وقالت صحيفة الأوبزرفر: «أما السفر إلى مصر فليس هناك اعتمادات مالية لذلك. . والحكومة لم تتخذ بعد قرارًا فى هذا الشأن والفرصة أمام المسلمين سانحة ليبدو إعجابهم وعطفهم على الزعيم أحمد عرابى بصورة عملية مالية!

وسافر عرابى باشا على الباخرة الألمانية «برنسيس إيرين» فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٠١ ، وصل إلى السويس فى أوائل أكتوبر واتجه بالقطار إلى القاهرة. إلى النسيان وليموت فى ٢١ من سبتمبر سنة ١٩١١ نسيًا منسيًا!

وقبل أن يغادر عرابى سيلان ، ذهب إلى المدرسة الزاهرة التى أرسى أساسها وغنى له الطلبة ــ وهو يبكى ــ نشيدهم الساذج الطيب . .

وعندما استقل عرابى الباخرة التف الناس حوله . . وعندما تقدم ابنه محمد بك طوقوا عنقه بالزهور . وبكى الناس . بكت النساء والرجال . ودخل عرابى غرفته وراح يبكى . ولأول مرة منذ شهور نام عرابى واستغرق فى النوم .

* * *

وهناك مشروع وافق عليه الرئيس جمال عبد الناصر بشراء بيت عرابى الموجود فى كاندى وتحويله إلى متحف أو مكتبة أو مكان سياحى . .

ومشروع آخر لبناء نصب تذكارى للزعيمين اللذين ماتا فى كاندى وهما يعقوب سامى ومحمد فهمى ، وأن الاتفاق تم مع حكومة سيلان على أن تعطينا قطعة أرض فى كولومبو ، فى مقابل قطعة أرض أخرى فى القاهرة تبنى عليها سفارة سيلان .

وقال لى السناتور عزيز عضو مجلس الشيوخ ومدير «الكلية الزاهرة» إن لديه مشروعًا لبناء جناح جديد فى الكلية التى أنشأها عرابى . وأنه طلب من الجامعة العربية مساعدته ماليًا . وأن الجامعة وعدته بذلك .

ومن المنتظر أن ينقش حجر الأساس فى القاهرة ويرسل إلى كولومبو .

* * *

إن قصة عرابى لم تكتب بعد . . إن المئات من صفحاتها مكتوبة باللغة السنهالية ، لغة أهل سيلان . والقليل جدا مكتوب بالإنجليزية . والكثير جدا مات مع أبطال هذه القصة .

لقد مات عرابى مؤمنًا بأن دمه لن يضيع هباء . لقد انتقم مواطنوه له . .

فبعد أربعين عامًا من وفاته خرج الإنجليز من مصر ومن سيلان . . . !

جزر المالديف

بلاد السمك

حدث انقلاب على مسافة ٤٠٠ كيلو متر من كولومبو. ولا أحد يدرى به مع أنه يهمنا جدا. فالذين قاموا بالانقلاب جماعة من المسلمين. أصلهم عربى. ولا يوجد فى بلادهم أجنبى واحد. ولا توجد كلاب أيضًا. ثم يوجد بهذه البلاد ضريح واحد. صاحب الضريح هو الرجل الذى حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه أبو البركات البربرى. واسمه مكتوب على الضريح. ومكتوب أيضًا اسم الملك الذى أسلم على يديه.. فأسلم كل الناس. عملاً بالعبارة التى تقول: الناس على دين ملوكهم!

البلاد التى أتحدث عنها اسمها جزر المالديف..

ولا أدعى أننى سمعت بهذه الجزر فى حياتى، وفى المرة الوحيدة التى رأيت فيها اسم هذه الجزر كان على خريطة آسيا، ظننت أن المالديف هو اسم الرجل الذى قام بتصميم الخريطة!

وجزر المالديف عبارة عن مجموعة جزر صغير يبلغ عددها ألفى جزيرة.. مقسمة إلى ١٨ مجموعة.. ومعظم هذه الجزر فى حجم جزيرة الزمالك. والأرض جيرية بيضاء مغطاة بأشجار جوز الهند وأشجار المناطق الاستوائية.. فنحن هنا طبعًا فى منطقة استوائية دائمة الحرارة والرطوبة والأمطار.

وأهل هذه البلاد يعيشون على صيد السمك، وخصوصًا التونة، والسمك يصدرونه إلى جزيرة سيلان. وهم مرتبطون بها ارتباطًا حيويًا. ويدينون لهذه الجزيرة بالكثير من الفضل خصوصًا إبان الحرب العالمية الثانية عندما ضربت غواصات اليابان زوارق صيد السمك والسفن التى تحمل السمك وكاد الناس يموتون جوعًا. وعاونت سيلان أهل المالديف وعددهم مائة ألف نسمة. ومعظم أبناء المالديف من أصل سيلانى. حتى اللغة المالديفية خليط من اللغات الأردية والسنهالية والسنسكريتية والعربية أيضًا.

وكلمة مالديف ـ معناها جزيرة السمك. فكلمة مالد: معناها سمك وديف: أصلها «ديب» أو «ذيب» ومعناها جزيرة. والكلمة كلها سنسكريتية.

وكان ابن بطوطة يسمى هذه الجزر باسم جزر ديب المحل.. أو ذيبة المحل أو محل ديب..

وابن بطوطة الرحالة المغربى قد زار هذه الجزر فى سنة ١٣٤٥ وأقام بها عامًا واشتغل فيها قاضيًا. ولم يعجبه فى نساء المالديف أنهن يمشين عاريات الصدر. وقد تزوج من بنات المالديف وحجب امرأته عن عيون الناس. وبعد ذلك سافر إلى سيلان.

واللغة التى يستخدمها أبناء المالديف يكتبونها هكذا: ج ز ر.. ال م ال د ى ف.. ز ا ر هـ ا. ابن بطوطة.. وزارهـا. أبو البركات البربرى..

فهم يكتبون الكلمات بحروف متفرقة. أما أسماء الناس وخصوصًا الأسماء العربية فإنهم يكتبونها كما هى. بنفس الشكل.

وقد قابلت فى مدينة كولومبو أحمد حلمى ديدى.

وهو السفير الوحيد لجزر المالديف فى سيلان وفى العالم كله. والرجل ملىء الجسم أسمر وكل ملامحه هندية أو سيلانية وشعره أسود.. ويتكلم الإنجليزية. والمكتب الذى زرته فيه، هو مكتب السفارة.. أو السفارة. وفى المكتب أناس كثيرون.. رجال ونساء وصوت آلات كاتبة وخريطة لهذه الجزر.

وعندما جلست إلى السيد حلمى ديدى.. وهو من الأسرة التى تحكم المالديف. فالملك اسمه السلطان ديدى. وكلمة ديدى غير معروف معناها بوضوح. وإن كان يقال: إن كلمة دى معناها يعطى. فربما كانت كلمة ديدى معناها الرجل الكريم.

والمالديف تخضع لنظام ملكى منذ ثمانية قرون.

وقد تحولت إلى النظام الجمهورى سنة واحدة، وبعد ذلك عادت إلى النظام الملكى. ومن المنتظر أن تعود إلى النظام الجمهورى للمرة الثانية بعد استفتاء شعبى ينهى حكم السلطان ديدى وأسرته.

أخبرنى السيد حلمى ديدى أن أحد التجار قام بانقلاب ضد الحكومة. وأنه جمع عددًا من الرجال وأعلن استقلال جزر المالديف. أو بعض هذه الجزر. وطالب الأمم المتحدة

بالاعتراف بالدولة الجديدة . ويقول : إن الإنجليز وراء هذا التاجر الجاهل الذى اسمه عبد الله عفيف . والذى يناصره فقط أبناء جزيرة واحدة مساحتها عشرة كيلومترات مربعة وعدد سكانها ستة آلاف نسمة .

* * *

وقد استولى البرتغاليون على هذه الجزر . ولكن أهل المالديف طردوهم . . ولهم معارك مشهورة .

ومتاعب هذه الجزر بدأت بالفعل سنة ١٨٨٧ عندما تعاقدت بريطانيا مع السلطان معين الدين ديدى . وتقضى هذه الاتفاقية بأن تتعهد حكومة الملكة فكتوريا بالدفاع عن هذه الجزيرة ضد العدوان الأجنبى . .

وفى سنة ١٩٤٨ تجددت المعاهدة بين إنجلترا وجزر المالديف ، فتعهد الملك چورج السادس بالدفاع عن هذه الجزر ، ثم طلب من السلطان أن يأذن له باستئجار إحدى الجزر لتقيم عليها الإذاعة البريطانية إحدى محطات الإرسال فى هذه المنطقة من جنوب آسيا . . وقد أقامت بريطانيا أخيراً مطاراً هائلاً على إحدى الجزر واسمها جزيرة جان فى مكان متوسط بين عدن وسنغافورة . فالمطار يبعد ألفى ميل عن كل منهما . .

أما الإيجار الذى تدفعه إنجلترا عن هذه الجزيرة فهو مبلغ ألفى جنيه إسترلينى .

وفى سنة ١٩٥٣ جددوا المعاهدة وكانت حكومة المالديف جمهورية فى ذلك الوقت بسبب اضطرابات داخلية . . وعلى أثرها عاد النظام الملكى فجدد البريطانيون المعاهدة مع الدولة الملكية الجديدة .

ومما قاله لى السفير ديدى إن أهل الجزيرة التى استقل بها عبد الله عفيف هذا قد عانوا الشقاء والبؤس ، ومعظمهم هرب إلى جزيرة ماله ، وهى الجزيرة العاصمة . وأخيراً قام السلطان على رأس قوة من البوليس من ٥٠ رجلا ـ قوة البوليس كلها ٣٠٠ رجل ـ واستطاع أن يحتل مجموعة جزر سودوا التى كانت قد أعلنت انفصالها واستقلالها التام عن بقية الجزر .

ولم نعد نسمع شيئًا عن هذه الجزر ولا عن ثورتها . .

وفى الأيام الأخيرة حين قام عفيف هذا بمحاولة عمل انقلاب آخر ، كان من الواضح أن البريطانيين وراء هذا الرجل . ولكنه أمام ضغط الشعب وأمام إصرار الناس على

مواقفهم من هذا الرجل، نقله الإنجليز إلى جزر سيشل، وكان فى نية عفيف هذه المرة أن يفسد الاستفتاء الشعبى الذى يجرى لانتخاب رئيس جمهورية جديدة للمرة الثانية . .

* * *

وقد فوجئت بوجود خمسة من أبناء المالديف يدرسون العلوم الدينية فى القاهرة . ولاحظت أن واحداً منهم يحمل لقب ديدى . ولكنه أخفاه وتستر عليه . كأنه عار أن يكون واحد منتسبًا إلى الأسرة التى كانت مالكة . مع أنه لو أبقى هذا اللقب على ما هو عليه، فإن أحداً فى مصر لا يدرى به . . ولكن يبدو أن هذا هو شعوره أمام زملائه الأربعة .

وعرفت من هؤلاء الشبان الخمسة أنهم عندما يعودون إلى بلادهم سيتولون مناصب القضاء .

ونبهنى هؤلاء الشبان إلى أن الدكتور حسين فوزى قد كتب عن جزر المالديف . وأعجب بها جدا . لولا أنه تندر عليهم بعض الوقت . وهم لم ينسوا له هذه العبارات الساخرة التى أطلقها على البلاد ـ عفا الله عنه ـ . . وطلب العفو عنه ليس من عندى، ولكن من عند هؤلاء الشبان الخمسة!

وقد روى لى الدكتور حسين فوزى أنه أعجب جداً بهذه الجزر وأنها جنة الله فى أرضه . وأنه يتمنى لكل إنسان، لو استطاع، أن يزور الجنة العائمة .

وأخبرنى الدكتور حسين فوزى أنه روى للملك السابق أحمد فؤاد أن سلطان المالديف له طريقة خاصة فى حل أية أزمة وزارية . وقال: إن الملك فؤاد سأله بلهجته العربية المكسرة: فيه كمان أزمات وزاريات فى جزر المالديف؟ فقال له: نعم . وسأله وكيف يفعل السلطان بالوزارء؟

وضحك عندما أخبره الدكتور حسين فوزى أن السلطان يضع الوزراء فى زورق ويأمرهم بالرحيل بعيداً عن البلاد . وكان الملك فؤاد فى أزمة وزارية وأعجبته الفكرة ولم يتمكن من تنفيذها .

وإنما نفذت فى ابنه فاروق بعد ذلك!

ومنذ أيام قرأت أن ماء المحيط قد أغرق بعض هذه الجزر . ويقال أغرق ٧٠٠ جزيرة . وحرصت وكالات الأنباء على نشره على أوسع نطاق . . ولكن إغراق مثل هذه الجزر لا يعتبر خبراً . . لأن الخبر أن الماء سوف ينحسر عنها بعد أيام . . إنها لعبة الماء مع الجزر من ألوف السنين!

سنغافورة

أرخص بلد فى الدنيا

(١)

أجمل مدينة رأيتها حتى الآن هى سنغافورة . . إنها جزيرة عدد سكانها مليون ونصف مليون ومساحتها ٢٠٠ ألف فدان ولها حكومة يرأسها حاكم صينى . . فقد استقلت أخيراً .

والوزارة كلها من الصينيين لأن عدد الصينيين هنا مليون والباقون من أبناء الملايو والهنود وجاليات أجنبية أخرى . .

المدينة حلوة نظيفة فيها كل ما يتمناه عروسان من ملابس وهدايا وعطور وفسحة . المحلات التجارية هنا ممتلئة جدا . إنها محلات بكرش . وكروشها طالعة لبره . . الأسعار رخيصة جدا . . شنطة اليد من جلد الثعبان ثمنها ستة جنيهات ، زجاجة العطر التى تباع فى القاهرة بعشرة جنيهات ثمنها هنا خمسون قرشًا . البلوزات والجيبات والراديوهات الصغيرة كلها تباع هنا على عربات اليد كما يباع عندنا الترمس والفول السودانى . .

والقمصان التى يلبسها الشبان هنا تظهر على أجسام الأغنياء عندنا أو بعض الطيارين فقط . أما ملابس النساء ففى غاية البساطة والجمال . .

والذى يدخل محل «جون ليتل» أو «روبنسون» هنا يفقد عقله على مدخل أى واحد من هذين المحلين . . وقد كنت أتصور فى يوم من الأيام أن بيروت هى المدينة الوحيدة التى يجد فيها الإنسان كل شىء ، وبيروت فعلاً بها كل شىء إلا شيئًا واحداً هو : الرخص . .

الأسعار هنا رخيصة جدا والسلع الموجودة هنا كثيرة جدا . .

الحقيقة أن أول يوم نزلت فيه إلى الشارع أحسست بدوخة وأننى أخطأت الطريق إلى

سنغافورة. وأنه كان يجب أن أمر على البنك الأهلى أولاً، وبعد ذلك أجىء هنا، ما الذى تريده.. هل تريد أن تضحك، موجود أماكن الضحك واللهو كأية عاصمة فى العالم.. كباريس ولندن بل وتوجد هنا «سينيراما» وهى ليست موجودة حتى فى أوربا.. وموجودة هنا كباريهات لا يمكن حصرها.. وتوجد فتيات جميلات من كل بلاد الدنيا والمثل الذى يقول: لبس البوصة تبقى عروسة، هذا المثل طبعًا ليس دقيقًا، وإنما من رأيى أن يكون المثل هكذا: لبس العروسة تبقى عروسة لبس البوصة تبقى بوصة..

وكان من عادتى عندما أنام أن أقفل باب غرفتى وأنام وأقفل الحقيبة الكبيرة التى معى.. ولكن بعد أن رأيت هذا الذى بهرنى وقهرنى فى سنغافورة تركت باب الغرفة مفتوحًا وتركت الحقيبة مفتوحة وكتبت ورقة للخادم أقول فيها: وحياة أبوك ما عندكش طريقة أتخلص بيها من الكراكيب اللى أنا جايبها معايا.

طبعًا القميص الذى يلبسه الخادم يباع عندنا بثمن مرتفع.. وكذلك الحذاء الإنجليزى الذى يلبسه.. والساعة الزنيت التى فى يده.. وقلم الباركر ٦١ فى جيبه. ومنظار شمس أمريكانى.. غير الأشياء الموجودة عنده فى البيت.. ولا بد أنها تجنن.

إنها مدينة رائعة بلا شك.

بلد على هيئة جزيرة.. من أية ناحية أنظر من الفندق أرى الماء.. ومن بعيد أرى جزرًا صغيرة.. أما فى الميناء فهناك مئات السفن.. ومن هذه السفن تدخل خزانة المدينة مائة مليون جنيه سنويًا.

وسكان الجزيرة من أبناء الصين. والصينيون فى غاية النشاط والنظافة والبساطة. والرجل الصينى لا يتعب من العمل وذكى ويرغمك على أن تشترى منه بأى شكل.. والفتيات الصينيات يعملن أيضًا. وأعتقد أن للفتاة الصينية سحرًا خاصًا.

* * *

تناولت طعام الغداء مع فتاة صينية جاءت من إندونيسيا تزور أقاربها هنا وسألتها: لاحظت أنك تأكلين الكثير جدا من الأرز.. فهل يا ترى أنت كل يوم كده؟! ولا النهارده بس؟

قالت: ليه؟

قلت: يعنى سؤال كده..

قالت : كل يوم لابد أن شكلى فظيع وأنا ألتهم الأرز .

ـ أبدًا . . ولا فظيع ولا حاجة . . دا شكلى أنا وأنا با أتفرج عليك .

ـ ليه؟

ـ إذا كنت بتأكلى الكميات دى كلها . . أمال مش باين عليك ليه؟ . .

وفعلاً لا يبدو عليها أنها تأكل على الإطلاق . . كأنها لا تشرب ولا تتنفس ولا تنام . . مختصرة جدًا . . وليست هى وحدها ولكن ٨٠ ٪ من بنات الصين هكذا . . يبقى خلقة ربنا بقى!

سألتها : ما وسائل الإغراء عندكم؟

قالت : إزاى . . مش فاهمة . .

ـ يعنى إذا كانت الواحدة منكم لابسه بيجاما ليلاً ونهارًا . والرجل يرى ملامحها بوضوح جدًا . . فما الذى لا يراه الرجل ويحاول أن يجرى وراءه ولايناله إلا بالزواج .

ـ مش فاهمة . . .

ـ إزاى بقى . . يعنى مفيش حاجة فى جسمك مستخبية عن عين الرجل؟

ـ إن الرجال لا ينظرون هكذا .

ـ هكذا يعنى إيه . . يعنى زيى أنا . . هوه أنا بصيت إلا وأنا بأكلمك دلوقت . لاصحيح . . عاوز أعرف .

ـ تفتكر إن البدائيين اللى عايشين عرايا لا يتزوجون؟!

ـ طبعًا يتزوجون كده بالغريزة . كالحيوانات تمامًا . دون أن تكون هناك وسائل للإغراء أو الفتنة .

ـ لازم الإغراء عندكم؟

ـ عند كل الناس . . طيب إنت لابسه كويس كده ليه . . وقفت قدام المرايا قد إيه! ليه علشان إيه! مش علشان الرجالة! أنت مكسوفة . هو أنت لوحدك . كل البنات كده .

ـ قصدك أن الفتاة الصينية لا يمكن مقاومتها . .

ـ رأيى مفيش داعى . . لأننى أضعف أمام الفتاة الصينية . . ولا أقوي على مقاومة أية فتاة جميلة بالصين أو باليابان . .

ـ أنت تفرجت على المحلات التجارية هنا؟

ـ بعضها .

ـ شفت البائعات .

ـ آه . . جميلات . . يعنى مش كفاية البضائع لازم كمان البائعات . . البضائع لا يمكن مقاومتها فما بالك إذا كانت البائعات جميلات أيضًا .

ـ تحب تشترى حاجة؟

ـ أبدًا . .

طبعًا لا يمكن أن أشترى قلم رصاص، فأنا فى منتصف الرحلة، وما زال أمامى أكثر من ١٥ ألف ميل، وبعد ذلك أمامى ٣٠ ألف ميل أخرى إلى القاهرة . . لا يمكن أن أشترى شيئًا ولا أضع فى حقائبى أى شىء . . إننى أكره «الشيلة» الثقيلة حتى لو كانت أجمل فتاة صينية .

لقد تعودت هذه الأيام أن أترك باب غرفتى مفتوحًا وباب حقيبتى مفتوحًا وباب قلبى مفتوحًا . . اللعنة على المفاتيح فليس فى الدنيا أحسن من حياة بلا مفاتيح ولا أقفال!

(٢)

وسنغافورة معناها مدينة الأسد، ولها قصة . . فقد اشتراها ضابط إنجليزى بخمسة آلاف جنيه من سلطان جوهور منذ ١٤٥ عامًا . والضابط الإنجليزى اسمه رافلس، وكان يبحث عن قاعدة بريطانية يضرب منها الهولنديين . . وقرر رافلس أن يجعل هذا الميناء حرًا، تدخله كل البضائع وكل الفلوس بجميع ألوانها . وما زالت سنغافورة حرة، وما تزال فيها كل فلوس هذه المنطقة .

واسم رافلس هذا فى كل مكان له ميدان ورصيف وشارع . . والمكان الذى هبط إليه بالجزيرة فيه تمثال للرجل الذى اشتراها لحساب الإمبراطورية البريطانية .

الساعة الثالثة صباحًا أقف أمام الفندق الوحيد الذى وجدت به غرفة خالية فينهض من فوق إحدى المناضد خفير الفندق . . وينفتح باب كبير وتضاء الأنوار وأمد يدى إلى أحد الدفاتر الكبيرة وأسجل اسمى والجهة التى قدمت منها وجنسيتى وعدد الأيام التى سأمكثها فى الفندق .

قلت للبواب : أوضة كويسة . «يهز رأسه» . فيها تكييف؟

ـ وفيها مروحة أيضًا . . وبسريرين؟

ـ وسريرين ليه بقى؟

ـ مفيش غيرها . . ولمدة يوم واحد . .

ـ وبعدين؟

ـ بكره تبحث لك عند فندق آخر .

ـ كده . . طيب أعمل إيه بالسرير الثانى؟

ـ «يهز رأسه» ضع عليه الشنط .

ـ دى شنطة واحدة . .

ـ (يهز رأسه) أبعث لك شنطة أخرى تضعها إلى جوار شنطتك . .

ـ طيب شيلوا السرير ده . . وتبقى أوضه بسرير واحد . .

ـ إذا شلناه نحسبها بسريرين برضه . . هى كده .

ـ بقى من رأيك أننى أؤجر الأوضة من الباطن . .

ـ «يهز رأسه» .

ـ وعلى كده أدفع فيها كام؟

ـ ٢٨ دولارًا . .

ـ إيه ٢٨ كام . . دولار إيه؟!

ـ دولار ملايو . . يعنى حوالى أربعة جنيهات إسترلينية . .

ـ يعنى لازم بكرة أفطر وأتغدى وأتعشى هنا . . مش معقول . .

ـ على حسابك .

ـ يعنى إيه؟!

ـ ٢٨ دولاراً . . نوم فقط . . والأكل على حسابك . .

ـ ليه بقى ما تخلى النوم على حسابى كمان . .

ـ الدور الرابع أوضة ١٠٢ . . تصبح على خير «بالإنجليزية» .

وصعدت إلى الدور الرابع . . ورأيت غرفة واسعة جدا وسريرين وتليفونًا وجهاز تكييف وميكروفونًا ، إذا أردت أن أستمع إلى موسيقى الروف جاردن .

ونزعت ملابسى وتمددت على السرير أفكر فى الفندق القادم . . ومددت يدى إلى «دليل سنغافورة» ورحت أبحث عن الفنادق الأخرى . . ووجدت صفحتين كلهما عن الفنادق وأوصافها وأسعارها ، وقرأت عن الفندق الذى نزلت به فوجدت أن السعر ليس ٢٨ دولاراً كما قال لى البواب . . إن السعر ٣٢ دولاراً لأن غرفتى بحمام وماء ساخن وبارد . . وأن الفندق يبعد عن مدينة سنغافورة حوالى ثمانية كيلو مترات .

ومددت يدى إلى المصباح لكى أطفىء النور فوجدت ورقة صغيرة أنيقة موضوعة على السرير مكتوبًا عليها : أهلاً . . أهلاً . .

فألقيت بها على الأرض فى حركة عصبية يائسة وانقلبت الورقة على الوجه الآخر وكان مكتوبًا عليها أيضًا : أهلاً . . أهلاً . .

بعبارة أخرى : يعنى انفلق!

(٣)

وفى الصباح قابلت السيد إبراهيم عمر السقاف من أغنى أغنياء سنغافورة . . يقولون إنه يملك مئات الملايين . وله عمارات فى القاهرة من بينها عمارة الإبراهيمية على الكورنيش أمام سينما الجزيرة . . وكل أفراد أسرة السقاف جاءوا من (حضرموت) وتفرقوا فى البلاد . وفى الحجاز والعراق وإندونيسيا والملايو وفى الجمهورية العربية المتحدة (مصر

سابقا). وغير معروف على التحديد مصدر ثرواتهم الهائلة . . وإذا قابلت أى فرد من عائلة السقاف قال لك إنه ورث هذه الثروة عن والده. ووالده من أين أتى بها؟. أتى بها عن والده أيضًا، وهذا صحيح فعندهم أربعة أجيال على الأقل من الأغنياء جدا.

والسيد إبراهيم السقاف رجل نحيف قصير القامة . . يعمل الآن قنصلاً فخريًا لجمهورية العراق . . وهو يتحدث اللغة العربية بلهجة أهل الحجاز. ويتحدثها بشهية مفتوحة لأنه لا يجد أحدًا يتحدث إليه. فأبناؤه لا يعرفون العربية وإنما يتحدثون الإنجليزية أو الملاوية.

حدثنى السيد إبراهيم السقاف فقال إنه كان يملك إحدى الجزر. وهى أكبر من سنغافورة وهى قريبة جدا من سنغافورة لا تبعد أكثر من عشرين كيلو مترًا واسمها جزيرة القمر. وقد اشتراها بحوالى خمسة آلاف جنيه . . وكانت مليئة بأشجار المطاط وجوز الهند، ويوم أن اشتراها كان رطل المطاط بحوالى خمسة قروش، ويوم تركها كان رطل المطاط قد وصل إلى ثلاثين قرشًا وهو لم يبع هذه الجزيرة وإنما أهداها إلى جامعة جوججا كارتا بإندونيسيا . . ومساحة هذه الجزيرة حوالى ٣٥ كيلو مترًا مربعًا.

والقصر الملكى فى مكة كان يملكه السيد إبراهيم السقاف ثم أهداه للملك عبدالعزيز آل سعود. وقال لى إن الصحف المصرية نشرت أن الرئيس عبد الناصر قابل الملك السعودى فى قصر السقاف، ولا يزال الناس هناك فى مكة يسمون القصر الملكى بهذه التسمية . .

وقد اشتغل السيد إبراهيم السقاف بالصحافة وبصورة غريبة . . فقد أصدر صحيفة يومية وثلاث مجلات أسبوعية ومجلتين شهريتين فى وقت واحد، لأول مرة ظلت هذه الصحف تصدر لمدة تسعة شهور وخسر فيها جميعًا نصف مليون جنيه!

وسألت بعض أبناء سنغافورة فقالوا: إن خسارته كانت أكبر من هذا بكثير.

وعنده اليوم مجلة شهرية تصدر بالإنجليزية اسمها العالم الإسلامى. وفى نيته أن يوقفها لأن رئيس تحريرها قد عينته الحكومة نائبًا عامًا، وليس عنده متسع من الوقت ليصدر مجلة شهرية فى ٣٢ صحيفة.

وعلى مكتب السيد السقاف بعض الصحف العربية وهى تصل إلى هنا بعد صدورها فى القاهرة وبغداد بيومين أو ثلاثة . . وسألنى السيد السقاف هل تعرف أحدًا من عائلة السقاف؟

قلت: الملحق الصحفى بسفارة إندونيسيا عندنا اسمه السقاف.

قال: لا أعرفه.

قلت: وأعرف أديبات فى مصر يحملن نفس الاسم.

قال: أنا لا أعرفهن.. يمكن، طرف قرابة العائلة كبيرة..

وضع يده فى درج مكتبه وأعطانى بطاقته الشخصية.. والبطاقة مليئة بالكتابة المطبوعة على الوجهين بالإنجليزية وهذا نصها:

داتوه السيد إبراهيم بن عمر السقاف رئيس المجلس الاستشارى الإسلامى بسنغافورة. رئيس جمعية الدعوة الإسلامية لبلاد الملايو. رئيس مجلس إدارة الكلية الإسلامية العليا فى بلاد الملايو.. قاضى الصلح. القنصل الفخرى للعراق فى سنغافورة وأنحاء بلاد الملايو. رئيس منظمة زعماء الأديان بسنغافورة. رئيس تحرير ست صحف ومجلات أسبوعية وشهرية.

وبعد ذلك عشرات الأرقام التليفونية.

وقرر السيد السقاف أن ينسحب من الحياة العامة؛ لأنه تعب وأنه تجاوز الستين، ويقال السبعين.

سألته: ما مشروعاتك القادمة؟

قال: أبدا.. أسافر إلى القاهرة وأنقل ابنى إلى سويسرة وربنا يساعدنا فى الفلوس..

قلتُ: فى الفلوس يعنى إيه؟. إنت متصور أنك حتشيل فلوسك كلها على صدرك.

فضحك وقال: إنت بتصدق كلام الناس. والله كل فلوسى لا تزيد على بضعة ملايين ومعها بضع آهات.

.. آهاتى أنا طبعًا!

(٤)

اليوم نشرت الصحف خبرا مهما:

جمعت الحكومة فى سنغافورة الباعة المتجولين وبنت لهم أكشاكًا على الكورنيش.

الأكشاك نظيفة جدا وتشرف عليها الحكومة . . وضعت أمام الأكشاك مئات المناضد والمقاعد، وهذه الأكشاك تبيع المشروبات والمأكولات الشعبية ومعظم هذه المأكولات يطبخونها أمامك .

وأعجب الأطعمة هى الصينية بلا شك، والصينيون أناس فى غاية النظافة والنشاط . والمرأة الصينية جميلة ونشيطة وحلوة ومختصرة كده . . وتجد المرأة الصينية هنا فى الشوارع والمحلات العامة بالبنطلون والجاكتة . . وهو زى يشبه البيجامات بالضبط وكلها من الحرير . وتلبس القبقاب الخشبى الخفيف ومعظم الصينيات يبعن فى هذه الأكشاك .

جلست أنتظر الجرسون فجاء ولم أفهم كلمة واحدة مما يقول . فعدد الذين يتحدثون الإنجليزية فى سنغافورة قليل جدا . وقررت أن أذهب إلى أحد الأكشاك وأختار الطعام الذى يعجبنى . وأشرت بيدى إلى بعض اللحوم فقال الرجل بالإنجليزية : ساتو . . ساتو . .

والساتو اسم أكلة ملاوية وليست أكلة صينية . . وهى عبارة عن لحوم موضوعة فى أسياخ من القش أو الخيرزان الرفيع . . وهى مشوية فى مادة حلوة . . ومعها نوع من الأرز يسلقونه فى سعف النخيل . وسعف النخيل مجدول على هيئة محفظة صغيرة . ويضعون الأرز فى البخار وهو فى سعف النخيل ويتحول الأرز إلى عجينة تماما وعليك أن تغمس الأرز واللحم فى شطة مصنوعة من الفول السودانى وجوز الهند والمانجو .

والأكلة لذيذة جدا . .

وكان معى الدكتور زكى بدوى الأستاذ بجامعة سنغافورة وهو من خريجى الأزهر ومن مواليد قرية النخاس بمديرية الشرقية وقد تعلم فى إنجلترا، واشتغل بالتدريس فى الأزهر بعض الوقت وعاش هنا فى سنغافورة مع زوجته الإنجليزية وأولاده .

والدكتور زكى واسمه بالكامل محمد أبو الخير زكى بدوى يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبلهجة إنجليزية صحيحة، ويتكلم العربية بلهجة شرقاوية فظيعة لم أسمع لها مثيلاً فى حياتى، وتجىء على لسانه ألفاظ غير مألوفة، ولا أدرى كيف احتفظ بها وهو يمر فوق المحيطات والجبال ولم يفكر فى أن يلقى بها إلى الأبد . . والدكتور زكى هو العربى الوحيد فى جزيرة سنغافورة ويعرفه كل الناس وتلجأ إليه الحكومة إذا ما وقعت فى مشكل بالنسبة لأى عربى .

وله مواقف صارخة أيام العدوان على بورسعيد، فكان يخطب فى الجامعة ضد الإنجليز مع إنهم أصحاب الجزيرة. وكان يكفى أيام العدوان على بورسعيد أن يقول لسائق التاكسى إنهم اعتدوا على بلادى.. فيرفض السائق أن يتقاضى الأجر ويرفض صاحب المطعم ويرفض الطبيب أن يتقاضى الروشتة.

وكنا نركب فى سيارة الدكتور زكى عائدين إلى الفندق فقلت له: سنتى يا دكتور؟

قال: سنانك بتوجعك؟

قلت: بتوجعنى.. ولازم لى واحد جواهرجى.

قال: إيه ده بتجول إيه؟!

قلت: يا شيخ باضحك.. أنت ماشفتش فيلم عبد الوهاب وراقية إبراهيم بيقولوا الكلام ده فى الفيلم.

وأشار بيده إلى مستشفى أنيق جدا.. وإلى مجموعة الممرضات الحسناوات وقال: تعرف النوم هنا بكام.. بعشرة جنيهات.. مجرد النوم.. غير الأكل وغير العلاج وغير زيارات الطبيب المتكررة.. إيه رأيك؟!

فقلت: اللوكاندة أرخص. محفظتى يادكتور.

قال: يلزمك واحد جواهرجى برضه؟

قلت: يلزم لى الدكتور وزير الاقتصاد.

ملحوظة: أعتذر عن تساقط بعض الحروف وبعض الأفكار.. فأنا أكتب بقلم باركر جديد ولا أعرف كيفْ أحركه على الورقة.. فهو يشبه الحذاء الجديد ضيق وجاف وأفكارى تتعثر به.. أما لماذا اشتريت هذا القلم. فلأنه أرخص من الأقلام الرصاص..

(٥)

وقفت فى ميدان رافلس بسنغافورة أمام محل روبنسون الذى يشبه شيكوريل فى القاهرة مع فارق قيمته عشرة ملايين من الجنيهات.. يشبهه من ناحية البناء فقط ومن

ناحية موقعه فى شارع رئيسى. وكلما مرت سيارة أشار صديقى الصينى قائلا: هذا مليونير صينى.. وهذا مليونير. وهذا عنده على الأقل مائة مليون جنيه.. وهذه زوجة أحد أصحاب الملايين. وأخوها مليونير أيضًا.

ولو كان هذا الصينى من عامة الناس لقلت إنه ساذج، أو فشار أو متعصب لأبناء جنسه.. ولكن هذا الصينى طبيب وتعلم فى إنجلترا ويتكلم الفرنسية والألمانية واليابانية.. ثم هو يتعلم العربية الآن لأنه يريد أن يزور القاهرة وبيروت لمدة شهر واحد. وكان قد قابل فتاة مصرية فى روما من عائلة الدراويش أو درويش أو أبو درش لا أعرف.. ويقول: إنه وعدها بالزواج سنة ١٩٥٥ ولا يزال حريصا على وعده ويطلب منى أن أعلن ذلك وأن أذكرها بالحب القديم..

وقرر صديقى الطبيب الصينى أن يجمعنى بأحد أصحاب الملايين على سبيل الفرجة.. فأنا لم أر فى حياتى مليونيرا واحدًا سوى كروب صاحب مصانع الصلب فى ألمانيا، وسوى «على خان» وبعض أصحاب الملايين العرب..

وذهبنا معا إلى بيت المليونير المعروف جدا فى الملايو وسنغافورة واسمه «تك تشا».. يبدو هذا الاسم لا معنى له ويبدو كأنه من اختراعى ولكن ذكر هذا الاسم فى منطقة يشبه الكوكتيل من أسماء روكفيلر وروتشيلد!

الشاب الذى قابلته فى السابعة والثلاثين رقيق لطيف مهذب جدا وصوته جميل عندما يتحدث الإنجليزية المكسرة، وزوجته فاتنة أول ما رأيتها قلت: ما عنده كيش أخت يا مدام؟

قالت: ليس لى أخت.

قلت: فعلا مش ممكن يكون لك أخت.

لا لأنها حلوة فقط، ولكن لأن «المدام» أبوها مليونير وتقدر ثروته بحوالى ٢٠٠ مليون جنيه موزعة فى بنوك هونج كونج وسنغافورة. ولا داعى لأن أصف كيف كان هذا القصر الذى تعيش فيه، وكيف أنه فى قمة جبل وأن أمامه عشرات من السيارات المرسيدس والكاديلاك والرولزرويس ولكن أروع ما فيه هو الذوق الصينى الساحر.. ولا يمكن وصفه لا من قريب ولا من بعيد.. هل أصف الأبواب أو النوافذ أو المفارش أو فناجين الشاى.. لو كان عندى فنجان واحد وطبق من هذا النوع لأقمت له معرضا فى شارع الهرم وأجعل الدخول بعشرين قرشا! أما كيف أصبح هو مليونيرًا؟ فالمسألة بسيطة جدا. لقد ورث هذه الملايين عن والده!

ثم فتح شركة بدأت مساهمة ثم انفرد بها ورأس مالها الآن حوالى سبعة ملايين جنيه . . وسيفتتح بنكا فى القريب العاجل بسنغافورة أو فى هونج كونج . . أما أمواله فمودعة كلها فى لندن . . . أما كيف جاءت هذه الثروة إلى والده فهو الآخر ورثها عن والده وهو الرجل الذى دخل هذه البلاد وليس معه مليم واحد .

جده رحمة الله عليه رجل قصير القامة . . صورته أمامى على الحائط يجلس على دكة ، رجل ذكى ، ولا شك ، جاء إلى هذه البلاد على ظهر مركب شراعى صغير وكان ذلك منذ ٧٠ عاما . . جاء هذا الرجل أو لا بمفرده ، ترك زوجته وأولاده فى الصين . . ومكث هنا وحده عشرة أعوام ثم استدعى زوجته وأقاموا جميعا فى سنغافورة . وفوجئ الأولاد بأن أباهم قد افتتح دكانا صغيرا وأنه ينام فى هذا الدكان ليلا ونهارا . وفوجئ الأولاد بأن والدهم قد اشترى بيتا صغيرا وجعل للبيت حديقة ، وأنه هو الذى يحرث الحديقة . وأن لديه عشرة من العمال كلهم من الشبان الصغار واشترط عليم ألا يتزوجوا قبل مضى مدة معينة ، وأن كل من سيتزوج سيخفض مرتبه . . ولاحظوا أن هذا الرجل يعمل ليلا ونهارا وأن نصف العمال يعملون ليلا ، والنصف الآخر يعملون نهارا . . وأنه لا ينام إلا ساعة واحدة فى اليوم فقد أصيب بأرق دائم . .

أما الذى يبيعه هذا الرجل فهو نوع من الزيت اسمه «زيت النمر» . . هذا الزيت يشفى من الروماتيزم وأوجاع المفاصل والظهر . وكان هذا الرجل يقوم بتوزيع هذا الزيت مجانا على الفقراء الصينيين . وكان يطلب من كل صينى أن يتحدث ولو دقيقة واحدة لأحد أقاربه عن مفعول هذا الزيت . . وربما كان هذا الرجل هو أول تاجر فى العالم كله استخدم رجال الدين فى الدعاية لزيت النمر . . فقد أصيب أحد الرهبان بآلام حادة فى أصابع قدميه وعالجه بهذا المرهم ، وعندما حاول الراهب أن يدفع الثمن أخبره الرجل العجوز بأن الثمن هو كلمة واحدة عن الدواء الذى يعطية للناس مجانا . كلمة واحدة قبل الصلاة أو بعدها . .

وفى اليوم التالى اختفى هذا العجوز ، وظن الصينيون الطيبون أن هذا الرجل ليس إنسانا فراحوا يبحثون عنه فلم يجدوه . . وبعد ثلاثة أيام ظهر الرجل فى دكانه ، حزينا ، وكلما سأله الناس عن السبب قال إنه مضطر أن يبيع الزيت بالفلوس بعد أن عاهد ربه على أن يعطيه للناس مجانا ، غير أنه رأى فى المنام أن الآلهة يصرون على بيعه بالفلوس من أجل العمال الذين يعملون عنده . ومن أجل طفل فى بطن سيدة تزوجت سرا من أحد العمال .

وأقبل الناس على الزيت يشترونه.

أما الزيت لا يعرف أحد من أى شىء استخلصه هذا الرجل.. وشركة النمر تنتج الآن الكثير جدا من الأدوية والأطعمة وعشرات المواد الغذائية وأدوات الزينة. كلها من صنع شركة النمر التى أسسها هذا الرجل الذى قدرت ثروته بعد موته بأكثر من ٢٥٠ مليونا من الجنيهات!

هل تعرف أن هذا الرجل لم يركب سيارة قط ولا عربة ولا حصانا.. هل تعرف أنه اشترى ثلاثة أحذية فى كل حياته.. هل تعرف أنه لا يعرف القراءة. هل تعرف أنه لم يمرض قط، هل تعرف أنه كان يحتفظ بأسنانه كاملة وبنظره سليما، وأنه مات غريقا فى الثمانين من عمره.

إن أصحاب الملايين فى سنغافورة وفى الملايو وفى إندويسيا كلهم من أبناء الصين..

والحكومة الموجودة الآن يرأسها رجل صينى هو زعيم حزب العمال الشعبى، والحكومة السابقة كان يرأسها يهودى صينى اسمه «مشعل» غير اسمه وجعله مارشال.

وفى سنة ١٩٥٩ أقفلت أسرة «النمر» هذه صحيفتها الكبرى وفاجأت المحررين بقرار الإقفال. وآخر عدد صدر لها هاجمت فيه عبد الناصر وقالت: إن تهديده لإسرائيل حقيقى وليس على سبيل «التهويش» أو المناورة السياسية وأن الدول الكبرى يجب أن تضرب رأسها فى الحائط؛ لأنها فشلت فى معركة بورسعيد!

لقد أقفلوا هذه الصحيفة وافتتحوا صحيفة أخرى فى الملايو..

أما الرجل العجوز فقبل أن يموت تبرع بعشرين مليونا من الجنيهات لفقراء الصين المقيمين فى سنغافورة.. وأنفق أربعين مليون جنيه أخرى على إنشاء حديقة النمر الموجودة هنا فى سنغافورة. وهى من أروع الأعمال الفنية التى يمكن أن يراها إنسان.. فكلها من التماثيل الملونة البارزة وبالحجم الطبيعى.. والدخول عام بالمجان.. وهى تصور حياة الصين كلها قديما وحديثا. والعادات والتقاليد والرذائل والفضائل والخرافات فى الأدب والتاريخ وصور التعذيب التى كان يلجأ إليها الأباطرة. إنها رائعة مثيرة مخيفة مذهلة، إنها تزيل الأوجاع والآلام، وتزيل الزمن الذى يشبه العرق فى حياتنا.. إنها أكثر سحرا من زيت النمر!

إن هذا الشاب الذى رأيته ليس مليونيراً، وإنما هو ملاييني!

(٦)

اليوم فقط أول أيام الشباب هنا فى سنغافورة . رئيس الوزراء الصينى دعا الشباب إلى مساعدة الدولة فى قطع الأشجار وإحراق الأعشاب وتمهيد التربة لإنشاء حدائق وملاعب للشباب. تطوع اليوم للعمل أكثر من عشرين ألف شاب . . تقدمهم رئيس الوزراء بالقميص والبنطلون وبدأ يعمل. لم يعمل دقيقة ولا خمس دقائق وإنما عمل خمس ساعات متواصلة . رفض أن يأكل الطعام الذى قدمته زوجته المحامية . وإنما جلس على الأرض إلى جوار العمال المتطوعين وفوجئ العمال برئيس الوزراء يجيء مرة أخرى بعد الظهر ويستأنف عمله بنفس القميص والبنطلون ومعه ثلاثة من خدمه وسائق سيارته .

وأعلن رئيس الوزراء هنا أنه لن يمضى أكثر من شهر واحد حتى تكون هذه المساحة من الأرض قد تحولت إلى قطعة من الجنة .

لقد مررت على هذه الأرض عند منتصف الليل . . إن الشبان يعملون تحت الأضواء القوية . . سألت إن كانوا هم نفس الشبان الذين عملوا بالنهار؟ قالوا إنهم دفعة أخرى، عددهم لا يقل عن شبان النهار . فسألت إن كان رئيس الوزراء قد حضر فقالوا : لقد حضر فعلا ولكن الشبان منعوه ، طلبوا إليه أن ينام ليعاود العمل فى الصباح .

نشرت الصحف عن العمال المتطوعين وعن روحهم المعنوية وعن السعادة التى عملوا بها . وكيف أنهم كانوا منظمين . وقالت صحيفة «التايمز» فى افتتاحيتها : إن هذه الأرض لكم ؛ لأن المستقبل لكم أما نحن فذاهبون . . إننا المعدية التى نقلتكم من شاطئ الماضى إلى شاطئ الحاضر . فانزلوا إلى الأرض التى هى لكم لا تنتظروا أجرا أو ثوابا أوحتى شكرا . بل نحن الذين ننتظر هذا منكم لقد أودعنا باسمكم ثروة فى بنوك الغد!

(٧)

تعطل المرور واتجهت السيارات إلى الشوارع الضيقة . والمرور فى الهند وسيلان وسنغافورة على الشمال دائما ، وعجلة القيادة على اليمين فى السيارة ـ تقاليد إنجليزية ـ ونزلت من السيارة لأبحث عن مصدر الطبول والموسيقى ورأيت طلائع الفرح والورود والبخور والموسيقى النحاسية يضربونها بصورة صارخة . . وهناك شبان فى ملابسهم الزرقاء ووضعوا على رءوسهم قبعات حمراء . وعربة صغيرة توزع عليهم المظلات

والمراوح . . وبعدهم تجيء عربات نقل ضخمة عليها أعلام ولافتات باللغة الصينية وفيها أجهزة تسجيل تذيع موسيقى صينية حالمة ثم فرقة موسيقية أخرى لها لون خاص ولها لحن خاص. وعربات نقل كبيرة عليها لافتات وورود وأعلام . . والناس فيها يضحكون ويتلفتون إلى المتفرجين وكل واحد منهم فى فمه سيجارة . . وعربات غريبة الشكل . . وفرقة موسيقية . . ثم طابور طويل مزدوج من الناس قد أمسكوا حبلا وراحوا يجذبونه إلى الأمام . . والحبل مربوط بعربة نقلت عليها الزينات . . ولكن العربة تتحرك من تلقاء نفسها وليست فى حاجة إلى حبل ولا ناس يشدونها وعليها زينات وفيها بعض الناس قد جلسوا وحولهم الورود. ولا بد أن يكونوا أهل العروسين، ثم فرقة موسيقية أخرى . . وعربة نقل ضخمة وضعت فيها الهدايا وكلها من الأقمشة الصوفية الإنجليزية الفاخرة . . وكل قطعة قماش عليها اسم الرجل الذى أهداها إلى العروسين .

ثم عربة أنيقة جدا . . ويبدو أنها خرجت من الباخرة أمس على الأكثر إن لم تكن الآن وعليها صورة أنيقة. إنها صورة العريس نفسه، أما صورة العروس فلم تظهر ويبدو أن التقاليد لا تسمح هنا بنشر صورة العروس . .

والآن أرى بوضوح العروسين أو أهل العروسين . . فقد ارتدوا جميعا ملابس بيضاء ناصعة وتعلقوا بإحدى العربات الغريبة الشكل . . ويظهر أنهم يبكون على فراق العروسين . . تماما كما يحدث فى الريف عندنا . . ولابد أن هؤلاء السيدات من أهل العروسين . . أخت العروس وأمها وأخت العريس وأمه . . والدموع على خدودهن جميعا . . ووراءهن عشرات من النساء والرجال ومعهم المباخر والورود والموسيقى التى تضرب النحاس بعضه ببعض بعنف ، والناس قد اصطفوا على الجانبين. وسألت فتاة صينية واقفة إلى جوارى ولابد أنها رأت دهشتى باهتمام غريب :

أمال فين العروسين يا مدموزيل؟

وضحكت . . وضحكت . . هذه جنازة . . ميت .

قلت : أمال فين الميت؟ هو العريس هنا بيقولوا عليه ميت؟ ميت فى العروسة ولا هو الراجل الذى ماتت حريته . . يبقى ميت عندكم؟

والله حلوة الفكر دى . . الحرية معناها الحياة والجواز معناه الموت : حلوة قوى! أمال فين الميت؟

قـالـت: هذا الذى رأيتـه صـورته . . وجثـمـانه فى العربة التى يجلس فـيـهـا إخـوته وأولاده . . وهو الميت . . ميت حقيقى!

وهذه بالفعل جنازة. والدموع على فراق الميت!

وعرفت بعد ذلك أن كل هذه الزهور وكل هذه الهدايا سيحرقونها على قبر الفقيد . . وأن هذه الهـدايا ستصعد مع الدخان إلى السمـاء . حيث صعدت روح الفقيد ، أما هذه الطبول العـادية فهى لطرد الشياطين : إنها تنظف الطريق أمام روح الميت حتى يصعد إلى السماء بسلام . والموسيقى فعلا مزعجة يهرب منها العفريت!

إنها جنازة ميت . . ميت بحق وحقيق!

(٨)

اليوم أحسست فعلا أن أذنى لها طبلة . . إن جلدها يشبه جلد الطبول غليظ لا يحس بالأصوات الرقيقة . . إننى لا أتصور ما حدث لى . إننى لم أعد أستمع إلى أى موسيقى ولا أية أغان مع أننى ـ ولا فخر ـ أحفظ كل أغانى عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم . . وبلغت بى الجرأة أننى غنيت لعبد الوهاب أمام عبد الوهاب!

وسمعت أن جلود الطبول مصنوعة من جلود حيوانات لا داعى لذكر اسمها حتى لا يرتبط كلامى فى ذهنك بصورة هذه الحيوانات .

لا أعرف ماذا حدث . . إننى أتهم نفسى بأن وزنى زاد . . يعنى أننى تخنت . . والميزان يكذبنى ولكن شعورى يقول : لا .

واليوم أحسست أن التخن كله فى أذنى .

كنت فيما مضى أسمع أفكار النمل . . كنت أسمع المفتاح وهو يتعثر فى الشقة التى فى الدور الأول فى بيتنا وأنا أسكن فى الـدور الخامس . وكنت أسمع الراديو فى أى مكان بعيد ، وأعرف ماذا يقول ، وكنت أدخل فى مراهنات على قوة سمعى . . وكانت الموسيقى تحرك أذنى . . تحركها كما تتحرك أذن «ميكى ماوس» فى أفلام والت ديزنى . . كأن أذنى تخرج بعيدا وتلتقط الأنغام وتعود وتصبها فى رأسى . . كانت الموسيقى كالمشط «يسرح» شعورى . وكانت شعورى «مسبسبة» لا تحتاج إلى مجهود موسيقى أما الآن فشعورى «مجعدة» يتعثر فيه المشط ويكاد ينكسر .

ومعقول أن هذه الموسيقى التى تنبعث من الميكروفون إلى جوار سريرى لا تهزنى لا تشيلنى وتهبدنى فى الأرض وترمينى داخل الدولاب فأرتدى ملابسى وأصعد إلى سطح الفندق . . إلى حيث تجيء هذه الموسيقى؟ أبدا وحياتك ولا حاجة ولا كأننى أسمع شيئا ، ولا حتى عندى أية رغبة فى الهرب من فراشى . . إنه برود . . جمود . . موت!

هذه الكلمات الأخيرة قلتها لنفسى بصوت عال . . فأنا عندما أتحدث إلى نفسى أرفع الكلفة وأشتم وأقول ألفاظا لا يصح نشرها . ولم تعجبنى لهجتى مع نفسى . . لم تعجبنى الصورة التى أرى بها نفسى الآن . . كأننى أنظر إلى نفسى فى مرآة مكسورة . . مرآة مصغرة . . فى مرآة تجعل وجهى ملتويا كأننى أنظر من فوق سور حديقة . . أو كأننى أتفادى صفعة على خدى الأيمن أو الأيسر .

ومشكلتى قفزت فجأة أمامى . .

فلم يكن ذلك برودا ولا جمودا ولا موتا ، وإنما هى مأساة يجب أن أعيشها يومين على الأقل .

لقد طار عقلى عندما دخلت غرفتى ولم أجد ملابسى . . إنها ليست بالشىء الذى له قيمة ، ولكن لا أستطيع أن أشترى غيرها الآن . . فليس فى جيبى مليم واحد ، وإنما كل فلوسى محولة على بنوك ، بينى وبينها عشرات الساعات بالطائرة ، وأمسكت التليفون وصرخت أقول : إنت فين يا ماما . . ماما تونجو .

وجاء صوت «ماما تونجو» هامسا عجوزا يتعثر على أسلاك التليفون كأنه صرصار أعرج .

وبعد دقائق جاءت مديرة الفندق .

وقلت لها : أين ملابسى؟

قالت وصوتها يعرج بالإنجليزية الصينية المكسرة : ملابسك؟ لا أعرف . . سأسأل الخادمة .

(وأمسكت التليفون وسمعت كلاما صينيا لا أعرفه . . وأنزلت السماعة ، وقالت : بعد لحظات ستعرف .

وبعد لحظات جاءت الخادمة .

وعرفت الحقيقة: لقد حملت كل ملابسى. البدلة الوحيدة والبنطلونات والجاكتات حتى الكرافتات والمناديل والقمصان.. كل ما عندى.. لم تترك إلا البيجاما التى أرتديها.

أما كيف حدث ذلك؛ فهو أننى خرجت أزور أحد أصدقائى فى الفندق فى الصباح الباكر. وتناولت الفطور عنده. وقرأت الصحف وسمعنا نشرات الأخبار، ويظهر أننى فتحت حقائبى أفتش عن شىء وأخرجت الملابس كلها وتركتها فوق السرير. ولم أفكر أبدا أن أعيدها إلى الحقيبة.. ويعلم الله أن الملابس كلها مكوية ومغسولة فى نيودلهى قبل سفرى، ولكن الخادمة لم تتخيل أبدا أنها مغسولة أو مكوية ـ وعلى كل حال هذه شهادة ضد الغسالين والمكوجية فى الهند، ثم جمعت كل هذه الملابس وانصرفت..

ونظرت إلى الخادمة فأحنت رأسها وكأنها تركع وتقول لى: إن شاء الله بعد غد..

وصرخت فيها: بعد إيه؟ يا نهار أسود.. دنا حاجز فى الطيارة بكرة.

ـ ولكن بكرة إجازة.

ـ إذن آخذهم من غير غسيل.

ـ ولكن الملابس فى بيت الغسالة الآن.

ـ أروح لها البيت..

ـ إنها عادة تتفسح يوم الإجازة ولا توجد فى البلد.

ـ تتفسح فين؟!

ـ فى جزيرة بعيدة...

ـ الغسالة بتتفسح وعندها فلوس منين؟

ـ من حضرتك..

ـ حضرتى؟ ليه؟ هيه حتاخد منى قد إيه؟

ـ كم قطعة ملابسك؟

ـ والله ما أنا عارف..

واستأذنت ماما تونجو وخرجت.

وسحبت الغطاء وابتلعت بعض الحبوب لكى استعجل النوم وأحلم بأن ملابسى المغسولة قد نشرتها إحدى المضيفات على جناحي الطائرة.. وبين الحين والحين أتخيل المضيفة وهى تفتح باب الطائرة وتقلب الملابس!

(٩)

لو كنت أعرف كيف أشترى أى شىء فى الدنيا؟!

لو كنت أعرف كيف أدخل أى محل وأمد يدى إلى الأقمشة والقمصان والكرافاتات والزجاجات العطرية والراديوهات الصغيرة وأدوات الحلاقة والزينة، ثم أقلب فيها وأنظر إلى ماركاتها بأعصاب من حديد وأقول للبائع:

ـ قل لى من فضلك. أنتم أسعاركم غالية كده ليه؟

ـ غالية!! إنت أول واحد قال الحكاية دى.. دعنى أفتكر.. قال الحكاية دى مين من مائة سنة!

ـ أنت غلطان ياحضرة.. هناك واحد قال كده قبل منى.. عارف مين؟ الرجل اللى اشترى جزيرة سنغافورة.. عارف اسمه؟ اسمه رافلس.. الراجل ده اشترى الجزيرة دى بخمسة آلاف جنيه ولكن بعد فصال بينه وبين الملك استغرق عدة شهور.. يعنى كان شايف ثمنها غالى قوى.. مش مهم برضه أسعاركم غالية ليه؟

ـ ليه غالية؟!

ـ أولا زجاجة البارفان دى ثمنها كام؟

ـ زجاجة ماجريف.. أكبر مقاس ثمنها أربعة جنيهات ونصف تبقى غالية؟!

ـ طبعًا غالية.. لقد رأيتها فى عدن بثلاثة جنيهات فقط.

ـ معك حق.. ومع ذلك فنحن أرخص من أى بلد فى الدنيا.

ـ طيب وريني دى.. بكام دى؟

ـ علبة بودرة من الذهب.. مطعمة بالذهب.. مش غالية.. بستة جنيهات؟!

ـ وريني ده من فضلك .

ـ شتوي . . بلوفر أورلون رجالي . . يساوي كام في عدن؟

ـ أظن يساوي جنيهين . . صوف إنجليزي . . أقصد صوف أسترالي . . وريني ده والله . بكام ده؟

ـ بلوفر أورلون حريمي . . بجنيهين برضه خد بالك فيه حرير أيضًا . . وممكن نديه لك أرخص .

ـ لا . . مش عاوز . . وريني الجزم الإنجليزي كده؟

ـ اتفضل اقعد هنا . . مقاسك؟

ـ بكام يا حضرة؟ لابد أنها أغلى هنا .

ـ أربعة جنيهات . . جزمة إنجليزي . . يدوب العمر وهية ما تدوبش .

ـ متشكر . . سلام عليكم . (قلتها بعنطزة شديدة أقرب ما تكون إلى قلة الذوق أو قلة الأدب)!

ـ عليكم السلام .

أتمنى أن يدور هذا الكلام بيني وبين أي بياع . . أملي أن تكون عندي شجاعة . المرأة عندما تدخل أي محل . . وتشوف ده وده وتقلب في كل حاجة . البدل والبنطلونات ولعب الأطفال والحلل والأكواب . . ساعة . وساعة . . وفي آخر النهار تشتري إبرة لوابور الجاز!

نفسي أدخل أي محل وحدي وأشتري أي شيء . .

وهذه هي المرة الثالثة التي أسافر فيها إلى سنغافورة في خلال شهرين . . في أول مرة توقفت فيها عشرة أيام . . واشتريت ملابس داخلية . . وجدت عددًا من الناس يشترون فحشرت نفسي وسطهم . . وعندما فقدت شجاعتي أمام البائعات قررت أن أنسحب ؛ وضبطني بائع خضار سألني ماذا تريد؟ فقلت : ملابس داخلية . .

وأمسك المتر وجعل يقيس طولي ، وعرضي ويكتب في ورقة . . وبعد لحظات عاد لي بلفة كبيرة ومددت يدي وأخذتها ودفعت الثمن . . ولم أعرف عددها ولا إن كانت تصلح لي أو لا تصلح . . إن محلات الخضراوات تبيع الملابس الداخلية أيضًا!

واليوم أحلم بأن أذهب إلى هذا المحل وأستدعى هذا البائع الغشاش وأحاسبه على الإساءة إلى سمعة أكبر محل فى سنغافورة . . الإساءة إلى محل «جين ليتل» الذى يوجد به من البضائع ما يكفى لكسوة سكان مدينة كبيرة كالقاهرة وأقاربهم فى الريف . .

وتمنيت أن يدور بينى وبينه هذا الكلام :

ـ إزاى ياراجل إنت بتبيع لى ملابس داخلية تتمزق من غسلة أو غسلتين؛ هذا غش . . هذا ضحك على الأجانب . . أنت إذا كسبت منى جنيهًا فلن يزيد فى ثروة المليونير صاحب المحل . . ولكنه يسىء إلى سمعته . . وسمعة سنغافورة كلها . . أهذا يرضيك؟

ويقول الرجل : يا أستاذ أنا لم أسئ إلى أحد . . ولكن كل قطعة اشتريتها حضرتك مكتوب معها على ورق أنيق كيف يجب غسل هذه الملابس . . حضرتك قرأتها؟

ـ الحقيقة لا .

ـ الغسالة قرأت هذا الكلام؟

ـ لا . طيب يا أخى مش لازم تنبهوا الزبائن إلى هذه التعليمات؟

ـ عندما يكون الزبائن لا يعرفون الإنجليزية . .

ـ افرض يا أخى .

ـ يبقى ناقص نعلمه كيف يرتدى هذه الملابس .

ـ حضرتك بتهزر معايا .

ـ العفو يا أفندم . . حتى طريقة ارتداء الملابس مكتوبة فى التعليمات ، ومع ذلك إذا كان فيها عيوب يمكن إصلاحها فنحن على استعداد لإصلاحها .

ـ مش المهم ده . . المهم سمعة المحل وسمعة البلد . .

ـ نحن نشكرك على غيرتك على بلادنا . .

وأحسست بكسوف وأنا أدير هذه المناقشة فى رأسى . . فبعد أن ذابت كل ملابسى اكتشفت أن لها طريقة خاصة فى الغسيل . . وأن هذا الرجل لو تحايل علىّ لكى أرد إليه هذه الملابس فإننى لن أستطيع . . فقد أصبحت تشبه «شيش» الشبابيك . . كلها فتحات طولية وعرضية . .

ولكن كيف أدخل أى محل وأشترى أية حاجة . . نفسى أشترى . . نفسى أعرف . . أفضل فى وسط الناس وأقول : هات . . خذ . . هات . . إيه القرف ده . هات .

يارب لقد أعطيتنى الشجاعة فارتديت ملابس ممزقة ، فأعطنى الشجاعة لكى أشترى ملابس جديدة !

أشياء غريبة

فى سنغافورة أحياء صينية كاملة وفيها ما يشبه حى السيد زينب تمامًا . . خصوصًا ميدان السيدة . . به عربات عليها كلوبات وأمامها مقاعد يرى فيها الناس الأطعمة على النار ويختارون منها ما يعجبهم . وقد يذوق الواحد منهم الطعام فلايعجبه فيلقى به فى الأرض ولا يدفع مليما واحدًا . .

* * *

من الممكن أن تطلب من بائع الصحف نسخة من أية جريدة وتظل تقرأ فيها عشر دقائق ثم تردها إليه لأنها لم تعجبك .

* * *

لاتوجد طريقة لنداء الجرسون فى أى مطعم وإنما يجب أن تنتظر حتى يقرب منك وينظر إليك فتنظر أنت إليه .

* * *

مدينة الملاهى هنا أروع ما فيها المحلات التجارية ، إنهم يبيعون فيها كل شىء . . أجهزة الراديو الترانزستور الصغيرة جدا والكبيرة جدا . . ويبيعون الحرير والأصواف والعطور التى جاءت من باريس اليوم أو أمس على الأكثر ، والأسطوانات من كل بلد ومن كل حجم ويتحايلون عليك ويطاردونك . .

* * *

لاحظت أن الصينيين ليسوا صفرًا دائمًا بل هناك صينيون بيض اللون جدا . . رأيت صينيات شقراوات . . ولا يميزهن عن الأوروبيات إلا عيونهن وشعرهن الأسود الناعم . .

* * *

فى سنغافورة تستطيع الفتاة أن تلبس الملابس الأوربية وأن تلبس البيجاما الحريرية وأن تلبس القبقاب . . القبقاب الصينى جميل . . وأن تلبس الفستان المشقوق شقّا طوليًا كأنه آهة طويلة جدّا . . والشق يبدأ من ذيل الفستان على الجانب أو على الظهر أو من الأمام . . يا أخى ولا أحد ينظر؟!

* * *

تسمع وأنت جالس فى الفندق طبولا ودقّا غريبًا طول النهار . . وتنظر من النافذة فتجد رجلا يدفع أمامه عربة . . أو رجلا يركب دراجة . . هذه هى المناداة هنا . . فهم لا ينادون على السلع وإنما يدقون لها الأجراس والطبول . . وكل سلعة لها جرس خاص . . وأحيانًا تجد البائع وبعده بخمسين مترًا ترى طفلا يضرب قطعتين من الخشب الواحدة بالأخرى . . كأن لسانه ولسان أبيه قد نشفا فراح يدقهما معًا!

* * *

هل رأيت فى حياتك ــ قبل عناق خروشوف وأيزنهاور ــ الدولار الأمريكى مع الروبل الروسى والإسترلينى والروبية الهندية والسيلانية والإندونيسية والكب اللاوسى والجنيه المصرى . كل هؤلاء معًا على منضدة واحدة؟!

هذا من المناظر المألوفة هنا فى مطار سنغافورة، فهناك تجد رجلا حافيًا يغير لك كل أنواع العملات وبسهولة جدا .

* * *

البوليس هنا يرى الناس يملأون جيوبهم بكل أنواع العملات المهربة من كل بلد فى الدنيا . . ولا يفتح فمه بكلمة واحدة . . فسنغافورة مدينة للتهريب .

* * *

وفى استطاعتك أن تأخذ التاكسى من المطار إلى أى بنك وتضع فيه كل أموالك وتحولها إلى أى بلد فى العالم فى عشر دقائق . . اغمز بعينيك لأى رجل صينى والباقى يتولاه هو بعناية وعناية أجمل بنات الصين .

لقد ظننت أن كل هؤلاء الفتيات اللاتى تمشين بالألوف ورائى بسبب «الغمز» المتواصل من عينى؛ فقد أصيبت عيناى بالتهاب جعلهما يذرفان الدمع طول النهار .

وبعد ذلك اكتشفت أنهن فى طريقهن إلى حفلة فى الفندق الذى أنزل فيه!

إندونيسيا

لا مكان لى ؟!

وجدت نفسى فجأة على طائرة صغيرة تابعة لشركة خطوط الملايو . . وابتسمت المضيفة ـ وقالت : مع السلامة .

والحقيقة أننى لم أجد نفسى فجأة ، وإنما عندما دخلت الطائرة أحسست أننى انعزلت تمامًا عن الجزيرة الحلوة والمدينة الحلوة والأشياء التى تتلألأ كعيون أبناء الصين وكأسنانهم وكالزراير فى فساتين بنات الصين . .

وكان الكرسى الذى أجلس فيه ضيقًا . . كأنه فستان محزق . أو كأنه كرسى صينى . . أو كأنه دعوة عملية لأن أخس ولو قليلا . .

فى هذا الجو المحذق وجدت نفسى . .

وتحركت الطائرة واختفت الابتسامات ووجدت عينى فى قفا الذى أمامى . . القفا نظيف والحلاقة عالية جدا . . فشعر الرأس يبدأ على ارتفاع شبر من ياقة القميص . وقبل أن ألعن ميوعة الشباب فى هذه المنطقة . وجدت أن القفا الذى أمامى هو رجل عجوز مع أن كل شعره أسود وأسنانه بيضاء . . عجيبة !

وفى مطار جاكرتا وجدت المناظر التقليدية التى لا تعجب ولا تسر . . وجدت أعمال التفتيش على أشدها . لقد رأيت سائحا أمريكيا نزعوا ملابسه من الحقائب . . ونزعوا قميصه من البنطلون . وتوقعت أن توارى السيدات وجهوهن بعد أن يتولى رجال الجمارك نزع بنطلون الرجل . لولا أن الأمريكى مال على الرجل وهمس فى أذنه بشىء ضحك له الأمريكى فقط . وتشكك فيه الرجل الإندونيسى .

لقد كان الأمريكى يرتدى القميص والبنطلون على اللحم !

ولا أعرف سر اختفاء الأمريكى بعد ذلك، هل سمحوا له بالخروج؟ أم أنهم يتولون تفتيشه بصورة «أعمق» فى إحدى الغرف الملحقة بالمطار . .

شىء فظيع!

ووجدت نفسى فى إندونيسيا . . أى على عتبة ثلاثة آلاف جزيرة. الجزيرة التى وضعت فيها قدمى اسمها جزيرة جاوة. وجاكرتا هى عاصمة كل إندونسيا. وهذه الجزيرة بها سبعون مليونًا من المسلمين، إندونيسيا كلها ١٢٠ مليونًا. وليس بين هؤلاء المسلمين جميعًا واحد يمد يده إلى الغريب الذى جاء من بلاد الأزهر الشريف ويأخذ عنه حقائبه، أو يدله على طريقة يتفاهم بها مع أحد. فالناس هنا يتكلمون لغتهم طبعًا والقليل جدا منهم يعرف الإنجليزية. ويظهر أن كلمة مصر معناها أيضًا مصر فى لغة إندونيسيا ولكن ينطقونها بشكل آخر . .

أنا الآن ملطوع أمام باب المطار. فقد سمحوا لى بالخروج . . فأنا مصرى وهذا يكفى. فهم هنا من أعز الأصدقاء. وأنا أعتقد أن خروجى من المطار، بعد أن رأيت ما فعلوه بالأمريكى منتهى الترحيب. يكفى أنهم لم يضربونى قلمين وشلوتين . . يكفى أنهم لم يجعلونى فرجة لمن يساوى ولمن لا يساوى، ولم أجد حولى أحدًا يساوى شيئًا!

وخرجت أجر كرامتى وأحشر نفسى بين الناس . .

والعربات قليلة جدا ولكنها مليئة بالناس.

ومشكلتى واضحة جدا وهى كيف أصل إلى أى فندق ومن هذا الفندق أتصل بالسفارة.

وفى هذه الأثناء ظهر رجل كنت قد هززت له رأسى فى الطائرة. ويبدو أن هذه الهزة لها معنى خاص. ويبدو أن هذا المعنى الخاص كان بعيد الأثر. ولو سألتنى لماذا هززت رأسى لعرفت أن السبب هو أننى اصطدمت به وكدت أوقع المنظار من فوق أنفه وألقى به تحت قدمى ـ تحت سبعين كيلو جرامًا هى وزنى، ليحمله بعد لحظة واحدة، حفنة من الدقيق الأبيض . .

وجاء الرجل ودعانى إلى السيارة التى ستقله إلى الفندق . . إذن هذا الرجل قد حجز

فندقًا. فهو من أبناء الملايو وكثير التردد على إندونيسيا فله فيها أعمال كثيرة. إنه رجل يشتغل بالسينما والملاهى والألعاب الرياضية.

وإلى جواره جلست فى السيارة. وأمامى أناس كالفيلة وورائى أيضًا ناس كالأبقار كلهم ضخام الأجسام. فهؤلاء هم الرياضيون، أو هم السيرك الذى يتجول به من دولة إلى دولة. ولما عرف أننى مصرى رأيت السعادة على وجهه واعتدل فى جلسته ليبدى لى إعجابه.. أو أسباب إعجابه بمصر وأبناء مصر. وكل الذى توقعت أن يقوله لم يقل منه شيئًا واحدًا.. فلا عرف الأهرام ولا لاحظ وجه الشبه بين أنفه المطبق وأنف أبى الهول ولا بين جلسته الآن على المقعد وبين الكاتب المصرى الجالس القرفصاء..

وإنما قال لى بحماس: لقد رأيت سامية جمال!

فسألته: إن كانت سامية جمال جاءت هنا.

وكان رده: [illegible].

وسألته: إن كان هو سافر إلى مصر..

وكان جوابه: لا.. رأيتها فى أحد الأفلام.

ومن حركة شفتيه أدركت طعم سامية جمال فى فمه. ومن بريق عينيه أدركت انعكاس ساقيها اللامعتين.. ومن اهتزازته فى مقعده. أدركت كم هى مثيرة بالنسبة لهذا الرجل، ومن تراجعه إلى الخلف تخيلت مساحة السرير الذى يتمنى أن يتمرغ عليه!

وقال لى إن حكومة الملايو منعت أفلامها المثيرة. وعرفت فيما بعد أن الرقابة فى إندونيسيا تحذف رقصات كاريوكا وسامية جمال. أما السبب فهو أن ظهور هذه الرقصات يصدم الشعور العام هنا. فالناس يعتقدون أن كل ما تصدره مصر هو أفلام دينية وتفسيرات لكتاب الله.. وإذا ظهرت هذه الرقصات. فإن الجمهور لا يجب أن يضع هؤلاء الراقصات بين آيات الله وأحاديث رسوله.. إلا إذا كان الغرض من ظهورهن هو بيان الطريق اللذيذ الذى يؤدى إلى جهنم، وبئس المصير!

قال لى هذا الرجل الرياضى إنه حدث فى الملايو أن شاهد الناس أحد الأفلام المصرية الذى يتحدث عن بطولات العرب وكيف أن الناس يعتبرونها نوعًا من الحج، ولذلك فبعضهم يدخل السينما وقد خلع الحذاء.. ومعظم هذه الأفلام قد سقطت فى مصر سقوطًا مريعًا ولكنهم فى الملايو يرونها بصورة أخرى لحسن الحظ.

عندمـا انفـعل هذا الرجل فى اسـتـجـوابى عن راقـصـات مـصـر . أدرك أن جـهلى بهن واضح ، بدأ يشك فى أننى مصرى . ولذلك قـررت على الفور أن أروى قـصـصًا شخصية جدا عن راقصات مصر وعن علاقاتى بهن وغـرامياتى ، وليسامحنى الله فى كل ما قلت . فلم أكن أريد سـوى أن أقدم أوراق اعتـمادى لهذا الرجل . . وإلا تسليته حـتى نصل إلى الفندق ، وأنا حسن النية جـدا . . وأنا لن أعـتـذر لراقـصات مـصـر فـقـد تحـدثت فـقط عن حاضرهن ومستقبلهن والله يعلم أننى لم أشر إلى ماضيهن!

فالماضى للتاريخ ، والحاضر لهن ، والمستقبل للجميع !

نسيت أن أقول إننى كنت أرفع صوتى بالكلام ليتمكن من سماعى كل هؤلاء الوحوش الذين أرغـمونى على وضع يدى فى جيوبى . فقـد ضغطوا عليهـا حتى كادت تتحـول إلى كفتة . ويظهـر أن من عـادة هؤلاء الوحـوش الآدمية أننى إذا قلت شيـئًا أعـجبهم ، عندما يترجم لهم ، فإنهم يسـحبـون يـدى ويصـافحـونها بعنف إعـجابًا بما قلت . ولـعل هذا هو السبب فى أننى أنكرت صلتى بأية راقصة فى مصر ، أو فنانة عربية .

ووقفت السيارة وقبلها وقف قلبى أيضًا . .

وكـان الفندق اسمه «ديزاند» وهو الـفندق الوحيد فى العـاصمة . والذى تحتكره معظم السـفـارات . ومن النادر أن يجـد فـيـه الإنسـان مكانًا إذا لـم يكن قـد حـجـز ذلك من قـبل والحجز ممكن . ولكن المشكلة هى «من قبل» . . من قبل كم يومًا أو كم شهرًا!

تركنى الرجل لأدبر شـأنى . فـسـألت عن غـرفـة لى فلم أجـد . . وقـال لى مـوظف الاستعلامات فى استنكار شديد : كيف يمكن أن تجد غرفة الآن؟! إن أقرب غـرفة يمكن أن أحجزها لك تخلو بعد أربعة أسابيع !

ولا ينصحنى بأن أحجزها لأنها مخنوقة ، وهو يفضل غرفة أخرى مطلة على الشارع ، وهى ستخلو بعد شهرين!

وأخيرًا عـثر على غرفة عندما قلت له إننى مـصرى ولا أعرف أحدًا هنا ، فـيـمـا عدا مـوظفى الـسـفــارة الذين لا أعــرفـهـم . وإن كـان من الـسـهـل أن أتصل بهم وأطمع فى مساعدتهم .

وصـعـدت الـسـلالم وانفـتـح البـاب عن غـرفـة فى حـجم ثلاثة توابيت فـرعـونيـة . . وأحسست على الفـور أننى أحد قـدمـاء المصريين . . سأتمدد فى تابوت وأضع ملابسى فى

تابوت وطعامى فى تابوت ثالث. . ولست فى حاجة إلى دورة مياه. فالموتى لا يغتسلون. لأن الموت قد طهرهم من كل ما هو جسد. أى من كل ما هو عرق وتراب وقبلات!

وليست فيها مراوح ولا تكييف مع أن الأرض هنا فى مستوى سطح البحر. وإننى على خط ٦ جنوب خط الاستواء. أى على نفس الامتداد بين كولومبو ونصف جزر المالديف. . فالدنيا حارة جدا. . والرطوبة تصل إلى ٨٠ و ٩٠٪.

وفى الغرفة ـ والله العظيم أقول الحق ـ يوجد سرير صغير والسرير من شدة الخجل التصق بالحائط. . تمامًا كما يفعل المارة عندنا لسبب ما!

وتمنيت أن أنام أمام باب اللوكاندة!

وابتلعت هذه «الأمنية» بكوب من الشراب بارد، لم يعجبنى طعمه. ولكنى مع ذلك شربته دون أن أعرف طعمه إلا عند آخر قطرة. كنت أظن أن (الأمنية) هى عبارة عن أقراص شديدة المرارة، وأن هذا السائل سيحملها إلى أعماقى دون أن أشعر بطعمها ولكن جف ريقى من جديد ولم أعد أشعر إلا بطعم هذه الأمنية المريرة!

وتذكرت ما دار بينى وبين أحد الأصدقاء فى القاهرة عندما سألنى: هل تسافر إلى الهند وإندونيسيا؟

ولم يشأ أن يتوقف عند هذا السؤال وإنما مضى يقول: فى هذا الجو الحار. . ووسط هذه الأمراض التى لاحد لها. .

قبل أن أقول «يا ريت»، راح يضاعف من مخاوفى بقوله: هل تقوم بهذه المغامرة!

وكأننى لم أسمع إلا السؤال الأول فقلت مترددًا وفى رأسى صور مهرجانات السينما التى تقام فى البندقية وفى برلين وفى كان ونيس وسان سباستيان وصور وذكريات وآمال جديدة ورغبات فى الهرب. . ثم فرحتى ببلاد لم أرها كالهند وهى بلاد حارة وغريبة وعجيبة. واعتقادى أن التاريخ الجديد سيكتب هنا فى آسيا. وأن الخطر القادم سيكون من الصين ومن الهند، وأملى فى أن وزنى سينقص ولو خمسة كيلو. . فأنا وزنى الآن ٨٢ كيلو وأريد أن أصل بأية طريقة إلى ٧٨، أو ٧٩ ولابد أن حرارة هذه البلاد والتعب. . لابد أن هذا كله سيحقق لى هذا الحلم. وكان ردى:

أ. . ر. . و. . ح!

ولم أجد فى كل هذه البلاد الحارة إلا كل الوسائل الناجحة لزيادة الوزن، فالجو حار جدا. وهذا يجعلك تشرب الكثير من السوائل. . ويجعل المشى صعبًا عليك ليلا ونهارًا. . فلابد من السيارة. . وهذه البلاد كلها تأكل الأرز. وهذه البلاد الحارة تصيب الكبد والمعدة بكسل شديد. فلابد أن تضع فى طعامك بعض الشطة. والشطة تفتح الشهية فتجعلك تأكل أكثر وأكثر. ثم إن هذه البلاد كلها لاتسهر الليل. وإنما تنام من الساعة الثامنة أو التاسعة على الأكثر. ولا يوجد هنا أى نوع من أنواع الملاهى الليلية. . وأنا من الذين تعودوا على السهر على الأقل حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحًا كل يوم. . وكلما وجدت نفسى فى حالة ضيق أو غيظ احترقت كميات السكر الموجودة فى دمى وأحسست بالجوع وعدت إلى الطعام من جديد. وهناك أناس إذا غضبوا لا يأكلون وآخرون إذا غضبوا أكلوا. . ولم يكن للطعام أى معنى. وأنا من هؤلاء وكأننا ـ نحن الذين إذا غضبنا أكلنا ـ ننتقم من الذين أغضبونا ونرفزونا فنأكلهم!

وتكون النتيجة هى زيادة كمية الأرز ونقصان فى الحركة وسوء هضم. .

ونحاول أن نقضى عليه بزجاجات الصودا ـ وهذا سائل أيضًا ـ أو بأملاح الفواكه ـ وهذا سائل أيضًا ـ أو بتناول كميات من الزبدة الطازة وهى أحسن وسيلة للسمنة!

وسألت عن السبب الذى من أجله لا يصاب الناس بسمنة فى الهند أو سيلان أو حتى هنا فى إندونيسيا. . مع أنهم يأكلون بالضبط ما نأكله وأكثر. فلماذا؟

قيل لى إنهم يأكلون الأرز بغير سمن أو زيت. . وجدت نفسى عاجزًا عن أكله. لأن رائحته فظيعة. وحتى أكله بالزيت صعب جدا لأنهم يطبخونه بزيت جوز الهند. وطعمه حلو. ولأنهم لا يشربون الكثير من الماء ويكتفون بالشاى. وحاولت ذلك وعجزت. . فنحن نشرب الماء كثيرًا فى بلادنا. . الإكثار من الشاى يسىء إلى الهضم. ويصيبنى بالأرق. ولأنهم يمشون كثيرًا جدا والشمس لا تضايقهم. . وهذا مالا أستطيع أن أفعله.

ولكن قررت فى إندونيسيا أن أبدأ تجربة جديدة وهى أن أمتنع عن الأرز وعن السوائل وأن أمشى كثيرًا وأنام قليلا. . ومن اليوم الأول عدلت عن هذا القرار فقد دعانى ملحقنا الثقافى إلى الغداء ورأيت من الذوق أن آكل معه. . وأكلت وكنت جائعًا. وشربت كمية من السوائل تكفى لتبريد ثلاثة سيارات فى طريقهما إلى الإسكندرية بالطريق الصحراوى. . وفى العشاء كان كل الجالسين معى من المواطنين. ورأيت أن الذوق يقضى بأن أكون لطيفًا وأن يمتد فمى إلى كل يد تحمل طبقا من الأرز بالكارى، وطبقًا من اللحم

بالشطة، وطبقًا من السلطة بالفلفل. وكوبًا من الماء بالبعوض. وكوبًا من الشاى بلا سكر.

وفى اليوم الثانى نسيت هذا القرار تمامًا . .

نسيت لأن الإنسان ينسى كل شيء يكرهه أو يضايقه . . فالنسيان هو «الكماشة» التى تخلع المسامير من أحذية حياتنا ونحن لا ندرى . . نسيت لأننى مشغول بأشياء أخرى، هذه الأشياء تضايقنى وتقلبنى فى فراشى كاللحم فى النار. وهذا يضايقنى مرة أخرى. وكل الذى يضايقنى يحرق السكريات فى جسمى وجسمى لا يغفل عن مطالبه. فهو يطلب التعويض سرًا والتعويض لا يكون إلا بالطعام . .

فإننى كلما تضايقت من كثرة الطعام ازدادت رغبتى إليه . .

كأننى قررت أن أمتنع عن الأكل لأسباب جسمية.

والنتيجة: شجرة جميز انضمت سرًا إلى «الجمعية السرية» لأشجار الجميز فى القاهرة!

وفى اليوم التالى دعانى أبطال المصارعة إلى حضور التمرينات التى تسبق المباراة . . لماذا دعونى؟ لأننى أصبحت صديقًا لهم. ولأننى صحفى من بلاد بعيدة، ولأنهم يتفاءلون بأول صديق. ويبدو أنهم فهموا أننى مهتم بالرياضة ولا أعرف إن كانوا قد فهموا أننى من المعجبين بأبطال المصارعة، لا أدرى، فأنا لا أعرف لغتهم والرجل الذى يترجم لهم قد سافر إلى أقصى الجنوب ليقوم بالدعاية لهم.

وجاءت بطاقة الدعوة. وذهبت إلى أحد الأندية الصغيرة ودهشت عندما وجدت جمهورًا لا يقل عن مائة من الرياضيين. وعندما دخلت توقف اللعب وامتدت الأيدى تصافحنى من وراء الجدران المنخفضة. وجلست فى جانب . . ولكن فوجئت بمقعد فخم قد وضع لى . . وبدأ الفأر يلعب فى عبى . . وبعد تزايد عدد الفئران عندما وقف واحد منهم وأعلن بعبارة قوية مدوية شيئًا لم أفهمه . . وبعد ذلك رأيت العيون تتجه ناحيتى وتبتسم وتنتظر منى أن أقول شيئًا، ووقفوا ووقفت وابتسمت وأنا لا أفهم وقلت بالإنجليزية: ألا يوجد بينكم واحد يفهم الإنجليزية!

وسكت الرياضيون لحظة . . وتوقف اللعب نهائيًا. ولم أر أية دلالة من دلالات الفهم على وجوههم . . وبعد ذلك توالى التصفيق . . ولم أفهم وظللت واقفًا وظلوا جالسين . . ومعنى ذلك أننى يجب أن أخطب . . أن أقول فيهم كلمة . . أحييهم. أعبر لهم عن

حيرتى وخيبة أملى ووقعتى التى لم تخطر لى على بال!

وفى دوخة وذهول أعتقد أننى قلت كلامًا شبيهًا بهذا:

«أيها الأصدقاء.. لابد أن هناك خطأ. فأنا لست من الرياضيين.. وإنما أنا أزعم فى بلادنا أننى ألعب التنس.. وأقسم أننى نسيت هذه اللعبة.. فقد حاولت أن ألعب التنس منذ أسبوعين في أعالى جبال سيلان مع جماعة من المهندسين.. وسقطت على الأرض.. وأكلت الرمال جانبًا من جلد يدى.. وهوه أنا لو كنت غاوى رياضة معقول أغوى رياضة زى دى.. شوفوا الراجل أبو كرش ده.. شوف الراجل اللى بيبرق ده.. شوف الراجل الغرقان فى العرق.. شوف الراجل اللى عاوز ياكلنى ده.. الحقونى.. مفيش حد فيكم بيعرف عربى.. عاوز أهرب من الناس.. عاوز أجرى أريد الخلاص.. الحرية. مرديكا مرديكا..».

وكلمة مرديكا معناها بالإندونيسية: الحرية..

وفوجئت بأن الناس رددوا ورائى: مرديكا.. مرديكا!

وفى ذهول تام جلست أستريح وأستعد للهرب بأية صورة..

ولكن فوجئت بمن يضع يده على كتفى.. إنه رجل فى الخمسين من عمره لطيف، على وجهه ابتسامة ترحب بك، بل تدعوك إلى الغداء والعشاء والإقامة، ابتسامة كريمة جدا، وقال: اسمح لى أيها السيد العزيز.

وهنا دخت حقيقة..

وأعتقد أنه قال: أنا أترجم كلمتك الدقيقة إلى الإندونيسية.

ولم أستطع النظر إلى وجوههم.. وأعتقد أننى خرجت كما يخرج السكران طينة من الكبارية عائدًا إلى بيته!

ما لا يعجب سيدات مصر!

ولحسن حظى انتقلت إلى بيت صديقى ـ منذ ساعات ـ ملحقنا الثقافى الدكتور محمد رضوان . . ولحسن حظى مرة أخرى كانت زوجته وأولاده ما يزالون فى القاهرة ولذلك وجدت لى مكانًا فى بيته . وجدت لى غرفة وسريراً . وصديقًا أتسلى معه . وأعرف منه الكثير عن أحوال إندونسيا وأهل إندونيسيا الطيبين الدائمى الضحك . .

وأشهد أننى ما كرهت الأرز والدجاج فى حياتى كما كرهتهما فى بيت هذا الصديق ، فالأرز كثير وفى كل ساعات النهار والليل . والدجاج رخيص وكثير أيضًا . والطريقة التى تقدم بها الخادمة هذا الطعام تضايقنى جدا . . وبعد ذلك لم تضايقنى . . ولكنى لم أحب الأرز والدجاج . والخادمة فتاة سمراء إندونيسية . . ولكنها إندونيسية جدا فى كل ملامحها . . فى إندونيسيا أناس من أصل صينى وآخرون من أصل يابانى ، وأناس من أبناء حضرموت . ومن أصول عربية . وعلى فكرة الفتاة الإندونيسية تحب الرجل العربى . لا أعرف السبب . ربما كان السبب دينيًا . مع أن العرب الذين يترددون على هذه البلاد ليسوا متدينين إلى هذه الدرجة!

والخادمة قصيرة القامة نظيفة جدا ، فهى تستحم ثلاث أو أربع مرات فى اليوم . وربما كان استحمام خادمة ليس شيئًا له أهمية الآن . ولكن المرأة الإندونيسية والرجل أيضًا نظيف . وهم يلبسون الملابس على اللحم . وحتى لا تلتصق هذه الملابس بأجسامهم فإنهم يغسلونها فى النشا وبذلك تكون متباعدة عن الجسم . والسيدة المصرية عندما ترى الفتاة الإندونيسية لأول مرة ـ وقد حدث هذا ـ يرتفع قلبها ولا ينزل إلا بصعوبة . فهى رشيقة حلوة وبسيطة . وبشرتها كخد التفاحة ملساء ناعمة مشدودة . ثم إنها مختصرة أو أميل إلى النحافة مع أنها تأكل الأرز واللحم والفواكه . ويظهر أن طريقة طهو الأرز هنا هى التى

تقطع نفس الأرز وتخلصه تمامًا من المواد النشوية . . فلا يبقى منه إلا شىء لاهو عجين ولا هو أرز . ثم إنهم لا يعرفون السمن البلدى ولا الزبدة ولا المواد الدهنية التى نضعها فى طعامنا . . وكلمة الأكل «المسبك» ليس لها معنى عندهم . إنها غريبة على الآذان كغرابة أن نقول لهم : إنه يوجد بلد فى العالم ليس به بعوض!

والفتاة مثلها الأعلى أن تكون من النوع الذى نسميه فى مصر : العرسى!

وهذه الخادمة من الممكن أن تستحم وتغسل ملابسها عينى عينك . . ومن الممكن أيضًا أن يكون لهذه الخادمة صديق . وهذا الصديق تدعوه إلى غرفتها ليتناول بعض الطعام . بعض طعامك . . ممكن جدا . . ومن الأدب أن تسكت . . ومن التقدم أن تبدو لها متسامحًا . ومن الحرية أن تحترم حريتها!

وطبعًا كل هذا لا يعجب أية سيدة مصرية . .

ولذلك لا تكاد السيدات المصريات يصلن إلى هذه البلاد حتى يبدأ موسم فصل الخادمات بالجملة . . أى موسم اقتلاع أغصان البان ، وزراعة أشجار الجميز!

وعندما دعيت إلى حفلات خاصة لاحظت أن الفتاة الإندونيسية لا تأكل إلا قليلا جدا . وتندهش إذا عرفت أنها تعيش على الحد الأدنى من الطعام . ملعقة من الأرز وقطعة من اللحم وبعض الفاكهة والقليل جدا من الماء . أو من السوائل . فهى تعلم أنها رشيقة وهى تحرص على ذلك .

والحياة فى مدينة جاكرتا ليست مسلية بالمرة . فلا يوجد بها لهو ولا مرح . وإنما يوجد بها فندق واحد . وفى مواجهة هذا الفندق يوجد مطعم .

ويوجد الحى الصينى . وهو متعة .

فأبناء الصين يمثلون النشاط التجارى والحياة والمرح والأرستقراطية . إن عددهم فى كل إندونيسيا حوالى ثلاثة ملايين . ولكنهم أصحاب المصالح الحقيقة . . إنهم الأقلية الساحقة . . والإندونيسيون هم الأغلبية المسحوقة . . وهم أصحاب المصانع والقصور والمطاعم والشركات والسيارات . وهم الذين يتولون التهريب من الثلاثة آلاف جزيرة وإليها إلى سنغافورة وهونج كونج والفليبين . . !

وفى الحى الصينى تجد الدنيا كلها . . تجد صورة صغيرة من سنغافورة الصينية . . تجد

السلع من كل لون . . تجد المرح . . كل ألوان المرح . . تجد الأطعمة الغريبة . . تجد دور السينما . . تجد كباريهات الرقص . .

ولعلك تلاحظ أننى قلت كباريهات الرقص فأنا لا أعرف كيف أسمى اثنين يرقصان معًا . . ومتباعدان جدا . ولا يكلم أحدهما الآخر . . ثم ينصرفان . فالشاب يتقدم ويقطع تذكرة وتتقدم له فتاة ترقص معه فى مكان عام مفتوح وتنتهى الرقصة ويذهب كل واحد لحاله . أو هكذا يبدو لنا!

وهذا طبيعى فى الرقص، ما دام الرجال يلبسون الملابس على اللحم، والنساء كذلك!

وكل شىء تشتريه هنا يجب أن تفاصل فيه على قدر ما تستطيع فلا توجد أسعار محددة لأى شىء!

بما فى ذلك الفتاة التى تطلبها للرقص على مسافة بعيدة منها!

وفى تلك الأيام شاهدت فيلمًا مصريًا عن بورسعيد . .

لقد ظل هذا الفيلم معروضًا شهورًا طويلة . . واحتجت السفارة الفرنسية على عرضه وظل الفيلم معروضًا . . ورأيت الناس يقفون ساعات لكى يحجزوا لهم مقعدًا، ولم أتمكن من مشاهدة هذا الفيلم، فأنا أعرف بورسعيد، وأعرف كيف كانت لنا . وكيف أصبحت لنا . من الأفضل أن أترك مكانى لمن لا يعرفها!

وكنت أنتقل فى سيارات الأصدقاء . . ولولا ذلك لاضطررت إلى أن أركب البيتشا . . وهى عربة يجرها شاب . . أو عربة تتحرك بقوة ساقى شاب وهو يبدل على دراجته . . وهذه هى وسيلة المواصلات الوحيدة فى البلاد . ومن الغريب ــ أو ليس غريبًا ــ أن هذه البيتشا يملكها رجل صينى!

ربما بدت هذه الملحوظة غير مهمة بالنسبة لك، ولكى أبين لك غرابتها أقول لك: تصور أن رجلا يهوديًا هو الذى يملك الترام والمترو والأتوبيس فى القاهرة الآن؟!

وبعد أسبوع أمضيته فى إندونيسيا، تجمعت عندى كل المؤهلات ــ فيما عدا الشكل ــ التى تجعلنى إندونيسيًا مائة فى المائة . فأنا أحببت البلاد وأحببت أهلها . وأكلت أرزها ولحمها . ولم أعد أخاف من غارات الملايين من بعوضها، وأركب

البيتشا . . وأهم من هذا كله فأنا أضحك بسبب ومن غير سبب . . ومن غير سبب أكثر !

ثم إن هذه البلاد تحتفل بأعيادها يوم ١٧ أغسطس . . ولذلك فأعيادها على مسافة ٢٤ ساعة من عيد ميلادى . . وكل شيء يدل على أن هذا العيد سيكون شيئًا خطيرًا . وقد تلقيت دعوة من وزارة الاستعلامات تدعونى إلى مشاهدة الرئيس سوكارنو وهو يخطب . ثم مشاهدة الحفل الكبير الذى سيعقب ذلك .

ولم أتمكن من متابعة ما تنشره الصحف فى ذلك الوقت . أما الصحف الإنجليزية فهى قليلة والصحف الأمريكية أيضًا . وكذلك الكتب الأجنبية . .

وجاء يوم «توجوبلاس» ومعناها ١٧ أغسطس ، واحتشدت الشعوب الإندونيسية من كل الجزر . .

واستعرضت قوات الجيش . . ومن الغريب أن زوجة أحد الوزراء كانت ضمن الحرس الوطنى . .

وكانت الشمس أكثر التهابًا من حماس الجماهير . .

وخطب سوكارنو . . وفى خطابه عبارات كثيرة باللغات الأوربية . وإشارة إلى «الجحيم» و«المطهر» و«الفردوس» للشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى .

ووصف سوكارنو المراحل التى مرت بها الثورة . . فقال إنها اجتازت (جحيم) الاستعمار ودخلت فى (التطهير) الاشتراكى وهى على أبواب (الفردوس) الموعود .

وتذكرت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد استشهد فى كتابه «فلسفة الثورة» بمسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» للأديب الإيطالى لويجى بيراندللو . . فقد تصورالرئيس عبد الناصر هو وزملاؤه من الثوار أنهم كانوا مثل ست شخصيات عندهم أفكار وعندهم حماس وصدق ، ولكن ينقصهم البرنامج والخطة . .

وطال العرض العسكرى وشوتنا أشعة الشمس . . وخرجت ألهث . .

وفى الليل شاهدنا الحفل الساهر . .

لقد كان استعراضًا لألوان الرقص الشعبى من كل الجزر الإندونيسية . . ألوان وراء ألوان . . والفتيات كل واحدة منهن كالثعبان والموسيقى كالمسامير أو كالنمل قد تسلل إلى

جسمها فيقرصها أحيانًا بإيقاع ونظام موسيقى . . وأحيانًا تكون لسعات النمل بصورة مرتجلة .

ثم صفق الناس إلى غير نهاية عندما ظهرت فتاة ورقصت نصف عارية أو ربع عارية وكان رقصها طويلا جدا . . إنها ابنة سوكارنو!

والرقص من معالم الحياة والثقافة فى إندونيسيا .

إن سوكارنو نفسه لا يجد أى حرج فى أن يرقص . . مع أنه فى هذه الخطبة هاجم الميوعة وهاجم الروك آندرول بالذات . ولم يكن التويست قد ظهر بعد!

وأذكر أن الصديق الأديب عبد الحميد جوده السحار عندما ذهب ضمن وفد ثقافى إلى إندونيسيا سألوه فى المطار : وأين الراقصات؟

وزالت دهشته عندما عرف أن الرقص من أهم الفنون الشعبية .

وأذكر أن سفيرنا أقام حفلة فى بيته وحضر الحفلة عدد كبير من الوزراء ثم حضرها عدد كبير من أبناء الجزر الذين كانوا يطبلون ويزمرون وهم جالسون على الأرض . . وقد اندهشت عندما نهض أحد العازفين وطلب من زوجة أحد الوزراء ، وكان وزير الأوقاف ، أن تسمح له بأن يرقص معها . . ورقصت زوجة الوزير مع ابن الغفير . وعندما أحسست بدوخة كنت أظن أن الدنيا انقلبت ، وأن الدوخة التى أصابتنى تشبه سلندرات مطابع الصحف وأنها إن شاء الله ستكون فضيحة بجلاجل!

ولكن هذه الدوخة كانت شخصية جدا . وأصابتنى وحدى . أما الإندونيسيون فلم يفعلوا أكثر من الضحك والانشغال براقصات أخريات!

والمرأة هنا تستمتع بحريات أكثر . .

المرأة مقياس لحضارة أى مجتمع .

هل هى سيدة؟ هل هى خادمة؟ هل تمشى وراء الرجل؟ إلى جواره؟ أمامه؟ إنها فى أوربا تمشى إلى جواره . وفى أمريكا تمشى أمامه .

ومكانة المرأة تدل على عقلية الرجل . . لأن الرجل هو الذى يضع القوانين وهو الذى يطبقها .

ولا شيء يدل على عقلية الرجل ومدى ثقافته وتقدمه أو تأخره غير نظرته إلى المرأة .

وفى إندونيسيا أرى الرجل هنا يحترم المرأة ويجعلها تقف إلى جواره وأحيانًا يقدمها عليه . والمرأة الإندونيسية هى ست بيت تحب بيتها وتخدم زوجها . ولا ترى عيبًا فى أن تكون ست البيت هى خادمة الزوج . وهى ليست خادمة بعقليتها ، بل خادمة بوظيفتها . ولكن عندما تخرج إلى الشارع أو إلى الحفلات فهى «ست» وهى «أخت» . . وهى محترمة . .

وإندونيسيا تضع الفتى إلى جوار الفتاة فى كل مراحل التعليم بما فى ذلك المرحلة الثانوية ـ على عكس بلادنا . . وإندونيسيا بدأت هذه التجربة فى ظل الاحتلال اليابانى أى من سنة ١٩٤٢ . ونجحت التجربة . ولا توجد فى إندونيسيا جرائم خلقية . لا اغتصاب ولا اعتداء على الفتيات ، لأن الفوارق بين الجنسين متلاشية . فالشاب يشارك الفتاة فى كل مكان . . فى البيت . . ولا أحد يعترض ، وفى الشارع وفى المدرسة والحفلات وفى السينما . . والشاب الإندونيسى لا يعاكس الفتاة فى الشارع . . بل إن الشاب الإندونيسى رقيق جدا . إنه من النوع الذى يعجب الفتاة فى كل مكان . إنه خيالى شاعرى رقيق . .

لها أصدقاء . وبعض هؤلاء الأصدقاء يعرفهم أبوها . وينصحها أن تترك هذا وأن تمشى مع ذاك . ولكن الفتاة الإندونيسية تبقى محترمة فى كل هذه الأحوال . ومن الممكن أن يذهب الصديق إلى بيت والدها . ومن الممكن أن يستأذن الوالد ويترك ابنته مع الصديق دون أن تشعر الفتاة أو أبوها بأى خوف أو ضيق . . أبدًا . . إنها مسألة عادية جدا .

ومن الممكن أن تجد أمام معظم بيوت إندونيسيا فتيات وفتيانًا يتكلمون وعلى وجوههم عبارات طويلة باهتة أو صارخة للحب والهيام . .

سيدات إندونيسيا فى دهشة من سيدات بلدنا اللاتى لا يظهرن فى الحفلات الرسمية .

والحقيقة أن السيدة العربية تدهش للحريات التى تتمع بها الفتاة الإندونيسية . . والبساطة التى تعيش فيها . . ولأن الصداقة والزمالة والحب مسألة عادية جدا لا تحتاج إلى قانون أو إلى تشريع .

والمرأة الإندونيسية تحب البيت والأولاد . وهى ككل النساء تريد أن تكون أمًا وتفضل هذه الأمومة على أى عمل .

والمرأة الإندونيسية رشيقة أنيقة . . وجميلة . لا أعرف كم عدد الإندونيسيات فى القاهرة . ولا أعرف ما هى ملامحهن ولكن الذى أراه بالملايين فاتن ورائع . . إنها رشيقة تراها فى الستين من عمرها فتبدو فى الأربعين ، لقد رأيت فى منزل الصديق أحمد وإلى الذى كان ملحقًا صحفيًا طاهية فى الخامسة والستين . . رشيقة لامعجرة الوجه تمشى على قدميها أميالا كل يوم . . ليس لها كرش . . لا يوجد فى جسمها ملليمتر من اللحم أزيد من اللازم . .

والبلاد كلها غابات . . وفى الغابات يعيش الرجل والمرأة بلا فوارق . . فالغابة لكل الناس . . لا أحد يملك شيئًا . .

وفى الغابات يختفى العشاق واللصوص . . وما أكثر العشاق ، وما أكثر اللصوص !

جلان.. كون ؟!

أعتذر عن عدم ذكر أسماء السادة المحترمين الذى اشتركوا فى حضور هذه الجلسات فقد وعدت . . ووعد الصحفى دين عليه . . لقد كان السفير . . والملحق العسكرى والملحق الصحفى والملحق الثقافى وزوجاتهم . .

والمهم أننى رأيت بعينى ولم أسمع وقد بدأ الفأر يلعب فى عبى فعلا . وبدأت أرى أن لعب الفأر معقول . ولم أعد أحاول أن أجعل من أفكارى مصايد لهذا الفأر ، بل إننى أحاول أن أخطط عبى ليلعب الفأر على أسس رياضية صحيحة !

ولا أريد أن أؤثر فى أحد قبل أن أروى الأشياء الغريبة التى رأيتها وحاولت أن أفهمها . ولم أصل بعد إلى رأى .

يظهر أن هناك روحًا أو نفسًا أو شيئًا مختلفًا عن الجسم . وإلا فما هو الفرق بين الميت والحى . هناك فارق طبعًا . هو هذه الحياة . ولكن ما هذه الحياة؟ نقول : نشاط . . طاقة . . حرارة . دورة للدم . . تفاعلات مستمرة . . لاتتوقف ليلا ونهاراً .

ويظهر أن هذه الحياة أو النفس أو الروح لها وجود حقيقى خارج جسم الإنسان . . ولكن عندما تخرج أو تطرد أو تنطلق من الجسم فإنها تبقى متأثرة بهذا الجسم . فالجسم يشبه الثوب . وإذا كان الثوب مبللا فسيترك أثره فى الروح . وإذا كان من الحرير أو من الشوك أو من النار أو من القلق فإن الروح تبقى بعد الموت كذلك .

وإذا أنت حملت حقيبة ثقيلة لمدة ساعة أو خمس ساعات . . ثم وضعتها على الأرض ، فإن ذراعك ستبقى متعبة كأنك لم تضع الحقيبة بعد . وإذا أنت ركبت باخرة يومًا أو شهراً أو خمسين عامًا متواصلة . ثم نزلت منها إلى الشاطئ فستشعر بعد هبوطك إلى الشاطئ أن صوت البحر ما يزال فى أذنيك وأن الأرض ما تزال تهتز تحتك . .

ويبدو أن هذا هو الذى يحدث للروح . . فهى تعيش فى سجن اسمه الجسم . وكل خلية حية فى هذا السجن عبارة عن قيد، وعن سلسلة . . إنها ملايين السلاسل . . فإذا تم الإفراج عن الروح بالموت، فسيبقى أثر هذه السلاسل، هذه القيود، وستبقى الروح متأثرة بهذه القيود، بهذه الحياة التى قطعتها فوق سفينة قلقة . . سفينة بها عشرات الغرائز التى تشبه قطاع الطرق واللصوص . .

يبدو لى هذا . . . وإن كنت لا أعرف التفسير العلمى الدقيق لما رأيت . .

* * *

والآن أدخل فى الموضوع . لقد حدث هذا كله أمس فى مدينة «بوجور» على مسافة ٧٠ كيلو متراً من جاكرتا . . البيت الذى نحن فيه الآن خليط من أبناء دمياط وجاكرتا . وكانت الساعة الرابعة عصراً، وقد علمت أن هذا الوقت غير مناسب لإجراء هذه التجربة : والتجربة اسمها باللغة الإندونيسية «جالان كون»، ويقال إن معناها «الهيكل العظمى» ويقال ليس لها معنى .

وقد أصدرت الحكومة هنا قراراً صريحًا بتحريم هذه التجربة . فقد شغل بها الطلبة عن مذاكرة الدروس، وقد تفرغت لها العائلات . وهى فى إندونيسيا أكثر انتشاراً عن قراءة الفنجان وفتح الكوتشينة عندنا . .

وفى استطاعتك أن تجربها فى بيتك . . فلم أر أسهل ولا أعجب منها فى حياتى . .

هات سلة . . سلة عادية جدًا . وضع فيها خشبة طويلة على هيئة صليب . وضع على هذا الصليب قميصًا . وفى أعلى القميص ارسم صورة وجه على ورقة وضع فى أعلى الرأس عودين من البخور .

ثم ضع فى مقدمة السلة قلمًا من الرصاص . ضع القلم بين فتحات السلة . وعليك بعد ذلك أن تحمل السلة أنت وصديق لك على أطراف الأصابع . على أن يمسك زميل آخر بورقة أمام القلم . أطلق البخور . وردد كلمات : جالان كون . . جالان بيس . . ومن الممكن أن تقرأ الفاتحة أو أى كلام دينى . .

هكذا سمعت . .

بعد ذلك، أى بعد دقيقة سترى السلة تندفع إلى الأمام وتكتب بلغة الروح التى حلت فى هذه السلة .

تستطيع أن تكلمها، أن تسألها: من أنت؟

وسترد عليك ـ كتابة ـ بلغتها . .

اطلب منها الروح التى تريدها . . ستحضر حالا . .

ومن هذه الأرواح التى رأيت كتابتها روح رجل حشاش توفى فى باب الشعرية اسمه «محمود صالح» . . إنه يروى النكت . . نكتًا قديمة جدا، لم نسمعها أبدًا، ويبدو أنه كان يعمل كناسًا أو بائعًا للخضر فى القاهرة . . ثقافته لا تزيد على ذلك .

وقد لاحظت أن السلة تكتب بلغة عامية جدا .

ملحوظة : اللذان كانا يحملان السلة اثنان من الإندونيسيين ولا يعرفان كلمة عربية واحدة .

ثم طلب الحاضرون روح السيدة «روز اليوسف» ولم أكن موجوداً. فقد شتمت الحاضرين جميعًا .

وكتبت لهم: مفيش معاكم حد صحفى؟

فقالوا: لا . .

كتبت : بلاش لعب عيال . .

وطلبت منهم أن يصرفوها . . وقالوا لها: انصرفى .

وبعض الأرواح تطلب من الحاضرين أن يأذنوا لها بالبقاء . وبعضها يصر على البقاء .

ومن ضمن الأرواح روح رجل اسمه ناصر الدين . . وهو عصبى . . فهو يضرب السلة فى وجوه الحاضرين . ويصر أن يكتب دائمًا . .

وسئلت إحدى الأرواح : ألا يمكن أن تظهر الروح بدون سلة .

فأجابت : هل يمكن أن تمشى من غير ثوب . .

طبعًا من الممكن. ولكن الأرواح يبدو أنها لا تعرف كل شىء . . وإنما هى تتحدث بتجاربها السابقة فى الحياة .

* * *

ولا يوجد ممن يعتقدون فى تحضير الأرواح أحد فى إندونيسيا لا يسأل السلة عن صحته وعن حياته . . وعن مستقبله . . وعن مرضه وعن أحوال الناس الآخرين . . ومتى يسافر فلان ومتى تلد فلانة ومتى تتزوج فلانة . وهل فلان هذا طيب ، وهل زوجته كذلك؟؟

كل أحوال الدنيا والدين ، الكبيرة والصغيرة يسألون فيها هذه السلة . .

وقد أصدرت الحكومة فى إندونيسيا قراراً بمنع استخدام هذه السلة إطلاقًا ، وكان هذا القرار على أثر حادث غريب . فقد شاهد البوليس ثلاثة من الأطفال يحملون فى أيديهم سلة ويمشون بها فى الشارع وكان ذلك بعد منتصف الليل .

والذى حدث أن السلة كتبت لهم : أريد أن أذهب إلى بيت فلان .

وكان هذا البيت يبعد عن العاصمة عشرة كيلو مترات . ولما ضبطهم البوليس مزق السلة واعتقل الأطفال الثلاثة .

وأصبحت هذه السلة ممنوعة .

* * *

وهناك تجربة أغرب من الجلان كون بزمان . .

هذه التجربة رأيتها فى بيت أستاذ جامعى تخرج فى جامعات القاهرة : وعاش فى القاهرة عشرين عامًا . والتجربة تحتاج إلى ضبط أعصاب أكثر . .

اقفل الغرفة عليك . واجلس فى الظلام واقرأ أية سورة من القرآن . . ولكن هذا الأستاذ قال لى إنه يجب اختيار بعض آيات من القرآن . وعندما تختارها اطلب من «خادم» الآية أن يحضر .

أما حضور خادم الآية . فقد كان بصورة غريبة . . إنه يضرب أى شىء فى الغرفة : يزحزح المنضدة أو يضرب الحائط . ولكن لا ترى شيئًا . .

وامسك قطعة من الزجاج الأسود اللون واسأل هذا الخادم أو هذا الجنى أية أسئلة ، وانظر إلى الزجاجة ستجد الكتابة بلون لامع كأنها عقارب الساعة أو كأنها النيون . .

أنا شخصيًا رأيت هذا . . فى أكثر من عشرين بيتًا . .

ولم أجد بيتًا واحدًا لا تحضر فيه الأرواح أو العفاريت أو الجن المسلمون ويكتبون باللغة العربية . والكتابة واضحة جدًا .

والكثير من الشعب الإندونيسي يؤمن بهذه الظواهر ويستخدمها فى حياته اليومية . .

قال لى هذا الأستاذ الجامعى أمام كل أعضاء السفارة المصرية هنا . . إنه يستطيع أن يجرى هذه التجربة أمامى . وأنه يستطيع أن يكسر رجل أى إنسان الآن ، وأنه يستطيع أن يكسر رجل أى حيوان بعد جلسة واحدة فى غرفته هو .

بل إنه ذهب إلى إجراء تجربة على أحد أعضاء السلك الدبلوماسى العربى دون أن يقول له . . أو دون أن يعرف . ولكن التجربة كانت قاسية فأشفقنا منها . . لقد طلب منا أن نوافق على أن نجعله يوقظ هذا الدبلوماسى العربى فى ساعة محددة من الليل . ويجعله ينهض من الفراش ويمسك ورقة وقلمًا ويكتب رسالة نعرفها نحن مقدمًا . . ويذهب بالرسالة ويضعها فى مكان معين نعرفه نحن . . كل هذا وهو لا يعرف .

ورفضنا . . ولكنه يؤكد أنه يستطيع ذلك . . ويؤكد ألوف الإندونيسيين أنهم يفعلون ذلك فى بيوتهم .

والزوج الذى يعرف أن زوجته تشتغل بتحضير الأرواح يخشى على نفسه منها . ولذلك يشتغل هو أيضًا بتحضير الأرواح ويسخر روحًا خاصة لحمايته من زوجته .

إننى لم أسمع مثل هذا العدد من قصص الأرواح فى حياتى كلها .

أما النوم بعد هذه القصص ، وأما الراحة بعد هذه الظواهر الغريبة المفزعة ، فخرافة . . النوم هو أصعب شىء ولكن هؤلاء الناس ينامون وبعمق . . أما أنا فكان الله فى عونى!

وظلت السلة حائرة بين أيدينا طول الليل . أو على الأصح ظلت الأرواح حائرة بين أيدينا طول الليل . . وكلنا يستدعى موتاه أو أقارب موتاه وينتظر وتهتز السلة وتترنح . . ويكتب القلم بلغة لا يعرفها الاثنان اللذان يحملان السلة .

واستدعينا سعد زغلول وبتهوفن وسيد درويش ونابليون وشفيقة القبطية وسارة برنار . .

والسلة عادة تأخذ الأوضاع التى تناسب الروح التى تحل بها . .

فعندما ظهرت روح بتهوفن اعتدلت السلة وراحت ترتجف بجنون . والذين يقولون

«بجنون» يعرفون أن بتهوفن قد وصل إلى حالة الصمم التى أفضت إلى الجنون. . طبعًا واحد موسيقار مثل بتهوفن يصاب بالصمم لابد أن يؤدى به ذلك إلى ما يشبه الجنون أو الجنون نفسه!

وعندما استدعوا روح شفيقة القبطية يؤكدون أن السلة كانت ترقص. على واحدة ونص. . أنا شخصيا لم أتبين ذلك بوضوح وإن كنت لا أستبعد.

وعندما ظهرت روح نابليون كانت السلة ثقيلة وشامخة كأنها مدفع. وأحس اللذان يحملان السلة بشىء من القرف كأنهما يريان خيول نابليون تدوس حرمات المساجد فى القاهرة!

وسيد درويش عندما حل فى السلة مالت إلى جانب ثم عادت واعتدلت وتساقطت على الجانب الآخر. . وتدلى القلم من السلة كأنه الغابة التى توضع فى الجوزة. . ويستنتجون من ذلك أنه صحيح أن سيد درويش كان يتعاطى المخدرات وأن الرجل لم ينكر ذلك عندما استدعوه!

* * *

لعبة مسلية يعلبها الناس فى كل بلاد إندونيسيا.

أنا رأيت هذه الظاهر ودارت مناقشات بهذا الشكل الغريب ودهشتى لم تنته. . وقد لاحظت السلة دهشتى واستنكارى. . وثارت وطالبت بإخراجى من الغرفة. وقالت إن وجودى يضايقها. .

وقلت: إن حركتها تضايقنى وتجعلنى أشعر بشىء من القرف هو خلاصة الخوف والدهشة والاحتقار لها ولنفسى إذا صدقت شيئًا من هذه الخرافات.

ولكن كل هذا الكلام قرأته مكتوبًا أمامى. .

فهاتوا «الشبت» ـ وهى كلمة عربية فصيحة ومعناها «السبت» أى السلة والقلم واسألوها أنتم!

* * *

اليوم ١٨ أغسطس. . .

أحسست فجأة أنه لم يعد عندى ما أقوله. . خلاص. . القلم ريقه نشف والدنيا أمامى

كلها بيضاء . . لقد تعبت عيناى من القراء والكتابة . . كل شىء أبيض كأننى كنت أغمس القلم فى سواد عينى . . فلم يعد سواد .

كنت إذا جلست إلى المكتب أحس أننى بكرش من كثرة المعلومات التى عندى . أما الآن فإننى أرى المكتب يزحف على بطنى ويفصله عن جسمى فأحس كأننى تمثال نصفى استقر فوق الورق لا يكتب ولا يقرأ .

ولكن لابد أن أكتب . . لابد أن أقول شيئًا . . إن كل ما فى رأسى هو بقايا أشياء . . فى رأسى طفاية سجاير وكل ما فيها أعقاب . . رأسى براد شاى شربوه ، ولم يبق فيه إلا التفل . . وقلمى هذا هو «بزبوز» البراد . . إنه مسدود . . وبين الحين والحين تنزل قطرة .

إننى أكتب هذه السطور وأبتسم . .

إنها ابتسامة رجاء ، ابتسامة دعاء ، ابتسامة توسل . . ابتسامة هى بقايا ثقة فى النفس . . ابتسامة الشحاذ للمارة فى الشارع . .

ولكن ولا فكرة فى رأسى . .

إنها ابتسامة تشبه اللمعان والبريق الذى يسبق التقاط الصور . . ابتسامة تضىء لأفكارى الطريق إلى الورق . . ابتسامة أطلقها قبل التقاط أفكارى الهاربة .

إن قلمى يلتوى فى يدى . . وهذه الابتسامة تشبه «الجوهرة» التى تخرج من فم الثعبان لتضىء له الطريق إلى أوكار العصافير . .

إنها تشبه المشاعل التى كانت تلقيها الطائرات قبل إصابة الهدف ومع ذلك ليست فى رأسى فكرة واحدة . .

لا عصافير ، ولا صور ، ولا أهداف . . لا شىء

أريد أن أقول : إن اليوم هو عيد ميلادى .

طبعًا مسألة شخصية لا تهم أحدًا . . وإذا حاولت أن أجعل لها مناسبة فسأخترع قصة كفاح . . قصة اللبن الذى هزته الأيام حتى جعلته زبدة . . هذه الزبدة هى أنا وحياتى الآن . .

قصة الحديد الذى دخل النار فأصبح صلبا لامعا طريا . .

هل أقول كنت طالبًا فقيراً من أب فقير . . كافح هذا الأب حتى أكمل تعليمى . .

قصة ابن لأم مريضة تعبت وشقيت حتى تعلم ابنها وعمل .

لا أقول هذه القصة ولا أحبها وأرفضها فهى مليئة بالادعاءات . . فأولا: أتصور أننى كنت فقيراً وأنا اليوم غنى . وهذا وهم . .

ثانيًا: كأننى أقول إننى كنت لا شىء ثم أصبحت شيئًا . . وهذا وهم . .

وثالثًا: كأننى أريد أن أقول إن المسافة بينى الآن وبين الماضى قد بعدت فى الزمان وبعدت فى المكان، وأننى لابد أن أذكرها حتى لا ينسى الناس .

الناس؟ وهل هذامما يعنى الناس؟ إن أحداً لا تعنيه هذه القصة . .

ثم هناك وَهْم آخر وهو أننى قطعت الطريق وحدى دون مساعدة من أحد . أو دون حظ؟

لا شىء قد تغير . . لا شىء . . فأنا ما أزال فقير النفس . . متسول العقل . . مهلهل القلب . . وأنا وأفكارى وعواطفى على باب الله . . !

أما لماذا أكتب الآن . . فالسبب هو أننى أسجل مولداً جديداً . .

مولدى الجديد . .

فقد تلقيت من «مصطفى أمين وعلى أمين» ثلاث برقيات . كل واحدة منها هى شهادة ميلاد .

قالت البرقية الأولى: موضوعك من الدلاى لاما ممتاز نشرناه فى الصفحة الأولى من أخبار اليوم . . موضوعك عن مشكلة كيرلا منشور فى الصفحة الأولى من أخبار اليوم . . وصورتك مع رئيس وزراء ولاية كيرالا منشورة على ثلاثة أعمدة فى الصفحة الأولى . . أهنئك على نجاحك المتواصل الذى يقدره الجميع هنا .

والبرقية الثانية تقول: موضوعك عن عرابى باشا ممتاز أهنئك ولك أحسن التمنيات . والبرقية الثالثة: موضوعك عن عرابى باشا ممتاز ستنشره آخر ساعة بصوره ووثائقه أهنئك وأتمنى لك حظا سعيدا .

لم أطفئ شمعة وإنما حملت هذه البرقيات وصنعت منها شمعة وأشعلتها هناك بعيداً . . بعيداً فى أعماقى . .

* * *

وانتهزت هذه الفرصة السعيدة ، أو التى يجب أن تكون سعيدة ، ودعوت عدداً من الأصدقاء إلى أن يتناولوا طعام الغداء على حسابى . .

وليس معقولا أن يقبلوا الدعوة . . فأنا ضيف عليهم . وقبلوا الدعوة ولكن بشرط أن أكون أنا على حسابهم . وهذا ما توقعته عندما دعوتهم طبعاً !

ولكنها حركة مكشوفة من جانبى كما فهمت . وأنا معذور فالفلوس لا تصل هنا إلا بصعوبة . والفلوس هنا لها أكثر من سعر . فى البنك لها سعر . . وأمام البنك لها سعر . . وفى الشارع بعيداً عن البنك لها سعر . . ولكن الروبية الإندونيسية لا قيمة لها إطلاقاً فى أى بلد آخر . . إنها تشبه تذاكر الترام ، لا يمكن الاستفادة منها إلا فى ترام جاكرتا !

وذهبنا إلى المطاعم الصينية . وكانت هذه فكرتى وكنا خمسة : سيدات ورجالا . . وجاء الجرسون الصينى وقدم لنا قائمة الطعام . . والحقيقة أنها قوائم الطعام . .

وبدأت المناقشات الغريبة :

ـ من فضلك هات نمرة ٩٢ . . خمس مرات . .

هذا الرقم هو أحد مائة صنف مكتوبة على قائمة طعام طويلة جدا وباللغة الصينية وترجمتها بالإندونيسية .

ـ يعنى إية نمرة ٩٢؟

ـ إنهم يضعون لكل طعام نمرة . . ونمرة ٩٢ هذه نوع من العصافير المشوية .

وبعد دقائق جاء الجرسون ومعه عشرات الأطباق . . الشوربة بالشطة أو الشطة بالشوربة وأكوام من الأعشاب من بينها أشجار الخيزران الخضراء المسلوقة . . وأعشاب أخرى تشبه البرسيم . وحشرات تشبه الأسماك التى توحمت على الجمبرى . . وأكوام من الأرز المسلوق والمسحوق أو المعجون . . وبدأت المناقشة مرة أخرى :

ـ معقول ده عصافير؟

ـ طبعًا أمال يعنى أرانب . .

ـ أرانب يا شيخ بلاش قرف والنبى بلاش تجيب سيرة الأرانب أحسن نفسى تغم على . . إنها تشبه الفئران .

ـ بلاش سيرة الفيران من فضلك . . أحسن أنا عندى قصة مقرفة .

ـ بلاش دلوقت . . خليها لبعد الهباب ده . . وده إيه ده؟!

ـ ده سرطان البحر . . .

ـ أعوذ بالله . .

ـ من حق، هيه حرم زميلنا « . . . » عندها إيه؟

ـ بلاش السيره . . ربنا يشفيها وخلاص . . ربنا ما يكتب علينا المرض فى إندونيسيا . . ده حتى الأسبرين بالروشتة . . شربة الزيت بالروشتة . . لا المرض هنا ولا الموت هنا . .

ـ ما حدش يعرف نكتة يا جماعة . .

ـ أى والنبى . . بقى ده معقول عصافير . . وناشفه كده ليه . . أمال فين الأجنحة بتاعتها . . وفين الكبدة والقنصة . . اسأله كده . .

ـ جرسون . . بس مش عارف كبدة يعنى إيه باللغة الإندونيسية . .

وراح يشير إلى قلبه وهو يقول للجرسون أنه يريد شيئًا كهذا . . واختفى الجرسون وعاد ومعه كمية من البصل . . وضحكنا؟

ـ أما لو كانت دى أرانب . . تبقى مصيبة . .

ـ حرام عليك . . أرانب فى البلاد الحارة دى . . أعوذ بالله . . حترجع ثانى . . أف . . يا خبر . . إيه النار دى . . نار .

ـ وحشة خالص . . .

ـ بتتكلموا جد . . .؟!

ـ بنضحك . . المطاعم الصينية نظيفة جدا . . ويمكن الاعتماد عليها دائمًا .

وأحسست بالملل كأننا فى الفصل الأول من قصة «عودة الروح» لتوفيق الحكيم . . ففى

هذا الفصل تدور المناقشات حول ورك الوزة وطوله وعرضه ومن الذى أكله ومن الذى اشتراه ومن الذى يطبخه . . إلى أن ظهر لنا صديق سادس وسحب مقعداً وجلس إلى جوارنا . . وطلب هو الآخر رقم ٩٢ وبدأ يتكلم مباشرة :

ـ تعرفوا أن أحسن أنواع الضفادع هى التى أكلتها فى باريس . .

ـ إزاى؟

ـ إنها طرية لينة لها طعم لذيذ . . ولكن هنا وأشار إلى الأطباق التى أمامنا . . جافة لأنهم لا يعرفون كيف يحمرونها فى السمن . . ثم إنهم يقتلونها . . طبعًا لا يذبحونها . . وهى صغيرة . . هات شطة يا جرسون . . إيه ده . . يا نهار . .

واكتشفت بعد ذلك أن هذا الذى أكلناه ، لا هو ضفادع ولا هو أرانب . . ولكن حشرة أخرى . . تمشى وتنام على الجدران!

* * *

وضحكت كثيراً فى ذلك اليوم على الطريقة الإندونيسية أو على الطريقة المصرية . . ومن غير سبب ولسبب . .

ولم أكد أصل إلى بيت صديقى أحمد والى حتى سألنى سؤالا غريبًا ، وطلب منى أن أجيب عنه بسرعة . قال لى . معاك فلوس قد إيه؟

قلت : ليس كثيراً .

قال : كم؟

قلت : مائة جنيه! لماذا؟

قال : كم ورقة؟

قلت : عشر ورقات!

قال : يا نهار أسود . . أخيراً وجدت لك عملا فى إندونيسيا .

قلت : لا أفهم .

قال : فى استطاعتك أن تدق الأبواب وتقول لله يا أسيادى!

. . . . لقد خفض الرئيس سوكارنو قيمة الورقة من فئة الألف روبية إلى مائة روبية والورقة من فئة الـ ٥٠٠ إلى ٥٠ روبية . .

وكان الغرض من هذا القرار هو القضاء على التهريب الذى يتولاه الصينيون إلى خارج إندونيسيا.

وأعلن الراديو أن الرئيس سوكارنو سيشرح الموقف للشعب. وجاء فى بيانه الذى استغرق ١٢ دقيقة وأعلن فيه أنه راض تمامًا عن هذا القرار وأنه يراه ضرورة لابد منها. وأن الطبيب يلجأ أحيانًا للدواء المر لشفاء المريض. ولكن لابد من الصبر والتضحية.

وأقفل الناس الراديو وعادوا إلى الكلام عن تخفيض العملة. وغلبت الابتسامات على الحادث، آه على الكارثة التى حلت بى فى ذلك اليوم السعيد . .

إننى مع الأسف لا أستطيع أن أمد يدى إلى أحد، فمددتها أمامى، ثم رفعتها إلى أعلى وطلبت من الله أن يغنينى عن السؤال!

أجراس طول الليل!

اليوم سافرت إلى باندونج. . الطريق إلى هذه المدينة التاريخية جميل. فيه غابات وأشجار ومياه وجبال وبراكين. . وحمامات للسباحة لا أعتقد أننى رأيت لها مثيلا فى أى بلد فى العالم. . إن مساحة بعض الحمامات تساوى مجموع الحمامات الموجودة فى كل نوادى القاهرة. . بل إنها أروع وأجمل. .

أما جاكرتا فحارة جدا. . والهواء يبدو أنه معتقل. . ومدينة جاكرتا تسمع فيها أجراسًا غريبة طول الليل. .

ولكن إذا خرجت من تحت الناموسية واجتزت حديقة بيتك ــ كل البيوت لها حدائق ــ فستجد أنهم مجموعة من الباعة المتجولين. . كل بائع له نداء خاص، أقصد له جرس خاص.

ومع هذه الأجراس ستجد كلمات غير مفهومة: آه. . أوه. . آى. . آى. . إنهم ينادون على اللحوم والأرز والشاى والفواكه. . فالمحلات التجارية تتركز فى بعض المناطق. . ولا تجدها فى مئات الشوارع ولا توجد وسيلة للمواصلات فى جاكرتا إلا الريكشا ويسمونها البيتشا. .

وجاكرتا تشبه بيروت. وقد لا تجد الهواء فى «ساحة البرج» اللبنانية إلا بصعوبة فى حين أن جبال لبنان رائعة. إنها تشبه جبال المغناطيس فهى تجذب كل ما فى جيوبك من مال وأنت سعيد!

وجاكرتا تشبه «بون» عاصمة ألمانيا الغربية. . فهذه المدينة هى قرية صغيرة منخفضة أيضًا وليست صحية. . بل إن الناس يشكون فيها من الإرهاق والتعب المستمر. . لقد

مكثت فى بون أسابيع عديدة وكنت أنهض من النوم وأنا مريض فعلا كأننى كنت أنام تحت السرير. أو كأن السرير كان يتمدد فوقى..

أما باندونج هذه فهى جميلة.. مدينة أوروبية.. فيها فنادق ممتازة نظيفة وفيها نواد ليلية. وفيها كل شعوب العالم. ولكنها فى الوقت نفسه مدينة إندونيسية فالفنادق قليلة ومزدحمة.

وقد طرقنا الفنادق واحدًا واحدًا.. ولم نجد غرفة واحدة، وأخيراً عثرنا على زميل قديم فى الدراسة. إنه يعمل أمينًا لأرشيف السفارة العربية هنا وكان ينزل فى غرفة بها سريران وتنبهت إدارة الفندق إلى أننا سننام جميعًا فى غرفة واحدة.. وهذا ضد اللوائح. ولكننا قررنا أن نبيت فى هذه الغرفة وإدارة الفندق قررت أن يبيت اثنان فقط.

وكنا نتناوب البقاء فى هذه الغرفة. واحد يبقى فى المطعم واثنان فى الغرفة فإذا جاء الليل سهرنا حتى ساعة متأخرة جدا. وننتهز فترة نوم الخدم ونتسلل إلى الغرفة.. حتى الصباح.

وكل غرفة مزودة بكتاب من ست صفحات يحدثك عن كيفية استخدام التليفون الأتوماتيكى ــ أى العادى عندنا ــ ومعظم الفنادق هنا لا توجد بها تليفونات وإذا وجد فهناك خط واحد فقط!

ومع ذلك فباندونج أحسن وأجمل مدينة فى إندونيسيا كلها!

* * *

والمرأة الإندونيسية تعيش حياة المرأة الأوربية. وهناك فتيات جميلات يمشين بالجملة فى الشوارع ويبتسمن لك ابتسامات عريضة جدا. ونحن فى القاهرة نقول عن البنات الجميلات إنهن بنات نادى الجزيرة أو شارع سليمان باشا وهنا يقولون: بنات شارع آسيا وأفريقيا الذى عقد فيه مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥.. أو بنات: آسيا أفريقيا... أ. أ..

وكنت أظن أن «أ. أ» معناها فى اللغة الإندونيسية أنهن جميلات جدا أو درجة أولى.. ففى اللغة الإندونيسية لا يوجد جمع. فلا يوجد. رجال أو أشجار أو بنات.. وإنما يوجد رجل رجل.. أو شجرة شجرة.. أو بنت بنت.. فتكرار الكلمة الواحدة معناه الجمع.. وهم الآن يضعون فوق كل كلمة رقم ٢ للدلالة على أنها جمع..

فبنات باندونج تستطيع أن تضع فوق كل واحدة منهن رقم ٢، ٣ ، ٤ فهن أجمل ما فى شارع : أ : أ! أى آسيا وأفريقيا!

والذى يرى غابات وبحيرات وجبال إندونيسيا . وحقول الأرز يشعر فعلا أنه أمام مائدة ضخمة . . مائدة خضراء عليها أطباق جميلة وبها ملاعق من ذهب وشوك من فضة وجرسونات وطهاة كلهم ممتازون .

ولكنك فى كل مكان تجد الناس يضحكون . . إنهم شعب ضاحك ولكنهم شعب قليل المرح . . فهم أكثر منا ضحكًا ولكنهم أقل منا مرحًا .

والفرق بين الضحك والمرح كالفرق بين الذى يأكل الكثير من الطعام وبين الذى يتذوقه ويبتدع فيه أشكالا ألوانا . . ونحن أكثر ضحكًا من الشعب الإنجليزى ولكننا أقل منهم مرحًا . . فليس عندنا أديب جعل من المرح فلسفة ومن السخرية سلاحًا كما فعل برنارد شو وأوسكار وايلد ووبند هام لويس .

فالرجل الإندونيسى ضاحك دائمًا . . بل إنه مغرق فى الضحك ولكنه لا يدرك النكتة ولا يخترعها . . ولا يطلب المرح ولا يتفنن فيه . . ويظهر أن المستعمرين لم يتركوا لإندونيسيا شيئًا إلا الكنوز المطمورة فى الأرض . والذى تركوه لإندونيسيا يحتاج إلى صيانة ودفاع . فإندونيسيا لها شواطئ ٣ آلاف جزيرة لا يمكن الدفاع عنها . . . ولذلك كانت ثروات إندونيسيا فى غربال أو مصفاة ، فهى تتساقط من تلقاء نفسها . .

والذى يهز الغربال ويضغط على المصفاة هم الصينيون . . إنهم أنشط الناس وهم الأقلية والإندونيسيون هم الأغلبية .

ولكنهم يضحكون . . دائمًا . . حتى إذا لم يكن على المائدة طعام وهم سعداء بالطعام الذى تعلن عنه الأجراس!

الجو هنا جميل ونظيف . . فباندونج عالية بعيدة عن سطح البحر ومحاطة بالغابات من كل الجهات . والناس هنا أحسن مزاجًا وأصفى بشرة . وقد تعودوا على رؤية الأجانب ولذلك فهم لا يندهشون لوجودهم . .

ومن الغريب أنك تجد عددًا من الهولنديين الذين كانوا مستعمرين لإندونيسيا وبعض هؤلاء الهولنديين يحدثك عن خيبة الأمل التى ستصيب إندونيسيا بعد خروجهم منها لأن الإندونيسيين لن يتمكنوا من زراعة الشاى ولا استخراج البترول ولا استخلاص الحديد من الأرض . . بينما كانوا أثرياء أيام الاستعمار الهولندى .

واللهجة معروفة لنا نحن أيضا . لقد قالها الفرنسيون والإنجليز والأتراك عندما أخرجوا من مصر . وقالوها عندما أممنا القناة وتوقعوا أن تقف الملاحة وأن تهجم الصحراء على القناة فتسدها وتتحول السفن كلها إلى رأس الرجاء الصالح . .

وكل ذلك ؛ لأن المستعمرين قد تركوا هذا الفراغ الهائل الذى توهموا أنه سيبلعنا! وهو كلام لا معنى له . ولابد أن يقوله الرجل الأبيض الذى خرج من أفريقيا السوداء وآسيا الصفراء!

وقد حدث فى أحد المطاعم أن تعرفت على سيدة هولندية هى وزوجها وقد تأكدت من أنه زوجها لأنه لا يتحدث معها كثيراً أو قليلاً . وإنما ينظر إليها كما ينظر إنسان إلى فيلم رآه عشرين مرة، أو إلى نكتة بايخة سمعها ألف مرة . . وفى كل مرة يلمسها يعتذر لها . . أو يعتذر إلى يده التى أخطأت الطريق إلى فتاة أخرى تبعد عنا بمسافة شخصين يلتهمانها بالنظر وبالكلام وباللمس . . والدفاع عنها بالحملقة إلينا!

قلت للزوجة الحزينة : جميلة إندونيسيا؟

قالت : جدا . . هل أعجبتك؟

قلت : جدا . .

قالت : أى شى أعجبك فيها؟

ــ بساطتها . . ورقتها . . وضحكاتها .

ــ كم يومًا عشت فيها؟

ــ ليس العمر بالأيام ولا بالسنين . .

ــ شاعر أنت؟

ــ العواطف هى التى تخلق الصورة التى يعبر بها الإنسان . فاللوحة تختار الإطار الذى يناسبها . . والطعام يختار الطبق الذى يناسبه . فأنت لا تضعين اللحم فى كأس . . ولا تضعين النبيذ فى طبق .

ــ إذا لم يكن هذا شعرًا فما الذى تسميه؟

ــ أسميه صدقًا فى التعبير أو محاولة لأن أكون صادقًا معك . .

ـ معى أنا؟

ـ هل عندك مانع من أن أكون صادقًا معك؟ . . وهل الصدق معك من اختصاص رجل آخر؟ هل تجاوزت حدودى؟ أنا آسف!

ـ لا أسف أبدًا. إنما أنت وصلت إلى نتائج بعيدة عن خيالى وبسرعة.

ـ أكرر أسفى.

ـ أؤكد لك أنك أخطأت فهم ما أقول. . إنما أنا أتحدث عن إندونيسيا. وعن الصدق عامة وليس عن الصدق معى. .

ـ ولكنى أتحدث إليك. . ولا أتحدث إلى الشعب الإندونيسى.

قالت: اسمع هل فى نيتك أن تفسد هذه الليلة الجميلة؟

قلت: إنما حاولت أن أكهربها. أن أثير فيها بعض العواصف. . لكى نواجه هذه العواصف بأن يمسك كل منا بالآخر ضد الريح وبذلك نصبح كأننا حائط منيع!

قالت: ومن أين تهب الريح؟

قلت: من هنا.

والتقت عيوننا عند رجل واحد. .

وضحكت وهى تقول: إنه ابنى من زوجى الأول. . وكان إندونيسيا!

وكنت أظنه صديقها. . وكنت أظنه قد تجاهلها وانشغل عنها!

واستمعت من هذه السيدة إلى حماقات الرجل الأبيض فى إندونيسيا ـ ولم أشأ أن أحدثها عن حماقته فى بلادنا. وكلامها معناه أن هذا الرجل الأبيض لو التزم العقل والحكمة، لكان ما يزال على قيد الحياة هنا. . ولظل سيداً لمصير هؤلاء الملونين. .

والسيدة الهولندية الأب، الإندونيسية الابن. لم تدرس التاريخ. . ولو درست التاريخ لعرفت أنه يحتم خروج الرجل الأبيض. . سواء كان مهذبًا أو حقيراً.

فلا بد أن ينتهى الاستعمار. . والاستغلال. .

ولابد أن تعود كل أرض إلى أهلها. . ولابد أن تعود كل قطعة أرض إلى الذى يحرثها وتتسابق على سطحها حبات القمح مع حبات العرق!

وتفضلت هذه السيدة ووجهت للشعب الإندونيسى نصيحة يعرفونها جيداً وهى أن الهولنديين كانوا أرحم بزمان جدا من أبناء الصين . فالاستعمار الهولندى كان واضح اللون، أما الاستعمار الصينى فهو يتستر وراء نفس اللون الإندونيسى . . فملامح الجسم واللون واحدة . ثم إنهم آسيويون ومعظمهم عنده الجنسية الإندونيسية . . ولكنهم يودعون أموالهم بعيداً عن هذه البلاد!

واتجه الحديث عن الأسعار والمنتجات التى تبيعها مدينة باندونج . .

وسمعت نصيحتها وذهبت فى الصباح الباكر إلى محلات بيع الجلود . . فلم أجد جلد التمساح رخيصًا كما قيل لى . . فقد وجدت أن جلد التمساح الذى طوله متر ثمنه حوالى ثلاثة جنيهات . وقد رأيت أن هذا الثمن بالمقارنة إلى الفلوس القليلة التى معى غال جدا، وحاول أحد الباعة أن يعطينى أسرة كاملة من التماسيح بعشرة جنيهات ولكنى رفضت مدعيًا أن التماسيح فى السودان أرخص . والبائع يناقشنى عن مكان السودان . ولكن لهجتى الحادة القاطعة جعلته يتراجع ويرتطم بالحد الأدنى للأسعار . . ويقف عند العشرة جنيهات!

وبحثت عن الأقمشة، على سبيل الفرجة . .

ولاحظت أن الألوان صارخة، وعليها لوحات فنية . . ولكن الذوق مش ولابد . أما التماثيل المصنوعة من الخشب ومن العاج ومن العظام فهى رائعة ورخيصة جدا . ووجدت أنه من السخف أن أملأ حقائبى بهذه التماثيل . لا لشىء إلا لأنها رخيصة!

وحاولت أن أشترى بنطلونًا . .

ولم أجد مقاسى فى أى مكان . . ولم يحاول أحد أن يعدنى بتفصيل بنطلون على قدى . . أو يعدنى بالانتظار حتى يموت أحد الأمريكان ثم يبيعنى بنطلونه .

وعدلت عن الشراء نهائيًا . . وتولانى فزع غريب عندما سمعت أن الثوار ــ هناك ثوار ضد الحكم القائم ــ يحاولون الزحف على باندونج . . وأنه لن يمضى وقت طويل حتى نكون أسرى حرب . .

وقد سمعت أن هؤلاء الثوار قد ألقوا القبض على السفير المصرى . ولم يتركوه إلا عندما تأكدوا من أنه عربى وأنه مسلم . فقد أرغموه على الصلاة وطلبوا إليه أن يقرأ الفاتحة وقرأ الفاتحة . ثم طلبوا إليه أن يؤذن للصلاة . وأذن للصلاة .

ثم اختلف هؤلاء الثوار فيما بينهم . . فبعضهم تشكك فى أن يكون هذا السفير عربيّا . فوجهه أبيض أميل إلى الحمرة . وعيناه خضراوان وشعره أصفر ثم إنه يرتدى الملابس الأوربية . .

وأخيرًا اتفق الثوار على أن يطلبوا إليه أن يقرأ سورة معينة من القرآن .

وشاءت الصدفة أن يكون السفير قد حفظ القرآن . . جانبًا من القرآن عندما كان طفلا فقرأ هذه السورة . . واستوقفوه ليتلو آية بالذات عدة مرات .

وتأكدوا أنه عربى وأنه مسلم وأنه ليس جاسوسًا أمريكيّا أو إنجليزيّا يعمل لحساب الحكومة ضد الثوار .

ومن الصدف النادرة أن هذا السفير كان يقود سيارته بنفسه . .

وتستطيع أن تتخيل الرعب الممزوج بالإغماء الذى شل حركة السفير وهو يقود سيارته بعيدًا عنهم .

وقد أقسم لى كثيرون من العرب ومن المصريين ومن الرسميين فى باندونج أن هذه الواقعة قد حدثت . ولكنهم نفوا أن يحدث أى زحف على باندونج فهم لا ينكرون وجود ثوار، ولكن ينكرون أنهم بهذه القوة!

وربنا ستر ولم يحدث هجوم . . ولذلك عدنا سالمين إلى العاصمة . فريسة للبعوض من جديد!

أنا فى جزيرة النهود

الشيء المثير الذى كان يجذب السياح إلى جزيرة «بالى» هو منظر النساء عاريات الصدر . .

إن السياح يجيئون إليها من أنحاء العالم لكى يشاهدوا تقاليدها ومعتقداتها التى تختلف تمامًا عن تقاليد ومعتقدات الـ ٢٤٩٩ جزيرة أخرى . .

إن إندونيسيا بلاد إسلامية ولكنها تحترم معتقدات الأقليات فيها . . وكأن بالى «أقلية» صغيرة وسط الشعب الإسلامى فى هذه الجزر . ومع ذلك حافظت حكومة إندونيسيا على حرية العقيدة فى الجزيرة الصغيرة الشهيرة .

جزيرة بالى يسمونها جزيرة النهود لأن معظم نسائها يعشن عاريات الصدر .

والذين سافروا إلى بالى إذا سألتهم قالوا لك إنهم ذهبوا ليروا الجبال الرائعة والطبيعة الغنية والموسيقى الساحرة . . إلى آخر هذا الكلام ! !

إننا نعيش فى عصر جين راسل وجينا لولو وصوفيا لورين وكلوديا كاردينالى ، وكلهن ذوات صدور عارية شامخة ، وقد وصفت الدعاية السينمائية جين راسل بأنها صاحبة الصدر الذرى ـ نسبة إلى القنبلة الذرية ـ ولكن عندما رأيناها فى القاهرة وجدنا صدرها ذريًا فعلا ، ولكن نسبة إلى كيزان الذرة .

والصدور العالية مسألة مهمة شغلت الفنانين والأدباء والشعراء . . ويقيم فى هذه الجزيرة عشرة فنانين أوروبيين لا يرسمون إلا الصدور العارية فقط . .

وشاعرنا نزار قبانى له ستة دواوين فى وصف النهود . . وشاعرنا علىّ محمود طه عندما رأى تمثال ڤينوس عاليًا وصفها بأن لها ثديين عاليين «كأنهما يرضعان القمر» .

والفتاة اليوم لا تريد ـ إذا تزوجت ـ أن يكون لها أولاد، حتى لا يفسدوا صدرها بالرضاعة فيترهل. . وقد عرفت شركات الجمال هذا الخوف عند المرأة فصنعت لها «السوتيانات» أشكالا وألوانًا، من الحرير ومن الكاوتش. .

* * *

ارتفعت بنا الطائرة فوق السحاب. وعلى الرغم من أنها بمحركين فإن طائرات «جارودا» الإندونيسية جيدة، والخدمة فيها ممتازة أيضًا، وبعد ساعتين نزلنا فى مطار سورابيا. . ثم عادت الطائرة إلى الارتفاع فوق سحب كثيفة واهتزت بعنف حتى أحسسنا بأننا سنموت دون أن نرى «بالى» أو الجزيرة التى سقطت من الجنة.

ويقال إنها سقطت من بين قدمى آدم عليه السلام.

و«بالى» تبعد عن القاهرة. . كثيراً جدا، والفرق الزمنى هو ست ساعات وحين يخرج الناس من دور السينما عند منتصف الليل فى القاهرة، نصحو نحن من النوم. . ومساحتها نصف مليون فدان، وتقع تحت خط الاستواء بثمانى درجات. . فنحن هنا فى نصف الكرة الجنوبى. . وليس عندنا أمطار وإن كنا قريبين من الشتاء، وعندنا درجة رطوبة عالية، والذى يرى الشمس عند الشروق، يجدها قطعة من النار الملتهبة، حمراء ذهبية دامية، بل إن أشعتها نزيف من الدم. . أو شلال من الدم. . أو طاقة مفتوحة فى حائط جهنم.

وعندما هبطت الطائرة إلى أرض المطار فى مدينة دنباسر التصقت وجوهنا بالنافذة نريد أن نرى سكان بالى. . طبعًا لم نجد إلا رجال المطار فى أيديهم جرادل الماء وسلالم وأعلام حمراء وبيضاء، وفى ملابس كاملة، ودخلنا الجمرك وتم تفتيشنا بدقة، مع أننا قادمون من جاكرتا، أى من عاصمة إندونيسيا.

وركبنا السيارة إلى «فندق بالى» الكبير. وفى الطريق إلى الفندق كنا نختلس النظر إلى المارة.

وبعد ذلك عندما اقتربنا من المدينة رأينا البنات يركبن الدراجات، بالألوف. . وجوههن سمراء، والبشرة ناعمة، والعيون حلوة، والشعر طويل ناعم وعليه عمامة بيضاء، كأنهن خرجن من الحمام توًا. والسيقان ممتلئة كأنها من الصلب المرن. .

ورأينا النساء جميعًا فى ملابس عادية. وكنت أتطلع إلى وجوه الركاب. إنهم جميعًا يخفون شعورهم. وكان إلى جوارى رجل أمريكى. قلت له:

ـ ما رأيك؟

قال: وأنت ما رأيك؟

ـ فقدت النطق. . فين الـ . . .

ـ يظهر أن المرأة أكلت صدرها. . . لقد اختفى!

وكان العرب فيما مضى يقولون «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها». . أى أن المرأة الحرة تفضل الموت على أن تعرى صدرها أو على أن تبيع نفسها. .

والعرب طبعًا لم يدركوا عصر المرضعات والدادات والممثلات والراقصات. اللاتى يعشن من صدورهن وهن فى الوقت نفسه يستمتعن بالحرية وأشياء أخرى كثيرة!

ولم يعرفوا أن هناك جزيرة اسمها بالى تعيش على ثدييها. فذهب الناس إليها وانفقوا ملايين الجنيهات فاشترى بعض النساء البلوزة والسوتيان!

وإذا عرفت البلوزة والسوتيان فلن يجىء إليها الناس بعد ذلك!

وفى كل الشوارع تجد عشرات المعابد. . وهى تشغل مساحات كبيرة من الأرض، والناس هنا يفضلون تقديم الهدايا للتماثيل على أن يأكلوها. . ويفضلون الحياة فى ظل المعابد. .

وفى الليل تسمع أنواعًا غريبة من الطبول.

فالديانة هنا هى الهندوسية، وهى تختلف عن ديانة الهندوس فى الهند، فقد أضاف إليها أهل بالى الكثير من الخرافات. .

فالرجل من حقه هنا أن يتزوج أكثر من امرأة، والرجل من حقه أن يطلق زوجته.

ولكن الجزيرة ظلت معزولة عن الدنيا لم يمسها أوربى واحد إلا فى سنة ١٥٩٧، وكان هولنديًا، ومن يومها دخلها الهولنديون بالتدريج ولم يحكموها حكمًا مباشرًا إلا فى سنة ١٨٨٢، ومع الهولنديين دخل المسيحيون وبعض الهندوس أيضًا، أما المسلمون فقد جاءوا بعد ذلك بمئات السنين. .

والجزيرة لا تعتمد كثيرا على السياحة، وإنما تعتمد على الزراعة وعلى صيد الأسماك وزيت جوز الهند. . والسياحة فى أيدى الصينين. . وفى كل مرة تجد معبدًا إندونيسيا، تجد إلى جواره فندقًا ومطعمًا يملكها رجل صينى.

وكل شىء فى هذه الجزيرة له قصة، والقصة لها رقصة، والرقصة لها موسيقى، ولها أوقات . .

فالسنة هنا ١٣ شهراً تبدأ بنياثر وتنتهى بشهر أفير . . وعدد أيامها ٢١٠ أيام، ولا يمضى يوم واحد دون أن يكون هناك احتفال لأى سبب. فالكثير من أهل الجزيرة يحافظون على تقاليدهم الموروثة . .

فالأم عندما تحمل، يجب أن تحتفل الأسرة بهذه المناسبة السعيدة، فيجىء الراهب ويقرأ قصص البطولة على الأم.

ويروى لها قصص الأخلاق الكريمة، ومعه تدق الموسيقى . .

وعندما يولد الطفل تحتفل الأسرة بهذا الضيف الجديد وتستقبله استقبالا حارا، ويذهب كل أفراد الأسرة إلى الغابات فيجمعون ورقة من كل شجرة بحيث لا يزيد عدد أوراق الشجرة على ٧٤٢٥ ورقة!

ثم يضعون هذه الأوراق تحت قدمى الأم، وعلى الأم أن تخطوا عليها اورقة ورقة، والراهب وراءها يسدد خطاها ويتمنى أن يعيش ابنها بعدد الأوراق ٧٤٢٥ مرة! . . ثم يحرق البخور ويأكلون جميعًا عشرات من أطبقات الأرز المسلوق الموضوع فوق أوراق الموز، ثم يأكلون رجل سلحفاة مائية . . ويشربون عليها عصير الدوم، ثم بعض الأسماك المجففة.

وبعد ثلاثة أيام يعاد الاحتفال بالطفل الصغير . .

ولكن فى هذه المرة يجب على الأم أن ترقص مدة ساعة . . ومعظم النساء يرقصن مدة ثلاث ساعات بلا توقف.

وعندما يصبح عمر الطفل ٤٢ يوما، تحتفل الأسرة كلها باستحمام الطفل لأول مرة، تحتفل أيضًا بنجاة الأم بعد الإغماء الذى أصابها. أما الراهب فلا يحضر هذا الاحتفال.

وأخيراً يعود أهل الطفل

وعند منتصف الليل يجىء الراهب، ويجلس بينهم دون أن ينطق بكلمة، ويلتفون حوله ويسألونه ماذا حدث، ولكنه لا يرد . . ويشير الراهب إلى الفرقة الموسيقية لكى تعزف لحنًا خاصًا وتعزف الفرقة وترقص نساء الأسرة العجائز أولا، والشابات ثانيا، ثم

البنات الصغيرات، ويشير الراهب إلى خنزير فيذبحونه، ثم إلى بطة فيذبحونها، ثم إلى كتكوت صغير فيذبحونه . . ثم يضحك .

وهنا ترقص الأسرة كلها . .

وعندما يبلغ الطفل عامًا تحتفل به الأسرة وتناديه باسمه الذى لم يكن يعرفه . . وفى هذا الاحتفال يجب أن يرقص الأب، والطفل لا يلمس الأرض قبل مضى عام ونصف عام . وبعد ذلك لا تحتفل الأسرة مطلقًا بأى عيد من أعياد ميلاد أى طفل، ذكرًا كان أو أنثى . وأول احتفال بعد ذلك عندما يصبح الشاب أو الفتاة فى سن البلوغ . والشاب يبلغ فى السابعة عشرة، أما الفتاة ففى الرابعة عشرة . . وهذا حادث مهم جدا عند الهندوس .

وعندما تدرك الأم أن ابنتها قد بلغت، تحرق البخور وترتل الألحان الدينية، إلى أن يجىء الراهب ويدق الباب وتفتح له الفتاة ويباركها ويرش عليها الماء .

وأروع الحفلات هى ولا شك حفلة الزفاف . ولا يزال الزواج حادثًا مهمًا فى حياة كل الناس، فى هذه الجزيرة، وفى أى مكان آخر . . والأسرة تأتى بآخر ما عندها من طعام وشراب ومال وملابس وزينات ورهبان .

وقد رأيت حفلة زواج استغرقت ١٨ ساعة . لقد حملت طعامى معى . . اللحم والأرز والسلطة والموز وجوز الهند والباباى ــ فاكهة تشبه قرع العسل ــ والقهوة ومقعدًا مريحًا وبعض الصحف وبعض الشطة !

كان بيت العريس يبعد عن الفندق حوالى ٢٩ كيلو مترًا . والوسيلة الوحيدة إلى هناك ليست إلا عربة يجرها حصان ويسمونها هنا : الدوكار، فى بعض مناطق مصر يطلقون عليها نفس الاسم !

المهم أننا ذهبنا أولا إلى بيت العروس . . ولم يكن هناك إلا أهلها وقالوا لنا إن العروسين فى الطريق . ودخلت العروس مزينة وارتدت بلوزة من الحرير . . لا أعرف ما اسم هذا اللون . أعتقد أن اسمه «سيكلامان» وفى الريف عندنا يسمونه «لحم الهوانم» . غير أنه لايمكن أن توجد هانم فى الدنيا لحمها بهذا اللون . وتحت البلوزة الملفوفة حول الصدر، توجد جيب ملفوفة أيضًا . ولكنها من الحرير المشجر، الأحمر والأخضر والبنى . . وفى أصبعها خاتم لا أعتقد أنه من الذهب . . وفى أذنها قرط أحمر اللون وهى تعمل راقصة . .

وفعلا جسمها لا عيب فيه. جسم سليم عدل ـ بكسر العين.

والعريس كان يمشى وراءها.. إنه يلبس الطاقية كعادة أهل «بالى». وهى قماش يشبه الشال فى الريف عندنا، ولكنه من القماش المشجر. ويرتدى قميصًا مكويا.. وبدلا من أن يلبس البنطلون، يضع حول وسطه فوطة كبيرة زاهية اللون، ملفوفة ومعقودة من الأمام، وفى قدمه حذاء، وفى أصبعه مجموعة من الخواتم.. والعريس يعمل مدرسًا فى إحدى المدارس.. وهو باسم الوجه..

وصلى العروسان أمام الراهب فى خشوع.. بينما وقفت الحماة تشعل النار فى الحطب.. ويظهر أن هذه هى مهمة الحماة هنا: إشعال النار خارج البيت لا داخله!

ثم ينهض العروسان ويلفان حول هذا الكوم من القش ١٧ لفة.. وفى اللفة الرابعة عشرة تقف أخت العروس وأخت العريس، وقد أمسكتا بخيط، تعترضان طريق العروسين. ولكن كلا العروسين، الواحد بعد الآخر، يبعد الخيط من طريقة، مرة بعد مرة.. وفى اللفة السابعة عشرة يتقدم العريس ويقطع الخيط ويأخذ نصفه ويضعه بين شعره. وتأخذ العروس النصف الآخر وتضعه فى شعرها.. ثم يجلسان مرة أخرى أمام الراهب.

ويمضى الراهب فى صلواته وتعاويذه ثم ينزل العروسان أمام البيت.. وهناك تجرى طقوس أخرى.. فكل منهما يحمل شجرة جوز هند صغيرة. وعلى العريس أن يغرس شجرة العروس فى مكان ما، والعروس تفعل نفس الشىء. والعريس يمسك الشجرة بيده اليمنى، والعروس تمسكها بيدها اليسرى. ومع العريس تذهب أمه، مع العروس يذهب أبوها.. ويعودان بعد ذلك إلى بيت العريس.. وفى الطريق إلى بيت العريس، تمشى أخت العروس وقد أمسكت بذراع العروس، وأخو العريس يمشى إلى جواره.. وتتردد العروس فى دخول بيت الزوجية فيدفعها العريس إلى الأمام.

وفى بيت العريس توجد أكداس وأكداس من الهدايا.. كلها عبارة عن مقاطف وسلال وقفف وكميات من الأرز المسلوق وأرجل الخنازير والدجاج.. وبين الحين والحين يتقدم أحد الجيران بهدية.. إنها أيضًا أرز مسلوق فى «مشنة» لها غطاء من الخوص الملون.

وبعد هذه الطقوس يدخل العريس غرفته وينزع ملابسه ويرتدى ملابس أخرى.. وكذلك تفعل العروس..

وبعد عشر دقائق يخرج العريس.. وتخرج العروس..

ويبدأ جلوس المدعوين . .

هل تعرف من الذى يقدم الطعام، ومن الذى يقدم السجائر؟

إنها العروس . . لقد انتهت الزفة وأصبحت زوجة عادية . . وعلى حماتها أن تستريح ابتداء من هذه اللحظة .

هل تعرف أن التقاليد تقضى بأن الحماة تبدأ فى معاكسة العروس أول يوم فقط . وتضربها وأحيانًا تبصق عليها . . وتعيرها بأنها من أسرة فقيرة وأنها اختارت رجلا غنيًا . . فى حين أن كل سكان الجزيرة من الفقراء!

* * *

أهم الاحتفالات جميعًا فى هذه الجزيرة؛ وفى أماكن كثيرة جدا فى العالم هو تشييع الميت . .

والأهرامات فى بلادنا عندنا هى أكبر مقابر فى التاريخ . .

وهى تدل على حفاوة المصريين القدماء بالموت والبعث بعد الموت . .

وكذلك هؤلاء الهندوس يرون أن الموت هو مجرد انتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر . .

والميت الذى يدفن فى الأرض ينتقل على مهل . .

أما الذى يحرقونه فهو ينتقل بسرعة، وكأنه انتقل إلى السماء فى صاروخ . . ولذلك لابد من حرق الميت . . وعملية الحرق لا تتم بعد وفاة الإنسان . . وإنما يجب أن يستعد أهل الميت ليوم الحرق لأنه يكلفهم الكثير جدا من المال . . فلا بد من القرابين الغالية من اللحوم والملابس وأدوات الطبخ وغرف النوم . . وكلها يجب إحراقها أيضًا . أما الذى يكلفهم أكثر، فهو النعش، لأنه لا يكون من الخشب العادى، بل من الخشب الغالى جدا، ويجب أن يكون على هيئة ثور . . وهذا الثور يركبه أصغر أبناء المتوفى . . والميت والثور وأصغر أبناء المتوفى يحملهم جميعًا أقارب الميت .

أما الجنازة فتتقدمها أجمل فتيات الأسرة، وقد حملت كل منهن برجًا عاليًا من عدة طبقات . وكلما ارتفع البرج، كان دليلا على ثراء الميت . . وفى أعلى البرج توضع دجاجة حية . . والدجاجة ترفرف بجناحيها . .

وفى مكان ما توضع كل هذه الأشياء، وبعد صلوات طويلة، وموسيقى وغناء

وتراتيل، يقف الراهب ويشير بيديه، وقد أدار ظهره للميت . . وهنا ينهض ١٣ رجلا ويصبون الزيت فوق كل هذه الأشياء، وتشتعل النيران وبعد مدة نصف ساعة تفوح رائحة الميت.

وتنتهى الحفلات فى هذا اليوم.

وفى اليوم التالى ذهبت مع الألوف فى سيارات وعربات . . واجتمع أهل الفقيد حول بقايا النيران، وفى موسيقى عاوية جمعوا هذا الرماد ووضعوه فى إناء واتجهوا إلى البحر . . وألقوا به فى مكان حدده الراهب . . وعادوا إلى بيوتهم.

ولا يكاد يمضى يوم من الأيام دون أن يكون هناك رقص أو غناء دينى فعندهم ١٩٨ عيدا دينيا . . وبعض الأعياد تقتضى الرقص والغناء حتى الصباح. وعدد هذه الأعياد «الصباحى» ٣٢ عيداً. أكبرها عيد يوم ١٣ أغسطس.

وكل رقصة لها قصة دينية . . وهذه القصة يرويها أحد المنشدين فى أثناء الغناء والرقص.

ولا شك فى أن أبناء وبنات بالى من أبرع الراقصات فى العالم . .

فالطفل يتمرن على الرقص والغناء وهو فى الثالثة من عمره . . وقد رأيت أطفالا فى الخامسة والسادسة من العمر يعزفون بخفة وإتقان تام على آلات معقدة جدا . . ورأيت فتيات صغيرات فى التاسعة والعاشرة يرقصن ساعات كاملة، دون أن ترى على وجه واحدة منهن أية علامة من علامات التعب، أو يظهر عليها العرق . . وهذا يدل على أنها ترقص بأقل مجهود ممكن.

والفتيات الصغيرات لهن رقصات خاصة، أشهرها رقصة اللاجونج . .

وحفلات الرقص هذه كان يعدها الفندق هنا فى مدينة دنباسر، ولكنهم عدلوا عنها فى هذا العام . . والحفلات كلها تقام بعيداً عن المدينة، وفى قرية «ياوينى» على مسافة عشرة كيلو مترات من هذه المدينة ذهبنا لنشهد رقصة اللاجونج . . .

لقد جلس الناس فى مكان يشبه الجرن فى الريف، كلهم على الأرض. والفرقة الموسيقية مكونة من عشرين عازفًا على الطبول الطويلة المستديرة والمربعة وعلى الحديد، ومن نافخين فى المزامير أو عظام أصلها أرجل بقر أو خيول . . وفى أقصى اليسار إذا كنت تنظر إلى الفرقة الموسيقية ـ توجد شبه خيمة. ووراء هذه الخيمة اختفت الراقصات . .

وبين الحين والحين، ترفع راقصة طرف الخيمة من أسفل فتبدو قدمها ويصرخ الناس كأنهم رأوا شيئًا لا يجوز أن يروه. . وتعود الراقصة وترفع الستار إلى أعلى شيئا فشيئا وصرخات الناس تتبعها. . وأخيراً تخرج واحدة ثانية وثالثة. . وعشر فتيات فى سن الثانية عشرة. . وقد ارتدين ملابس جميلة ويرقصن يمينًا وشمالا. ولهن عيون كالخرز الأسود، تتحرك معًا يمينًا وشمالا، كأنهن إحدى اللعب اليابانية. . ولهن حركة عصبية غريبة. فالواحدة تميل إلى أحد الجانبين حتى تكاد تسقط على الأرض، ثم ترتفع فى سرعة خاطفة. . أما أصابع اليدين فهى تتمشى مع نغمات الموسيقى فى دقة تامة.

وحركات هذه الرقصة معقدة جدا. ولكن الخطوات مضبوطة تمامًا كأبرع راقصات الباليه فى أى بلد أوربى.

وهذه الرقصة كانت لا تقام إلا فى القصور ولكنها أصبحت الآن شعبية، وهى تروى قصة أحد الملوك الذى كان يتشاءم لأتفه الأسباب. فإذا مشى فى الطريق وتعثر فى حجر، عاد إلى البيت إيمانًا منه بأن هذا الحجر دليل على النحس. . وإذا عطس فهو يرتعد، ظنّا منه أن روحه كادت تخرج منه. . وفى يوم من الأيام وقف غراب فوق رأسه ـ والغراب دليل على النحس فى هذه البلاد أيضًا ـ وكاد الملك يموت. . فهجم على الغراب وقتله. ولم تمض أيام حتى مات الملك نفسه، وفى اللحظة التى تخرج روحه فيها، يظهر الغراب فوق رأسه، فالغراب لم يمت. .

ومعنى ذلك أن النحس سيلازمه فى رحلته إلى العالم الآخر.

أما كيف تعبر الفتيات الصغيرات عن هذه القصة، وكيف تصور أصابعهن الصغيرة طيران الغراب ورفرفته فوق رأسه الملك، وكيف انزعجن لرؤية الغراب. . بل كيف انزعجت هذه الموسيقى البدائية، شيء لا يمكن وصفه.

والذين رأوا باليه «بحيرة البجع» على مسرح الأوبرا فى القاهرة أو فى باريس أو روما، ودهشوا ولم تنته دهشتهم سيصابون بذهول إذا رأوا فى جزيرة بالى «رقصة الحوريات الأربع».

وقصة الحوريات الأربع ناعمة لطيفة لا تخلو من معنى دينى وأخلاقى وفنى. . الحوريات أربع فتيات فى سن الثانية عشرة، ويجب ألا تزيد الواحدة على هذه السن أبدًا. . هكذا التقاليد. . وقد ارتدين ملابس فضية ووضعن الورود على الرءوس وحول الآذان. . والرجال أيضًا يضعون الورود خلف آذانهم وفى آذان التماثيل أيضًا. . ومرت

علينا الراقصات وأخذ كل منا وردة ووضعها وراء أذنه . . وكلما سقطت الوردة لأى سبب عادت إحدى الفتيات ووضعت وردة أخرى . . وبعد ذلك يبدأ الرقص . .

ولست فى حاجة إلى أية لغة لكى تفهم قصة هؤلاء الحوريات . . فقد حدث ذات مرة أن ذهبت أربع حوريات إلى البحر ونزعن ملابسهن المسحورة . . وفى ذلك الوقت مر صياد ، وهو شاب جميل ، ونظر إلى الحوريات وأعجبته واحدة منهن ، فأخفى ملابسها ثم توارى وراء الأشجار وراح ينفخ فى الناى وسمعت الحوريات صوت الناى فانطلقن إلى الشاطئ . وارتدت كل منهن ملابسها واختفين عن الأنظار . . إلا الرابعة ، أجملهن جميعًا . فإنها لم تجد ملابسها . آه لو رأيت هذه الراقصة وهى تبحث عن ملابسها . . آه لو رأيت الموسيقى التى تشبه المقشات وهى تكنس الأرض بحثًا عن الملابس . . إنها لوحة بدائية مثيرة . . وهنا يظهر الصياد ، وترجوه الفتاة وتركع عند قدميه .

ويوافق على أن يعطيها ملابسها بشرط أن تتزوجه ، وتقبل الفتاة ، ولكن الصياد يرفض أن يتزوجها لأنه لا يحب أن يتزوج فتاة بالإكراه . . وإن كانت تقاليد الزواج هنا هى أن يخطف الفتى عروسه ويخفيها فى بيته ثلاثة أيام ، ثم يضع أهلها أمام الأمر الواقع . .

ثم يقول لها كلامًا معناه : إننى لا أريد الزواج منك الآن . . ولكن فيما بعد ، فقد أحببتك منذ وقت طويل .

وتزفهما الموسيقى .



وهناك رقصة تشبه رقصة العرب فى محافظة البحيرة . .

وأنا لا أزال أذكر هذه الرقصة بوضوح فلها عندى ذكرى لا يمكن أن أنساها . ففى محافظة البحيرة نجد العرب يرقصون ويغنون : وين . . وين . . يا عرب ويلتفون على شكل دائرة وترقص بينهم فتاة ثم تشير بعصاها إلى واحد ممن يمسكون لها الوحدة بالتصفيق فيتجه إليها ويرقص معها . . ويحسده الواقفون لأنها اختارته دون غيره . .

وهذه الرقصة يسمونها هنا «رقصة الدلال» . . فالفتاة ترقص وحدها وفى يدها منديل ، ثم ترمى المنديل على أحد الحاضرين فينهض للرقص أمامها . . والذى يرفض أن يرقص أمامها ــ كما فعلت أنا ــ تعتقد أنه هانها إهانة شديدة . . .

ولم أمسح هذه الإهانة إلا عندما تظاهرت بالعرج بعد نهاية الرقصة !

والفتاة لا تزال تختار الواحد وراء الآخر حتى يصل عددهم إلى ١١ راقصًا، وبعد ذلك ترقص وحدها والحزن باد على وجهها وعلى ما أصابها، لأنها لم تجد الفتى الذى تريده. . ويخرج لها من بين الحاضرين أحد الراقصين المحترفين ويرقص معها ساعة كاملة وهى سعيدة به. . وتختم الموسيقى هذه الرقصة لا بالتدريج ولكن «قطم». . مرة واحدا!

وأجمل الرقصات التى رأيتها فى جزيرة بالى، هى رقصة «البارونج» وهو حيوان يرمز به للخير ويشبه الأسد. وهذا الحيوان قد نزل من مكان لا يعرفه أحد ليساعد الناس فى القضاء على «الرانجا» وهو الشر. . وهو يشبه الغوريلا. . أما إله الخير فيمثله اثنان من الرجال يلبسان معًا هيكلا من القماش له ذيل ورأس وأنياب، ويرقص الرجلان معًا برشاقة وقد تعلما بعض التهريج لإرضاء السياح الأجانب، فقد رأينا الأسد هذا يعاكس الأطفال الصغار ويخرج عن نطاق الموسيقى. .

ويبدأ الصراع بين الخير والشر، فالشر يريد أن يقتل شابا صغيرا وحيد أمه. فيتدخل أحد خدام الخير ويعطى هذا الشاب الحياة الأبدية. ولكن الشر لا يعلم ويحاول قتله، أو أكله فيفشل.

ولا يسعك إلا أن تنبهر وأنت ترى ضربات السكين والموسيقى معًا. . ومحاولة وضع الأنياب فى جسم الشاب ومعها الناى. . فعلا منظر جميل جدا. .

كل ذلك يجرى على التراب ومن حفاة لا يعرفون القراءة أو الكتابة وينتقلون من هذه القرية إلى المدينة التى تبعد عنهم ٢٠ كيلو متراً.

ومن بين الراقصين رجل عريان فى السبعين. . إنه أخف وأرشق من كل الراقصين. . إنه يقفز إلى أعلى على السلم الموسيقى فى غاية الرشاقة. . وقد علمت أن هذا الرجل سافر إلى أمريكا وظهر فى برودواى، ولكنه لم يتمكن من إظهار براعته ـ لأنه أصيب بسعال شديد ـ لقد كانت هذه الرحلة لأول مرة فى حياته واضطره الأمريكيون إلى ارتداء ملابس كاملة. . !

ولكن هل ينتهى الصراع بين الشر والخير. طبعًا لم ينته، فقد رأيت أنصار إله الخير يحاولون قتل إله الشر. . وينجحون فى قتله ويرقصون. . ولكن الشر يعود إلى الحياة وهم يرقصون. . فيحزنون حزنًا شديداً ويضربون أنفسهم بالسكاكين والسيوف ويتمرغون على الأرض. . وفجأة يظهر الخير ويبدو الخجل على الشبان. ولكن الخير يحتضنهم ويقول لهم كلامًا على لسان السيدة التى تروى قصة هذا الصراع: إن الشر لن

يموت وأنتم متفرقون . . يجب أن تتساووا كالأسنان فى الدفاع عنى . . ولكنكم لم تفعلوا . .

ويزداد حزن الشبان ، ولكن الخير يتركهم ويتجه إلى صراع الشر الذى فوق أحد السلالم . . ويصعد إليه الخير ويختفى الاثنان . . وبين آونة وأخرى تسقط علينا ملابس إله الخير وملابس إله الشر . . ومعنى ذلك أن الصراع مستمر أمام عيوننا وفى أماكن أخرى لا نراها .

واللوحة الفنية الكاملة هى رقصة الوداع . . إن هذه الرقصة ليس فيها موسيقى . . ولكن الفرقة الموسيقية تتكون من هؤلاء الراقصين وهم يجلسون حول عمود النور فى الظلام . . ويتقدم واحد منهم ويشعل المصابيح والراقصون يصرخون حوله ويرددون كلمة : «كاتشاك . . كاتشاك . . » مئات المرات . . ويرقصون معظم الوقت وهم جالسون ثم يترنحون ويرتمى بعضهم على بعض فى صورة فنية جميلة . وبين هؤلاء تظهر فتيات صافيات البشرة والألوان . . فساتينهن زاهية ، وعلى رءوسهن أكداس من الورد والياسمين على هيئة تاج تبرز منه ريشة ذهبية ، ويبدأ الرقص . . وهم جالسون ، وهم نصف جالسين ، وهم واقفون ، وهم راكعون ، وهم ساجدون . . كل حركاتهم مضبوطة جداً ، رشيقة ناعمة جداً . .

ويبدأ الراوى يحكى لنا قصة الوداع .

وكل قصة وكل حوار له رقصة رائعة .

وفى عيد استقلال إندونيسيا ، أقيمت حفلات استعراض رائعة فى القصر الجمهورى . ومن بين هذه الرقصات كانت رقصة الوداع . وقامت بها مائة فتاة وصفقت الجماهير وصفرت . . ولكن عندما بدأ الرقص أحس الناس بخيبة أمل هائلة ، فعلى الرغم من أن الفتيات جميلات . فإن الرقص لم يكن جميلا . فكل الفتيات كن من العاصمة ، وليس بينهن واحدة من جزيرة بالى . . وعلى الرغم من وجود مسرح وأزياء أنيقة وموسيقى ، فإن رقص بالى الذى يقوم به الرجال العراة والحفاة فى الطين ، كان أروع . .

وكانت هذه هى أحسن تحية لجزيرة بالى .

هذه الأعياد ترفع فيها الأعلام وتدق فيها الطبول لتدعو الناس فى جزيرة بالى إلى رؤيتها . . وهذا ما يشغل الناس ليلا وحتى الصباح . .

أما الذى يشغلهم نهاراً فشىء آخر .

ففى كل بيت تجد عدداً كبيراً من الديوك. وأمام كل بيت تجد أقفاصاً دائرية. وفوق كل قفص قالب طوب وتحت القفص يوجد ديك كبير تبدو عليه الشراسة.

فمصارعة الديوك هى الهواية المفضلة هنا.

ولو رأيت الأموال التى يدفعها الناس عند مصارعة الديوك لأحسست أنهم من أصحاب الملايين.

والديك ثروة وصاحب الديك يستطيع أن يتفاخر أمام الناس كصاحب خيول السباق الناجحة. فهذا فلان صاحب الديك الذى اسمه ثعلب أو الديك الذى اسمه قرد أو الديك رعد، والشوارع يعرفها الناس بالديوك الموجودة بها.. وقد ظللنا نصف ساعة نبحث عن الشارع الذى يوجد به مكتب شركة الطيران ولم نهتد إليه.. والذى أدهشنا أن الناس يسألوننا: بالقرب من أى ديك؟

وطبعًا لم نعرف. وأخيراً عرفنا أن مكتب الطيران فى شارع «الديك الأبيض بلا نقط سوداء».

وصاحب الديك يظل طول اليوم يسن أصابع الديك ومنقاره.. وكان أصحاب الديوك فيما مضى يضعون السموم فى أصابع الديوك وفى مناقيرها ولكنهم عدلوا عن ذلك لأن هذه السموم تنهى المعركة بسرعة وذلك بقتل أحد الديكين أو الاثنين معًا!

واكتفوا بوضع سكين مربوط إلى ساق كل ديك.. سكين قاتل.

والغريب أن عدد المقامرات أكبر من عدد المقامرين. ومن الممكن أن تجد الزوجة تكسب من هذا القمار ويخسر الزوج. ويقال: إن المرأة اختارت القمار لتنعم بالراحة فى بيت أهلها بعيدًا عن الزوج!

أما جمهور الديوك فيشبه جمهور الكرة عندنا..

وبعد انتصار الديوك تقام حفلات رقص وغناء فى الشوارع المجاورة وبعض الناس ينقشون اسم الديك على أذرعهم، أو على صدورهم، أو يطلقون اسم الديك على أولادهم أو على دكاكينهم.. وفى بيت صاحب الديك الذى فشل فى المصارعة يخيم الحزن والغم.

وكان أبى من هواة مصارعة الديوك أيضًا!

* * *

ومن أهم معالم هذه الجزيرة سيدة جميلة هى الآن أرملة طروب واسمها السيدة «نى بالك» وهى زوجة الفنان البلچيكى لوماپير. تسكن فى البيت الذى تركه الفنان لها بالقرب من شاطئ صافور وفندق سيجارا . . والمسافة بين بيتها وبين الفندق حوالى عشرة كيلومترات . .

ذهبت إليها فى الساعة الرابعة بعد الظهر . وهو موعد قيامها من النوم هكذا قالوا لنا، ووجدنا باب بالبيت أو المتحف مفتوحًا ودخلنا فلم يقابلنا أحد . اللوحات على الحائط لهذه الأرملة الجميلة وكلها من رسم زوجها لوماپير . لوحات بالزيت وأخرى على الخشب وعلى القماش وعلى قشر جوز الهند، وانتقلنا من غرفة إلى غرفة . . ووجدنا سيدة قد تمددت على سرير . . وتراجعنا . . ولكن خادمة عجوزًا طلبت إلينا أن ندخل وخشينا أن نزعج السيدة النائمة، ثم عرفنا أنها هى الأرملة . ودخلنا ووقفنا إلى جوار سريرها نتظاهر بأننا لا نتفرج عليها، ولكن السيدة ظلت فى سابع نومة، كأن أحدًا لا يتحرك فى الغرفة، لقد تمددت على السرير عارية تمامًا وأدارت وجهها للحائط ولم نر إلا جسمها النحاسى الطويل الممتلئ، وإلا بشرتها الحية، وإلا جانبًا من وجهها اللامع . وخرجنا بعد أن تعمد بعضنا أن يحدث أية ضجة لإيقاظها . ولكنها لم تتقلب!

وعرفنا من الخادمة أنها ستصحو فى الساعة الرابعة والنصف . . وهى تصحو عادة من تلقاء نفسها . . وسألناها وكيف تعرف الوقت بالضبط؟

وأبدت الخادمة حيرتها وأشارت إلى السقف ومعناها دى حاجات بتاعة ربنا؟

وفى اليوم التالى قابلناها على الشاطئ. لقد نزلت تستحم وحدها وحارت عدسات السائحين بين أيديهم وبين أمواج البحر ثم خرجت سمراء بالى إلى الشاطئ تنفض الماء عن جسمها وتلقى به فوقنا وكأنها تقول : حصوة فى عين اللى ما يصلى على النبى!

ورددنا هذه العبارة بلغات مختلفة . .

وأما الأمريكيون فقالوا : تساوى مليون دولار!

وأما الفرنسيون فقالوا : إنها غجرية رائعة .

والإيطاليون قالوا : يا ماما . . وكيف يموت أى إنسان إذا كانت هذه زوجته؟

ولغات أخرى لا أعرفها . . باليابانى والصينى والإندونيسى . .

سألتها: وكيف تمضين الوقت؟

قالت: ألم تأت أمس إلى البيت؟

قلت: جئت فعلا.

قالت: هكذا أمضى وقتى.

قلت: فى النوم؟

قالت: وفى الاعتذار عن النوم الطويل للسائحين أمثالكم..

ولم أجرؤ على سؤالها كما فعل سائح أمريكى: ألم تفكرى فى الزواج؟

فأجابت: لا أفكر.

قال: ولماذا؟

قالت: ليس هناك من هو أحسن من زوجى!

وسألها أمريكى آخر: وأنت الآن ألا تسمحين لأحد أن يرسمك كما كان يفعل زوجك؟

فأجابت: لا أسمح.

وغمزت بعينها غمزة أوربية فقلنا لابد أن هذا من تعاليم المرحوم!

وانتقلنا معها إلى البيت. وعرضت علينا لوحاتها وكانت تقف إلى جوار كل لوحة.. وننظر إليها وإلى اللوحات.. وكنا نقول: هى أجمل.. وكنا نقول: ولكن اللوحات أبقى!

إن بيتها وسور بيتها وملابس الخدم والأبواب والنوافذ وكل شىء فيه عمل فنى كامل.. وصورها العارية تمامًا هى من أروع ما رسمت ريشة زوجها الفنان الكبير.

والذى لم ير هذه الأرملة الجميلة كأنه لم ير شيئًا مهمًا جدًا فى جزيرة بالى فهى تمثل حياة فنان كبير جاء من بلجيكا وقع فى غرام هذه الراقصة واختارها لنفسه، وعاش لها كل سنواته الأخيرة.. وإذا كانت الفتاة لم تستمتع بالحياة مع الفنان الكهل فإنها قد ضحت من أجل جزيرة بالى، فهى تشبه عروس النيل التى كان الفراعنة يلقون بها فى النيل ليفيض.. وقد

فاض نيل السائحين هنا بملايين الجنيهات كل عام . . فالناس يجيئون من آخر الدنيا ليروا الرقصات الدينية والمعابد وهذه الحسناء . .

هذه هى جزيرة بالى ـ بالك

بالى . . هو اسم الجزيرة أما «بالك» فهو اسم زوجة الفنان البلچيكى التى تعيش فى أروع معرض صنعه زوجها فى أروع جزيرة .

* * *

ما رأيك فى رحلة إلى هذه الجزيرة التى يصعب أن تحددها على الخريطة . .

أنا أقول لك على السكة : اركب الطائرة من القاهرة إلى بومباى بالهند فى تسع ساعات ، ومن بومباى إلى مدراس فى أربع ساعات ، ومن مدراس إلى كولومبو عاصمة سيلان فى ثلاث ساعات ، ومن كولومبو إلى سنغافورة فى ست ساعات ، ومن سنغافورة إلى جاكرتا عاصمة إندونيسيا فى ساعتين ، ومن جاكرتا إلى سورابايا فى ساعتين ، ومن سورابايا إلى دنباسر عاصمة جزيرة بالى فى ساعة واحدة . . والمسافة قصيرة كما ترى وهى فركة كعب لا تزيد أبدًا على عشرة آلاف كيلو متر !

(٢)

الجزيرة تشبه المعبد الكبير . كل ما فيها صلاة ، ولكنها معبد بناه ويصلى فيه فنان . ولذلك فالصلوات فيها فنون : رقص وغناء وموسيقى .

ليلاً ونهاراً .

وكل أبناء الجزيرة فنانون . . الصغار والكبار .

وفى جزيرة بالى أرشق الرجال . . وأجمل النساء فى كل إندونيسيا . وألوانهم سمراء فيها صفرة خفيفة . . ولكن المرأة الإندونيسية رشيقة وقوامها نحيف . . ومن النادر أن تجد امرأة بدينة . . نادر جدًا . .

عشت فى هذه الجزيرة أسبوعًا لا أرى إلا الرقص وإلا الغناء ، كأننى أخطأت الطريق إلى بالى . . وذهبت إلى أحد معاهد الموسيقى حيث الأطفال والشيوخ يتمرنون على الرقص قبل استعراض كبير .

وأروع ما رأيت هناك هو حفلات الزواج وحفلات حرق الموتى . . وصلوات وطقوس وهدايا .

وكل الناس يبكون فى الأفراح وفى المآتم . .

إنهم يشعرون أنهم فقدوا عزيزًا عليهم . .

أذكر أننى ذهبت لرؤية عقد قران . البيت متواضع جدًا . ويشبه بيوت الفلاحين عندنا . . العروس حلوة صغيرة فى السن . . والعريس أكبر منها بحوالى عشرين سنة . ولكنه رغم ذلك رشيق ووسيم . . جلس العروسان أمام الراهب وهو المأذون الهندوسى ــ والهندوسية هى دين الجزيرة ــ وراح يقول كلامًا طويلا لم أفهمه .

وطالت الصلوات والدعوات .

سحبت مقعدى إلى الوراء وجلست فى أحد الأركان ورحت أتحدث إلى المرشد الذى جاء معنا . .

وقلت : هذه فتاة جميلة فعلا .

وأشرت إلى إحدى قريبات العروسين . ونظر المرشد إلى فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها سمراء نحيفة عيناها سوداوان وشعرها أسود ولها ملامح مرسومة بعناية غريبة وضحك المرشد قائلا :

عاوز تتجوزها؟ .

فضحكت . . وعاد هو يسألنى ضاحكًا : عاوز تتجوزها؟ .

فقلت ضاحكًا : أيوه . .

وطبعًا هذا كلام . . مجرد كلام . .

وأبناء إندونيسيا يضحكون على الفاضية وعلى المليانة . . وعندما يفهمون يضحكون وعندما لا يفهمون يضحكون أيضًا .

وعدنا إلى الراهب إنه لا يزال يقوم ويجلس ويطلق البخور ومللنا مراسم الزفاف . . فوقفت أمام بيت العروسين أتطلع إلى الرجال وهم يحملون جوز الهند ووراءهم النساء . وقد وضعت كل منهن وردة وراء أذنيها . .

وبعد ساعة عدت إلى بيت العروسين؛ فوجدت الراهب لا يزال يقول كلامًا، والعريس باسم الثغر والعروس سعيدة . . وبين الحين والحين ترفع رأسها ولكنها تقول شيئًا. والكلام حرام عند عقد القران . .

دخلت أرى آخر مراسم الزواج . .

وأشاروا إلىّ لكى أجلس . . وجلست وراء الراهب . .

ثم أتى بمقعد وجلس أمامى . . وراح يقول كلامًا ويلف بالبخور حول رأسى . . ويقدم لى جوز الهند . . وأمد يدى وأطبق يدى على قطعة من جوز الهند الجاف كالحجر. ويدور الراهب حولى . .

وجعلت أتلفت وأحسب الوقت الذى سيقطعه الراهب فى اللف حول عشرين رجلا وسيدة من الأمريكيين والألمان والفرنسيين والإيطاليين جاءوا لمشاهدة عقد القران . . سيستغرق ساعتين على الأقل . .

ولكن الذى حدث هو أنه بعد أن دار ولف حولى . . تركنى وعاد إلى مكانه . . وبعد لحظات أتوا بمقعد ووضعوه إلى جوارى وفوجئت بفتاة تجلس إلى جوارى . . إنها نفس الفتاة التى قلت عنها إنها جميلة . . وراح الراهب يدور حولى . . وأصبت بذهول . . إنهم أخذوا المسألة «جد» . . مش معقول .

إننى أنظر إلى وجه الفتاة فأجده قبيحًا . وأرى عينيها كعينى البقرة . . . وأرى أنفها كأنه مقبرة وشعرها الأسود القاتم كأنه مجموعة من السلاسل وخيوط النايلون الأسود كلها ستلف حول عنقى . . حول حياتى . . وأنظر إلى قدميها وقد اتخذتا لون التراب . . وأرى فستانًا يشبه قماش المراتب . .

وأتلفت ورائى فأجد كل السائحين الأجانب فى دهشة وبعضهم فى ذهول وبعضهم يضحك من قلبه ويقرصنى ويقول : مبروك . .

ـ مبروك إيه؟!

قررت أن أجرى . . أو أهرب . . وفعلا نهضت من مكانى وانطلقت إلى خارج البيت . . ولكن أحدًا لم يعترضنى . . لم يمسكنى . . وبحثت عن حنطور وانطلقت إلى الفندق . . وبحثت عن أحد من المرشدين أسأله عن حقيقة ما حدث . . . ولكن المرشدين جميعًا خرجوا مع السائحين فى أماكن مختلفة من الجزيرة . . ذهبت إلى مكتب

السياحة . . فلم أجد أحدًا . جلست فى غرفتى قلقًا ، لا أعرف كيف أفكر ولا كيف أواجه الزواج . . وماذا أعمل بالفتاة . . وأنا لا أعرف ما هى التقاليد بعد ذلك . وهل سأخرج من الجزيرة سالمًا . . وإذا خرجت بقوة القانون فأين أذهب بها . . ثم كيف أتخلص من هذا الموقف الغريب؟ قابلت مدير الفندق ودار هذا الحوار المتعب جدًا بينى وبينه . قلت :

اليوم شاهدت حفلات الزواج . .

قال : أعجبتك؟

قلت : جدًا ولكن يظهر أنها مليئة بالمفاجآت . .

ـ آه طبعًا . .

ـ من الممكن أن يدخل الرجل أعزب ويخرج متزوجًا دون أن يدرى؟

ـ طبعًا . .

ـ طبعًا إزاى؟!

ـ عادتهم غريبة جدًا هنا . . افرض أن واحدًا دخل أعزب وخرج متزوجًا دون أن يدرى . . فماذا يعمل؟

ـ ولا حاجة .

ـ ولا حاجة إزاى؟ افرض مثلا يعنى . . واحد زيى مثلا يعنى . . أهو أنا سائح أجنبى . . ذهبت إلى أحد الأفراح وأعجبتنى فتاة مثلا وقلت لها إنها تعجبنى . فهل معنى ذلك أنها تصبح زوجة لى مباشرة؟ . . مفيش حاجة أقل من الزواج .

ـ يحصل كثير قوى . .

ـ وبعدين؟!

ـ الناس يتزوجون هكذا . .

ـ افرض يعنى أن هذا حدث لى . . مثلا يعنى . . فماذا أعمل بمثل هذه الزوجة . . ؟

ـ إنها خادمتك . . خذها إلى أى مكان . . إن بنات بالى لا يتكلمن ولا يعترضن على إرادة الزوج . . والمرأة فى بالى لا تعرف الطلاق ولا الرجل أيضًا . . إلا فى ظروف نادرة جدًا . .

ـ مش فاهم . . افرض مثلا يعنى . . أن هذا حدث لى . وتركت هذه الزوجة فى بالى فماذا يحدث؟

ـ ستبقى زوجة لك إلى الأبد . . سواء تعيش معها أو تتركها . .

ـ يعنى لا تتزوج بعد ذلك؟

ـ لا . . .

ـ من الممكن أن تموت هذه الزوجة من الجوع .

ـ ليس إلى هذه الدرجة . .

ـ ولكن يجب أن تترك بيت والدها فوراً بعد الزواج . .

ـ وأنت مشغول لهذه الدرجة بالزواج هنا؟

ـ أبداً . . أصلى عاوز أكتب مقالة كده . .

ـ مقالة . . أنا عندى موضوعات غريبة . . عن أنواع الزواج الغريب هنا . . هنا أعجب أنواع الزواج . .

ـ زى إيه كده .

ـ أيوه . . حكايات طويلة . . . نلتقى فى الليل . . إلخ .

كلام غير مريح وكلام كله عايم . .

وفى الليل حاولت أن أجده لأسأله عن الزواج الغريب . ولا بد أن يكون زواجى هذا من أغرب القصص . . وربما كان من أقلها غرابة . . ومعنى ذلك أننى يجب أن أنتظر ما هو أغرب . .

وفى الليل كان لابد أن نشاهد إحدى الرقصات الجماعية على مسافة ٧٠ كيلو متراً من الفندق . . وكانت الرقصة رائعة ولكن كان بينى وبينها ستار أسود . هذا الستار يتحرك أمامى يميناً وشمالا . . كأنه مرسوم فى داخل عينى . . إنه صورة الزوجة التى لم تكن على بالى . .

وبعد انتهاء الحفلة ذهبت إلى غرفتى . . لم أذهب إلى المطعم . . أحسست بضرورة قاسية إلى أن أجلس وحدى . . فوجئت بأن شبحًا يجلس أمام غرفتى . إنه نفس الفتاة

وأمامها لفة من الملابس. عندما رأتني ابتسمت ونهضت واقفة. . وابتسامتها حلوة. وأنا حائر لا أعرف كيف أكلمها، وكل ما أعرفه من اللغة الإندونيسية لا يزيد على عشرين كلمة.

وحاولت أن أعمل جملة واحدة معناها: إيه اللى جابك هنا؟ وإيه الحكاية.

ويبدو أنها فهمت كلامى وكان ردها: بو. . أباه بوع. أوه

وأنظر إلى وجهها فأجده يبتسم. . وجهها حلو. ويبدو أنها غسلت وجهها وارتدت فستانًا جديدًا. . وسألتها عما إذا كانت قد تناولت العشاء. . فلم تجب. . وطلبت لها عشاء ورأيتها وهى تأكل بيدها الكبيرة.

والمصيبة أننى لم أجد أحدًا أسأله.

وجلسنا نحن الاثنين على مقعدين متواجهين. أنا أضع يدى على خدى وهى تراجعت فى مقعدها وهات يا نوم. . وأنا فى دهشة من نومها العميق. . وعندما استغرقت فى النوم تركتها ودخلت غرفتى. .

وبين الحين والحين أنظر إليها من وراء الباب فأجدها نائمة. .

وفى الصباح وجدتها قد غسلت وجهها ولا أعرف أين. . وجلست فى حيوية ونشاط وبشرتها صافية ناعمة. . وأنا أحمر العينين مصدع الرأس. . ولم تكد ترانى حتى نهضت تبتسم قائلة: سلامات باجى.

ومعناها صباح الخير. .

وأمرت لها بطعام. . ولم أجلس لأرى كيف تأكل وإنما قررت أن أذهب لهذا الراهب أنا وبعض الأصدقاء لأجد لى حلا. . فالمسافة بينى وبين سفارتنا فى جاكرتا طويلة. . إنها أربع ساعات بالطائرة. .

أما هنا فلا أجد أحدًا أسأله عن الزواج والطلاق والنفقة ومقدم الصداق ومؤخر الصداق. .

وتصادف أننى مررت أمام غرفة أحد الأصدقاء فى الفندق وسمعت ضجة وهمسًا وضحكا متواصلا. . إنه مقيم فى هذه الغرفة وحده. . فما الذى يحدث. . وفتحت الباب.

وقابلتنى عواصف من الضحك. . إن هذا الصديق هو مليونير أمريكى يحب الدعابة،

ومعه فلوس فى حجم المقطم ولا يدرى ماذا يفعل بها . . إنه يلهو ويلعب . . تصوروا أنه قد دبر كل هذه التمثيلية من أولها لآخرها مقابل مبلغ من المال . .

وبعد ذلك نظرت إلى البنت فوجدتها حلوة مرة أخرى . . حلوة . . وسألنى : ما رأيك تتجوزها؟

قلت وقلبى زى الحديد : أيوه مستعد!

(٣)

ألا يحدث أنك تبحث عن صورك وأنت صغير لتعرف كيف كان وجهك وجسمك، وكيف كان لون شعرك الذى ذهب ولمعان عينيك الذى خفت ! ألا يحدث أنك تسأل والدتك عن طفولتك . . ماذا كنت تعمل وماذا كنت تقول؟

وجزيرة بالى هى طفولة الإنسان، ففيها كل شىء يدل على سذاجة تفكيره وبساطة إدراكه لنفسه ولغيره . .

وأنا أحدثك هنا عن طفولتنا جميعًا . .

الجزيرة ليست صغيرة كما كنت أتصور ويبدو أن العقل الإنسانى لم يكن صغيراً كما نتصور أيضًا . .

والناس يقضون نهارهم فى الحقول أو أمام الأنوال اليدوية، أو حفر الخشب، أو تلوين القماش، أو تلوين قشر جوز الهند، أو التمرين على الرقص والموسيقى، أو تدريب الديوك على المصارعة . أما الليل كله للموسيقى والغناء والرقص . لأسباب دينية . ويظهر أن الإنسان يحتاج إلى دين ليتقن أى عمل . فهم يتقنون الرقص والغناء والموسيقى وبراعتهم فى هذه الفنون مذهلة . فالأطفال يبدءون العزف والغناء فى الثالثة .

والفتيات يرتدين تيجانًا من الورد وفساتين من الحرير الملون وحافيات الأقدام وكأنهن أوراق ورد تناثرت . . أو كأنهن بقايا ملائكة أو قطع من السماء .

والمعابد هنا أهم المبانى كلها . . وفى كل مكان رقصات القرد وغابات القرود ولوحات القرود . . وكلمة «قرد» فى لغة جزيرة بالى لها مشتقات كثيرة ويطلقونها على كثير من الأطعمة والنباتات الغريبة . . مثل كلمة «ماكينة» فى اللغة الإيطالية التى يطلقونها على ماكينة الحلاقة وعلى الطائرة!

وأنت هنا فى بالى يجب ألا تخاف من الناس . . فهم مسالمون طيبون .

ولكن الجزيرة رائعة . . إنها كفتاة جميلة عيبها أنها تخلف المواعيد . . حاجة بسيطة!

ولكنها حلوة ويزداد حرصك عليها فتصلى للسماء أن تشفيها من مرض المواعيد .

إنها ليست أجمل الجزر التى رأيتها ولكنها أغربها جميعًا . لقد رأيت جزر كابرى وصقلية وكورسيكا وكريت وقبرص وسيلان وسنغافورة . . والآن أقيم فى جزيرة جاوة . . ولكن بالى أغرب هذه الجزر جميعًا . . .

وكل الدعاية لهذه الجزيرة تقول : إن الناس هنا يعيشون على الفطرة . . ليس سكان الجزيرة وحدهم . . وإنما السياح أيضًا . .

هكذا قلت لنفسى وأنا نصف عريان أمام الفندق!

* * *

وفى الطائرة العائدة إلى جاكرتا كان من نصيبى أن أجلس بجوار سيدة هولندية إحدى بنات المستعمرين لهذه البلاد لمدة ثلاثة قرون . وكان لابد أن نقول أى كلام فما تزال أمامنا أربع ساعات قبل أن نصل . وعرفت أنها أمضت فى جزيرة بالى أكثر من ثلاثة أسابيع .

ولم تعجبها هذه الجزيرة . . وقد كانت تفضل أن يبقى الناس بدائيين حفاة عراة كمعرض حى يستحق أن يأتى إليه الناس من أقصى بلاد العالم . ولكن كل شىء تغيرت معالمه ، فهناك سيارات ودراجات وأحذية وبلوزات وجيبات .

وعرفت أنها جاءت إلى هذه الجزيرة قبل عشرين سنة وتنهدت على الذى مضى ولم أسألها عن الذى مضى فلابد أن الناس كانوا كلهم عراة رجالا ونساء ، ولابد أن الحياة كانت على الفطرة الكاملة . .

والتفتت فجأة ناحيتى وقالت : أين كنت أمس؟

فقلت : فى الليل ذهبنا لمشاهدة حفلة زفاف أحد الأثرياء .

وبدا على وجهها القرف وقالت : كانت فضيحة . . . فضيحة . . فضيحة . .

وسألتها : كيف؟ لم ألاحظ أى شىء . .

قالت: ألم تر ما فعله البيض. . ثلاثة من البيض قاموا يرقصون. . وضحك الرجال والنساء. . وكانت فضيحة. . فضيحة!

أنا لا أذكر شيئًا من هذا الذى تحدثت عنه السيدة. . بل أنا لا أذكر كيف انتهى هذا الاحتفال. . والاحتفالات تنتهى فجأة وبلا تنبيه وبلا حماسة.

وخشيت أن أسألها كيف انتهى هذا الاحتفال. .

ولاحظت أنها عندما تحدثنى لا ترفع عينيها عن النافذة ترقب محركات الطائرة، أما أنا فيجب أن أجعل أذنى قريبة منها لأسمع ماذا تقول. .

وانشغلت عنها تمامًا. . ولم أعد أسمع ماذا تقوله لى. . ولا أعرف إن كانت تحدثنى أو تحدث نفسها. .

وتذكرت أننا ذهبنا فعلا إلى حفلة الزفاف وأننا كنا نتابع الحفلة باهتمام شديد. وطال الاحتفال وعزفت الموسيقى. . ونحن لا نعرف كيف نعود إلى الفندق.

فالمسافة طويلة والأبواب مغلقة لأن العروسين يتشاءمان من الذين يخرجون قبل نهاية الحفلة. . ونخشى أن نطلب فنجانًا من القهوة؛ فنحن لا نعرف كيف يصنعون هذه القهوة، نحن فى حيرة تامة.

وفجأة فكرنا أن نضع المقاعد فى أقصى المكان ونتمدد عليها وننام حتى ينتهى الاحتفال. . ولكنه مكان موحش مفزع. والطبول لها صدى مخيف. . ولو اقتحمنا الباب فنحن لا نعرف النتيجة فكل مدعو يضع وراء ظهره سيفًا. . والطريق أمام البيت مظلم تمامًا وفيه أشباح غريبة تروح وتجىء. .

والنوم مستحيل أيضًا. .

وفجأة تذكرت. . لقد ظهرت العروس ومعها صينية عليها فناجين صغيرة وفى حركة آلية نهضنا جميعًا واقفين وجلست العروس وقدمت لنا القهوة وهى جالسة وشربنا القهوة واقفين. .

ولا أذكر بعد ذلك إلا أننى صحوت فى اليوم التالى ثقيل الأذن والعين والجسم.

حاولت أن أسأل إدارة الفندق بصورة غير مباشرة. . ولكن أحدًا لا يتكلم. . إنهم يبتسمون فقط ولا يقولون شيئًا.

حاولت أن أسأل المرشد . . إنه هو الآخر يبتسم . .

حاولت أن أعثر الأمريكى والإيطالى اللذين كانا معى . . لقد سافرا إلى الشمال وسيعودان بعد أيام .

أما ماذا حدث . . فعلم ذلك عند السيدة الهولندية . . لقد كنت أحد الذين شربوا القهوة المسمومة . . وحدث مغص . . وتمرغت على الأرض دائخًا تمامًا . ولا أعرف كيف نقلونا جميعًا إلى الفندق!

وكانت هذه هى الفضيحة!

إن كل الجنسيات تجدها هنا فى جزيرة بالى . . ولكن أكثر السائحين ـ أقصد السائحات ـ من أمريكا وأكثرهن عواجيز وفوق ٦٠ سنة . . والغرف التى عن يمينى وشمالى تسكنها عواجيز أمريكيات يقضين الليل كله فى السعال والكلام . وكان من بين الأمريكيين رجل طويل عملاق ضخم . . ولكن دمه خفيف جدًا . . أصبح صديقى بسرعة غريبة . وكنا نذهب إلى حفلات الرقص والغناء معًا . وينام الفندق ونظل ساهرين حتى تنام الضفادع وتصحو العصافير . .

وكان «چيم» هذا لا يكف عن الضحك والأكل والشرب . ولكنه يحتفظ دائمًا بروح معنوية شابة . . على الرغم من أنه تجاوز الخمسين من عمره .

وكانت تبهرنى بساطته . . فهو إذا لم يجد مقعدًا جلس على الأرض ، فى التراب ، فى الطين . إنه لا يهتم . . وإذا لم يجد طعامًا نام حتى الصباح بلا طعام . . وليس لحياته برنامج وهو سعيد جدًا .

وفى يوم ذهبنا إلى الفندق متأخرين عن موعد الطعام . . أما أنا فثرت ودخلت المطبخ وقابلت مدير الفندق أطالب بطعامى لأنه لا توجد مطاعم محترمة فى الجزيرة ، وطالبت بالحد الأدنى من الطعام : بعض اللحوم والسلطة أو عصير الطماطم . ولكن المدير أمر بإحضار طعامى كاملا ونسيت فى ثورتى أن أسأل «چيم» إن كان يريد أن يأكل ، وعندما عدت إليه وجدته يقرأ فى رواية بوليسية كانت فى جيبه . وجاء الطعام وأكل دون أن يسأل أو يعترض . . بل إنه كان يأكل أطعمة لها رائحة كريهة جدا . . وإذا سأله الجرسون أجابه : ممتازة .

وبعد أن يتركنا الجرسون يقول لى : إنه لم يذق فى حياته أسوأ من هذا الطعام!

وفلسفته فى ذلك هى: أنه لا داعى لتحطيم روح أناس أقاموا فندقًا صغيراً فى جزيرة بدائية . . يجب تشجيعهم على إتقان عملهم وبناء فنادق أحسن وأروع . . وثانيًا: لأنه هو شخصيًا ولد فقيراً وعاش كالفقراء . . وثالثًا: أنه جاء إلى هذه الجزيرة ليستريح . وهو لن يسمح لإنسان أو طعام أن يضايقه . .

كلامه معقول!

وعندما كنا نذهب إلى حفلات الرقص كان «چيم» هذا هو آخر من يبحث عن مقعد أو مكان قريب من الرقص، وكان إذا رأى سيدة بدائية واقفة نهض وأجلسها، فإذا رفضت حملها ووضعها فوق المقعد . . والناس يضحكون وهو سعيد . .

وأصبحنا صديقين ودعانى لزيارته فى هونج كونج . .

وفى الطائرة وأنا عائد من بالى إلى جاكرتا كنت أقلب فى المجلات فوجدت إعلانًا فى صفحتين فى مجلة «لايف» ووقعت عينى على اسم أعتقد أننى سمعت به من قبل . . ومددت يدى إلى جيبى وأبحث عن البطاقة التى أخذتها من چيم وعليها اسمه وعنوانه . . قرأت البطاقة وقرأت العنوان والشركة التى يعمل بها . . إنه يعمل فى شركة باسيفيك لبناء السفن ومركزها هونج كونج ورأسمالها ١٥٠ مليونًا من الجنيهات . . بل إنه مديرها العام وصاحب أكبر الأسهم فيها .

هذا الرجل يملك هذه الملايين؟ وهو بهذه البساطة؟!

لقد كنت أناديه باسمه مجردًا من أى تكليف وأنا متردد . . وأخيراً كنت أناديه باسمه الصغير چيم هاى چيم . . هالو چيم . .

ولم أكن أعرف أننى وأنا أرفع الكلفة بينى وبينه كنت أرفع سبعة من الأصفار ستكون ثمانية وتسعة إن شاء الله!

بهذه البساطة بل بسبب هذه البساطة أصبح مليونيراً!

أستراليا

القارة السعيدة !

اضطررت وأنا فى إندونيسيا أن أعود إلى الهند مرة أخرى. فقد قامت حرب الحدود بينها وبين الصين. وكان الخلاف على خط اسمه خط ماكموهان. والخط قديم وهو يفصل بين الهند وبين الصين. وهو طبعًا خط على الخريطة. ولا وجود له على الأرض. وقد توغلت القوات الصينية إلى داخل الأراضى الهندية. واعتدت على قوات الحدود وثارت الصحف فى الهند. وثار الرأى العام. وحركات الصين على الحدود تدل على أنه من المحتمل أن يتسع نطاقها فى أية لحظة.

والصور التى التقطت للقوات الصينية تؤكد أن طرد الدلاى لاما، ليس إلا خطوة فى برنامج طويل يهدف إلى تصحيح الحدود بين البلدين. أو بعبارة أخرى هذه الحدود لم يعد لها معنى. فقد كانت هذه الحدود بين دولتين لم يعد لهما وجود الآن. . فقد كانت بين الصين فى عهد الإمبراطورية. وقد ذهب هذا العهد. وأصبحت الصين جمهورية. وبين الهند أيام كانت مستعمرة بريطانية واليوم استقلت الهند وأصبحت دولة أخرى!

وكلام مثل هذا كثير جدًّا. . ولذلك تقدمت القوات الصينية وأطلقت النار وجرحت وقتلت وأسرت. وهددت إمارات صغيرة على حدود الهند وتعيش فى رعاية الهند مثل ولايات: سكيم وبوتان وغيرهما.

وسافرت إلى الهند مارًّا بسنغافورة مرة أخرى. وبكلكتا ثم نيودلهى. وعندما سمع مستشار سفارتنا صوتى فى التليفون كاد يفقد النطق من هول المفاجأة وقال وقد خانه ذوقه الدبلوماسى، والصداقة الجديدة: وأنت ما الذى أتى بك. . هذه مصيبة!

وعرفت أن سفارتنا كانت قد وقعت فى أزمة بسبب ما كتبته عن الهند. ولكن الهنود كانوا أكثر تسامحًا وأكثر هدوءًا. . واعترف لى الكثيرون منهم بأن بلادهم فى حاجة إلى

إصلاح . . ثم أى بلد فى الدنيا . . بهذا العدد، وحديثة العهد بالاستقلال، فى حاجة إلى إصلاح . . ؟!

ثم إن الهند ليست بلداً ولكنها بلاد وأديان ولغات!

وأمام هذه الرقة، وفى رحابة الصدر، وفى النظرة الثابتة إلى هذه البلاد الواسعة العريضة الغنية العميقة، تمنيت أن أعود إليها وأن أعيش فيها . . وأن أمشى على قدمى وأن أفسح الطريق للأبقار والقرود وأن أتركها تعيش كما أعيش . .

فليس من حق الإنسان أن يقتل ليعيش هو . .

وفى رطوبة المعابد. وفى عبق رائحتها وفى الأعياد، وفى حماس الذين يعرفون عن الهند، وعاشوا فيها مدة أطول، وتجاوبوا معها أكثر، تمنيت أن أعود إليها سريعًا . .

ولم تطل إقامتى فى الهند . .

فقد سافرت بعدها مباشرة إلى أستراليا . . فلا فتحت حقائبى ولا بدلت ملابسى . . وكل ما فعلته هو أننى توقفت فى مطار سنغافورة . . وأمام رجل حافى القدمين، أو يرتدى حذاء يشبه صنادل الآباء الفرنسسكان، وقفت أعد له ما فى جيوبى من روبيات هندية . . وأطلب إليه أن يحولها إلى جنيهات أسترالية . . وكان من رأى هذا الرجل أنه من الأفضل أن أحتفظ بهذه الروبيات فسعرها أغلى فى أستراليا . . والروبية الهندية هى أحسن أنواع العملات فى كل القارة الآسيوية . . ولكن أمام عدم اكتراثى الواضح لهذه النصيحة، قدم لى عدداً من الجنيهات أخفيتها فى جيبى . . واتجهت أتسلى بالتطلع إلى الوجوه التى رأيتها من قبل . .

كان كل شىء فى مكانه لا يتغير . . وكأننى لم أذهب إلى أقصى الجنوب، وأصعد إلى أقصى الشمال . . فبائعة السندوتشات كما هى . . وابتسامتها تسبقها إلى كل الناس. وبائعة أوراق اليانصيب فى مكانها . . وأقلام الشفاه كريستيان ديور وأقلام الحبر الشيفرز والباركر كلها على الأرض . . متجاورة وملخبطة كما يتجاور على رصيف محطة القاهرة البيض والسميط والطعمية واللبان . . والفتاة التى تحجز غرف الفنادق لا تزال وراء النافذة الزجاجية ولا يزال وجهها إلى الأرض. تمامًا كما رأيتها من قبل . . فهى لا تنظر لأحد . . وإذا رفعت وجهها لك، فمن الصعب أن تعرف إن كانت تتحدث إليك وحدك . أو إليك وإلى الواقف جوارك فى وقت واحد . . وهى لأنها تحفظ أرقام كل الغرف الخالية لا تنظر إلى الغرفة . .

حتى الأطفال الإنجليز الذين جاءوا يمضون إجازاتهم السنوية وعددهم بالمئات لا يزالون واقفين فى الطابور . . لابد من الطابور . وكل واحد يمسك جواز سفره فى يده . . إن بعض هؤلاء الأطفال لا يمشى وإنما يحبو . . وبعضهم حتى غير قادر على أن يحبو . . إنه ممدد فى سرير صغير تدفعه المضيفات من طابور إلى طابور . . !

وعندما ركبت الطائر إلى أقصى الجنوب . كانت معلوماتى عن أستراليا تحددها الدهشة والسعادة والرهبة . .

كل النشرات الرسمية التى أمامى تذكر كل شىء إلا شيئًا واحدًا . . إنها تتحدث عن المصانع الحديثة . وعن السكك الحديدية والمبانى الجديدة . . وهناك أرقام وإحصائيات عن مستوى المعيشة وكيف أنه مرتفع وكيف أن أستراليا اليوم هى جنة العالم كله . تصوروا قارة كبيرة جدًا يسكنها تسعة ملايين فقط . أو يسكن جانبًا منها تسعة ملايين فقط . ومع ذلك فهذه القارة أقفلت الهجرة فى وجوه كل الناس، أو على الأصح فى وجوه الملونين فقط . . أى السود والصفر وحتى البيض تشترط أن يكونوا أصحاب مهنة فنية . .

وفى هذه النشرات صفحات كاملة عن تربية الأغنام وصناعة الصوف وتصديره .

وصفحات أخرى عن السكان الأصليين لهذه القارة وكيف أن الحكومة فى أستراليا حريصة على بقائهم ولذلك تضعهم فى مدارس محاطة بالأسلاك كأنهم حيوانات نادرة!

وأقلب فى النشرات وأتفرس فى الصور وفى الوجوه . لا شىء إلا الصناعة وإلا التنس وإلا الأغنام وقطارات السكك الحديدية . . وصور رجال ونساء فى غاية الصحة . . وحدائق ونواد وملاعب .

وكان إحساسى أن أستراليا هى دكان كبير جدًا أو مزرعة كبيرة أو ورشة . . ولكن أين حياة الناس؟ لا أعرف .

ودار الحديث مع جارى فى الطائرة حول أستراليا وكل واحد منا يتحدث عن شىء . .

وهذا المتحدث أسترالى . .

هو : إن بلادنا عظيمة وستكون أعظم من أمريكا فى الخمسين عامًا القادمة .

أنا : ممكن جدًا . . ولكن كيف يعيش الناس عندكم!

ـ أحسن حياة . . إن دخلهم مرتفع . . وفى بلادنا كل شىء . وهم يعملون وناجحون .

ـ و لكن بعد العمل أين يذهبون؟

ـ إلى بيوتهم . . أو إلى الحدائق والنوادى . فنحن كما تعلم أشهر دولة فى لعب التنس . .

ـ أقصد الرجل وزوجته أين يذهبان بعد نهاية العمل؟

ـ إلى أى مطعم أو دار للسينما لمشاهدة أى فيلم سينمائى . . أو زيارة الأصدقاء .

ـ أقصد الفتاة والفتى أين يذهبان لقضاء وقت لذيذ؟!

ـ الإحصائيات تقول إن ٢٥ ٪ من الشبان يلعبون التنس . . وملاعب التنس فيها المجتمع الأسترالى الحقيقى .

ـ أقصد بعد أن يلعبا التنس أين يذهبان؟

ـ لا أكاد أفهم .

ـ معك حق . . أنا أريد أن أقول أين يذهب الشباب من الجنسين بعد أن يفرغا من العمل ومن لعب التنس ومن العشاء . . أين يمرحون؟

إن الشارع الذى أقيم فيه به ١٤ عمارة كل واحدة ١٧ دوراً وكلها جديدة فى مقدمتها عمارة شركة الطيران «كانتاس» وهى أجمل عمارة فى مدينة سيدنى . . وهناك أنفاق تحت الأرض وجسور عالية وأكبرها كوبرى سيدنى . . والسيارات التى تمر على أى طريق من طرقه الستة تدفع ضريبة صغيرة تتضاعف بعدد الركاب وحجم السيارة . .

وأستراليا هذه ليست دولة وإنما قارة كبيرة فى حجم الولايات المتحدة . . ومساحتها ٣ ملايين ميل مربع . ونصف هذه المساحة حار والنصف الآخر معتدل . . ويعتقد علماء الجغرافيا أن هذه القارة قديمة جداً . . وربما كانت أقدم المناطق فى العالم التى عاش بها الإنسان . فتاريخ الحياة فيها يرجع إلى ١٠٠ مليون سنة مضت ، ويقال إن كل جزر إندونيسيا التى تقع شمال أستراليا كانت جزءاً من أستراليا القديمة .

وأستراليا قديمة جداً وجديدة جداً ، ولم يذهب إليها الأوربيون إلا فى القرن الثامن عشر . أو على التحديد فى سنة ١٧٨٨ عندما نزل الرحالة الإنجليزى جيمز كوك يوم ٢٦ مايو واستولى على هذه القارة ورفع عليها العلم البريطانى . وفى ذلك اليوم نزل إلى الشاطئ ألف رجل أبيض . . ومن هؤلاء تكون المجتمع الأسترالى الأبيض وظل تابعاً لبريطانيا من ذلك اليوم .

وقبل هذا الرحالة الإنجليزى وصل إلى أستراليا رحالة آخر هولندى. ولكنه رأى القارة من بعيد ولم يهبط إليها، وبعده جاء رحالة برتغالى ورأى القارة أيضًا وعاد إلى بلاده ومات هناك.

وأستراليا معناها: الأرض الجنوبية.. لأنها فى جنوب العالم المعروف.. أى جنوب آسيا..

* * *

وتزايد عدد سكان أستراليا بقدوم المهاجرين من كل بلاد العالم بعد سنة ١٩٠١ عندما اكتشفوا مناجم الذهب.

والآن أصبح عدد سكان أستراليا حوال عشرة ملايين يسكنون هذه المساحة من الأرض. ففى كل ميل مربع يقيم ثلاثة أشخاص ـ بريطانيا كل ميل مربع يسكنه ٧٥٤ شخصًا!

ومن بين هؤلاء الملايين يوجد ٤٥ ألفًا من السكان الأصليين..

هؤلاء السكان الأصليون هم أغرب مجموعة بشرية فى العالم كله.. فقد حار العلماء فى أمرهم.. لم يتفق العلماء على أصل هؤلاء الناس. لا أحد يعرف..

ثم إن هؤلاء الأستراليين الأصليين قد عاشوا فى هذه القارة ألوف السنين. فلم يتركوا حضارة، أو يبنوا بيتًا، لم يصلحوا أرضًا. لم يستأنسوا حيوانًا واحدًا، لم يكتبوا ورقة.. عاشوا هكذا فى حال ارتحال.. إنهم يتركون بيوتهم ويهيمون على وجوههم.. حتى اليوم.

ولهم طريقة غريبة فى المشى، فهم يمشون فى خط مستقيم دائمًا فى حين أن الناس المتحضرين يمشون فى خطوط ملتوية إذا صادفتهم عقبة التفوا حولها.. أما هؤلاء فيمشون فى خطوط مستقيمة..

وهؤلاء الأستراليون يعيشون الآن على صيد السمك. وعلى الأعشاب وصيد الحيوان.. والدولة هنا تحاول أن تحتفظ بهم حتى لا ينقرضوا.. فقد نقص عددهم فى المائة سنة الماضية حوالى ٣٥٠ ألف نسمة.. ولذلك فإن الدولة تفتح لهم المدارس، وتبنى لهم البيوت، وتحاول أن تجعل من بينهم مدرسين وقساوسة.. وكثير من هؤلاء

الأستراليين الأصليين قد تفوق فى الفنون والغناء والرقص، ولكنهم حتى الآن مازالوا يعيشون على حافة الحضارة.

نسبة التعليم هنا ١٠٠٪ ومعظم الناس لا يشترون الصحف ولكنهم يشتركون فيها.. فالصحف توزع فى البيوت فى ساعة مبكرة جدًا، وبأسعار أرخص. هنا تصدر ثلاثة صحف يومية. واحدة عدد صفحاتها ٢٦ صفحة.. كل يوم، وتوزيعها نصف مليون نسخة.. والعدد الأسبوعى فى ٧٢ صفحة وتوزيعه ثلاثة أرباع المليون وثمنها خمسة بنسات أى حوالى ١٥ مليما!

* * *

ووجود هؤلاء الأستراليين الأصليين فى أستراليا يجعلهم يرتعدون من الملونين.. من السود والصفر.. ولذلك عمدت أستراليا إلى السياسة البيضاء. وقد كانت أول الأمر أستراليا للإنجليز.. وبعد ذلك أصبحت: أستراليا للأستراليين.

وبعد الحرب الأخيرة وبعد أن زاد عدد المهاجرين من كل أوربا أصبحت سياستها: أستراليا للبيض..

إن الصفر من الصين والسمر من الهند ليس لهم مكان هنا.. ولكن الذى حدث أن الصفر أحاطوا هذه القارة من كل النواحى.. فهم فى الشمال فى إندونيسيا، وفى الشمال الغربى فى سيلان والهند والفلبين، وفى أقصى الشمال فى الصين واليابان.. ومنذ أيام منحت أستراليا الجنسية الأسترالية لعدد من الصينيين الأغنياء؛ لأنهم أقاموا مدة طويلة فى هذه البلاد. وستعطى أستراليا الجنسية لـ ٥٠٠ طفل أسترالى ولدوا من أمهات يابانيات فى أثناء الحرب الأخيرة.

* * *

وقد نشرت صحيفة «الديلى تلجراف» بتاريخ أغسطس سنة ١٩٥٩ مقالا للمؤرخ البريطانى الكبير «أرنولد توينبى» يتحدث فيه عن مستقبل أستراليا فى الخمسين عامًا القادمة.. طبعًا مدح البلاد وجمالها وثرواتها وتقدمها السريع جدًا.. وهو طبعًا على حق فى كل ما قال.. ثم تحدث عن هذه القارة الكبيرة التى يعيش فيها فقط عشرة ملايين كلهم من الأغنياء، ورأى أن أستراليا إما أن تقسم ثروتها مع غيرها أو ستضيع منها هذه الثروة.. أو بعبارة أخرى يجب على أستراليا أن تفتح أبوابها للملونين.. للصفر.. للصينيين.. واقترح المؤرخ الكبير أن يعجل الأستراليون بالزواج من الآسيويات!

وأستراليا من الممكن أن تتسع لمائتى مليون نسمة يعيشون فى رخاء.

وفى مدينة سيدني الآن محلات ومطاعم صينية. بل هنا جالية صينية قليلة لا تتجاوز بضع مئات ولكنها جالية نشطة جدًا. ويتكاثر عددها فى صمت ودون أن يشعر بها أحد.

وأكبر الجاليات الأجنبية هى الجالية الإيطالية وتعدادها حوالى ١٤٠ ألفًا. وتليها الجالية اليونانية وعددها ١٢٠ ألفًا، ثم الجالية اللبنانية وعددها يزيد على ٢٥ ألفًا. وقد رأيت النادى الجديد ــ أقصد العمارة الجديدة ــ التى بناها اليونانيون هناك. العمارة اسمها «النادى الهللينى» أى اليونانى.. عمارة أنيقة جميلة تكلفت ربع مليون جنيه. والعضوية فيها للجميع. وقد اختارونى عضوًا للبرهنة على أنها ليست مقصورة على اليونانين وإنما هى لكل الناس المقيمين والمسافرين.

والجالية الإيطالية فى أستراليا تحتكر بعض الأطعمة وبعض المشروبات. ومعظم الجرسونات هنا من الإيطاليين، وتوجد هنا مقاه صغيرة كالتى توجد فى إيطاليا. وهنا قد عرفوا كلمة كابو تشينو ــ أى قهوة بلبن ــ وكثير من الأستراليين لا يعرف إن كانت هذه الكلمة إنجليزية أو فرنسية أو إيطالية.. لأن الإيطاليين قد أدخلوها فى اللغة منذ وقت طويل.

* * *

وعلى الرغم من أن أستراليا مجتمع إنجليزى صميم فإن الجيل الجديد هنا بدأ يتحرر من القيود الإنجليزية، بل إن الناس يشتمون الإنجليز ويتهمونهم بالبرود الشديد وبالكسل. قال لى رجل أعمال كبير: إننا نكره هؤلاء الناس. إنهم باردون.. وقذرون أيضًا. إن الرجل الإنجليزى من النادر جدًا أن يستحم.. وأحسست برغبة شديدة فى الهرش، فأنا الآخر لم أستحم منذ وقت طويل. والبرد يا ناس على الرغم من أن الربيع بدأ رسميًا من أسبوعين!!

وقال لى رجال أعمال آخر.. إنه عندما ذهب إلى إنجلترا كاد يختنق من برود الإنجليز ومن شدة تمسكهم بالتقاليد. وأعربت له أنا الآخر عن إحساسى ببرود الأستراليين وشدة تمسكهم بالتقاليد، وأنه لابد من أن يرتدى الإنسان البدلة كاملة طوال النهار وطوال الليل. فبهذه البدلة يستطيع أن يدخل أى مطعم أو أى مكان سهر فيه، ومن غير البدلة والكرافتة يصبح طريدًا طول الليل وطول النهار..

أما الجيل الجديد هنا فقد بدأ يتحرر. وبدأ يمشى بالبنطلون الضيق والقميص المربعات والقميص البقرى ـ أى نسبة للبقرة وأولادها المرسومة عليه!

وبدأ الجيل الجديد يطلق الأسماء الأمريكية على البلاچات.. منها بلاچ ميامى.. وفلوريدا.. ولاس فيجاس..

وفى الصحف الآن معركة بين أنصار التقاليد البريطانية والبدع الأمريكية. وبدأت الصحف تنقل للناس هنا أن الأمريكيين يسخرون من هذه الأسماء المسروقة.. ولكن الجيل الجديد مُصرٌ على هذه الأسماء، مُصر على الارتباط بأمريكا أكثر من ارتباطه بإنجلترا..

ومع ذلك فالأفلام هنا تبدأ بالسلام الملكى؛ فيقف كل الناس، وتطل الملكة إليزابث هى وزوجها وأولادها عند بداية ونهاية كل فيلم. وأستراليا ما تزال خاضعة للتاج البريطانى. وما يزال لها حاكم عام بريطانى. ولها نفس العادات والتقاليد واللغة.. والعادات فى البيت وفى الشارع والمطعم.

* * *

ولكن أعتقد أن شيئًا جديدًا هنا قد حدث..!

فمثلا فى البنك وهو مكان ليس فيه مجال للمجاملات ولا للرقة.. إنهم أناس يشتغلون فى الأرقام والحسابات ومشغولون جدًا. هذا فى كل الدنيا، ولكن هنا فى أستراليا يعاملونك بأدب شديد جدًا.. تذهب إلى أحد المكاتب لتطلب تحويل أى مبلغ من المال، تتقدم إليك سكرتيرة وتفتح لك الباب، وتسحب لك مقعدًا وتظل واقفة حتى تجلس كأنك فى طائرة، وكأنها هى مضيفة.. وبعد لحظات تذهب بك إلى الموظف المختص وتقدمه لك.. ويسحب لك هو الآخر مقعدًا، وينتظرك حتى تجلس.. وفى لحظات كلها أدب ورقة ينهى لك ما تريد.. وينهض واقفًا، ويسبقك إلى الباب يفتحه لك ويودعك ويتمنى لك رحلة سعيدة. مع أن الفلوس التى كسبها البنك لا تتجاوز عشرين قرشًا.. وليس هذا فى البنوك فقط. وإنما فى الشركات وفى المحلات التجارية..

أذكر أننى دخلت محل «وولورث» وهو من أشهر المحلات فى أستراليا وفى كل دول الكومنولث.. وكنت أبحث عن الفرع الخاص بالصابون.. وظللت ألف فى المحل، فى أدواره السبعة.. وأجلس فى المقهى وأحتسى الشاى. ثم أصعد إلى المطعم وأتناول بعض

السندوتشات وبعد ذلك أنزل إلى المكتبة وإلى أقسام العطور والملابس . . ساعة من الوقت وأنا ألف . . ونسيت أننى جئت لشراء قطعة صابون . . وفوجئت بأن إحدى البائعات تمشي ورائى طول الوقت . وعندما هممت بالخروج سألتني : لماذا لم تشتر شيئًا؟ . فقلت : والله كنت عاوز أشترى قطعة صابون . . لكنى مش لاقى فين .

وعادت بى إلى الدور الثالث واشتريت قطعة الصابون وثمنها لا يزيد على ثلاثة قروش وودعتنى حتى الباب وابتسمت ابتسامة تساوى ثلاثة آلاف قرش!

وفى شركة طيران كانتاس الأسترالية العالمية تذهلك معاملتهم . . أدب ورقة . . من المضيفة إلى الموظف . . كأنهم جميعًا «خدامين أبويا» . .

لا أعتقد أن شيئًا من هذا يجرى فى المجتمع الإنجليزى . .

فعندما كنت فى لندن ذهبت إلى محل سلفريدج . . وهو من المحلات الكبيرة، وحاولت صرف بعض الشيكات السياحية ولاحظ الموظف أن إمضاءاتى كلها مختلفة بعضها عن بعض فدهش . . وقلت له إننى لم أتعود أن أوقع بحروف لاتينية . . وإنما بحروف عربية . . واقتنع الرجل وقبضت المبلغ وانصرفت . ثم نادانى بعد ذلك قائلا : أرجوك أن تشرح هذا لبعض زملائى ، لأنهم أغبياء ، ولأنهم يتصورون أن بلاد العالم كله تكتب وتتكلم الإنجليزية . .

ولكنهم فى أستراليا مؤدبون ومؤدبون كمان مرة . . وابتسامتهم تبدأ فى بلادهم وتنتهى فى بلاد الإنجليز!

أما الجيل الجديد . . فقد ترك الأدب والرقة للوالدين ، وانطلق هو نحو البساطة الأمريكية . .

* * *

سألنى بعض الناس : قماش بدلتك منين!

قلت : من عندنا .

قالوا : طيب والتفصيلة!

قلت : من عندنا برضه .

قالوا: والبدلة دى بتاعتك!

ونظرت إلى البدلة وقد تكرمشت ونقص طولها من البرد قلت: كانت بتاعتى!

والحياة الاجتماعية والسياسية والنيابية إنجليزية مائة فى المائة.. فهنا برلمان من مجلسين. مجلس نواب وأعضاؤه ١٢٦ عضواً، ومجلس شيوخ وأعضاؤه ٦٠ عضواً.. المجلس الأول لمدة ست سنوات ويسقط نصف أعضائه كل ثلاث سنوات..

وفى كل ولايات أستراليا الخمس مجلس نيابى واحد. وهذه الولايات الخمس تظهر على شكل خمس نجوم على العلم الأسترالى..

الصحافة هنا تصدر ٦٥٠ جريد يومية. بل إن بعض الأحياء فى المدن تصدر صحفًا يومية..

وقد دهشت جداً عندما قرأت فى الصفحة الأولى أمس أن وزيراً يتهم زميلا له بالرشوة!

وعلمت أن قصة الوزيرين هذه لابد أن يناقشها الخطباء فى حديقة الدومين.

وقررت أن أخصص يوم الأحد القادم لأستمع إلى قصة الوزيرين بصراحة..

* * *

والمرأة الأسترالية هنا تساوى الرجل تمامًا.. فى كل شىء..

إلا أن هناك قانونًا يجعل مرتبها دائمًا يساوى ٧٥٪ من مرتب أى رجل ولكن القانون يعطيها عندما تتزوج نصف ما يملكه الرجل من أرض ومال وعقار!

والمرأة الأسترالية هى أول امرأة فى العالم كان لها حق التصويت والترشيح فى الانتخابات. فقد قرر ذلك قانون صدر سنة ١٨٩٣.

والدولة تشجع الفتاة الأسترالية على الزواج وتشجع أيضًا على إنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال، فكل طفل يولد له ثلاثة جنيهات مساعدة من الدولة.. للغنى والفقير. وفى كل دور السينما فى أستراليا يرى الناس شريطًا مسجلا لزوجين أنجبا ١١ طفلا من الذكور والإناث.. ويظهر على الشاشة مندوب شركة التأمين على حياة هذه الأسرة ومعه مبالغ كبيرة من المال قدمتها الدولة لهذه الأسرة.

والمرأة الأسترالية تهتم جداً بصحتها وبأناقتها . . فلا توجد امرأة لا تشترك فى ناد من الأندية ، ونظرة واحدة إلى ڤترينات المحال فى شوارع بيت وچورچ وكاسلرى وفى ميدان «كروس» تدلك على أن هذه القارة ليست إلا ملعباً كبيراً لكل أنواع الرياضة . . وأهم الرياضات هنا التنس والكريكيت . . وقد فازت أستراليا بكأس ديفيز للتنس ١٤ مرة . وكان ترتيب أستراليا الثالث فى الدورة الأولمبية السادسة عشرة فى سنة ١٩٥٦ ، جاءت بعد الاتحاد السوڤيتى وأمريكا . وجمهور التنس معظمه من النساء .

والمرأة الأسترالية حريصة على رشاقتها لدرجة أنها تموت من الجوع ولا يضاف لها درهم واحد من الشحم . . وكل يوم تزن نفسها عارية تماماً . . وكل يوم تنهض من النوم وتمسك خيطاً تقيس به وسطها . . وفى الأجزخانات توجد وصفات كثيرة لإنقاص الوزن وإذابة الشحم . وهناك عدد كبير جداً من المحال اسمها : محال الفيتامينات . . أو محال مائة سنة بلا شحم . . أو محال الوزن الذهبى . . !

وكل نساء أستراليا طويلات القامة . . ومعظم النساء هنا يلبسن البلوفرات الصوفية الملونة فى كل فصول السنة . . حتى فى الصيف يرتدين بلوفرات من الصوف والحرير . . والآن تمشى الفتيات بالبنطلونات القصيرة جداً فى الشوارع . وكل المحلات تذيع فى المكروفون بأصوات نسائية عن السلع التى عندها ومعظمها سلع حريمى .

والفتاة هنا تندهش جداً إذا دعوتها إلى شراب ثم دفعت لها الحساب . . كما تفعل فتيات إنجلترا والسويد والدانمرك . . وهذه بداية عيوب التقليد الأمريكانى . . والمرأة هنا مهما كان دينها فإنها تستطيع أن تتطلق من زوجها دون أن ترجع إلى الكنيسة . وإذا انفصلت امرأة عن زوجها ، فإن الزوج الجديد يجب أن يدفع تعويضاً . . والتعويض ليس كبيراً جداً ، والقانون هنا يسمح للشاب أن يتزوج فى سن ١٢ وللفتاة أن تتزوج فى سن ١٤ . الدولة تريد نسلا كثيراً ، تريد أن يزداد عدد سكانها من الداخل . . لا عن طريق الهجرة من الخارج . . !

وفى سنة ١٩٦٤ ذهب أحد الوزراء إلى أوربا لإقناع ثلاثة آلاف فتاة بالهجرة إلى أستراليا . .

ثلاثة آلاف عروسة طبعاً . .

واختار بنات إيطاليا لأنهن جميلات ولأنهن يجدن الطهى . . ولأن فى أستراليا جالية إيطالية كبيرة . .

ومن بنات سويسرا لأنهن يجدن إدارة الأعمال . . وأستراليا دولة صناعية ناهضة . .

مطلوب فتيات لأستراليا . . الرجال يشكون من قلة النساء . . على عكس الدول الأوربية التى أكلت الحرب معظم رجالها ولم تترك إلا الفئران والنساء!

وعندى حل ـ وهو مرفوض مقدمًا ولكنه معقول وليس جديداً ـ وهو أن تسمح الدولة بتعدد الزوجات!

طبعًا تعدد الزوجات حرام فى الديانة المسيحية . . ولكن البابا ـ وهو رأس الديانة الكاثوليكية ـ قد سمح بتعدد الزوجات فى أواسط أفريقيا . .

ولكن سبب ذلك هو أن تعدد الزوجات عادة مقبولة فى هذه القبائل الإفريقية . والإسلام عندما انتشر بين القبائل كان بسبب أنه لا يعارض فى تعدد الزوجات . . بينما كانت المسيحية تعارض . ولذلك رأى البابا أنه ليس من الضرورى ، ولهذه الاعتبارات الخاصة ، ألا يصدم الشعور الدينى بتحريم الجمع بين زوجتين . . فتفضل قداسته وفتح الباب على الآخر وسمح للرجال ، شيوخ القبائل خصوصًا ، بأن يتزوجوا أى عدد من النساء وأحيانًا من الراهبات . .

وفى أستراليا ، ولهذه الاعتبارات التى تجعل أستراليا للبيض فقط ، من الممكن الجمع بين أكثر من امرأة . . واحدة منهن زوجة على الأقل . . والثانية والثالثة كالزوجات . . وفى هذه الحالة يجب على الدولة أيضًا أن تنظر بشىء من الارتياح إلى اللقطاء ، كما تفعل السويد!

فما دامت أستراليا حريصة على زيادة عدد النسل بين البيض بالذات . . فيجب أن تصفق لكل من يأتى بولد جديد . . وما دامت ستصفق ، معنى ذلك أنها سترفع يديها الاثنتين عن القيود وعن تنفيذ القوانين التى تسأل : هذا الطفل من أين؟ وأين وجدتموه؟ وإلى آخر هذه الأسئلة السخيفة التى تؤدى إلى تحديد النسل وتؤدى فى نفس الوقت إلى سد نفس الرجل ، فلا يقبل ولا يعانق . . وإلى كسر قلب الفتاة فلا تحب ولا يمتلئ بطنها بالحب!

هذا رأى أعرضه مجانًا لمن يهمه مضاعفة عدد سكان الأستراليين من البيض فقط .

ومع الأسف لم يتسع وقتى لكى أتقدم بهذا الاقتراح إلى حكومة أستراليا . . ولا لكى أسجله حتى لا يلطشه منى أى شاب وشابة . . ويشرعان فى تنفيذه تحت أقرب شجرة!

* * *

وأنا أنتهز هذه الفرصة لأحدثك عن يوم فى حياة فتاة أسترالية . . !

ليكن اليوم مثلا هو يوم الأحد . .

إنها تنهض من النوم فى السابعة صباحًا مثلا . . وتلعب بعض الألعاب السويدية . . وبعضهن يستحم فى هذا اليوم . . وتمسك الخيط وتقيس وسطها ، هل زاد؟ هل نقص . . ؟ وتقف عارية على الميزان لتعرف . . وتقف أمام المرآة وترسم حواجبها . . قول كده يا سيدى فى نصف ساعة ، والحواجب لابد أن تكون غليظة وتسريح شعرها لا يستغرق بضع دقائق لأنه شعر حرير على الخدود يهفهف ويرجع يطير إلى آخر الأغنية المعروفة . . وبعد ذلك تمسك الصحيفة اليومية ، وتقرأ النشرة الجوية . . وليكن الجو لطيفًا فترتدى البنطلون القصير . . وتضع المايوه فى الحقيبة ثم تختطف فنجانًا من القهوة بالزبدة وبعض اللحوم الباردة وبعض أقراص الفيتامينات . . وتنطلق إلى الشارع ، إلى الترام ، إلى الميناء ، وتركب أحد الزوارق إلى حديقة الحيوانات وتمضى اليوم كله هناك . .

وبعد الظهر تذهب إلى النادى . . أو إلى الشاطئ وتشرب البيرة فى الساعة الخامسة . . وتذهب إلى السينما ومعها بعض الساندوتشات وتخرج من السينما فى الثامنة وتتناول العشاء وتنطلق إلى البيت لتلحق آخر برنامج فى التليفزيون . .

وتتحدث فى مكتبها عن اليوم الرائع الذى أمضته تحت الشمس فى الهواء ومع رجل أجنبى جاء إلى هذه البلاد لأول مرة . .

وتروى لزميلاتها قصصًا كيف أنه يدعى أن فى بلاده عمارات عالية ومطارات ودورًا للسينما ، وأنهم يتكلمون اللغات الأوربية فى ظلال الأهرام وأبو الهول!

طبعًا سوف تنسى وزميلاتها أنهن جميعًا ولدن وعشن وسيمتن فى أستراليا دون أن يسافرن إلى أى بلد آخر . .

يوم لذيذ . . ما رأيك؟

وعندما تعود هذه الفتاة إلى البيت ستركب الأوتوبيس . . ولن يتسع وقتها لقراءة المجلات . ومعظم هذه المجلات هنا تتحدث عن الجمال والشباب . .

ويظهر أن المرأة هنا لم «تَتَأمْرك» أى تصبح أمريكية فهى لا تحب الصحف المثيرة التى تتحدث عن الجرائم . . وربما كان السبب هو أن هؤلاء الأستراليين من سلالة المجرمين الذين كان الإنجليز يحكمون عليهم بالسفر إلى هذه البلاد على سبيل العقوبة . . فالجريمة

تجرى فى دمائهم . . ويظهر أن الجريمة تجرى فقط فى الدم . . ولكنها ليست الدم نفسه . . فهم أناس طيبون مسالمون . . يكفى أنهم يريدون أن يعيشوا وأن يجعلوا لحياتهم طعمًا ولونًا . . ويكفى أن واحدة منهن أبدت إعجابها الشديد ببلادى وأعجبت بأخلاق المصريين . . وبعيونهم وشعرهم الأسود الخشن . . وبثقافتهم وسفرهم بين القارات . وسألتها إن كانت قد قابلت أحدًا من المصريين!

وكانت هزة رأسها، وهى تقول: لا ، أكبر دليل على غباوتى .

ولكن عندما وازنت بين غباوتى ، وبين التحية العظيمة التى وجهتها لشخصى ، أحسست بالخسارة الفادحة التى أصابت بلادى . عندما أضاع أحد أبنائها هذا المجد العظيم بحسن نية!

ووعدت بلادى، بينى وبين نفسى ، أن أعوضها عن هذه الخسارة عند أول فتاة أصادفها فى أستراليا بعد ذلك!

ولاحظت أيضًا أن الفتيات فى أستراليا لا يملن كثيرًا إلى استخدام التليفون . فالتليفون هو وسيلة المواصلات عند الفتيات العاجزات عن الكلام بصوت مرتفع ويقلن ما يعجبهن وعلى عينك يا تاجر!

وهى تمشى فى الشارع بسرعة كأنها على موعد مع أحد الطيارين على سلم إحدى الطائرات النفاثة التى تأخرت عن موعد قيامها دقيقة ونصف دقيقة!

والحياة هنا فى الليل غريبة . . فالمحلات كلها تقفل أبوابها فى الساعة الخامسة مساء ، كل المحلات طبعًا ما عدا بعض المطاعم تقفل أبوابها فى الساعة التاسعة والنصف . وفى بعض الأحيان تقفل المحلات فى الحادية عشرة . . بعدد أصابع يدك محلات أخرى تقفل نوافذها فى الساعة الثانية عشرة ، أما الأبواب فتبقى مفتوحة حتى الثانية صباحًا وفيها هيصة وخمور ورقص . . ولكن الكباريهات هنا قليلة جدًا . . ويظهر أن التليفزيون قد علم الناس البقاء فى البيت ، فالتليفزيون قد نقل الأفلام والحفلات الراقصة كلها إلى الناس فى بيوتهم ــ جهاز التليفزيون بالتقسيط ٣٧ جنيهًا ، ونقدًا وحالاً بمبلغ ثلاثين جنيها!

والرجال إذا سهروا فهم يذهبون إلى البارات ويشربون البيرة واقفين . ويقطعون الليل كله بين البار وبين دورة المياه ــ آسف دورة البيرة!

ولا يوجد هنا طعام لوكس . . ولا شراب لوكس . . وإن كانت توجد فقط شوربة من ذيل الكانجرو . . هذا هو أحسن شيء يقدمه لك الأسترالى .

والكانجرو تقاومه الحكومة الآن لأنه يأكل الأعشاب التى تأكلها الأغنام . . والأغنام أهم . .

أما الكانجرو فيمكن الاحتفاظ به فى الحدائق للزينة .

* * *

ومدينة سيدنى وعدد سكانها حوالى مليونين ، هى المدينة الوحيدة المودرن . .

أما بقية المدن مثل كانبرا وملبورن ونيو كاسل وبريسبن وداروِن وبيرث ، فهى مدن إنجليزية شكلا وموضوعًا وعادات وتقاليد . . والناس هناك ينظرون إليك بدهشة . . ويكاد الواحد منهم يسألك : أمال حضرتك جاى ليه هنا؟

فتقول له : والله أتفرج .

فيقول : يعنى حتقابل الناس؟

وترد عليه : أيوه!

وتفاجأ به وهو يقول : إزاى تقابل الناس وأنت مش لابس بدلة سودة وكرافتة سودة يا أخى . . !

ولكن الطريق إلى هذه المدن الإنجليزية جدًا أو الإنجليزية بعض الشىء . . رائع فاتن . . لا تجد له نظيرًا فى أى مكان من العالم . . وشكل الوديان والجبال والأنهار والأبقار والسيارات والمداخن والمصانع . . والهواء النظيف . . وكل شىء نظيف . . الناس والحيوانات والأعشاب . . كل هذا يغسلك من داخلك . . يجعلك تملأ صدرك بكل شىء دون خوف . . فالبلاد كلها صحة . . وكلهاشباب ، وكلها ترحب بالأجانب . . فهنا عشرات الألوف من الأجانب ، امتلأت أجسامهم وجيوبهم بالملايين!

ولكن سيدنى أجملها جسمًا . .

أذكر أن الطائرة عندما أخذت تحوم فوق سيدنى ليلا ، كانت سيدنى كعشرات الألوف من قطع الماس تناثرت فوق قطيفة سوداء . . وظلت الطائرة تلف وتدور أكثر من نصف

ساعة، فقد كان المطار مليئًا بالطائرات وكانت عجلات الطائرة لا تطاوعها فى النزول . . وفهمت أن الطائرة ستنزل فى مطار آخر . . فى هذه اللحظة أحسست أن عقلى سيطير إذا لم أر هذه المدينة فى الليل . .

واليوم بعد أن مشيت فى كل شوارع مدينة سيدنى، ومررت بكل معالمها ومتاحفها والميناء . . وملأت عينى منها . . يكاد عقلى يطير إذا لم أسافر منها اليوم أو غداً لأرى بلاداً أخرى . .

مهما كانت أستراليا جنة وأروع بزمان من أى جنة . . فليست الجنة أن ترى شيئًا واحدًا كان حلوًا، ولكن أن ترى الكثير وأن تعرف الكثير . فالجنة فى التنقل لا فى البقاء حيث أنت . فأنا أرفض أن أبقى حيث أنا حتى لو كنت من أغنياء أستراليا ولو كان عندى أعظم ناد للقمار وبه ألف ماكينة للبوكر تبلع أموال الناس طول الليل وطول النهار . . وهى واقفة على حيلها لا تكلفنى إلا تنظيف التراب الذى تساقط من أيدى المقامرين الخاسرين . . .

ليست الجنة فى أن أشير إلى التفاحة فتسقط فى فمى وأن تشير إليها معدتى فتسقط فى أمعائى . . وأن تلعب بها معدتى فلا أعرف أين تذهب بعد ذلك .

ولكن الجنة هى أن أجرى وراءها وأتصيدها من الوحل وآكلها خضراء تلسع لسانى . . وأشكو منها ومن طعمها وأملأ بالشكوى هذا الورق . . وألوف الصفحات أمال يعنى أعيش منين . . !



أستراليا تعرف الشىء الكثير عن لبنان، إن فيها ٢٥ ألف سفير يمثلون لبنان . . ! ومن بينهم أصحاب ملايين بدءوا حياتهم ببيع الأطعمة اللبنانية .

وهناك مثل يقول : تقتل اللبنانى يطلع تانى . . وأنا أعتقد أن هذا المثل صحيح . . بل أعتقد أن قتل اللبنانى مستحيل . . فهو لا يموت . .

إنك تضعه فى أية بيئة مهما كانت عسيرة، فيعيش ويتفوق . وفى أستراليا عدد كبير من التجار الناجحين، بل بينهم أصحاب ملايين . . جاءوا إلى هذه البلاد منذ ٧٠ عامًا . . وعاشوا فى ظروف قاسية وتفوقوا على هذه الظروف بشرف ونزاهة وصبر عجيب . سألت المليونير أو الملايينير تشارلز سكاف، أو سكيف : كيف جمع هذه الثروة . . وكيف

أصبحت له هذه المصانع وهذه المحلات التجارية لبيع الأقمشة القطنية والصوفية؟ وكيف أن اسمه يرن فى سنغافورة وفى هونج كونج؟ وسألت أخاه الميونير روبى سكيف؟ وأخاه المليونير جون سكيف؟ كيف أصبحوا أصحاب ملايين . . كل واحد منهم له قصة .

وقابلت أناسًا عاديين جدًا . . وبعضهم لا يقرأ ولا يكتب وقد جاءوا من قرى مجهولة جدًا فى جبال لبنان، وقطعوا هذه المسافات الطويلة جدًا من الزمان والمكان، قرروا وهم فى هذه القرى المجهولة أن يعيشوا فى أستراليا . .

قابلت فتاة فى الطائرة اسمها: «حنة بوطنوس» من قرية «بلوزا»، وجدت المضيفات حائرات فى أمرها . . إنها تطلب منهن أشياء بلغة غير مفهومة وتجمعت حولى المضيفات يسألننى إن كنت أعرف اللغة اللبنانية ـ وهى فعلا لغة مختلفة عن لغتنا، بل عن لغة أهل المدن فى لبنان نفسها ـ ودار بينى وبين الفتاة اللبنانية كلام تفهمه منى . . وكلام لم أفهمه منها . . وعرفت أنها تريد أن تشرب: «لاموناضة» أى ليمونادة أو عصير ليمون . .

لقد جاءت هذه الفتاة إلى أستراليا لتعيش مع أخيها الذى لايعرف القراءة والكتابة . . وقابلته فى المطار فعرفت أنه سيبقى وسيتعلم اللغة الإنجليزية هو وأخته . .

قابلت فريد جبور اسطفان . إنه صاحب مطعم الأرز فى أعظم شوارع العاصمة فى شارع بيت . . ومطعم الأرز فى الطابق الثانى من عمارة صغيرة . . وفريد متزوج من لبنانية ولدت فى أستراليا، وهما الآن فى أستراليا . . . وفريد كان يعمل سائق تاكسى، وكان يعمل صبيًا فى مطعم . . وهو منذ ١١ سنة فى أستراليا . . وقرر أخيرًا أن ينتقل إلى القاهرة وأن يسترد جنسيته اللبنانية فقد سمع أن التجارة عندنا أحسن . . وهو مستعد أن يعمل فى أى مكان وأن يبدأ من جديد . .

قابلت تريزه بو خاطر وهى متزوجة من شاب إيطالى وقد افتتح الاثنان مكتبًا للسياحة هنا . . والمكتب يعمل بنجاح هائل، وهى على الرغم من أنها لا تعرف الكثيرين من اللبنانيين هنا فإنها لا تشعر بالغربة . . فأى مكان كأى مكان . . والحياة عمل . .

وعرفت أن عدد الذين هاجروا من قرى بلوزا وزغرتا وبشرى وكفر منعان المجهولة فى جبال لبنان حوالى عشرة آلاف رجل وامرأة . . وعرفت أن اللبنانيين هنا يسمون المهاجرين الجدد باسم الأستراليين الجدد .

وقد حاول أصحاب الملايين اللبنانيين: سكيف ومنصور وكاندل أن يقنعونى أن جمع

مليون جنيه أو عشرة ملايين جنيه ليس صعبًا . . أبدًا ليس مستحيلا . إن المهم أن تجمع المائة ألف الأولى فقط . .

روى المليونير تشالز سكيف كيف أن والده جاء إلى هذه البلاد من ٦٥ عامًا . وكيف أنه بدأ حياته ببيع الأطعمة اللبنانية . . وكيف أنه كان يصنع الطعام فى البيت ويمر على الناس فى البيوت ، لم يكن له مطعم ولا مطبخ ولا اسم ولا مكان . ولكنه قضى عشرين عامًا يحمل الطعام على كتفه . . عشرين عامًا افتتح محلا صغيراً لا للطعام ولكن للأقمشة . . ولما مات تفرق أولاده كل واحد فى عمل . . ونجحوا جميعًا ولكن كيف نجحوا؟ يقول أصحاب الملايين اللبنانيون إن النجاح ليس له سر . ولكن الصبر والبساطة فى الحياة هما سر النجاح . .

ويقول روبى سكيف ونحن فى قصره الجميل على ميناء سيدنى : أعتقد أن سر النجاح هو فى التواضع . . فالإنسان يجب أن ينحنى لعمله لا أن يجعل العمل ينحنى له . . وهناك كثيرون تخرجوا فى الجامعة ومعهم شهادات جامعية . . معظم هؤلاء لم ينجح . لماذا؟ لأنهم يترفعون عن العمل بأيديهم بينما ينجح الرجل الذى لم يدخل الجامعة ، لأنه يرى أن العمل أكبر منه وأنه تلميذ فى جامعة الحياة وأنه لم يتخرج بعد ، ولن يتخرج أبدًا . .

ولاحظت أن أولاد أصحاب الملايين يعملون معهم فى المكاتب وفي المحلات التجارية . . جميعًا . ففى مكتب تشالز سكيف توجد ابنته «جميلة» سكيف . . إنها تعمل سكرتيرة عادية جدًا . . ترد على التليفون وتكتب الرسائل على الآلة وتحضر فى مواعيد العمل . . وكذلك الأولاد الذكور . . إنهم ولدوا ليعملوا ولينجحوا أيضًا . .

هنا ٢٥ ألف لبنانى قرروا أن يعيشوا . . إن معظمهم لا يعرف اللغة العربية . . ومعظمهم لم ير لبنان ولكن أى عمل جليل يؤدونه للبنان أكثر من أن ينجحوا هنا أو فى أى مكان . . وأن يكونوا أحسن صورة لها . إنهم هنا أستراليون ، ولكنهم يفتخرون بأنهم من لبنان .

إننى أحييهم وأنحنى للصبر والكفاح والنجاح والشرف .

وأتمنى ألا يسألنى الناس بعد اليوم : أمال مفيش حد من بلدكم هنا ليه؟

فى زمهرير الجنوب!

بدأت معركة الشتاء.. أو معركة البرد.. فالغرفة التى أحتلها ـ الحقيقة أحتل جانبًا من جانب السرير الذى بها ـ بدأت أشكو فيها من شدة البرودة؛ ففيها سرير صغير، والجدران عالية، وعارية أيضًا. فى جانب منها حوض للماء.. والحنفية طول الليل لها صوت كأن فى جوفها ثعبانًا كبيرًا يريد أن يبتلع الصابونة الموضوعة على الكرسى.. أحاول أن أجد جرسًا فلا أجد. أتصل بالاستعلامات فى التليفون ويكون الجواب عليك أن تبحث عن الخادمة.. والخادمة لا أعرف أين هى.. الفندق كبير جدًا.. والطرقات طويلة وملتوية.. وأنا.. ماذا أريد من الخادمة.. أريد أن أشرب أى شىء دافئ.. بل أى شىء يغلى.. بلاش شاى.. عاوز بطانية.. لابد أن أبحث عن الخادمة.. وأخيرًا عرفت مكان الخادمة.. إنها فى بيتها.. لأن اليوم إجازتها.. وغدًا ستحضر فى الساعة السادسة والنصف صباحًا.. ولكن كيف أصل إلى الساعة السادسة والنصف.. أريد أن أكون فى حالة تسمح لى بمقابلتها غدًا.. أريد أن أنام.. أغمض عينى حتى لا تكونا حمراوين فى الصباح فتخاف منى.. لا فائدة.. يجب أن أنام بالطول أو بالعرض.. لكن طول مين وعرض مين؟! إن الغرفة ليس لها طول وليس لها عرض.. إنها زنزانة.. وجربت النوم على مرتبة من الكاوتش وفوقى بطانيتين.. وضعت واحدة تحتى والأخرى فوقى. وانكمشت.. الحقيقة هذه الكلمة لا تناسب حالتى أبدًا.. فأنا فعلت أكثر من الانكماش ولكن البرد يلسعنى.. يقرصنى فى أماكن أخاف منها.. فهنا فى الجانب الأيمن وهنا فى الظهر.. وأنا فى حالة لا تسمح لى أبدًا بتشخيص هذه الأمراض الجديدة.. فتحت النور.. فكرت فى أن أنقل السرير بعيدًا عن الحائط. ونقلته ووضعته فى منتصف الغرفة ولكن البرد يترصدنى.. فكرت فى أن أنام بلا غطاء، فالمراتب ألواح من الثلج مرصوصة.. والبطانية ألواح من الثلج طلع فيها شعر.. هل أنام فى الدولاب كأننى

عشيق سمع أقدام الزوج فاختبأ فى أقرب شىء وجده . . هل أفتح حقيبتى وأدخل فيها كالقواقع أو كالسلحفاة . .

أصبحت الآن أعتقد أن السلحفاة المسكينة مرت بهذه التجربة . . لابد أنها هى الأخرى نزلت فى فندق كهذا ويئست من البرد . . فخلعت جدران الغرفة وحملت أحجارها على ظهرها وهربت!

ولكن كيف أهرب وإلى أين؟

وفى اليوم التالى جاءوا لى ببطانية أخرى . .

ولكن البرد يتسلل من بين البطاطين . . وانتقلت إلى غرفة أخرى . . وكانت أسوأ من الأولى . . وانتقلت إلى غرفة ثالثة . . وفى الصباح طلبت الخادمة قبل أن تذهب إلى بيتها . . وقلت لها : أنا الراجل السقعان . . أنا عاوز . .

فقالت : عارفة . . بطانية .

ــ لا . . عاوز دفاية .

ــ إيه دفاية . . يادى الفضيحة . . على فكرة إزاى واحد شاب زيك يخاف من البرد . . وإزاى . .

ــ عارف حتقولى إيه . . سمعت السؤال ألف مرة . . يا ستى أنا من بلاد تأكل النار وتشرب النار . . المية عندنا بتغلى . . السمك فى الأنهار مسلوق . . الطيور متعلقة مشوية على الشجر . . أشجار القمح عندنا بتطرح عيش شمسى . . أشجار الأرز عندنا بتطرح محشى ورق عنب . . يا ستى أنا من الماو ماو . . صحيح بلادنا حارة بس أنا هنا حاموت من البرد . . يعنى أعمل إيه؟ حضرتك مش رحت جنينة الحيوانات بتاعتكم ، مش شفت الفيل كاشش ونايم جنب الحيط . ليه؟ من البرد . أهو أنا بقى من بلاد تركب الأفيال مبسوطة؟! عاوز دفاية . . فى عرضك!

وأنظر من النافذة فأجد الناس فى ملابس خفيفة . . بدل فقط . . أو قمصان وبنطلونات . . والنساء فى ملابس خفيفة . . ولكن النساء ليست مقياساً لدرجة حرارة الجو . . فالمرأة تلبس الفساتين السوداء فى عز الصيف والبيضاء فى قلب الشتاء . حسب الموضة لا حسب الترمومتر!

وأصبحت الآن أتعرض كل يوم لدهشة خادمة . . أصبحت «فرجة» . كل خادمة تدخل تجد المدفأة فى غرفتى تبدى دهشتها . . وأخيراً تضايقت جداً . . وقلت للخادمة : هل قرأت الصحف اليوم؟

قالت : طبعًا .

قلت : ما الذي لفت نظرك؟

قالت : لا شيء .

قلت : هناك شيء لفت نظرى أنا . . لقد صورت الصحف طائر البطريق . طائر البنجوين فى ميناء سيدنى . .

قالت : أيوه . . رأيت الصورة .

قلت : هه . . إيه رأيك . . يبقى الدنيا حر والا برد؟ . . أهو الطائر ده جاى من القطب الجنوبى . . ليه . . لأن هنا برد . . وده طائر ولد فى الثلج ويعيش ويدفن فى الثلج . . يبقى أنا معذور والا لأ؟

قالت : لا . .

قلت : يا ستى زى بعضه . . المهم إنى أنام وبس . . ومن فضلك لما تكتبوا عن بلادكم أبقوا قولوا لنا «لطيف» فى الصيف يعنى إيه . لأن «لطيف» عندكم معناه «يا لطيف» عندنا . .

وبدأت أشكو من البرد . .

فقالوا لى : سيب أستراليا كلها أحسن .

فقلت : حاضر أسيب اللوكاندة!

* * *

عندى طريقة كلما نزلت أى بلد جديد . .

فأنا أحدد الشوارع والبيوت بطريقة خاصة . .

هناك أناس يحددون الشوارع بالبنوك الكبرى . . فلا أحد يجهل مثلا البنك المركزى فى القاهرة . . أو البنك المركزى فى أية عاصمة .

ولكن أنا أعتقد أن الناس فعلا يعرفون البنك المركزى، وهم فى الواقع يعرفونه بالسماع ولكنهم لا يعرفون مكانه . . فمعظم هؤلاء الناس الذين نسألهم من المشاة . . وهذا الماشى لا يمكن أن يعرف البنك . . إنه رجل فقير أو متوسط الدخل يمشى على رجليه ولا يملك سيارة . . وحتى الذين يملكون السيارات ليست لهم أموال فى البنوك ـ مثلى ـ هؤلاء يكرهون البنوك . .

يعنى لا يجب أن تحدد الأماكن والشوارع بالبنوك . .

وفى مدينة سيدنى بالذات لا أنصحك بالاعتماد على البنوك، لأن هذه المدينة فيها أكثر من سبعين بنكًا . . كل بنك له عمارة أكبر من عمارة إيموبليا . (نحن الآن فى سنة ١٩٥٩). وكل هذه البنوك تبدأ بكلمة من الكلمات الثلاث: أسترالى . . سيدنى . . كومنولث . .

أنا أحدثك عن تجربة: فقد دخت دوخة الكواكب فى السماء . . فهناك أموال محولة لحسابى هنا، ولكنى لا أعرف اسم البنك بالضبط . . لقد كنت أتصور أن البنوك فى عدد أغنام جحا، لا فى عدد أغنام أستراليا!

ولذلك فأنا أحدد الأماكن هنا أولا بمحطة السكة الحديدية . . وأحددها بالبوستة العمومية . . وأنا شخصيًا عندى حاسة الاتجاه إلى محطة السكة الحديدية . . ولا أذكر أنني ذهبت إلى بلد فى العالم لم أر فيها محطة السكة الحديدية، أو لم أعش فى محطتها . . أنا لا أذكر . .

إن هذه المحطات تسحرنى . . بكل ما فيها من ضوضاء ودخان وزحام . . لا أعرف السبب على التحديد . . ولكن منظر الناس وهم يجرون . . منظر الناس وهم ينتظرون . . منظر الاهتمام على وجوههم . . مجرد أن لكل واحد منهم هدفًا . . كل هذا يسحرنى . . يثيرنى . . شكل القطار . . وهو عالى الرأس وقد تربع على عجلات من حديد والدخان يخرج من رأسه، وصوت الماء وهو يغلى كأنه عقل يفكر . . منظر المحطة وكأنها خطة موضوعة . . كأنها خطة ينفذها ألوف الناس كل يوم . .

إن هذا الإحساس بأنك على سفر دائمًا . . بأنك ستترك أناسًا وتلتقى بأناس . . بأنك ستفقد أحدًا، أو ستكسب أحدًا . . هذا الإحساس يسكرنى . . إن أتعس شىء فى الدنيا أن نكون «هنا» دائمًا . . أو تكون «هناك» دائمًا . . ألا نفقد أحدًا . . ألا نكسب أحدًا . . أن تكون أنت وظروفك وبيئتك وكل الناس مثل توءمى سيام لا تنفصلان أبدًا . .

إن منظر التهيؤ لشيء يعجبني ويثيرني . . إن منظر الراقصات والراقصين لا يهزني . . ولكن منظر الاستعداد والتهيؤ للرقص هو الذي يعجبني . . إن شكل الشفاه وهي تقترب والشعور الذي يغمر المتعانقين قبل التقبيل هو الذي له كل معنى . .

ولكن كل شيء كامل، كل شيء تام دون حركة، كل شيء على رصيف المحطة ولا يغادرها . . كل شيء لا يرتبط بقطار . بسفر، بانتقال، كل شيء لا ينتقل من «هنا» إلى «هناك»؛ ولا يكون في حركة دائمة . . كل هذا هو الموت . . ولذلك فأنا أحب الاهتمام بشيء، والاستعداد لشيء والتصميم على شيء، وأن تحمل متاعك، وأن تحمل همومك ومشاريعك وتنتقل . . كل هذا تجده في محطات السكك الحديدية . . أو في المطارات أو البوستة العمومية . .

لقد عشت أيامًا طويلة في محطة روما . . وأيامًا جميلة في محطة ميونيخ وأيامًا رائعة في محطة ليون في باريس . . ومطار فرانكفورت ومطار زيورخ . . وهنا في محطة سيدني توجد السكك الحديدية . . ويوجد الترام وتوجد الزوارق البخارية . وتوجد المطاعم، والمقاهي، والصحف والكتب، وصناديق البريد . . هنا حياة . . فاجعل طريقك إلى الحياة في سيدني ـ أو أي بلد كبير ـ يبدأ من مركز ومحطة الحياة!

هذه الأشياء الغريبة!

* كل شوارع سيدني وملبورن وكانبرا فيها علامات وعلى العلامات كلام كثير . فالمشي هنا من الساعة كذا للساعة كذا . . وممنوع مشي المشاة في هذا الشارع كله . . وأية دراجة تمشي هنا عليها غرامة ٥٠ جنيهًا !

* بعض السيارات تتدلى منها قطعة من الحديد تمس الأرض . ويقال إن بعض الذين يركبون السيارات يشكون من آلام في المعدة، والسبب في ذلك وجود شحنات كهربية في السيارة . ولذلك يجب تفريغ هذه الشحنة عن طريق هذه القطعة من الحديد . . !

* مواقف السيارات هنا يملكها أفراد . . والموقف عبارة عن قطعة من الأرض مرتفعة حوالي ثلاثة أمتار عن الشارع . . ويجب أن يقف عليها عدد من السيارات، وبعد ذلك تعلق اللافتات تعتذر عن ضيق المكان ! . .

* توج فى سيدنى دار سينمائية لا تعرض إلا الجريدة الإخبارية والكرتون والموضوعات الصناعية والزراعية . . والعرض يبقى ساعة . . والعرض متواصل من الثانية عشرة صباحًا حتى الثانية عشرة مساء . . التذكرة ثمنها شلنان !

* فنجان شاى وقطعة من الخبز وقطعة الزبد ثمنها خمسة شلنات . . العشاء يصل إلى ١٧٠ شلنًا ، العشاء طبق لحم مشوى وبعض السلطة الخضراء .

* وفى حديقة الحيوان هنا غراب أبيض ، وكان العرب يقولون إن الغراب الأبيض مستحيل الوجود . . مفيش مستحيل يا عرب ! !

* المكتبة العامة التى أكتب فيها الآن . . الكتب موضوعة على الجدران . . وأنت تدخل وتبحث عن الكتاب وتعيده إلى مكانه . . كأنك فى بيتك تمامًا وكأنك فى بيتك أيضًا لا تخرج والكتاب فى يدك . . وهى مفتوحة من العاشرة صباحًا إلى العاشرة مساء . . !

* أحسن طريقة ونصيحة للذين يخافون من البرد ولايجدون خادمة الفندق أن يفعلوا مثلى : أن يناموا بين المراتب . ولقد فعلت . واسترحت إلى ذلك تماما . ولايهم أن يتكسر عظمك من ضغط المرتبة . هذا أرحم من الروماتزم .

البحث عن مرجريت شبرا

غرفتى الجديدة لا تطاق، ضيقة، رطبة، ليس فيها منضدة. وإذا طلبت منضدة فأين أضعها، وإذا وضعتها فكيف أجلس إليها أو عليها أو أدخل فيها، وإذا استطعت فإن المدفأة سترسل حرارتها الكسيحة إلى ظهرى، أما صدرى ووجهى ويدى فستبقى جميعًا قطعًا من اللحم الجاف. . وأحاول فتح النافذة لأرى الشمس عملا بنصيحة جحا عندما وضعوه عاريًا فوق أحد الأسطح وأشعلوا النار على بيت بعيد عنه. . وقالوا له: الدفء بالعين!

ورأيت الشمس فعلا ولكن الشمس كانت طالعة فيها جدًا، كأنها فتاة حلوة تتدلل على ابن الجيران. فهو يراها ولكن تتظاهر بأنها لا تراه. وإذا رأته فإنها لا تشعر به. وإذا شعرت به فإنها تخفى هذا الشعور.

بالاختصار كانت الشمس مرسومة فى السماء وليست شمسًا حقيقية.

وأمس قررت ألا أذهب للمكتبة. فقد تعودت أن أذهب إليها كل يوم وهناك أضع أوراقى والصحف الصباحية وبعض الكتب والبالطو والبلوفر والكوفية وزجاجة الحبر وبعض السندوتشات وبعض الجوارب الاحتياطية. . ولكن لاحظت أن الطلبة والطالبات يتركون الكتب والقراءة والكتابة ويتفرجون على طريقتى فى الكتابة. . فإننى أكتب من اليمين إلى اليسار، وكنت قبل ذلك لا أتضايق إذا نظر إلىّ أحد وأنا أكتب تمامًا كالمطرب أو كالعازف على القانون أو كالمؤذن. . كلهم لايخجلون من الجمهور. . ولكن فى أستراليا شعرت بالضيق. . وشعرت أن نظراتهم تجعل الورق الذى أكتب عليه أحيانا خشنًا كالحائط يتعثر فيه الكلام، وأحيانًا رقيقًا كورق السجاير يتمزق تحت القلم. .

وفى كثير من الأحيان كنت أشعر كأننى بهلوان يأتى بحركات غريبة، وكأن القلم (زانة) أقفز عليها من أول الصفحة إلى آخرها. . يعني نظراتهم مش لطيفة.

وعدلت عن الكتابة فى مطعم المحطة . . فقد لاحظت أننى أجلس مدة طويلة ثم لا أطلب سوى واحد شاى، وفى النهاية لا أدفع أى بقشيش. مع أنه كان فى نيتى أن أدفع لولا أن تعليمات الحكومة صريحة بعدم دفع البقشيش، وأنا لا أريد أن أبين لأهل أستراليا أن أبناء الجمهورية العربية المتحدة (مصر سابقًا) أقل منهم تمسكًا بالقانون.

وقد اكتشفت أن هذا القانون لا يتمتع بأية شعبية ابتداء من بوفيه المحطة حتى بوفيه المطار!

* * *

وذهبت إلى بنت بلدى . .

إلى مرجريت وليدة شبرا. وهى المواطنة الوحيدة فى هذه البلاد. وفى المطعم الذى تديره جلست فى أحد الأركان وقدامى الشاى والقهوة والسندوتشات . . وبدأ الناس من جديد يتفرجون ويتساءلون. من هذا الغريب الذى يجلس وتحت قدميه مدفأة وأمامه عشرات من الأكواب والفناجين ولفائف الطعام وأمامه زهرية ورد . .

وكان الموقف لا يحتمل أبدًا. فأنا لا أستطيع أن أرهق مرجريت الطيبة فأنا لا أعرفها إلا منذ يومين ولا داعى أبدًا إلى أن أضيف إليها متاعب أخرى . . فهى تكافح هنا فى هذه البلاد . . وإيرادها محدود، ثم إن ثمن البنزين مرتفع وسيارتها التى لا تفارقنى تكلفها الكثير . . وهربت . وعندما سألتنى عن سبب الهروب رويت لها قصصا كثيرة.

وقررت شيئًا غريبا. ولكن الفكرة أعجبتنى ونفذتها فورًا.

لقد قررت أن أفعل شيئًا فى حديقة الدومين . . حيث يوجد الخطباء والساسة والمجانين . .

وفى الطريق إلى الحديقة مررت على أحد محلات الموبيليا واشتريت منضدة صغيرة، وطويتها ووضعتها تحت إبطى ودفعت فيها جنيهًا . . وكلما توهمت أن أحدًا ينظر إلى كشرت فى وجهه كأننى أحد الخطباء . . ولما رأيت أناسًا كثيرين ينظرون لى كادت المنضدة تسقط من يدى وكادت ساقاى تقفزان فوقها وينطلق لسانى يلعن أبو خاش كل الناس الذين يزعمون أن بلادهم حرة ومع ذلك يحولون بينى وبين حريتى.

وفى الحديقة وضعت المنضدة وفوقها أوراقى وبدأت أكتب ومضت ساعة هادئة لا أشعر فيها بأحد لولا أن كلمات تساقط على أذنى تقول: لا جئ . . يوغسلافى . . تركى . . مجرى.

ولما سمعت كلمة إسرائيلى، تضايقت جدًا وأفلتت منى صرخة، خرجت من أنفى. . إنها لشدة اضطرابها أخطأت الطريق إلى فمى!

واكتشفت أن عددًا من النساء والرجال تجمعوا فى مقاعد مجاورة وراحوا يتفرجون. . وبعضهم بدا عليه الفزع كأنهم تصوروا أننى أكتب خطبة طويلة وأننى سألقيها كلها عليهم. . ولم أفهم لماذا يدهشون. . ألا يحدث أن الرسام ينقل أوراقه إلى الحديقة ويرسم هناك، وعازف الكمان ألا ينقلها إلى الحديقة وتحت شجرة يحرك أصابعه، والسيدات ألا تنقل كل واحدة منهن مجموعة من البكر والإبر وتقطع ساعات النهار فى عمل بلوفر أو چاكتة. . ولكن هذه المناقشة بينى وبين نفسى لم تقنع الناس بالسكوت عن التعليق.

وأواسى نفسى وأقول: برد برد يا أخى. . سيكون هناك دفء فى مانيلا. . ستكون هناك ليالى ممتعة فى هونج كونج. . ستكون هناك فلوس فى طوكيو. بس اكتب ولا يهمك!

ولكن الناس يتوقعون منى أن أقف على يدى أو أنزع ملابسى وأصرخ كما كان يوحنا المعمدان يصرخ فى الصحراء وقد ارتدى جلود الحيوانات. . ولاحظت أن الساندوتشات قد سقطت إلى جوار قدمى. . فمددت يدى وأخذتها وبدأت آكلها بصورة أراحت الناس. . لأنهم يتوقعون منى أن أقوم بأعمال شاذة ككل الذين يجيئون إلى هذه الحديقة!

وأخيرًا اعتدلت فى جلستى ونزعت الساندوتش من فمى عندما وقف أمامى عسكرى بوليس ضخم وسألنى إن كان معى تصريح. . فلم أفهم السؤال. . فأعاد السؤال فلم أفهم أيضًا.

وفى قسم البوليس عرفت أن كل إنسان يخطب فى هذه الحديقة يجب أن يخطر البوليس. . وبعد ذلك عليه أن يقول ما يشاء. وهو حر فى أن يلعن كل الناس ابتداء من رجال البوليس، حتى التاج البريطانى!

وقلت له إنه لم يكن فى نيتى أن أخطب أبدًا. . وإنما أنا أكتب مقالا وجواز سفرى يدل على أننى صحفى. . ورويت لرجال البوليس كل ما جاء فى أول هذا المقال. . ثم إنه لو كان فى نيتى أن أخطب فلماذا أكتب الخطبة بالعربية لأقولها بالإنجليزية. . فأنا أعرف الإنجليزية وأستطيع أن تكلم بها، دون ورقة ودون إعداد أو تحضير. .

ولكنه قال لى: إذا أردت أن تأتى وتحضر بمنضدة فيجب أن تستأذن البلدية؛ لأن شغل الطريق يحتاج إلي إذن.

يعنى أنا وبائع السجق والكوكاكولا سواء . . يجب أن نحصل على إذن . . وكان ردى أننى لا أعرف القانون ، وكان الرد الطبيعى هو أن جهلى بالقانون لا يعفينى من أن يصفعنى أحد عساكر البوليس!

والغرامة جنيهان ونصف . .

كدت أدفعها لولا أن رجل البوليس اقتنع بكلامى وأعفانى من هذه الغرامة . وبعد ساعتين بالضبط خرجت من القسم وفى نيتى ألا أذهب إلى المكتبة العامة أو إلى مطعم مرجريت . . بل قررت أن أذهب إلى حجرتى وأن أكتب وأنا جالس على قرافيصى .

وأشهر كاتب فى الدنيا هو الكاتب المصرى الجالس القرفصاء!

ولكن هذا الكاتب الشهير كان فى مصر الدافئة ، ولم يعرف أستراليا الباردة . .

والحل الوحيد هو أن أذهب إلى مطعم الفندق وبحزام حول وسطى وكرافتة حول عنقى ، وبين أناس يشربون وأنا أكتب ، وبين أناس يمرحون وأنا أتلوى . بدأت أكتب . . وقبل أن أضع القلم على الورقة سمعت اسمى فى الميكروفون ، ولما ذهبت أسأل عن السبب وجدت العسكرى إياه ومعه وصل ببيع المنضدة ، فالقانون لا يسمح لى بأن أبيع شيئًا اشتريته دون إذن . وتولى البوليس بيع المنضدة لحسابى . .

وبالقروش القليلة التى قبضتها نفذت نصيحة صديق من القاهرة . . واشتريت «خرزة زرقاء» ووضعتها حول قلمى . . وأرسلت الباقى إليه لكى يوزعه على القراء الذين أحسدهم على أنهم قرءوا هذا المقال من أوله إلى آخره!

* * *

وفى النادى الأيرلندى فى مدينة سيدنى اجتمع ذات ليلة عدد كبير من الأسر اللبنانية هنا . . ألفان أو ثلاثة آلاف . . لا أعرف . . فأكثر الحاضرين من الأطفال . نسبة المواليد بين اللبنانيين هنا عالية . . رأيت الرءوس الكبيرة العريضة من الوراء ومن الأمام ، والحواجب الغليظة والعيون السوداء . . وبدأت أسمع كلمات بعضها عربى وأكثرها إنجليزى بلهجة أسترالية . وكان من المفروض أن يرتفع الستار فى الساعة الخامسة . . وظللنا ننتظر حتى السادسة ونفذ صبرنا فى السابعة ولكن الستار ارتفع فى السابعة والنصف ، فقد كانوا فى انتظار القنصل الجديد . . وتوالى الخطباء وتباروا فى مدح قنصل لبنان . . وكل الخطباء يتكلمون العربية الفصحى . ومعظم اللبنانيين هنا ولدوا فى أستراليا ولا يعرفون من

الكلمات العربية سوى «كبة»، بكسر الكاف، و«تبولة» ولحمة مشوية بكسر الياء و«زحلة» بكسر كل هذه الكلمات!

وطلبوا من القنصل أن يلقى كلمة.. والقنصل فصيح، وخطيب متحمس. وعاد وجلس إلى جوارى وهمس فى أذنى: إننى الأب الروحى لكل لبنانى هنا..

مناسبة الحفلة هى أن جمعية جديدة تكونت هى «جميعة ليالى لبنان الفنية» تأسست فى أستراليا سنة ١٩٥٨، وأحيطت هذه العبارة بأشجار الأرز.. والجمعية تضم موسيقيين هواة وتضم مطربات لبنانيات وراقصات. وقد رأينا رقصة شرقية.. هز بطن ونوم على الحائط وسقوط على الأرض وحركات هى خليط من رقص نجوى فؤاد وكاريوكا، ثم رقصة أخرى لم أرها قبل ذلك وهى رقصة الكوب على الرأس.. وضعت الراقصة الأسترالية لا اللبنانية كوبًا من الماء فوق رأسها.. وراحت وجاءت وتمرغت على الأرض وكأن الماء قطعة من الثلج لم يسقط على رأسها أو على وجهها..

وغنى أحد المطربين اللبنانين أغنية «كل ده كان ليه» لمحمد عبد الوهاب. وصوته جميل وألحانه مضبوطة والأداء سليم جدًا، والمطربات يتبارين فى الألحان اللبنانية الصميمة مثل: عبده حابب غندوره.. وليش ما تحاكينا.. وكيف حالك يا ضيعتنا.. واللومة اللوما.. ووصلتينا لنص البير وقطعت الحبل فينا. ولاحظ القنصل أن اللبنانيين قد أصبحوا أستراليين على الآخر يعنى ساكتين كأنهم فى دار للأوبرا. فطلب إليهم أن يصفقوا وأن يردوا على المطربات.. وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك.. وتعالت الهتافات عند ذكر كلمة «يا ليل» وبعدها..

ولا شىء يدل على أن اللبنانين هنا يكونون مجتمعًا حيًا سوي وجود خطباء وفنانين.. ثم شعراء.. معظم أبناء لبنان ينظمون الشعر والزجل والأغانى.. إن معظم الذين نظموا الشعر لا يعرفون كيف يكتبونه.. إنهم هكذا يشعرون به وينظمونه ويلقونه.. إنها الشاعرية والأذن الموسيقية: وطبعًا ترددت شجرة الأرز مئات المرات فى كل القصائد.. بل إن شاعرًا أعلن أن كل شىء فى لبنان يشتاق إليه من الأرز إلى البطيخ إلى التبولة.. ولبنان هى أصغر بلد.. ولكن جبلها أعلى الجبال..

وواحد منهم اسمه «رفيه قهوجى» يقول فى شعر لا يعرف كيف يكتبه بالعربية، وإنما يكتبه بحروف لاتينية:

جـــبـل لبنان مـــدروك حــــده

لحـــد اليـــوم مـــا فى فكر حــــده

صـغـيـر وبس فـيـه له مـقـام عـالى

وعلى أكـبـر دول بيـشـوف قـده

بميـاهه الصـافـيـة بأرزه الشـمـالى

بمناخـه بمنظره وحـسنه الجـمـالى

ولكن وأحسن ما قاله الشاعر رفيه قهوجى :

وبيـقـولوا بالقـمـر مـوجـود عـيـبـه

هـدى تقـــشـــر الأرز بخــــدوده

انحنى يبـوسـهـا وهى عـمـا تصـده

ومعنى هذه الأبيات بالعربى : إن الناس يقولون : إن فى وجه القمر بعض الخربشة، هذه الخربشة سببها أن أشجار أرز لبنان حاولت تقبيل القمر فمنعها . . فخربشت وجهه . .

وشعراء آخرون مجدوا لبنان وأهل لبنان . .

إنه مجتمع حى . . مجتمع متماسك يجعلك تشعر أنك لم تترك لبنان أو أنك لم تترك البلاد العربية . .

وهمس القنصل فى أذنى يقول إنه عندما قابل رئيس وزراء أستراليا قال له : إن الجالية اللبنانية هى الوحيدة التى ليس بينها واحد دخل السجن . . ليس من بينها واحد سارق أو قاتل أو نصاب . . فى حين أن الجاليات الأخرى قد خالفت القانون فى كل مواده . .

شطار أيها اللبنانيون . . تجار أيها اللبنانيون . . فيكم حياة وشباب وكفاح وقدرة على الحياة فى الصخر . . إن كلمة عربى فى هذه البلاد لها معنى واحد : لبنانى . . وأشهد أن العرب هنا قد شرفوا قدرنا . .

وأن هذه الحفلة كانت تكريمًا لبلادى . . فقد أحيتها وأضاءتها وأسعدتها أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب!

الفليبين

٧٠٠٠ جزيرة!

بلاش لعب عيال!

وهذه العبارة لم أقلها لأحد.. وإنما شخطت فى نفسى وقلتها بصوت مرتفع وأنا أعرف أن أحدًا لن يدرى بما أقول. فلعله يظن أننى أقرأ شيئًا بلغتى. فقد نطقت هذه العبارة بما يشبه الرجاء لنفسى ألا أكون عيلا وأن أرتفع إلى مستوى شهادة ميلادى. وأن أكتسب صلابة الجبال التى رأيتها، وعمق المحيطات التى عبرتها، وشجاعة المسافرين الذين ركبوا معى طائرات تصيبها السحب بالسعال..

وقد نطقت بهذه العبارة عندما وقفت فى مطار سيدنى وفى يدى حقائب السفر إلى الفلبين وأنا أريد أن أرجع فى كلامى وأبحث عن طائرة أخرى..

وأمامى فى المطار أحدث طائرة ابتكرها الإنسان: بوينج ٧٠٧.. هذه الطائرة قد تعطلت فجأة، وقبل أن ترتفع عن أرض المطار. قالت الصحف، التى لا تعرف شيئًا عن هندسة الطائرات النفاثة الجديدة، إن بعض الماء دخل فى البنزين، أو بعض الماء دخل فى المحركات النفاثة.. وهى سميت نفاثة لأنها تسحب الهواء من الأمام وتنفثه إلى الخلف.. فكأنها تشد حبلا من الهواء بسرعة ألف كيلو متر فى الساعة.. وعملية الشد والسحب هذه هى التى تدفعها إلى الأمام.. وتعطيل طائرة من هذا النوع معناه أن الحبل الهوائى قد انقطع. أو أن الأصابع الرهيبة التى لا نراها قد تكسرت. أو أن لغزًا لا يمكن حله قد صادف الطائرة. ولابد من استدعاء الأمريكان الذين اخترعوها. وجاء الأمريكان.

وقف الناس يتفرجون على الطائرة وعلى الذين اخترعوها وعلى الذين سيضعون الأصابع العجيبة على الحبل الخفى.. لتشد حيلها وتقوم مشكورة بعبور المحيط الهادى فى طريقها إلى الفلبين.

ولم تفلح المحاولات التى بذلها الأمريكان . .

وصدرت الصحف بعد ظهر نفس اليوم تحمل العناوين المثيرة ومن بين السطور تلمس رائحة الشماتة . وتلمس أيضًا الدعاية الإعلانية التى تؤكد أن العطب بسيط جدًا وأنه كان من الممكن أن يرتفع بها الطيار ، لولا حرصه على راحة الركاب . .

يعنى أن الإصابة خدش وليست كسراً . .

وظللت واقفًا فى المطار أنتظر من رجال الجمارك أن يستدعونى . وسألت لماذا لم يستدعنى أحد . وكان الرد إنهم ليسوا فى حاجة إلى استدعائى . . وأن حقائبى قد نقلت دون تفتيش ــ يا عينى ــ إلى الطائرة !

وبكسوف الذى يتظاهر بأنه كان يعرف ذلك ثم نسيه ، أمام الحادث الجلل ، صعدت الدرج ، وأنا أخفى رأسى فى البالطو ، ويدى فى جيوبى ، ونفسى بين المسافرين ولم تكن الطائرة نفاثة . . إنما من ذات المحركات الأربعة ولكنها أحسن وأمتن . وشعر الطيار وملاحو الطائرة بشىء من الاستعلاء . فقد أدى ظهور النفاثات إلى أن تحولت الطائرات ذات المحركات إلى حناطير جوية . ولكن هذه الحناطير الجوية لا تتعطل كهذه السيارات الجوية . . وحتى إذا تعطلت فعذرها أنها حنطور !

وأغلق باب الطائرة . . وارتفعت إلى الطريق الذى مررت به من قبل . . من سيدنى عبر القارة الأسترالية إلى مدينة داروِن . . إلى المطعم الإيطالى . وشعرت بالارتياح عندما تكلمت باللغة الإيطالية . وحرصت على أن تكون اللهجة إيطالية على أصلها . وظن هؤلاء الجرسونات مواليد أستراليا أننى من إيطاليا وهى الدولة الأم ، وأحسست بشىء من الارتفاع عن مستواهم . وأحسوا هم أيضًا أنهم إيطاليون من الدرجة الثانية ، وليسوا من الدرجة الأولى مثلى . . وهذا الشعور ، شعورهم ، كان يبرر لى أن أجعل عباراتى غير واضحة ، وكلماتى غير مفهومة . . ويظنون هم ــ وهذا حسن ظن طبعًا ــ أن هذه لهجة مستخدمة فى الوطن الأم وأنهم تعساء هنا لم تسعدهم الظروف التى أسعدتنى ، فيفهمون هذه الكلمات وكنت أهز رأسى كأننى البابا أدعو لهم بسلامة العودة وقربها ، إن شاء الله . .

تشاو . . تشاو . . أريفيدرلا . .

والكلمتان الأوليان معناهما : سلام . . أو تحية . .

والكلمة الأخيرة معناها إلى اللقاء . . وكان من الممكن أن أستخدم الكلمة المألوفة : أريفيدرتشى . ولكنى حرصت على النطق بكل ما هو غير مألوف . ومن الجائز جدًّا أنهم فى مطار سيدنى بعد ذلك سيستخدمون هذه الكلمة باعتبارها أحدث ما ورد إليهم من أرض الوطن!

وأشرت بيدى مودعًا، واتجهت إلى الطائرة التى انطلقت فى الظلام تعبر المحيط الهادى فى طريقها إلى مانيلا . . أشهر مدن الفليبين . . أو العاصمة الدبلوماسية والسياحية . .

والفليبين مثل أندونيسيا تضم ألوف الجزر . . فالفليبين سبعة آلاف جزيرة . ولكى أكون دقيقًا أقول إنها سبعة آلاف ومائة . . وبها عشرة آلاف نوع من الزهور وبها سبعون لغة و ٦٥ نوعًا من الخفافيش . . وألف نوع من الطيور . . وهى لا تعرف الحيوانات التى ترضع صغارها . . فيما عدا الفئران والخفافيش!

وهذه الجزر أخذت اسمها من الملك فيليب الثانى، أحد ملوك إسبانيا، والإسبان دخلوا هذه البلاد مع البرتغاليين الذين ارتادوا كل هذه المناطق وأقاموا فيها . ومر الإنجليز مرورًا «عابرًا» على هذه البلاد . . واستقر الإسبان فيها . ولذلك فاللغة الإسبانية لا تزال لغة معظم الناس . وإن كانت اللغة الرسمية اسمها تاجولج .

والناس والشوارع والمدن لها أسماء إسبانية .

ثم إن الإسبان نقلوا الديانة المسيحية الكاثوليكية إلى هذه الجزر . والفليبين هى الدولة المسيحية الوحيدة فى آسيا . ولكن المسلمين سبقوا الإسبان إلى هذه البلاد . ونقلوا الإسلام والدم العربى إلى جزر الجنوب وخصوصًا جزيرة مندناو التى نرى فيها الطفلة الصغيرة تضع الأحمر فى شفتيها حتى التاسعة من العمر . . أما بعد ذلك فهو حرام شرعًا !

أما الهولنديون فقد أقاموا فيها بعض الوقت . .

والأمريكان احتلوها من ٦٦ عامًا . ثم انسحبوا منها إلى اليابان أيام الحرب العالمية الثانية ثم عادوا ليمنحوها الاستقلال أيام الرئيس كايزون وهو من أعظم زعماء الفليبين، ومن ألطفهم وأحبهم إلى الأوربيين!

والفليبين تدخل ضمن الأسرة المنغولية الواسعة جدًّا التى تضم الملايو وإندونيسيا ومعظم جزر المحيط الهادى . .

وهم شعب يحب المرح . والقليل جدًّا الذى أراه أمامى فى هذه الطائرة يؤكد أن مرح

أبناء الفليبين ألطف بكثير جداً من مرح أبناء إندونيسيا. وقد لاحظت على الملحق العسكرى الذي كان يسكن إلى جوارى فى مدينة جاكرتا أنه لا يتوقف عن الرقص كل ليلة . . عنده ألوف الأسطوانات . . وكان يطلب من أصدقائه أن يراقصوا أخته . وكانت أخته مضبوطة دائمًا على إبرة البيك آب . . فى اللحظة التى تهبط فيها الإبرة على الأسطوانة . . كانت أخت الملحق العسكرى تتلوى كالأسطوانة وتدور مثلها وتدوخ مثلها أيضًا . . وتعلو وتهبط مثل الإبرة . ولكى لا أتجاوز الحقيقة أقول إن الدوخة كانت تصيب أى ضيف يدعوه الملحق العسكرى إلى بيته . فقد كان الضيف يجامل صاحب البيت فيرقص عشر أسطوانات ، ويجامل الأخت فيرقص عشرين أسطوانة . وأمام إصرار الأخت ، وحرصًا على الشهامة الإسبانية ، يرقص عشر أسطوانات أيضًا . . ويسقط فى أي مكان . . وتظل الأخت ترقص حول جثته . . كأنها إحدى بنات الغابة وكأنه غزالة سقطت تحت سهام رجال القبيلة !

وفى الطائرة شيء من هذا . . فالرجل الذى جلس إلى جوارى رغم تعليمات مضيفات الطائرة يضع فى جيبه راديو ترانزيستور . . والراديو موجه إلى الفليبين أو إلى أستراليا . . فلا يذيع إلا الأغانى وإلا الرقصات وهو يترنح بشدة تارة مع الموسيقي وتارة من الخمر ، وتارة فى المطبات الهوائية التى تنزل فيها الطائرة . .

وكان يعطينى الراديو لكى أضعه على أذنى ، لعلّى أهتز مثله . . وكنت أهتز بالفعل . ولكن لا أستطيع أن أعرف السبب الحقيقى لهذا الاهتزاز ، لعلها رعشة على أثر الحقنة التى أخذتها فى الصباح قبل السفر للوقاية من أمراض نسيت اسمها الآن . وربما لأن الكرسى ليس مربوطًا ربطًا محكمًا . فالطائرة يبدو أنها قديمة . كان فى نيتى أن أؤدى خدمة جليلة لشركة كوانتاس الأسترالية ، فأنبه المضيفة إلى هذا الخلل الموجود فى المقعد . وهي خدمة خالصة الثمن . . ففى اللحظة التى سأنهى إليها هذا الخبر سأتلقى الثمن على شكل ابتسامة عريضة . . وربما على شكل اصطدام خدها بخدى غير المحلوق . .

ولكنى عدلت فأنا أخشى أن يكون المقعد ثابتًا فى مكانه ، وأن يكون الاهتزاز فى داخلى أنا . ثم لاحظت أننى لا أجلس على المقعد الذى يقع على الممر حيث تتحرك المضيفة ذهابًا وإيابًا وكأنها تمشى على الأرض . . وكأنها تغيظ الناس فتتمايل على هذا وتتساقط على ذاك . . كأنها راقصة بين مقاعد أناس مخمورين فى إحدى الحانات . . ومن الغريب أن المخمورين جالسون ثابتون ، وأن التى ليست مخمورة هى التى تتمايل وتترنح بينهم !

وأضيئت الأنوار الحمراء فى الطائرة . .

وكان ذلك إشارة إلى أننا فى انتظار عاصفة على المحيط ، مع أن هذا المحيط اسمه المحيط الهادى . . ربما كان السبب هو أننا نجتاز خط الاستواء . ولم ألاحظ ذلك عندما عبرته قبل ذلك قادمًا من إندونيسيا . . ولاحظته قبل ذلك عندما عدت من إندونيسيا إلى الهند . .

واهتزت الطائرة بعنف كأنها اصطدمت بهذا الخط الوهمى . خط الاستواء . وكأنه حدث ما يحدث فى الريف عندنا . . فهم لكى يقطعوا الصابون مثلا ـ صابونة الغسيل الضخمة ـ فإنهم يلفون حولها فتلة دوبارة ثم يشدون الفتلة . . فإذا هى تقسم الصابونة إلى قطعتين . . والفتلة المشدودة هنا تقوم بدور السكين . . فعملية شد الفتلة تعطيها قوة . .

ولكن لأن الطائرة ليست صابونة ولأن خط الاستواء وهمى ، عدت إلى الهدوء أحاول أن أفرز الحقائق من الأوهام . واندمجت مع جارى فى سماع الموسيقى . واعتبرت أن هذه الموسيقى نوع من الجو الإقليمى للفليبين . فكأننى دخلت الآن الهواء والماء والموسيقى الإقليمية للفليبين . .

وضحكت مع جارى كثيرًا . وكلما سألته عن بلاده . . أريد أن أعرف منه شيئًا عنها ، أشار إلى أنه لا داعى لأن أستعجل الوقت . . يكفى أن الطائرة تقطع الوقت بهذه السرعة المخيفة . . وسأعرف كل شىء هناك بسهولة وبنفسى وعلى طريقتى . . فالرجل مبسوط . ولعله يريد أن ينسى أنه عائد إلى الفليبين . فهو يعيب على الطائرة أنها مستعجلة !

وأضيئت الأنوار الحمراء وربطنا الحزام وسحبنا المقاعد إلى الأمام . وأطفئت السجائر وابتلع كل إنسان ريقه واكتشفت المضيفة أن جارى معه راديو صغير فعاتبته بشدة . ثم طلبت منه أن يعذرها . فهذا الراديو الصغير يحدث ارتباكًا لأجهزة اللاسكى بالطائرة . .

وخارج الطائرة كان الجو دافئًا ولكنه ملىء بالرطوبة . وكنت قد نسيت هذه الرطوبة والحرار فى أستراليا . ولكن تذكرت الهند وإندونيسيا وسيلان فورًا .

والذى رأيته فى المطار يختلف كثيرًا جدًا عن الصور التى رسمتها فى ذهنى وأنا أستمع إلى الموسيقى فى الطائرة أو فى بيت الملحق العسكرى . ولم أجد فتاة واحدة فى المطار تشبه أخت الملحق العسكرى ، ويظهر أنهم اختاروها تمثل أجمل ما فى الفليبين من فتيات . . مع أنها لست جميلة جدًا فهى على خلاف بنات الفليبين أكبر أنفًا وربما تكون الداية أو الطبيب

المولد قد سحبها من أنفها . . ولما رأى أن الأنف قد طال فى يده أكثر مما يجب حاول أن يعيده إلى مكانه الطبيعى فلم يفلح . . فبقى الأنف بعيداً عن الوجه . . ثم هو منفوخ من الأمام تحت ضغط أصابع الطبيب أو الداية . . فهو أنف لا هو بالطويل ولا هو بالقصير . . وإنما هو أنف منفوخ .

وأمام سلم الطائرة وقفت فتاة ممتلئة وفى يدها إكليل من الورد . . أو طوق من الورد وعينها على ركاب الطائرة . وفى وجهها ابتسامة مدخرة ، أو ابتسامة فى حالة تربص . وشفتها العليا تضغط على شفتها السفلى . . كما تضغط الإصبع على زناد مسدس . وظهر الرجل الذى تريده . وانطلقت الابتسامة واهتز عقد الورد وسقط كطوق نجاة حول عنق الرجل الذى تنتظره . . وكان أمريكيّا . وشكرها وسألها إن كان أحد قد حضر ليأتى له بحقائبه . إنه رجل عملى . وقد مل هذه الأطواق وهذه الابتسامات السخيفة . . وأسخف من هذه الابتسامات أننى وجدت نفسى ضحية لواحد من هذه الأطواق . . مع أننى لا أعرف أحداً ، ولا جئت هنا قبل ذلك ، ولا من رجال الأعمال الأمريكان .

وتذكرت ما فعله الرئيس الفليبينى كايزون عندما عاد ذات يوم إلى زوجته وقد لف حول عنقه عقداً من الورد . . وكان العقد ضخماً فأذهلها ، ولما سألته عن المناسبة أجاب : لقد تزوجت اليوم .

ويقال إن الزوجة بكت . .

وهنا أدرك كثيرون أن زوجته تحبه . فخلع العقد ولفه حول عنقها هى وقال لها : كأننا تزوجنا مرة أخرى .

وفكرت فى أن أصعد الطائرة مرة أخرى . وأبتسم لهذه الفتاة عند نزول السلم وأشير إليها أن تضع العقد حول رقبتى وأشكرها وأقول لها : كأننى جئت بلادكم للمرة الثانية . . وأين الذين سيحملون حقائبى إلى خارج المطار؟

والسؤال الأخير سؤال حقيقى وله معنى مخيف لا يمكن أن تعرفه أو تحس به إلا إذا سافرت إلى هذه البلاد . . وإلا إذا أحسست بالخطر الذى يزلزل جسمك المرهق عندما يميل عليك أحد الواقفين فى المطار وقد ارتدوا هذه القمصان المخططة ونكشوا شعورهم ومضغوا اللبان الأمريكى وقال لك : لا تركب التاكسى الذى هناك .

وتتلفت لتنظر أين هذا التاكسى ، وتجد عربة ككل العربات ، وقد تسأل هذا النصاب ،

ولماذا، فيقول: لأنه قتل اثنين من الأمريكان فى الأسبوع الماضى واستطاع أن يرشو البوليس فأطلقوا سراحه.

وهذه الحادثة ليس من الصعب أن تقع، فالرشوة ممكنة جدًا وعند أعلى المستويات.. والقتل كالهرش هنا.. الدولة تعترف بذلك وتحذر الناس من الناس ومن رجال البوليس أيضًا!

والمطر غزير والرطوبة شديدة ونحن عند منتصف الليل.. والمطار بدأ يصفصف.. والمضيفة الحلوة قد استردت كل صفاتها الأرضية، فهى تمشى دغرى ولا تبتسم.. واستقلت سيارة الشركة واختفت فى الظلام. وبقيت وحدى.

وتوكلت على الله وركبت فى أول تاكسى وقلت له: أحسن لوكاندة ـ بالإنجليزية طبعًا. فهنا يتكلمون الإنجليزية بلهجة أمريكية ويحسن بك أيضًا أن تتعلم هذه اللهجة وليس من الضرورى أن تتعلم الإنجليزية.

فرد بسرعة فهلوية: آه.. لوكاندة فليبيناس!

والطريق مظلم. والأضواء خافتة. والمطر يغطى زجاج نافذة السيارة. والسائق حاول أن يفتح أى موضوع وأنا أسده بصمتى. أو بهز رأسى.. أو بفتح النافذة حتى أصاب بقليل من الزكام يعاوننى على اصطناع «الخنافة» المطلوبة عند الكلام باللهجة الأمريكية هنا، ولما استكملت خنافتى قلت له: أحسن لوكاندة هنا؟

فقال: نعم ياسيدى. وستكون مبسوطًا جدًا. كل شىء فيها.. الموسيقى والمشروبات.. والبنات الحلوة.. هل أنت من هوليود؟

ـ بلدى أبعد من هوليود.

ـ أيوه أمريكا واسعة جدًا.. أريد أن أسافر إلى أمريكا.. فهناك أقاربى.. وهم أغنياء. وقد أرسلوا لى خطابات كثيرة.

ـ وما الذى منعك من السفر؟

ـ يا سيدى أنت تعرف الرحلة طويلة وتكاليفها خرافية.. وأنا فقير.. أنا وزوجتى وأولادى. والحياة هنا غالية.

ـ قالوا لى الحياة هنا غالية جدًا.. خصوصًا التاكسيات!

وتردد هو قليلا ثم عاد بذكاء يقول: الأجر متوسط ولكن كرم السياح هو الذى يجعلنى أحتمل الحياة هنا!

ــ حلوة يا واد!.. برافو عليك (قلتها بالعربية).

يكفى أننى وصلت الفندق. ومستعد أن أدفع الأجر مضافًا إليه الكرم ومضافًا إليه بدل تسليتى وتهدئتى طوال الطريق الذى يبلغ حوالى عشرة كيلو مترات من الطين والظلام.. ومن شىء أقسى من الطين والظلام هو: الخوف!

* * *

وأما شباك الاستعلامات فى الفندق الأوربى الهندسة والأثاث عرفت لأول مرة أن مخاوفى متواضعة جدًا..

فقد طلبت منى إدارة الفندق أن أترك أموالى وأوراقى، وفى حالة ركوب أى تاكسى يجب أن أعطى الفندق رقم التاكسى والوقت الذى أتحرك فيه. ومن الأفضل، حرصًا على سلامتى، أن أخبر الفندق عن تحركاتى أولا بأول. لماذا؟ لأن الأمن غير مستتب فى هذه البلاد.. وفى هذه الساعة من الليل..

وكانت الساعة الواحدة صباحًا.

وعندما صعدت إلى غرفتى وجدت لافتات طويلة عريضة تؤكد هذا المعنى: الفندق غير مسئول عن اختفاء أى شىء فى غرفتك..

الفندق يرجوك: أن تضع أسلحتك النارية وأية متفجرات معك فى مكتب الاستعلامات!

ومعني هذا أن الناس يحملون الأسلحة ويتولون الدفاع عن أنفسهم. فالعمل الذى كان يجب أن تقوم به الدولة، يتولاه الأفراد!

والسؤال الذى حيرنى فى الفليبين ولم أجد عنه جوابًا: من هو حاميها ومن هو حراميها؟

وبعد إقامتى فى الفليبين اكتشفت أن الجواب عن السؤال موجود فى نفس السؤال: احذف علامة الاستفهام واحذف كلمتى: من وهو!!

وفى الصباح أكدت لى إدارة الفندق أن حركاتى يجب أن تكون معروفة بالنهار أيضًا.

فمدينة مانيلا هذه لا تعرف الليل أو النهار. ففيها كباريهات لليل وكباريهات للنهار. بل إن نفس كباريهات الليل عندما تجيء باخرة أمريكية مثلا، وهذا شيء مهم ويؤدى إلى رواج السلع التى لها علاقة بالمرح، تقفل أبوابها ونوافذها.. وهات يا موسيقى وهات يا رقص.. وهات يا فلوس.. وهات يا ضرب نار.. وأول من يهرب من المعارك رجل البوليس!

وبدأت أتخلص من اندهاشاتى الأولى..

وجعلت أتعود على هذه البلاد وعلى الحياة هنا.. وأحسست بشيء من الراحة ومن المتعة أيضًا..

وفى صباح كل يوم أفتح الراديو المختفى فى سريرى وأستمع إلى الموسيقى وأقرأ الصحف التي تشتم رئيس الجمهورية بعبارات حمراء. وتتهم وزير الخارجية بتعدد الزوجات. ووزير الدفاع بالتزوير فى الانتخابات وعشرات الصحفات فى تودع السفير الأمريكى واستقبال السفير الأمريكى الجديد..

* * *

ثم شعرت فجأة بأن اعتبارى قد رد لى..

نعم اعتبارى.. يعنى قيمتى.. يعنى سعرى أصبح فى سعر الذهب.. يعنى أصبحت كل تصرفاتى كالأوراق المالية لها غطاء ذهبي ضخم. لقد كنت فى أستراليا أشعر كأننى قزم صغير. الناس طوال ولونهم أبيض وأحمر، وعيونهم زرقاء وخضراء. وبدلا من أن أمشي على طراطيف صوابعى وطراطيف أفكارى لكى أقف مع الناس على رأس المساواة.. كنت أحس أنه لا فائدة من أن أشد حيلى وأقف إلى جوارهم.. فهم أطول وأبسط. كان هذا شعورى أول الأمر فى أستراليا..

وبعد ذلك اكتشفت أن هناك من هم أقصر منى أو يمكن فى طولى ــ طولى ١٨٠ سم فى الأيام الحارة ــ.. ولكن عندما جئت إلى الفليبين لاحظت أن الناس قصار القامة كأبناء إندونيسيا والصين والملايو وكمبوديا ولاوس وڤيتنام.. إلخ.. والناس وجوههم صفراء سوداء كالحلبة عندما نخلطها بالعسل الأسود.. أى فى لون «المفتأة».. الرجال قصار.. النساء قصيرات وأكثر نحافة.. وشعرت بأننى طويل وأننى أبيض جدًا وأن لون عينى فاتح.. والشعر هنا سائح نائح أى يروح ويجيء على الوجه كأنه يولول. وأنا شعرى أسود

وأكرت. وهذه كلها مزايا ومن علامات الجمال. . ولاحظت أن الرجال يقولون لى هذا. . وأن النساء يقلن هذا. . النساء يقلن هذا علنًا. . بل إن النساء المحترمات جدًا جدًا يقلن ما هو أكثر من ذلك مثلا: هناك واحدة حلوة جدًا صاحبتى. . وتحب أن تراك. .

وطبعًا أنا لا أسأل. . ولماذا تحب أن تعرفنى. . إنما أفهم من كلامها أن هذه الصفات ـ صفاتى ـ من الملامح التى تعجب النساء هنا. . وقلت فى نفسى: أيوه كده!

لقد رد اعتبارى كأننى مطالب بالعرش ثم أعيد لى عرشى، وملكى. ولكن ماذا أفعل بهذا العرش؟ ليست هذه مشكلة فى مانيلا. فأنا بهذه المزايا أستطيع أن أتسلق الأسوار بل إن الأسوار تذوب أمامى.

وبدأت عملية إذابة الأسوار. كما أذاب الألمان أسوار ماجينو فى فرنسا. .

هنا الليل جميل والجو رطب. . وبدأت أمشى فى شارع ديوى ـ كثير من الشوارع هنا لهاأسماء أمريكية لأن الأمريكان احتلوا هذه البلاد حوالى خمسين عامًا ـ وفى هذا الشارع معظم الفنادق الكبرى والكباريهات. . وفى الشوارع نداءات غريبة. . إنها الفنادق تنادى فى الميكروفون على سيارات التاكسى المارة بالقرب من الفندق.

واخترقت قطعة واسعة من الأرض مغطاة بالعشب وعدد من الفتيات والفتيان فى حالة اتحاد فيدرالى عاطفى ـ أى اتفاق فى الدفاع عن النفس والسياسة الخارجية.

وكنت ما أزال فى الساعات الأولى من الليل. . فأخرجت من جيبى ورقة رسمية عنوانها «الحالة الصحية فى مانيلا». . الورقة تقول: معظم أبناء الفليبين مصابون باضطرابات معوية. . ومعظم هذه الاضطرابات على هيئة دوسنتريا. .

وتقول الورقة: لا توجد فى الفليبين بعوضة الملاريا.

وفى الصحف قرأت مقالات تهاجم الحكومة لأنها لم تتخذ الاحتياطات اللازمة ضد الملاريا. . وبعض الأطباء يستنكر كلام الصحف ويقول إن حماية البلاد من الملاريا. . كحمايتها من العواصف أو من أمواج البحر ـ يعنى مستحيل!

ولكننى أميل إلى رأى الحكومة لأنه لا يوجد بعوض الملاريا فى هذه البلاد. وأحب أن أؤكد للحكومة أنه لا يوجد سوى بعوضة واحدة غرست خرطومها فى عنق مستشارنا فلزم المستشفى أسبوعًا كاملا!

ومددت يدى إلى جيبى وأخرجت كتابًا صغيراً لمؤلف أمريكى ينصح القراء بأنهم إذا ذهبوا إلى الفليبين فيجب ألا يشتروا شيئًا أبداً. فالفليبين هى أغلى بلد فى الدنيا كلها. وشعرت أننى ميال إلى تصديق كلام هذا الأمريكى لأنه أولا مضبوط، وثانيًا لا توجد معى فلوس كثيرة، ولأن الطريق إلى شراء أى شىء محفوف بفوارق العملة والبقشيش، ولأن هناك بلاداً أجمل من الفليبين.. وأن الفليبين ليست إلا إحدى المحطات الاختيارية فى مشوارى الطويل.

وتذكرت ما سمعته اليوم وأمس وأول أمس من أنه إذا ذهبت للسهر فى أى مكان فيجب أن تبلغ أحد أصدقائك بذلك أو تبلغ إدارة الفندق أو مركز البوليس.

وظللت أمر طول الليل على الفنادق الكبرى وأتطلع إلى الكباريهات والبارات من بعيد لبعيد عملا بنصيحة جحا وهى: حلق ولا تمسكش.. فأنا أحلق فوقها وحولها دون أن ألمسها..

وأحسست أننى كالصعيدى الذى أنعم عليه برتبة البكوية فقرر أن يذهب إلى القاهرة ليعلن ذلك للناس. ولما نزل فى محطة مصر قابله أحد الشيالين فبادره بقوله: رايح فين يا بيه..

وانبسط الصعيدى جدا وقال له: هى البهويه وصلت لحد هنا؟

وقرر الصعيدى أن يعود إلى بلاده فلا داعى للإقامة فى القاهرة ما دام الناس يعرفون أنه أصبح من البهوات..

وأنا اكتفيت برد اعتبارى وارتفاع أسعارى وعدت إلى الفندق أجلس إلى التليفزيون وأستمع إلى الموسيقى.. والناس حولى أشكالهم لطيفة مسمسمة وينظرون بعيون كلها ترحيب كأن كل عين مصلحة سياحية وأننى السائح الوحيد!

وصعدت إلى غرفتى وأنا سعيد بأن «البهوية» بلغت الفليبين!

* * *

ومدينة مانيلا هى أشهر مدن الفليبين، ومع ذلك ليست العاصمة. فالعاصمة هى «كيزون سيتى» وهى ضاحية بعيدة عن المدينة. ومثلها تمامًا مدينة «سيدنى» فى أستراليا، إنها أشهر المدن والعاصمة هى كانبرا.. وأكبر جالية أجنبية فى هذه المدينة هى الجالية الصينية فعددهم حوالى ٥٠ ألفًا..

والبيوت هنا مزدحمة جدا بالسكان . . وقد نشرت الصحف اليوم أن أبناء الفلبيين يجب أن يعدلوا عن عاداتهم . . فالضيف يجب أن يبقى يومين أو ثلاثة لا أن يبقى أسبوعًا ، وكذلك أقارب الزوجة . . واقترح أحد المحررين أن ينقل الفقراء بيوتهم الخشبية إلى شاطئ البحر لكى يقذف بما زاد عن حاجته من الزوار فى البحر . . واقترح أن ينقل صاحب البيت بيته من مكان إلى مكان . . وإيجار المساكن مرتفع جدا ، فملحقنا الثقافى يسكن فى شقة إيجارها ١٢٠ جنيهًا ، والشقة عبارة عن غرفة واحدة وصالة ومطبخ .

والأطعمة هنا لها طعم غريب . . فلا يوجد لبن طبيعى فى هذه البلاد . . وإنما يوجد اللبن المسحوق . . لبن العلب . . ويوجد هنا نوع من البامية ليس له طعم ويقال إن له طعمًا فى بعض البيوت . .

لقد أكلتها فى بيت أحد المصريين وقد لاحظت أن خادمته اقتصادية جدا فى وضع الماء والملح والزيت والبامية . . ولاحظت أن لها أسنانًا ذهبية . . فعرفت أنها اقتصادية جدا جدا لدرجة أنها تخفى كل فلوسها فى فمها !

فما بالك بالبامية !

* * *

اليوم قررت أن أمشى على كيفى فقد سمعت عشرات الممنوعات من أصدقائى هنا ومن الرسـمـيين . . ومن إدارة الفندق . . كل شىء ممنوع . . المشى ممنوع . . والأكل ممنوع . . والسهر ممنوع . . الحقيقة لم أقتنع . .

فى الصباح المبكر سحبت يدى من فوق الجرس فقد قررت أن أتناول فطورى خارج الفندق .

ونزلت إلى شارع ديوى على خليج مانيلا . . الجو لطيف والسماء ملبدة بالسحب ، ومن المحتمل أن تتساقط الأمطار ؛ فنحن ما نزال فى الصيف . .

واخترت مطعمًا صغيراً . . وانحنى الجرسون فى أدب فقلت له فى أدب أيضًا : شاى وبيض .

وبعد لحظات جاء الرجل بصينية كبيرة عليها شاى وجبنة وبسكويت وخبز «مأمر» أى «مجمر» ـ نسبة إلى الجمر ـ وزبدة وبيض ولبن وكوب ماء مثلج .

وأمسكت البيضة وبرشاقة الكتكوت وهو ينقرها من الداخل لكى يخرج . . كسرتها أنا لكى أدخل فيها . . أدخل فيها الملعقة . . وأدخلت المعلقة فوجدتها جافة . لقد كان بها كتكوت صغير . . فقرفت . . ومددت يدى إلى بيضة ثانية وثالثة . . كتاكيت . . فتراجعت وضممت شفتى فى قرف كأننى أحد أسود كوبرى قصر النيل، ثم بدأت أتلفت فى قرف كأننى أسد سينما مترو . وجاء الجرسون وسكت ينتظر منى أن أقول شيئًا فأشرت إلى البيض، والذى أدهشنى جدا أن الجرسون سألنى : فيه إيه؟!

وبعد ذلك عرفت أن البيض هنا لا يأكلونه إلا هكذا . بعد أن توضع البيضة تحت الدجاجة عدة أيام ويشعرون بأنها تماسكت وأن الكتكوت بدأ يكبر يسحبونها من تحت الدجاجة ويقدمونها للزبون .

طبعًا لا توجد فى كل مطعم دجاجة نائمة باستمرار . وإنما توجد أجهزة تدفئة لإنتاج الكتاكيت . . وعرفت أن هذا هو الطعام القومى هنا .

طبعًا لا داعى لأن تقرف أيها القارئ العزيز فأنت تفعل نفس الشىء . ألم تأكل أم الخلول، إنها هى الأخرى تشبه البيض الفليبينى، ورائحتها ألعن .

وفى الغداء اخترت أحد المطاعم وطلبت لحما مشويا وبعض السلاطة الخضراء وجاءت اللحمة . . شكلها جميل . وأنا لا أحب اللحم، ولكن قيل لى أنها أفضل من السمك . إنها على هيئة قباب كبيرة وتخرج منها أعواد من الخشب مزقت أكباد الدجاج ، وإلى جوارها يوجد عدد من الليمون الأخضر الصغير فى حجم الزيتون . وجاءت السلاطة بيضاء باهتة جدا . إن هذا الأخضر الفاتح هو نوع من الخس، وهذا نوع من الخيار أو الكوسة أو البطيخ الأقرع لا أعرف . . وتوجد ملاحة تشبه رشاشة الـد . د . ت . . وأبعدت طبق السلاطة فقد تذكرت ما قرأته أمس عن انتشار التيفود بسبب الخضراوات غير المغسولة .

ومددت يدى إلى الليمون وعصرته على الماء . . ولاحظت أن عصير الليمون أصفر . . كأنه ليمون مخلل .

هذه هى أول مرة فى حياتى أجد ليمونًا ينزل من الشجر مخللا وبه ثوم وشطة . وعرفت أن كثرة الليمون سببها أنه يخفى معالم اللحم فلا يعرف الزبون كيف كان طعمها . . ولا إن كانت طازة أو بايته!

وبعد الأكل قدم لى چيلاتى لذيذ. . وهو عبارة عن چيلاتى عادى ولكنهم يضعونه فى نصف جوزة هند. . إنها تشبه البوظة عندنا التى يضعونها فى نصف قرعة، ولكنهم لا يأكلون القرعة. والشيء الذى ليس عندنا هو ثمن هذه الوجبة. إنه ١٥٠ قرشًا!

وأحسست كأننى ابن النبى نوح ـ عليه السلام ـ . . وأحسست أن كل أصدقائى ينصحوننى بالعودة إلى العقل وإلى الاستماع إلى نصائحهم حتى لا أغرق. . وكأنهم يقولون لى: يا بنى اركب معنا. وأنا أقول لهم: سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء. ويقولون لى: لا عاصم اليوم. .

والحقيقة أنه لم يكد يأتى الليل حتى وجدت أننى أنفقت عشرة جنيهات. . وأن هذه العشرة جنيهات قد أصبحت كحجر ثقيل تدلى من عنقى وأغرقنى معه فى بحر من الندم.

وقالوا: اركب معنا.

فقلت: بل أمشى وراءكم!

* * *

يوجد هنا فى مانيلا عدد من أصحاب الملايين العرب من لبنان ومن سوريا ومن فلسطين، وكل واحد منهم له قصة: كيف جاء، وكيف قرر البقاء، وكيف أصبح غنيا. ويكفى أن أذكر بعض الأسماء: فهنا المليونير السورى المولد الأمريكى الجنسية ألبرت عوض. . فله مصنع أسلاك كهربائية وكابلات وله زوجة جميلة تتحدث العربية. . وهنا الإخوة أنطون وفيلكس ويعقوب أسعد. . إنهم من لبنان وهم أصحاب ملايين ولهم مصانع نسيج بها أكثر من ٣ آلاف عامل. والمليونير يعقوب أسعد يملك عقارات إيجارها الشهرى ٣٠ ألف جنيه.

وهنا المليونير الفريد كيروزه، من لبنان أيضًا. . وهو يحتكر صناعة الدراجات. .

حتى قنصل لبنان هنا من رجال الأعمال الناجحين جدا، وهو يقيم فى الفليبين منذ ٣٥ عامًا. وله زوجة لبنانية أنجبت له طفلتين.

وقد كتبت عنه مقالا فقلت فيه: إن زوجته «أنجبت» له طفلين فغضب من كلمة «أنجبت» له فقال: هى اللى أنجبت. . أمال شو باعمل أنا!

وأمثله أخرى مشرفة للعرب الذين جاءوا إلى هذا الجانب من العالم وعاشوا فى

ظروف قاسية جداً. وتغلبوا عليها. وتحولوا إلى أصحاب أعمال وأموال واحتكروا الأعمال والأموال فى بلاد غريبة.

وأعتقد أن أحسن قصة نجاح هى قصة السيدة وديعة هاشم وزوجها حنا جميل. . جاءت السيدة وديعة إلى هذه البلاد منذ ٧٥ عامًا. . وقبل أن تبلغ العشرين تزوجت حنا جميل. وبدأت قصة كفاح رائعة. بدأ الاثنان معًا يبيعان الأقمشة وكل منهما يحمل بضاعته على كتفه، وكان الاثنان يقتسمان مدينة مانيلا. كل واحد منهما يبيع فى شوارع محددة. وفى آخر النهار يلتقى الاثنان. . وكانت السيدة وديعة هى التى تمسك الدفاتر ومن رأيها أن التاجر الناجح هو الذى يحفظ جدول الضرب. . بكل معانى الضرب!

وكانت السيدة وديعة قاسية على نفسها وعلى غيرها، وفى آخر أيامها كانت تضرب العمال وتضرب الصحفيين، وكان من رأيها ـ وأقول من رأيها لأن لها آراء غريبة ستعرفها فيما بعد ـ أن التاجر لكى ينجح يجب ألا يكون له أبناء فى أول حياته. وإنما يهتم بالأبناء فيما بعد، ولذلك لم تنجب السيدة وديعة إلا فى آخر حياتها وظلت وديعة وحنا جميل يعملان ويجمعان الأموال وينتقلان من حال إلى حال أحسن. . من البيع المتجول إلى حالة الاستقرار فى دكان صغير ثم فى دكان كبير. . وأخيراً خطرت لوديعة فكرة، أن تشترى قطعة أرض بعيدة عن مانيلا. . مساحة هذه القطعة من الأرض حوالى مائة فدان. وثمن الفدان فى ذلك الوقت حوالى قرش صاغ. وأقامت على جانب صغير من هذه الأرض مصنعًا صغيراً للنسيج تحول فيما بعد إلى المصنع الوحيد فى الفليبين لصناعة الثلاجات والمكاتب وأجهزة التكييف.

ولاحظت السيدة وديعة أن المصنع بعيد جداً عن المدينة وأن أحداً لا يعرفه. فأهدت قطعة من الأرض إلى قيادة الجيش، وكان الجيش يبحث عن قطعة أرض قريبة من المدينة. فأقام الجيش معسكراته هناك وشق طريقًا مرصوفًا يمر بالمصنع ويمر بمركز القيادة، وبدأ الناس يمشون فى هذا الطريق ويعرفون المصنع. . ثم اهتدت إلى فكرة أخرى. . أهدت قطعة ثانية من الأرض إلى الكنيسة وأقيمت الكنيسة بالقرب من المصنع ومن مركز القيادة ورأى المصلون المصنع. . ثم أهدت قطعة أرض أخرى إلى وزارة المعارف لتقيم عليها مدرسة. . وأنشئت المدرسة. ثم بدأت السيدة وديعة تقيم البيوت والفيلات ليسكنها الناس. لقد أنشأت أكثر من مائة بيت وزرعت الأشجار على جانب هذا الطريق وطريق آخر واختارت أشجار المانجو. . وكانت تترك الأشجار للناس يأكلون ثمارها فيما بعد. . فلم تكن الثمار هى الشىء المهم عندها وإنما تردد الناس على الطريق وعلى الكنيسة وعلى

المدرسة . . ورؤية المصنع . . والقصر الذى بنته السيدة وديعة لنفسها يقيم فيه الآن قنصل إسرائيل فى الفليبين .

والسيدة وديعة بعد وفاة زوجها حنا جميل الذى أنجبت منه ولدين أصبحت هى صاحبة المصنع الكبير . ، وتزوجت من أحد الدروز المسلمين وهو كامل بك حمادة . . وكان هذا الرجل طويلا عريضًا لافتًا للنظر . وكان نشيطًا . فقد استطاع استثمار أموال وديعة التى بلغت عند زواجهما حوالى ٥٠ ألف جنيه من الذهب . . وتعاون الاثنان معًا فى بناء المصنع الوحيد الآن والمعروف باسم «صلب اشمايل» واسمايل هو النطق الفليبينى لكلمة : جميل . .

وقد سألت مدير المصنع وهو ابن أخت حنا جميل عن قيمة ما ينتجه المصنع سنويا ، فقال إنه حوالى مليون جنيه ، وإن الربح سنويًا هو حوالى نصف مليون جنيه . . ولا يوجد من اللبنانيين فى هذا المصنع سوى المدير وأخيه وسائق سيارته . . والباقون وعددهم ٥٠٠ عامل كلهم من أبناء الفليبين .

وكانت السيدة وديعة حتى وفاتها فى السابعة والسبعين سنة ١٩٥٢ قوية عنيفة وكانت تمسك خزائن البنك وتحمل المفاتيح حول عنقها . . وكانت هى التى تشترى ملابس زوجها الأول والثانى . ولها ضريح كبير هى التى اختارت تصميمه ومكانه وقدرت نفقاته قبل وفاتها . . وأصرت على ألا تزيد نفقات الدفن والجنازة عن مبلغ معين .

وقبل أن تموت وزعت التركة من غير عدل بين ولديها وبين أحفادها فأعطت الأحفاد أقل من الولدين .

أما حكمتها فى ذلك فهى أن الأحفاد لا مستقبل لهم . . أما الأولاد فلهم مستقبل . . وأن الأحفاد سيكونون أقل صلابة من الأولاد ، ولا شىء يشد ظهورهم فوق خيول الحياة ، إلا المال .

ويبدو أن نبوءتها قد صحت . . فأحد الأحفاد الآن تزوج من ألمانية ، ويعيش فى أمريكا ثلاثة شهور وأربعة وستة من كل عام . .

ألم أقل إنها لها آراء غريبة . . ولكنها معقولة أيضًا ؟ !

مغامرة فى الليل!

لسبب غير واضح قررت أن أقوم بزيارة لذلك السياسى العجوز. . وأنا لا أعرف كم يساوى عند مواطنيه. ولكن بشعور من الغربة أحسست برغبة فى أن آوى إليه، وبشعور من اليتم قررت أن أتأباه ـ أى أجعله أبًا ـ إذا صح هذا التعبير. .

ولا أعرف اليوم إن كان حيا أو ميتا. فقد كان فى التسعين عندما رأيته. . وحتى عندما رأيته لم أعرف إن كان حيا أو ميتا. .

فأولاده يحرسونه كأنه ضريح. . ويتطوعون بالتهليل لعباراته قبل أن ينطقها كأنه طفل مريض. . ويقسمون على صحة ما يقول كأنه رجل مخرف. . ويدفعونه إلى الكلام وإلى أن يقول ويقول. . لأنه قال ذلك كثيرا جدا. . فهم يهونون من حالة الملل والسأم التى لابد أن تكون قد أصابت سياسيا متقاعدا منذ خمسين عامًا. . يرى الدنيا ولا يشارك فيها. . أو يشارك فيها دون أن يراه أحد!

ولا أعرف ما إذا كان هذا السياسى الفلييينى الذى اسمه أجينالدو يساوى هذه المغامرة التى قمت بها مع ملحقنا الثقافى فى الفلبيين أم لا. . فقد ركبنا سيارة تاكسى من مانيلا. . وهذه مخالفة خطيرة لقوانين البلاد. وكان من الواجب أن نخطر السلطات عن رقم السيارة واسم السائق وعن المكان الذى سنذهب إليه. وما دامت السلطات لا تعرف فنحن قد اخترنا الموت. ومعروف أين ومتى وكيف سنموت. سيقتلنا هذا السائق فى أطراف هذه المدينة. . أو يخنقنا اثنان من زملائه. . أو يلقى علينا غازًا «مخدرًا» كل هذا سيحدث الليلة على أى حال!

والسلطات فى الفلبيين يشرفها أن يموت اثنان من الجمهورية العربية المتحدة (مصر سابقًا). . لتنتهزها فرصة وتعرب عن أسفها عن هذا الحادث، بعد أن فاتها أن تعرب عن

أسفها عن الحادث السابق . . وستنتهزها فرصة لتقول للرأى العام بأنها معذورة فهى لا تستطيع أن تدافع عن كل البلاد بنفس الدقة . ولا تستطيع أن تتخلى عن الشعب ، وتهتم بالدفاع عن الأجانب . .

وقد لا تجد أى معنى خاص فى أن ينظر السائق فى المرآة التى أمامه . لعلك تقول إنه يريد أن يعرف السيارات التى وراءه . . إلا فى الفليبين فإنه ينظر إليك ليعرف مدى خوفك . . حالتك المعنوية . وفى السيارة تليفون لاسلكى . ونحن نعرف معنى هذا التليفون . فعن طريقه وقع الحادث السابق لسفارتنا فى مانيلا . فقد خرج مستشارنا من أحد المستشفيات التى لزمها أيامًا ، على أثر لدغة بعوضة ملاريا . ويومها أعلنت وزارة الصحة فى الفليبين أنها البعوضة الوحيدة التى دخلت البلاد!

وحتى لو لم تكن الوحيدة ، فإن أحدًا لا يستطيع أن يطلب من الدولة أن تضع ناموسيات على آلاف الجزر لآلاف الأميال . . إنها بعوضة والسلام ، وسقطت على عنق مستشارنا فسقط هو تحتها يغلى ويرتجف ويهز سريراً قديمًا ويملأ سماءه بهلوسات لا حد لها!

ولم يكد يركب المستشار التاكسى ينتقل بها من البيت إلى أحد الأندية . . وأظن أنه نادى البحرية وهو النادى الوحيد هناك . والمسافة قصيرة ، ولكن بالنسبة لرجل مريض يحتاج إلى تاكسى . وجاء التاكسى . وركب المريض . وانحرف التاكسى إلى شارع جانبى ثم إلى شارع آخر . وفى التليفون تحدث السائق . ولا بد أنه نظر فى المرآة إلى الوراء . ورأى أن الراكب متعب ومتهالك فى مقعده . وفى إحدى الحوارى الجانبية تقدمت سيدتان . . أو تقدم سيدتان . . فهما رجلان قد ارتديا ملابس النساء . وهجما على المستشار ونزعا حافظة نقوده . . ولم يكن معه كثير . ونزعا الساعة الذهبية . . واختفيا .

ويبدو أن السائق رق لحال المستشار فوعده ـ وهذا ولا شك فضل منه ـ بأن يوصله إلى قرب البيت . . ثم يتركه فلا شأن له بهؤلاء اللصوص . فهو موظف عندهم فقط ونصيبه من كل هذه المسروقات قليل جدا!

ومكافأة للسفارة العربية على صمتها . وعلى أنها قد وضعت فوق الخبر ماجوراً ، أعاد البوليس الأوراق المفقودة والساعة الذهبية والخاتم . . ولكن البوليس لم يستطع أن يرد شيئًا مفقودًا هو : الطمأنينة!

وبشىء من الطمأنينة الكاذبة . . وبشىء من رؤية الهدف دون الطريق إليه ، ركبت

السيارة وجعلت ملامح وجهى قاسية . . وأقرب إلى التحدى قليلا وكلما نظر لى السائق فى المرآة . . سقطت عيناه على واجهة رخامية . . وعلى احتقار جامد . وانحرفت بنا السيارة . . ولكن لم أهتز لهذا الانحراف وتحدث فى التليفون ولم أعبأ بذلك . . ودخل محطات البنزين . . فنزلت أتفرج على السيارة . . وببعض عينى تظاهرت بأننى ألتقط رقم السيارة، وبعض العلامات الموجودة فى الرفارف . وانتظرت حتى يفتح لى السائق الباب، إمعانًا فى التعالى عليه . ولو عرف السائق ما يدور فى أعماقى لأوقفنى فى أى مكان ودون أن ينطق بحرف واحد فإننى سأعطيه كل ما معى من أموال!

والطريق كلما ابتعدنا عن مدينة مانيلا متجهين إلى الريف تتغير معالمه . . فقد تجاوزنا الجانب المرصوف . . ومع الأسلف اختفت المصابيح . . وتعالى التراب مع غروب الشمس . . ولم نعد نر إلا الأشجار . . الخوف يجعلها على شكل أشخاص . . ثم على شكل أشباح . . ثم تلاشى كل شىء . . فلم نعد نرى إلا التراب هائمًا أمام مصابيح السيارة .

وانحرفت السيارة مئات المرات . . ثم توقفت أمام قصر فخم . . وصعدنا الدرج . . ودخلت الصالون الطويل العريض . . وعلى الجدران لوحات وأسلحة . . وكل شىء يدل على أن هذا البيت قد أعد إعداداً خاصًا قبل هذه الزيارة . فلا تزال رائحة التراب عالقة فى الجو . . فكأن التراب كان نائمًا وأيقظوه . . ولكنه لم يبرح المكان . . إنه يتردد فى أن يصحو . . وما تزال على المناضد آثار المقشات . . خطوط سمراء فى خطوط سوداء . . ثم ريش متناثر على المقاعد وعلى الأرض . .

ثم جاء الرجل . . ولم يكن هو الزعيم السياسى أجينالدو . إنه ابنه . . إن الابن قد تجاوز الخمسين ولكن فرحته وخفته لم تجعلنى أتصور أنه الأب . . ولما رأى حفاوتى به اعتذر بأنه ليس الزعيم . . وإنما الزعيم سيجىء حالا . وقد حرص الزعيم على أن يكون هذا الاستقبال رسميًا تمامًا كما كان يفعل إذا زاره إنسان عظيم، ليس مهمًا هذا التفسير أو هذا التعليل . . فالزعيم رجل عجوز وهو لم يبرح ماضيه وحرصه على أن يرتدى ملابسه ليس إلا حرصه على أن يعيش فى الماضى . . وأبهة الماضى . . وزيارتى له، ليست إلا مناسبة سعيدة . . أو يجب أن تكون سعيدة له .

وجاء الرجل . . لا أعرف إن كان قد مشى على رجليه . . أو حملوه حملا . . أو دفعوه فى مقعد له عجلات . . فقد نهضت من مكانى قبل مجيئة ودخلت إحدى الحجرات أتفرج

على اللوحات، وألقى نظرة على ماضيه الذى لا أعرف عنه إلا القليل جدا . . أما الكثير جدا فهو ما سوف أسمعه الآن . .

وعندما عدت وجدت الزعيم على مقعده . .

لقد امتلأت بشيء، لا أدريه بالضبط . . ولكنى أستطيع أن أصفه دون أن أفسره الآن . . فأول ما أحسست به أن هذا الإنسان طيب . . وأنه صادق . . لا أعرف مدى صحة هذه المعانى ولا مدى صدق هذه الأحكام ولكنه مجرد إحساس . . أو هو إحساس مجرد من أية مصلحة . . أو من أية معلومات تاريخية أيضًا !

وأحسست كأنه مدفع قديم جدا فى طابية منهارة . .

كأنه عربة حربية ماتت خيولها، ولم يبق منها إلا بعض الألواح الخشبية الملونة . .

كأنه رجل دفنوه حيّا، ولما أحس المشيعون بذلك تركوا النعش وهربوا . .

كأنه جندى يحمل معدات الميدان فى معركة قد انتهت من عشرات السنين ولا يدرى .

كأنه أحمد عرابى باشا . لا أعرف بالضبط وجه الشبه بينهما . وربما كان ذلك بسبب أننى عشت فى جزيرة سيلان مشغولا بالسنوات العشرين التى قضاها عرابى هناك . ورأيت كل الأماكن التى عاش فيها وتردد عليها . . ورأيت بعض الناس الذين عرفوه . إنهم لا يزالون على قيد الحياة . لقد مات عرابى منذ ٥٣ عامًا . . إنه مثل عرابى، فيه صدق، وله هيبة، ولكن وطنيته كانت أقوى من سلاحه . أو كأنه لطفى السيد . . وقد زرت لطفى السيد فى بيت قد انحرف إلى حارة كأنه سيارة مغروزة فى العشب . . أو كأنه باخرة قد ارتطمت بالشاطئ ولم تتحرك . . وكأنه هو قائد السفينة الذى أصر على أن يلزمها حتى ينجو كل من فيها . . ولم تغرق السفينة!

وهذا الرجل أجينالدو قام بثورة على الإسبان الذين حكموا الفلبيين مئات السنين وتركوا طابعهم الثقيل على هذه الجزر . ولم يدفعوا الناس فيها إلى الأمام، وإنما كان همهم فقط أن ينقلوا ما فيها إلى بلادهم . . وأن يظل الناس يتفرجون على أناقة الإسبان ويتمنون أن يكونوا عبيدًا فى مدريد .

وهناك أغنية تقول : عبيد فى مدريد ولا أسياد فى مانيلا . .

ولم تكن قوات أجينالدو منظمة، وإن كان هو يؤكد أنها كانت كذلك، وإن الخونة قد

طعنوه من الخلف، وأنه لولا هؤلاء الخونة لخرج الإسبان منذ زمن طويل. وهرب أجينالدو إلى هونج كونج. . ووافق الإسبان على أن يعطوه مرتبا شهريا، بشرط أن يظل هناك مدى الحياة. .

وعندما استولى الأمريكان على الفليبين أعادوا هذا الرجل بشرط أن يعتزل الحياة السياسية. واعتزلها منذ أوائل هذا القرن، ويوم جلس أجينالدو فى مقدمة الصالون الذى أجلس فيه الآن يعلن أنه أبو الوطنية فى الفليبين، فى هذه اللحظة بالذات سقط عرابى باشا من فوق المصطبة فى قريته ميتا!

مسكين عرابى باشا عاش كريمًا فى المنفى، ومات ذليلا فى وطنه!

وسألت الزعيم أجينالدو عن حياته. . فقال، ما معناه. . إنه يقضى وقته كله فى التأمل.

لعل التأمل الذى يتحدث عنه هو ما نسمية عادة بالسرحان. . فلا هو تفكير مركز، ولا هو تفكير.

وسألته: إن كان فى نيته أن يكتب مذكرات. .

ولا أعرف بالضبط ما الذى قاله الابن لأبيه لكى يقوله لنا، ثم يترجمه الابن. . ولكن بعد مناقشة طويلة بينهما قال الابن مترجما ما قاله أبوه: لدى الكثير الذى أريد أن أقوله. . ولكن أحسن طريقة لكتابة المذكرات هى أن تكتبها أولا بأول. . فإذا عدت إلى كتابتها بعد ذلك يجب أن يكون فى أوقات متقاربة. .

وقال، وأشهد أننى رأيت ابتسامته لأول مرة: عندنا مثل يقول إن البذور القديمة لا تنمو ولم أقل إن له أن هذا هو عكس ما يعتقده أجدادنا الفراعنة!

وقد استغرقنى التفكير فى هذا الرجل. .

فأنا لا أعرفه، ولكن فى نفس الوقت كنت مشغولا به. ولا أعرف ماضيه هل هذه النهاية هى التى تشغلنى. .

هل إحساس الإنسان بأنه أصبح موضة قديمة هو الذى يخيفنى. .

هل هو الإحساس بأن الصدق كأى عملة، فى كل يوم لها سعر. .

هل لأن الوطنية هى شرف للجميع هى الأخرى كالعملة كل يوم لها سعر. .

ولا أعرف أى جوانب هذا الرجل الذى انتهى، هى التى تتحدث إلينا.

إنه مثل «آخر نفس» فى سيجارة شربتها الوطنية فى الفلبيين..

إنه مثل تمثال نصفى صنعته السيول البُركانية ضد الإسبان..

إنه كومة من أشرطة مسجلة.. لا يعرف سرعة الجهاز الذى سجلت عليه.

سألته وأنا لا أتوقع جوابًا: هل من الممكن أن أرى بعض صفحات مذكراتك.. هل من الممكن أن يترجم لنا ابن سيادتك صفحة أو صفحتين؟

وعاد النقاش بينهما وبدا لى أنهما لم يتفقا على شىء.. وجاء كلام الابن يؤكد أنها مفاجأة، وأنه يحتاج إلى وقت طويل لينفض التراب عن هذه المذكرات..

وسألته: إن كان قد سمع شيئًا عن عرابى باشا..

وطبعًا لا يعرفه كما أن أحدًا لا يعرف عن هذا الرجل الذى نصفه صينى ونصفه فليبينى..

وسألته إن كان يعرف بلادنا. فاهتز فى مقعده. واحتبست فى داخله المعلومات أو الانفعالات وارتفعت إلى وجهه حمرة خفيفة كالتى تجدها فى واجهة جهاز الراديو قبل أن ينطق.. ونطق الابن وقال: طبعًا.

أما الذى قاله بعد ذلك فتستطيع أن تخمن ما سيقوله رجل إذا رفع يديه إلى أعلى وأشار بثلاث أصابع.. الأهرامات طبعًا..

ولو وضع يده على أنفه وضغط قليلا. لفهمت أنه يتحدث عن أبى الهول..

ولو زحف على الأرض، لفهمت أنه يتحدث عن التماسيح التى تسبح فى شوارعنا.. فالرجل من مواليد نصف القرن التاسع عشر!

ولم يضايقنى أنه لا يعرف إلا الأهرامات.. وكان يضايقنى أكثر لو دبت الحياة فى يديه وتحدث عن التماسيح فعلا! ولو تحولت أمواج النيل إلى تماسيح فإنها لن تبلغ عدد التماسيح التى تحرس شواطئ الملايو وإندونيسيا والفليبين!

ورأيت لمعانًا خفيفًا فى عينى الرجل.. وأصبحت عيناه نيشانين جديدين أضيفا إلى النياشين التى علقها على صدره. فقلت له، وأنا أراه لوحة أصلية وأن ابنه لوحة تقليد: هل كانت لك غراميات؛ فليس بالحديد والنار يعيش الإنسان؟

فقال وهو مصمم على الضحك: مرة واحدة . .

وكطفل صغير نظر إلى ابنه .

فقلت له: ولم تتزوجها طبعًا؟

فهز رأسه بما معناه نعم . .

وأضاف الابن أن لوالده غراميات أخرى كثيرة . ولكن الحرب والسياسة حرمته من الحب، وعوضته عن ذلك بحب الناس . .

ولم أسأله طبعًا إن كان حب الناس . . يكفى!

فمن يدرى ربما كان نصيبه هو من احترام الناس وحبهم أكثر مما يستحق . فحب الناس هذا ليس أبديًا، ولا شيء أبدى، وعند الناس من المشاغل والهموم والمعارك اليومية ما يشغلهم عن غيرهم وعن أنفسهم . . فكل واحد مشغول بالنجاة فقط . . بالنجاة من الفقر والمرض والنسيان . . وهم لكى يعيشوا يجب أن ينسوا . ولكى يعيشوا يجب أن يدوسوا غيرهم أيًا كان هذا الغير . . وهو - هذا الرجل - يعيش فى قصر، أو يموت فى قصر، وملايين غيره ينامون على الأرض . . يعيشون على الأرصفة . . ويحلمون بأن يموتوا على أرصفة ألطف .

وبهذه المعانى خرجت وأنا أرى أنه أخذ ما يستحق . . وأنه فى هذه السن، لا يطمع فى أكثر من أن يتمدد فى انتظار السائح إياه . . ذلك الذى يجىء مرة واحدة . . وبعد زيارته لا شىء . . وهذه عبارته هو، وعبارة كل الناس فى هذه السن . .

وفى هذه السيارة شعرت بأننى أحسن حالا . .

وقد استعرت هذا الإحساس من السائق الذى رأى فى زيارتى لهذا الزعيم القديم أهمية خاصة . . والذى لابد أن يكون قد استنتج من تكرار كلمات: سينما . . وفيلم . . وهوليود . وأنا أتحدث مع ابن الزعيم . أننى مخرج أو مؤلف وأننى جئت لعمل كبير عن حياة هذا الرجل، وأنه من الممكن أن نستفيد من خبرة هذا السائق فى قيادة السيارة فى الظلام . . وفى اللف من حارة إلى حارة دون أن يصطدم بسيارة أخرى . . ثم إخلاصه فى حراستنا . . لدرجة أن واحدًا منا لم يمت!

وعندما وقفت السيارة أمام الفندق، والسائق لا يقدر مدى سعادتى ولا سببها، لمست

بيدى خده فابتسم، وأخرجت قلمى لأعرف اسمه فضحك، وعنوانه لأرى الدموع فى عينيه ثم قلت له شيئًا لم يكن يتوقعه:

هل تعرف أن وجهك يصلح للشاشة؟!

ثم حدثت نهاية سينمائية . .

لقد تقدم أحد رجال البوليس واعتقل هذا السائق . . فقد ارتكب جريمة قتل فى الصباح، ثم هرب بنا إلى الريف.

مسكين . . إنه لم يكن ينظر فى المرآة ليرانا وإنما كان يتطلع إلى رجال البوليس!

مطلوب كلب بلدى!

كان الفيلسوف الألمانى نيتشه يقول: عش فى خطر!

وكان ينصح الناس بأن يعيشوا عند قمم البراكين التى تهتز وترتجف . . استعدادًا لسيول ملتهبة وسحب من الدخان . . وبرق يتحول إلى كرابيج والعة نار . . ورعد يتحول إلى تكسير وتحطيم . . ويموت الناس فى قبور مشتعلة!

والنتيجة: الموت المؤكد . .

واللذة: هى أن يشعر الإنسان ولو لحظة واحدة أنه معلق بين الحياة والموت . . وأنه يكون قد اختار المكان والطريقة التى يموت بها . ومعنى ذلك أن الإنسان يكون له رأى فى نهاية حياته . وبذلك لا يظل الإنسان فى حالة انتظار دائم للنهاية . . فإذا عاش على قمة البراكين، فهو يعلم مقدمًا أنه سيموت . . ويعلم مقدمًا كيف سيموت!

وركوب البحر خطر . . والطائرة خطر . . والمشاركة فى الحياة العامة خطر . . وكل شىء فى الدنيا خطر . . فكأن الحياة نفسها نوع من الخطورة والمخاطرة . .

وفى هذه الحالة أجد لعبارة نيتشه معنى!

ولكن الذى أراه فى الفليبين هو نوع من الخطورة لا معنى له . وليست فيه أية لذة، ولا هى فلسفة!

* * *

ولا بد أن أعود إلى الكلام عن التاكسيات . . فهى الخطر الذى يجرى على عجل! فأى شارع أمشى فيه تلتف التاكسيات حولى . . وتتزاحم . . وكل واحد يفتح الباب ويقول كلامًا لا أعرفه . . وكل واحد يتقدم بورقة . وعن قرب وجدت أن الورقة بها أسماء فتيات

وأرقام تليفونات . . وأول الأمر كنت أظن أن هذه أرقام تليفونات . . ولكن عندما اقتربت أكثر عرفت أنها أعمار الفتيات . . !

وأحيانًا يكررون كلمة : مستيسا؟! مستيسا؟!

وهذه الكلمة معناها «خليط» . . أى أن الفتاة التى يعرضها من أصل إسبانى . . أى أنها جميلة . والفتاة الخليط من الإسبانى والفليبينى تعتبر جميلة . يكفى أن ملامحها أوربية وأن لونها ليس أسمر أصفر . . وإنما لونها أقرب إلى البياض وعيناها ملونتان . .

وفى هذه المنطقة من العالم ينظرون إلى ذوات اللون الفاتح على أنهن من جنس آخر لأنها من لون ومن سلالة الناس الذين حكموا هذه البلاد . وكان الحال عندنا فى مصر أيام حكم الأتراك . . فالفتاة التركية الشقراء . . هى ست البنات . . وأعتقد أن الفتاة السمراء فى كل الدنيا هى التى تكسب فى أية مباراة للجمال . . فالرجال يفضلونها سمراء ، والنساء يفضلنه أسمر أيضًا!

أذكر أننى دعيت للعشاء فى أحد البيوت هنا وتوقعت أن أرى مرحًا أكثر مما رأيت ولكن الذى رأيته هو شىء فى غاية الاحتشام ، وسألت إن كان وجودى هو الذى حول البيت إلى كنيسة كئيبة . . وقالوا لى : أبدًا . . إننا عادة هكذا . .

فسألت : إن كان المقصود بالعادة هكذا هو هذا البيت فقط . أو كل بيوت مدينة مانيلا .

فقالوا : هذا البيت فقط . .

حاولت أن أعرف إن كان هناك أى سبب خاص لهذا الاحتشام الذى يميل إلى الحزن مع بعض الابتسامات المكتومة . .

فقد ارتدت معظم السيدات فساتين بيضاء مطرزة من فوق الصدر والياقات والأكمام ومعظم الرجال ارتدوا القمصان المطرزة أيضًا . وهذا هو اللبس القومى . وقد وضعت النساء ورودًا فى شعورهن . . معظم الورود كانت على جانب من الوجه ويبدو أن المرأة حريصة على أن نرى منها جانبًا واحدًا من الوجه . . كأنها تريد أن تقول عن نفسها إنها صريحة . . لأن لها وجهًا واحدًا فقط!

لم أجد فى الأطعمة التى أمامى أى شىء غريب فيما عدا الأرز . فله رائحة غريبة ، وهو مخلوط ببعض البهارات التى تجعل له طعمًا حريفًا . . وإلا حرص أصحاب البيت

على أن «يعزموا» : والله تأكل هذه . . والله تأكل هذه القطعة من اللحم . . واللحم عادة يكون صغيراً مثل قوالب السكر!

وبعد أن تناولت الغداء أوصلونى إلى الباب الخارجى مع التحيات والسلامات وتركونى وحدى أبحث عن تاكسى. وهم جميعًا يعلمون خطورة ركوب أى تاكسى.

ومر تاكسى ووراءه آخر . . وثالث . . وينفتح الباب وكل واحد يدعونى إلى الركوب معه وأنا أرفض . . وأعتذر أو أتصنع عدم الاهتمام. وأخرج من جيبى المفاتيح أوهم هؤلاء السائقين بأننى من أصحاب السيارات التى لا يملكهاإلا الأثرياء جدا هنا . .

وعند ناصية أحد الشوارع توقفت سيارة . . وكان السائق رجلا أبيض . . ويبدو أنه أمريكى . . وسألنى : هل تعرف أين توجد سفارة مصر؟

فقلت بشىء من السعادة؛ لأننى وجدت من يوصلنى إليها مجانًا وفى أمان : أنا مصرى . .

واندهش الرجل الأمريكى هو وزميله الذى يركب معه وقال : إذن أنا سعيد الحظ جدا . . سعيد جدا . .

وكنت لا أعرف مكان السفارة إلا إذا كنت بالقرب من الفندق . فطلبت إليه أن يتجه إلى الفندق، وفى الشارع المجاور إلى الفندق انطلقت السيارة، وبعد مئات الأمتار وقفت أمام باب السفارة وصعدنا الدرج . . الدور الأول به دكاكين . الدور الثانى يسكنه قنصل لبنان . الدور الثالث على الشمال توجد شقة السفارة . ودخلت ومعى اثنان من جنود الطيران الأمريكى يريدان مقابلة السفير لأمر خاص . ويؤكدان أنه مهم أيضًا . .

وتطوعت أن أؤدى لهما أية خدمة . .

ولكن الأمر مهم وخاص ولابد من مقابلة السفير . . وبعد أن عرفا أن السفير مشغول جدا . وافقا على أن يتحدثا فى الأمر المهم إلى الملحق الثقافى . . أما الأمر فهو أن أحدهما لديه مشكلة وقد تعب فى حلها . والمشكلة هى أن لديه «كلبة» من النوع البلدى . وقد اشترى هذه الكلبة من سان فرانسيسكو وقد طارت معه هذه الكلبة إلى اليابان وإلى كوريا . . وقد نقل هو الآن إلى الفلبين لمدة ستة أشهر . .

وهو يريد أن يعرف إن كان من السهل أن يجد كلبًا ذكراً من نفس النوع لأنه هو شخصيًا قد تعب فى البحث عن كلب بلدى . وقد اتصل بتجار الكلاب فى سان

فرانسيسكو وقد وعده بعضهم . ونشر إعلانًا فى إحدى مجلات الكلاب فى أمريكا ـ التى عددها ٣٧٥ مجلة ـ يطلب هذا النوع من الكلاب ثم فقد الأمل أخيراً .

ويطلب من السفارة أن تعاونه فى معرفة بعض الأمور الخاصة بهذا النوع من الكلاب . كم يبلغ وزنها عندما تصل إلى سن معينة . . كم تعيش . . هل تزيد سرعتها عن كذا متر فى الثانية . . ويقول إنه قاس سرعة هذه الكلبة فوجدها كذا . ويريد أن يعرف إن كانت هذه أقصى سرعة لها أو أنه يمكن أن تزيد السرعة عن ذلك . . وهل تعلو أكثر أو أن هذه الدرجة من العلو هى الحد الأقصى . .

وفى جيبه نوتة صغيرة مكتوب فيها جهة وتاريخ ميلاد الكلبة ، وثمنها ووزنها وكل ما يظهر عليها من أعراض الصحة والمرض . . ومقاييس سرعتها . . إلخ . إلخ . .

وأنت تستطيع الآن أن تتخيل دهشتنا جميعًا ونحن نسمع رجلا جادًا وفى اهتمام شديد جدا . . ثم هو يتحدث عن إحدى الكلاب البلدية . . واحدة من الكلاب التى يقتلها السماوى ـ أى الرجل الذى يسمم الكلاب ـ فى أوائل الصيف . ثم تجد نفسك عاجزاً عن مساعدته . فلا أحد يعرف أية معلومات عن هذا النوع من الكلاب ولا عن أية أنواع أخرى .

وعندما طلب منا هذا الرجل أسماء بعض الكتب الخاصة بالكلاب . . وإن كان يوجد فى السفارة كتاب واحد أو مجلة واحدة . طبعًا لم يجد لا كتابًا ولا مجلة ولا أحد سمع عن كتاب أو مجلة .

وعلى سبيل التخلص منه أعطيناه عنوان قسم الحيوان بكلية زراعة جامعة القاهرة . ولابد أن القسم قد تلقى خطابات من هذا الطيار الأمريكى وبها صورته مع الكلبة البلدية . ولم يتلق ردًا!

ولا يزال موظفو السفارة يتوارثون هذه النكتة!

وعندما رويت هذه الحادثة لعضو مجلس شيوخ جاء إلى مصر كثيراً ضحك ليروى لى حادثة أغرب . قال إن أحد الأمريكان من جنود البحرية أقام عدة أسابيع فى إحدى الجزر النائية . . نصب هناك خيمة وحمل معه طعامه وآلات تصوير . . وعاد ليعرض على الدولة شراء شىء نادر جدا . فقد تمكن من اصطياد نوع من الخفافيش النادرة . . إنها ملونة ويصدر عنها صوت يشبه الجرس .

وطلب الأمريكى ثمنًا لهذا الوطواط بضعة ألوف من الجنيهات.

وأصيب الناس بذهول.. وما قيمة وطواط.. إن فى كل بيت فى الفليبين واحدًا على الأقل.. ولا يلتفت الناس أبدًا إلى لونها أو صوتها وكل ما يفكرون فيه هو كيف يتخلصون منها.. خصوصًا وأن هناك بعض الوطاويط لا ترى فى الليل، فهى تصطدم بوجوه الناس أو كثيرًا ما أسالت دماءهم.

وسافر هذا البحار إلى أمريكا.. وبعد ثلاثة شهور عاد لتنشر الصحف أنه باع هذا الوطواط بالمبلغ الذى أراده، وأنه فاز بميدالية ذهبية من إحدى الجمعيات العلمية فى أمريكا!



وقبل أن أودع الفليبين، هذه الجزر السابحة فى الدفء والرطوبة والتى تعلو وتهبط ويزيد عددها ويتناقص فى كل يوم مع المد والجزر. ذهبت إلى مطعم فى أقاصى المدينة. والمطعم قد اتخذ مكانه على شاطئ بحيرة بركانية.. البحيرة كانت فوق بركان خامد.. وكل البراكين هنا خامدة.. والسلالم بركانية أيضًا ومصنوعة من سائل كان مشتعلا من مئات السنين.. والمناضد مصفوفة.. والجو منعش جدًا.. وينذر بقليل من المطر فنحن على خط عرض ١٥ شمالا.. والهدوء لا نظير له إلا فى مناطق الجبال.. هدوء ساحر ناعم كالذى أحسست به فى منطقة كاندى فى سيلان ومنطقة ميسورى فى الهند، والذى أحسست به فى كانبرا بأستراليا.. وفى جبال الألب فى أوربا.. الجو هنا لا ينقل الصوت. لا أعرف.. إن الهواء يمتص الصوت ويقتل الصدى فى لحظة مولده.. يجىء الجرسون ويروح ونحن لانسمعه كأنه طيف.. كأنه شبح.. ويقدم لنا الطعام وينسحب شاكرا.. أو ينسحب مشكورا.

والأيدى تشير إلى الجزر التى أمامنا.. إنها جزر صغيرة لونها أميل إلى السواد وهى ملفوفة فى غلالة من الضباب الأبيض.. وأحشاء المحيط واضحة.. إن هذه الجزر لم تكن هنا أمس، لقد انحسر ماء المحيط نهارا. فظهرت هذه الجزر. وفى الليل عندما يطلع القمر يسحب معه ماء المحيط.. فيدفن بغلالة داكنة كل هذه الجزر الصغيرة.. ومع ذلك فهذه الجزر التى تقب وتغطس، ليست ضمن السبعة آلاف جزيرة التى اسمها: الفليبين.



وعلى فكرة . . أهل الفلبيين يسمون مدينة مانيلا : جوهرة المحيط!

وهى بالفعل جوهرة ولكن فى الوحل . .

أما الجزيرة التى أستعد الآن للسفر إليها فهى بالفعل جوهرة . .

وستعرف حالا أن هناك نوعًا من الوحل . . ولكن هذا الوحل فى داخل الجزيرة وليس حـولهـا . . ولكى أكـون صـادقًـا أقـول لك هى الأخـرى جـوهرة فى الوحل . وجوهرة فيها وحل!

. . فإلى جزيرة هونج كونج . .

هونه كونه

لؤلؤة البحار!

كأن الطائرة وهى تحوم فوق هونج كونج نملة تزحف على لوحة جميلة معلقة فوق حائط من الزجاج الأزرق . .

كأن العمارات الطويلة الرفيعة الحمراء والصفراء والبيضاء مصنوعة من العملات الذهبية والفضية والنحاسية ، قد وضعها بعضها فوق بعض ملايين التجار المهربين ، بعضها فوق بعض فلما سمعوا صوت الطائرة هربوا إلى الغابات والجبال . .

كأن الميناء ، هذه القناة التى تفصل بين طرفى هذه المستعمرة البريطانية شق فى فستان فتاة ، والفستان من اللبنى المشجر بالأحمر ، والمغطى باللؤلؤ . .

وكأن هذه الزوارق الصغيرة ، وهى تروح وتجىء رأت الكثير مما تحت فستان الفتاة الحلوة ، فانكسفت وأخفت رأسها فى الماء ، فلم تعد ترى إلا ساقيها الملتصقتين ، وهما جميلتان . . والبقع الحمراء الصغيرة التى تراها من بعيد ليست إلا أظافرها المصبوغة بدماء الناس . . وستكون أنت واحدا منهم!

كأن الناس والسيارات والعربات وهى تجرى بين العمارات الفاتنة ، جيوش نمل تزحف على ملايين من قطع الجاتوه والملبس . .

كأن جزيرة هونج كونج سيدة جميلة وضعت الأبيض والأحمر ، ووضعت عقودا وخواتم وأقراطًا من اللؤلؤ وجلست على بساط أخضر . . متربعة كأنها شهرزاد تروى قصة ألف ليلة للملك شهريار . .

وليس هناك شهريار سواك . . فهنا ألف شهريار وشهريار . . ولا توجد إلا شهرزاد واحدة . . فى انتظارك دائما . . انتظار رؤيتك لكى تلقى لها بمحفظتك التى امتلأت بالمال عند ست الحسن والجمال ، ملكة البحار والمحيطات : هونج كونج . .

وكأنها. . وكأنها. . وليست هناك طريقة أخرى للحديث عنها إلا بهذا الشكل. . ولكن ما هى؟ ما جمالها؟ ما سحرها؟ هى أروع من أى كلام. . ومن أى «كأن».

وليست كلمة «كأن» إلا محاولة لوضع منظار أسود على أى تعبير قبل أن تبحلق فى جمالها. .

ليست كلمة «كأن» إلا عكازاً تتوكأ عليه المعانى وهى تقطع المسافة الطويلة بين الخيال وبينها. .

ليست «كأن» إلا نوعًا من الفلتر تضعه فى مخك للوقاية من أنفاس هونج كونج. .

ليست «كأن» إلا نوعا من البالطو الأبيض الذى يقيك من الإشعاعات الذرية وأنت تقترب من هونج كونج. . أى إشعاع أروع وأجمل من أن تكون حرّاً وأن تكون قادراً على السعادة. . إسعاد نفسك وغيرك. . وبلا خوف. . أروع ما فى الدنيا أن تكون بلا خوف!

* * *

وفى مطار هونج كونج حملت حقائبى. وناديت إحدى سيارات التاكسى وقلت للسائق: فندق أستور من فضلك!

وانطلق السائق. وطال الطريق. الهواء منعش لمدة أربعة كيلومترات. العمارات جميلة عن قرب أيضًا. الجبل يحتضن العمارات كأنه «دادة» زنجية كبيرة الصدر، ممتلئة الساقين، ولها كرش. . ولكن يبدو أنها طيبة. . فهى لم تضربنى بالطوب عندما أقترب من كرشها. .

بدأت أسأل السائق عن الشوارع. وأنا فى الحقيقة أريد أن أعرف منه أجرة التاكسى. فالعداد يطلع وينزل بسرعة، والأرقام أمامى بالدولارات. وعندما أشار العداد إلى رقم ٨ وقفت السيارة أمام أحد الفنادق وتقدم اثنان من الشيالين. وحملا الحقائب التى تعودت أن أحملها وحدى فهى لا تزيد عن ١٨ كيلو. . وكانت قبل ذلك ٢٣ كيلو، وفى نيتى أن أجعلها ١٥ فقط. فلست فى حاجة إلى أحذيتى ولا فى حاجة إلى البلوفرات القديمة التى كنت أسترها بالجاكتة فى أستراليا. . ولا تزال عندى زجاجات فارغة شربت ما فيها. وبقيت الزجاجات الفارغة كأنها فواتير تدل على أننى اشتريتها!

واتجهت مباشرة إلى الموظف المختص وسألته عن غرفتى التى حجزتها بالأمس-

كدهوه ـ ولكن الرجل لم يتهوش من لهجتى الأمريكية فى الكلام . . وفى التبسط معه . . واتجه هو الآخر إلى دفتر كبير ، واتجهت أنا إلى دفتر صغير عن هونج كونج ، وبدأ يقرأ باهتمام وبدأت أقرأ بقرف ، وتحول قرفى إلى اهتمام ، وتحول اهتمامه إلى قرف . ونظرت إليه باهتمام ، وأغرقنى فى قرفه عندما قال لى :

ـ مفيش حاجة بالاسم ده .

وعرفت أن البرقية التى بعثتها أمس من مانيلا لم تصل إلى الفندق . وأفلتت منى عبارة :

«يا نهار أسود» . إذا كانت البرقية لم تصل أمس ، فمتى تصل خطاباتى ومقالاتى إلى القاهرة؟

وفهمت أن كل غرف الفندق محجوزة ولكن هناك أملا فى أن تخلو إحدى الغرف بعد ٢٧ يومًا . .

وبدأت البحث عن فندق آخر قريب . . وهناك ثلاثة فنادق . . ذهبت إلى الفندق الأول . وقابلنى أصحابه بترحيب شديد جدا . وحملوا الحقائب وصعدت السلم ، أول طابق والثانى والثالث والرابع . والغرفة صغيرة . وفيها جهاز تكييف وليس فيها حمام . . وإنما الحمام بجوارها . . وتنبعث منها رائحة غريبة . .

ولابد أن منظرى وأنا أعتذر عن قبولها ، ومنظرهم وهم يحملون الحقائب ويسحبون ترحيبهم وابتساماتهم . . كان أبشع من الغرفة . . بل إن أيديهم سحبوها ووضعوها فى جيوبهم وبدءوا يشخشخون بالفلوس ، ومعنى ذلك : مش محتاجين لفلوسك!

والفندق الآخر أبعد من هذا بشارعين ، مدخله حلو ، جميل ، أضواء ومقاعد ومراوح وورد ، واستقبال شعبى . . نفس الوجوه ، نفس الأسنان ، نفس الأيدى التى مالت على الحقائب وعلقتها على الأكتاف وراحت تتمتم ورائى بعبارات غير مفهومة ، وصعدنا الدورين الأول والثانى ، وعلى اليسار وإلى جوار الحمام العمومى انفتح باب . ووجدت على السرير قطة وأولادها . ومن غير أية مناسبة كشرت وعدت إلى الدور الأرضى وتركت حقائبى ، وانطلق الناس ورائى يسألون عن السبب طبعًا . السبب واضح وهو أن الغرفة رديئة جدا . وقلت لهم :

ـ إننا فى بلادنا نتشاءم جدا من القطط ، وهذه القطة ستدفعنى إلى السفر الليلة من هنا الآن . اتركونى . اتركونى . تاكسى للمطار يا أسطى .

أمـا المطار المزعـوم فكـان فندقـا آخـر قـررت أن أنزل فيـه بأى ثمن . وكـان الثـمن ٣٦ شلنًا . . غـرفتى أول غـرفة فى الفندق كله ولها مزايا . . أولا : ليس فيـها جرس ، ولكن الباب أفتحه بصعوبة ، فإذا انفتح الباب أحدث صوتًا يوقظ الخادم الذى يخشى أن يتحطم زجاج الباب والنافذة فينطلق ناحيتى فأقول له :

ـ واحد شاى من فضلك .

وعندما يحضر الشاى أتجه إلى الباب وأشده ناحيتى فيصرخ الباب والخادم فأقول له :

ـ أمال فين الجرايد يا أخى ! وبعدين وياك أنت والباب بقى .

وثانيًا : إن عـمليات الغسل والكنس تبدأ فى السـاعة الثامنة ومن الدور الخامس إلى الدور الأول ، فـالشـاى والجـرايد لن تصلنى إلا فى العـاشـرة والنصف بعد أن أكـون فـرغت من الاستماع إلى نشرات الأخبار وكتابة بعض المذكرات . .

وثالثًا : فإننى أطل من نافذتى على فندق «أستور» الذى لم تصله برقيتى بعد ٢٤ سـاعة من إرسالها . . وأضع يدى على خدى وأتحسر على مقـالاتى التى بعثتها فى خطابات لا فى تلغرافات ، وهل تصل ، وأضرب رأسى فى النافذة !

عندما كنت فى جزيرة سنغافورة تصورت فى ذلك الوقت أن سنغافورة هى أرخص بلد فى الدنيـا . . والحـقيـقـة أن هناك بلدة أخـرى أرخص منهـا وأجـمل منهـا جـدا . ولا تزال مستعمرة بريطانيـة . تسكنها أغلبيـة من أبناء الصين . . وهى ميناء حر مثلها تمامًا . واسمـها هونج كونج . طبعًا حصل عندك تنهد شـديد . أنا أعـذرك . فقد تنهدت قبل ذلك كثيرا . والآن أتنهد لأننى سأتركها بعد أيام وأصبح مثلك بعيدا عنها .

أرجـو أن يكون مـعلومًـا أن الراديو الصـغـيـر وهو الموضـة فى كل الدنيـا ، فى الهند وإندونيسيا والفلبين وأستراليا ثمنه لا يزيد عن خمسة جنيهات بأى حال ، ثم هناك راديو صغيـر ببطارية وفيه بيك آب للأسطوانات العادية وهـذا الراديو الجـديد ثمنه ١٢ جنيهًـا ، وهنا راديو على شكل قلم باركر وحـجمـه لا يزيد عن «قلمين باركر» متجاورين وصـوته قوى جدا وثمنه سبعة جنيهات .

ولكن أذكـر هنا أسـعـار الحـريـر والروائح ، فـهى أرخص من سنغـافـورة وأرخص من أسعار ميناء عدن أيضًا . .

وأكـتـفى هنا بـذكـر اللؤلؤ . . إنهم يشـتـرون اللؤلؤ . . من اليـابان ، وهو فى اليـابان

رخيص. ولكنه هنا فى هونج كونج أرخص، فطاقم اللؤلؤ: حلق وخاتم وعقد، ومن أى لون لا يزيد على ١٦ جنيهًا.

وأشياء كثيرة جدًا بالنسبة للسيدات لا يمكن أن نجد أرخص منها، ومع ذلك فلابد من المساومة، ومع المساومة تنزل كل الأسعار. . أما والبدل الرجالى فيمكن تفصيل البدلة فى ٢٤ ساعة. . والبدلة الصوف من الإنجليزى ثمنها ١٢ جنيها. وقد أشترى هذه البدلة وبهذا السعر وفى هذا الوقت كثيرون جدا من العرب الذين قابلتهم. .

وفى استطاعتك أن توصى أى محل هنا أن يرسل لك أية سلعة على أن تدفع ثمنها عند التسليم. . وأكثر من هذا فى استطاعتك أن تشترى أى سلعة وأن تترك للمحل أن يشحنها لك فى أى مكان فى العالم. . وستصلك قطعًا لأنهم هنا أمناء جدا. .

فالأمانة من أهم خصائص المجتمع التجارى. لا تنس أننا زراعيون وأخلاقنا زراعية يعنى فلاحين!

* * *

دخلت أحد المحال بقصد الفرجة. . وأعجبتنى ولاعة سجاير يابانية، هى عبارة عن ساعة صغيرة ومعها قلم حبر جاف ولا يزيد على أصبعين فى يد فتاة صينية، ولم أكد ألمسها حتى اقترب منى البائع وقال لى: عجباك. . ؟

فهززت رأسى فقال: ثمنها جنيهان.

فقلت: ياه غالية كده ليه؟

فقاطعنى قائلا: أخفض لك ثمنها يرضيك جنيه ونصف.

فقلت: غالى برضه.

فقال البائع: أعطيك الولاعة هدية إذا وعدتنى بشراء ولاعة أخرى.

فقلت: آسف. غدا ستكون معى فلوس. .

فقال: مايهمش، إدينى عنوانك وأنا أبعثها لك، ثمنها علشان خاطرك بجنيه.

وخرجت ساكتًا واجمًا ومررت على محل آخر فوجدت نفس الولاعة بتسعين قرشا. . فأنا لو كنت فى القاهرة وقرأت هذا الكلام لتضايقت جدا وقلت فى نفسى:

آدى حال الدنيا، يعطى الحلق للى بلا ودان، يعنى الواحد لا يعرف يشترى ولا يعرف يأكل ولا يشرب ولا يلبس وليس له مزاج فى أن يشترى أى حاجة من العجايب اللى بيشوفها دى، وواجع دماغنا بيها، ده يسافر ويروح هونج كونج وأنا هنا بقى مش كنت أسافر بداله، والله ظلم.

وأنا شاعر بهذا الظلم. . أكثر منك.

* * *

على باب غرفتى موجودة هذه التعليمات:

هذه الغرفة شخصية. يعنى لا يقيم فيها إلا شخص واحد. . وإذا ظهر أن هناك أى إنسان، فالفندق سيقاضيه الثمن فورًا.

حضرات الضيوف ـ رجالا ونساء ـ نرجوهم أن يسجلوا أسماءهم فى دفتر الزيارات. .

إذا كانت فى نيتك أن تترك الفندق؛ فيجب أن يكون ذلك قبل الساعة الثانية عشرة ظهرا. . أما بعدها بدقيقة فسيضطر الفندق إلى احتساب اليوم عليك.

الفندق غير مسئول عن ضياع أموالك أو الأشياء الثمينة التى تحتفظ بها أو إصابة أمتعتك بأى تلف. . وإذا كانت لديك أمتعة مهمة، فأعطها من فضلك للإدارة. ويجب أن تأخذ وصلا بالتسلم، ويجب أن يكون الوصل مكتوبًا على الآلة الكاتبة المعترف بها قانونا. الدعارة ممنوعة. والقمار ممنوع. والتزييف ممنوع.

اقفل الباب وراءك من فضلك.

من حق اللوكاندة تطبيق هذه القواعد دون إخطارك.

الحساب كل ثلاثة أيام.

* * *

واسم هذه اللوكاندة هو لوكاندة «كارنرفون» وهو الرجل الذى اكتشف مقبرة توت عنخ آمون ولدغته إحدى الحشرات، ويقال إنه مات بسببها. . ويقال إن لعنة الفراعنة التى أصابته، أصابت أولاده وأحفاده واحدا بعد واحد. .

وأعتقد أن لعنة الفراعنة أن يقيم أى إنسان فى هذا الفندق.

هذا رأيى. . وأرجو أن يكون هذا أيضا هو رأى الفراعنة.

وقد أذهلنى منظر الناس وهم يمشون وقد أحنوا رءوسهم كأنهم حانوتية. . وكأننى أنا المرحوم. .

وكنت أتخيل أن كل الناس فى هونج كونج يلبسون بدلا من الشاركسكين الأبيض، وفى أيديهم ساعات أوميجا ذهبية. وفى جيوبهم راديوهات صغيرة، وفى أقدامهم أحذية إنجليزية، ويدخنون السجائر الأمريكية. ولما انفتح باب الطائرة ورأيت أناسًا كأننى أعرفهم من قبل. . كأننى رأيتهم فى الهند وإندونيسيا والفليبين، أناسًا قصار القامة صفر اللون وعيونهم بياضها شديد وسوادها أشد. . وبالبيجامات. . كأنهم أعقاب سجائر. . ووجوههم كالحة كالنحاس. . وأيديهم تمتد لحمل الحقائب. . وكلمة يا سيدى تتردد مئات المرات، وأول مرة سمعتها فى هونج كونج كانت هامسة خجولا لدرجة أننى تخيلت أنها صادرة منى. ولكنى تأكدت أكثر من مرة أنها كانت موجهة لى. .

وعرفت بعد ذلك أن هذا هو حال المدينة. . ففيها ذهب، وفيها أناس فى لون الذهب. . وفيها أغنياء جدّا وفيها فقراء جدا. وفيها ناطحات للسحاب وفيها ناطحون للأرض.

المطار اسمه كاى تاك. . يبعد عن المدينة أربعة كيلومترات. .

ومعنى هونج كونج: شذى الورد. . أو الهواء المعطر. . لا أعرف بأى شىء كان الهواء معطرا هنا من مئات السنين!

ولكنه الاسم. . وقديمًا قال شكسبير فى مسرحيته روميو وچوليت: وماذا فى اسم؟!

طبعًا ولا حاجة!

***

والذى لا يعرفه الكثيرون أن هونج كونج لها عاصمة اسمها فيكتوريا وأن هونج كونج اسم يطلقونه الآن على الجزيرة وعلى مساحة أخرى من الأرض تبلغ عشرة أمثال جزيرة هونج كونج. فهناك فى مواجهة هونج كونج توجد شبه جزيرة اسمها «كولون» ومساحتها ٣٦٥ كيلومترا مربعًا. . وكولون هذه فيها كل المصانع ومراسى السفن. . ووراءها مساحة من الأرض السهلة يعيش فيها عدد من الصينيين حياتهم الفطرية. . يزرعون الأرض كما زرعها أبناء الصين من ألوف السنين. . ويأكلون الأرز ويبيعونه. . ويصيدون السمك. .

وبعضهم يملك جاموسة وبعض الدواجن. ولكنهم مشغولون بالأرز عن العالم الذى يضج بأحدث الآلات. . ولا يسمعون رنين المال فى كولون أو فى هونج كونج.

وهونج كونج مستعمرة بريطانية منذ سنة ١٨٤١ فقد كانت بريطانيا تتاجر مع الولايات الصينية الجنوبية. . ولكن الصينيين طردوا البريطانيين فى معارك متوالية معروفة باسم حرب الأفيون (١٨٤٠ - ١٨٤٢). فقد كان البريطانيون يحملون صناديق الأفيون من الهند ويبيعونها للصين حتى أدمن الشعب الصينى تعاطى المخدرات القاتلة. . وبلغ عدد صناديق الأفيون التى صدرتها بريطانيا إلى الصين فى سنة ١٨٩٨ حوالى ٤٠ ألف صندوق!

ولكن أحد ملوك الصين قاوم السم وجمع كل ما يملكه التجار وأحرقه وهدد بإعدام كل من يبيعه أو ينقله أو يتعاطاه. . وانسحبت إنجلترا واستولت على هونج كونج. . بما يشبه القوة أو بالقوة. . وأغرب من ذلك، فإنها طلبت من الصين بعد ذلك قطعة أخرى من الأرض لتحمى هذه الجزيرة، ووافقت الصين، فاقتطعت بريطانيا من أرض الصين المنطقة المواجهة لجزيرة هونج كونج وهى منطقة كولون. وكولون معناها العفاريت التسعة، واستأجرت بريطانيا هذه الأرض لمدة ٩٩ عامًا بدأت سنة ١٨٩٨ وبعد ذلك أضافت إليها مساحة أخرى تبلغ ٣٠٠ كيلومتر مربع.

* * *

وهونج كونج ميناء حر. . يعنى البضائع تدخله وتخرج. الدخول بلا أى ضرائب. . والخروج بضرائب تافهة جدا. . وفى استطاعتك أن تدخل فيه بأية عملة وأن تخرج بأية عملة. . وبأية كمية. . إنهم فى الجمارك يسألونك إن كانت معك سجائر. . فقط. . وإن كانت هذه السجائر تزيد على ٢٠٠ سيجارة. أسئلة شكلية من أولها لآخرها. . الوحيد الذى فتشوه فى ثلاثة أيام بين ألف مسافر هو شاب عربى نحيف جدا. . ولا أحد يعرف السبب وقيل لنا فى ذلك الوقت. . إنه نحيف شاحب. . وربما اعتقدوا أنه من أبناء الصين الشعبية!

أهل هذه الجزيرة فيهم ٩٩٪ من الصينيين. والباقى ينتسبون إلى ٥٥ دولة أخرى. وعدد سكان الجزيرة الآن حوالى ثلاثة ملايين. . وكل يوم يهرب من الصين الشعبية بعض الناس. . والإنجليز يشددون الحراسة على هذه الجزيرة لأنهم يخشون من تضخم عددها برغم ضيقها وصغرها. ولكن إذا جئت إلى هذه الجزيرة ورأيت أشكال الناس وكثرتهم

وتزاحمهم صعب عليك أن تفرق بين المقيم وبين اللاجئ . . بين الصينى الأبيض والصينى الأصفر . . والنتيجة أن الناس يتزايدون بالنسل أو بالهرب . .

ومع ذلك فهونج كونج تعيش على سفوح جبل كبير . . على هامش الجبل . . ولكن هذا الهامش هو أجمل من الجبل وأروع . . إنه مبنى على أحدث طراز . إن العمارات تشبه الكتابة الصينية . . فالكتابة الصينية يكتبونها من فوق لتحت . . ولا يكتبونها بالعرض مثل بقية بلاد العالم . . والعمارات هنا طويلة جدا وعلى الأرض ضيقة . . العمارات ثابتة فى الصخر . . ولها ألوان زاهية . . وأصحاب هذه العمارات لا يرونها ولا يشعرون بلذتها فهم مشغولون بجمع المال فى المحال التجارية التى لا عدد لها . .

يكفى أن ترى أى محل تجارى . . أى محل فى أى حى . . محل على الطراز الصينى أو على الطراز الأوربى . . وقد شحن هذا المحل بالسلع بصورة مذهلة . وأنا أختار على سبيل المثال «بائع السجاير» . إنه يبيع كل أنواع السجائر الأمريكية . . العلبة بخمسة قروش . . وإلى جوار السجائر يبيع آلات التصوير وإلى جوارها أجهزة الراديو الصغيرة . . وهناك الأدوية ، وأقمشة صوفية ، وفى الناحية الأخرى من المحل توجد مكتبة لبيع الأقلام الجافة والسائلة ، ثم يوجد حقائب لبيع التفاح اليابانى . وعلى الأرض ستة من الأطفال الصغار إنهم أولاد صاحب المحل . . وصاحب المحل يقف بمجرد ما يمر بجواره أى إنسان . . إنه يشبه الأبواب الأوتوماتيكية التى تفتح بمجرد اقترابك منها . . وأحيانا ينطلق وراءك ويحاول إقناعك بكل الطرق ولا يتعب ولا ينكسف .

ومن عدم التعب وقلة الكسوف يتكون التجار الصينيون فى كل مكان فى الشرق الأقصى !

وشىء آخر هو تفوق الصينيين فى التجارة . . إن الرجل الصينى عنده جلد على العمل أكثر من أى إنسان فى الدنيا . فالصينى يقبل أى أجر ويقبل الحياة فى أية ظروف . .

يقبل أن يكون حيوانًا على أمل أن يكون إنسانًا فى يوم ما ، ويجعل كل الناس حيوانات . .

إنه على عكس غيره من الناس الذين يحلمون بأن يكونوا ملائكة ويصبحوا بعد ذلك حيوانات . . إن الصينى خطر على أناس كثيرين . . لأنه الآلة الإنسانية التى إذا اشتغلت تعطلت ملايين الأيدى . .

قال لى مليونير أمريكى هنا: إن الرجل الصينى يقبل أى أجر وهذا معناه القضاء على كل البيض عندنا.. لذلك نحن نبعد صغار العمال الصينيين حرصًا على حياة الأوربيين هنا!

وكثير من أصحاب الملايين الصينيين بدءوا من الأرض.. بدءوا باعة متجولين.. وكثيرون من الأغنياء الصينيين يؤكدون لى أنه لا يوجد صينى واحد كان يملك مالا فى يوم من الأيام. كلهم بدءوا بصفر ثم تكاثرت الأصفار أمام الواحد منهم.

وهونج كونج هى خلية من النمل أو النحل.. بل خلية من أناس يروحون ويجيئون طول الليل وطول النهار.. والناس هنا يمشون دائمًا.. وإذا رأيت الناس فى الساعة الخامسة والنصف وقد خرجوا من مكاتبهم ومحلاتهم يخيل لك أنهم فى طريقهم إلى العمل وأنهم لسبب ما تأخروا عن الساعة المحددة.. إنهم لا يعرفون التسكع.. إنهم يعملون.. وهذه المحال المزدحمة تجد فيها أناسًا يشتغلون بالإبرة. لقد رأيت سيدة تبيع للزبائن.. وكلما ابتعد عنها الزبائن ثانية أو دقيقة أمسكت الإبرة وعادت للعمل.. وكان الشاعر الفرنسى فيكتور هيجو يعزو عظمته إلى شىء واحد هو أنه يكتب كل يوم.. وكان شعاره: سطر واحد كل يوم!

وهذه الصينية ـ وكل صينى ـ شعارهما غرزة واحدة كل يوم.

إن هناك عددًا كبيرًا جدا من النساء الصينيات يقمن بأعمال شاقة كقطع الصخور ودفع الزوارق وبيع الأسماك والفاكهة، وكل واحدة تحمل طفلها أو طفليها على ظهرها ولكنها تعمل ليلا ونهارًا..

وكل هؤلاء النساء العاملات والخادمات لا يهمهن أبدًا رأيك فيهن.. فالعمل دين، والصينيون متعصبون لدينهم.. والدين المعاملة والصينيون يحسنون المعاملة.. ومن معانى المعاملة الفلوس.. والصينيون يعبدون الفلوس ويبحثون عنها من أى طريق، نعم من «أى» طريق، وعليك أن تتخيل كما تريد كل معانى «أى» هذه.. ومهما فعل الرجل الصينى فهو فى الغالب مهذب..

مثلا.. ذهبت إلى مطعم وطلبت بعض اللحم المشوى.. المطعم لا بأس به، فيه موسيقى وجرسونات بنات لهن فساتين مشقوقة.. هذه الفساتين تشبه القناة التى تفصل بين هونج كونج وكولون.. يعنى محترم هذا ا المحل. وأحضرت الفتاة اللحم المشوى.. وحاولت أن أمزق اللحم بالسكين أو بالشوكة.. لم أتمكن، استعصى اللحم وناديت

صاحب المطعم . . أو هو الذى تنبه لمشكلتى فابتسم وأتى بسكين حادة جداً يبدو أنه أعدها لهذه المناسبة التى تتكرر كل يوم . . وفعلا بدأ اللحم ينهار أمام هذه المقصلة . . ولكن المشكلة لم تنحل فأسنانى ليست حادة كالسكين . فاقترحت على صاحب المطعم أن يأخذ السكين وأن يبحث عن ذئب متوحش!

المهم أنه حل المشكلة وأتى لى بلحمة مشوية على الآخر . . إنه لا يتوقف . إنه يبحث عن أى حل . . ولا يتوقف أمام أى شىء . . ولما لم تعجبنى هذه اللحمة فقد أخذ اللحم وأتى لى بسمك!

* * *

أدخل أى محل وليكن محل بيع الحقائب الجلدية مثلا . . سيهجم عليك خمسة أو ستة من موظفى المحل ويعرضون لك كل الأنواع ولديهم كلام حلو يقولونه . . وهم يستمعون إلى كل ملاحظاتك . . فإذا نجحت وقلت : الشنطة دى مش بطالة . . بس الإيد بتاعتها كبيرة شوية . . فيرد عليك أحد الباعة في المحل : غدا فى هذه الساعة نصنع لك شنطة أخرى بالمواصفات التى تريدها . . ما هى اقتراحاتك . . ؟! أى حجم وأى لون؟!

وتحاول أنت أن تتهرب بصورة أخرى فتقول : هى الإيد مش كبيرة قوى . . بس اللون بلدى شوية .

ـ كده . . إيه اللون اللى يعجبك؟ عندنا خمسون لونًا .

فتقول : أنا عاوز لون أحمر على أخضر على أزرق على أصفر والأرضية فى لون الباذنجان المحشى .

وتتصور أنت أن هذا يجعل موقفهم مستحيلا . . والمفاجأة هى أن هذا اللون مصنوع منه فستان صاحبة المحل وأن المصانع قد صنعت عشرين طقمًا من هذا اللون كلها شنط وأحذية وخواتم . .

يعنى لابد أن تشترى . .

أذكر أننى ذهبت إلى إحدى المكتبات . . ولم أجد الكتب التى أريدها وخرجت من المحل فى يدى كيلو قوطة وثلاثة كيلوات من البصل الأخضر!

ذهبت أمس إلى آخر جزيرة هونج كونج . . فهناك مدينة عائمة . . اسمها أبردين . . الناس فيها يعيشون فى عوامات! . أقصد فى قوارب عائمة . . يعيشون فى هذه الزوارق

وعددهم ١٥٠ ألفًا . . زوارق مهدمة قديمة . والشحاذون لهم زوارق ومن هذه الزوارق تمتد أيديهم . .

وأيديهم الممدودة والمجاديف التى تلطم وجه الماء وملابسهم السوداء وعيونهم الحزينة ، كلها معًا تصور سيمفونية الفقر ومباريات السباق مع الأسماك فى زيادة عدد النسل . . فى هذه المنطقة المؤلمة توجد مطاعم أنيقة جدا جميلة جدا . . وكل مطعم له زوارق خاصة تنقلك من الشاطئ إلى حيث يوجد المطعم العائم . . فى الزورق تشد يدك ـ مع أنك لست فى حاجة إلى ذلك ـ فتاة صينية بالبيجاما أو بالفستان المشقوق وتركب الزورق النظيف الحلو والفتاة تجدف لك حتى تصل إلى المطعم . . وعند سلم المطعم يشد يدك اليسرى جرسون ـ آسف ـ يدك اليمنى جرسون . . أما يدك اليسرى فتشدها فتاة حلوة لها فستان باسم ـ أى مشقوق ـ وهى تشدك من الناحية اليسرى من ناحية القلب . ويستقبلك ثلاثة جرسونات . . وتنهض لاستقبالك فتاة أخرى لها فستان مشقوق جدا كأنه يقهقه من فوق هذه الساق ومن فوق تلك الساق . . وأحيانًا تبدو فتحة الفستان واسعة ومترهلة كأنها شفتا إسماعيل ياسين وقد ظهر من تحتها طاقم أسنان جديد .

وفوق ـ لأن المطعم العائم من طابقين ـ يستقبلك أربعة آخرون ويأخذون بيدك رغم أنك أطول وأعرض منهم ، ويأخذونك إلى حيث الأسماك تسبح فى قلب زوارق أخرى . . وهناك يقف جرسون يعرض عليك الأسماك التى تريدها . الأسماك الحية طبعًا . . ومن المؤكد أن هذه الأسماك لن يطهوها لك ، وإنما سيقدمون لك أسماكًا ماتت منذ أيام . . ولكن فى الهيصة والاستقبالات يقدمون لك الأطباق الصينية والملاعق الصينية التى تشبه «لبيسة» الجزمة عندنا . . وبعد ذلك يقدمون لك شوربة السمك وفيها خضراوات هى عبارة عن الغاب الأخضر وبعض البرسيم . ثم شرائح من السمك الذى تتوهم أنك رأيته حيًا . وأخيرًا ينهضون لتحيتك ويتكرر المنظر السابق كله . . من توديع على الباب لتوديع على السلم لترحيب بآخرين . . وبعد أن تستقر على المقعد النظيف فى التاكسى ـ وهو زورق عائم ـ تكتشف حقيقة مهمة جدا وهى أن الصينيين لصوص . لقد سرقوا منا حكمة بلدية قديمة ، سرقوها وترجموها حرفيًا وهذا هو عيب الترجمة الحرفية لأى شىء . . أما الحكمة فهى : لاقينى ولا تغدينى !

وقد استقبلونى أحسن استقبال ـ أما الغداء فإن الحكمة لم تنص عليه !

* * *

العمارات فى هونج كونج تلتف حول الجبل . . إنها على الشاطئ أو على السفح والعمارات الآن تزحف على الجبل، وتظل صاعدة بأشكال مختلفة . . الأرض هنا ضيقة جدا. ولذلك فالعمارات تقف على حيلها، إنها لا تتمدد على الأرض ، فحيث توجد الأراضى الواسعة يبنى الناس الفيلات ذات الحدائق ، كمصر الجديدة ومدينة نصر . وحيث تكون الأرض ضيقة ترتفع المبانى إلى أعلى كنيويورك وهونج كونج وسيدنى . . بل إن المحال التجارية هنا تستفيد جدا من هذا الضيق. فأنت تجد البائع لا يستطيع أن يضع مكتبًا ومقعدًا، ويضع فى المكتب الفلوس . . أبدًا إن البائع يعلق الفلوس فى السقف . . أو يعلق خيطًا يشبه سلك الترام وينزل من هذا السلك سنجة ، وهذه السنجة فيها محفظة للفلوس . . وعندما يريد بعض الفكة يضغط على السنجة فتنطلق الفلوس إلى الداخل ، وفى الداخل يوجد شخص واقف يفك الفلوس ويعيدها لك . . لا يوجد مكان . كل شىء ضيق وممتلئ بالناس . .

لقد رأيت صالون حلاقة على الرصيف . والصالون عبارة عن كرسى أنيق جدًا ومراة أنيقة جدا ، كل هذا معلق فوق الحائط ، فمن السهل الحصول على كرسى أنيق لأنه رخيص ، ولكن ليس من السهل الحصول على مكان لهذا الكرسى ؛ لأن الأرض غالية . .

وإذا مشيت فى الشارع فستجد الناس كالبضائع ، بعضهم فوق بعض ، أى محل به عشرون طفلا صغيرًا . أى شارع به ألوف الأطفال . أشهر شارع فى هونج كونج هو شارع الملكة ، والباقى شوارع صغيرة ، والعاصمة اسمها فيكتوريا ولا أحد يعرفها . والمنطقة الأخرى ، أقصد منطقة «كولون» بها شارع مهم هو شارع سالسبرى ، وفيه فندق بنتسولا ـ أى شبه الجزيرة ـ وشارع آخر اسمه شارع ناتان ، ويتفرع منه شارع اسمه شارع كارنرفون ، وبه فندق ، وفيه غرفة يسكنها العربى الوحيد هنا : أنا .

وتصل بين طرفى المستعمرة زوارق بخارية كبيرة وسريعة . . الدرجة ا لأولى بعشرين سنتا ـ الدولار هنا مائة سنت والدولار هنا يساوى عشرة قروش تقريبًا . .

والدرجة الثانية بعشرة سنتات ، وفى الدرجة الثانية لافتات تقول لك «احترس من النشالين» وفى الدرجتين لافتات تقول لك : ممنوع البصق من فضلك . . وهذه الزوارق دقيقة مضبوطة ، وفيها علامات للنزول والدخول . وتتم هذه العملية دون أن يتكلم إنسان . . نظام دقيق وسريع . .

والمسافة بين جانبي المستعمرة حوالى ٧٠٠ متر.

هذه المسافة اسمها ميناء فيكتوريا الجميل الهادئ السمح . . لأن هذا الميناء يقع على القناة وفى حمى الجبال فلا توجد به أمواج بل توجد به زوارق شراعية تروح وتجيء فى هدوء . . وعندما تهب العاصفة تطيح بهذه الزوارق الصغيرة . . وقد هلك ألوف الناس وتحطمت زوارقهم عندما كانت العواصف تهب فيما مضى، أما الآن فالعواصف لم تعد تخيف أحدًا، فالأرصاد الجوية تعلن عن هبوب العاصفة قبل وصولها بساعات. وفيما مضى كان الناس هنا يتنبئون بالعواصف عن طريق الفراشات التى كانت تأوى إلى أماكنها وتبيض كثيرًا فى الليلة التى تسبق العاصفة . . وكأن هذه الفراشات طائرات أدركت أنها ستهبط اضطراريًا إلى الأرض فراحت ترمى حمولتها قبل أن تزحف على الأرض.

ومع ذلك بقيت هونج كونج بعيدة عن عواصف الطبيعة وعواصف السياسة أيضًا . . وقد فكر تشانج كاى شيك أن يحتل هذا الكنز الذهبى، ولكنه عدل، وفكر الشيوعيون أن يأخذوها، واحتلها اليابانيون فى الحرب الأخيرة بعد أن سقط ميناء برل هاربور، إحدى مدن ولاية هاواى الأمريكية . . وبعد الحرب طالب أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى بإعطاء هونج كونج للصين الشيوعية، وثارت الجزيرة وهرب الأغنياء منها، ولكن بريطانيا تمسكت بها، ولا تزال. تتكاثر! أو كأنها فى مواجهة الموت!

والناس هنا يتكلمون الصينية ولغة كانتون وشانغهاى. والصحف التى تصدر هنا عددها سبع . . خمس منها بالصينية والصحيفتان الأخريان بالإنجليزية . . والإذاعات خمس، إحداها بالإنجليزية والأخريات بالصينية . وليس كل عساكر المرور يضعون شارة حمراء على أكتافهم. فالشارة الحمراء تدل على أنه يعرف الإنجليزية.

وهونج كونج هى مدينة المرأة. المدينة التى تدخلها أية امرأة فتشترى الحذاء ومفتاح السيارة الكاديلاك بأسعار رخيصة جدا . . حتى الفراء هنا، فراء الثعلب والدب والاستراكان، كلها بأسعار أرخص من الاتحاد السوفيتى وأمريكا . . وأقلام الروج بسعر أقلام الرصاص عند سور الأزبكية، وعلب البودرة بسعر كيزان الذرة المشوية على كورنيش النيل. حتى فساتين النساء يمكن تفصيلها وعمل البروفات لها ولبسها فى يومين فقط . . وهنا توجد حقائب يد لم أر لها مثيلا فى أى بلد، لا فى أستراليا ولا حتى فى سنغافورة . . وهذه الحقائب رخيصة جدا . . وهنا توجد أنواع حديثة من حقائب اليد، بها راديو صغير على هيئة توكة وتوجد ساعة أو مكان ساعة صغيرة

ومكان لعلبة سجاير صغيرة ومكان للمفاتيح . . وبالحقيبة فص لؤلؤ، هدية من المحل وثمنها عشرون جنيهًا.

الحقيقة، أن نصيب السيدات فى مبيعات هونج كونج أكثر من نصيب الرجال؛ فهنا توجد البلوفرات الأورلون والبرلون، وهى أرخص من أستراليا . . لقد رأيت أجمل بلوفرات فى أستراليا، فهى بلد الصوف . . هذه البلوفرات تباع هنا أرخص. إن أجمل بلوفر أورلون يساوى هنا جنيهين ونصف جنيه، وهذا سعر خيالى. لأنه فى بريطانيا يصل إلى ثمانية وعشرة جنيهات.

ومنتجات إليزابيث أردن وريفلون وكوتى وهلينا روبنشتين . . كلها هنا تباع فى المقاطف كالفجل والخيار عندنا. ولكن مين يفهم، ومين يقرأ ومين يكتب - إننى أتحدث هنا عن نفسى!

والحرير الطبيعى اليابانى، المتر منه بخمسين قرشًا . .

وأسماء وأصناف توجع القلب . . هونج كونج هى مدينة النساء، ويكفى أن تنظر إلى السيدات لتعرف الأقمشة والبلوزات والجوارب النايلون والأحذية من جلد التمساح وجلد الثعبان . .

وفى هونج كونج، برغم ذلك شىء مهم جدا يعجب السيدات . . فيه «فصال». فصال من عشرين لعشرة، وفيه باعة متهاودون جدا . . وهذا لا يعجب السيدات لأن السيدات يردن البائع الذى «ياخد ويدى» فى الكلام يتحايل عليها وفى النهاية «ينزل» لها قرشًا أو قرشين . . والباعة هنا كلامهم كثير ومحاولاتهم أكثر، وعيبهم أنهم يخفضون الأسعار بالعشرات .

والمرأة الصينية هنا، وفي كل مكان، أنيقة وبسيطة وفستانها مشقوق من الجنب أو الجنبين أو فى الظهر أو من الأمام . . وجسمها يتثنى فى الفستان وعيناها تنظران من فوق كأنهما تتحققان من نظرتك إليها . . عيناها صغيرتان تحت شعرها الأسود الناعم . . وبالاختصار الأجسام هنا جميلة مائة في المائة . . والوجوه ٩٠٪ منها مش ولابد. . يعنى يجب أن ترد إلى أصحابها لإصلاحها قبل عرضها فى السوق.

والفقيرات يرتدين البيجامات فى الشارع. والفقيرات جدا يلبسن القباقيب الخشبية الملونة كالقلل عندنا . . ثم يرتدين البيجامات المصنوعة من الشمع . . لا غسيل ولا مكوة

ولا حاجة . . وفى الصينيات عدد كبير جدا من السيدات الصلعاوات. . سيدة صلعاء أو قرعاء، شىء فظيع، وإذا أضيف إلى هذا بشاعة وجهها ووحاشة لغتها وفقرها، وإصرارها على أنها تأخذ منك حسنة . . صورة مؤلمة . . موجود هنا ما هو أبشع وأكثر إيلامًا من ذلك .

* * *

ومن معالم هونج كونج حديقة «تايجر بالم» . . أو «زيت النمر» . . وتوجد حديقة بهذا الاسم فى سنغافورة . . وأقيمت الحديقتان باسم واحد لسبب واحد، لأن صاحب الحديقتين هو رجل صينى مليونير . . أقصد «ملايينير» أى صاحب ملايين وليس صاحب مليون فقط . . هذا الرجل صينى، وتوفى سنة ١٩٥٤ بسكتة قلبية فى المستشفى الحكومى فى هونولولو، وأحرقت جثته ودفن هناك . .

وهذا الرجل الصينى الغنى اسمه «آو . . بون . . هاو» وكسب مئات الملايين من الجنيهات عن طريق وصفة طبية اخترعها وأسماها «تايجر بالم» أو «وصفة النمر» وهذه الوصفة تشفى أمراض البرد والروماتيزم والسعال وضيق التنفس . .

وسمعت مثل هذه القصة فى مانيلا عن رجل يهودى اسمه ليوبولد كاهن . . فالفليبين بلاد مسيحية كاثوليكية متعصبة جدا، وفى كل مدينة وقرية كنيسة؛ وكان ليوبولد يتبرع بشراء أجراس الكنائس الجديدة ويطلب من القسيس أن يشير إلى ذلك فى الصلاة . . فكان يقول : أيها الأصدقاء . هذا الجرس الذى ناداكم هدية من الطيب القلب والسيرة أخيكم ليوبولد كاهن . .

وعند خروج المصلين من الكنيسة يجدون محلا يحمل اسم ليوبولد كاهن يبيع المسابح والصلبان التى كتب عليها أنها صنعت فى إيطاليا .

وبذلك أصبح مليونيرًا تدق له الأجراس . .

وحديقة تايجر بالم أعجوبة فنية، هنا وفى سنغافورة . لقد تكلفت هذه الحديقة حوالى ثلاثة ملايين من الجنيهات، إنها منحوتة فى الصخر، وتروى حياة الصين وحضارتها . . وقصص البطولة فى تاريخها وفى أديانها وفى أدبها . . وتروى قصص الخير والشر . والحديقة تشغل مساحة قدرها ثمانية أفدنة، والفكرة فيها أن الرجل الصينى «آو» رأى أن جميع أمواله من الشعب ويجب أن يردها إليه، فبنى هذه الحدائق للنزهة . . وأقام

المستشفيات والمدارس والجمعيات الخيرية، وأوصى بأن ٦٦٪ من ثروته تعطى للفقراء كل سنة. وإلى جوار هذه الحديقة الآن توجد بيوت من الصفيح والصناديق الخشبية، ويعيش فيها بعض الفقراء كأنهم ينتظرون أن ينزل السيد من حديقتهم ليعطيهم كما كان يفعل فيما مضى. . ولكن السيد واقف هنا وسط هذه الحديقة، فله تمثال صغير متواضع، ووراء التمثال توجد مقبرة رمزية، وإلى جوار المقبرة الرمزية يوجد برج، يسمونه بالصينى «باجودا» تحية منه لوالديه.

وبقية الحديقة مليئة بالحيوانات والطيور والأفاعى والحشرات وكلها من الصخر. . وكلها من الألوان وإذا رأيتها فإنك لا تدرى إن كانت حية أو ميتة. . الفن هنا مذهل للعقل. .

الناس يزورون هذه الحديقة ويصعدون الجبال طول شهر أكتوبر لأنه عيد معروف باسم «شيخ ينج». . فقد حدث منذ آلاف السنين أن رأت سيدة فى نومها أن قريتها ستغرقها السيول. . فأخبرت أهل القرية، فهجروا القرية إلى الجبال. . ونجا سكان القرية. . وأصبح هذا تقليدًا من ذلك اليوم. . فالناس يصعدون الجبال تفاديًا لشرور العام القادم. . ولذلك فالزحام شديد على هذه الحديقة لأنها على ربوة عالية، وقد أنشئت سنة ١٩٣٥، وهى أصغر جدا من حديقة تايجر بالم الموجودة فى سنغافورة.

وكل الحديقة قصص تاريخية. . فهنا الراهب البوذى الذى ذهب إلى بلاد التبت وقابلته الوحوش فى الطريق. . قرود وأفاع وعفاريت ولكنه قاوم وانتصر.

وهناك قصة الملكة الجميلة المسكينة التى لا تعرف كيف تطلع الملك على جمالها؛ فطلبت من الحاشية أن يوهموا الملك بأن هناك عدوانًا على المدينة. . وخرج الملك. . وتلفت حوله فلم يجد جنوده. . وانطلق إلى داخل القصر فوجد زوجته الجميلة التى نسيها منذ سنوات عارية تمامًا تستحم فى حوض جميل وتنبه الملك إلى أنه من الممكن أن يكون هناك عدوان على هذا الجمال إذا لم يصنه جلالته. . وقد صانته الصخور!

وقصة لألم تسو. . ملك الصين الذى جمع كل الأفيون الذى صدره البريطانيون إلي الصين وأحرقه جميعًا. . إن السحب ترمى العفاريت وقد داخت، وتساقطت عند قدمى الملك.

وأروع ما أعجبنى في هذه اللوحات جميعًا، أو هذه التماثيل البارزة، أو الحياة المتفجرة والتى جمدت من البرد على هذه الصخور، صور يوم القيامة.

ففى الديانة البوذية يرون أن الإنسان سيحاكمه الله أمام عشر محاكم :

المحكمة الأولى : يقف أمامها الإنسان بعد وفاته . . فإذا نظرت مجموع خطاياه وأعلنت أنه مذنب . . بدأ العذاب فوراً .

المحكمة الثانية : يقف أمامها الإنسان الذى يعصى والديه . . وعصيان الوالدين هو الجريمة الكبرى ، التى تستحق أكبر عقاب ، فيكوونه بالنار إلى الأبد ، ويضربون رأسه بالحجارة .

والمحكمة الثالثة : يقف أمامها كل إنسان يغش فى الدواء . . وكل إنسان يسخر من ا لفقراء ، ويتملق الأغنياء . . إنهم يفقئون له عينيه . . ومعه الذين ارتكبوا جرائم القتل . . إنهم يوضعون فوق صخور مدببة . والذين قتلوا الحيوانات البريئة ، تأكلهم هذه الحيوانات . .

والمحكمة الرابعة : للمرتشين من موظفى الدولة . . وفى المحكمة تضرب رءوسهم بالشواكيش إلى الأبد .

والمحكمة الخامسة : للخونة . .

والمحكمة السادسة : للذين مشوا وراء الخونة . . والعقوبة هى تمزيق أجسامهم وأيديهم . .

والمحكمة السابعة : لمحاكمة الرهبان الذين اعتدوا على النساء . . تأمر المحكمة بتمزيق أحشائهم . . وللجزار الذى يبيع اللحم المغشوش يضعون هذا اللحم فى فمه ، ثم يمزقون معدته . . إلى الأبد .

والمحكمة الثامنة : للذين لا يقدسون أوطانهم . . تمشى العربات فوق رءوسهم .

والمحكمة التاسعة : للكذابين . . والمحكمة تأمر أولا بقطع ألسنتهم . . ثم بقطع أنوفهم .

والمحكمة العاشرة : يعلن القاضى أن الميت غير مذنب مثلا فيضع فوق كتفه جلد إنسان آخر ومعناه : اذهب وعش من جديد فى هونج كونج .

* * *

هونج كونج بلدة غنية وفيها فلوس وجميلة والناس يحبونها ويهربون لها. . لابد أن يكون هناك سر. والسر هو أنه فيها هيصة فيها سهرات ليلية، ليس لها عدد. . وأنا سأختار أحد المحلات. . اسمه محل ليوشن. . محل مشهور جدا. . هو عبارة عن بار ومطعم ومقهى. . الجرسونات بنات جميلات. . جمالهن صينى. . والصفات الصينية تقدر ترجع لها فى أول هذا الكلام، يعنى إذا أردت الدقة.

فى دقيقة واحدة يقترب صاحب المطعم ويهمس فى أذنك أحيانًا، وأحيانًا يقرصك. . وقد سألت عن حكاية القرص هذه، فوجدت أنه خصنى بها وحدى زيادة فى الحفاوة. . وبعد لحظات تجلس الفتاة التى أعجبتك إلى جوارك. . وهات يا شرب على حسابك. .

وجاءت فتاة وجلست إلى جوارى ودار الحوار بينى وبينها:

ـ وهوه بقى حضرتك منين كده. .

ـ من فرموزا. . أنا. . صينية وطنية. .

ـ كده. . طيب وهى الوطنية تقول لك إنك تشربى الويسكى مع واحد بيشرب شاى. . والوطنية دى بقى مش معناها أن الواحد يحب بلده. ويحب اللى يحب بلده.

ـ مش فاهمة. .

ـ تعالى هنا. . ومين قال لك بقى تقعدى هنا. . أنا راجل وبأحب أقعد لوحدى كده. . سرحان. . عامل سرحان. . أنا حر. . أنت مش بلدكم دى حرة. . الواحد يعمل فيها زى ما هو عاوز. . أنا كمان حر. . أقعد ساكت. . أكلم نفسى. . آه. . وحريتك دى تعتدى على حريتى إزاى!؟

ـ عدوان إيه. . إنت مش قايل للراجل إنى عاجباك. . وقال لك مين؟ قلت له دى.

ـ أنا قلت كده. . دى يعنى إيه. . أنا فاكر إنه بيسألنى عن الترابيزة. . قلت أيوه دى. . وهيه ترابيزة بالصينى يعنى واحدة ست. . هو أنتم ترابيزات لسه. أمال بيقولوا الستات بيشتغلوا زى الرجالة ليه. . طيب والراجل بالصينى معناه إيه بقى. . لازم معناه كرسى. . آهو كل ترابيزة ولها كرسى. . وأنا كرسى مش عاوز ولا ترابيزة. . أنا كرسى حر. . كرسى يقعد قدام الباب. . يقعد فى الشباك. . يتشقلب. . آهو حر. .

ـ أسمع أنت خايف من إيه. . الويسكى ببلاش. .

ـ ببلاش. . الله آدى الوطنية واللا بلاش. . طيب وبلاش ليه بقى.

ـ واحد دفع لك ثمنه!

ـ والواحد ده يبقى مين. . ودفعه ليه. . وهو يعرفنى. . لازم يعرفنى كويس.

ـ هناك. .

ـ هناك فين. .

ـ بص له. . هناك قاعد أهوه. .

ـ يمكن يكون غلطان. . يمكن فاكرنى واحد تانى. . فلو بصيت له حيكتشف الغلط. وعلى إيه. . كده أحسن.

ـ بس، بص شوفه هو كمان عاوز يشوفك. .

ـ يشوفنى ليه بقى. . وايش عرفك أنت؟

ـ بص ما تخافش. .

ـ مش خايف. . مش عارف حاجة. . الله. . هوه أنا اللى شربت الويسكى وإلا إيه. . أمال دايخ ليه. .

ـ دايخ من الخوف إنك تدفع. .

ـ أدينى بصيت مش شايف حاجة.

ـ مش شايف نفسك فى المرآة. . طبعًا. . زى ما طلبتنى وأنت سرحان، أدفع وأنت سرحان. . وأبقى فوق لنفسك فى البيت على أقل من مهلك. . ادفع!

وقبل أن تبرح البار أو المطعم، ينطلق وراءك رجل ثالث أو رابع ويقول لك كلامًا باللغة الصينية لا تفهمه. . والغرض من ذلك أن تقف لحظة. . هنا ولا تفهم كيف تظهر فتاة صينية حلوة! من أين جاءت ولماذا ولمن. . طبعًا جاءت لحضرتك. . البنت حلوة. . اجلس. . وتجلس وتدفع والهمس فى أذنك. . وغدًا سيخترعون أشرطة صغيرة توضع فى الآذان وتسجل لك الكلام الذى يدور فى نفسك فى أثناء هذه الجلسات لتسمعه فى البيت وأنت تدافع عن نفسك أمام ضميرك وأمام صاحب الفندق وصاحب المطعم. .

لكن البلد مع ذلك ولذلك جميل جدا. . . . . والنقط الكثيرة هذه ليست إلا قبلات لها ولك لأنك قرأت هذا الموضوع، ولكل من يحب ويحلم أن يجيء إلى هذه البلاد.

* * *

ولا أدرى لماذا كان الصينيون الذين أتعامل معهم فى الفندق مختلفين عن الصينيين. . هل لكثرة عشرتهم للأجانب؟ هل لأن العمل فى الفنادق لا يحتاج إلى براعة. . هل لأنهم قرفانون منا نحن القادمين من بلاد بعيدة؟

مثلا. . الساعى أو الجرسون الذى أتعامل معه. . لاشك أنه صينى ١٠٠٪ وشعره ووجهه وعيناه المعوجتان. . ولهجته التى تشبه صوت الحنفية عندما ينكسر وابور المياه. . .

كل ما أريد ليس أكثر من كوب شاى فى الصباح. . ولا لبن ولا سكر ولا عيش. . فقط كوب شاى فى الساعة السابعة ومعه الصحف التى صدرت فى نفس اليوم. . مسألة واضحة جدا. .

فى أول يوم ضحك لى، ضحكت له، هز رأسه هززت له، غمز لى بعين غمزت له باثنين. . حاجة عال جدا وطلبت منه أول فنجان شاى. . فاختفى وعاد ومعه بعض الفوط النظيفة. . وانتظرت الشاى. . ولم يحضر. . فضربت الجرس فدخل وضحك وقلت له: أين الشاى؟

وأقفل الباب وخرج. . وعاد ومعه كوب من الماء. .

فقلت له: ت. . ش. . ا. . ى. . تشاى. .

وهى الكلمة الصينية الوحيدة التى أعرفها. . وخرج ضاحكًا وعلى وجهه شوية دم. . يمكن كسوف. . يمكن خجل. . يمكن أحس أن لغته قد أهينت على لسانى. . ولكن بعد لحظات عاد ومعه كوب من الشاى. . وخرج ووجدت الشاى لونه أخضر وقلت فى نفسى يمكن الشاى الصينى أخضر. . على كل حال لا مانع من أن أذوق طعم الشاى. . الشاى الصينى. . طبعًا الشاى بلا سكر ولا لبن وبلا شاى أيضا. .

وقد تعودت فى هذه المنطقة من العالم الصبر وهدوء الأعصاب. . فالناس هنا لا يثورون أبدًا. . فى الهند تعلمت أن الدنيا من الممكن أن تعيش من غيرى. . وأن الناس يعيشون حياتهم ويمشون على نظام خاص وأن هذا النظام سواء أعجبنى أو لم يعجبنى فلن

يغير هذا شيئًا . . فإما أن أسكت أو أخرج من البلاد . . وفى إندونيسيا يضحك الناس دائمًا ولا يعملون إلا القليل . . وفى الصين يضحك الناس كثيراً ويعملون كثيراً . وفى اليابان مؤدبون ضاحكون وقدرتهم على العمل خارقة . . يعنى من الممكن أن يكون الإنسان مؤدبًا وباسمًا وناجحًا فى عمله . .

فما بالك بالذى جاء يتفرج . . على الأقل يجب أن يكون باسمًا أو ضاحكا أو حتى مؤدبًا .

وتأدبت فى الحديث مع الخادم وخرجت إليه وفى يدى ورقة وقلم ورسمت له فنجان الشاى . . وأمسكت قلمًا أحمر وقلت له الشاى يكون لونه هكذا . هكذا

والمصيبة أن هذا الجرسون يعرف الإنجليزية . . ولكن أنا عاجز عن فهم ما يقوله لأنه كلام صينى على إنجليزى . . وهو عاجز عن فهم ما أقول، مع أن لغتى سليمة والله العظيم . . ولما رأى الفنجان الذى رسمته عرف أنه فنجان شاى . . أما اللون الذى وضعته فى الفنجان فلم يفهم ما هى الحكمة من هذا اللون . . وأمسك هو بالقلم ورسم بعض الرسومات على الفنجان جميلة فعلا . . ولكنى أريد أن أفهمه أننى لست معجبًا بالصناعات الصينية ولا بنقش الفناجين . . ولكن نفسى أعجب بصناعة الشاى هنا . .

وأمسكت الورقة وقلت له : أريد أن أشرب فنجان شاى بهذا اللون . .

ثم وضعت الورقة عند فمى . . ويظهر أن الجرسون فهم أننى أريد أن أطلعه على بعض الألعاب السحرية . . وراح يضحك . . الحقيقة تضايقت جدا .

وكأننى قد جئت من القاهرة منذ أيام، فثرت فى وجهه وشتمته بالعربية واستمر الجرسون فى ضحكه . . وذهبت إلى عامل التليفون وقلت له من فضلك تقول للجرسون : إننى عاوز أشرب واحد شاى لونه أحمر . . مش تقيل قوى . . لكن له لون فقط . . وإننى حاولت أن أجعله يفهم ذلك منذ ساعة . . وفشلت . .

ودار بينهما كلام بالصينى طويل حتى ظننت أن الجرسون يشكو من سوء معاملتى له . . وأننى شخطت فيه . .

وقال لى عامل التليفون : الجرسون فاهم كل شىء . . وهو حاول أكثر من مرة أن يقول لك إنه فاهم، ولكنك لم تعطه فرصة . .

وقلت له : أمال يا أخى سايبنى آكل فى بعضى ليه كده!

ودار الكلام بالصينى . . وعاد يقول لى : إن الأدب يمنعه من مقاطعتك .

ـ كده . طيب أنا عاوز فنجان شاى دلوقت بالشروط اللى أنا طلبتها .

وعاد الكلام الصينى يروح ويجىء بينهما ، وفى السكة يضربنى فى أذنى وفى رأسى . .

وتمددت على السرير فى غرفتى ورحت أقلب فى الصحف . . وانفتح الباب وجاء فنجان من الشاى . . اللون الأحمر . . مفيش كلام . . ولكن الشاى ثقيل جدا . . فقلت على سبيل التشجيع : الشاى عظيم . . بس ثقيل شوية . . وضحك الجرسون واختفى . . وبعد لحظات عاد وكنت فى الحمام . . وأخذ الشاى القديم وأتى بشاى جديد . . زى الزفت . . ويبدو أنه فهم أننى أريد الشاى أن يكون أثقل من ذلك .

وأمسكت الشاى وألقيته فى الحوض . .

ونزلت لأشرب الشاى فى أى مكان آخر . . دخلت أحد المطاعم . . وطلبت من الجرسون أن يترجم إلى اللغة الصينية معنى هذه العبارات : شاى لونه أحمر ، ولكنه ليس ثقيل . . شاى كمان . . ومستعجل على الغسيل . . ومستعجل على المكوى . . وأشكرك . .

وفى كل يوم أضع أصبعى على الكلمة التى أريدها . . ويخرج الجرسون سعيداً ويأتى الشاى الأحمر الجميل . .

وحتى لا يصبح هذا العمل آليا . . طلبت من الجرسون أن يعلمنى كيف أنطق هذه الكلمات . . وبدأت أنطقها وأقول : تشاياسا . . ومعناها شاى . . وأمدها أبثاه . . ومعناها الغسيل . .

يومان بسلام مضيا . . بلا حوادث . . لغتى الصينية فى تحسن ولغته الإنجليزية لا يستخدمها معى . مطالبى محددة جدا جدا . . وأنا أرضى بأى طعام وأى شراب وأى سرير وأى فندق . . ولكن الشىء الوحيد الذى أريده بإصرار هو أن أكون بجوار أحد أكشاك بيع الجرائد وإحدى المكتبات . . والباقى أستطيع أن أحصل عليه . .

وأصبحت فى غير حاجة إلى الورقة . . وكنت أضربه بالكلمة الصينية . . وحالا يجىء الشاى . . وتجىء الصحف اليومية . . والغسيل والمكوى . وأصبحت المدينة حلوة من جديد ، وأصبحت غرفتى ظريفة . . وكل يوم أضع السرير فى ناحية والمكتب فى ناحية

أخرى. . مرة لكى أكون بعيداً عن جهاز التكييف. . ومرة لكى أكون قريبًا من الراديو. . ومرة لكى أكون قريبًا من النافذة بعيداً عن الحمام. . أنقل ده. . هات ده. . أشكرك على ده. . مالكش حق فى ده. . عال.

ودعوت بعض الأصدقاء، وطلبت من الجرسون أن يحضر الشاى وبعض الحلوى. وكلمة الحلوى عرفتها من جرسون آخر. . وطلبت إليه أن يضع زهرية فيها شوية ورد مش حاجة كبيرة الورد هنا. . منظر يعنى. . وغمزت له بعينى، ووضعت فى جيبه دولارين.

وبعد ساعة عدت فوجدت الغرفة جميلة. . الملابس معلقة على الشماعات والكتب مصفوفة، والجرائد مصفوفة. . وحقائبى مغطاة بالمفارش. . ودخلت الحمام. . كأنه مرآة. . وبعض الفليت. . وبعض الزهور قد وضعت فى زهرية حلوة. . ومنضدة كبيرة عليها الشاى والفناجين والأطباق والملاعق. . الحمد لله. . كل شىء جميل. .

وجلسنا نستمع إلى الموسيقى نملأ صدورنا بالورود ونملأ معدتنا بالشاى اللذيذ والبسكوت الأسترالى الذى لا يشبع منه أى إنسان. . وكلام وسلام وحكايات من الشرق والغرب ومضت ساعة واثنتان وثلاث. . ومددت يدى على الجرس وجاء الجرسون وأطل برأسه فى أدب زائد وقال لى: حالا. .

وقلت لابد أنه مشغول. . أو أنه مؤدب جدا لدرجة أنه لا يريد أن يزعجنى بدخوله وخروجه. . أو يفسد حديث الضيوف. .

ودققت الجرس أطلب إليه المزيد من الشاى وأطل برأسه وعاد يقول: فاضل واحد. .

واحد إيه. . يمكن واحد دقيقة. . أو أنه يغسل الأطباق ولم يبق إلا طبق واحد. . أو يكوى القمصان وليس أمامه إلا قميص واحد. . واحد واحد ياسيدى. . يعنى من واحد. . وأخيراً حضر ومعه لفة صغيرة. . لفة فى ورق شفاف ونظرت. . ولم أفهم وسألته: ما هذا. . ما هذا. .؟ فلم يرد. . ومددت يدى لأرى عجبًا. . كل مناديلى التى أعطيتها له فى الصباح قد تغير لونها. . لونها بنى أسود. . أو بنى أصفر. . وفيها بقع زرقاء وحمراء. . ولم أفهم طبعًا. . وسألته ما هذا؟ لم أفهم منه. .

ونزلت لعامل التليفون أسأله. . وعرفت المصيبة. . لقد وضع كل مناديلى فى براد الشاى وغلاها. . لماذا؟ لأننى كتبت كلمة شاى «مظبوط» بصورة خاطئة فكانت النتيجة

هى صبغ المناديل . . ولماذا يصبغون المناديل؟ لأننا فى أعياد الصعود إلى الجبل . . وفى هذه الأعياد يتبرك الناس بطعم الشاى ولون الشاى . .

ومزقت الورقة وبدأت أسأل عن معانى الكلب والحمار والثور وقررت أن أوجه هذه الكلمات إلى الجرسون كل يوم . . وأخيراً عدلت عن هذه الورقة . . فربما كان لها معنى آخر عنده . .

ومع ذلك فغرفتى أروع غرفة فى الدنيا ، لأنها تطل على أجمل فندق وتقع فى أجمل مدينة فى العالم . . مدينة أو جزيرة هونج كونج . . ومن أجل هونج كونج وجمالها وسحرها ليلا ونهاراً ، أصبر على هذا الجرسون ولو فتح بابى فى الصباح ودخله دون إذن ومن ورائه عمال البلدية ، وموظفو جمعية الرفق بالجرسونات!

* * *

وأمس قررت أن أقوم بعملية ترميم كاملة . . للآلة البشرية التى بعثتها القاهرة لتسجيل الحوادث فى هذه المنطقة من العالم . . فتركت ساعتى عند الساعاتى وبنطلونى عند الرفا . وحذائى عند الجزمجى ، وحقيبتى التى تكسرت تركتها هى والحزام عند الجزمجى أيضًا . . وملابسى أيضًا تركتها عند المكوجى .

وموعدى معها جميعًا غداً . . وجلست اليوم أنتظر وفى الساعة الثامنة صباحًا بدأ العمال يدقون باب غرفتى . . وأبحلق فى كل شىء . . إنه جديد . دقيق كأنه خارج من المصنع الآن . . وبأسعار معقولة جدا . الخلاصة : لا يوجد شىء مستحيل عند الرجل الصينى . والذين جاءوا من اليابان يقولون : إن الرجل اليابانى يرى أن الرجل الصينى بليد وغبى وبطىء جدا!

وجاءنى الجرسون وقلت له : كل حاجة عندكم بهذه السرعة!

فضحك ، وهنا يضحكون دائمًا ، إذا فهموا وإذا لم يفهموا وفى الغالب يفهمون شيئًا آخر غير الذى نقصده ولكنهم يفهمون دائمًا .

وقلت : عاوز عروسة لواحد صاحبى .

قال : حالا دلوقت .

قلت : اشمعنى العروسة دلوقت والجزمة غداً؟

قال : دلوقت عروسة وغداً عروسة أخرى . .

ـ ولكنها لا تعرفه .

ـ غداً تعرفه يعجبها أو لا يعجبها . .

ـ هذا يحدث فى هذه البلاد؟

ـ الزواج محاولة تفاهم . . بين رجل وامرأة . .

ـ هل معنى هذا أنه لا يحدث طلاق أبداً؟

ـ يحدث .

ـ لابد أنه كثير جدا ما دام الزواج يتم بهذه السرعة؟

ـ بالعكس . . بعد الزواج يكون الزوج مشغولا جدا والزوجة كذلك . . ولا يتسع لديهما الوقت للتفكير فى الطلاق . . فهناك شىء أهم من الاتفاق وعدم الاتفاق وهو لقمة العيش . .

ـ طيب على كل حال صاحبى عاوز عروسة . .

ـ أجيب له . .

وبدأ يتكلم عن العروسة كما لو كانت زوجًا من الأحذية . . وبدأ يبين لنا مزايا القصيرة والطويلة ، والسمراء والبيضاء . بنت الأكابر أو بنت الناس العاديين .

وعرفنا منه بعد ذلك أن هذه العروسة لو كان فيها عيب كالحقائب أو الأحذية يمكن ردها اليوم إلى والدها ويتم إصلاحها غداً!

أقيم أول أمس معرض فنى فى هونج كونج ودعت له الصحف ومحطات الإذاعة والتليفزيون ووزعت له النشرات فى دور السينما . . والمعرض مقام فى أحد أجنحة الميناء . . وفوق هذا الجناح توجد أعلام . . وفى مدخله فتيات جالسات يبعن دليل المعرض . .

والمعرض رغم هذه الضجة كلها صغير جدا لا يزيد على ثلاث غرف . . ولكن الأشياء المعروضة ممتعة فعلا ، فهناك صور فوتوغرافية لمناظر فى هونج كونج جميلة جدا . . هناك صورة للميناء فى الليل بعد أن مر فيه أحد الزوارق . . وشكل الماء فى الليل كبدلة رقص

سوداء شفافة ومرصعة بالترتر . . وهناك صورة أخرى لفتاة عارية ١٠٠٪ ـ وهناك تباع الصورة العارية الملونة عند دكاكين السجائر . . والبائعات كلهن بنات ـ وقد انعكس عليها ظل فتاة عارية أخرى . . إنهما فتاتان ، واحدة لونها أبيض والأخرى لونها أسود . . وانعكست عليها كاميرا المصور واتخذت الكاميرا وضعًا مثيرًا . . وصور أخرى لبنات ، وهن من هونج كونج عددهن كبير جدا . . أكثر من أى بلد فى العالم .

والذى أعجبنى وأدهشنى فى هذا المعرض هو القسم الخاص بالعمارة . ففن المعمار هنا يحتم على كل العمارات الجديدة أن تتخذ وضعا رأسيا وأن ترتفع وأن تستعين بالفضاء الواسع بعد أن ضاقت الأرض بها .

وفى كل مكان توجد ناطحات سحاب . وفى كل شارع وفى كل حارة ، عمارة عالية جدا تقام . وفى المعرض تقدمت إحدى الشركات الهندسية بنموذج من الخشب لمستعمرة سكنية مكونة من ٩ آلاف شقة . . يتراوح إيجارها بين ستة جنيهات وعشرين جنيها . . وهذه المستعمرة بها مدرسة وبها دار للسينما . .

ويبدو أن الحكومة هنا قد اشترطت على كل من يبنى مستعمرة أن يبنى فيها مدرسة . . فالطلبة كثيرون جدا والأماكن ضيقة . . وفن العمارة هنا فيه خطوط جديدة . . ولكن كل الخطوط مستقيمة . . وكل الواجهات من الزجاج . . وفى بعض البيوت توجد واجهة مستقلة من البيت . . هذه الواجهة تشبه ستاراً هائلا من النوافذ البيضاء تحجب أشعة الشمس وتكيف الهواء .

وهنا نموذج لمطعم . . سقفه على هيئة دوائر تصعد إليه . . بسيارتك . . ومن الممكن أن تنزل فوقه بطائرة هليكوبتر فلا يتأثر . . والعمارات هنا مكتوب عليها منشورات تشبه منشورات قاعدة إطلاق سفن الفضاء عندما تتحدث عن دورات سفن الفضاء . . فالمنشورات هنا تقول لك ابتدأنا البناء يوم ١٢ يونيو وينتهى العمل يوم ٢٧ فبراير الساعة ١٢ ، ويكون المبلغ الذى أنفقناه حتى هذه الساعة هو ثلاثة أرباع مليون جنيه إسترلينى ، وآخر موعد لتقديم طلبات الإيجارات هو يوم ١١ نوفمبر ظهراً . إذا أردت أية معلومات أخرى اتصل بالآنسة . . من الساعة الخامسة والنصف إلى السادسة من أى يوم ما عدا يومى السبت والأحد فإنها خارج المدينة !

وهنا معارض أخرى للفنون والآداب .

ولكن يظهر أن الرجل الصينى مشغول عن الأدب والفن ولذلك تأخرت هذه الأعمال

النظرية . . والصينى رجل عمل متفوق فى عمله . . وهو يفكر بيديه ويتفلسف بمعدته . . ولذلك هزيل جدا والموسيقى تدل على براعة الصينيين فى شىء واحد . . هو أنهم استطاعوا أن يحبسوا عشرات القطط والفئران فى آلاتهم الموسيقية . . فالبيانو صراع دائم بين دجاجة وراءها عشرات من الكتاكيت الصغيرة ضد عرسة كاسرة . أما القيثارة فهى تشبه أفعى قد تكونت على صدر أحد الحواة ينتظر عصفوراً أطلقه أحد المتفرجين . . أما بقية الأصوات الموسيقية فهى تشبه ضرب الحلل بالملاعق ثم ضرب المستمعين بالجزم!

والصينى مهتم جدا ببناء أحسن مسرح ، وبناء أحسن مطبعة وأحسن صالة للموسيقى . . أما امتلاء هذه الأبنية بالناس فلا يهمه كثيراً . . لذلك أنصحك عندما تذهب إلى هونج كونج أن تعرف أولا أن الفنون والآداب تشبه شربة الزيت . . وأنه يحسن بك أن ترجها . أن تهز رأسك قائلا لنفسك لا ـ قبل أن تتناولها . . لأنها تستعمل من الظاهر فقط!

ثم هذه العجائب؟!

* الصينيون «يحسبون» لا عن طريق جداول ضرب ولا آلات حاسبة . . ولكن يحسبون عن طريق عداد صغير مكون من مجموعة من البلى الذى يلعب به الأطفال . . وعملياتهم الحسابية غريبة غير مفهومة . . وتتم بسرعة مذهلة .

* إذا سمعت أحد الصينيين وهو يأكل أدركت أن هناك سيلا من الأمطار يتساقط فوق السطوح . . لأن الصينى يأكل بالعصا . . فهو يمسك عصوين في يده ويضرب بهما الطبق ويلتقط بهما حتى الإبرة . . حاولت ذلك ففشلت فى إمساك هاتين العصوين . . لقد كنت فى حاجة إلى كماشة لأمسك العصا التى سأمسك بها قطعة لحم فى حجم ماكينة الحلاقة!

* كل صينى يعمل أكثر من عمل . . فهنا فى الفندق الذى أقيم فيه أربعة من الجرسونات ـ أقصد الجرسونين أو الجراسنة الرجال ـ وكل واحد منهم له عمل آخر يعمله طول الليل . . فهذا يصنع جلود الساعات وذلك يصنع المفاتيح والأقفال ، والثالث يرفى الجوارب . . كل ذلك طول الليل!

* لا يوجد محل يبيع صنفا واحداً . . فالفكهانى يبيع إلى جانب الفواكه اليابانية والصينية الساعات والراديوهات الصغيرة والعطور النادرة والحراير والخمور . .

* اكتشفت أن الفنادق كلها لها أسعار واحدة . . يعنى الفندق الذى أسكنه أسعاره كفنادق الدرجة الأولى . . والمشكلة هى دائمًا كيف تجد مكانًا فى فندق الدرجة الأولى!

* سجن رجل لأنه نقل فى زورق مائة فتاة وحملهن إلى إحدى السفن الكبيرة الراسية بعيداً عن الميناء . أما لماذا صدر ضده الحكم ، فلأنه لم يدفع إيجار الزورق . . فقط!

* سجنت امرأة لمدة سنة لأنها باعت ابنتها الصغيرة وعمرها ١٢ سنة لرجل لكى يعرضها فى الليل على السائحين ويكسب من ورائها . . وسجن هو الآخر سنة! البيع لا اعتراض عليه عندهم ولكن استغلال الفتاة هو الذى يعتبر عملا حقيرا!

* المدينة تشكو من الإسراف فى استخدام المياه ولذلك . . ستكون المياه الساخنة فى الحنفيات من السادسة صباحًا حتى الثانية عشرة . . وبعد ذلك تكون المياه باردة حتى السادسة مساء . . وعلى كل سكان هونج كونج أن ينفذوا التعليمات وإلا لجأت الحكومة إلى إجراءات أشد . . ربما قطعت المياه نهائيا واكتفت بمشروبات الكوكا والبيبسى وهى كثيرة جدا هنا .

* المحلات الليلية الكبيرة هنا لها نظام غريب . . إذا أعجبتك فتاة وكلهن جميلات فأنت ترقص معها . . وبعد الرقصة الحلوة تدفع للمحل مبلغ جنيهين . وإذا طلبت أن تجلس إلى جوارك فادفع جنيهين آخرين . . وفى آخر الليل إذا لم تستطع أن تقف على حيلك أو تعرف أين تسكن . . فالمحل يوصلك إلى حيث تنام وفى الصباح يبعث أحد الجرسونات للاطمئنان على صحتك وعلى أنك ستذهب إلى نفس المحل مرة أخرى .

* لا يضعون الكريم فى الحلويات أو فى الچيلاتى . . والسبب هو أن الناس يخافون من السمنة .

* أصحاب البارات هنا يقفون فى وسط الشارع وينادون الزبائن ويعرضون عليهم كل شىء . . كل شىء وبتفاصيل كاملة . . كل ذلك فى الشارع وقبل أن تدخل البار . . وهنا لا يشترطون لبس الكرافتة كما هو الحال فى أستراليا!

لكى تبدو أجنبيا!

زحام شديد فى كل مكان . . لا أحد يلتفت ناحيتى . . لا أحد يسأل عنى . . العيون تتجه بانحراف ثم تتركز فوق ناموسة فى طريقها إلى أذنى . . أما وجهى وأما ملابسى وأما الكاميرا التى تعلقت منذ أربعة شهور فى كتفى دون أن أفتحها بقصد التهوية فلا أحد ينظر إليها ، ولا أحد ينظر إلى الأوراق الكثيرة التى أحملها كأننى محصل النور فى حى بولاق . . وملابسى غريبة . . لونها بنى : البنطلون والچاكيتة والحذاء والجورب . . ينقصها القليل وتبدو حمراء . . كملابس المحكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ .

وقررت أن أبدو أجنبيًا . . أن أبدو كأننى لا أعرف شيئا عن تقاليد البلاد . أو أننى أعرفها وأتجاهلها . . على سبيل الاستخفاف وعدم الاهتمام . .

بدأت أكشر وجهى . . وأجعله كقفص من حديد يحبس وراءه ابتسامة عريضة . . ومن وراء هذا القفص الحديدى تطل عيناى ترحبان بأى تشجيع . . ولا تشجيع . . الناس يضحكون لكل شىء وأنا لا أضحك ولا أهتم بهذه الوجوه الباسمة . . الوجوه «مش ولابد» ولكن الأجسام «ولابد» . .

وبدأت أسأل عسكرى المرور عن أسماء الشوارع ، مع أن الشوارع هنا محدودة جدا . ومع أن هذا العسكرى لا يعرف اللغة الإنجليزية فالذين يعرفون اللغة الإنجليزية هنا لهم علامات فى ملابسهم . . وكنت أصرخ فى وجهه وهو يصرخ أيضًا . . والناس يروننا فيضحكون ولكن لا يتوقفون . . فوراءهم مسائل جادة أهم من نزوات سائح أجنبى مثلى . .

وبدأت أتعرض للفتيات وأبتسم من غير مناسبة ومن غير معرفة . . والبنات يبتسمن . . ثم أتلفت ورائى وأدور كأننى مراهق صغير فى مهب الفتيات الحسان . . وفى كل مرة أدور

حول نفسى كما تدور أبواب الفنادق أصطدم بأحد المشاة وأبتسم ويبتسم هو أيضا . . والنتيجة صفر لواحد . . صفر لى وواحد لكل الناس ، فقد أدركوا أنهم أحسن أخلاقا من كثير من الأجانب . .

وعندما أدخل المطعم لا أنظر فى قائمة الطعام وأطلب منه قطعة من اللحم المشوى جدا . . وكثيرا من السلطة الخضراء ، وكوبا من الصودا ، وأبحث عن شىء غير موجود فى قائمة الطعام . . الحلويات أشكال وألوان والفواكه كلها موجودة وأنا أعرف ذلك جيداً . .

ونظرت إلى نظرات الجرسون . . ليس فيها أية دهشة ، ليس فيها أى استغراب لشأنى . . وينظر إلى كأننى أعرفه منذ زمن طويل . . وأخيرا انجعصت فى مقعدى وقلت له وأنا أضع الأوراق إلى جوارى والكاميرا إلى جوار الأوراق ، وأضع الچاكيتة فوق الأشياء جميعا . عاوز عود قصب !

واختفى الجرسون . وأنا أعرف هذه العادة فى الجرسونات إنهم لا يقولون أبداً : مش فاهم . إنهم يذهبون بسرعة ويأتون بمن هو أكثر معرفة ، بجرسون أكبر . . وهذا الجرسون الأكبر هو الذى يتفاهم معى بلغة إنجليزية سليمة . . وبدأت أقلب فى وجوه الحاضرين . .

واندهشت كيف أن سيدة شقراء حلوة تتناول الشوربة بصوت مرتفع ثم كيف تأكل مع الشوربة هذه الكمية الهائلة من البصل الأخضر . . وفى المنضدة المجاورة توجد سيدة أخرى تأكل بالجملة . . فهى تضع اللحم والبطاطس والبيض والمربى والمسطردة والفاصوليا كلها معا وتأكلها . . وبعد ذلك تقوم بتقليد الجمل فى الأكل . . وأضحك بينى وبين نفسى .

وأتلفت ورائى لأجد الجرسون قد أتى بصينية عليها مجموعة من عيدان القصب . . وتستطيع أن تتخيل منظرى والناس كلهم يتركون اللحم والبصل ويتفرجون على هذا الأجنبى وكيف يحطم هذه الأعواد الحديدية .

على فكرة معظم الناس هنا لهم طقم أسنان . . وفى أستراليا كنت أجد إلى جوار سريرى كوبا من الماء . . وفى يوم سألت الخادمة عن سبب وضع هذا الكوب . . فقالت لى : لكى تضع فيها طقم أسنانك . .

وتشاءمت وقلت لها : فال الله ولا فالك يا شيخة . .

وخشيت أن أقول لها إن أسنانى طبيعية فتمد يدها إلى أسنانى وتشدها بقوة لتتأكد من ذلك بنفسها!

وأخرجت ورقة وقلما من جيبى وجعلت أكتب على الورقة أوصاف قصب السكر.

وأضغط بأصابعى عليه وأكتب. .

ثم أضع الأعواد إلى جوار أنفى وأشمها وأكتب. .

والناس فى دهشة أكبر وأكبر.

وفى إشارة جافة طلبت من الجرسون أن يأخذ القصب. .

وكان الجرسون فى حاجة إلى تفسير، فقلت له: أنا خبير فى صناعة السكر. . وقد جئت لدراسة مفصلة عن عيدان القصب وزعازيع القصب فى كل مكان. . فى السوق وفى المطاعم وفى الكباريهات أيضا!

وضحك الجرسون. .

وفى اليوم التالى حلقت رأسى على الطريقةالصينية. . واشتريت الصحف الصينية. . وجعلت أرفع حواجبى إلى أعلى وتحولت ابتسامات الناس إلى ضحك. . فقد تأكدوا أننى فعلا أجنبى وأننى أبالغ فى تقليد الصينيين وخصوصا فى الكلام. . فقد أصبحت لغتى الإنجليزية كالصينى المكسر!

ولذلك تعودت شيئا جديدا لا أحبه لقد بدأت أضع السيجارة فى فمى. . كأن السيجار عكاز يستند عليه الكلام عندما يتمشى بينى وبين الناس!

* * *

وركبت القطار من محطة كولون. . إلى مدينة شونج شوى ـ أو سونج سوى بلهجة أهل كانتون. . وهى الولاية الجنوبية للصين الشعبية. . القطار هنا ثلاث درجات ـ فى ألمانيا ألغوا الدرجة الثالثة، وفى روسيا ألغوا الدرجة الأولى والثانية، وفى إندونيسيا ألغوا القطار نهائيا واكتفوا بأن يركب الناس الريكشا. . . ، وفى أستراليا ألغوا القطار ليركبوا الطائرات. . وأتمنى أن أعود إلى القاهرة فلا أجد سلم الترامواى عندنا!

وهذه المدينة الصغرى تقع على حدود الصين الشعبية. . وانطلق القطار لمدة ساعة فى

الأرض الجديدة التى استأجرتها بريطانيا من الصين الشعبية لمدة ٩٩ سنة ابتداء من سنة ١٨٩٨ . .

وعلى جانب القطار توجد حقول الأرز والبيوت الصغيرة للفلاحين الصينيين . . حياتهم بدائية . والحقول مقسمة إلى قطع صغيرة جدا . . والفلاح الذى يملك قيراطا من الأرض . . يزرع ربعه أرزا ، وربعه قمحا ، وربعه بصلا ، والربع الباقى يجعله على هيئة حوض من الماء . . تسقط فيه الأمطار أو يحوش فيه الماء وينقله بالجردل أو بالرشاشة إلى الحقل . . وبعض الفلاحين يربى الأسماك فى هذا الحوض . والمرأة الصينية هنا تنتقل من مكان الحقل إلى مكان آخر وهى جالسة على كرسى يشبه كرسى الحمام عندنا . . والأرض على هيئة مصاطب . . وبين المصاطب قنوات . . والفلاح يعمل كل شىء بيده . . ولا يستخدم أية آلات حديثة . .

ولما نزلت إلى مدينة سونج سوى لم أجد أية وسيلة للمواصلات ؛ فركبت الدارجة وراء أحد المرشدين . . وانطلقت بنا الدراجة إلى مسافة عشرة كيلومترات . . إلى حدود الصين . . وصعدت الجبل . . ومن بعيد رأيت الصين الشعبية . . وعلى الجبل توجد علامات بيضاء . . كنت أظنها الحدود بين مستعمرة هونج كونج والصين . . ولكن عرفت أن هذه الأحجار البيضاء هى علامات بين عالمنا هذا والعالم الآخر . . فتحتها جثث الموتى أو ما تبقى من رماد جثثهم بعد الحريق .

والناس يجلسون على المقاهى ويلعبون الطاولة طول النهار . . وأحجار الطاولة فى حجم بطاريات الراديوهات الصغيرة .

والسوق الصينية عجيبة . . فكلها أسماك جافة . . وهناك طبق مفضل عندهم هو أثداء الخنزيرة . . هذا الطبق يشبه عندنا الكبد والكلاوى . .

والشمس ملتهبة جدا هنا . . فالخط المستقيم الذى يمر تحت قدمى الآن يمر بالقاهرة ومدريد وسان فرانسيسكو . . فنحن فى درجات حرارة متشابهة . . والشمس كانت قاسية جدا ولم نجد مكانا نجلس فيه . . فمحطة السكة الحديد هنا صغيرة جدا وليس أمامنا إلا دخول أحد الدكاكين . . ففيها مقاعد وفيها أكثر من سرير . . وهى طبعا لصاحب الدكان وأولاده الكثيرين جدا . . وشربنا لبنا موضوعا فى زجاجات . إنه خلاصة اللبن ، يشبه الأرز أبو لبن . .

وسألت صاحب الدكان محاولا أن أبدو غريبا جدا وقلت له: بلادكم عجيبة! كيف تحولون اللبن إلى أرز، والأرز إلى لبن؟!

وهز الرجل رأسه يمينا ويمينا مؤكدا لى أنه ليس شيوعيّا، لأنه لو كان شيوعيّا لهزها يسارا ويسارا ولم يقل شيئا. . فعرفت أن «تلبين» الأرز وتأريز اللبن سر لا يعرفه أحد. . أو يجب ألا يعرفه أحد مثلى شرب زجاجة بملاليم ثم لم تعجبه، وعندما بصق على الأرض، لم يكن ذلك بسبب ذبابة دخلت فى حلقة، ولكن لأن مرارة الأرز بدأت تتسلل من جديد إلى فمه!

* * *

وهناك أنواع أخرى من المرارة. .

ففى الليل ذهبت إلى ملهى «الشمبانيا». . جو جميل. . موسيقى صاخبة وسحب من الدخان. . تتحرك فيها فتيات كثيرات كأنهن قراميط وبلطى فى حوض من الزجاج. . كل الناس يضحكون ويرقصون. . وقد تتوهم أن أحدا لا يراك. . فتجلس فى أحد الأركان وتتوارى وراء أحد الأعمدة وتتشاغل بشىء. . فتضع يدك على خدك وتفكر معى فى الفصل القادم من هذا الكتاب وماذا تكتب وكم يوما تبقى قبل أن تنزل الأمطار والجليد. . كيف تختار الطائرة التى تعانقها العواصف فى الطريق. . وتتذكر بعض الخطابات الحلوة. . والكلام الحلو الذى كنت تمضغه كاللبان الأمريكانى أو تشمه كالنوشادر. . وفى هذه اللحظة تشعر بهزة عنيفة تحت المنضدة. . إنها ساق فتاة صينية جميلة تضغط على رجلك وتمد يدها لك وتقول: متى عدت!

فأقول: منذ أيام. .

ـ وأين صاحبك الآن وكيف حاله. . ألا يزال يفكر فى الزواج؟

فأقول لها: بخير، لقد تزوج وعنده ولدان الآن. .

ـ متى يحضر هنا؟

ـ أعتقد فى نهاية الأسبوع. . إنه فى شوق شديد إليك. .

ـ وستبقى هنا وحدك إلى متى؟

ـ لا أعرف. .

ـ إلى الساعة الثانية، هذه المرة اسمع كلامى . . ماذا كتبت أمس؟

ـ أمس . . قصدك فى العام الماضى . .

ـ أنا مشغولة الآن . . وسيكون عندنا وقت أجمل فيما بعد . . أنت لا تشرب؟

ـ لا أشرب . .

ـ لأى سبب؟ دينى؟

ـ صحى . .

ـ أنت دائما مهتم بالمسائل الصحية . . أحسن . . ولكن صديقتك لن تعود. لقد طردوها من هنا . . لقصة مشابهة . . طردوها . . هل تسمعنى؟!

ـ أسمعك طبعا هل يبدو أننى سرحان؟ . أنا شكلى يبدو أنه سرحان . . ولكنى فى الواقع لست سرحان. هل نظرت إلى عدسة آلة التصوير؟ إنها بلا أجفان وبلا رموش ولا تتحرك ولكنها تلتقط كل شيء . . وأنا أيضا كذلك . .

ـ ماذا فعلت؟ أنت لا تزال تعمل نفس العمل . . إنه لا يعجبنى . . وهل تبقى طويلا هذه المرة؟

ـ يمكن . .

واستأذنت الفتاة وانتقلت إلى المنضدة ورائى . . وكان هناك شاب يبدو أنه أمريكى . . وجلست إلى جواره وهى تضحك . . ثم نظرت ورائى فقالت لى: لا مؤاخذة . . أنت جئت هنا تتفرج فقط . . أما أنا فلى شأن آخر . . لى عمل آخر.

واكتشفت بعد وضع يدى الأخرى على خدى الآخر . . وكأن خدى الأول لا يتحمل أكثر من صفعة واحدة . . وكأننى أحمى خدى الآخر . . اكتشفت أنها كانت تتحدث إلى الرجل الذى يجلس إلى جوار الحائط بعيداً عنى وأنها تشير إلى حوادث جرت بينهما أمس . . وأنها لا تقصدنى بالمرة!

وأفقت من سرحانى الطويل . . ووضعت يدى فى جيبى وتلمست المحفظة . . ولا أدرى لماذا فعلت ذلك عندما أحسست أن صوتى منحاش . . تماما كما يتلمس الإنسان أسلاك الراديو الممتدة من البطارية إلى الميكروفون عندما يلاحظ أن صوت الراديو بدأ

ينخفض . . وتنبهت إلى أن الجالس ورائى هو صديقى وهو الآخر من القاهرة . . واعتدلت وبدأت أتحدث إليه بالعربية واندهشت الفتاة وخجلت منى وأحسست أننى انتقمت منها . . وأن انتقامى كان رهيبا عندما نهضنا نحن الاثنين وتركنا لها المنضدة والملهى . . ملهى الشمبانيا . . مع أنه لم تكن هناك سوى زجاجة . . انفجرت فى وجهى وطارت الفلة إلى عينى . . أما فقاعات الشمبانيا فظلت فى نفسى أذكرها وأضحك . . وعندما خرجت أنا وصديقى من المحل أحسست أن الشمبانيا طعمها كالشوربة أم خل وثوم . . والحقيقة أن الفتاة جميلة . . ولم يعجبنى منها إلا تمثيلها . . وأحسست أننى خشبة مسرح وأنها صعدت فوق الخشبة وظلت تدبدب برجليها . . والخشبة ولا هى هنا . . خشبة طبعا!

واقتنعت أننى أتصرف كإنسان غريب، لا عن تمثيل، ولكن عن حقيقة وعن إحساس . . فأنا فعلا غريب فى هذه الجزيرة وفى كل مكان . .

آه لو أعرف كيف لا أكون غريبا . . كيف أكون قريبا لأحد . .

قريبا من أحد . . كيف أكون ابن بلد . . ابن أى بلد . . ابن أى أحد من الناس . . إننى بالفعل غريب، ولا نهاية لغربتى، ولا حدود . .

إن هونج كونج مليئة بالغرباء . . بكل الناس الذين مثلى . . إننا مرتبطون معا بشىء واحد هو أننا غير مرتبطين!

انتهت إقامتى فى هونج كونج . .

وهذا تعبير دقيق . فإقامتى هنا هى التى انتهت . أما إقامة هونج كونج فى نفسى وعلى لسانى وفى عقلى، فلا يمكن أن تنتهى . . فالذى رأيته والذى أحسست به . . والذى دفع صدرى إلى أعلى، وهبط به إلى أسفل، كل ذلك لا يمكن أن يزول . .

انتهت ولا أعرف ما هو الذى انتهى . .

إن هونج كونج لم تعد قريبة من يدى . . وهذا هو معنى النهاية . .

آخر مرة أستخدم فيها كلمة «كأن» هى الآن فقط . . كأن هونج كونج نجفة كريستال معلقة فى السقف، والسقف هو القانون .

فهى معلقة بين القوانين، ولكنها تهتز يمينا وشمالا. فالشعب الصينى هنا قادر على أن يتعلق فى أى شىء ثم يهتز ويتمايل عليه!

ومرة أخرى وأخيرة أستخدم فيها كلمة «كأن»..

كأن كل محاولة من جانب البيض ليختلطوا فيها بالناس الصفر هى مثل محاولة خلط الزيت بالماء.

ومن الغريب أن أهل هونج كونج قد أقنعوا البيض، بأنهم ليسوا كالزيت بالماء وإنما كالعسل بالسمن.

والبيض قد صدقوهم.. ولكن الرجل الصينى هو أرق كذاب فى الدنيا!

اليابان

الأقزام العمالقة!

بعد سبع ساعات بالطائرة من هونج كونج وصلت إلى مطار طوكيو الطائرة ذات المحركات، ولهذا كانت المسافة طويلة . . والذين سافروا بعدى بالطائرة النفاثة لم يستغرقوا أكثر من الوقت الذى تستغرقه وأنت تتناول طعاما من اللحم والسلطة وتنام نصف ساعة فى أثناء الأكل، ثم تنهض منزعجا وتعاود الأكل مرة أخرى . . ثم تروى نكتة بايخة لجارك وتعتذر عنها نصف ساعة . . وعندما يقبل اعتذارك تكون الطائرة قد وصلت إلى أرض طوكيو!

وكانت الساعة الثامنة ليلا . . والسماء كلها ضباب كثيف وأمطار ورياح باردة . . باردة جدا . . لقد صادف وصولى إلى طوكيو وصول «دينا» . . دينا هذه اسم العاصفة التى تجتاح اليابان . . ولسبب خبيث جدا يطلق علماء الأرصاد أسماء النساء على العواصف . .

وقبل هذه العاصفة . . أو صاحبة «العصف» دينا . . كانت هناك عاصفة اسمها شارلوت . .

وعندما نزلت من الطائرة، أعطونى مظلة سوداء لوقايتى من المطر . . وليتهم أعطونى بالطو للوقاية من البرد . . وليتهم استقبلونى بلون آخر غير هذا اللون الحزين . .

كل شىء كئيب . . الجو والمطار - لابد أنه نسبة إلى المطر وليس إلى الطيران - وقلت لنفسى لولا خوفى من أن أفتح فمى فى هذا الجو البارد لتساءلت هيه دى طوكيو؟!

وعندما دخلت المطار وجدت أن المطار فعلا يدل على أننى على أبواب مدينة رائعة كبيرة ضخمة . . المطار هائل . . به أنوار وألوان وأنوار، وحركة وأنوار وناس وأنوار . . لا تتوقف . . لا الأنوار ولا الألوان . . إننى لم أبالغ فى تكرار كلمة الأنوار . . ولكن اليابانيين هم الذين يفعلون ذلك . . وهناك أناس أشكالهم غريبة مختلفة عما تصورت .

فقد كنت أتخيل اليابانيين أقزاما لونهم أصفر، أو أصفر على أبيض، أو أصفرعلى بنى، وتصورت أنهم يلبسون ملابس أخرى. . يلبسون الكيمونو وهو الزى الوطنى. . الحقيقة لم أجد شيئا من هذا. . فاليابانيون طوال بيض اللون. . بل إنهم شقر. . وخدود السيدات كالتفاح. . خدود بارزة حمراء. . وعيونهم كبيرة. . والفرق بين اليابانى والصينى هو أن اليابانى أكثر بياضا وطولا، وعيناه كبيرتان والجفن الأسفل مستقيم والجفن الأعلى نصف دائرى منفوخ. . ومعظم الناس يرتدون النظارات الطبية ومعظمهم لهم أسنان ذهبية. . والوجه اليابانى جميل. .

ويظهر أن بنات الصين وبنات اليابان قد اقتسمن الجمال هنا فى آسيا كلها. . فالمرأة الصينية يتمنى الإنسان أن يراها عارية تماما بشرط أن تضع ورقة توت على وجهها. . والمرأة اليابانية أيضا بشرط أن تخفى ساقيها تحت الأرض. . وإن كانت عين المرأة اليابانية نصف دائرية فإن ساقيها دائريتان وساقيها معوجتان جدا. . وتندهش كيف أن المرأة اليابانية تستطيع أن تمشى. . ولكن المرأة اليابانية تمشى وهى تقفز وتكاد تقع إلى الأمام. . أو تمشى ورجلاها تكادان تلتف الواحدة على الأخرى ثم تسقط على الأرض. . فعندها جاذبية. . جاذبية أرضية. . !

وفى المطار يسألوننا إن كانت معنا سجاير. . لأن لليابان كلها سجائرخاصة. بل الحقيقة أن اليابان عندها كل شىء. . لقد صنعت كل شىء ابتداء من المسمار الذى يوضع فى الحذاء إلى الخيط الرفيع الذى توضع فيه مفاتيح القاطرة الكبيرة. . فاليابان هى المثل الأعلى للدولة التى تعتمد على نفسها. والتى تصنع كل شىء بأيدى أبنائها، وتبيعه فى كل مكان فى العالم. ولها سمعة هائلة. .

والطريق من المطار إلى الفندق مظلم جدا، والشوارع خالية من الناس. . السيارة التاكسى التى تنقلنا كاديلاك وبها مدفأة. ولكن البيوت كلها قديمة وكلها من طابق واحد، وربما كان السبب هو وقوع الزلازل والبراكين. . ففى اليابان ١٩٨ بركانا نصفها مازال نشطا. . والقانون هنا يمنع بناء العمارات الكبيرة إلا بشروط قاسية، حرصا على سلامة الناس. واندهشت جدا عندما عرفت أن أهل طوكيو قد ناموا، وكانت الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف، والسبب هو أن «دينا» كانت قاسية هذه الليلة ولكن فى ا ليوم التالى سيكون الجو صافيا.

* * *

وطوكيو أكبر مدينة فى الدنيا، فعدد سكانها هى وضواحيها ١٥ مليونا وفنادقها الكثيرة مزدحمة بالناس. . فهناك نشاط تجارى وسياسى ونشاط دولى. والحصول على غرفة فى أى فندق يعتبر عملا من أعمال البطولة.

الحقيقة لم تبهرنى طوكيو، وأحسست بكثير جدا من خيبة الأمل وحسدت اليابانيين على براعتهم فى الدعاية لبلادهم، بلاد الشمس المشرقة. . ويظهر أن الشمس تشرق هنا فوق السحاب فقط!



لم أجد أى شىء يابانى بالمعنى الحقيقى، فيما عدا شيئا واحدا. . وهو أننى عندما دخلت الفندق وجدت ثلاث فتيات قد ارتدين الكيمونو وانحنين انحناءة تامة ـ فى حالة ركوع تقريبا ـ وفهمت أن هذه الانحناءة لشخصى. على إيه؟ لكن هذه هى التقاليد. كل إنسان ينحنى لإنسان مرة أو أربع مرات فى لحظة واحدة، وفى المطار لا حظت أن الناس رجالا ونساء يلتفون حول بعض المسافرين وينحنون جماعة ـ كالصلاة تماما ـ وهذه الفتاة قدمت لى الشبشب ونزعت حذائى وتركته أمام الباب. . والشبشب يجب أن أتنقل به من مكان إلى مكان فى داخل الفندق وأخفى حذائى لتنظيفه فى الحال ووضعه فى مكان أمين حتى الصباح. وفى غرفتى وجدت الكيمونو نفسه على شكل «روب» صغير ألبسه فوق البيجاما. . وعرفت بعد ذلك أن الروب يجب لبسه بلا بيجامة. . وهذا ما لا أستطيعه، فالدنيا برد. . زمهرير. .

نسيت أن أقول إنهم سألونى فى الفندق: هل تريد حجرة يابانية أو أوربية؟ فقلت: أوربية.

فقد لاحظت أن اليابانيين لا يرتجفون مثلى. وخشيت أن تكون الغرفة اليابانية فوق السطوح وأن يكون النوم بلا غطاء أو بغطاء على أن تبقى النوافذ مفتوحة.

وفى اليوم التالى عرفت أن الغرفة اليابانية أصعب بزمان. . فالنوم مثلا فوق مرتبة على الأرض، والطعام على منضدة صغيرة جدا. وإذا أكلت يجب أن تجلس على ركبتيك. وإذا جلست يجب أن تجلس على قرافيصك. والتقاليد تقضى بأن تشرب الشاى الأخضر فى كل وقت. والشاى الأخضر من غير سكر. . وهو مجانا!

وتمنيت أن أرى شيئا يابانيّا لم أكن أعرفه. . وليس من المعقول أن أصل إلى اليابان فى

الليل، وأظل جاهلا حتى الصباح، أنزل من الطائرة لأصعد فوق سرير وأبقى كذلك حتى الصباح . . فطلبت عشاء يابانيا وسألونى عن نوع الأطعمة، ولما كنت لا أعرف فقد طلبت من مدير الفندق - البواب هنا - أن يختار لى طعاما على ذوقه هو .

وانتظرت المفاجأة. ودخلت فتاة بالكيمونو وانحنت جدا جدا . . ووضعت المنضدة وانحنت جدا جدا، وخرجت ودخلت فتاة أخرى وانحنت فى دخولها وخروجها، ووضعت فنجانا من الشاى الأخضر . ودخلت فتاة ثالثة صغيرة ووجهه حلو وانحنت بالقوى وقدمت لى فوطة ملفوفة بالماء لأغسل يدى، وفوطة أخرى ساخنة لأغسل يدى .

وبعد ذلك دخل المدير وانحنى ووضع أكوابا - عرفت فيما بعد أنها أطباق - وفى الأكواب ألوان سائلة خضراء وحمراء وصفراء . . وحمراء وصفراء وخضراء، وعرفت فيما بعد أن هذه شوربة الخيزران الأخضر، وهذه قواقع بحرية وهذه أذيال ثعابين مائية، وهذا جمبرى محمر بقشره وبرأسه وشواربه كاملة، وهذا أرز مسلوق معجون وليس به ملح، وهذه سلطة خضراء من اللفت والكرنب - وقد عرفت فيما بعد أنه خس - وقطعة من الجبن المدخن، ثم هذا طبق من السمك .

ولسبب غير مفهوم قررت أن آكل هذه الأشياء جميعا . . وقد نسيت هذه الأكلة وتعمدت أن أنساها ولا يذكرنى بها الآن إلا بعض زجاجات الفيتامين «يو» وبعض الأنتروفيوفورم . . لقد ظلت بطنى تمغص أسبوعا كاملا . . كأن بعضها ينفخ النار على بعض . . ولزمت الفراش وكلما سمع أحد اليابانيين ذلك يندهش . . كيف أجرؤ على أكل هذه الأشياء كلها مرة واحدة . .

وعرفت أن المشكلة هنا فى اليابان هى مشكلة اللغة : فمدير الفندق لم يفهم كلامى . . فأنا طلبت بعض الأطعمة اليابانية لا كل الأطعمة اليابانية . . لم أطلب اللبن والسمك والتمر الهندى والضفادع والثعابين .

والخلاصة، أن استقبال طوكيو لشخصى كان سيئا جدا . . وكل يوم أرى طوكيو أجمل وأروع، كأنها هى الأخرى حريصة على محو هذا الأثر .

وقد نجحت - هى وأنا - فى ذلك .

وإليك على سبيل التسلية هذه الألغاز :

١ - فى الشارع ستجد فتيات قد وضعن كمامات على الأنف وعددهن كثير جدا . .

وستجد فى كثير من محلات الحلاقة رجالا قد وضعوا نفس الكمامات!

٢ ـ تجد شبابا فى ملابس رعاة البقر وقد وضعوا التيجان المذهبة على الرأس، وأمسك كل واحد منهم عصا عليها بعض الزخرفة والأرقام . . !

٣ ـ فى الليل ستجد فتيات جميلات يمشين ببطء شديد جدا ولا تلتفت الواحدة منهن يمينا أو شمالا ولكن فى فمها صفارة لها صوت حزين جدا!

٤ ـ أصوات سيدات يضربن الأرض فى أثناء السير.

٥ ـ بالونات طائرة فى سماء طوكيو. والبالونات يمسكها أطفال فوق الأسطح.

٦ ـ كل فتاة تحمل على ظهرها شبه مخدة صغيرة . . !

٧ ـ طوابير من الشبان . . عشرات الألوف بملابس عساكر البوليس السوداء . . الچاكتات ضيقة ولها زراير نحاسية ولها ياقات تلتف حول العنق. كلهم صغار ومعهم فتيات جميلات . . ومن بين الفتيات واحدة تجرى مسرعة وتتوارى بين الشبان . . مع أن السبب تافه جدا . . !

«اقرأ حل الألغاز فى نهاية هذا الفصل» . .



لاحظت أن اليابانى لا يستطيع أن يفكر فى شيئين فى وقت واحد. فإذا دخلت على يابانى فى مكتبه وكان يتحدث فى التليفون فإنه لا يمكن أن يراك أو يسمعك أو يلتفت إليك . . وإذا حاولت أن تنبهه، كان من الصعب عليه أن ينتبه إليك . . وإذا تنبه إليك فبصعوبة جدا وفى هذه الحالة ينسى ا لتليفون . . إنه يقوم بشىء واحد فقط فى وقت واحد.

وإذا كنت قادما من هونج كونج، فسترى الرجل اليابانى بطيئا جدا جدا!

وإذا كنت قادما من الهند فستراه سريعا جدا، ذكيا جدا . .

وإذا كنت قادما من الفلبيين فستراه حزينا بليداً . .

وإذا كنت قادما من إندونيسيا، فستراه أشقر اللون عملاقا.

والحقيقة أن الرجل اليابانى يتقن عمله جدا ولا شىء يتم هنا بسرعة . . ولكن من

المؤكد أن كل شيء يتم . . ويكفى الرجل اليابانى فخرا أن كل شيء فى بلده قد صنعه . . البيت والمطعم والفندق والشارع والمحطة والمطار . . السيارة والبدلة والحذاء وعقد اللؤلؤ وسلاسل البوابات . . واليابانى له ذوق جميل ، إنه أستاذ فى فن العرض والدعاية . . والإعلانات فى طوكيو فن رائع . . ومدينة طوكيو فى الليل يجب أن تراها أكثر من مرة . . ترى الناس ، وهذا معرض حى . وترى الفترينات وهذا معرض فاتن . . ثم الإعلانات الملونة ، إنها مدهشة . . ولا يجب أن تستغرق فى النظر والتأمل وإلا أطاحت بك إحدى السيارات . . فسائقو السيارات هنا كلهم كانوا طيارين فى الحرب الأخيرة وكانوا من الفدائيين . . !

والسيارة صنعوها والقاطرة والراديو الصغير . كل هذا صنعوه . . وفى عشر سنوات . .

والسيارة معناها عشرات الصناعات : صناعة الحديد والزجاج والطلاء والمصابيح والقماش والجلد . . ثم النقل والدعاية والبيع ، والشراء والتصليح والتسويق .

ويمكن أن يقال : لا جديد تحت شمس اليابان . . فكل شيء هنا قد اقتبسه اليابانيون من بلاد أخرى . . كل شيء أخذوه عن الدول الأخرى وحسنوه وجملوه وصدروه إلى الخارج وباعوه أصغر وأرخص وأكثر من البلاد التى اقتبسوه منها .

والرجل اليابانى ليس مخترعا ولكنه مقلد عبقرى . . إنه مقتبس . . إنه يترجم ويتصرف . . إنه بلغة الصحف «مراجع» . . يعيد كتابة الموضوعات ويضع لها العناوين ثم يعرضها فى الإطار المثير . . إننا لا نذكر من الذى اخترع الراديو الصغير . . إنهم ليسوا اليابانيين . . ولكن اليابان أصبحت هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تفخر بهذا الجهاز وتبيعه فى كل مكان وبأسعار رخيصة . . والأسطوانات وأجهزة التسجيل وأجهزة التليفزيون . . كل ذلك صناعة يابانية .

واليابان هى المثل الأعلى للدولة التى تقف على قدميها وتضع هاتين القدمين فوق أكتاف الآخرين . والمثل يقول : إن القزم من الممكن أن يرى أكثر من العملاق إذا وقف على كتفيه .

وقد وقفت اليابان على أكتاف الدنيا . . والمهم أنها وقفت وأنها تفوقت . . كل ذلك فى ٤٠ سنة ، وبأيدى مائة مليون من أناس مهذبين ، ونشيطين ، ومتقشفين أيضا .

ونحن فى القاهرة نبكى ونلطم خدود الأمانة والصدق . . والفضيلة والشرف عندما يقتبس فنان لحنا موسيقيا أو يقتبس فكرة مسرحية . . ونقول : أمسكوا الحرامى!

إن مائة مليون من المواطنين هنا يسخرون من هذه «الحذلقة» وهذه «الحنبلة» وهذه الفرامل التى تؤخرنا وتربطنا بحبال من الخوف والتردد . فاليابان لم تترك شيئا جميلا أو جديدا فى الدنيا لم تنقله ولم تعمل مثله . بل إن اليابانيين قد تفوقوا على أساتذتهم . .

وهم يعترفون بذلك ويضحكون ، ولكنهم لا يخجلون . .

قال لى فنان يابانى أمس : إن جمهوريتنا العربية ستعرض هنا مجموعة من التماثيل الفرعونية الثمينة ، وحذرنى من المغامرة الخطيرة . ثم قال وهو يضحك إننا نستطيع أن نقلدها ، فيصعب عليكم أن تفرقوا بين الأصل والتقليد . .

وقال أيضا . . إن حكومة كوريا تطالبنا بإعادة التماثيل التى أخذناها منها وسنردها .

وقلت : الأصل أم التقليد ! !

فقال : الأصل . . والتقليد سيظهر فيما بعد .

ويقال : إن الألمان عندما أقاموا معرضهم الأخير فى ألمانيا منعوا اليابانيين من دخوله حتى لا يقلدوا المعروضات فيملئوا بها أسواق ألمانيا قبل أن ينتهى المعرض!

وفى طوكيو شارع اسمه جنزا . . إنه لؤلؤة . . شارع جميل طويل عريض . . كل شىء فيه جديد رغم أن الحرب قد هدمته كله .

إنه يشبه شارع بيت فى سيدنى وشارع أكسفورد فى لندن . . وشارع الشانزيليزيه فى باريس ، وشارع كورسو فى روما ، وشارع رنج فى ڤيينا ، وشارع كورفير ستندم فى برلين ، وشوراع سليمان باشا وقصر النيل وعماد الدين فى القاهرة .

وفى استطاعتك أن تدخل أى محل وتقلب فى البضائع كما تريد ، والناس يبتسمون لك سواء اشتريت أو لم تشتر . . ولكن اللغة هنا مأساة . . ففى اليابان ٢٢٠ جامعة من بينها ٢٧ جامعة فى طوكيو . . ونسبة التعليم ١٠٠٪ ، ولكن اللغة الإنجليزية من النادر أن تجدها على لسان اليابانى وإذا وجدتها على لسانه فلن يسمح لها بدخول أذنه . . وإذا دخلت فليس معنى ذلك أنه فهم شيئا . .

ولو دخلت محل فكهانى تحس أنه لا يبيع فاكهة ، إنما يبيع قطعا من الماس أو اللؤلؤ . .

نظيف جدا وإذا اشتريت فسيلف لك التفاح الكبير والعنب الكبير جدا فى ورق ملون جميل. . واللفة نفسها أنيقة. وكانت اللغة بيننا بالإشارة: عاوز من ده. . بلاش دى. . هات دى. .

وبعد أيام من بقائى فى طوكيو تعودت أن أتأمل. . أن أرى ولا أتكلم. . وتذكرت القصة اليابانية التى تقول: إن ملكا طلب من أحد الرهبان أن يربى له ديكا ليشترك به فى مصارعة الديوك، وبعد عشرة أيام سأله: كيف حال الديك؟

فأجاب الراهب: إنه لم يعد يصيح!

وبعد عشرة أيام أخرى سأله الملك: كيف حال الديك؟

فقال الراهب: إنه الآن ينزعج من صياح الديوك الأخرى!

وبعد عشرة أيام سأله الملك: والآن؟

فقال الراهب: إنه الآن قد تخلى عن غروره!

وبعد عشرة أيام سأله الملك: ماذا حدث له الآن؟!

فقال الراهب: إنه الآن يلزم الصمت، يقف متحجرا وعيناه جامدتان ولا يشعر بأحد ولا يريد أن يأكل أو يشرب. . إن أى ديك آخر سيفزع إذا نظر إليه!

وأنا لم أكمل العشرة الأولى. ولكن أى إنسان آخر يرانى فسيفزع منى، فإننى أمشى كالديك مختالا متأملا غارقا فى التفكير!

وهذا هو الحل!!

١ ـ كل هذه الفتيات مصابات بالزكام وقد وضعن الكمامات حتى لا تنتقل العدوى إلى الآخرين. . أما الرجال فلسبب بسيط جدًا هو أنهم يحلقون ولا يصح أن يشم الزبون رائحة أنفاس الأسطى.

فى الهند من الممكن أن تجد هذه الكمامات ولكن لسبب آخر وهو خوف بعض الهنود أن يقتلوا الميكروبات فى أثناء الفقس!

٢ ـ هؤلاء الشبان يعلنون عن المحلات التجارية. . والزخرفة هى حروف يابانية والأرقام هى أسعار أشياء لم أعرف ما هى.

٣ ـ هؤلاء السيدات يقمن بأعمال التدليك. وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يعلن بها عن أنفسهن . . معظم هؤلاء النساء ضريرات.

٤ ـ قباقيب السيدات . . أو الأحذية اليابانية وكلها مثل البيوت مصنوعة من الخشب.

٥ ـ هذه البالونات هى إعلانات أيضا عن المحلات التجارية . . أما الأطفال فيحركون البالونات أو يحرسونها حتى لا تنفجر أو حتى لا تهبط إلى الأرض فيلتقطها أحد السياح على سبيل الذكرى أو الاستخسار.

٦ ـ هذا جزء من الكيمونو وهو الزى القومى فى اليابان . . وهذه المخدة لكى ترتكز بها على الحائط عندما تجلس على ركبتها عند الأكل أو عند الجلوس العادى.

٧ ـ هؤلاء جميعا تلامذة مدارس . . فطلبة المدارس لهم زى موحد . . وهو الأسود . . أما هذه الفتاة فهى تعمل فى الفندق الذى أنزل به وقد ضبطتها مرة تحاول قراءة كتاب فوق سريرى . . وابتسمت أنا . . ولكنها شعرت أنها ارتكبت جريمة . .

وكلما حاولت إقناعها بأن هذا الشىء تافه جدا . . وأحاول أن أعتذر لها عن الكتاب الذى أفسد ابتسامتها الحلوة التى كنت أراها كل صباح! فإنها تهرب منى . . وتختفى فى الزحام . . ولكنى أحاول اللحاق بها ولم أفقد الأمل!

نزلت أمطار الخريف!

قبل أن أسافر إلى اليابان قرأت كل النشرات الجوية . . وكل مجلات الدعاية اليابانية الأنيقة . . كلها تقول الجو صحو . . السماء صافية . . أمطار خفيفة على الساحل . . الشمس مشرقة . . فهنا بلاد الشمس المشرقة . . وهذه أخبار سارة جدا .

وارتديت ملابسي الصيفية ـ وكل ملابسي صيفية ـ ودهشت عندما رأيت بعض المسافرين من هونج كونج إلى اليابان يحملون البالطوات الشتوية وبعضهم يحمل المظلات ، ورأيت كل الفتيات قد ارتدين البلوفرات . فأمد يدي إلى النشرات اليابانية وأقرأ من جديد . . وأسأل المضيفة اليابانية عن الجو في اليابان فتقول : إنه رائع . . إن هذا هو الموسم السياحي . . وإنني وصلت في الوقت المناسب . .

وفعلا عندما وصلت إلى طوكيو كان الوقت المناسب لسقوط الأمطار وامتلأت الشوارع بالأوحال . . و كان المطر ينزل ، كأنه فتافيت الثلج . وأحسست أنني خدعت للمرة الثانية . المرة الأولى عندما سافرت إلى أستراليا في سبتمبر . . قرأت نشرات الدعاية وكانت هي الأخرى تعلن أن الربيع في أستراليا على الأبواب ، وأن الحرارة قد ملأت كل مكان وأن السائح ليس عليه إلا أن يرمي ملابسه في المطار ، وإلا أن يرمي نفسه على رمال الشواطئ في مدينة سيدني . . وعندما وصلت إلى أستراليا أحسست أن الطيار قد هبط في القطب الجنوبي . وتوقعت أن أرى عربات الإسكيمو . وأن تكون المضيفات من الدببة ذات الفراء الأبيض الفضي . .

ولكن المفاجأة أكبر مما تصورت . . لقد وجدت الناس في أستراليا وقد ارتدوا ملابس الصيف رغم البرودة!

وعندما هبطت مطار طوكيو أحسست كأنني هبطت مطار سيدني . . وبدأت أتلمس

الجانب الأيسر من صدرى ومن بطنى . . كلها توجعنى . . وخز . . وضرب ، كأن هناك من يضربنى مرة بالمنجل ومرة بالمطرقة . . وبعد ذلك أحسست بالألم يشيع فى كل جسمى . . وكلما سألت أحد اليابانيين عن الجو العجيب قال لى ما معناه : احمد ربنا . . لو جئت هنا فى الصيف لمت من شدة الحر . .

وسألت إن كانت طوكيو التى تقع فوق خط ٣٥ أكثر حرارة . . من جاكرتا التى تقع على خط ٦ وعلى مستوى البحر . . فأجابوا جميعا : إن اليابان أكثر حرارة. ولكننى لم أصدق فدرجة الحرارة فى مدينة جاكرتا فى الثامنة والنصف صباحًا تساوى درجة الحرارة فى القاهرة فى الواحد من بعد الظهر فى شهر يوليو . . ودرجة الرطوبة فى جاكرتا ١٠٠٪ ولكن اليابانيين هنا يعتقدون أنهم فى أحسن فصول السنة . . ويحاولون إقناعى ويحاولون أن يفرغوا جيوبى من الأسبرين ومن الفيتامينات : سين وجيم . . وباء . . ويحاولون أن ينزعوا الفنلات الطويلة والبلوفرات الثقيلة .

وعندما ذهبت إلى سفارتنا وجدت السفير فى ملابسه الصيفية . . وكل موظفى السفارة حتى الساعى . . كلهم فى الملابس الصيفية . . ولم يعد هنا شك فى أن الجو فى طوكيو حار كما تقول النشرات . . ولكن العيب فى جسمى الذى لم يعد قادرا على مقاومة البرد . .

مسكين قلبى هذا . . إنه كان قبل ذلك يشبه المضخة الكبيرة التى تدفع الدم لا إلى جسمى فقط ، ولكن إلى جسم أى إنسان آخر يجلس على مسافة شبر منى . . أما اليوم فهو يشبه «جلدة القطارة» . . لا يدفع الدم إلا قطرة قطرة . . إلا دمعة دمعة . . فجسمى فى حرارة دمعة العين!



لا أعرف بأى شىء كانت تشتهر اليابان فيما مضى . . كتب الجغرافيا التى درسناها كانت تقول : إنها بلاد الشمس المشرقة . ولأهلها عيون منحرفة ، ويلبسون الكيمونو ، ولهم ملك اسمه الميكادو بن السماء ، وهم يعبدون الشمس وعندهم براكين وزلازل ، وبيوتهم مصنوعة من الخشب ، ويزرعون الأرز ، ويعيشون على السمك . . إلخ . .

كل هذا الكلام صحيح ، ولكن اليابان أكثر من ذلك وأحسن وأعظم . . فبلادهم اليوم تشتهر بأشياء أخرى . . والذى لم ير اليابان ، وإنما سمع عنها يعرف أن اليابان هى بلاد الراديو الصغير واللؤلؤ . .

وإذا كان هناك فى بلاد أخرى مثل مانيلا أو سنغافورة أو هونج كونج من يقترب منك ويهمس فى أذنك: مش عاوز بنت حلوة.

فإن هذا يحدث فى اليابان أيضا ولكنهم يسألونك: مش عاوز سونى . . سونى جميل . .

وسونى هذا هو اسم أكبر شركة لصناعة الراديوهات الصغيرة . . وأحسن راديو ثمنه الآن عشرة آلاف ين . . أى حوالى عشرة جنيهات . .

والراديوهات الصغيرة هنا تباع فى كل مكان . . فى محال الأقمشة ومحال الحلوى ومحال السجائر.

والشيء الآخر الذى يلفت السائحين هنا فى اليابان هو اللؤلؤ، فاليابان تستخرج اللؤلؤ من البحر وتعمل على تربية اللؤلؤ أيضًا . . فعندها لؤلؤ طبيعى، ولؤلؤ صناعى . .

والعقد من اللؤلؤ الذى يلتف حول العنق مرة ومعه الحلق والخاتم . . ثمنها جميعًا ١٨ جنيهًا . . والعقد من اللؤلؤ ذى الحبات الكبيرة ويلتف حول العنق مرتين ويتدلى إلى ما يقرب من الصدر ثمنه أربعون جنيهًا . . طبعًا فى القاهرة يساوى ثلاثة أمثال هذا السعر . . أو أكثر!

ومن النادر أن نجد يابانية قد ارتدت عقدا من اللؤلؤ . . إنها تكتفى بخاتم . . والسبب هو أن اللؤلؤ غالى الثمن بالنسبة لليابانيات فمستوى المعيشة هنا مرتفع . . ولكنه أرخص من الفلبين.

وأشهر محل لبيع اللؤلؤ هو محل ميكوموتو الذى اخترع تربية اللؤلؤ . . والمحل يعرض بكل تواضع فى شارع جنزا ما يساوى عشرة ملايين جنيه من اللؤلؤ فى فترينات بسيطة جدا وغير ملفتة للنظر أيضًا.

وبعد ذلك ففى اليابان كل شيء آخر . . كل شيء صنعوه لنا . . وصغروه وأضافوا إليه الكثير من ذوقهم . . واليابانيون برعوا فى «لف» السلع . . فقد تشترى قطعة من القماش أو لعبة بجنيه مثلا أو أقل من جنيه فتجد البائع اليابانى قد لفها لفا أنيقا حتى ليصعب عليك أن تترك الورق والعلبة التى وضعت فيها قطعة القماش.

وإذا اشتريت من الرجل اليابانى بضاعة بألف جنيه. أو بعشرة قروش فإنه ينحنى لك فى أدب كأنك جئت تشترى المحل كله . .

وقد حدث أن أعجبنى أحد المحلات فدخلت فى الزحام أتفرج على المحل، ووقف إلى جوارى صاحب المحل فى أدب وانحنى انحناءة كبيرة فهززت له رأسى. . وقلت له إننى معجب بنظام المحل وأنا جئت أتفرج فقط. . فانحنى الرجل شاكرا وتركنى. . وبعد لحظة جاءت فتاة ووقفت إلى جوارى بعد انحناءة كبيرة فقلت لها نفس الكلام. . فقالت إنها تعرف ذلك ومن أجل هذا جاءت تساعدنى على رؤية المحل كله. . والحقيقة أننى انكسفت فاشتريت بكرة خيط. . أى حاجة!

والانحناءة تلاحقنى من اليمين والشمال. . وذهبت لأدفع ثمن البكرة؛ فانحنى الرجل ورفض أن يقبل ثمنها، وقال إن هذه هدية من المحل. .

ولم أفهم السبب. وحاولت أن أردها ولكنه رفض فى انحناء. . فأخذتها. . ماذا أعمل. . إنهم مؤدبون أكثر من اللازم. .

بنات الجيشا

هناك طريقتان لكى تعرف اليابان :

الأولى أن تقرأ كل نشرات الدعاية التى توزعها السفارات .

والثانية أن تذهب إلي اليابان نفسها ، لتعرف أن نشرات الدعاية متواضعة جدا . فاليابان أروع وأعجب مما تتصور ، ففيها التليفزيون الملون . وفيها أحدث عدسات التصوير ، وفيها القباقيب ، وفيها يأكلون السمك نيئًا ، ويشربون الشاى مرًّا إلا فى يوم ٨ إبريل من كل عام وهو عيد ميلاد الإله بوذا . وفيها أناس يعلقون المقشات على الأبواب ، فالمقشات تكنس الشرور والأمراض . وفيها سيدات ينثرن الملح بعد زيارة أى ضيف . وفى اليابان شركة طيران يابانية وفيها مضيفات يرتدين الكيمونو . وفى اليابان كل الأمهات يحملن الأطفال على الظهر حتى الثانية من عمرهم ، فتلتوى ساقا الطفل ، «تتعوج» عيناه ، ويصبح صدر الفتاة الصغيرة «مطبقًا» ليس فيه أثداء . . وفى اليابان أجمل فنادق الشرق الأقصى ، كله ، وفيها تنام على الحصر اليابانية الناعمة . وفى اليابان الدقة فى العمل ، وفيها البطء الشديد جدا فى الفهم . . ورغم الاحتلال الأمريكى الذى استغرق أكثر من عشرين عامًا ، فإن أكثر اليابانيين لا يعرفون من اللغة الإنجليزية إلا كلمة «توالت» . . وهى الكلمة الوحيدة التى تجدها بوضوح فى كل فندق وفى كل محطة سكة حديد . .

وقد تعلمت كلمة يابانية أخرى اسمها «بفمو» ومعناها «توالت» . وعرفت فيما بعد أنها كلمة فلاحى جدًّا وهى تشبه الكلمات الريفية التالية : «المستراح» أو «الكرسى» أو «المحل» أو «الكنيف» أو «بيت الراحة» . . وكلها معناها التواليت طبعًا ، ولذلك عدلت عن هذه الكلمة ورحت أستخدم الكلمة الأوروبية . واكتشفت بعد ذلك أن اليابانيين لا يفهمونها

أيضًا، ولكى يفهموها يجب أن أنطقها بشكل خاص، وبالطريقة التى ينطقونها بها، وإلا . .

* * *

وفى اليابان يعبد الناس الشمس والجبال، وقد رأيت فيلمًا يحكى قصة الشعب اليابانى وكيف أنه أنزل من السماء، وأن الشمس هى التى خلقت أبناء اليابان . . وأنهم أبناء الشمس الطالعة . . وأن «اليابان» وهى باللغة اليابانية معناها «نيبون» أو «نيهون» ومعناها : الشمس المشرقة . . فاليابان هى بلاد الشمس المشرقة . والناس هنا يقدسون الجبال والبحار . . وجبل فوجى يشبه جبل الأوليمب الذى كان يسكنه آلهة الإغريق ويتحكمون فى مصير العالم . فقمة الأوليمب وقمة فوجى هما مقر الآلهة . . ويندهش الناس هنا كيف أن الأجانب يتحدثون عن الجبال دون أن يحتشموا فى كلامهم أو يجعلوا عباراتهم تنحنى فى أفواههم قبل أن تخرج .

وهناك حادثة مشهورة منذ مائة سنة عندما حاول أهل هذه المنطقة أن يقتلوا السفير البريطانى لأنه صعد إلى قمة جبل فوجى دون أن ينزع حذاءه، ودون أن يحنى قامته الطويلة عند كل خطوة يخطوها .

وابن بطوطة يحكى أنه هو الآخر عندما ذهب إلى جبل آدم فى جزيرة سيلان لاحظ أن الناس هناك قد غضبوا منه؛ لأنه لم يظهر الاحترام الكافى لقمة آدم . . وهو المكان الذى وطئته قدم أبينا آدم عندما نزل من الجنة!

وهؤلاء اليابانيون كانوا يعبدون الإمبراطور . . وكان لقب الإمبراطور هو ابن السماء . . والديانة اليابانية واسمها «الشنتوية» تقوم على تقديس الشمس وتقديس ابن الشمس وتقديس رغباته وتقديس كل حاكم وكل أب وكل جد وكل ما هو قديم . . ولذلك كان الإمبراطور إلهًا، فكانت رغبات الإمبراطور فرضًا مقدسًا . . وقد اعتمدت الحكومات اليابانية على هذا الدين وسخرت الشعب اليابانى فى خدمة أغراض الإمبراطور، ونظمت الجيوش واعتمدت على كل الشعوب المجاورة لها .

ولو رأيت أهل اليابان ورأيت رقتهم وأدبهم ودقتهم، وإخلاصهم فى العمل وتفوقهم فى كل شىء، لاندهشت . . كيف كانوا وحوشًا فى الحرب الماضية والتى قبلها . . لقد سمعت قصص الوحشية اليابانية فى إندونيسيا وفى الفلبين وفى سنغافورة وفى هونج كونج وفى الصين وفى الملايو وفى ڤيتنام وسمعت، وأنا فى أستراليا، فزع الناس من العدوان

اليابانى، وسمعت عن الوحشية اليابانية فى جزر هاواى . . سمعت ذلك من اليابانيين المقيمين هناك .

ولكن دين اليابان يأمرهم بطاعة الإمبراطور الذى هو ابن الشمس . . وقد أمرهم الإمبراطور أن يحاربوا . فحاربوا . وأن يقتلوا وأن يذبحوا وقد فعلوا كل هذا . . لأن طاعة الإمبراطور من طاعة الله . . واليابانيون فدائيون جدا . وبعد الاحتلال الأمريكى تغير كل شىء، لم يعد الإمبراطور إلهًا . . لقد رأيت الإمبراطور يفتتح دورة رياضية فضجت السينما بالضحك من الإمبراطور وهو يتهته (على فكرة : التقاليد فى بريطانيا تقضى بأن الملكة أو الملك لا يلقى خطاب العرش لأن ملوك بريطانيا كانوا من أصل ألمانى وكانوا لا يعرفون الإنجليزية وكانوا يخشون أن يشعر الشعب البريطانى بأنهم أجانب . . والملك فاروق آخر ملوك مصر كان يلقى خطاب العرش أما أبوه الملك فؤاد فلم يكن يفعل لأن لغته العربية مكسرة!)

وقد نشرت الصحف أن الإمبراطور فى إحدى الحفلات سقطت من يده زجاجة شمبانيا لأنه يرتجف ولأنه مريض . . وقد سمعت المرشدة السياحية تسخر من الإمبراطور وتقول : إنه لم يعد إلها . . وسمعتها تقول علنًا : إن الشعب اليابانى يدين بشيئين لأمريكا : تحرير العقيدة وتحرير المرأة ، فلم تعد هناك ديانة رسمية للدولة ولم تعد المرأة خادمة للرجل .

ومع ذلك؛ فإن اليابانيين يكتبون كل يوم ، فى كل الكتب والصحف والخطابات التاريخ الإمبراطورى . . فالعالم كله الآن يمشى على التاريخ الميلادى أو الهجرى . . أما فى اليابان فهم يقولون : نحن فى السنة الرابعة والثلاثين . . أى السنة الرابعة والثلاثين لحكم هذا الإمبراطور ، وعندما يموت هذا الإمبراطور ويخلفه ابنه يصبح اليابانى هكذا : نحن فى السنة الأولى للإمبراطور رقم ١٢٥ ، ولم يغير اليابانيون هذا التاريخ بعد!

كان الإمبراطور محرمًا على كل الناس لا يلمسه أحد ، ولا يسلم عليه أحد . . والناس لا يرونه ، لأنهم يخشونه دائمًا . . وقطار الإمبراطور عندما يمر على المحطات ، فإن كل البيوت يجب أن تقفل النوافذ ويجب ألا يكون فى العاصمة بيت أعلى من القصر الإمبراطورى . والإمبراطور يرتدى ملابسه مرة واحدة ثم ينزعها ويهديها إلى أشد المخلصين له!

ستجد اليابان أعجب جدا مما تقول كتب الدعاية، وستجد أن الشعب اليابانى متقدم جدا ومتواضع جدا ومتأخر جدا، ومغرور جدا . .

واليابان أربع جزر صغيرة هى: هوكيدو وهونشو وتوجد بها العاصمة وكيوشو وشكوكو . .

وليس فى اليابان جاهل واحد . . والتعليم إجبارى حتى آخر المرحلة الثانوية. وكنت أتصور أن السويد هى أرقى بلاد العالم، ولكن الأرقام تقول إن بها ١٪ لا يقرءون ولا يكتبون. تصور! . واليابان فى مقدمة شعوب آسيا وفى مقدمة شعوب العالم كلها. وكثيرون جدا جدا من خريجى وخريجات الجامعات يكنسون الأرض ويمسحون البلاط. عندنا فى مصر ٥٠ ٪ أميون . .

قابلت شابّا يعمل فى مطعم متواضع جدا فى طوكيو، وقد انحنى على حذائى ينظفه وتركت له الحذاء، وانحنى على شبشب يقدمه لى . . ثم أسرع وأتى بمخدة ووضعها ورائى، وجلس على ركبتيه وفى يده ورقة يكتب ما أريد من الطعام، والشاب مهذب ورقيق ويعرف بعض الإنجليزية وعرفت فيما بعد أنه خريج كلية الحقوق وأن مرتبه خمس جنيهات. وأن مثله عشرات الألوف.

وهنا فى اليابان لا يرون من الضرورى أن الطبيب يعمل طبيبًا، ولا دارس القانون محاميا، ولا المهندس مهندسًا . . وإنما هو يدرس ما يعجبه أو ما يستريح له، وبعد ذلك يبحث عن أى عمل.

ويكفى أن يرى السائح الأجنبى مدينة طوكيو ويرى شوارعها الواسعة ومحلاتها الأنيقة المتوهجة، ويكفى أن يرى النظافة والنظام، وأن يتطلع إلى الناس كلهم فى ملابس ملونة وصحة جيدة، ووجوههم لا تكف عن الضحك . . والضحك هنا علامة من علامات الأدب والاحترام. وكلما أمعن الواحد منهم فى الضحك وهو يتحدث إليك، كان معنى ذلك شدة اهتمامه بك، حتى إذا لم يفهم ما تقوله أنت، وكل الناس هنا يضحكون لك . . فى طوكيو وفى الريف . . بل هم فى الريف يضحكون أكثر وأكثر.

لقد كنت فى مدينة «توبا» فى جنوب اليابان وهى مدينة صغيرة، ونزلت فى أحد الفنادق، لا أحد فيه يعرف لغة أخرى . . وكلما تحدثت مع خادمة - كل الفنادق تديرها الفتيات الصغيرات - أغرقت فى الضحك . . كلما حاولت أن أفهمها بالإشارة ما أريد ضحكت، وراحت تأتى بزميلاتها . . وفوجئت بأن كل الخادمات قد وقفن طابوراً

يضحكن على الحاوى ـ الذى هو أنا ـ وأنا أمسك الكوب الفارغ وأحاول أن أشرب وأصرخ من شدة البرد . . وبالاختصار أريد أن أقول لها : عاوز أشرب شاى . .

وإذا سافرت إلى نجازاكى أو هيروشيما ـ وهما المدينتان اللتان ضربتا بالقنابل الذرية ـ فلن تصدق عينيك . . فكل شىء جديد . . العمارات والمحال والشوارع ، حتى الناس قد ولدوا وتربوا وكبروا وتعلموا فى أماكن أخرى وعادوا إلى الحياة من جديد .

هذه اليابان كلها هدمت ، أحرقت . . ضربت فى الحرب الماضية . . ولكن اليوم كل شىء جديد . . كل شىء صنعه اليابانيون بأيديهم وبأموالهم وبذكائهم وذوقهم ، وهم أصحاب ذوق جميل . .

وشىء واضح تجده فى اليابان ، وهو أنهم تمسكوا بالقديم ولكن هذا القديم أدخلوا عليه تعديلات مذهلة ، فهم يلبسون الكيمونو وهو الفستان أو الروب دى شامبر ولكن الألوان الجديدة والأقمشة الجديدة والأحزمة العجيبة والألوان والتفصيلات . . كلها تجددت . . لقد رأيت تسعين عارضة للأزياء فى مدينة كيوتو . كلهن يعرضن أحدث تفصيلات الكيمونو . . لم أشاهد أروع من هذا العرض فى حياتى . . فالكيمونو زى تقليدى . . وخصوصًا الفتيات اللاتى عرضن هذا الزى مع تصفيفة الشعر والمشية بالقبقاب وحركة الأقدام مع الموسيقى واختيار الألوان . . واللون الجميل والأحزمة العريضة والضيقة . . وكيمونو الصباح وبعد الظهر والمساء ، وكيمونو الأفراح والأحزان ، وكيمونو الشابات والزوجات وكيمونو الوداع ، وكيمونو الدلال والدلع . . واليابانيون يشربون الشاى الأخضر بلا سكر ويعرضون وصناعة الفناجين والأطباق والصوانى وأثاث البيت اليابانى البسيط الأنيق الجميل كل غرفة لها لون ولها ستائر ومخدات لامعة . . وكل ذلك فن جميل والقباقيب والشباشب من أجمل الفنون . صناعتها وأحجامها وأشكالها وألوانها وأسعارها ومادتها . .

فهم يحرصون على القديم ، ولكن الذوق الجميل لا يجعل القديم جامدًا ميتًا . فالتقاليد موجودة والأساليب الحديثة موجودة . . واليابانيون متفوقون فى هذا كله ، ولم يتركوا شيئًا لم يصنعوه بأيديهم . . كل ما تراه عينك من صنعهم . . عندهم معارض علمية جادة جدا ، وعندهم محلات كثيرة جدا أنيقة جدا رائعة للعب البلى . . وعلى هذه المحلات إقبال لا يمكن أن تتصوره . . وعندهم معابد كثيرة جدا ، وعندهم كباريهات أكثر من أى بلد فى العالم . . لقد رأيت فى مدينة كيوتو وهى العاصمة عددًا

من الكباريهات أكثر من الموجودة فى باريس أو فى هامبورج أو مانيلا . . وكل هذه هى مظاهر الحيوية فى الشعب اليابانى .

وكنت أتصور أن أجد عربة الريكشا وهى عربة يجرها رجل ويركبها الناس لينتقلوا من مكان إلى آخر . . وكنت أتصور الريكشا وقد جلس السائح وأمسك بيده مظلة كبيرة ، ووضع رجلا على رجل وأمامه رجل عارى الصدر يجره هنا وهناك ليتفرج على اليابان . . إنها موجودة فى إندونيسيا ، بل هى وسيلة المواصلات الوحيدة فى جاكرتا عاصمة إندونيسيا . . وهى موجودة أيضًا فى كل مدن الهند ، وكل مدن الفليبين ، وفى سنغافورة ، وفى هونج كونج ، وفى الملايو ، وفى تايلاند ، وفى سيلان ، وڤيتنام ، وفى الصين . . أما فى اليابان فقد اختفت ، فهنا كل وسائل المواصلات حديثة وقد صنعها اليابانيون ـ فهنا فى طوكيو مثلا سكك حديد حكومية وسكك حديد أهلية . . وعشرات الألوف من شركات السيارات والدراجات والموتوسيكلات والزوارق فى كل أنحاء اليابان .

ولا توجد ريكشا واحدة ـ آسف توجد ثلاث ريكشات فى متحف طوكيو !

وكنت أتصور أن أجد اليابانيين يلبسون الكيمونو . . الرجال والنساء . . لم أجد رجلا واحدًا يلبس الكيمونو إلا فى غرفة النوم ، والانتقال من غرفة النوم إلى دورة المياه . فالكيمونو قد تحول إلى روب دى شامبر . أما المرأة اليابانية فهناك كثيرات يرتدين الكيمونو وأصبح منظرهن غريبًا جدا فى شوراع المدن الكبرى . فبين كل عشر فتيات يرتدين الفستان والبنطلون توجد اثنتان ترتديان الكيمونو ، وبين كل عشر فتيات حلقن شعرهن على الطريقة الأوربية . . توجد واحدة شعرها طويل ومسترسل على ظهرها ، وواحدة شعرها طويل معقود وراء رأسها . .

والسبب هو أن الفتاة اليابانية قد دخلت الحياة بصورة مشرفة للمرأة . . فالفندق الذى أنزل فيه واسمه «دايتشى» ومعناه « الدرجة الأولى» أو «الفندق البريمو» لا يوجد به رجل واحد . . فالإدارة بنات ، والشيالات بنات ، وعلى فكرة يوجد شيال واحد فى جميع محطات سكك حديد طوكيو ـ وفى الأسانسير والمطبخ والغسيل والمكوى بنات . . فى كل الفندق بنات ولا تزيد أعمارهن على ٢٠ سنة . وكذلك دور السينما والسكك الحديدية والترام والزوارق والمعارض والمطاعم والمقاهى والكنس ومسح البلاط . فالفتاة اليابانية تعمل فى كل شىء . . والكيمونو لا يساعدها على الحركة ، فألقت الكيمونو وارتدت البنطلون والقميص و الفستان ، ومعظمهن يرتدين الجوب والبلوزة . . والمحلات الكبرى

مثل عمر أفندى أو شيكوريل كلها بنات . . ولا تجد رجلا إلا نادراً جدا . . حتى البارات والكباريهات كلها بنات . ومحلات الشاى كلها بنات . .

الحقيقة أن المرأة الآسيوية أحسن من المرأة الإفريقية ، والمرأة اليابانية أحسن امرأة فى آسيا .

وكنت أتصور أن أجد الجيشا فى الشوارع ، وفى الحدائق يركبن عربات الريكشا . . وكل واحدة قد عقدت شعرها الأسود الطويل الناعم حول رأسها ومن هذا الشعر تخرج الورود واللآلئ . وفستانها الكيمونو الطويل قد ضغط عليها وعصرها وكاد يخرج أحشاءها لولا أنها غطت هذه الأحشاء بحزام عريض لونه أحمر . . وكنت أتصور قبقابها الذى يصلح لطفل صغير ، وابتسامتها المرسومة على شفتيها الرقيقتين ، وعينيها المنحرفتين تنظران ناحيتى وكأنهما تنظران إلى كل شىء عن يمينى وعن شمالى ؛ أما أنا فكأننى غير موجود . .

لم أجد فى طوكيو جيشا واحدة فى أى شارع ولا أى مطعم ولا أى بيت . .

اختفت الجيشا من حياة اليابان كلها . .

فعندما صدر قانون إلغاء البغاء فى اليابان فى إبريل سنة ١٩٥٨ تضمن هذا القانون إلغاء نظام الجيشا . واندهشت عندما علمت أن القانون يجمع بين الجيشا وبين البغايا . . وكان الإلغاء على الورق فقط . فالدولة لم تلغ البغاء - ولن تستطيع - ولكنها اعترفت بنظام البغاء ، وبقي البغاء كما هو . . ومنذ أيام صدر بحث علمى يتهم الحكومة بأنها هى المسئولة عن انتشار الأمراض الخبيثة ، فلا البغاء اختفى ولا نظام الجيشا اختفى أيضاً .

ونظام الجيشا قديم جدا فى اليابان ، إنه يرجع إلى حوالى ألف سنة . فتاة الجيشا فنانة أولا ، تعرف الرقص التقليدى والغناء ، وتحسن الكلام ، وقادرة على تسلية الضيوف . وتتعلم هذا الفن وهى طفلة صغيرة . وكلمة «جيشا» مأخوذة من كلمتين : جى ومعناها فن ، وشا ومعناها صاحبة أى صاحبة فن أى فنانة .

ومنذ مئات السنين كانت فتيات الجيشا يعشن فى قصور الملوك والأمراء والأغنياء . . وعندما يقيم الأمير أو الرجل الغنى حفلة غداء أو عشاء فإنه يدعو فتيات الجيشا . . فتيات جميلات قادرات على إدارة الحديث ، وتقديم الطعام وإشاعة المرح والجمال فى الجلسة . . فقط ، نعم فقط . . فكل مواهب الجيشا هى فى أن تقوم بدور المضيفة الممتازة .

وبعد ذلك انتقلت الجيشا إلى العمل خارج بيوت النبلاء والأمراء، ففى اليابان بيوت الشاى ـ «المشهى» على وزن المقهى، وهذا التعبير من عندى ولم أستأذن فيه المجمع اللغوى ـ حيث توجد الحياة الاجتماعية اليابانية . . ويلتقى الناس ويتحدثون. فالمشهى يشبه المقهى المحترم أو يشبه النادى العائلى . . وصاحب المشهى لكى يجذب زبائنه إلى التردد على هذا المشهى يدعو الجيشات لتقديم الشاى . . وبعد أن يقدمن الشاى والغناء والموسيقى ويتحدثن فى السياسة والأدب والفن، يعدن إلى بيوتهن؛ وعلى الزبون أن يدفع لصاحب المشهى مبلغًا نظير وجود هؤلاء الجيشا. وإذا أراد من الجيشا أن تبقى وقتًا أطول كان عليه أن يدفع أكثر وأكثر.

وقد دفعت مبلغ ثلاثين جنيهًا لكى أجلس مع ثلاث جيشات . . أقوم أنا وصديق آخر بدور الزبائن تمهيداً لتصويرها . . وبدأت الحفلة ـ طبعًا حفلة ـ بأن ذهبنا إلى أحد المشاهى فى حى أساكا فى مدينة طوكيو، والمشهى عادى جدا من الخارج . . مدخله من الخشب وعلى الباب بعض الأشجار وصف طويل من الشباشب، وقد تعودنا على هذه المناظر. ونزعنا أحذيتنا وكادت أقدامنا ترتطم ببعض الرءوس التى انحنت إلى مستوى الأحذية . . إنهن خادمات بيت الشاى قد سجدن تحية لنا . . وبعد السجود بدأ الركوع وبعد الركوع بدأ الانحناء بالرأس . . وأخذت الخادمات أحذيتنا والبلاطى . . وصعدنا سلمًا من الخشب النظيف اللامع جدا. وفى الدور الأول فرشت الحصيرة اليابانية الدقيقة. وأما أبواب البيوت اليابانية فهى لا تنفتح إلى الداخل أو الخارج، وإنما تنزلق على مجرى وتلتصق بالحائط . . والبيت اليابانى بسيط جدا . . كله من الخشب والورق . . والنوافذ خشب . . ويغطيها الورق الأبيض المقلم أو المشجر . . وعلى الرغم من أن البيوت كلها من الخشب فعلب الكبريت متناثرة فى كل بيت وكل غرفة وكل مطعم وكل فندق وفى السيارات التاكسى وكلها مجانًا . . لأنها جميعًا إعلانات . .

وفى جانب من الغرفة توجد منضدة واطئة وأمامها شلت . . وجلسنا متربعين. وبعد لحظات حضرت بنات الجيشا . . ويجب ألا نقف أو نتعب أنفسنا . . وقد سجدت كل واحدة منهن إلى جوار واحد منا . . وبدأت حفلة الغداء، كل واحدة قدمت لنا الشاى الأخضر . . والشاى فى فنجان، ومع كل فنجان ليس له أذن ـ انحناءة تكسر الظهر ـ انحناءة منها طبعًا. ويجب أن تشرب الشاى إنها مسألة ذوق، ثم إن الجيشا شكلها لطيف، يعنى حلاوتها انتقلت إلى الشاى . . اشرب . . اشرب . . وقد شربت براداً.

وفى هذه الأثناء تتناثر على المنضدة أمامنا فناجين وطقاطيق وقصارى ـ قصارى أطفال

صغار ـ وأنصاف أكواب وثلاثة أرباع أطباق، وفيها جميعًا سوائل غريبة اللون . . وقبل أن تمد يدك يجب أن تمسك الفوطة الساخنة التى أحضرتها الجيشا لكى تمسح يدك وأنت جالس ـ كما يحدث فى الطائرة عادة ـ وبعد ذلك عليك أن تأكل بالعصا . . لا ملاعق ولا شوك ولا سكاكين . . وإنما عودان من الخشب يجب أن تمسكهما بيدك اليمنى كأنهما مقص سقط مسماره، وعليك أن تتناول بهما الأرز واللحم والسمك . . طبعًا المحاولات فاشلة، فأكلنا بالشوك والسكاكين . . وبنات الجيشا يضحكن عند كل حركة وكل لقمة وكل مضغة ولم أجد واحدة منهن عند كل مغص شعرت به بعد ذلك!

وأنا أترجم لك هذه الأدوات الغريبة : كلها أطباق وسلاطين، أما السوائل فهى شوربة أم الخلول وشوربة الجمبرى وشوربة أبو جلامبو . . وأما اللون الأحمر فى كل هذه الشوربات فهو بصل محروق بالسكر . . وأما هذا الأبيض الواضح جدا فهو أرز مسلوق ومن غير ملح . . وأما هذا الأصفر الذى يشبه البصارة إذا وضعت فيها بعض الكركم، فهو عصير الجمبرى مع السمك النيىء . . نسيت أن أقول إن كل هذا الأكل بارد جدا.

والتقاليد تقضى بأن الجيشا لا تأكل ولا تشرب إلا بعد أن تكون أنت قد ملأت بطنك . وأما إذا لم تملأ بطنك ـ مثلنا جميعًا ـ فهى تغضب وتأخذ على خاطرها . . ولو عرفت كيف أنها تغضب لامتنعت عن الأكل نهائيًا . . إنها تجلس إلى جوارك وتتمايل عليك وتطبطب على خدك وعلى كتفك إلى أن تتقاسم الأكل بينك وبينها . . ملعقة بملعقة . . نصف الملعقة لها، ونصفها الآخر لك.

هذه هى التقاليد . . وليست هذه معاملة خاصة لشخصى.

وبعد الأكل قامت ورقصت وغنت . أما الرقصة فلها قصة . وهى قصة فتى وفتاة فى حالة حب شديد . . وخرجا فى الليل يصيدان الفراشات الصغيرة فى ضوء القمر . وكل واحد منهما يحاول أن يمسك الفراشة بيده دون أن يقتلها . . وفى كل مرة يمسك الشاب فراشة يلاحظ أن عشرين فراشة أخرى قد ظهرت تحت ضوء القمر . . ويكتشف أن السبب هو أن أنفاس حبيبته تتحول إلى فراش تحت ضوء القمر . . وعلى ذلك فمن الأفضل له أن يمسك أنفاس حبيبته . . ويمسك أنفاسها بفمه ـ هذا الجانب من الرقصة لم أره، وإنما قرأت عنه فقط!

وكانت تجلس معنا على نفس المائدة صاحبة المشهى وابنتها . . أما فتيات الجيشا الثلاث فأسماؤهن : فوميكو وشودايايا وأرميتا . . ١٩ سنة و٢٠ سنة و٢٩ سنة . والأولى تظهر

فى التليفزيون . . وكان فى نيتى أن أداعبها وأهديها فرشة أسنان لولا أننى وجدت أنها نكتة سخيفة وقاسية جدا ، وربما كان صفار أسنانها لأسباب فنية ، فقد لاحظت اختفاء اللون الأصفر من فستانها وشعرها . . فربما كان السبب هو إكمال مجموعة الألوان!

والتجار عندما يعقدون الصفقات المالية يذهبون إلى بيوت الشاى . وكانت الجيشات فيما مضى يلعبن دورا سياسيا ، كدور العشيقات فى أوربا .

وحتى الوفود الرسمية عندما تحضر إلى طوكيو تدعوها الحكومة اليابانية رسميّا لزيارة أحد المشاهى والجلوس إلى الجيشات . . وهذا تقليد معترف به ومحترم هنا .

وكان الزمان المحدد لهذه الحفلة ساعتين . وبعد ساعتين وأربعين دقيقة اعتذرت الجيشات وخرجن فى سجود وركوع وانحناء . . وبعد ذلك جاء الحساب .

أولا حضور الجيشا وتشريفها مجلسنا هذا يساوى خمسة جنيهات ، ثم ثمن الطعام وتقديم الطعام والضريبة وإيجار الغرفة والتأخير الذى حدث بعد الزمن المحدد .

وقد قالت لى إحدى الجيشات : نفسى أشوف القاهرة .

قلت : أهلا وسهلا . .

قالت : على حسابك . .

قلت : هناك ما هو أصعب .

قالت : ماذا؟

قلت : المسافة بيننا وبين القاهرة الآن حوالى ٤٨ ساعة بالطائرة و٤٨ يومًا بالباخرة . . وإذا كانت الساعة التى أتشرف فيها بالجلوس إليك ثمنها عشرة جنيهات . . فأنا لا أستطيع . ولكن سأطلب من القراء أن يساهموا فى دعوتك إلى القاهرة ولو ساعة . . حاضر . . من عينى دى وعينى دى .

وعدد الجيشات فى طوكيو قليل جدا . . والحياة الحديثة والكباريهات الأنيقة المغرية قضت على هذا النوع من الحياة القديمة . . ولكن الأغنياء السياح هم الذين يحرصون على رؤية الجيشات .

ومركز الجيشات فى اليابان كلها هو مدينة كيوتو . . وهى تبعد عن طوكيو حوالى ٣٠٠ كيلو ، وكانت العاصمة القديمة لليابان مئات السنين . . أما طوكيو ـ ومعناها العاصمة

الشرقية ـ فهى لم تصبح عاصمة إلا أخيراً . ومدينة كيوتو لم تتحطم فى أثناء الحرب ، ففيها أكثر من ثلاثة آلاف معبد بوذى ومعبد شنتوى . ومدينة كيوتو مدينة سياحية أيضًا . وفى كيوتو محطة سكك حديد كبيرة جدا . . وبهذه المحطة عشرات المحلات التجارية للصناعات اليابانية ، وهذه المحلات تشغل الطابق العلوى لكل المحطة ، وفى هذه المحلات توجد الصناعات الخشبية التى برع فيها أهل اليابان ، وتوجد المنتجات الرخيصة جدا . وقد لاحظت أن هناك عددًا من الراديوهات الصغيرة ـ وهى الموجودة الآن ـ وأن هذه الراديوهات لم نرها فى طوكيو ، وعرفت أن هناك شركات كثيرة فى اليابان لصناعة الراديو . . وهى تشبه شركات بيع المياه الغازية فى القاهرة . . وأشهر وأكبر محل فى كيوتو ؛ وهو مكون من أربعة أدوار صغيرة جدا ، هذا المحل للعب البلى .

وفى مدينة كيوتو صناديق الليل ـ آسف إنها «علب كبريت» الليل ـ لأن البارات هنا صغيرة جدا فالواحد لا يزيد على حجم سيارة أتوبيس إذا وقفت على بوزها . . الدور الأول بار والدور الثانى غرفة للنوم . وفى غرفة النوم هذه تسمع صوت فتاة تقرأ بصوت عال . . إنها تذاكر وتحاول أن تعزل نفسها عن أصوات الذين يشربون الخمر فى الدور الأرضى .

محلوظة : اليابانيون لا يتحدثون ولا يضحكون بصوت عال أبداً . . حتى لو كانوا سكرانين طينة . . أدب !

وهذه «العلب» الصغيرة عددها عشرات الألوف هنا . .

وفى مدينة كيوتو يوجد حى «جبون» أو حى «شيون» . . وهو أغرب أحياء اليابان كلها . . كل هذا الحى تسكنه بنات الجيشا . . عدد الجيشات هنا ٥٠٠ فتاة من بينهن على الأقل ٢٠٠ فتاة حلوة فى سن العشرين . وأستطيع أن أقول إننى رأيت منهن حوالى ٩٠ جيشا جميلة . . لقد ترددت على أكثر من ١٥ بيتًا من بيوت الشاى ، بقصد الفرجة ، وكتابة هذا الكلام .

كانت الساعة التاسعة صباحًا . . ومعى صديق وثلاث آلات تصوير . ألوان ومن غير ألوان . . هو يسعل من البرد وأنا أعطس . . والشمس تطلع وتختفى . تطلع فيختفى الزكام ، وتختفى فيطلع الزكام من عينى . . البيوت كلها مقفلة . . البيوت خشبية . . والنوافذ مجموعة من الأعواد الخشبية ومن ورائها تتحدث النساء . . لم نر رجلا ولا طفلا ولا امرأة . . كل البيوت مقفلة . . والدنيا برد . . ذهبنا إلى أحد المطاعم وشربنا الشاى

والناس يتثاءبون، وفى الساعة الحادية عشرة بدأت البيوت الخشبية تفتح أبوابها. . كأنها هى الأخرى نائمة، وكأن أجفانها ثقيلة. . على الأبواب توجد علامات غريبة. . علامات مطبوعة. . زرقاء وحمراء وبيضاء ومكتوبة باليابانية. . وكلها خارج البيت. . حتى إذا جاء موظف النور لا يوقظ أهل البيت الذين لا يصحون إلا فى الثانية عشرة. . لأنهم طول الليل يشربون ويرقصون ويغنون. . كل الناس هنا هكذا.

وبدأت الخادمات يجمعن الزبالة وبدأت محلات الفاكهة تضع الأقفاص أمام الأبواب. ويوجد فى كيوتو جزمجى واحد لأنه لا يوجد أحد يرتدى الأحذية. فالنساء يرتدين القباقيب. . وعلى رأس كل شارع يوجد «قبقبجى» وأمامه طوابير من القباقيب.

وبيوت الشاى أو المشاهى هنا ليس لها عدد. . فكل بيت هو فى نفس الوقت مشهى. . وهذه تجارة مربحة؛ فقد لاحظت أن أصحاب هذه البيوت لهم سيارات كبيرة وعندهم أجهزة تليفزيون ويضعون فى أصابعهم الخواتم الذهبية وفيها حبات من اللؤلؤ. . وبعضهم يدخن السجاير الأمريكية الغالية.

وفى الساعة الواحدة بدأت فتيات الجيشا يخرجن من البيوت. . فتيات الجيشا هنا يرتدين الكيمونو والقبقاب. . ورأسها كبير، والشعر على رأسها فى حجم البطيخة ورأسها أثقل من جسمها، والكيمونو ضيق وخطواتها ضيقة، وحتى لا يتكسر الكيمونو فإنها لا تجعل قدميها تنفتحان إلى الخارج، وإنما تجعلهما تتجهان إلى الداخل. . فهى تمشى تقفز أو تنط وتكاد ساقاها تلتف الواحدة على الأخرى. . والبودرة أو الجير الذى وضعته على وجهها وخصوصًا قفاها، ثقيل جدا كأنها نامت طول الليل فى شوال دقيق، وأما رأسها فوضعته فى حلة كحل. . والجيشا إذا نامت فهى تضع رأسها على مخدة مستديرة تشبه جذع النخلة والمخدة محشوة بالأرز، غير المسلوق. . والمخدة تستقر تحت رقبتها. والسبب هو أنها تخاف على تسريحة شعرها أن تفسد. . فالتسريحة غالية.

وأول شىء تعمله فتاة الجيشا. . هو شعرها. . تسرحه وتضع عليه بعض الزيوت التى تجعل الشعر مشدودًا واحدة واحدة. . ثم تضع البودرة أو هذا الجير على وجهها. . وبعد ذلك يجىء شىء مهم هو اختيار الكيمونو المناسب. . إن أية فتاة ترتدى فستانًا وتدور وتلف به أمام المرآة وتطلع فوق الكرسى، وأحيانًا فوق السرير لكى ترى حذاءها الجديد فى المرآة. . ولكن الجيشا مشكلتها أصعب، فهى لا تختار الكيمونو، وإنما تختاره لها سيدة كبيرة، كانت فيما مضى فتاة جيشا. .

ولكنها الآن قد قصت شعرها واكتفت بخدمة الجيشات . . وقد تستغرق عملية الاختيار ساعة أو أكثر . . وقد تشترك فيها بنات الجيران . . والجيشا ترتدى الكيمونو وتحته قميص حرير وردى أو لونه بلغة الفلاحين كلون لحم الهوانم، وكل بنات الجيشا يخترن هذا اللون . . وتحت القميص واحد آخر أبيض وشفاف جدا . . إلى هنا وبس!

وأول عمل تقوم به الجيشا بعد ذلك هو أن تذهب إلى المشاهى التى كانت معزومة فيها فى اليوم السابق وتفتح الباب وتنحنى وتشكر صاحبة المشهى على عزومة الأمس . . وهى فى الطريق هدف لعيون الناس . . وهى تجربة صعبة . . ولسان الناس طويل وقد سمعت بعض الناس يقولون :

دى مش شايفة . . يعنى كان لازم تتقل فى الشرب . . دى تخينة وقدمها كبيرة!

وبين الحين والحين تتلفت حولها وتنحنى راكعة . . مع أنه لا يوجد أحد فى شارع أو فى باب أو فى شباك . . ولكن يوجد معبد صغير أمام بعض البيوت وهذا المعبد لا يزيد على صندوق الكوكا كولا . . ومعظم البيوت فى اليابان بها معابد خاصة للصلاة . . ويوجد أحيانًا معبد لدينين مختلفين، كل ذلك فى بيت واحد . . وكل أفراد الأسرة يصلون فى المعبد معًا .

وعدد السيارات التي تنتظر الجيشات كثيرات . . فالجيشات مدعوات على الغداء أو على الشاى أو على العشاء .

وقد خرجت مع اثنتين من الجيشات وذهبت إلى إحدى الحدائق العامة . ولم يدر ببالى أن اليوم كان عطلة رسمية وكل الناس خرجوا لهذه الحديقة . . وكل واحد معه كاميرا . . فالكاميرات رخيصة فى اليابان . . وكل الناس ينحنون لى ويستئذنون فى تصوير بنات الجيشا . . كل ذلك فى مدينة كيوتو وهى مركز النشاط الجيشوى فى كل اليابان . . ومعنى ذلك أن الناس لا يرون الجيشات عادة . . لأن الجيشات يعملن فى الليل، وفى المشاهى، ولا يخرجن إلى الشارع إلا نادرًا وإلا فى ظروف خاصة .

وقد لاحظت أن هناك عددًا من بنات الجيشا يجلسن صامتات . . لا يتكلمن مع الضيوف . . وظننت أن السبب ربما كان اللغة . . فنحن لا نتكلم مع الجيشا إلا عن طريق مترجم . . ولكنى رأيت الزبائن كلهم من اليابانيين . أما السبب فهو أن كل شىء له ثمن . . فالجيشا إذا جلست فقط دون كلام فلهذا ثمن، وإذا تكلمت فله ثمن، وإذا أكلت

فله ثمن، وإذا رقصت، وإذا غنت. وإذا خرجت مع الزبون، وإذا تفسحت على الآخر. . فالثمن غال جدا.

وفى كيوتو مدرسة لتعليم الجيشا. . ويبدأ التعليم فى الثالثة من العمر وأحيانًا من الخامسة. وتعليم فتاة لكى تكون جيشا فى اليابان يشبه تعليم فتاة لتكون ممثلة فى أمريكا. . لا عيب فيه، بل إنه نوع من التأهيل المهنى. . والفتاة الصغيرة تتعلم الرقص والغناء وتقديم الطعام والانحناء للضيوف. . وكل الأطفال فى اليابان حتى فى السن التى لا يعرفون فيها المشى ينحنون تحية وشكراً.

أذكر أننى أعطيت طفلا تحمله أمه على ظهرها بعضًا من حبات أبو فروة وشكرتنى الأم. . ودار بينها وبين طفلها كلام لا أفهمه. . ثم صارت تصرخ والطفل لا يستجيب، وأخيراً أنزلت الطفل من فوق ظهرها ووضعته على الأرض. . وكانت المفاجأة. . أن الأم تسند الطفل حتى لا يقع وهو ينحنى انحناءة كاملة ليشكرنى!

والانحناءة فن مؤلم. . لقد انكسرت ظهورنا هنا من رد التحيات رغم أننا نصهين كثيرا جدا.

ولا تزال مدينة كيوتو هذه تحتفظ بتقاليدها القديمة. . فالفوانيس فى الشوارع كرات حمراء من الورق الرقيق. . والبيوت تشبه الدكاكين. . وأبوابها عريضة ولا يقفلونها. والمعابد كثيرة. . وكل من يدخل المعبد يصفق بيديه لكى ينبه إلى أنه قد حضر. . ثم يمسك فى يده مقشة ويهزها. . وهذه المقشة تكنس متاعبه وهمومه.

والفنادق كلها نوم على الأرض. . والحمام اليابانى مؤلم جدا. . فهو عبارة عن حوض كبير تمتلىء بالماء الساخن. . ويجب ألا تنزل فى الحوض. . وإنما تمسك علبة خشبية. . وتضع فيها بعض الماء الساخن ثم تضع عليه بعض الماء البارد وتصب على رأسك. . وكلما فرغت العلبة أعدت هذه العملية من جديد. .

أما الفوطة فهى صغيرة فى مساحة هذه الصفحة. . ويجب ألا تنزل فى الحوض، لأنه ليس لك وحدك وإنما لكل نزلاء الفندق. . وإذا أصابك برد لأى سبب، والأسباب هنا كثيرة: كالنوم على الحصيرة واللحاف القصير، والمخدة الصغيرة الجافة والمحشوة أرزًا يابسًا، والأكل البارد، والزكام المزمن عند كل الجيشات. . فالعلاج بسيط هو أن تنام وتغطى رأسك باللحاف وتضع المخدة فوق اللحاف وتكتم أنفاسك. . واليابانيون يؤكدون أن البرد يختفى حتما بعد ثلاث ليال.

وفتاة الجيشا فى كيوتو لا تكسب كثيراً، إن دخلها فى الشهر الواحد لا يزيد على عشرة جنيهات. . أما الذى يفوز بالنصيب الأكبر فهو صاحب المشهى. . ثم إن فلوس الجيشا كلها ضائعة على فساتينها وعلى شعرها وعلى المساحيق البيضاء والحمراء وعلى القباقيب. .

وبعض بنات الجيشا يتزوجن من بلطجية، وطبعًا تستمر حياتهن الفنية. . وهى ليست فنية جدا كما كنت أتصور!

ولكن لا شك فى أن البنات حلوات ورقيقات وفى غاية الأدب. . ومن السهل أن تأخذ الواحدة منهن عليك؛ فلا تمضى ساعة حتى تكون كأنها تعرفك من عشرات السنين. .

وعندما خرجت من المشهى مدت كل جيشا يدها ووضعت أصبعها الأصغر حول أصبعى الأصغر وقالت:

اتفقنا. . .

ولم أفهم. فهذا يشبه الخصام عند الأطفال. . ولكن عرفت أن هذا معناه الاتفاق فى اليابان وأن الذى يخل بالوعد فستنكسر أصبعه ولو بعد حين. .

وفى اليوم التالى ذهبت لتوديع الجيشا، لا لأنى أخاف على أصبعى ولكن لأننى سلمت على بنات الجيشا بكلتا يدى وأنا أخاف أن أفقد يدى بعد سفرى من كيوتو!

والحقيقة أننى لا أستطيع الوفاء بكل ما وعدت به بنات اليابان وبنات البلاد الأخرى!

بلد الرجال أيضا !

أنت لم تر أجمل ما فى آسيا إذا لم تذهب إلى اليابان . . أنت لا تقدر معنى الذوق الجميل فى اللبس والنوم ، فى البيت وفى الشارع ، إذا لم تذهب إلى اليابان . . أنت لا يمكن أن تتصور كيف أن شعبًا «محتلا» يستطيع أن يصنع المعجزات ويتحول من تجار أسماك إلى تجار قطارات وسفن وراديوهات ، إذا لم تذهب إلى اليابان . .

أنا لم أعرف أن طفولتى كانت تعيسة ، وأنها كانت كطفولة الدجاج فى الحارة أو الكلاب الضالة إلا عندما ذهبت إلى اليابان ، فقد رأيت أسعد طفولة . .

رأيت أطفالا فى ملابس رجال ، ورأيت رجالا فى سعادة الأطفال .

* * *

اليابان بلد الرجال . الرجل فيها محترم جدا . . والمرأة مكانها فى الدرجة الثانية فى المدن ، والثالثة فى الريف والرابعة فى الجبال . .

ولكن المرأة اليابانية هى أطيب امرأة فى العالم كله . تقنع بالقليل ، الكلمة تكفى ، الانحناءة تكفى ، جانب من المتعة ، جانب من الفراش ، جانب من اهتمامك ، كل هذا يرضيها . ولذلك فالرجل اليابانى لا يتعب كثيرًا فى حياته الزوجية . فزوجته تنتظره دائمًا ، راكعة على ركبتيها حتى يعود من العمل . لا تأكل إلا إذا جاء ، وإذا جاء أكلت بعده . إنها تطعم زوجها ثم الأولاد الذكور . . وبعد ذلك الإناث . . وتأكل هى ما تبقى من أفراد الأسرة كلها .

وإذا دخل الحمام سبقته إلى الحمام لتعد له الماء والقبقاب والكيزان ، وبعد ذلك تنحنى فى أدب وكسوف وكأن زوجها رجل غريب وكأنها خادمة عنده ، ويدخل الزوج وتقف

هى وراء الباب تنتظر أوامر الزوج ، ولو «سهاها» الزوج ومات فإنها لن تدخل الحمام إلا إذا ناداها من الداخل!

ويحدث فى كثير من الأحيان أن الزوج عندما يموت لا تدخل الزوجة غرفته إلا إذا طلب إليها أحد أقاربه أن تدخل . .

وربما كان سبب ارتفاع نسبة الوفيات بين الرجال ، هو أن عزرائيل عندما يتقدم ليقبض روح الزوجين ، تتأخر الزوجة ، فيموت زوجها فى الأول!

ومهمة المرأة اليابانية ثقيلة . . إنها تقوم بكل شىء فى البيت ، وخارج البيت . . فهى الزوجة وهى الأم وهى المربية التى تشترى وتبيع وتنتظر الزوج وكأنها لم تتعب ولم تخرج ولم تدخل . ويجىء الزوج اليابانى مكشر الوجه لتستقبله ابتسامة عريضة على وجه الزوجة ، وليس من المفروض أن الزوج يرد على هذه الابتسامة بابتسامة أخرى أكبر أو أعرض . وإنما عندما يراها يزداد تكشيره . . كأنه يقول لها : إنت نايمة طول النهار وأنا دايخ . . اضحكى يا أختى اضحكى . . ضحكت لك السنبلة والضربة المستعجلة ـ شتيمة ريفية مصرية تذكرتها فى اليابان!

والزوج اليابانى يشبه كل زوج فى الدنيا ، فهو يتصور أن زوجته لا تتعب ولا تبذل أى مجهود . . وأن كل مهمتها فى الدنيا ، أن تستحم وتضع الأحمر والأبيض والعطور ، وتنتظر بسلامته عندما يعود . . هذه كل مهمة الزوجة فى نظر أى رجل . . يعنى مهمة الزوجة هى «الترفيه» عن الزوج كأنها إحدى بنات الجيشا ! !

ولكن الرجل اليابانى أكثر أدبًا وأكثر رأفة . . وأكثر حبًّا للبيت والأولاد وأكثر وفاء للزوجة . .

والبيت اليابانى والزى اليابانى يدلان على المرأة اليابانية . .

فالبيت بسيط وأنيق . . وكل شىء فيه مصنوع وموضوع بذوق . . والألوان مريحة للعين . . والخطوط كلها رأسية أو أفقية متقاطعة . . يكفى أن تنظر للقباقيب وترتيبها والمخدات ونظامها ، لتعرف أن كل شىء هنا يتم بتفكير وذوق .

والمائدة اليابانية غريبة وعجيبة . . يمكن طعم الأكل يقرف ويدوخ . . ولكن تقديم الأكل ونظامه يريحان . . طبعًا أنا لا أنصحك أن تأكل كما فعلت أنا ومرضت وتعذبت . ولكن انظر كيف يقدمون لك أطباق صراصير البحر . . إن الاسم يجعلك تهرب . . ولكن

طعمها لا بأس به. فهى مسلوقة باردة.. ولكن نفسك «تنعدل» إذا شربت معها شايًا أخضر بلا سكر..

المهم تقديم الطعام.. أطباق صغيرة الواحد وراء الآخر، ومع كل طبق انحناءة من سيدة البيت وابتسامة عريضة جدا تجعلك تأكل أصابعك - والسبب الحقيقى الذى يجعلك تأكل أصابعك، هو أنها ألذ من الصراصير.. واللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش!

وفى الأعياد، ينقلب البيت اليابانى إلى مولد.. إلى مهرجان.. الألوان والعرائس والتماثيل والملابس ذات الألوان الحمراء والزرقاء، والوردة الكبيرة والنقشة العريضة.. وفى كل المواسم والأعياد تجد «السمك» الملون فى كل مكان.. لابد أن توجد أوراق على هيئة سمك.. فقد كان اليابانيون من ألوف السنين يهدى الواحد منهم إلى جاره الأسماك التى اصطادها من البحر.. الأسماك النيئة الجافة.. وتغيرت الدنيا ولم يعد صيد السمك هو التجارة الوحيدة فى اليابان.. فهناك ألوف المصنوعات والهدايا.. وانسحب السمك من الأعياد وأصبح رسمًا على الورق الذى يلفون فيه الهدايا..

والعيد الذى تكون فيه المرأة اليابانية مشغولة جدا هو يوم رأس السنة؛ فهو أهم الأعياد فى اليابان. ففى يوم رأس السنة لا تعمل المرأة أى عمل ولا يجب أن تشغل نفسها بأى شىء.. ولكن هناك شيئًا مهما جدا يجب أن تعمله.. يجب أن تضع تحت رأس كل فرد من أفراد الأسرة ورقة.. والورقة مكتوب فيها أمنية، وهذه الأمنية مكتوبة على شكل أغنية. والأغنية تقول:

ادخل يا خير. اطلع يا شر. وداعًا يا سنة فاتت. أهلا يا سنة جاية. يا إلهى لا تنقص عددنا. ضاعفه. واجعلنا نزيد ونزيد. ولك الشكر.

وهناك طقوس خاصة لوضع هذه الورقة تحت الرأس.

وفى الصباح تنهض الأم فى ساعة مبكرة جدا لتنزع هذه الورقة من تحت المخدات.. وتظل جالسة حتى ينهض جميع أفراد الأسرة.. ولابد أن يكون كل واحد منهم قد رأى حلمًا فى نومه.. هذا الحلم مهم جدا.. لأنه عبارة عن ملخص لما سيحدث له بعد ذلك فى العام الجديد.. ومهمة الأم أن تفسر هذه الأحلام، وأن يكون تفسيرها للأحلام جميلا لتملأ نفوس أبنائها بالأمل فى حياة أحسن..

وبعد ذلك تنام الأم بعد أن اطمأنت على مستقبل جميع الأفراد.

وقبل أن تنام كل ليلة يجب أن تصلى لله . . وهى تعبد الله فى معبدين . وكل يابانى له دينان لا دين واحد . . وفى كل بيت يابانى يوجد نموذجان صغيران لهذين الدينين . . ولذلك فاليابانيون لا يذهبون إلى المعابد كثيراً لأن المعابد عندهم فى البيوت . . والأم هى أكثر الناس وقوفًا أمام المعبد . .

والمرأة اليابانية هى أم قبل أن تكون زوجة أو صديقة . . وأول شىء تريد أن تحققه للزوج هو أن تنجب له عدداً من الأطفال . ومعظم الخلافات بين الشبان والشابات قبل الزواج سببها أنهما مختلفان على عدد الأولاد . . مع أنهما لم يتزوجا وقد يؤدى الخلاف إلى الانفصال .

ومقياس الجمال فى اليابان هو : أن تكون المرأة نحيفة ضيقة الصدر والأرداف ، صغيرة اليدين والقدمين ، ولها وجه بيضاوى وأن يكون شعرها أسود ، وأن يكون صوتها منخفضًا ، وإذا مشت أحنت رأسها ، وإذا نظرت إليك لم تحملق فيك . .

الجيل الجديد فى اليابان عندما يجلس معك لا ينظر إليك ؛ لأنه قد نظر إليك قبل أن تجلس إليه ولأنك لا تملأ عينه !

وعلى أثر الاحتلال الأمريكى ظهرت فتيات ذوات شعر أصفر وعيون خضراء ولا يرتدين القباقيب ولا يتعوجن فى الكيمونو ، ويفضلن النظر إلى نجوم السماء على النظر إلى الأرض . . واليابانيون ينظرون إلى هذا الجيل المتأمرك نظرة استخفاف ، وعدم احترام . . أنا أعتقد أن هذا «قصر ديل» لأن اليابانيات الأمريكيات الأصل ملامحهن حلوة جدا . . وكمان مرة جدا !

وأنا أعتقد أن العيب الوحيد فى المرأة اليابانية هو أنها مؤدبة . . مؤدبة أكثر من اللازم . . ولقد عانيت من ذلك كثيراً !

أذكر أننا كنا فى إحدى الحفلات ورحنا نروى النكت فى أول الأمر ، كانت النكت مهذبة وبعد ذلك نصف مهذبة ، وأخيرًا . . أنت عارف .

وحدث أن همست يابانية فى أذن أخرى وبعد لحظات ضحكت كل الياباتيات بصورة جعلتنا نعتقد أنها نكتة قبيحة جدا . . وطلبت من إحدى اليابانيات أن تترجم لنا هذه النكتة ، واندهشت لهذه النكتة التى جعلت كل اليابانيات يخجلن منها . . أما النكتة فهى أن رجلا كان يجلس على حافة بحيرة ونظر إلى الماء فوجد صورة كلب وضحك قائلا : لابد أن هذا الكلب قد عاش فى بيتنا طويلا !

هل فهمت النكتة؟ . النكتة هنا هى أن هذا الكلب قد عاش فى البيت مدة طويلة فتوحمت أمه على هذا الكلب، لذلك جاء شبهًا له . .

توضيح آخر: الأم هنا هى أم الرجل وليست أم الكلب!

وبعد ذلك كان من المستحيل أن نروى لهن النكت إياها . . وقد لاحظت أن فى كباريهات اليابان كثيراً من الأجسام العارية . . والحركات الخليعة أكثر خلاعة من أمريكا . والراقصات العاريات تمامًا . . واللاتى يجلسن على أرجل الزبائن وتمتد أيديهن ويفتحن البنطلون فترات طويلة بين صراخ الزبائن وتلاعب الأضواء . . ولكن هؤلاء الراقصات لا يستطعن أن يقلن كلمة واحدة غير مهذبة . . ولا كلمة .

وإذا كنت لا تصدقنى فاذهب إلى اليابان . . والمسافة بيننا وبينها لا تزيد على ٤٨ ساعة بالطائرة . .

فهل اليابانية هى الزوجة المثالية فى نظرى؟

لا . . . لا . . .

إن الزوجة المثالية فى نظرى هى : الصينية ذات الأدب اليابانى والتى من أصل أمريكى . وتعيش ثلاثة أشهر فى هونج كونج وثلاثة أشهر فى أستراليا وثلاثة أشهر فى جزر هاواى، وشهراً فى أمريكا، وشهراً فى إيطاليا، وأسبوعًا فى أسبانيا، وأسبوعًا فى فرنسا، وأسبوعًا فى القاهرة، وأسبوعًا لا أعرف أين . . فلن أكون معها . . سآخذ منها إجازة أشم فيها نفسى!

وأنت لم تطلب منى أن أختار الزوجة المثالية، لكن تخيلت أن هذا ما تريد أن تعرفه!

الفتوات الفاتنات!

همس في أذنى وغمز بعينه ووافقت فوراً. وعاد يهمس فى أذنى فوافقت على التكاليف أيضًا، ولكنه عندما ضغط على أصبعى ترددت فقد رأيت فى عينيه بريقًا غريبًا.

وانطلقنا نحن الاثنين إلى شارع مزدحم بالدكاكين وبالناس والبخور والموسيقى البدائية.

ووقفنا أمام بيت له سلم خشبى. وبأصابع صفراء صغيرة دق الباب، وأطلت سيدة قصيرة القامة جدا، وسمينة جدا، وانحنت وانحنينا، وقال لها كلامًا لم أفهمه، ونظرت لى هذه السيدة القصيرة وضحكت، ثم نظرت لى وضحكت وكادت تسقط على الأرض.

وخلعت الحذاء ولبست قبقابًا.. هو فى الحقيقة شبشب جاف كأنه مصنوع من السمك البكلاه، ووضعت قدمى فيه، ولم يدخل من قدمى إلا الأصابع، وأما بقية قدمى فهى تمسح الأرض المفروشة بالحصر الناعمة.. وبعد ذلك صعدنا أحد السلالم.. وبعد أن نزع كل منا شبشبه أيضًا.. ووضعت قدمى فى شبشب آخر، مزفلط كأنه مصنوع من جلد سمك قراميط ما تزال حية، فكلما وضعت قدمى فيه هرب منى.. وكدت أسأل السيدة القصيرة عن سنارة لكى أصطاد بها الشبشب، ولكنى وجدت جمهوراً من الفتيات يضحكن من حركاتى هذه، ولاحظت أن بعض الفتيات يطلب منى أن أعيد هذه اللعبة وازدادت لبختى كمان وكمان، ونزعت الشبشب ومشيت بالشراب، وتعالت الضحكات، ولا أعرف ماذا قالت الفتيات ولكن أعتقد أن بعض هذه العبارات كان معناها: أننى رجل غيرمتحضر: كيف أمشى على الحصيرة بالشراب، كيف لا أعرف أصول التزحلق على الشباشب؟!

ويظهر أن حالتى صعبت على بعض الفتيات فاقتربت واحدة منى وأمسكت ذراعى. وحاولت أن أمنعها، ولكنها أصرت. . والحقيقة أنها لم تصر. ولكنى لم أعرف كيف أفلفص من ذراعها، فقد قبضت على ذراعى كأنها كماشة. . ونظرت إليها فوجدتها هزيلة ناعمة ورقيقة جدا، وتأكدت أن اليد التى تمسكنى هى يدها فعلا.

وجلست على الأرض مقرفصًا، وبدأت أفك زراير بنطلونى لآخذ راحتى فى الجلوس، وامتدت يد إحدى الفتيات لتعاوننى. . وكلما حاولت أن أوقف الفتاة عن هذا العمل الذى لا يليق وجدت نفسى عاجزًا أمام يدها القوية.

ويجوار إحدى المناضد جلست وقدمت إحدى الفتيات بعض البسكوت الناشف جدا. وضغطت على البسكوت بأصابعى. . ناشف جدا. . بأسنانى. . ناشف جدا. . ومددت يدى إلى كوب الشاى المر. . فكل مكان فى اليابان تجد فيه الشاى المر الأخضر، وكوب وراء كوب، وانسحبت المنضدة إلى جانب من الحجرة.

وفجأة ظهرت أربع فتيات ممتلئات الجسم وقصيرات أكثر من العادة، ومدت واحدة يدها ولم أكد ألمسها حتى صرخت. . إنها يد من حديد، ولم أكد أسحب يدى حتى وجدت نفسى فى حركة خاطفة قد سقطت على الأرض وقبل أن ألمس الأرض التقطتنى إحدى الفتيات الأربع، ولم أكد أنهض حتى وجدتنى فى الهواء. . فوق كتف إحدى الفتيات، وحاولت أن أخلص نفسى منها. . ونجحت فى النهاية. . ولكن وجدت نفسى قطعة من القماش. . كحصيرة يمسكها أربع فتيات. . كل واحدة قد أمسكت بيد أو برجل وأنا لا أفهم ما هذه اللعبة السخيفة جدا، ورحت أعلو وأهبط وأتطوح يمينا وشمالا، وأتلفت حولى لكى أجد هذا الصديق اليابانى الخبيث ولكنى لم أجده، حتى اسمه نسيته. . والبنات هنا لا يفهمن اللغة الإنجليزية ولا أية لغة أخرى غير اليابانية، وصرخت وكشرت ولعنت آباء البنات، وحاولت أن أعض واحدة منهن، ولكن بين أسنانى وبين ذراع أية واحدة مسافات طويلة، ولم أعرف كيف أصرخ، حاولت أن أصرخ بالتقسيط مرة. . أقول يا إيدى. . ومرة يا رجلى. . ومرة يا ناس فى عرضكم.

ولاحظت أن حركات التطويح من هنا لهنا قد زادت جدا. . وخفت من أن تتركنى الفتيات أسقط على الأرض مرة واحدة، أو أن أرتطم بالسقف أو حتى بأحد الجدران، ولاحظت أن فتاة خامسة قد اقتربت منى. . وتوقعت أن تقفز فوقى وتقف على صدرى وتأتى بحركات دبدبة مثلا. . معنى ذلك أننى سأموت هنا على الطريقة اليابانية.

دخت . . وأنقـذتنى هذه الدوخة من الشـعور بالغيظ والخوف والفضيحة، ولم أشعـربأى شيء. وأحسست بشيء من دوار البحر والبر والجو، وأخرجت لساني وأغمضت عيني وتظاهرت بالموت، وألقيت برأسي على جانب من جسمي والحركة مستمرة، ولكن أحسست أن بطني كالقربة المنفوخة وخشيت أن تنقطع القربة وتبقى كارثة مدوية!

ودخت للمرة الثانية . . كأنني في منطقة انعدام الوزن .

وأفقت من هذه الدوخة الطويلة على البنات الأربع وقد اجتمعن حولي لينزعن ملابسى . . وملابسى كانت فى ذلك الوقت تحتاج إلى كثيرين لينزعوها . . فهى ثقيلة وكثيرة . . ولم أفهم ما الذى يجرى حولى ، فأنا دايخ فعلا ، وفى أثناء هذه الدوخة لمحت وجه الصديق اليابانى . . وكدت أقول له شيئًا ، ولكنى لم أستطع . . فلسانى هو الآخر ما يزال دائخًا . . كالمكوك يتحرك بين أسنانى ولكن لا يخرج منه شيء . .

وبعد لحظات نقلونى إلى غرفة مليئة بالبخار . . إنه الحمام اليابانى ، وخرجت الأربع فتيات ، وبقيت واحدة . . إنها السيدة العجوز التى تقف على الباب . . حاولت أن أجلس على قرافيصى . . حاولت أن أقف . . حاولت أن أستند إلى الحائط . . حاولت أن أعترض . . حاولت أن أقول أى شيء ، ولكنى لا أجد إلا الضحكات وإلا الانحناءات . . فأنا لا أريد أن أستحم ولا أريد هذا الهزار الثقيل . . ولم آت إلى هذا المكان بقصد الدوخة . .

ولكن لا فائدة ، تقدمت منى هذه السيدة ، ووضعت الكيزان الخشبية إلى جوارى وطلبت منى أن أملأ أحد الكيزان بالماء الساخن والكوز الآخر بالماء البارد ثم أصب الاثنين فى كوز ثالث؛ وبعد ذلك أصب الكوز الثالث فوق جسمى . . وهكذا إلى ما لا نهاية . . وكانت هى تردد ورائى . . واحد . . اثنين . . ثلاثة . . واحد . ولو عرفت هذه السيدة أن عدد الكيزان قد تضاعفت أمام عينى وأنها يجب أن تعد من واحد لعشرة ، لتركتنى . . فأنا عريان «ملط» أمامها!

وحاولت أن أقول لها إننى أعرف الآن عدد الكيزان وأنه لا داعى لأن تبقى معى وتبحلق بهذا الشكل . . وأشرت إلى الباب وقلت لها بالعربى : اخرجى يا شيخة ، الله يخرب بيتك!

وانحنت فى أدب وضحكت، ومعنى ذلك أنها ستبقى مهما فعلت، ومهما قلت، وعدت أقول لها: عطشان . . وأشرت بيدى إلى أننى عطشان . . وانحنت وخرجت . .

وقررت أن أقفل باب الحمام بالمفتاح . . ولكن الباب من غير مفتاح، ومن غير ترباس . وقررت أن أرتدى ملابسى . . ولم أجد الكيمونو، وهو الروب دى شامبر اليابانى . وأسندت ظهرى إلى الباب، وبدأت أجفف نفسى . وفجأة وجدت نفسى على أرض الحمام أتفادى أن يرتطم رأسى بالكيزان، وأن أغرق فى الحمام، لقد دفعت هذه السيدة الباب بقوة عجيبة . . وأسرعت ترفع رأسى من الماء، فلا يصح أن يلمس الإنسان حوض الحمام بيده أو بجسمه لأن ماء الحوض لكل سكان البيت ويجب ألا يلوثه أحد . .

واعتدلت فى أرض الحمام، مستسلمًا، ومددت يدى إلى كوب الشاى المر وشربت المر كوبًا وراء كوب . ونزعت السيدة الكيمونو الذى وضعته حول جسمى وأصرت على أن أستحم . . على أن تصب هى الماء فوق رأسى وفوق صدرى .

وحاولت أن تدلكنى . . كما تقضى التقاليد فى اليابان فصرخت واستجمعت قواى وألقيت بهذه السيدة فى حوض الحمام وخرجت كطرزان أبحث عن القردة شيتا .

ولم أجد أحدًا فى البيت . فصرخت وكأن الغابة كلها أخليت وكأن الوحوش هربت . . أو كأن هذه الغابة تحولت إلى لوحة على الحائط . بحثت عن الفتيات الأربع فلم أجد واحدة منهن . . بحثت عن الصديق فلم أجده، وإنما وجدت ورقة يعتذر فيها عن انتظارى؛ لأنه على موعد مع سياح آخرين فى بيت يبعد عنى نصف ساعة، وأنه سيلتقى بى فى الفندق بعد الظهر، وإننى يجب أن أدفع مبلغ ستة جنيهات تكاليف تدليك ورياضة .

ارتديت ملابسى . . وحاولت أن أجلس على الأرض أو على مقعد . . وجدتنى عاجزًا تمامًا . فجسمى كله يوجعنى، فلست رياضيًا، وإذا كنت رياضيًا فهذا النوع من الرياضة لا يتحمله إنسان فى الدنيا . وأشرت إلى السيدة السمينة القصيرة ذات الابتسامة الخبيثة أن تلحقنى بقرصين من الإسبرين . . انحنت معتذرة . . طلبت منها أى شىء لإزالة الصداع وآلام الظهر والصدر والساقين واليدين والعضلات . . فانحنت وعادت بمجموعة من الأسماك الجافة ثم بعض البسكوت الجاف جدا . وانحنت فى أدب . وحاولت أن أسخر منها، أن أرفعها فى الهواء كما كنت أفعل مع اليابانيات قبل هذا اليوم المشئوم . . لم أستطع . . حاولت أن أحنى لها ظهرى فى أدب . . ولكنى لم أستطع فظهرى يوجعنى جدا .

كل هذا الذى حدث لى لم أطلبه ولم أعرفه، فأنا اتفقت مع صديقى هذا على زيارة

أحد النوادى الرياضية النسائية . . لكى أرى المصارعة اليابانية بين النساء فقد سمعت أنها غريبة، وأنها رهيبة أيضًا. وأن هناك عددًا كبيرًا من اليابانيات الجميلات يلعبن هذه الرياضة . . وقد رأيت فى بعض الصور لفاتنات يابانيات وهن يقمن برياضة المصارعة العنيفة . . ولم أطلب أبدًا أن أذهب إلى بيت البهدلة والهوان.

وفى الفندق عرفت أن هذا الصديق قد أخطأ فى فهم ما أريد . . فلديه عدد كبيرمن السائحين . . ولهم مطالب مختلفة . . وقد تلخبط بين مطالبى ومطالبهم، فبعث بعضهم إلى مشاهدة المصارعة اليابانية وبعث بى إلى هذه البهدلة . .

وشىء آخر هو أننى عندما دفعت الحساب عرفت فيما بعد أننى دفعت ثمن أطعمة لم آكلها، وثمن زجاجات من الشراب لم أرها . . وهدايا يابانية لم آخذها.

وفى يوم كنت أجلس فى فندق دايتشى مع أحد موظفى مصلحة السياحة اليابانية ورويت له ما حدث . . فسألنى عن اسم الصديق اليابانى الذى ذهبت معه . واستأذن منى بعض دقائق وعاد يروى لى قصة أخرى . .

وروى لى أننى طلبت إهداء بعض اللوحات الزيتية . وأننى طلبت منه أن يتغدين ويتعشين على حسابى، وأننى طلبت إليهن الحضور فى الفندق لنقضى ليلة راقصة . . وأننى تنازلت لهن عن البالطو والبلوفر . . وأننى طلبت لهن شراء ملابس داخلية جديدة!

مع أننى لا أذكر شيئا من هذا كله . ولا يمكن أن أذكره فأنا لا أعرف اللغة اليابانية ولا أعرف كيف أتفاهم معهن . . وكل الذى حدث هو أننى عندما جلست فى هذا البيت الرهيب أبديت إعجابى باللوحات . وكان ذلك بالإشارة! وعندما قدموا لى الطعام اعتذرت عن تناوله وأشرت للفتيات أن يأكلن هذا الطعام . . ولما سألتنى هذه السيدة السمينة عن المكان الذى سأذهب إليه قلت لها الفندق.

وعندما حاولت اليابانيات أن يساعدننى على نزع ملابسى الداخلية رفضت . . فنزعن ملابسهن الداخلية أمامى . . وقد أعجبتنى الملابس وطريقة الخلع . . فقط!

ولم أتصور أن هذه هى التفسيرات المختلفة لتصرفاتى العادية جدا . . ولكن الشىء الذى لم أفهمه حتى الآن ولم أطلبه لا بالإشارة ولا بالعبارة هو هذه العلامات الزرقاء على ذراعى وعلى رجلي وعلي صدرى . . ثم خطاب الشكر الرقيق الذى وجدته فى جيبى بإمضاء الفتيات الأربع :

شكرًا على هذا الوقت الجميل الذى أمضيناه معًا!

سأموت من شدة الأدب!

الفندق الذى أنزل به يابانى ٨٠٪، ولكن الحياة فيه مستحيلة ١٠٠٪ . . الفندق اسمه : فوناجين . . اسمه غير موجود فى دفتر التليفون . . غير موجود فى أوراق الدعاية . كل إنسان يسمع اسم الفندق يطالبنى بأن أعيد نطقه مرة أخرى ويسألنى عن العنوان . . وهنا المشكلة . . فلا يوجد سائق تاكسى واحد استطاع أن يهتدى إلى العنوان . . رغم أن البطاقة التى تحمل اسم الفندق عليها خريطة . .

وهنا مشكلة أكبر وهى أن كل شوارع طوكيو ليس لها أسماء . . ولم تظهر الأسماء لهذه الشوارع إلا بعد الاحتلال الأمريكى . . فهناك شوراع رقم واحد واثنين . . وألف وباء . . والناس لا يعرفون هذه الأسماء الأمريكية، وإنما يتذكرون الأسماء اليابانية القديمة . . والمصيبة أنهم لا يعرفون الإنجليزية ويبدو أنهم لا يريدون ذلك . . لأسباب وطنية أو لأنهم مشغولون بالعمل عن الدراسة . . وأصبح من الصعب أن أسهر فى طوكيو ليلا، لأن العودة إلى الفندق مستحيلة . . والبحث عن الفندق فى الليل وفى الحوارى المظلمة من أصعب أعمال الجاسوسية . .

والحياة فى داخل الفندق صعبة جدا . . فالمشى طول النهار بالشبشب . . والشبشب صغير لا يدخل إلا فى بعض قدمى . . الشبشب لا يصلح إلا للأقدام اليابانية الصغيرة . . وغرفة النوم لها شبشب، ودورة المياه لها شبشب ولها قبقاب . . والحمام له شبشب . . والحمام نفسه كارثة كبرى . . فالاستحمام اليابانى شاق جدا وهناك شىء مؤلم آخر . . هو أنهم لا يعرفون البشكير . إن عندهم فوطًا صغيرة جدا . . ولكل واحد منا فوطة يجفف بهاجسمه . . مع أنها لا تصلح لتجفيف اليد الواحدة!

ودورة المياه مؤلمة . . فهى ضيقة جدا وكلها من البلاط الذى يشع بردًا وجليدًا . . وفى

هذا المكان الضيق جدا يجب أن تنزع بعض ملابسك ثم ترتدى الكيمونو فلا يصح أن تخرج من الكيمونو. . ويجب أن تترك الشبشب فى الخارج. . والفندق كله ليس فيه إلا دورة مياه واحدة وحمام واحد.

وتناول الإفطار تجربة كاملة فى الصبر والسلوان. . فلا يوجد فى الغرفة جرس. . وإنما يجب أن تخرج وتحاول أن تتفاهم مع الفتاة على أن الشاى الذى تريده هو شاى أحمر وليس شايا يابانيا. . وقد يساعدك لون المشمع الموجود فى الأرض على التفاهم مع الفتاة. . فهو عبارة عن مربعات خضراء وحمراء. . ففى كل مرة أقول لها: شاى من اللون الأحمر لا من اللون الأخضر.

وفى أول يوم أشرت إلى المربعات الحمراء من المشمع المفروش فى الأرض. فماذا كانت النتيجة!

أحضرت لى مفرشًا من المشمع.

وفي اليوم الثانى أحضرت شايا أخضر.

وفى اليوم الثالث لم يبق إلا الشاى الأحمر فأتت به جافًا. . وعملت الشاى لنفسى. .

وبعد ذلك عرفت أن الشاى الأخضر اسمه باليابانى: أوتشا. . والشاى الأحمر اسمه: كوتشا. . بقى أن أطلب منها براداً من الشاى الأحمر ومعه الكثير من السكر وبعض البسكوت. . وكل ما يخطر على بالك الآن لن يصل إلى ما حدث. . لقد أتت لى بصاحب الفندق لأنه ضخم كالبراد، ولأن له أولاداً كثيرين، ولأنه رجل زى السكر!

وإذا طلبت الشاى وانتظرت السكر برد الشاى ولم يحضر السكر. . وإذا طلبت السكر قبل الشاى جاء الخبز الأسود ولم يحضر الشاى. . والمصيبة أن الناس مؤدبون جدا جدا. . وأنهم حريصون على خدمة الضيوف ولا حدود لحرصهم ولا حدود لأدبهم إلى أقصى درجة. . وعليك أن تتخيل ما تشاء وكل خيالاتك صحيحة. . وأكثر!

وإذا أقفلت الباب فالدنيا حر. . وإذا فتحت الباب فالدنيا كلها سمك ورنجة وروائح أخرى لم أكتشفها بعد. وإذا أسندت ظهرى إلى الحائط، انزلق السرير من تحتى، وإذا أسندت ظهرى إلى المنضدة، سقط الراديو على الأرض. . وإذا أشرت بيدى جاءت الفتيات كل واحدة تسابق الأخرى فى الانحناء. . وإذا أشرت برجلى انطلق مدير الفندق يضع الحذاء تحت قدمى ويمسك الشبشب ثم يمسك عصا طويلة يضعها فى قدمى. . إنها اللبيسة!

وإذا كشرت تركونى وحدى وإذا ضحكت التفوا حولى.

ولكننى تعلمت منهم درسًا لا أنساه . . فقد جعلت أنحنى مثلهم وأجمع ملابسى وأنحنى مثلهم، وأرتدى حذائى وأنحنى مثلهم، وأحمل حقيبتى هاربًا إلى فندق بلا قباقيب ولا أحواض ولا أدب . . !

وأمام الفندق وجدت كل الفتيات ومدير الفندق وسائق التاكسى والطاهيات. وقد وقفوا جميعًا يودعوننى بانحناءات عميقة . . وانحنيت على الآخر . .

وفى اليوم الثانى أرسلت بنطلونى إلى الرفا!

* * *

واليابان دولة تحتلها أمريكا منذ عام ١٩٤٥ بعد أن ضربتها بالقنابل الذرية فى نجازاكى وهيروشيما.

وقد نشرت الصحف هنا أخيراً أن الجنرال ديجول أعلن فى مذكراته أن أمريكا ضربت اليابان بالقنابل على الرغم من أن اليابان كانت قد أعلنت رغبتها فى التسليم. ولكن أمريكا كانت حريصة على تحطيم القوة الحربية لليابان، وعندما دخلت اليابان قطعت كل بذور النزعات العسكرية منها . . فالدستور لا ينص على دين رسمى للدولة. وكان دينها الرسمى هو «الشنتوية» وهذا الدين أساسه تقديس الإمبراطور والوطن والأجداد، وقد استغلت الحكومات هذا الدين لدفع الشعب إلى القتال . . ونص الدستور الجديد على حرية الأديان وأن يصبح دين شنتو هذا دينا عاديا كالبوذية تمامًا . .

ونص الدين الجديد أيضًا على إلغاء الحروب . . على إلغاء حق اليابان فى الدفاع عن نفسها بأية صورة، فالذى يتولى الدفاع عنها هو الجيش والأسطول والطيران الأمريكى . . أما اليابان فيجب أن تؤمن بأن الحرب ليست أسلوبًا فى الدفاع عن نفسها أو إقناع الغير بوجهة نظرها. ونزعت أمريكا من اليابان جزيرة فرموزا وكوريا وعشرات الجزر الأخرى وأرغمت اليابان على أن تتعهد بألا تطالب بها فى أى وقت. ومساحة هذه الأراضى حوالى ١٥٠ ألف كيلومتر مربع. وأدخلت أمريكا الإصلاحات الزراعية وألغت بعض الاحتكارات ونزعت أملاك الإمبراطور . . ونزعت هيبته وقداسته أيضا . . وجعلت نصف حديقة القصر الإمبراطورى للشعب.

وعندما أصبح دين شنتو دينا عاديا، أصبح الإمبراطور إنسانًا عاديا. لقد سحبت أمريكا عرش القداسة من تحت الإمبراطور وأجلسته على كرسى عادى جدا . .

ولكن ماذا حدث لليابانيين؟ هل تغيروا؟ هل تبدلوا؟

أبدا . . فاليابان فيها كل المتناقضات . بل إنك تجد الرجل اليابانى الواحد مليئًا بالمتناقضات . . تجده مسيحيًا وفى نفس الوقت بوذيا . . ونجده يذهب إلى الكنيسة وفى الوقت نفسه يحرص على تعاليم بوذا ، أو يحرص على أن يحج إلى تمثال بوذا فى مدينة نارا حيث يوجد تمثال لبوذا طوله ١٩ مترًا ووزنه ٨٠٠ طن .

وإذا تزوج اليابانى المسيحى مثلا ، فإنه يأتى براهب بوذى ليعقد زواجه . . لأنه يعتقد أن الاستعانة برهبان وقساوسة من أديان أخرى لا تجعل زواجه ناجحًا . . وحتى اليابانى المتعلم جدا بعد أن يتردد على طبيب ممتاز فإنه فى الطريق إلى البيت يمر بأحد المعابد يسأل الراهب أن يعطيه بعض الأعشاب وأن يمر بيده على أماكن الألم . .

الرجل اليابانى متدين . . وفى بلاده مئات الألوف من المعابد . . ويكاد يكون وثنيا ، ولكن بيوت اللهو فى طوكيو وحدها أكثر من الموجودة فى حى سان جرمان أو سان ميشيل أو المونمارتر فى باريس . . بل أكثر من أماكن اللهو فى (ريبربان فى هامبورج بألمانيا . . وبنات الليل فى طوكيو مثلا ، مهذبات جدا ويتمسكن بكثير من المبادئ الأخلاقية . . فالغانية لا تكذب ولا تخلف الوعد ولا تسرق . . ولا ترى هى فى هذا كله أى تناقض ، ولكنها أراحت نفسها بأنها تبيع وتشترى ، بأنها تاجرة . . ومن أخلاق التاجر ألا يكذب . . فالأخلاق عند التاجر هى دعاية له ولبضاعته . .

والرجل اليابانى يأخذ من كل شىء أحسن ما فيه .

ففى اليابان تجد كل أوربا وأمريكا معًا ، فاليابان هى الجسر الذى ينقل أوربا إلى آسيا . . واليابان هى «الترانسفورمر» - المحول الكهربائى - الذى ينقل الغرب ويجعله فى صورة شرقية مهذبة جميلة .

ومع ذلك تجد اليابان فى عزلة تامة . . أو هى مشغولة بنفسها ، ولا تكاد تشعر بوجود الغير . فمثلا تجد اللافتات كلها باليابانى . . والمطبوعات باليابانى . والأجنبى ليس له أى حساب . . وألمانيا كذلك !

ذهبت منذ أيام لأشترى بالطو مطر . . ولم أكن أتصور أننى عملاق إلى هذه الدرجة . . فأنا طويل ووزنى عادى جدا . . ولكننى لم أجد بالطو واحدًا . البلاطى كلها أقصر وأضيق منى . والناس ينظرون إلى كأننى هبطت من كوكب آخر . أكثر المحلات لم

أجد فيها بالطو . ولم أجد فيها محلا واحداً يقول لى إنه فى استطاعته أن يفصل لى أحد البلاطى .

وفى اللوكاندة تجد السرير صغيراً والحوض صغيراً، والشبشب صغيراً، وفى الوقت نفسه تجد مطاعم أوربية ومحلات الشاى أو المشاهى - كلها على الطراز الأوربى . . ثم إعلانات فى الصحف عن المطاعم الغربية والسهرات الغربية . .

(الكافيتريا : أى محل للقهرة والشاى أقترح ترجمتها بكلمة القهوشية . . مساهمة منى فى مجهودات المجمع اللغوى!) .

ولكن كل شىء فى اليابان موجود . . الغربى والشرقى، الحزب المحافظ والحزب الشيوعى، والإمبراطور المقدس والإمبراطور الذى ليس له أى سلطان، وولى العهد الذى يتزوج فتاة من الشعب .

وفى الوقت نفسه تجد الناس هنا يقدسون الجبال .

والتعاليم البوذية صريحة فى أن الإنسان من الممكن أن يتعلم من أى شىء ومن كل شىء . وأن يشعر بالشبع وهو جائع . وأن يمسك يده عن الطعام وهو غنى . . المهم أن يعمل وأن يتقدم . .

وهناك قصة تقول إن رجلا سأل بوذا كيف أتعلم الدين . . فقال له : كما يتعلم اللص الصغير فن السرقة . .

وروى بوذا هذه القصة : خرج لص هو وابنه لسرقة أحد البيوت ودخل اللص الكبير وسرق الأموال والحلى . . وطلب من ابنه الصغير أن يتوارى فى أحد الصناديق . وبعد ذلك أحدث الأب بعض الأصوات وأضاء المصابيح فصحا أهل البيت . وهرب الأب وترك ابنه . . وانطلق أهل البيت يفتشون الصندوق الذى أخفوا فيه أموالهم وعندما أدرك الابن ذلك راح يموء كالقطة . . فعرف الناس أنها القطة وأنه لم يكن هناك لص . . وعادوا إلى الفراش . . وخرج الابن من الصندوق . . ورآه الناس فانطلقوا وراءه فى الظلام . . وفى الطريق المظلم مر الابن ببئر . . وأمسك فى يده حجرا وألقاه فى البئر . . وكان للحجر صوت هائل . . فأدرك المطاردون أن اللص سقط فى البئر فعادوا إلى البيت . . وهم يحمدون الله الذى أنزل العقاب بهذا اللص . . ولما عاد الابن إلى البيت راح يعاتب أباه . . ولكن أباه قال له : هكذا تتعلم السرقة . . يجب أن تتصرف . . أن تستفيد من ذكائك . .

وقد تعلم اليابانيون من كل الشعوب . . وقاموا بدور الأب ودور الابن ودور أصحاب البيوت . . تعلموا من التجارة والدين ومن الحرب ومن السلام ومن الحضارة الغربية ومن الوثنية الصينية . . ومن اللصوص . . وتعلموا منى درسًا لا يمكن أن ينسوه . . فقد لاحظوا أننى زهقت من أدبهم لدرجة أننى بدأت أرفض الأكل والشرب والنوم على طريقتهم . . وكانت النتيجة أنهم أخذوا يقللون أدبهم فاكتفوا بالركوع بدلا من السجود عندما يروننى . . واكتفوا بالقبلات بدلا من الأحضان عند تحيتى ، ولم أجد عند وداعى إلا تسع فتيات مع أن عدد الفتيات فى الفندق كان خمس عشرة فتاة . . تصوروا قلة أدبهم وصلت إلى أية درجة؟!

ولكنهم تعلموا وتقدموا .

وهنا فى طوكيو برج مرتفع يشبه برج إيفل فى باريس ولكنه أعلى وأجمل . . وقد استخدمت اليابان فى بناء هذا البرج حوالى ٤٠٠ طن من الصلب ، أى نصف الكمية التى استخدمت فى بناء برج باريس . . وهذا البرج تملكه هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية . . وفيه معارض ومتاحف وملاه وحديقة للحيوان . . وهو أعلى برج فى العالم كله . . أعلى من برج باريس ومن برج شتوتجارت فى ألمانيا . . وهو أجمل وأحدث وأدق .

إنه يدل بالضبط على العقلية اليابانية . . التى تأخذ كل شىء ولكنها تترجمه إلى أحسن وأروع . وهذه هى عبقرية اليابان فى النقل والترجمة والدعاية .

بالاختصار ، اليابان مثل أعلى لكل دولة تريد أن تعتمد على نفسها وتقف إلى جوار الدول الكبرى . . واليابان هى الدولة الصناعية النموذجية فى كل آسيا . .

ويبدو أن الرجل اليابانى بطىء إذا كان وحده ، ولكن إذا كانت هناك مجموعة من اليابانيين فهم قوة مندفعة . . واليابانى كالألمانى مطيع لمن يحكمه . فالولاء للحاكم لا حدود له . . والحاكم يقول : اعمل عمارة هنا . . اهدم عمارة . . اقتل . . اذبح . . اركع . . ابك . . انهض!

إن الرجل اليابانى بندقية ممتلئة دائما . . وربنا يستر .

ولكن البندقية لها الآن شكل آخر . .

أذكر أننى رأيت فى برج طوكيو جهازا صغيرا أعجبنى . . هذا الجهاز يشبه صندوق الكوكاكولا . . وبه زجاجة شانل . . وزجاجة أربيج . . وهناك عشرات الصناديق كل

واحد منها به روائح مختلفة . . وعلي الزائر أن يضع فى ثقب الزجاجة التى تعجبه قطعة نحاسية من فئة عشرة ينات «قرش صاغ» . . ثم يضغط على الثقب . . في هذه اللحظة تخرج الرائحة التى يريدها على هيئة رذاذ يستمر ثلاث ثوان . . والرائحة قوية فعلا . .

وأنا أعتقد أن اليابان الآن هكذا . . تضع فيها الفلوس وتضغط عليها فيخرج العطر . . والكلام الحلو والمنظر الجميل!

ويعجبك كلامه ، ولكن فى الوقت نفسه تحس أنه ضحك عليك وتضحك أنت إعجابًا به لأنه ضحك عليك ، ولأنك لا تريد أن تبدو أمامه مغفلا!

عندهم كل شيء!

لا تزال طوكيو أجمل مدينة رأيتها ليلا فى اليابان حتى الآن . . فالشوارع تصبح خيوطًا من اللؤلؤ . . والإعلانات هنا باهرة . . لها أشكال وألوان عجيبة جدا . ولا يوجد إعلانان متشابهان . . وعلى أسطح البيوت أباريق الشاى تمتلئ بالنور الأحمر وتفرغ ما فيها فى فناجين تكاد تسقط فوق رءوس الناس . . وأكواب البيرة الكبيرة جدا هى الأخرى تمتلئ ولها رغوة بيضاء . وهذه الكرة الأرضية تلف حول نفسها وحولها قمر وشمس . . كل ذلك إعلانات فوق الأسطح . . وأعجبنى إعلان فى أحد المحلات . . الإعلان لا يمكنك أن تراه بسهولة . . ولكن المحل وضع فى الفترينة راديوهات صغيرة وثلاجات وأدوات الطبخ . . ولكن عندما تنتقل من الفترينة إلى مدخل المحل تشعر بهواء ملتهب فوق رأسك . . فتنظر إلى أعلى فتجد مدفأة . . فالمحل يبيع المدافئ أيضا . .

رأيت هذا أيضًا فى برلين ولم يكن إعلانا عن الدفايات ولكن إعلانًا عن الإسبرين الذى هو علاج ضد أضرار المدفأة ! !

والمحلات تبدأ عملها من الساعة التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساءً . . وبعضها يبقى حتى التاسعة والعاشرة ومنتصف الليل، وكل أماكن اللهو تقفل أبوابها عند منتصف الليل .

والمحلات هذه لا تقفل أبوابها فى يوم واحد . . وإنما لكل محل يوم . ولذلك تبقى الشوارع حية ليلا ونهاراً . .

وفى الساعة الخامسة حيث ينتهى العمل فى معظم المحلات التجارية نجد مئات الألوف من الفتيات . . فمعظم من يعمل فى المحلات فتيات . . ولابد أن الفتيات يعملن فى المصانع أو الورش . والمرأة هنا تعمل أى شىء بما فى ذلك مسح الأحذية على الأرصفة . .

والفندق الذى أنزل به لا يوجد فيه رجال مطلقًا الرجال يعملون فقط فى مكتب البريد والاستعلامات . . أما بقية الأعمال فتقوم بها فتيات صغيرات جميلات . . الفندق به ٦٢٤ غرفة . .

أنا رأيت فى غرفتى هذه فى خلال أسبوع واحد أكثر من ١٥ فتاة صغيرة يدخلن بالشاى وبالغسيل والمكوى والصحف . . عددهن كبير جدا . . ويعرفن من اللغة الإنجليزية بضع كلمات أهمها عندما تقدم لك الفاتورة : امض هنا من فضلك .

وشوارع طوكيو لا تبهرك فى النهار . . فهى شوارع من الممكن أن تجد لها مثيلا فى أى بلد . . ولكن لن تجد مدينة فى ضخامة طوكيو فى أى مكان . . وتدهش عندما تجد الشوارع ممتلئة ولكن بصورة عادية . . وقلة الزحام سببها أن المدينة كبيرة وأن الناس يعملون ليلا ونهارا .

وفى طوكيو عيب واحد هو التاكسى . . فالتاكسيات فيها قليلة جدا وليس للتاكسى موقف ولا تستطيع أن تناديه . . ومصيبة أخرى أن جميع سائقى التاكسى عندهم أعصاب الفدائيين فى الحرب الأخيرة والذين كانوا يركبون الطوربيد وينطلقون به من الطائرة ويدخلون به مداخن السفن البريطانية والأمريكية . . وكانوا يجلسون إلى جوار الألغام وينسفونها ويموتون بها ومعها!

إنهم من هذا الطراز من الناس . . من السفاحين الانتحاريين .

وهؤلاء الفدائيون لم ينسوا أن الحرب قد خمدت وأن السيارات ليس الغرض منها أن تنفجر فى السائق والزبون معًا . . ولكن هذه عيوب اليابانيين . إنهم يعيشون على التقاليد ولا ينسون الماضى بسهولة . . فالويل لنا من إخلاصهم ومن ذاكرتهم التى لا تضعف .

والرجل اليابانى يسألك هذا السؤال الذى يعرف جوابه مقدما وينحنى لك شاكرا، وكأنه سمعك تقول له : إن بلادكم عظيمة .

ويسألك : ولكن ما شعورك عندما رأيت اليابان فى أول دقيقة؟

فتقول : شعرت بخيبة أمل .

فيحزن الرجل - وكل يابانى - حزنًا شديدا جدا ويصاب بخيبة أمل فيك أنت، ويرثى لحالك ولضعف نظرك وثقل سمعك وعجزك عن إدراك الجمال والنشاط فى اليابان من أول دقيقة . .

فتعود تقول له: لكن الآن . .

وقبل أن تكملها ينحنى لك اليابانى يشكرك على أنك غيرت رأيك وأنك أنت الآخر معجب جدا باليابان وبأنك تعتبرها وطنك الثانى .

ولكن ما رأيى أنا فى اليابان؟

أنا أنحنى لهذه البلاد على الطريقة اليابانية وزيادة شوية .

* * *

على باب غرفتى مطبوعة هذه التعليمات :

١ ـ لا تضع مواد ملتهبة أو قابلة للانفجار فى غرفتك .

٢ ـ لا تدخن فى السرير .

٣ ـ لا تستخدم أية مكواة أو مدفأة كهربائية فى غرفتك .

٤ ـ اقفل الباب وراءك دائما .

٥ ـ فى حالة الطوارئ استخدم سلم الحريق .

٦ ـ لا تحاول أن تستخدم أية وسيلة للهرب أو النزول من النافذة إلا بعد أن تصدر لك الأوامر من إدارة الفندق .

وتعليمات أخرى . . فعلى السرير مطبوع هذه العبارة: لا تدخن فى السرير . . وعلى الباب مكتوب: اقفل البا ب وراءك .

وفى دورة المياه ـ ويسمونها «بيت الراحة»، وفى هونج كونج يسمونها «بيت الارتياح» ـ ورقة مطبوعة ملفوفة حول الأكواب وحول أماكن الراحة: لقد عقمناه لك . .

والتعليمات كلها تدل على الخوف من الحريق . . فالحرائق هنا كثيرة جدا . . فالبيوت مصنوعة من الخشب كلها . . لكثرة الزلازل والبراكين التى تحدث فى اليابان وتؤدى إلى هدم البيوت وإحراق المزارع والأشجار والمبانى . . والتعليمات فى الفنادق تدل على مخاوف الناس فى أى بلد .

ففى الفلبيين يطلبون من الزبائن ألا يلعبوا القمار فى الغرف .

وفى هونج كونج تعليمات تحذر الزبائن من أن يجعلوا غرفهم للدعارة . .

واليابانيون مؤدبون . . ويكفى أن تقرأ على المنضدة فى الغرفة هذه العبارة المكتوبة بالأحمر وبخط كبير جدا لتعرف ماذا يقصدون : نحن يسرنا أن تستخدم صالة الفندق للحفاوة بكل من يزورك .

يعنى ممنوع الحفاوة بزوارك وزائراتك فى الغرفة . .

ولكننى لا حظت ـ مع الأسف ـ أن الحفاوة تتم فى الصالة وفى الغرف أيضًا!

والناس يبتسمون وفى أدب عميق ينحنون .

وأمس تعلمت الانحناء فى الصالة واليوم أجيد الابتسام فى الغرفة!

* * *

قرأت قصة لأديب روسيا تولستوى . . والقصة معناها عميق . . بل لها عشرات المعانى العميقة . . وأنا اخترت أحد المعانى فقط . . القصة تقول :

إنه كان فى إحدى مناطق المراعى فى روسيا جماعة يقسمون الأراضى الواسعة بينهم بطريقة غريبة بعض الشىء . . فكل إنسان يركب حصانه وينطلق مع شروق الشمس . . وكل الأراضى التى يمر بها تصبح ملكًا له بشرط أن يصل إلى النقطة التى بدأ منها . . قبل غروب الشمس . .

والذى كان يحدث هو أن كل واحد منهم كان ينطلق بحصانه بأقصى سرعة لكى يقطع أكبر مساحة من الأرض، ولكن عندما يحاول العودة إلى النقطة التى بدأ منها يكون حصانه قد تعب . . أو يكون مات منه فى الطريق . .

وبعض هؤلاء الناس قتلوا خيولهم . وبعضهم بعد أن مات حصانه حا ول أن يعود على قدميه فمات هو الآخر . . دون أن يصل إلى النقطة التى بدأ منها!

فليس المهم أن تنطلق بسرعة فى البداية ولكن المهم أن تحسب حساب طريق العودة . .

المهم أن تعود خفيفًا سليما وقبل غروب الشمس .

اليوم أحسست أن حصانى قد مات منى أو على وشك أن يموت . . فقد جمعت الكثير من الأشياء فى حقائبى ولا أعرف كيف أنقلها أو أتركها . . وكل إنسان أسمع أنه فى طريقه

إلى القاهرة أعطيه بعض ما معى . . واليوم يوجد فى القاهرة سبعة من الأصدقاء لديهم كتب اشتريتها من الهند وإندونيسيا والفليبين وأستراليا واليابان . . ولديهم تماثيل أتيت بها من جزيرة بالى، وقواقع مكتوب عليها أسماء أصدقائى أتيت بها من رأس كومورين فى أقصى جنوب الهند، واشتريتها من سنغافورة . . ومن أستراليا اخترت مجموعة نادرة من كتب الأدب والفلسفة، وعلم النفس . . ومن الفليبين كتبًا وملابس وآلة تصوير تعبت من حملها.

وأمس شعرت أن المشكلة تجددت مرة أخرى، وحقائبى مليئة الآن بملابس الصيف وملابس الشتاء؛ فقد رأيت فى أربعة أشهر جميع فصول السنة. رأيت الصيف فى الهند وأندونيسيا. والشتاء والربيع فى أستراليا. واليوم أعانى فصل الخريف فى اليابان . . وملابسى الصيفية أخشى أن أتركها فى الفندق فهى قديمة . . وهى متواضعة جدا بالنسبة لملابس الخادمات هنا، وبالنسبة للصناعة اليابانية . . وأخشى أن أتركها فيشحنها اليابانيون إلى القاهرة . . لشدة أدبهم وأمانتهم . . ولا أعرف إن كنت أستطيع أن أرميها من الطائرة . . ولكن مع الأسف نوافذ الطائرة لا يمكن فتحها إلا فى حالات السقوط!

وحاولت أن أعطيها لإحدى الجمعيات الخيرية ووجدت جمعية للمكفوفين ودخلتها على سبيل الاستطلاع، ولكنى لم أبق سوى لحظات وخرجت فقد وجدت ملابسهم نظيفة أنيقة ومكوية ومنشية.

فكرت فى أن أتمشى مع أحسن التقاليد اليابانية . . وهى أن أشترى ملابس جديدة أضعها فوق الملابس القديمة . . تمامًا كما يفعلون بالأشجار التى يغطونها بالقش، فتجىء الحشرات وتسكن فى القش خوفًا من البرد، فإذا طلع الربيع نزعوا القش وأحرقوه بما فيه من حشرات . .

وقد لاحظت أن القماش اليابانى يصيبنى بالهرش . . فعندى حساسية ضد الحرير والقطن اليابانى - ولا أعرف إن كانت هذه حساسية أو حشرات ترانزستور - أى صغيرة جدا جدا - ولذلك سأحتفظ بكل هذه الملابس التى تلتقط الحشرات وأحرقها بعد ذلك!

والمعقول جدا أنه لا داعى للملابس اليابانية ذات الحشرات الدقيقة والاكتفاء بملابسى القديمة . .

والمثل عندنا يقول: من فات قديمه تاه . .

وأنا، حتى إذا أردت أن أترك القديم، فإننى لا أريد أن أتوه . . أن أضيع . . فما تزال المرحلة طويلة أمامى!

وفكرت فى قصة تولستوى: فإما أن أملأ حقائبى بالأشياء التى تباع رخيصة هنا. وفى هذه الحالة، لا يمكن أن أعود إلى القاهرة عن طريق طوكيو ولا عن طريق نيويورك . . وإما أن أعود وفى هذه الحالة يجب أن أستغنى عن القديم الذى عندى والجديد الذى أحلم به . .

وفى قصة تولستوى عاد كثيرون إلى النقطة التى بدءوا منها أحيانًا بعد الغروب وأحيانًا قبل الغروب . . وكانت معهم خيولهم . . وكانوا بلا خيول أو جاءت الخيول بلا أصحابها . .

وآخرون عادت بهم خيولهم موتى، الحصان حى . . وصاحبه ميت . .

وبعد تفكير قررت أن أتصرف بشكل آخر . . سأصل بعد الغروب ومعى حصانى لا هو تعبان، ولا أنا كسبت أرضًا ولا هو.

ولكن التنقل فى بلاد واسعة أعظم وأروع . .

والذى أحمله فى رأسى وفى قلبى أجمل من كل ما تحمله أية حقيبة . . فلن أحمل معى أى جديد ولا أى قديم . . يكفى أننى أحمل رأسى . .

لقد انطلقت ـ كما تقول القصة ـ عند شروق الشمس وسأعود بعد غروبها لا فى اليوم نفسه ولكن بعد ذلك بمئات الأيام . .

لا صغيرة ..
ولا شعبها أقزام!

كل يوم تتغير فكرتى عن هذه البلاد . . كنت أتصور أن اليابان بلاد صغيرة يسكنها شعب ضئيل الحجم، يأكل فى أطباق صغيرة وملاعق صغيرة ويقعد على الأرض ويمشى فى زحام شديد كأنه موج البحر . . وكأننى العملاق جليفر فى بلاد الأقزام . . ولكننى وجدت اليابان ليست صغيرة. فعدد سكانها ١٠٠ مليون وليسوا جميعا من الأقزام ففيهم أناس طوال القامة بيض الوجوه جدا، وليس كل شىء صغير عندهم، ففى طوكيو أعلى برج فى العالم، أعلى من برج إيفل بباريس . . وإذا كانت عندهم راديوهات صغيرة ويحاولون الآن عمل جهاز للتليفزيون يمكن وضعه فى الجيب، فإن لديهم محطات ضخمة وجسورا هائلة وأكبر سفن فى العالم ومصانع مساحتها شاسعة .

وكنت أتصور أن الصين بمئات الملايين من سكانها هى مصدر القوة بين كل سكان آسيا . أو أنها هى وحدها التى ستكتب تاريخ العالم فى القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين . . وقد رأيت نشاط الصينيين فى كل الدول الآسيوية، إنه منظم وقوى .

ولكن اليابان هى الأخرى قوة جبارة، إنها محتلة الآن . . ولكنها تشبه الأسد المقيد، إنه مقيد ولكنه مخيف أيضا . .

وإذا كانت اليابان قد تغيرت وأصبحت دولة صناعية قوية ؛ فإن آسيا التى أسيلت دماؤها بأسلحة اليابانيين قد تغيرت هى الأخرى . وآسيا كلها واليابان فى منتصف الطريق . . فاليابان تمد يدها لكل الدول . . واليابان تحاول أن تجعل نفسها ضرورة لابد منها بالنسبة لكل جيرانها، وكلهم أعداؤها . .

وكانت اليابان والصين هما الدولتان الوحيدتان المستقلتان قبل الحرب فى آسيا . . وأصبحت اليابان هى الدولة الوحيدة الكبرى المحتلة بعد الحرب .

وهناك عوامل غيرت معالم آسيا كلها ، وغيرت نظرتها إلى اليابان أيضًا كدولة عسكرية استعمارية . .

وهذه العوامل الثلاث هى : الحركات الوطنية ، والشيوعية ، والحياد .

فالحركات الوطنية حررت الهند وباكستان وبورما وسيلان وإندونيسيا والفليبين وكوريا وكمبوديا ولاوس وڤيتنام .

ولم تبق هناك دول مستعمرة حتى الآن سوى هونج كونج البريطانية .

والشيوعية هى الأخرى كان لها أثرها فى آسيا . . فانتصار الاتحاد السوڤيتى فى الحرب الأخيرة على ألمانيا قد أدى إلى استقلال الصين وكوريا الشمالية ومنغوليا الخارجية وڤيتنام الشمالية . .

ثم ظهور الدول المحايدة بين المعسكرين . . وهذه الدول تدعو للسلام وعدم الانحياز . . هذه الدعوة أقامت دول كولومبو : الهند وسيلان وبورما وإندونيسيا . وقد لعبت كتلة الحياة دورا مهما فى باندونج سنة ١٩٥٥ .

ثم ظهور اتفاق سياتو (أى دول جنوب شرق آسيا) ، ويتألف من تايلاند والفليبين وباكستان وأمريكا وبريطانيا وفرنسا وأستراليا ونيوزيلندا . وقام حلف بغداد المزعوم الذى كان يضم بريطانيا وتركيا وباكستان والعراق وإيران .

ثم ظهرت أحلاف أخرى ضد اليابان نفسها وضد مطالب اليابان فى المستقبل تضم أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا .

ومشكلة اليابان الآن : أنها رغم احتلال الأمريكيين لها تريد أن تصادق الدول التى تغيرت ملامحها ، واستقلت كلها . . إن اليابان أصبحت دولة جديدة وعفا التاريخ عما سلف . . وكل يوم يقوم الخبراء من اليابان برحلات باسمة لكسب الود . . أو رحلات من طراز (صافى يا لبن) بين كل الدول الآسيوية والصين خصوصا والدول الأوربية التى كانت تعد أعظم الأسواق لتصريف البضائع اليابانية . .

واليابان لها مشاريع صناعية كبرى فى آسيا . . هذه المشاريع هى ضمن التعويضات

التى تدفعها اليابان للدول التى اعتدت عليها واحتلتها فى أثناء الحرب الأخيرة . ولذلك اشتغلت الأيدى اليابانية . . هل تتصور أن عدد العاطلين فى اليابان هو مائة ألف ، وأن عدد الأيدى العاملة هو ٤٧ مليونا . . وأمريكا تستورد من اليابان كميات هائلة من المنتجات . . والناس يقولون هنا : هذا فضل عظيم ولكن إلى متى؟ فإذا تخلت عنا أمريكا تكون مصيبة لنا؟ ولا بد من أن تتخلى أمريكا عن اليابان .

واليابانيون يعلمون هذا بوضوح . . وهم لذلك يبعثون بالخبراء والدبلوماسيين ليبوسوا رءوس الدول المجاورة ، فإذا تم الصلح انطلقت اللعب اليابانية والسيارات والراديوهات والأقمشة وامتلأت الأسواق بكل شىء مكتوب عليه : مصنوع فى اليابان .

فاليابان ليست صغيرة وإنما هى عملاق يخطو إلى الوراء . فتظن أنه يتراجع ولكنه فى الحقيقة يتحفز ليقفز إلى الأمام . .

* * *

فى المطاعم اليابانية يضعون أمامك ورقة صغيرة مكتوبًا عليها : «نشكرك على حضورك ونرجو إن كان هناك أى تقصير أن تدلنا عليه لكى نتلافاه فى المرة القادمة» . عبارة جميلة مؤدبة مهذبة . ولكنى لاحظت أن اليابانيين لا يقصدونها تمامًا . فقد حاولت أن أدخل بعض التعديلات على الأطعمة وكانت النتيجة : واحد لصالح المطعم وصفر لصالحى أنا . .

أما الموسيقى التى أسمعها من بعيد فليست تحية لهذا الفشل ، ولكنها صوت ضفادع من نوع غريب يحتفظون بها للدلالة على أن الربيع على الأبواب !

وقد عرفت بعد ذلك أن المشكلة هى مشكلة اللغة ؛ فاللغة الإنجليزية نادرة الوجود هنا ، ندرة السلع الأجنبية . .

فمن النادر أن تجد سلعة أجنبية فى اليابان . .

حتى اللغة الإنجليزية صنعوها وطوروها وأصبح لها معنى ونطق غريب جدا عن اللغة الإنجليزية . وإذا استمعت إليها عن قرب فإنه يصعب عليك أن تفرق بينها وبين اللغة الصينية .

فى الفندق الذى أنزل به أطلب كل يوم فنجان شاى أو براد شاى . . من غير لبن ومن غير ليمون ومن غير عيش . . كل يوم . .

وفى يوم جاءنى ضيوف فقلت للفتاة الحلوة: براد شاى وفنجانان من الشاى. وكانت النتيجة أنها أتت ببراد ملىء بالشاى وفنجانين بهما شاى أيضًا.

ولو ملأت الفتاة هذه الفناجين عدسًا فإننى أمام أدبها ورقتها وحرصها الشديد على أن تلبى كل طلب سأجد نفسى عاجزا عن رفض أى شىء..

وتعودت أن أكتب كل ما أريد.. ولكن هذه الطلبات كان من الصعب تنفيذها.. وأخيرا جعلت كل طلباتى مكتوبة باللغة اليابانية، ولاحظت أن هذه الطلبات المحدودة ينفذها كل مطعم على هواه.. فأصحاب المطاعم كلهم كالمجتهدين من رجال الدين.. فبينهم الحنبلى جدا.. وبينهم الشافعى المتسامح، وبينهم من يرفض تلبية هذه الورقة لأنها لم ترد فى كتاب من قبل!

* * *

وفى يوم ذهبت إلى مطعم «سويهرو» وهو من المطاعم الشهيرة فى طوكيو.. الدور الأخير عبارة عن مطعم على الطريقة اليابانية.. يعنى يجب أن تنزع حذاءك وترتدى الشبشب.. ثم تجلس على الأرض وفوق شلتة والشلتة فوق حصيرة ناعمة.. وأمامك منضدة.. ووراءك فتاة الجيشا ترقص وتغنى.. وغناؤها يشبه نقيق الضفادع المعروفة عندنا.. وتدهش أنت كيف تحتفظ فى هذا الجسم الأبيض الناعم بمثل هذه الحيوانات الكريهة، وتتعب كيف دخلت هذا العنق الحريرى الملفوف..؟

وعلى المنضدة يوجد وابور بوتاجاز.. وبعد لحظة يحضر الشاى اليابانى الأخضر.. وإلى جانب الشاى يوجد طبق طويل به فوطة بيضاء ملفوفة وساخنة لكى تمسح بها يديك إن كانتا قد اتسختا من حذائك أو شعرك وأنت تهرش متعجبًا للأسباب التى ذكرتها من قبل..

ومع الفوطة تجىء جرسونة أو خادمة، وقد ارتدت الكيمونو. وليس من الضرورى أن تتحدث معك، فلا فائدة من الكلام.. فهذا المطعم يقدم طعاما يابانيا.. طبقا يابانيا واحدا.. هذا الطبق اسمه السوكياكى. وهو أشهر طبق فى اليابان والناس يأكلونه فى البيوت، عند الحفاوة بإنسان عزيز عليهم لأنه غالى الثمن.. وبعد لحظات تحضر الفتاة ومعها طبق يشبه الطشت الصغير وعليه شرائح من اللحم.. كمية كبيرة جدا.. وطبق آخر من البصل الأخضر، وإبريق كبير، ستعرف فيما بعد أن به صلصة سوداء وستعرف فيما بعد أنها مخلوطة بالعسل الأسود.. وطبق آخر به زبدة.. وبعد ذلك تحضر لك

عودين من الخشب لتأكل بهما . . وتشعل الوابور وتضع عليه طاسة من النحاس الأسود وتضع الزبدة والبصل الأخضر والفجل والجرجير والبقدونس والصلصة السوداء واللحمة الحمراء التى تتحول إلى بيضاء لأسباب لا أعرفها . .

وتضع أمامك سلطانية فى حجم فنجان الشاى . . وفى هذه السلطانية يوجد البيض المضروب . . وعندما يسقط اللحم الساخن على البيض البارد فإن البيض يجمد ويسخن، أما اللحم فيبرد . وعليك أن تأكل هذا كله . . وإذا حاولت إدخال أية تعديلات على هذا الطعام اليابانى الوطنى وجدت صعوبة لا حدود لها . . فإذا طلبت استبعاد السكر، أتوا لك بصلصة من غير سكر ولكن فيها شىء آخر غريب الطعم . . وإذا طلبت استبعاد البصل أتوا لك بأعواد الخيزران ووضعوها فى الزبدة . . وإذا طلبت استبعاد الزبدة أتوا لك بالسمك النيئ .

وأمام الأدب والذوق والرقة والانحناءة والركوع والسجود إلخ تنسى تلك الورقة التى ترجوك أن تصارح المطعم بأى عيب . وسينتهى بك الأمر إلى أن العيب فيك أنت . . أما اليابان وأهلها وطعامها فعلى خير ما يرام . .

وعندما يسألنى الناس عن رأيى فى اليابان أقول صادقا : عظيمة يا بختكم!

وعندما يسألوننى عن رأيى فى الطعام اليابانى، فإننى أقول كاذبا : لذيذ . . يا بختنا . . !

فى طوكيو مسرح اسمه كوكوساى، ومعناه : العالمى . . وهذا المسرح يقع فى حى أساكا . . وكل شوارع طوكيو ليس لها أسماء ولكن الأحياء لها أسماء . . أما الشوارع فيعرفونها هكذا : الشارع الرئيسى فى حى كذا . . ولذلك فأنا لا أعرف اسم الشارع الذى يقع فيه هذا المسرح . . وأنا أعتقد أن هذا المسرح هو أعظم مسرح رأيته فى حياتى . . إنه أروع من الفولى برجير فى باريس وأجمل من كل مسارح ودور أوبرا إيطاليا، وإن أى مدير مسرح يجىء ليتفرج على الإدارة المسرحية هنا وإدارة الضوء ونزول وطلوع وطيران الستار هنا وظهور السينما والتليفزيون على هذا المسرح فسيشعر أنه لا يعمل مديرا لمسرح، وإنما هو يعمل فى تصليح بوابير الجاز!

وعلى جانبى المسرح توجد ١٢ نافذة يخرج منها الضوء يلاحق الراقصات . . وفى المسرح ٢٠٠ راقصة من أجمل بنات اليابان . . يختارهن المسرح بالمسابقة، وبعد تعليم خاص لفنون الرقص التقليدى والحديث .

وعلى المسرح مناظر مذهلة تتغير وتتلون وتتقدم وتتأخر فى ثوان . . وهذا المسرح لأنه «عالمى» يعرض كل فنون الدول الشرقية والغربية . . اليابان واليونان وإيران وأمريكا . . وقد ظهر على المسرح إعلان رائع لشركة الطيران الهولندية الملكية : فظهرت مضيفات وراءهن طائرة كاملة ، وفى السقف طائرة أخرى تحلق فوق رءوسنا ، ثم ظهر شريط سينمائى . . وفى أقل من ثانية اختفى هذا كله . . وظهر منظر آخر فى بلاد اليونان .

وأروع مشهد هو الزلازل والبراكين . . وفى اليابان الدخان والحرائق والانهيارات وكلها تظهر فى دقة مخيفة . . لقد تصورت أن الدخان سيخنق أنفاسنا جميعًا . . ولكننى لم أشم هذا الدخان الذى انطلق من المسرح إلى كل مكان . . وفى لحظة اختفى . . ولم أجد أحدًا أسأله عن تفسير هذه الظاهرة الغريبة . .

أما المشهد الأخير ، وهو التاسع والعشرون ، بعد ساعتين ، وفيه يتحول الستار والمسرح إلى مئات المصابيح الكهربائية الملونة ، والتى تدور حول نفسها كالنجوم ، من بين هذه المصابيح الدقيقة الصغيرة تخرج الراقصات واحدة بعد واحدة ، حتى يمتلىء بهن المسرح . . لم أر أجمل ولا أروع من هذا . .

الحقيقة إن اليابان تفوقت فى كل فروع العلوم والفنون ، وتفوقت فى صناعة كل ما فى البيت والمطعم والشارع والقطارات والسيارات . . كل شىء . . ولا أدرى لماذا لم يحاولوا تعديل قائمة الأطعمة اليابانية !

إن هذا الموقف العنيد يؤكد أنهم أصغر من العادات والتقاليد . . إنهم لا يزالون أقزاما !

ليس غبيا.. ولكن!

كل يوم تسأل نفسك فى اليابان: هل هذا الشعب اليابانى بليد الفهم؟ هل هو غبى؟

وتنظر إلى ما حققه اليابانيون بعد الحرب، وتنظر إلى الصناعات الضخمة والأذواق الجميلة، وتتذكر تفوقهم فى كل فروع العلم والأدب والفن والصحافة. إن صحيفة اسمه «أساهى» توزع ستة ملايين نسخة يوميا!

وتقول فى نفسك: لا يمكن أن يكون الناس هنا أغبياء، ولكن لابد أنهم يفهمون بطريقة خاصة جدا، وأحيانا تعتذر لهم فتقول: إن المشكلة فى اليابان هى مشكلة اللغ الإنجليزية التى لا يعرفونها.

ولكن المصيبة أن المواقف المحرجة المحيرة لا تقع إلا من الذين يعرفون اللغة الإنجليزية!

فمثلا طلبت من استعلامات الفندق أن تحزم بعض كتبى وتبعث بها إلى القاهرة بطري البحر، وفهمت أن الكتب تحتاج إلى لف بالورق والدوبارة ثم كتابة العنوان عليها، ولم أعل أى اهتمام على لف الكتب أو ربطها.. وسافرت بعد ذلك إلى هيروشيما وجنوب اليابا وبقيت أسبوعا، وفى يوم فكرت أن أطمئن على هذه الكتب وسألت عنها، وفوجئت بأ الكتب ملفوفة وموضوعة على الأرض، ولم يدهش موظف الاستعلامات وكأن شيئا ل يحدث.. وسألته كيف تترك هذه الكتب كل هذه المدة دون أن تبعث بها إلى البوستة؟

وعرفت أنه كان يجب أن أدفع ثمانية قروش أولا «ثمنا» للف بالورق والدوبارة. ودفعت..

أما إرسال الكتب للبوستة فأنا وحدى الذى يجب أن أتولى هذه العملية. هل تعر أين توجد البوستة؟ إنها فى نفس الفندق وعلى مسافة ثلاث خطوات!

ذهب دبلوماسي عربي - لا داعي لذكر اسمه - إلى محل لتفصيل الملابس وقدم للترزي قطعة من القماش لتفصيلها بالطو. واشترط أن يكون البالطو من طراز خاص، ووقف الترزي يتحدث إلى زميل له طويلا جدا. . وسأله الدبلوماسي إن كان هناك أي عيب في القماش. . فكان الرد: ولكن الجو ليس باردا في اليابان ولذلك لا داعي لتفصيل بالطو من وبر الجمل.

وقال الدبلوماسي: ولكنى لا أتحمل البرد هنا.

وعاد الترزي يتحدث إلى زميله طويلا جدا، وعاد الدبلوماسي يسأل إن كان هناك عيب آخر في القماش الذي يقلبانه بين أيديهما. .

وفهم أن الترزي يناقش زميله إن كان قد سمع آخر أنباء الأرصاد الجوية فقد علم هو أن الأرصاد الجوية تنبأت بأن الجو في اليابان لن يكون باردا لمدة خمس سنوات. وعلى ذلك فلا داعي للبالطو إطلاقا!

ولما ضاق الدبلوماسي قال: يا سيدي سأرتدي هذا البالطو في موسكو في سيبيريا. . أنا حر!

واندمج الترزي وزميله في مناقشة حامية طويلة جدا. ولم يطق الدبلوماسي صبرا فسألهما من جديد: ألا يمكن تفصيل هذا البالطو؟

فأجابا: طبعا ممكن.

وقال الدبلوماسي: إذن لماذا كل هذه المناقشة. . إننى هنا منذ ساعة بالضبط ولم أفهم شيئا.

وكان الرد القاطع: ولكن هذه التفصيلة التي ترتديها قديمة، وقد عدل عنها اليابانيون منذ خمس سنوات.

وصرخ الدبلوماسي: ولكن تعجبني يا أخي.

وعاد الترزيان إلى الكلام، وخرج الدبلوماسي وترك القماش، وهو لا يدري الآن إن كان سيجد القماش قد فصلوه بالطو أو جعلوا منه دستة مناديل!

وتسألني أنت عن معنى هذه التصرفات التي تتكرر كل يوم؟

لا أعتقد أن هذا غباء ولكن اليابانى يفهم بطريقة خاصة، ويجب أن يكون كل شىء محددا تماما.

وقد سألت عن الكلام الطويل الذى يدور بين اليابانيين عادة.

فمثلا إذا سألت أحدا فى الطريق العام عن اسم أى شارع، ولم يفهم كلامك أو يفهم بعض كلامك فإنه يتجه إلى أى يابانى آخر ويدور بينهما كلام طويل جدا. ولا تعرف أنت ما الحكاية.. وأخيرا تتركهما وتمشى أو تركب سيارة وتنظر من النافذة فتجد أن الاثنين يتكلمان.

أخذت معى صديقا يابانيا وذهبنا إلى مكتبة أسأل فيها عن كتاب عن «إلغاء البغاء» فى اليابان. وفى تقديرى أن السؤال عن هذا الكتاب لا يستغرق أكثر من عشر ثوان أو أقل.. والذى أدهشنى أن هذا الصديق ظل يتحدث مع صاحب المكتبة أكثر من عشر دقائق، وقد ظننت أنه يناقشه فى موضوع أحد الكتب أو يفاضل بين الكتب الموجودة فى المكتبة وأيها أنسب، ولما سألته إن كان الكتاب موجودا، فقال لى إنه لا يوجد هنا الآن.

وعرفت منه أن الحوار كان موضوعه السؤال عن الكتاب، ورجوته أن يترجم لى حرفيا كل ما دار بينهما.

وأنا أنقل هذه الترجمة الحرفية:

قال صديقى: أليس عندك كتاب صدر أخيرا يكون وافيا بالغرض إن أمكن؛ لأن هذا الصديق جاء من القاهرة ومهتم بشئون اليابان. وقد يسافر بعد أيام وهو لذلك على عجل.. وأنا أحب أن ألبى كل طلباته لأنه قد ينفعنا فى الدعاية لبلدنا وفى توطيد العلاقات الثقافية بين اليابان والعالم العربى. وقد طلبت منه صحيفة «أساهى» مقالا عن اليابان لنشره كاملا مهما كان نقده لليابان وهى تعلم مقدما أن لسانه طويل.. ولهذا فأنا أرى مساعدته إن أمكن الحصول على كتاب عن موضوع البغاء، وخصوصا إلغاء البغاء لو تشرفتم.. وأعتقد إذا لم تَخُنِّى ذاكرتى أن وزارة العدل هنا أو وزارة التربية قد أصدرت كتابا أعتقد أنه لا يزيد عن مائة صفحة أو مائتين وإن كان أحد أصدقائى يؤكد لى أن كتابا آخر صدر فى أمريكا عن هذا الموضوع.. فإذا تفضلتم وساعدتمونى إن أمكن فى الحصول على هذا الكتاب فى أقرب وقت، وإذا وجدتموه أرجوكم إن تكرمتم أن تبعثوا به إلى الفندق وسأعطيك عنوانه الآن.. إلخ.

وبعد كل ثلاث كلمات يرد عليه صاحب المكتبة قائلا : آه سودسكا . . ومعناه آه كده آه كده .

والنتيجة أن صاحب المكتبة لم يسمع عن هذه الكتب جميعا ويأسف جدا وينحنى كأننى اشتريت منه كل المكتبة!

أمس علقت على باب غرفتى ورقة مطبوعة مكتوب عليها : الهدوء من فضلك لا تزعجنى . .

ومعنى هذه الورقة ألا تدخل خادمة وتنظف الغرفة أو تدخل لتجمع فناجين القهوة أو الشاى أو تحضر الغسيل . . ومضت ساعة فى هدوء وبعد ساعة أخرى دق جرس التليفون وسألتنى الخادمة متى تدخل الغرفة لتنظفها ، فقلت لها بعد ساعتين . . وشكرتنى ولا بد أنها انحنت أمام التليفون على الناحية الأخرى من الخط . .

ولكن حدث بعد ذلك أن تجمعت المقشات الكهربائية . . وراحت تزن وتئن أمام باب الغرفة بصورة مزعجة .

لقد فهمت الفتاة أننى حريص على الهدوء داخل الغرفة فقط ، أما الضوضاء التى تدور خارج الغرفة وتخرم أذنى وتطفش الأفكار من رأسى هذا شىء آخر لم أطلبه فى الورقة المعلقة على باب الغرفة .

وأفهم من هذا أن الرجل أو (الفتاة اليابانية) ينفذ بالحرف الواحد ما تطلبه دون أى تصرف ودون أى تقدير لأى احتمال آخر .

يعنى غبى؟ لا . . وإنما يفهم وينفذ بصورة خاصة . . مختلفة عن المألوف عندنا!

انطلق بنا القطار من هيروشيما إلى طوكيو . . كان من المفروض أن يقف بنا القطار فى مدينة كيوتو ساعتين . . هكذا قيل لنا ، وكان فى نيتنا أن ننزل فى مدينة كيوتو ، ونتناول طعام العشاء . . فقد عرفنا بعض المطاعم بها . . وأصبحت لنا صداقات مع الفتيات هنا . . وقد عثرنا بمحض الصدفة على واحدة تعرف أكثر من عشرين كلمة إنجليزية ، وكنا سعداء بها . وفوجئنا فى الساعة التاسعة مساء أن القطار الذى ركبناه هو إكسبريس . وأنه اتجه إلى الجنوب ثم إلى الشمال وتفادى المرور بمدينة كيوتو وسيقف على بعض المحطات الأخرى التى لا نعرفها . . وبدأ الباعة . أقصد البائعات يرحن ويجئن فى القطار ومعهن أطعمة لا نعرف أسماءها فكلها فى علب مقفلة . وكان التفاهم صعبا . . ومددت يدى إلى علبة

ودفعت ثمنها. وشكرتنى الفتاة عشرين مرة. . كأننى اشتريت شيئا لا يشتريه أحد وكأننى خلصتها من ورطة. . أو كأننى اشتريت منها كل البيض المششش الذى رفضه اليابانيون مع أنه فى الفليبين طعامهم المفضل فى الصباح، أنا أكلته ووجدته يتعب المعدة والكبد والأمعاء الغليظة ولا تذهب رائحته إلا بغسيل الفم سبع مرات إحداهن بالتراب. وفتحت الصندوق ووجدت أربع أصابع بنية الألوان. . وأزلت الطبقة البنية ووجدت فى داخلها مادة بيضاء. . وعرفت عن طريق الكمسارى الذى يعرف أسماء الخضراوات والفواكه. . أن هذا هو أرز.

وسألنى عن معنى هذه الأكلة فى بلدنا فقلت له: اسمها سد الحنك. .

وفى أدب يابانى ولكن مفتعل جدا وضعت الصندوق تحت الكرسى. . ومرت فتاة تبيع اللبن فى زجاجات مقفلة. وأشرت إلى زجاجة واشتريتها وفتحتها وكانت باردة جدا. وفى اليابان مثل أوربا يشربون اللبن باردا. . ومعظم الأطعمة باردة. وذقت طعم اللبن ثم وضعت الزجاجة تحت الكرسى. .

ومرت فتاة ثالثة ومعها سميط - فى اللغة العربية الفصحى اسمه سميذ - السميط ملفوف فى ورق شفاف. . وكل شىء فى اليابان ملفوف لفا أنيقا، والسميط ناشف جدا. . ورائحته سمك. وعرفت بعد أيام أن هذا السميط مصنوع من الأسماك والجمبرى المجفف. . وفى غلب وقرف وضعت السميط تحت الكرسى وأحسست أنه فعلا سميذ وليس سميطا كالذى نعرفه. .

وكان يجلس ورائى رجل يابانى وزوجته أو عروسه. . وكانت أمامها كمية من الطعام هائلة. . كلها من علب وقراطيس وزجاجات. . ويأكلان بشهية مذهلة. . وبين الحين والحين أنظر ورائى فأجد لحوما وأسماكا ومكرونة وأشياء تشبه البصل والبيض أو الفجل وأشياء أخرى تشبه العيون المقلوعة. . وفى الصباح وقف القطار عند محطة. وفى المحطة رأيت فتاة تبيع البيض فى قراطيس من النايلون. . ولاحظت أن البيض ليس معه ملح أو فلفل فاشتريت قرطاسا من السودانى المملح. وبدأت كسر أول بيضة. . وكانت لذيذة باردة جامدة ومررتها على السودانى المملح المقشر. . وثانى بيضة لا يمكن أن تكون يابانية. . إنهامستوردة من الفليبين. . فقد وجدتها جافة وفيها تمثال صغير لكتكوت. . والبيضة الثالثة كذلك. . ووضعت البيض تحت الكرسى. . ووضعته بعناية تامة فى القرطاس النايلون. .

ولمحت على رصيف محطة أخرى رجلا يبيع أباريق الشاى الساخنة والدخان يتصاعد منها . . ونظرت إلى الركاب حولى . . كلهم يشربون الشاى الساخن وقد تعودت على الشاى اليابانى الأخضر . . وقد اشتريت برادا . . وجلست وأنا سعيد بهذا الشىء الدافىء وصببت فى فنجان صغير . . ولم يكن الشاى أخضر اللون ولا أحمر اللون . . لقد كان ماء ساخنا بلا لون . . ولكن له طعم النبيذ وله رائحة الكونياك . . إنه المشروب اليابانى الوطنى، إنه «الساكى» . . وضعت البراد تحت الكرسى . .

وأرجعت مقعدى إلى الوراء واستسلمت للأطعمة التى فى فمى . . ورحت أقلب لسانى يمينا وشمالا وأغسل شفتى بريقى وأمسحهما بيدى . . وحاولت أن أتشاغل عن الطعام وأن أسد أذنى عن حركة التكسير والطحن فى المقعد الذى ورائى . .

ولكن المعدة الخالية لها ألف أذن ولها ألف أنف أيضا فأنا معذور!

وبعد نصف ساعة وصل القطار إلى محطة طوكيو . . ومن نافذة القطار وجدت كل الفنادق مقفلة والمطاعم مظلمة . . لقد وصل القطار فى السادسة صباحا والمحلات تفتح أبوابها هنا فى التاسعة . .

وجمعت حقائبى ولففت البالطو حولى وشددت الحزام حول معدتى لعلى أسكتها وهى تسب وتلعن وتصرخ . . ولم أكد أنزل على الرصيف حتى وجدت البائعة التى اشتريت منها البيض والشاى والسميط قد وقفت على الباب تحيينى وتقول كلاما لا أفهمه . . وفجأة وجدتها قد جمعت كل الأشياء التى وضعتها تحت الكرسى وقدمتها لى من جديد . . لقد ظنت أننى نسيتها . . وأمام وجهها الباسم وأدبها الذى لا حدود له . . حملت كل هذه الأطعمة ونزلت بها من الرصيف إلى الشارع ولا أدرى أين أضعها . . فالشوارع كلها نظيفة . . وأشرت إلى تاكسى وأخرجت من حقيبتى إحدى الصحف ولففتها فى الصحيفة . . وألقيت بها جميعا من السيارة . وعندما دفعت للسائق الأجر أشرت إليه أن ينطلق بسرعة قبل أن ينتبه إلى أننى قد نسيت هذه الأطعمة فيعيدها لى من جديد . .

وعندما توقف التاكسى لكى ينبهنى إلى الأشياء التى تركتها قلت له فى سرى : بصراحة أهى دى اسمها غباوة!

واحنا معانا قرد!

كأن القمر نزل من السماء وتكسر قطعا قطعا فوق مدينة طوكيو . . كل شىء منير وملون ومتحرك .

الحوارى الصغيرة أجمل من الشوارع الكبيرة وأكثر عفاريت وملائكة من الميادين . والمطاعم الكبيرة نظيفة جدا . . والمطاعم الصغيرة فيها حياة ، ناس يضحكون بلا حساب ، ويأكلون بلا حساب . .

ولا أعتقد أنه يوجد فى أيه عاصمة فى الدنيا هيصة وطرب وحظ كما يوجد فى مدينة طوكيو . . إن أى شارع جانبى به عدد من البارات والكباريهات أكثر من الموجود فى القاهرة والإسكندرية ودمشق معا . .

وأنا أعترف بعد ثلاثة أسابيع من الحياة فى طوكيو أنى لم أعرف اسم أى شارع . . وفيما عدا شارع جنزا الذى به عدد لا يحصى من الشوارع الجانبية . . فهى كثيرة . . وفى هذه الشوارع الجانبية توجد بيوت كثيرة صغيرة . .

كل بيت له باب مضىء وعلى الباب كرة من الورق الملون المضىء . . وعلى الباب فتاة يابانية تبتسم لك دائما . . وفى الغالب كل هذه البيوت الصغيرة يسمونها مطعما أو مقهى أو مشهى . والأسعار ليست رخيصة كما تقسم الإعلانات على ذلك . وتؤكد أنه مائة ين أى عشرة قروش . . ولكن هذه القروش تتزايد فى الداخل وتصبح جنيهات . . هذه الجنيهات يجب دفعها بعد ساعة من جلوسك . . كل ساعة يجب أن تدفع . . فقد يحدث أن يسهو عليك فلا تدفع أو تنسحب وتخرج .

وهناك فى الشوارع الكبرى شبان لهم ملابس نظيفة ووجوه ضاحكة وفى أيديهم

سجائر أمريكية تدل على أنهم أولاد ناس، وأنهم فى غنى عنك . . هؤلاء الشبان يقتربون منك ويهمسون : ما رأيك فى سهرة حلوة؟ . فتاة تتكلم الإنجليزية بطلاقة . . إنها لا تريد أى فلوس . . إنها تحب الجلوس مع الناس .

ثم يضع يده فى جيبه ويخرج لك علبة سجائر ذهبية أنيقة . . ومن الجيب الآخر ولاعة رونسون غالية الثمن . . ومن البنطلون محفظة جلد تمساح بها صورة للفتاة منذ عشر سنوات وأحيانا عشرين سنة . . ولو نظرت إلى الفتاة لوجدت فيها شبها كبيرا منه . . كل هذا جائز فى طوكيو .

وقد يكون من مبادئك المشى مع الكذاب إلى باب الدار . . وستعلم حقيقة غريبة أن الناس لا يكذبون . . التاجر لا يكذب . . وستجد أن هذا الشاب قد وصل فعلا إلى باب الدار ولكن الدار مش ولابد . . وستجد أنه نقلك إلى أحد المقاهى أو المشاهى . .

وفى هذه الصناديق الصغيرة . . وفى الظلام تبدو كل الفتيات جميلات، وكل الرجال أيضا . . فإذا قالت لك إحدى الفتيات : هاى . . أهلا بك ياچيمى . . أو ياميمى . .

فيجب أن ترد التحية لأنها تراك مثل عمر الشريف لا تدقق معها . . أو على الأقل لا تدقق معها الآن . .

فكل الناس فى غاية الجمال والكمال فى هذه الصناديق الليلية التى يبلغ عددها عشرة آلاف صندوق فى طوكيو . .

حاولت أن أطبق المشى وراء الكذاب . . وذهبت إلى أحد الصناديق حيث توجد أجمل فتاة يابانية!

الحقيقة كان أكبر من صندوق . . إنه كان «صحارة» من صحاحير الليل . . وقلت فى نفسى : يا واد روح . . حتخسر إيه .

وذهبت وأملى ضعيف جدا فى أن أقابل أجمل فتاة فى اليابان، وقد قرأت فى الصحف أنها وصلت من لندن منذ أسبوعين، وأنا رأيت صورتها وعلمت عنها الكثير . . شكلها مش ولابد ولكن دمها خفيف . . وقد سمعت لها تسجيلا فى الراديو وأعجبنى منها كلامها بالإنجليزى . . رقيق مضحك . . وقلت : روح مهما فعل اليابانيون فلن يكونوا فى شقاوة أولاد أو بنات باريس . .

وقبل أن أصل إلى هذا الصندوق الكبير اقترب منى الشاب الوسيم وقال لى : انتظر فى

الصالون بعض الوقت وبعد ذلك ستضاء الأنوار. . ومرة واحدة تنطفئ وستجد العرض الخاص الذى تقدمه ملكة جمال اليابان.

وفى نفسى قلت؛ والله كداب يا ابن الإيه. .

وهمس فى أذنى مرة أخرى وطلب منى أجرة التاكسى وأعطيته بعض القروش. . وبعد مناقشة وافق وودعنى. . وصعدت السلم. . الموسيقى تستقبلنى. . موسيقى عالية. . أحسست كأن الموسيقى تزفنى. . تريد أن توقعنى على السلم. . والأصوات والضحكات عالية. . إنها أصوات أناس سكارى. . وهناك ضحكات ناعمة يابانية. . الوجوه حلوة كلها من الورد والتفاح. أما الروج على الشفايف فهو يشبه أختام السلخانة على اللحم العجالى. . والنظرات ليس فيها ترحيب كما كنت أتصور. . ودخلت غرفة. . الناس فيها واقفون يشربون «الساكى» وهى الخمر اليابانية التى لا تشرب إلا ساخنة!

وبدأت البيرة التى يشربونها تخرج على هيئة الرغاوى من أفواههم، وبعضهم أخذ يتلوى كالأسماك اليابانية عندما استقرت فى معدتى أول يوم ولم أكد أراها حتى أحسست بمغص شديد. . قد تقول إن هذا كلام أو مجرد خيال. . معك حق. . فهذا رأيى أيضا ولكن معدتى لها رأى آخر وقد حاولت أن أجعلها تعدل عن رأيها هذا ومعى ثلاثة من الأطباء. . ولكنها عنيدة. . فاستسلمت لها عندما رأت هؤلاء السكارى يتلعبطون من شدة الخمر.

وهجمت فتاة يابانية على ملابسى وقد ظننت أنها سكرانة وأنها تكاد تسقط على الأرض. . فحاولت إسنادها وإجلاسها على أحد المقاعد. . وجلست ونظرت ناحيتى وقالت: هات لك كرسى يا روحى - قالت كلمة أخرى مش لطيفة!

وأتيت بكرسى ولكنى لم أجدها. . لقد اختفت. .

وضحكت لهذه النكتة. . وضحكت عندما عرفت أنها أخذت علبة سجائر كانت فى جيبى ولم يكن بها إلا سيجارة واحدة من صنف يابانى ردىء جدا.

ولمحت بين الموجودين رجلا كنت قابلته فى مدينة سيدنى بأستراليا ولم يكد يرانى حتى عانقنى بعنف. مع أننا لم نكن أصدقاء. . ولكن البيرة قادرة على صناعة هذه الأحضان وأكثر وقال: أين أنت وماذا فعلت؟ وماذا تفعل هنا وماذا تريد أن تفعل هنا ؟ . . إنك

تطاردني . . ففى كل مكان أهرب منك ومع ذلك أجدك . . من ذا الذى أرسلك هذه المرة؟ لابد أنها زوجتى الملعونة . . أنا أعرفها . . وأعرف ألاعيبها وأعرف ما الذى يعجبها فيك . . فلست أنت أول واحد في حياتها!

والحقيقة أننى لا أعرف زوجته . . وكل ما هناك أننا تقابلنا فى إحدى الحفلات . . ولاحظت أن هناك اهتماما شديدا من زوجته بشخصى بعد هذه المقابلة . . فقط اهتمام يحتمه أدب الضيافة في أستراليا أو فى أى بلد متحضر!

وعرفت فيما بعد أن هذا الرجل يجىء كل ليلة وينفق عشرات الجنيهات . .

وفي هذه الهيصة لم أبحث عن ملكة جمال اليابان ولم أسأل أحدا من الحاضرين، وأدركت أننى شربت مقلبا، كنت أتوقعه . . ولكنني لم أخسر شيئا . . ففى أى بلد جديد لا أخسر أى شيء . . فكل شيء جديد أعرفه فهذا مكسب . . فأنا ازددت معرفة بهذا النوع من الناس!

وعرفت ماذا يجرى فى صناديق الليل في طوكيو . .وعرفت ماذا يمكن أن يحدث لرجل مخمور فى هذه الصناديق وكيف تضيع أموال الناس ومحافظهم. هكذا كنت أقول لنفسى وأنا جالس على مقعد وثير فى أحد الأركان وأمامى زهرية بها ورد. لا أعرف إن كنت أواسى نفسى . . ولا أعرف إن كانت يدى اليمنى قد امتدت إلى يدى اليسرى وصافحتها بعنف . . ولا أعرف إ ن كان هذا الصوت الذى أسمعه يقول: شد حيلك . . لا أعرف إن كان هذا الصوت قد صدر عنى .

وفجأة قفزت إلى جوارى فتاة يابانية . . مش قوى . . مش ولابد خالص، وسألتنى: كيف حالك؟

فقلت لها: وكيف وجدت حالى!

وكانت تتحدث الإنجليزية ويبدو أنها كانت تقلد الإنجليز فى لون بشرتهم أيضا . . فخدودها حمراء وعيناها حمروان أيضا . . وجعلت تغنى باليابانية وبصوت مرتفع وطلبت منها أن تترجم لى هذه الأغنية . ولم يعجبنى كلام هذه الأغانى ولم يعجبنى اللحن أيضا . . وفجأة جلس الصديق - صديق بالقوة - الذى قابلته فى أستراليا . . وانضم إلينا . . وبدأ هو الآخر يغنى ويلعن زوجته وكل زوجة وكل زوج يتصور أن الحياة مستحيلة بلا زوجة . . وانضمت إليه هذه السيدة تلعن الرجال الأزواج وغير الأزواج والذين

ينجبون الأطفال والذين لا ينجبون الأطفال مثل زوجها. وقالت كلاما معناه: يا حسرة بعد ١٥ سنة ولا حتة عيل.. رجالة إيه دول!

وكانت الساعة الثانية عشرة مساء. وهذا موعد إقفال البارات والكباريهات فى طوكيو. شىء غريب.. ولكن طوكيو مدينة عجيبة الأطوار. غريبة النساء والرجال!

وفجأة جلس إلى جوارى عدد من الجنود البريطانيين. أما الجنود الأمريكيون فهم مفضلون على غيرهم من الناس لأسباب لم أكن أعرفها بوضوح.. فالجندى البريطانى مرتبه ضئيل جدا ولذلك إذا دخل أحد البارات فهو لا يشرب أكثر من زجاجة بيرة فإذا به مخمور وإذا به يهجم على البنات والرجال وهات يا ضرب.. أما الجندى الأمريكى فمرتبه كبير.. ومعه سجائر ومعه دولارات.. فهنا خيار وفقوس.. وقد تكوم الفقوس حولى وكلهم من الجنود البريطانيين.. ولاحظت أن واحدا من الجنود يخاطب هذه السيدة التى جلست معنا بقوله يا صاحبة الجلالة.

إذن هذه هى ملكة جمال اليابان.. ممكن! ولكن فى أية سنة؟.. وسألتها فعرفت أن هذا لقب أطلقه عليها الجنود الأمريكيون وأنها هى وحدها التى تتكلم الإنجليزية بطلاقة وأنها كان من الممكن أن يكون لها شأن فى هذا الصندوق لولا أنها لا تفيق من الخمر.

ولذلك فهى تعمل جرسونة للتواليت فى هذا الصندوق.. جرسونة؟

ونهضت وفى أذنى أغنية أم كلثوم التى تقول: واحنا معانا بدر.. طالع فى ليلة قدر.. وأنظر إليها وأقول: واحنا معانا قرد طالع فى ليلة برد، احنا نقول حوشوه وهو يقول هاتوه.. واحنا معانا حمار. طالع من الدوار.

وأمام باب الصندوق وجدت شابا آخر يهمس فى أذنى ولم أعرف ماذا يقول ولكن صرخت فيه: اسكت يا نصاب!

وعندما عدت إلى الفندق تذكرت أنه كان يسألنى عن الساعة كام!

زوجتى من اليابان!

لم أشهد فى حياتى كلها عملية «كتب الكتاب» إلا مرة واحدة، وكان ذلك فى السيدة زينب . . وكان العريس أحد أصدقائى فى السلك الدبلوماسى . ولا أعرف إذا كان هذا يحدث فى كل خطبة أو زواج ولكن الذى رأيته فعلا، غريب . غرفة بها مقاعد . . نفس المقاعد التى تستخدم فى المآتم .

والناس صامتون لا أحد يتكلم تماما كالمآتم . . وبين الحين والحين يهمس واحد من الحاضرين فى أذن الآخر ويقول له : ربنا يتمم بخير .

يتمم إيه؟ مش عارف . ولكن يتمم والسلام .

وفى جانب من هذه الغرفة يجلس ثلاثة من المشايخ أحدهم ضعيف النظر جدا وهو الذى تتجه إليه الأنظار . وهو الوحيد الذى لا يتوقف فمه عن الهمس كأنه وضع بطارية جافة فى صدره، وربط أحد أسلاكها بشفتيه . فشفتاه ترتجفان دائما . . ويقول الذين سمعوه عن قرب . . إنه يشبه القطط «يزن» ولا يقول شيئا . . أنا لا أعرف .

وبعد لحظات، ويقال ساعات، يخرج هذا الرجل من جيبه رزمة ورق ملفوفة، ورق أبيض . ويخرج من جيبه زجاجة حبر، ومن الجيب الآخر ريشة فيها سن صفراء غير صالحة للكتابة . ولذلك يجب إحراقها بعود كبريت حتى تصلح للكتابة . ويجب أن يحضروا له كوبا من الماء لكى «يطش» فيه هذه السن وبعد ذلك تصلح للكتابة . . والله أعلم . . وقد حدث هذا كله .

وتأكيدا لعملية إطفاء السن الساخنة، وضعها الشيخ فى فمه، وبعد ذلك أشار إلى زميل له . ودنا الزميل وقال له : قل بسم الله الرحمن الرحيم . . واكتب .

وبدأ الرجل يكتب صيغة وثيقة الزواج . . طويلة طويلة . . وبدأ يكتب من هذه الوثيقة

عدة نسخ . . مع أن فى الإمكان طبعها وبسهولة . . وعلى ذلك تكون عملية الكتابة أيسر من كتابة شيك . . ولكن هؤلاء المشايخ يريدون أن يتعبوا ويعرقوا وأن يقدم لهم أهل العروس منديلين أو ثلاثة من الحرير ليمسحوا بها العرق . كل هذا يتم والناس صامتون كأنهم فى مأتم .

وهناك مثل يقول : إن يوم كتب الكتاب هو اليوم الذى يكذب فيه العروسان ، فالعروس تبكى والعريس يضحك !

وهذا يحدث فى كل كتب كتاب !

وكنت أتصور أن هذا يحدث فى بلادنا فقط . . ولم أتخيل أبدا أنه يحدث فى اليابان . . إلى أن كنت فى إحدى قرى هيروشيما . . أما العروس أو بعبارة أصدق الفتاة التى أعجبتنى ـ فهى مختلفة عن بنات اليابان ـ إنها طويلة بيضاء اللون أو شقراء وشعرها أسود ثقيل ووجهها مستدير ملىء بالدم . . أو فيه بقع من الدم عرفت فيما بعد أن هذه هى خدودها . . ولها شفتان غليظتان . . ولها أسنان بيضاء كالثلج . . ومن الغريب أن لها صدرا . . ولذلك يؤكد الناس أنها من أصل أجنبى ، وهذا يضايقها من الناحية الوطنية ويسعدها من الناحية الأخرى . . وأنت فاهم !

وفى يوم كنت أتمشى بالقرب من إحدى الحدائق العامة رأيتها وابتسمت لها ، ولم يكن فى نيتى أى شىء . . مجرد ابتسام . . ياجت يا ماجتش . . وابتسمت هى . . وأنا أعلم أن اليابانية تبتسم دائما وبلا سبب ولا مبرر ولا معنى . . وسألتها إن كانت تعرف الإنجليزية . . وقلت هذه العبارة باللغة اليابانية التى أعرف بعض كلماتها فأجابت أنها تعرف .

وبالاختصار جلسنا معا فى أحد المطاعم وتغدينا وشربنا الشاى وتعشينا ، وبعد العشاء تمشينا ، وبعد ذلك عاد كل منا إلى بيته ، وفى اليوم التالى تناولنا الإفطار والغداء والعشاء وبعثت بتحياتى إلى أمها وإخوتها وخادمتها وقطتها الصغيرة . . فقد أصبحت أنا أحد أفراد أسرتها . . أجلس على نفس المائدة مع القطط والحيوانات الأخرى .

وفى اليوم الذى يليه تقاربنا أكثر ، وجعلت أحكى لها عن حياتى . . وأعتقد أن قصصى عن حياتى كلها لا أساس لها من الصحة . . مجرد اختراع . . مجرد كلام . . فأنا أكره الكلام عن حياتى وأجد أن هذا الكلام سخيف ولا يهم أحداً سواى . . وحكيت لها الذى يعجبها من الكلام والذى يشدها إلى جانبى وإلى ناحيتى وإلى حياتى ويجرجرها ورائى .

ولم أتصور أن كل الذى دبرته بينى وبين نفسى حدث من أوله إلى آخره . . فانزعجت

كأنني وضعت أصبعى على زرار أسانسير وانطلق إلى أعلى واكتشفت أننى وصلت إلى الدور التسعين بدلا من الدور التاسع فأصابنى خوف شديد!

وتطورت الحوادث بسرعة صاروخية . . دعتنى الآنسة «أسوشا» إلى بيتها . . وهناك على الباب نزعت الحذاء ولبست الشبشب . . آسف . . هناك نزعت السيدة أم أسوشا الحذاء من قدمى ووضعت الشبشب وانحنت على الآخر . .

وكذلك أبوها وأخوها وأختاها وطفل صغير وحتى أسوشا . . انحناءات تشبه الركوع الشديد . . على إيه؟ لا أعرف . . ولكن هذا ما حدث .

وبدأت عملية الزحف نحو غرفة الشاى ، وهناك نزعت الشبشب ولبست شبشبا آخر ، وحتى لا أتجنى على الحقيقة نزعت صديقتى أسوشا هذا الشبشب من قدمى . . ولبست شبشبا آخر .

وبدأت حفلة الشاى المر الطعم . . كوب وراء كوب . وإلى جانب الشاى يوجد بعض الحلوى التى طعمها فظيع جدا وبعض الأسماك المجففة وبعض الأعشاب التى بها ملح . .

واقتربت منى أختها الصغيرة وبدأت تشد الشعر من ذراعى وتضع يدها على يدى وتضحك طبعًا . . يدى أكبر من يديها الاثنتين معا . . فيد الفتاة اليابانية صغيرة جدا . . وبدأت تضع قدمها إلى جوار قدمى وتقيس قدمها . . والأسرة كلها تضحك .

وبعد لحظات حضر رجل له لحية طويلة جدا ولكن عدد شعرات هذه اللحية لا يزيد على عشرين شعرة . وهورجل أصلع أو على الأصح أقرع ، وهو لا يعرف كلمة واحدة إنجليزية . وكان كلامى معه عن طريق أسوشا .

سألت : من هو؟

فقالت : إنه المأذون .

ولم أفهم هذه الكلمات فسألتها مرة أخرى : فقالت إنه القس الذى يعقد الزواج .

وسألتها : وأين أوراقه وأين الموسيقى؟

فقالت : بعد لحظات .

ثم عدت فسألتها : وأين العروس . . ؟

فضحكت جدا وانحنى كل الحاضرين وانحنت أسوشا والمأذون وانحنيت أيضا ، ولم أفهم لماذا كل هذا الانحناء . .

ولم يقل أحد شيئا . .

وبعد لحظات دخل عدد من الأطفال فى ملابس بيضاء وحمراء وزرقاء وعليها رسوم جميلة، ووراء الأطفال عدد من الفتيات ومعهم جميعًا أدوات نحاسية تشبه الحلل والطشوت وبعضها يشبه الطاسات الموجودة عند الحلاقين.

ومعهم أيضا أعواد حديدية . . وبعد هؤلاء جميعًا جاء شيخ له لحية سوداء وشعرها مدلى على هيئة ضفيرة أو على هيئة علامات استفهام . .

ودقت الموسيقى أو صرخت أو لطمت لا أعرف . . إنه نوع من الضوضاء التى يضحك لها الحاضرون إلا أنا . وفى هذه الضوضاء بدأ الشيخ الوقور يقول كلامًا طبعًا غير مفهوم، وأخذ الحاضرون ينحنون إلى الأمام عند كل عبارة أو عند كلمة : أه أأ . . فهذه هى نهاية كل كلمة ربما كانت نقطة أو نقطتين بعد كل كلمة أو!

وكان لابد أن أسأل أسوشا عن كل هذا الذى يجرى حولى، وقلت لها : موسيقى جميلة جدا.

فانحنت وهى سعيدة بهذا التقدير . . ولما رأتها أمها وإخوتها وأبوها والشيخ والحاضرون انحنوا أيضا . . ولكنى أحسست بعد ذلك بشىء من الإحراج الشديد.

فليس من المعقول أن تكون كل هذه الموسيقى من أجل تشريفى لهذا البيت . . فلم يحدث أى تشريف، وإنما هى رغبة فى الاستطلاع وفى معرفة شىء عن البيت اليابانى والأسرة اليابانية لا أكثر ولا أقل . . وإذا كانت هناك موسيقى وهيصة فربما كان السبب هو أن أسوشا زودتها شوية .

وعندما قدموا لى أوراقا اعتذرت لأننى لا أعرف القراءة فقالت أسوشا : ليس من الضرورى أن تقرأ، وإنما يجب أن توقع ولا تخف إذا حدثت أصوات غريبة عند التوقيع .

فقلت : توقيع على ماذا؟

قالت : علي هذه الوثيقة .

قلت : وثيقة إيه؟

قالت : إيه؟ وثيقة زواجنا .

قلت : زواجنا . . أنا . . يعنى نحن الاثنين . . زواجنا تقولين؟

وبسرعة أخبرتها أن التقاليد فى بلادنا تقتضى بأن يحضر الزواج أحد المواطنين. وإلا أصبح هذا العقد باطلا. ونهضت ونهض الحاضرون وانحنوا وكذلك الأطفال امتدت أيديهم إلى الشبشب.. ولكنى تركت الشبشب الأول والشبشب الثانى وانطلقت أخفى قدمى فى حذائى.. ومن بيت أسوشا إلى الفندق أبحث عن طريقة للسفر إلى طوكيو.

ولم أفهم لماذا تصرفت أسوشا هكذا. حاولت ولكننى تعبت.. هل وعدتها بالزواج؟ أبدا.. لم أعد أحدا فى حياتى كلها؟ هل قلت لها أنا أحبك؟ ولا حتى هذه؟ ولا أستطيع أن أتهمها بالضعف فى اللغة الإنجليزية فهى تتكلمها بطلاقة.. حاولت وحاولت.

وأخيرا تذكرت أننى عندما كنت معها فى إحدى دور السينما ورأيت زفافا فقلت: إن العروس جميلة.. فسألتنى إن كنت أحب أن أتزوجها. فقلت: بلا تردد نعم!

وسألتنى إن كانت العروس تعجبنى فقلت: يعجبنى فيها كذا الأبيض وكذا الأسود وكيت الممتلئ وكيت الناعم.. هذا كل ما قلته.

ولكن لم أتصور أبدا أن هذا معناه أن أسوشا تشبه العروس فى كل هذا ويجب أن أتزوجها فورا. فهى إلى حد كبير تشبه العروس فى كل هذه الصفات.. إلى حد ما.. وقد قلت لها ذلك من باب المجاملة.

وهذه هى النتيجة..

بالاختصار.. مصيبة سوداء إذا أنت كذبت فى اليابان.

وكانت هذه هى المرة الثانية التى أحضر فيها كتب كتاب، وأكون أنا العريس دون أن أدرى.

* * *

وعلى باب محطة السكك الحديدية وقفت أسوشا وأختها الصغرى ومع كل منهما باقة من الورد، وقرطاس به سميط مصنوع من السمك المجفف وعلى خد أسوشا دمعتان كاللؤلؤ.. وفمها يقول لى كلاما..

وخجلت منها ولا أزال..

أين أنت الآن يا أسوشا لأقول لك ما أحس به الآن من بعدك.. والله أنتى برقبة ألف واحدة فى بلدنا!

كيف يزرعون اللؤلؤ؟!

فى إحدى الليالى جلست كليوباترة تشكو مرارة الحياة فى فمها . . كل شىء لا طعم له . . كل شىء كأنه ليمونة ناشفة، أو كأنه قطعة من اللحم المسلوق . . ولم تكن كليوباترة وحدها، فقد كان إلى جوارها حبيبها أنطونيو . . وعندما تشكو المرأة من الدنيا للرجل الذى تحبه، فمعنى ذلك أنها تريد منه الكثير! فهو دنياها وهو حياتها . . ويظهر أن أنطونيو لم يكن عنده ما يقدمه لكليوباترة فهى تريد الكثير، تريد منه أكثر مما يستطيع . . وكل ما استطاع أن يقدمه لها هوكوب من النبيذ الأحمر . . وأمسكت الكوب ورأت فيه وجهها . ولمحت على سطح الكوب شيئا لامعا حول عنقها . . إنه عقد من اللؤلؤ . .

وكأن حبات اللؤلؤ هذه دموع كليوباترة . . ودموع كليوباترة مثل كلامها لا تنزل الأرض . . وهذه الدموع لم تنزل الأرض، وإنما تجمدت حول عنق ملكة النيل . . ومدت يدها إلى العقد . . حبة حبة . وكأنها أشارت بذلك إلى أنها تريد أن تقطع خيط حياتها، وأنزلت ست حبات من هذا العقد فى كوب النبيذ وشربت النبيذ واللؤلؤ معا!

وتوقع أنطونيو أن تموت كليوباترة بعد ذلك، ولكنها لم تمت، فاللؤلؤ لا يقتل، إنه يشفى من آلام المعدة والأمعاء!

وكانت هناك خرافات كثيرة أيضا حول معجزات اللؤلؤ . فأهل الصين وسيلان كانوا يعتقدون أن اللؤلؤ يملأ الإنسان حيوية ورجولة . وكانت العروس تأتى لزوجها بحبات من اللؤلؤ وتضعها تحت وسادته فى الأيام الأولى للزواج .

ولم يثبت علميا صحة هذه الخرافة!

ويقال إن اللؤلؤ هو حبات من العرق تساقطت من أجسام الملائكة وهى فى طريقها بين السماء والأرض . ويقال أيضا إن «جزر آدم» وهى تقع بين الهند وسيلان فيها أجمل أنواع

اللؤلؤ ـ ويقال إن هذه اللآلئ الموجودة فى قاع البحر هى بعض دموع آدم عندما نزل من الجنة إلى الأرض . .

ولكن اللؤلؤ نفسه له قصة أخرى .

فاللؤلؤ ينمو فى داخل بعض القواقع . واللؤلؤة الواحدة إلى فى حجم حبة الحمص مثلا تنمو فى ثلاث سنوات . وهذه «القواقع» ـ ويسمونها أمهات اللؤلؤ تنمو وتكبر فى مياه اليابان ومياه خليج البنغال فى الهند وحول جزيرة سيلان وفى الخليج العربى بالقرب من الكويت وإيران ومياه أستراليا . . وهذا اللؤلؤ طبيعى ، بمعنى أن القوقعة هى وحدها التى تحمل هذه اللؤلؤة بين جنبيها وتظل طاوية الجنين سنتين وثلاثا وأربعا إلى أن تمتد إليها أيدى الصيادين ، وإذا لم تمتد إليها يد ، فإن القوقعة تلقى باللؤلؤة إلى قاع البحر . .

ربما كانت أعظم لؤلؤة طبيعية فى العالم هى الموجودة فى كرسى العرش بإيران . . فهى لؤلؤة صفراء اللون وليست كروية الشكل ، وإنما هى تشبه الكمثرى وثمنها سبعة ملايين «ين» ـ أى سبعة آلاف جنيه ـ .

وتوجد لؤلؤة أخرى ثمنها مليونان من الجنيهات فى متحف موسكو .

وصيد اللؤلؤ فى هذه المناطق لا يزال بدائيًّا . . فالصيادون يركبون ا لزوارق ويتدلى واحد منهم إلى الماء ويبقى نصف دقيقة أو ثلاثة أرباع دقيقة ويسحبونه إلى أعلى ومعه بعض القواقع وينقلون القواقع إلى الشاطئ ويفتحونها واحدة واحدة إلى أن يعثروا على اللآلئ .

وعندما كنت فى الكويت رأيت أكواما من القواقع ورأيت الناس هناك يلعبون لعبة «الجوز والفرد» . . فأنت تشترى من القواقع ما تشاء ، ثم أنت وبختك بعد ذلك . .

وقد اختفت هذه العادة الآن بعد أن زحفت المبانى على ميادين بيع اللؤلؤ . . واللؤلؤ الطبيعى هذا لا يمكن التحكم فيه . . فأنت لا تعرف إن كنت ستجد بين كل ألف قوقعة لؤلؤة واحدة أو لا تجد . . ولا تعرف ما شكلها ولا حجمها وكل ما عليك هو أن تنتظر فقط . .

ولم يفكر أحد فى طريقة للتحكم فى هذا اللؤلؤ .

ولكن رجلا واحدا فى إحدى قرى اليابان هو الذى فكر ، وهو الذى صمم ، وهو الذى نجح ، وقبله لم يعرف أحد ولم يحاول . .

ولم يكن هذا الرجل أصلا صيادا ولا من المشتغلين بتجارة اللؤلؤ . . ولكنه يعمل فى دكان والده فى قرية اسمها «توبا» وهى تبعد ١٣ ساعة عن مدينة طوكيو . هذا الطفل اسمه ميكوموتو . . والده يبيع الأرز المسلوق وأمه تعمل مع والده . وله عدة إخوة . وميكوموتو أكبر إخوته . وهو هزيل البنية . ولكن التقاليد فى اليابان تقضى بأن الأخ الأكبر يجب أن يحمل إخوته الصغار على ظهره . ويحدث كثيرا أن تجد الأخ الأصغر أضخم وأقوى بنية من الأخ الأكبر . وهذا ما حدث بالنسبة لميكوموتو . فقد كان أخوه الأصغر بدينًا . ومع ذلك كان أخوه الأكبر الهزيل يحمله ذهابا ، وإيابا وكان عليه أيضا أن يدفع أمامه عربة لبيع الأرز المسلوق والأسماك النيئة فى القرية وأن ينادى عليها .

ولا شىء يدل أبدا على عبقرية الأخ الأكبر . . فهو قروى عادى جدا مؤمن يتردد على المعبد صباح كل يوم . ولا أحد يدرى ما الذى كان يطلبه من ربه . . ربما كان يطلب الصحة وربما كان يطلب المال ، وربما كان يطلب من الله أن يشفى والده المريض . . بشرط أن يكف عن إنجاب الأطفال !

ولكنه متدين ويقف فى خشوع أمام تمثال بوذا ويقول الكثير . .

واليابانيون صيادون ممتازون ، بل أحسن صيادين فى العالم . وهم يركبون الزوارق الصغيرة إلى مناطق نائية فى المحيطات . ولذلك فاليابان فى مشكلات مع كل الدول المجاورة بسبب أبنائها الصيادين الذين يقتحمون مياه أستراليا والقطب الجنوبى وسواحل أمريكا وسواحل روسيا والفليبين وإندونيسيا .

وقد اشتغل ميكوموتو بصيد السمك . . واشتغل أيضا بالغوص وصيد اللؤلؤ . . وكانت هناك فكرة فى رأسه . لم يطلع أحد عليها ، ولكنه حائر . . فهو قروى وهو فقير . ولم يتعلم بما فيه الكفاية . ويبدو أن الأسئلة التى تدور فى رأسه أكبر منه . . ولا يعرف كيف يجيب عنها .

ففى يوم ذهب إلى أحد أصدقائه من المشتغلين بعلم «الأحياء المائية» وسأله : ولماذا يوجد اللؤلؤ فى القواقع . لماذا يوجد اللؤلؤ فى بعض القواقع ، وبعضها لا يوجد به . . ؟

وأجابه صديقه المشتغل بالأحياء المائية بأن سبب وجود اللؤلؤ هو أن بعض الطفيليات الموجودة فى البحر تتسلل إلى داخل القوقعة وتجرح لحمها الناعم الضعيف . أما القوقعة فإنها تدافع عن نفسها بأن تعزل هذا الجسم الغريب أو هذا الشىء المتطفل . وعملية العزل

هذه عبارة عن إفراز مادة جيرية شفافة تحاصر هذا الشيء الغريب الذى تسلل إليها . هذه المادة الجيرية الفسفورية هى اللؤلؤ التى يتم تكوينها فى عدة سنوات . .

وقرر ميكوموتو بأن يفكر تفكيرا سليما . وأنه لابد أن يدخل جسما غريبا فى كل قوقعة يجدها وأن يحتفظ بهذه القوقعة وينتظر حتى تنمو . . سنة واثنتين وثلاثا . . فإذا كانت القواقع تفرز المادة اللؤلؤية فى صبر . فإنه لن يكون أقل صبرا من القواقع .

وفى همومه وقلقه تزوج فتاة من أسرة غنية . ودفعها إلى العمل معه فى بيع الأرز المسلوق، ولكنه كان مشغولا فى الوقت نفسه بزراعة اللؤلؤ . . والاسم الجديد لهذا النوع من اللؤلؤ . . هو «اللؤلؤ المزروع» . . لأن ميكوموتو كان يزرع الأجسام الغريبة فى أجسام القواقع . . وهذه عملية تشبه عملية التلقيح الصناعى عند الإناث من الإنسان والحيوان . ففى التلقيح الصناعى يتم إدخال الحيوانات المنوية إلى الرحم بصورة صناعية عن طريق الأنابيب . وتلقيح اللؤلؤ أو زراعة اللؤلؤ فى هذه القواقع لا يختلف عن التلقيح الإنسانى أو الحيوانى فى شىء!

وجمع ميكوموتو عددًا من القواقع وفتحها برفق وأدخل فيها الأجسام الغريبة وانتظر عاما وعامين . . وبعد ذلك فتحها . . فلم يجد شيئا . لقد ماتت جميعا . . وحاول من جديد واستخدم حوالى عشرة آلاف قوقعة . . وهبت العواصف وأطاحت بهذه القواقع وخسر ميكوموتو الشىء الكثير . . ولكنه لم ييأس . . وفى العام نفسه زحف على مياه قرية توبا التيار الأحمر . . وهو عبارة عن مواد طفيلية كثيفة جدا . . هذه المواد تطفو على سطح الماء وتقتل القواقع لأنها تحجب عنها الأكسجين . وهلكت كل قواقع ميكوموتو . . ولكنه لم ييأس . وشعر ميكوموتو بعد ذلك بأنه يطلب المستحيل . وأن أمواله لا تسعفه . وأحس بأن فشله فى استخراج اللؤلؤ قد أدى إلى إبعاد الناس عنه . . حتى زبائن الأرز المسلوق قد هربوا . واندهش ميكوموتو . ولكن الناس أحسوا أنه فاشل وأنه مجنون ولابد أن جنونه هذا سيظهر فى صناعة الأرز المسلوق أيضا!!

ولكن ما علاقة اللؤلؤ بالأرز؟ أليس من الممكن أن يفشل الإنسان فى شىء وينجح فى شىء آخر؟ أليس من الممكن أن يفشل الإنسان كزوج وينجح كمهندس؟ أليس من الممكن أن يكون طبيبا ناجحا وزوجا فاشلا؟ ولكن الناس هكذا يفكرون . .

ولذلك رأينا ميكوموتو يترك بيع الأرز لزوجته ويعمل فى استخراج اللؤلؤ . .

ولم يفهم ميكوموتو لماذا تموت القواقع .

وتعلم من التجارب التى استغرقت ١٥ عامًا مؤلمة أن انخفاض درجة حرارة الماء إلى أقل من ٧ درجات مئوية يقتل القواقع، ولذلك يجب نقل القواقع من الماء البارد إلى الماء الدافىء. . وتعلم أيضًا أن وضع عدد كبير من القواقع فى قفص واحد وتعليق القفص فى الماء يقتل القواقع. . فهذه الكثرة تؤدى إلى جوع القواقع وذبولها. . وتعلم أيضًا أن الطفيليات عندما تغطى فتحات القواقع فإنها تخنقها. . ولذلك حاول ميكوموتو فى المرات التالية أن يتلافى كل هذه الأخطاء. ومع ذلك كانت القواقع تموت. . وكان بيته يزداد خرابًا، وتجارة الأرز تزداد بوارًا. ولكن زوجته لا تشكو. إنها مؤمنة بأن زوجها سينجح حتما. وكان هذا يشجعه. وكان يقول: يكفى أن يؤمن بى إنسان واحد، والنواة تسند الزير كما يقول المثل عندنا!

وفكر ميكوموتو أن يمسك قوقعة بها لؤلؤة طبيعية ويدرسها ويعرف بالضبط مكان اللؤلؤ. وأمسك قوقعة ثانية وثالثة ورابعة ومائة. وعرف تمامًا أين يجب أن يضع الجسم الغريب فى داخل القوقعة. واكتشف أنه كان يضع الجسم الغريب أو هذه البذرة فى مكان غير مناسب. وعرف ميكوموتو أن الجسم الغريب يجب أن يؤذى القوقعة وأن يؤلمها. وهذا الألم هو الذى يثير الحيوان ويحدث فى جسمه التهابًا، وهذا الالتهاب يؤدى إلى إفراز هذا السائل الشفاف الذى يعزل الجسم الدخيل عن بقية جسم القوقعة. .

وقام بعملية زراعة الأجسام الغريبة فى خمسة آلاف قوقعة أخرى. . ولكن ميكوموتو كان بين اليأس والأمل. ويئس فعلا. وأعلن لزوجته أنه يائس. وأعلن للناس أنهم جميعًا على حق وأنه غلطان وأن آماله جنونية. . وأنه سيعود إلى الأرز، فقد ولد بائعًا للأرز، وسيعيش ويموت وهو ينادى على الأرز المسلوق. .

ولكنها كانت لحظة يأس. وكانت امرأته تعلم أن ميكوموتو هذا ليس من السهل أن ييأس. وأنه إذا كان أعلن ذلك للناس فلكى يسد أفواههم، لكى يرضى غرورهم. ولكنه مؤمن بأنه سينجح. وبعد سنتين، ذهبت زوجته سرًا إلى الشاطئ إلى حيث تدلت أقفاص القواقع من الأعمدة الخشبية ومدت يدًا مرتجفة وأمسكت قوقعة وفتحتها وصرخت. لقد وجدت لؤلؤة. . أول لؤلؤة مزروعة فى اليابان!

أول لؤلؤة؟!. ونادت زوجها ورقص الاثنان على الشاطئ. .وكان ذلك فى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٥٩. وأصبح يوم ٢٨ من كل شهر إجازة فى كل شركات ومصانع ميكوموتو. .

وفجأة تجهم وجه ميكوموتو وقال لزوجته: ولكنها ليست كروية . . إن اللؤلؤة نصف كروية!

وحاولت زوجته أن تقنعه بأنه نجح وأنه فى يوم من الأيام سيعرف كيف ينتج لؤلؤة كروية . . ولكن ميكوموتو لا ينشد إلا الكمال . . وفتح قوقعة ثانية وثالثة ورابعة . . ومائة . . لقد نجح . . وظهر فى العالم أول لؤلؤ من صنع الإنسان. أو على الأصح: تدخل الإنسان فى صناعته . . إنه لؤلؤ طبيعى، ولكن الإنسان هو الذى ساعد الطبيعة على إنتاجه فى الوقت الذى يريد . .

وكانت هذه هى بداية اللؤلؤ المزروع . . أو بداية زراعة اللؤلؤ . . وكان ميكوموتو هو أول إنسان اخترع اللؤلؤ المزروع . .

وعندما ذهب ميكوموتو إلى أمريكا للدعاية لهذا اللؤلؤ وقابل المخترع الأمريكى أديسون الذى اخترع المصباح الكهربى وأضاء ظلام الدنيا. قال له المخترع الأمريكى: «إنك حققت معجزة علمية».

ورد عليه ميكوموتو: «أنت أضأت العالم وأنا أضأت أعناق النساء. وإذا كنت فى دنيا الاختراع قمراً كاملا، فأنا أحد النجوم التى ليس لها عدد!».

وعندما سمع أديسون هذه العبارة بكى.

وقال له ميكوموتو وهو ينظر إلى دموع المخترع الكبير: «لقد رأيت أعظم لؤلؤتين على خد إنسان».

وليس هنا أنجح من النجاح نفسه . . فالنجاح هو أعظم لذة وأعظم غاية وأعظم قوة . . وأقبل الناس على ميكوموتو . . وأصبح كل ما يقوله حكمًا وأمثالا . . حتى الأرز الذى تبيعه زوجته يشفى العليل، وأصبح الناس يتفاءلون برؤية ـ ميكوموتو . . لقد نجح . . والنجاح رائحته ساحرة وطعمه حلو . .

ولكن ميكوموتو مشغول بشىء آخر . .

كيف يجعل هذه القواقع تنتج لؤلؤًا كروى الشكل . . إنه لاحظ أن اللؤلؤ الموجود فى القواقع أحيانًا يشبه الكمثرى فى الشكل وأحيانًانصف كروى وأحيانًا صغير وأحيانًا كبير.

وعرف ميكوموتو بعد ذلك أن السبب هو وضع البذرة . . أو وضع الجسم الغريب فى

جسم القوقعة . . وبدأ هو نفسه يفتح القوقعة ويضع الجسم الغريب فى المكان المناسب بين المعدة والكبد . . تماماً كما هو موجود فى القواقع : أمهات اللؤلؤ . .

* * *

وبدأ الإنتاج على نطاق واسع جدا فى قرية توبا . . واستأجر ميكوموتو جزيرة صغيرة أمام قرية توبا . . وهذه الجزيرة هى فى حجم ميدان التحرير فى القاهرة . . وبدأ يجمع القواقع فى أقفاص من الخشب ويعلق الأقفاص فى حبال مشدودة إلى أعمدة خشبية طافية على وجه الماء . . وجعل طول الحبل متراً وأحياناً مترين . . وعرف أن هذا هو الارتفاع المناسب لنمو اللؤلؤ . . وبين الحين والحين ينظف القواقع والأشياء الغريبة التى تعلق بها . . وعرف أن هناك عدواً قاتلا لهذه القواقع ، هو ثعبان البحر . . فهذا الثعبان يمتص القوقعة . . ثم هناك الأخطبوط الذى يقتلها ويحطمها . .

وتفنن ميكوموتو فى الدفاع عن هذه القواقع . . عن عشرين مليون قوقعة تنتجها مصانعه كل سنة !

* * *

وعندما ذهبت إلى جزيرة اللؤلؤ وهى جزيرة ميكوموتو عند مدينة توبا رأيت عمليات صيد اللؤلؤ وزراعته وتربيته حتى يصبح عقداً حول عنق المرأة .

والعملية تبدأ بأن تنزل الغواصات إلى البحر ـ ولا أقول غواصين ـ لأن اللاتى يصطدن القواقع من النساء فقط . . أما الرجال فعاجزون عن صيد القواقع . . والسبب فى ذلك أن المرأة عندها وسادة دهنية تحت الجلد هى التى تجعلها تتحمل البرد أكثر من الرجل . . ولذلك فالغواصة ـ واسمها باليابانى «أمة» وبالإندونيسى والفليبينى كذلك ، وفى اللغة العربية نقول «أمة» بفتح الألف معناها خادمة ـ هى التى تنزل إلى البحر وتجمع القواقع . والغواصات يبدأن الغوص من سن ٢٠ حتى ٤٥ . . وهى تبدأ بأن تنزل إلى مسافة خمسة أمتار ثم عشرة أمتار ، ولمدة عشرين ثانية . . حتى تصبح قادرة على الغوص لمدة دقيقة كاملة . . والغواصة تبدأ هذه المهنة بأن تحصل على الإعدادية . . لأن التعليم إجبارى فى اليابان حتى الإعدادية . . ولا يوجد فى اليابان كلها واحد لم يحصل على هذه الشهادة . .

والغواصة ترتدى جلباباً أبيض وتلف حول رأسها منديلا أبيض . . وهى ترتدى الفستان الأبيض ، لأن اللون الأبيض يخيف سمك القرش وهو عدو الغواصات والقواقع

أيضًا . . وتحمل معها صندوقًا من الخشب يشبه نصف البرميل وتربطه بحبل . . وعندما تغوص فى البحر يكون ذلك بالقرب من أحد الزوارق . . وفى الزورق يوجد زوجها الذى يساعدها على الصعود بعد انتهاء مدة الغوص . . وأحيانًا تكون فى الزورق نار مشتعلة لكى تستدفئ بها عندما تخرج من الماء . . وأقول يوجد زوجها فى الزورق . . لأنه ثبت بالتجربة أن الغواصة عندما تكون متزوجة تكون أقدر على الغوص وأطول بقاء تحت الماء . . وقد ثبت بالتجربة أيضًا أن الفتاة إذا لم تكن متزوجة، فإنها فى الغالب تتعب بسرعة وتكون مشتتة الذهن . . ولذلك رأينا ميكوموتو يشترط زواج الغواصة قبل أن تعمل عنده . . بل إن الغواصة نفسها تفضل دائمًا أن يكون الذى يعاونها هو زوجها . . وقد قالت لى إحدى الغواصات إنها لا تأتمن رجلا آخر غير زوجها . . فقلبه عليها دائمًا!

وفى أثناء الغوص تكون هناك نيران على الشاطئ . . وعندما تخرج الغواصات من البحر يذهبن إلى الشاطئ وينزعن ملابسهن . . ويجلسن عاريات تمامًا حول النار ثم يرتدين ملابس أخرى جافة . ويحدث هذا التغيير كل نصف ساعة . والغواصة لا تعمل فى اليوم كله أكثر من ساعتين . . وأجرها اليومى حوالى ثلاثين قرشًا . وثمن حبة اللؤلؤ هنا - أى فى جزيرة اللؤلؤ - عشرة قروش!

وبعد أن تنقل الغواصة صندوق القواقع إلى الشاطئ، تبدأ عمليات أخرى!

تبدأ عملية تنظيف القوقعة من المواد الغريبة التى علقت بها من البحر . . وبعد ذلك تبدأ عملية «الزرع» أو عملية التلقيح . . فتوضع القواقع على منضدة تجلس إليها فتاة وتستخدم الأدوات الحديثة البسيطة فى فتح القوقعة ووضع البذرة . . وكان ميكو موتو يستخدم الأجسام الغريبة مثل ذرات الرمل أو الحجارة أو قطعا من الزجاج ثم كان يضع هذه الأجسام الغريبة فى أحشاء القوقعة . .

ولكن ثبت أن أحسن الأجسام الغريبة التى يجب وضعها فى داخل القوقعة هى قطعة من محار القواقع التى تعيش فى نهر المسيسيبى بأمريكا . والمحار هو الغطاء الجيرى الذى تعيش فيه القوقعة . وهو يشبه أم الخلول . . وعندما تبلغ السنة الخامسة أو السابعة من عمرها فإنها تكون فى حجم كف طفل صغير . . وهذا المحار يكسرونه هنا عن طريق آلة خاصة حتى يصبح عبارة عن كرات صغيرة جدا كل واحدة فى حجم حبة الحمص . .

وقد اكتشف ميكوموتو أيضًا أنه يستطيع أن يضع بذرتين فى قوقعة واحدة وأن يضع ثلاث بذرات أيضًا . فى استطاعة القوقعة الواحدة أن تنتج ثلاث حبات من اللؤلؤ المزروع . . ولكن لم يحدث أن أنتجت القوقعة أربع حبات من اللؤلؤ .

وتمكن ميكوموتو أيضًا من أن يتحكم فى حجم اللؤلؤ وفى شكله . . فاللؤلؤ الصغير يجب أن تكون بذوره صغيرة . واللؤلؤ الكبير يجب أن تكون بذوره كبيرة أيضًا . . وكلما بقيت هذه البذور مدة أطول ، زادت حجمًا . . وأحيانًا يتركون البذرة لمدة عشر سنوات ، حتى تصبح اللؤلؤة الواحدة فى حجم الفول السودانى ، وثمنها يصبح حوالى ٢٥ جنيهًا .

وبعد عملية وضع البذرة تنقل القواقع إلى سلاسل أو أقفاص ، وتعلق هذه الأقفاص بالألوف من حبال مربوطة فى ألواح خشبية سابحة على وجه الماء ومثبتة طبعًا فى الأرض أو فى قاع البحر ، وتبقى كذلك سنوات . . وعندما يبرد الماء فإن هذه الأقفاص يسحبونها عن طريق زوارق إلى الجنوب حيث الدفء . . وعندما تزداد درجة الحرارة فى الجنوب فإنهم يسحبونها إلى الشمال حيث درجة حرارة الماء ألطف . . فدرجة الحرارة المناسبة لحيوان القواقع هى بين ٢٤° مئوية و ٢٥° مئوية . . وإذا زادت أو انخفضت درجة الحرارة عن ذلك فإن حيوان القواقع يتعب ويبدو عليه الكسل فى إنتاج اللؤلؤ . . ومن الغريب أن القواقع المريضة هى التى تنتج أجمل اللؤلؤ وأغلاه ثمنًا . . فاللؤلؤ الأسود هو أندر أنواع اللؤلؤ وأغلاه ثمنًا ، وهذا اللؤلؤ النادر هو الذى تنتجه القواقع المريضة . . كأن الطبيعة تريد أن تعوض هذه القوقعة عن مرضها . .

ولكن ما الذى يمرض القواقع ؟ . . لا أحد يعرف حتى الآن .

وهناك مسألة لم يتم حلها بعد : كيف تختلف ألوان القواقع ؟ لماذا ينتج بعضها لؤلؤًا أبيض اللون أو أصفر أو أزرق أو أسود ؟ لا أحد يعرف حتى الآن .

حتى اللون أمكن التحكم فيه أخيرًا . . وذلك عن طريق وضع بذور ملونة . . فتجىء اللؤلؤة ملونة أيضًا . .

وهناك مقاييس لمعرفة اللؤلؤ الجيد من اللؤلؤ الردىء ، ثم اللؤلؤ الطبيعى من اللؤلؤ الزراعى ، ولا أقول اللؤلؤ الصناعى - لأن هذا اللؤلؤ المزروع قد تم بصورة طبيعية ، يعنى لم يصنعه الإنسان خارج حيوان القوقع - هذه المقاييس هى حسب اللمعان ، أو البريق ثم حسب الشكل والوزن واللون . وأحسن اللآلىء هى الشديدة اللمعان ، ثم الدائرية أو الكروية والثقيلة الوزن .

أما الملونة فأغلاها الأسود والأبيض والوردى فالبنفسجى ثم الأزرق . . أما الفرق بين اللؤلؤة الطبيعية واللؤلؤة الزراعية أو المزروعة فلا يمكن أن يعرفه الإنسان بالعين المجردة ، لا بد أن يكون خبيرًا . . ولكن مع ذلك يمكن التفرقة عن طريق أشعة إكس ، فتحت أشعة

إكس ترى اللؤلؤة شفافة ١٠٠ ٪ أما اللؤلؤة المزروعة فتحت أشعة إكس نرى البذرة الأولى . . وهى عبارة عن كرة صغيرة مأخوذة من قواقع تعيش فى المياه العذبة . .

ولذلك عند شراء اللؤلؤ يجب أن تمسك الحبة وتلقى بها على سطح زجاجى أو خشبى وتنظر إليها وهى تتدحرج أمامك ، فإذا كانت مشيتها عوجة أو عرجاء كان هذا عيبًا ، وإذا نظرت فيها ووجدت صورتك بوضوح كان هذا دليلا على جودتها . .

قد تقول الآن : واحنا مالنا ومال اللولى؟ !

أنا معك . ولكن لماذا تقرأ عن القمر الصناعى والقمر الطبيعى . . وعن الرحلات للقمر؟! يا أخى كلها معلومات عامة . . وأنت لم تدفع تكاليف رحلتى إلى هذه البلاد ولم تركب القطار ولم تأكل الصراصير والضفادع مثلى ، ولم تنم على الأرض ولم تعطس ولم تسعل . . فاقرأ أحسن . . اقرأ للآخر . . يمكن تلاقى حاجة تنفعك!

* * *

وقد قرأت لميكوموتو ـ توفى سنة ١٩٥٤ عن ٩٦ عامًا ـ أنه ينصح السيدات أن يغسلن عقود اللؤلؤ بقماشة مبللة بالسبرتو . . وينصح السيدات بأن يرتدين اللؤلؤ الذى عندهن . . لأن اللؤلؤ يخف بريقه إذا لم يستعمله أحد . كأن اللؤلؤ يعرف أن حياته فى الأصابع وحول الأعناق وعلى الصدور .

وقد لاحظ أمناء متحف اللوفر أن بعض اللؤلؤ الموجود هناك ، قد بدأ بريقه يتناقص . . فانزعجوا . . وقرر العلماء أن اللؤلؤ إذا وضع فى مكان بارد مظلم فإن بريقه يقل . . ولذلك تجد اللؤلؤ إذا وضع على الجسم الإنسانى الدافئ وتعرض للضوء فإنه يحتفظ ببريقه أيضًا .

وقد لاحظت وصيفة إحدى ملكات النمسا أن حبات اللؤلؤ الموجودة فى عقد الإمبراطورة ماريا تريزة قد أخذ بريقه ينطفئ . . فخافت وتشاءمت . . ولكنها وصلت إلى حل هو أن هذا اللؤلؤ قد اشتاق إلى موطنه الطبيعى ، فهو قد عاش طويلاً بعيدًا عن أهله . . ولذلك قررت الإمبراطورة أن تعيد اللؤلؤ إلى مكانه من البحر . . وبعثت بأحد رجال الحاشية ليلقى باللؤلؤ فى البحر . .

وإمبراطورة النمسا هذه لم تعرف أن اللؤلؤة مكونة من الكالسيوم والفوسفات . . وأن الكالسيوم يذوب فى الأحماض الموجودة فى العرق ، وبعض الأجسام لها عرق حامض ، وهذا العرق يذيب اللؤلؤ أولا بأول فينطفئ بريقه . .

ولو كانت كليوباترة قد تركت اللؤلؤ فى كوب النبيذ مدة أسبوعين لتحول من تلقاء نفسه إلى مسحوق يسهل عليها أن تشربه كما كان يفعل أبناء الصين. فأبناء الصين كانوا يتعالجون باللؤلؤ.. تماما كما نفعل الآن عندما نستخدم أملاح الفواكه وفيتامين «ى» لعلاج الحموضة الموجودة فى المعدة وفى الأمعاء الغليظة..

وكان على ميكوموتو أن يخوض معارك لا حدود لها لكى يثبت قواعد اللؤلؤ المزروع. فقد ظهرت فى الأسواق ملايين من حبات اللؤلؤ الصناعى - أى اللؤلؤ المزيف - ولذلك نزل ميكوموتو إلى السوق واشترى كل اللؤلؤ الزائف وأقام فرنًا ضخمًا وأحرقه فيه. وبذلك حفظ سمعة اللؤلؤ المزروع من البوار. وكان كلما لاحظ أن اللؤلؤ يفقد بريقه لكثرة عرضه فى الأسواق، سحبه من جديد وأنزل بدلا منه لؤلؤًا جديدًا..

وفى المعرض الدولى الذى أقيم فى أمريكا سنة ١٩٣٩، أذهل ميكوموتو العالم كله.. فقد اشترك بتمثال لناقوس الحرية، استخدم فى هذا الناقوس ١٣ ألف لؤلؤة و٣٦٦ جوهرة. أما الكسر التقليدى فى ناقوس الحرية - يوجد نموذج لهذا الناقوس عند مدخل دار أخبار اليوم - فقد استخدم فيه اللؤلؤ الأسود النادر. وقد رأى الناس لؤلؤ اليابان المزروع.. وراح الناس يتحدثون عنه.. وتحدثت الصحف الأمريكية عن «ملك اللؤلؤ».. وأصبح هذا اللقب ملتصقًا به منذ ذلك الوقت..

وأصبح اللؤلؤ المزروع خطرًا على اللؤلؤ الطبيعى فى كل أنحاء العالم. ورفعت قضايا ضد ميكوموتو فى لندن وباريس وروما.. وأصدرت المحاكم أحكامًا لصالحه.. وطلبوا إليه أن يكتب على لؤلؤه عبارة «لؤلؤ طبيعى» ولكنه رفض إلا أن يكتب عبارة «لؤلؤ مزروع».

وقام ميكوموتو برحلة حول العالم ومر بالقاهرة فى سنة ١٩٢٧. وقام برحلة إلى كل بلاد آسيا، والبلاد التى تستخدم اللؤلؤ الطبيعى. واقتنع ميكوموتو بأنه محتاج إلى كثير من الدعاية، وأنه لا يكفى أبدًا أن تكون السلعة جيدة. وإنما يجب أن يعلم بها الناس، وأن يعمل صاحب السلعة على إقناع الناس.. فهناك نصابون كثيرون.. وهناك مزيفون أكثر من النصابين، ولذلك بدأ ميكوموتو يدعو الملوك والأمراء لزيارته.. وكان يقابلهم دائما بردائه القديم وقبعته المنفوخة.. والذين زاروه فى بيته دهشوا كيف ينام «ملك اللؤلؤ» على الأرض.. وكيف أنه لم يغير طعامه، ولم يغير عاداته، وكيف أنه ينزل إلى البحر ويستحم فى الماء البارد ويجفف جسمه فى ثوب قديم..

وعندما أصبح «ملك اللؤلؤ» غنيا وأصبحت ثروته تعد بالملايين بدأت الجمعيات الخيرية تطلب منه المعونة . . وكان يرد عليهم قائلا : «أريد أن أعرف اسم الجمعية التى عاونتنى فى محنتى . . لقد ماتت التى كانت تساعدنى» . .

لقد ماتت زوجته وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره وعاش بعد ذلك ٥٨ عاما ورفض أن يتزوج .

وعندما طلب إليه أحد رجال الدين أن يبنى معبداً بعد أن ساعدته السماء وأعطته باليمين والشمال . . كان ميكوموتو يحنى رأسه . . ويقول : حاضر . .

وفى اليوم التالى أمر بإنشاء معبد لملايين القواقع التى تضحى بنفسها لكى يعيش مئات الألوف من أبناء اليابان - عدد العمال فى شركات ميكوموتو حوالى ١٨٠ ألف عامل - وفى «جزيرة اللؤلؤ» التى يملكها ميكوموتو يوجد تمثال له ، ويوجد متحف صغير أخذت أخشابه من البيت الذى كان يعيش فيه ميكوموتو أيام كان فقيراً . . أما الجزيرة الأخرى التى كان يملكها ، وتقع إلى الجنوب من جزيرة اللؤلؤ ، ففيها معبد وضريح لزوجته وله ، ويوجد تمثال كبير لقوقعة .

وعندما نشبت الحرب الأخيرة ، وضربت اليابان بالقنابل الذرية . . لم يترك ميكو موتو جزيرة اللؤلؤ . . قرر أن يبقى إلى جوار القواقع . واتهمه الناس بالجبن والخوف وأرسل له أحد ضباط الجيش سيفًا وقال له «اقتل نفسك !» .

وكان رد ميكوموتو : «إننى تاجر . . إننى أعمل على إطعام مئات الألوف من اليابانيين . . إن تجارتى تنتعش فى ظل السلام . . فأنا أخدم بلدى وأنت تخدم بلدك أيضًا !» .

وعندما علم ميكوموتو أن الحرب قد انتهت وأن القوات الأمريكية احتلت اليابان ، رفع العلم الأمريكى على جزيرة اللؤلؤ . ولما سأله الناس عن هذا التصرف الغريب قال : أريد أن تكون تجارة اللؤلؤ هى أول تجارة تنتعش بعد الحرب . . يجب أن يعمل واحد من أبناء اليابان على إنهاضها . . فأنا العجوز أول رجل يعمل للسلام!

وبعد الاحتلال زاره كل قواد الحرب الأمريكيين ودهشوا لذكاء الرجل ومرونته وصلابته . . وكتبت عنه الصحف والمجلات وصوره التليفزيون وانطلقت أبواق الدعاية فى كل مكان تتحدث عن اللؤلؤ المزروع وملك اللؤلؤ ميكوموتو . .

والوارث الوحيد لكل ثروة ملك اللؤلؤ هو شاب لا يهتم أبداً باللؤلؤ أو بتجارته وإنما يهتم باللؤلؤ الحقيقى. . وهو يفرق بين ثلاثة أنواع من اللؤلؤ: اللؤلؤ الحقيقى واللؤلؤ الطبيعى واللؤلؤ المزروع. أما اللؤلؤ الحقيقى فهو الفكر. هو الأدب والفن، ولذلك فهو مشغول جدا بدراسة الأدب، وخصوصًا الأديب الإنجليزى جون رسكن، وقد جمع كل مخطوطاته وكل كتبه وكل ما كتب عنه حتى أصبحت مكتبته تتألف من ثلاثة آلاف كتاب عن هذا الأديب بالذات. ولكن لماذا هذا الأديب؟! لا أحد يعرف. . أما تجارة اللؤلؤ وبيعه والدعاية له فمشغول بها آخرون. . هؤلاء الآخرون هم أزواج بنات ميكوموتو ملك اللؤلؤ وكلهم مديرون لفروع هذه الشركة الضخمة التى تزرع كل سنة حوالى عشرين مليون قوقعة!

وإذا نظرت إلى خريطة اليابان. . إلى جزيرة هونشو بالذات التى تقع عليها العاصمة طوكيو، فإنك لن تهتدى بسهولة إلى مدينة توبا التى شهدت طفولة ومملكة ميكوموتو. .

أما الآن فقد امتدت لها الخطوط الحديدية والكهربية، وفيها فنادق من الطراز اليابانى الأنيق، وفيها منتجات مدهشة لكل ما يخرج من البحر. . فالصدف والمحار والقواقع والأسماك والجمبرى كل ذلك تحول إلى تماثيل فنية وإلى لوحات بارزة رائعة وكلها تباع بأسعار رخيصة. وهناك يباع اللؤلؤ كما تباع القوطة والخيار، هناك نساء يبعن القواقع ويفتحنها أمامك ويخرجن لك اللؤلؤ. . القوقعة الواحدة بها حبتان من اللؤلؤ وبعشرين قرشًا. . وفى هذه القرية الصغيرة معرض للأحياء المائية وبها مطاعم كثيرة، وبها زوارق بخارية تنقلك من توبا إلى جزيرة اللؤلؤ التى تبعد عنها خمسين مترًا، وهذه الزوارق تلف بك حول الجزر الأخرى وتريك صيد السمك وصيد اللؤلؤ. . وأكثر زوار هذه المنطقة من طلبة المدارس الابتدائية والثانوية من البنين والبنات. والتعليم كله هنا مشترك ـ اليابانيون هم الذين أدخلوا التعليم المشترك فى إندونسيا والفيلبين أيام احتلالهم لهذه البلاد فى الحرب الأخيرة.

والحفاوة بالطلبة والطالبات لا نهاية لها.

وقد قال لى مدير جزيرة اللؤلؤ وهو شاب لطيف اسمه «كانوا» ويتكلم الإنجليزية: «إننا نهتم بالتلميذات والتلاميذ لأسباب تجارية. . فالتلميذة ستصبح زبونة عندنا بعد عشر سنوات، أما التلميذ فسيصبح زبونًا بعد عشرين سنة. . فنحن الرابحون دائمًا» !

ومظاهر هذا الاهتمام أنهم يعرضون لهم بصورة واضحة جدا عملية الغوص واصطياد

اللؤلؤ وزراعته وصيانته وتربيته وفرزحبات اللؤلؤ حسب الحجم والشكل واللون وعملية ثقب حبات اللؤلؤ ووضعها فى عقود . .

وأسجل حقيقة هنا : هى أن الفتاة التى تقوم بكل هذه العمليات بما فى ذلك قيادة الزوارق والبواخر والمطاعم والمعارض والأحياء المائية . . كل ذلك يتم فى غاية الأدب والمرح . . وكل شىء هنا يدل على أنه من الممكن أن يكون الإنسان فى غاية الكفاية وفى غاية الأدب وفى غاية المرح أيضًا . .

* * *

وعلى محطة سكة حديد «توبا» وقفت خادمتان واحدة بالكيمونو والأخرى بالفستان تحملان حقائبى وتنتظران القطار حتى يتجه إلى طوكيو ، وحاولت أن أشكرهما وأن أعيدهما إلى الفندق . . مستحيل ! لا بد من توصيلى وانتظارى حتى أسافر . . وقبل أن نخرج من الفندق اصطفت جميع الخادمات وزوجة وبنات صاحب الفندق وانحنين انحناءات تكسر الظهور لتوديعى . . وعلى المحطة انحنت الفتاتان لتوديعى . . وتحرك القطار وكدت أقفل النافذة ونظرت لآخر مرة فوجدت الفتاتين وقد انحنتا أيضًا رغم أن القطار قد ترك المحطة منذ لحظات .

واعتدلت فى جلستى استعدادا للنوم فالطريق إلى طوكيو طويل . . وأغمضت عينى ، ولكن بريق ملايين حبات اللؤلؤ ما يزال فى عينى . ويظهر أن اللؤلؤ جماله فى أنك تراه فقط فى يد فتاة أو فى عنقها . . وقد لاحظت أن جميع بنات جزيرة اللؤلؤ لا يستخدمن هذا اللؤلؤ ولا يضعنه فى عنق أو فى أصبع . ولا حتى الموظفين . . فاللؤلؤ ليس زينة عندهم . . وإنما يرتبط عندهم بالعمل والتعب . . إنهم يشبهون القواقع تمامًا . . فاللؤلؤ هو دموع القواقع ، وهو دموع الغواصات والمرشدات العاملات هنا . .

وخفتت أضواء اللؤلؤ فى عينى وفى خيالى وتذكرت الجملة الحكيمة التى كان يرددها ملك اللؤلؤ . . كان يقول : «لا تفرح بالنصر الكبير . النصر الصغير أحسن . فالنصر الكبير يشبه قطرات الندى الكبيرة . إنها تلمع فوق أوراق الشجر ، ولكنها لا تبقى كثيرًا لأنها كبيرة وثقيلة ، ولذلك تسقط على الأرض . . الانتصارات الصغيرة فهى تشبه قطرات الندى الصغيرة فهى تلمع وتبقى طويلا لأنها خفيفة ! » .

* * *

ولذلك يجب أن أفرح لأننى رأيت ملايين اللآلئ ولم أملأ جيوبى منها . . وتذكرت حكمة بلدية تترجم هذه الحكمة اليابانية التى كان يرددها ملك اللؤلؤ . . هذه الحكمة تقول : إن هذا قصر ديل .

والإنسان يجب أن يفرح بأن ديلة قصير ، لأن الديل الطويل يجرجر على الأرض ويتسخ .

ـ يعنى أفرح برؤية اللؤلؤ؟ !

ـ طبعًا . . كفاية ! .

ـ لقد فرحت . . وليس معقولا أن أفهم أكثر من ملك اللؤلؤ !

جزر هاواى

آلوها.. آلوها؟!

سايو نارا . . ومعناها باليابانية وداعًا . . وداعًا يا بلاد الذوق والأدب والانحناء الذى ليس له أول ولا آخر . . وداعًا يا بلادًا لا تعرف الإنجليزية وتقول نعم دائمًا إذا فهمت وإذا لم تفهم . . وداعًا يا بلادًا لا تطلب البقشيش . . وداعًا يا بلاد اللؤلؤ والجيشا والراديو الصغير . . وداعًا يا بلادًا تمشى نصف بناتها على القباقيب ويسكن نصف أهلها فى بيوت من خشب . . وداعًا يا بلاد الشمس المشرقة فوق السحاب والمشرقة دائمًا فى وجوه الرجال والنساء . .

اليوم هو آخر يوم أسمع فيه أحدًا يسألنى : إيه رأيك فى اليابان؟ ثم يتوقع أن يكون الجواب دائمًا : إنها رائعة !

سايو نارا . . سايو نارا . .

لن أرفع سماعة التليفون وأطلب الشاى كل يوم وأقول : كوتشا . . من غير ليمون . . ومن غير لبن . .

-إزاى . .

-أيوه من غير لبن ومن غير ليمون .

ولن أقول للفتاة الصغيرة -وكل بنات الفنادق دون العشرين بزمان- وأنا أشكرها على أن الشاى جاء بعد دقائق وفى أدب ورقة وابتسام وانحناء لن أقول أبدًا بعد ذلك : أريجاتو جوازى ماشتا . . أى أشكرك جدا . . ولن أسمع من أية فتاة صغيرة وهى ترد بانحناءة طويلة عميقة : دوه تاسى ماشتا . . أى أشكرك أنت . .

وداعًا يا بلادًا تأكل السمك النيىء، وتضع السكر فى الصلصة، وتسلق البصل والفجل

والخيزران، وتأكل على حصيرة ناعمة، وتستمع إلى الضفادع البشرية وهى تغنى فى ملابس الجيشا. . وداعًا يا بلاد الشمس التى أشرقت فى نفسى ولن تغرب أبدًا.

سايو نارا. . سايو نارا. . !

وأتمنى أن تصبح بلادنا جميلة كبلادكم. . غنية كبلادكم. . وأن يكون كل ما فى شارع سليمان باشا مصنوعًا فى بلادنا: السيارات والملابس وزينة الستات وملابس الرجال وكل ما فى فترينات المحلات على جانبى الشارع. . سايو نارا. . وأن يصبح توزيع «الصحف العربية» كتوزيع صحيفة «أساهى» اليومية، إنها توزع ستة ملايين نسخة يوميًا. . وهى أكبر صحيفة يومية فى الدنيا. .

ولم أذرف دمعة على فراق اليابان الجميلة، ولكن السماء هى التى اكفهر وجهها، ونزلت منها دموع. . رأيتها على زجاج السيارة الكاديلاك التابعة لشركة «بان أمريكان» وهى تنقلنا إلى مطار طوكيو الدولى. . الشوارع على الجانبين تتلألأ. . الأنوار كالسوائل الملتهبة. . الأنوار عروق نابضة بالنور والحرارة فى جسم طوكيو. . لا يوجد إعلان واحد مكرر فى كل هذه المدينة العظيمة.

ومطار طوكيو الدولى عمل فنى كامل: المبنى والمدخل، والميكروفونات. . والأتصال بين موظفى شركات الطيران مودرن جدا. . والحقائب تتحرك على حصيرة كهربائية. . والمحلات والمطاعم رائعة. . وأعتقد أن مطار طوكيو هو أحسن مطار رأيته حتى الآن. . أحسن من مطار تمبلهوف ببرلين. . أحسن من مطار فرانكفورت. . وأحسن من مطار أورلى بباريس. .

* * *

المسافة بين طوكيو وبين جزر هاواى هى ١٣ ساعة ونصف ساعة. . . من الطيران المتواصل.

بدأت رحلتى فى الساعة العاشرة والنصف مساء.

تحسست ملابسى. . إنها كثيفة. . البالطو من الجلد اشتريته من الهند، والجاكتة صوفية اشتريتها من أستراليا، والبلوفر اشتريته من هونج كونج، والقميص من سنغافورة، والملابس الداخلية كلها من طوكيو. . وعندما ذهبت لشرائها دهشت البائعة، ولكن أدبها منعها من أن تقول: إن أحدًا لا يشترى هذه الملابس الشتوية إلا العجائز!

وواحدة أخرى قالت فى أدب: إن هذه الملابس قد اشتريتها أمس لوالدى! لوالدها . . لجدها . . ؟ لا يهم فالبرد والمطر هنا جعلانى أنكمش كأنى عجوز وكأننى أرنب!

وفى الطائرة جلست بجوار النافذة وشددت الحزام، وأخرجت كتابا صغيراً عن جزر هاواى، ولم أكد أقلب فى الكتاب حتى جاءت مضيفة الطائرة . . إنها أمريكية وشكلها مكشر كأنها تمثل دور الزوجة المطلقة فى فيلم صامت . . ومدت يدها بطبق فيه بعض اللبان . . ولو أنصفت لقدمت لنا بعض الليمون، وأخذت هى نصف هذا الليمون لعله يزيل القرف من شفتيها وعينيها!

وجاءت المضيفة اليابانية . . حلوة صغيرة كالعروس ولا تكف عن الضحك . . لا توجد هناك نكتة، ولكن وجودنا يكفى . . . !

والمضيفة الأمريكية كأنها تقول لنا: أنا مش خدامة أبوكم! ونحن نقول أيضًا ولكنها لا تسمع ما نقوله نحن: واحنا ما نرضاش إنك تكونى خدامة أبونا . . !

والليل طويل . . والكرسى صغير ضيق على ملابسى الكثيرة . . والأمريكيات العجائز لا يتوقفن عن الكلام. وحكايات وقصص طويلة عن الذى رأينه فى الدنيا شرقًا وغربًا . . ويتحدثن عن مشاكل البيت والطعام والأولاد . . ويكفى أن تنظر لأية سيدة أمريكية أو أى رجل أمريكى حتى يحييك ويسلم عليك ويصبح صديقك فى لحظة ويعطيك عنوانه ويطلب إليك أن تزوره.

كل شىء عند الأمريكان يتم فى بساطة وبسهولة وبلا كلفة، وربما كان هذا هو السبب الذى جعل الناس فى أوربا وآسيا مفتونين بالحياة الأمريكية . . فهى بسيطة «هلهلى» وفيها حياة ومرح كثير جدا - فيما عدا هذه المضيفة!

وكان الليل طويلا . . ولم تشرق الشمس إلا فى ساعة متأخرة كأنها هى الأخرى قد راحت عليها نومة . . والطائرة بدأت تهتز كأنها تتساقط من التعب . . ومن النافذة كان ماء المحيط الهادى أزرق قاتمًا . . كشكل المياه حول جزيرة كابرى . . أو حول جزيرة سيلان . . أو مرسى مطروح . . أزرق داكن وتحت الماء توجد صخور بنية اللون، هذه الصخور هى بقايا جزر غمرها المحيط. إنها مئات الجزر ويسمونها «الهاديات» نسبة إلى المحيط الهادى فكل هذه المنطقة بركانية . . وكل هذه الجزر الموجودة هنا هى جبال بركانية. وقد أغرقت المياه الوديان التى حولها ولم تبق إلا القمم.

وقبل جزر هاواى نبهنا الطيار إلى أننا بعد لحظات سنكون فوق الأجزاء الشمالية لجزر هاواى . . وكادت أرواحنا تطير تسبق الطائرة إلى سماء هذه الجزر وأخيراً ظهرت كتل بنية اللون ، وفيها بعض البقع الخضراء . . وأحيانًا تظهر خطوط لامعة أيضًا . . وكأننا نرى وجه القمر . . ويبدو أن هذه الجزر كلها صغيرة ولكن شكل الجزر يبدو كشكل طفل مولود الآن . . كتلة من اللحم الأحمر ليس له ملامح الأب أو الأم ، ليست له ملامح الصورة الرائعة التى فى خيالنا عن جزر هاواى وسحر هاواى ولياليها وأغانيها . . وبصراحة ليست لها ملامح بنات هاواى . . !

ولم أتعجل الحكم على هذه الجزر . . وانتظرت حتى تنزل الطائرة إلى الأرض . . وبعد لحظات أعلن الطيار أننا نرى تحتنا ميناء بيرل هاربور التاريخية . . وهى تاريخية لأن اليابانيين أغرقوا فيها الأسطول الأمريكى ، وبدأت معارك الحرب الثانية فى الشرق الأقصى . . وبعدها قفز اليابانيون إلى الفليبين والهند الصينية وإندونيسيا وهددوا أستراليا . . وإلى جوار بيرل هاربور ـ ومعناها ميناء اللؤلؤ ـ أعلن أنه توجد مدينة هونولولو عاصمة جزر هاواى . . وجزر هاواى هى الولاية الخمسون فى الولايات المتحدة . . فقد انضمت إليها منذ سنوات قليلة وهى أحسن فترينة لأمريكا فى الشرق الأقصى كله .

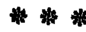
ونزلت الطائرة إلى مطار هونولولو الدولى . . المطار كبير ومخطط ونظيف جدا وبه عدد كبير من الطائرات النفاثة الحربية والمدنية . . وهى تنزل وتصعد كل لحظة بصورة مذهلة . . !

ولم نكد نخرج من الطائرة حتى أحسست بحرارة الجو . . الدنيا حر هنا . . كشهر مايو فى القاهرة . . وأخذت أنزع ملابسى . . البالطو والجاكتة والبلوفر . . ولم أتمكن من تشمير القميص فتحته ملابس لها أكمام طويلة . . وفى السيارة أكملت نزع ملابسى . . !

والوجوه كلها أمريكية . . القمصان ذات الورد والأبقار والجواميس والأسماك . . القمصان من كل الألوان وكل المقاسات . . القمصان الواسعة جدا والبنطلونات الضيقة واللبان والسجائر والسيجارات . . ودخلنا الجمرك فى طوابير لنرى أحد ضباط الهجرة قد رسم على ذراعه عروسًا . . لا بد أنها تشبه فتاة كان يحبها . . أو ربما ولد ، وهذا الرسم على ذراعه فهو رسم طبيعى لونه أزرق فى لون العروق أو فى لون عينيه . . أو يمكن وحمة . . !

ولم يستغرق الكشف على شهاداتنا الطبية ضد الجدرى والكوليرا وجوازات السفر

سوى دقائق معدودة، وأمام باب المطار وجدنا الشيالين من أبناء هاواى ولكنهم أمريكيون أكثر من الأمريكان . . «الخنافة » فى الكلام، الاستخفاف فى الحركة وكثير من القنزحة . . تقدم واحد منهم وسألنى إن كنت أريد سيارة تاكسى أو سيارة كبيرة لنقل حقائبى . . فوافقت على تاكسى، وطلبت إليه أن يحضر حقائبى . . فقال ما معناه إنه «ريس» هنا . . ولكنه مع ذلك سينقل حقائبى . . «ومع ذلك» هذه كلفتنى نصف جنيه بقشيش . . وجاء التاكسى كاديلاك ضخم . . أما السيارة الكبيرة التى كان يريدنى أن أركبها فهى كاديلاك أيضًا، ولها ستة أبواب . .



ورأيت فتيات سمراوات يرتدين ملابس هاواى . .

وملابس هاواى تشبه جلاليب الفلاحات عندنا واسعة ولها سفرة عالية، وحول أعناق الفتيات عقود من الورد . . وقد ظننت أن أحد هذه العقود سيلتف حول عنقى . . وقد بالغت فى الظن فتخيلت أن هذه هى التقاليد . . وهكذا قالت لنا كتب الدعاية . . ولكن الفتاة سألت عن السيد جارسون وحرمه . . وتقدمت منى وقالت: مستر جارسون؟ . . فقلت: أيوه .

وتقدمت الفتاة ووضعت إكليل الورد حول عنقى، ثم طبعت قبلة على خدى . . !

وأنا أضحك، وهى سعيدة لأنها لم تنتظر طويلا لكى تجدنى . . .

ثم سألتنى عن السيدة حرمى فأشرت إلى الراكب الذى يمشى ورائى . . ولم تسمعنى وأنا أقول لها: إنها تخلفت فى طوكيو وأرسلت أخاها!

وغضبت وسحبت العقد من رقبتى وراحت تبحث عن مستر جارسون وحرمه .

وفى السيارة سألت السائق عن الحياة فى جزر هاواى وعن بنات هاواى ولاحظت أن السائق دهش جدا لهذه الأسئلة .

وسألته عن سكان هاواى الأصليين وأين نجدهم!

وعرفت أن الطائرة التى سافرت من طوكيو يوم الخميس فى الساعة الثالثة مساء وصلت إلى هونولولو حوالى الساعة الثالثة من مساء يوم الخميس نفسه، فبدلا من أن تصل يوم الجمعة وصلت يوم الخميس . . فجزر هاواى متقدمة فى الزمن خمس ساعات

عن اليابان . . ومن الأفضل أن تسأل أحد علماء الجغرافيا أو الفلك ، فنحن هنا نقع على خط طول ١٥٨ غرب جرينتش ، والقاهرة على خط طول ٣٠ شرق جرينتش ، والفرق بين البلدين الآن هو ١٢ ساعة!

يعنى لقد تقدمنا فى الزمن خمس ساعات . . ولكن عرفت أننا تأخرنا فى الوصول إلى هذه الجزر حوالى خمسين سنة! فأهل هاواى ـ الذين كنت أتوقع أن أراهم عراة حفاة ، ينسجون ملابسهم من أوراق الموز ، ويركبون الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار ، ويضعون الورود الكبيرة فى الشعر . . وبنات هاواى التى قال عنهن جيمس كوك الذى اكتشف هذه الجزر لا يعرفن إلا فنّا واحداً هو الاستسلام للرجل . .

هؤلاء الرجال والنساء لا وجود لهم الآن . . لقد اختفوا منذ خمسين سنة على الأقل!

أما الآن فكل الناس يلبسون البدل والأحذية ومعظمهم يضيق بالأحذية الضيقة فيضع فى قدميه سيارات فاخرة من أحدث طراز . . فأنا لم أر أحداً يمشى فى الطريق . والموضة هنا هى قيادة السيارات وأنت عريان إلا من مايوه صغير . . أما السيدات فيقدن السيارات بالمايوه . . والمايوه مسخوط جدا ، فهو مختصر جداً ، وربما كان السبب هو الاقتصاد فى استخدام الأقمشة الثقيلة!

وعند الفندق انحرفت السيارة ودخلت فى بوابة مكتوب عليها كلمة : آلوها . . ومعناها : أهلا . . وكلمة آلوها مكتوبة على كل السيارات . . وانطلقت السيارة إلى جراج تحت ، وبالجراج سيارات لم نرها قبل ذلك . . فكلها موديل العام القادم . . كل السيارات جديدة ، والسيارة الأمريكية قد ملأت الجراج والشوارع هنا . ونزل السائق ووضع الحقائب على الأرض وسألته : كم؟ . . فقال : خمسة دولارات . . .

يعنى جنيهين لكى ينقلنى من المطار إلى المدينة . . والمسافة لا تزيد على خمسة كيلو مترات . . أعطيته الدولارات الخمسة وأنا مذهول من وقوفه أمامى . . إنه ينتظر البقشيش . . ولا أعرف ماذا أعطيه . . فأعطيته نصف جنيه!

الفندق أنيق جدا . .

واتجهت إلى الغرفة . . إنها واسعة طولها عشرة أمتار وعرضها سبعة أمتار وأرضها مفروشة بحصيرة جميلة مصنوعة من ليف النخيل . . وبالغرفة مقاعد ومكاتب ولها شرفة تطل على البحر . . تطل على خليج ويكيكى ـ لا تخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة

وكويكى التى معناها بلغة هاواى: بسرعة! . . أما إيجار الغرفة فهو تسعة جنيهات فى اليوم. . لا فطور ولا غداء ولا عشاء. . مصيبة سودة!

وفى المطعم عرفت أنه لا توجد هنا فنادق درجة أولى ودرجة ثانية. . وإنما الفنادق هنا هكذا: درجة أولى، ودرجة أولى ممتازة، ودرجة أولى خاصة. . ثم الڤيلات!

وفى المطعم جلست متحسرًا خائفًا لا أدرى ماذا أصنع. . أنا ميت من الجوع. . فالأكل فى الطائرة يوجع البطن. . إنه خليط من السكر والملح، وكل الأكل بارد. . الصلصة عليها سكر، الليمون منقوع فى العسل، الزيتون مزروع فى المربى. . اللبن مثلج. . الشاى باردا!

وجاءت الجرسونة اليابانية ـ هنا ٤٠ ٪ من السكان الأصليين يابانيون ـ فطلبت منها أن يكون السمك مشويا وبعض الشوربة الساخنة والسلاطة الخضراء. . وبلاش شاى وبلاش قهوة وبلاش فاكهة. والناس حولى يأكلون كميات كبيرة من الطعام والسلاطات والفواكه. . فلا بد أنهم سيدفعون مبالغ خرافية. . وبعد الأكل طلبت من الجرسونة: الحساب من فضلك؟ فكتبت ورقة وطلبت منى أن أدفع هناك. . وأشارت إلى حيث تقف فتاة أمريكية عملاقة. . ونظرت فى الورقة وكاد يغمى على. . تصوروا أن هذا الطبق التافه كلفنى ثلاثة جنيهات. . قطعة من اللحم وإلى جوارها بعض البرسيم والأعشاب بثلاثة جنيهات!

كاد عقلى يطير منى. . وبدأت أفكر فى الهرب من هذا الفندق وحاولت أن أسأل عن بيوت يابانية أو صينية. . وأعاود النوم على الأرض كما كنت أنام فى اليابان. . . مأساة!

ألا يوجد فى هذه البلاد فقراء؟ ألا يوجد أناس متوسطو الحال؟ أليس بين الأمريكان واحد ليس مليونيرًا؟ وتذكرت الناس الجالسين إلى جوارى والمبالغ التى سيدفعونها. . لقد طلبوا نصف خروف أو نصف بقرة وعشرات من زجاجات البيرة والنبيذ وأكوامًا من الفواكه وبراميل من القهوة. . مع أن أشكالهم لا تدل على أنهم من الأغنياء. . ويبدو أن الأمريكان لا يهتمون بمظهرهم كثيرًا فأنت لا تعرف الفرق بين الغنى والفقير أو بين الكبير والصغير.

ومن شرفة غرفتى. نعم غرفتى. فليس أمامى إلا أن أملأ صدرى بالهواء النقى جدا، وأملأ عينى بالوجوه الحلوة التى تتناول العشاء فى ضوء المشاعل، وإلا أن أشاهد بنات

هاواى يرقصن حافيات على رمال الشاطئ، وعلى نقر الطبول وعويل الجيتار . . من شرفة غرفتى جلست أشرب الدنيا وآكلها مجانًا وأمصمص شفتى وأنا أتطلع إلى بنات هاواى!

وبنت هاواى ترقص هنا بمايوه قطعتين، ووراء أذنها وردة كبيرة وحول رقبتها عقد من الورد . . والأمريكان جالسون على الرمل يصفقون. وفى جانب آخر من البلاج أرى أشباح شبان فى عناق طويل، وأرى الأشباح تتقارب وتتعانق ويصبح الشبحان شبحًا واحدًا ويختفى الشبح على الرمل ثم يختفى الظل، يصبح حفرة فى الرمل . . يدوسها الناس . . وتتكرر عملية الأجسام التى تتحول إلى أشباح ثم إلى حفر فى الرمل وإلى صمت . . ثم إلى حسرات ـ أقصد نفسى!

وفى اليوم التالى اكتشفت أماكن أرخص . . ولكنها لا يمكن أن تكون كاليابان الغالية جدا . . إنها طبعًا أغلى بزمان.

وحمام ساخن، ونومة حتى الصباح، وبعض الموسيقى وبعض الصحف وكوب من اللبن الدافئ. والمشاعل على الشاطئ والوجوه السعيدة . . كل هذا أعاد لى روحى . . وفى ساعة مبكرة فتحت النافذة على شمس جديدة تنسحب على ماء مثل المشمع الأزرق الذى ينسحب إلى الشاطئ كأنه يريد أن يسمع ما يقوله المستحمون . .

هذه جزر هاواى . . أجمل جزر رأيتها حتى الآن . . أجمل من كابرى . . وأجمل من صقلية ومن قبرص ومن سيلان ومن سنغافورة ومن بالى ومن هونج كونج . . جزر هاواى تضم أكثر من ١٢ جزيرة صغيرة ولكن أشهرها جزيرة ماواى، وجزيرة أواهو وفيها هونولولو عاصمة ولاية هاواى كلها، وجزيرة ماوائى، وجزيرة كاوائى، وجزيرة نيها، وجزيرة مولوكائى، وجزيزة لا نائى . . وهم هنا ينطقونها بالهمزة فيسمونها: هاوائى أو هافائى . . ويضعون هذه الهمزة على الحروف اللاتينية كما نضعها فى العربية . . ومن الغريب أنهم يسمونها «همزة» أيضًا . . ولا يعرفون من أين جاءتهم هذه الكلمة . . وقد لاحظت وجود كلمات عربية فى لغتهم مثل: كاهن وحكيم وحب و حبلى وواهنة و قوى . .

وكلمة «آلوها» هنا تجدها فى كل مكان ومعناها: أهلا أو وداعًا . . أو معناها: نزلت أهلا أو تركت أهلا.

وهناك شركات طيران اسمها شركات طيران أهلا وشركات ملاحة أهلا . .

وجزر هاوائى عدد سكانها نصف مليون . . وسكان جزر هاوائى معظمهم من الجنس الأصفر الذى ينتمى إليه سكان اليابان والصين والفليبين ، والباقى ينتمى إلى الجنس الأبيض أو القوقازى .

وعندما اكتشفت هذه الجزر سنة ١٧٧٨ كان عدد الهوائيين حوالى ٥٠ ألفًا . . وبعد اكتشاف هذه الجزر مات معظم هذا العدد بسبب أمراض الحضارة : الزهرى والسيلان! ولم يبق الآن من هؤلاء الهوائيين سوى عشرة آلاف . . وهذه الآلاف لا يمكن أن تجدها إلا فى الجزر البعيدة المقفلة .

أما أبناء هوائى فهم الآن أمريكيون . . وأحيانًا يبالغون فى «أمركتهم» لدرجة أنهم يسخرون من الأمريكيين . . أما الأمريكان فيسكتون أو يضحكون . . فليس فى أمريكا كلها أمريكى واحد إلا الهنود الحمر ، أما الباقون فقد جاء معظمهم من أوربا . . فكلهم أجانب مثل أهل هاوائى ، ولم أسمع واحدًا يقول إنه أمريكى إلا «المحدثون» أما الأمريكان القدامى فهم يقولون إنهم من إنجلترا وفرنسا أو إيرلندا!

وجزر هاوائى هذه قد عرفت الأمريكان منذ وقت طويل ، منذ حوالى ١٨٠ سنة عندما بدأ رجال التبشير ينزلون إلى هذه البلاد واحدًا بعد واحد وكانوا يدعون إلى المسيحية . . ويفتحون الطريق أمام الدول الكبرى لكى تستعمر هذه الجزر . ليس هذا إلا رأى الكاتب الأمريكى جيمس متشنر فى كتابه الأخير عن «هاواى» وبه ألفا صفحة ، وربح فيه ثلاثة ملايين دولار!

وبعد رجال الدين جاء رجال الأعمال واحدًا بعد واحد . . ورجال الأعمال هم الذين أتوا بالعمال اليابانيين والصينيين . . وقد ظلت هاوائى مجموعة من «العزب» أو «الإقطاعيات» لأصحاب الأعمال الأمريكان . . ولا تزال هناك حتى الآن جزر كاملة تملكها عائلات ولا يدخلها أحد . . فجزيرة «نيهاو» تملكها عائلة واحدة ولا يمكن دخولها إلا بإذن خاص . . وعدد سكان هذه الجزيرة حوالى ٢٠٠ نسمة . . وغرض هذه العائلة أن تبقى الحياة فى هذه الجزيرة كما كانت من مئات السنين . . فعلى الرغم من أن بهذه الجزيرة أحدث الآلات لزراعة القصب واستخلاص السكر . . وزراعة الأناناس ووضعه فى العلب ، فإن الحياة فيها بدائية .

وهناك جزيرة أخرى تملكها إحدى الشركات هى جزيرة لانائى . .

وجزر هاوائى تزرع القصب والأناناس وتبيع منه سنويًا ما يعادل ٣٣٠ مليون دولار . .

وهناك زراعات وصناعات أخرى أدت إلى رصف الشوارع . . وكثرة الخطوط الجوية والملاحية والمطارات والموانئ . . والمحطات التجارية هنا مليئة بالبضائع الأمريكية . وكل الناس هنا يعملون وكلهم يرتدون الملابس النظيفة ولا تجد فى الشوارع إلا عدداً قليلا جدا من المشاة . . والأتوبيسات هنا فخمة وثمن التذكرة بين محطة وأخرى ٢٠ سنتًا أى ما يساوى ثمانية قروش!

وهذه مطاعم يابانية وصينية وكورية . . وصناعات يابانية أيضًا . . والمنافسة بين أمريكا واليابان على أشدها . والصناعات اليابانية أدق وأصغر وأرخص وأكثر .

والفندق الذى أنزل به تنعقد به لجان كل يوم . . لجان كثيرة . . هذه لجنة تحسين العاصمة . . وهذه لجنة عمل أنفاق تحت الأرض . . ولجنة بناء برلمان . . ولجنة تحسين المطار الدولى وتخفيف ضغط الطائرات النفاثة التى تزعج العاصمة ، فالطائرات النفاثة الحربية والمدنية تنزل وتطلع بمعدل طائرة كل خمس دقائق ليلا ونهاراً!

والديانة هنا هى المسيحية وإن كان بعض الصينيين واليابانيين لا يزالون يتمسكون بالديانة البوذية . . ولكن عددهم قليل جدا .

* * *

وعندما جاء جيمس كوك الرحالة الإنجليزى الذى اكتشف هذه الجزر ، واكتشف أستراليا أيضًا ، ظنه الهاوائيون أحد الآلهة . . فهو طويل أبيض اللون أصفر الشعر أزرق العينين . . وظنوا أن سفينته هى جزيرة عائمة . . وظنوا أن ساريات السفينة أشجاراً فى هذه الجزيرة . وعندما نزل كوك فى جزيرة هاوائى أقبل عليه الناس ساجدين راكعين . . وأدرك كوك أنه إله فأمعن فى إظهار المعجزات فأمسك سيجارة وأشعلها وراح يطلق الدخان من فمه والناس فى ذهول . . ثم أخفى يديه فى جيب الجاكتة فظن الناس أنه يستطيع أن يضع يديه فى أحشائه ويخرجها دون أن يموت . . ثم إن معه عصا ينطلق منها دخان ولهب ولها دوى مروع . . وخروا ساجدين لهذه العصا السحرية . . وكانت تلك العصا نوعًا من البنادق القديمة!

وكانت الديانة هنا تحدث الناس عن اليوم الذى ستبعث فيه الآلهة بمن يزور الجزيرة ويخلصها من لعنات الآلهة «بيلة» آلهة النيران والبراكين والتى تزور جزر المحيط الهادى الواحدة بعد الأخرى ، ثم تستقر آخر الأمر فى جزيرة هاوائى حيث تنطلق النيران من براكينها . . وعندما هبط كوك أيقن الناس أن هذا هو الإله المنتظر!

ويظهر أن كوك كان مستبداً وكان قاسيا. فأحس الناس أنه لا يختلف كثيراً عن الآلهة القساة. ويظهر أن الناس - حتى البدائيين - لا يتحملون القسوة ولو من الآلهة. . وفى مرة تشاجروا معه وجرحوه. . وسالت الدماء من «كوك» وكانوا يعتقدون أن كوك لا يمكن أن يصيبه أحد أو يقتله أحد. . ومنذ تلك اللحظة وهم ينظرون إلى كوك على أنه غريب، وأنه يريد أن يستولى على أراضيهم. . وقد حدث أن سرق بعض بحارة كوك زورقًا من ملك هاوائى، وهنا هجم أحد الهوائيين على كوك وقتله. . ودفن كوك فى جزيرة هاوائى.

وقد أطلق كوك على جزر هاوائى اسم جزر ساندوتش تيمنًا بالإيرل ساندويتش أميرال البحرية البريطانية فى ذلك الوقت. . والإيرل ساندويتش هو أول من وضع اللحم والأرز فى رغيف. . فأطلق على هذا النوع من الطعام اسم ساندويتش. . . وغيرت الجزر اسمها، وأصبحت هاوائى. . ونسى الناس من هو ساندويتش وإن كانوا يأكلونه كل يوم!

وقد حاولت كل الدول الكبرى أن تستولى على هذه الجزر الجميلة ذات الموقع العسكرى الخطير. . حاولت بريطانيا ثلاث مرات، وفرنسا مرتين، والاتحاد السوفيتى مرة. وليس للاتحاد السوفيتى هنا إلا قلعة اسمها قلعة روسيا وحاولت أن أرى هذه القلعة فلم أجد إلا الاسم وشوية حجارة!

وكانت جزر هاواى مجموعة من الممالك المستقلة. . ثم توحدت تحت ملك واحد هو الملك كاميهاميها الأول. . وتوالى بعده الملوك والملكات. . ولكن رجال الأعمال الأمريكيين استطاعوا أن يمهدوا الطريق إلى رأس المال والنفوذ الأمريكى حتى تحولت هذه الجزر إلى أرض تابعة لأمريكا فى أواخر القرن الماضى. . ثم استقلت واعترفت باستقلالها وصار لها حاكم أمريكى. . وبعد ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٥٨ أعلن قبولها عضواً فى الولايات المتحدة، فكانت الولاية الخمسين. . وعلى أثر انضمام هذه الولاية لأمريكا أعلنت بعض الأحزاب فى الفلبين رغبتها فى الانضمام لأمريكا باعتباره الحل الوحيد لإنقاذ جزر الفليبين من التمزق والانحلال والفساد. . ولكن أمريكا هى الأخرى لها وجهات نظر فى الفليبين. .

والحياة هنا فى جزيرة «أواهو» وعاصمتها هونولولو. . هادئة جدا ليس بها حوادث. . والنظرة للصحف المحلية تجعلك تشعر أنك فى عزلة تامة عن العالم كله. . لا حوادث ولا قتل ولا جرائم ولا ضرائب. . كل شىء هادئ ناعم. . وأعلى الأصوات هو صوت أمواج البحر. .

ونحن ننام والنوافذ مفتوحة وبلا غطاء، والأضواء فى غرفتى وفى كل الغرف مغطاة خافتة كأصوات الناس . . وكل شىء عليه فلتر . . كل شىء نظيف كل شىء نقى . . الرمل أصفر فى لون حبات الرمان ولون شفاه الفتيات هنا . . وأشجار جوز الهند أوراقها مدلاة كضفائر الفتيات الصغار . . والهواء يضرب الوجوه فى خفة كأنه فستان هاوائى واسع والقبعات من سعف النخيل . . وكل فندق له حمام سباحة رغم أن كل الفنادق تطل على المحيط . . وأمام الفنادق توجد زوارق هاواى المزدوجة .

وتوجد عشرات الألعاب المسلية . . فهناك مثلا جمعية غريبة ولكن الإقبال عليها هائل . . وهى جمعية «جمع محار القواقع» ، ولها مواعيد ولها رحلات وسيارات وطائرات . .

وهناك جمعية أخرى لصيد الحشرات الغريبة . . وكل شىء هنا يقابله الناس باهتمام ، رغم أنه يبدو سخيفًا .

والناس جاءوا إلى هذه الجزر وفى نيتهم شىء واحد : أن يستريحوا على الآخر .

وفى الغرفة المجاورة لى عريس وعروس ، وفى الغرفة التى فى آخر الممر عريس وعروس . . وكل يوم يتغير الورد ، ليتمشى مع لون الفستان . . كل يوم وفى الصباح يتمدد الناس فى البلكونات أو على الشاطئ . . ويسبحون ويغوصون تحت الماء . . وفى الليل تضاء المشاعل وفى ضوء المشاعل يجلس الناس فى هدوء تام ، ويأكلون ثم ينزلون إلى الشاطئ، وهنا تنتظرهم فرق الموسيقى الهوائية . . والرقصة التقليدية هنا هى رقصة «الهولا» وهى رقصة سهلة قريبة من البوليرو . . أو «الفوكس تروت» السريعة . . وفتاة واحدة ترقص وتتلوى فى مكانها وقد ارتدت فستانًا من قطعتين وعرت وسطها كما تفعل السيدات المحتشمات جدا فى الهند ، ثم عرت ساقيها وصدرها وبدأت ترقص ويصاحبها ثلاثة من الموسيقيين ؛ واحد منهم يغنى بلغة هاواى الغريبة . . فكل حروف هذه اللغة عددها ١٢ فقط هى : هـ . ك . ل . م . ن . ب . ف ، والخمسة الحروف الباقية هى عبارة عن الضمة والكسرة والفتحة والسكون والشدة . .

ولا بد من وجود المشاعل فى أثناء هذه الرقصة ، فهذه الرقصة لها قصة تاريخية . فقد حدث أن شعرت الآلهة «بيلة» آلهة النيران والبراكين بكثير من الملل والقرف ، ويقال إن هذه الآلهة تشعر بالملل عندما لا تجد ما تعمله ، ولم تجد «بيلة» شيئًا تتسلى به . . كان شعورها مثل شعور الإمبراطور كاليجولا الطاغية الرومانى الذى لم يكن يحزنه فى الدنيا

كلها غير شيء واحد هو أن الآلهه لم تخلف للإنسان سوى عنق واحد. وكان يتمنى أن يكون للإنسان أكثر من عنق لكى يقطع عددًا كافيًا من الرءوس التى تروى ظمأه إلى الدماء. . ولم تجد هذه الآلة سوى أختها الصغرى فطلبت إليها أن تسليها فرقصت لها أختها رقصة الهولا . . ويقال إن الأخت الكبرى قتلت أختها الصغرى بعد ذلك . . فالرقصة لم تعجبها ولم تدخل السرور على نفسها . . فأعادت الأخت الرقصة مرة ومرة ولكن الأخت الكبرى لم تنشرح ، فقتلت أختها . ورقصة «الهولا» هى فى الواقع صلاة على روح الأخت الطيبة التى أرادت أن تسلى أختها الشريرة التى تتنفس النار والدخان من كل بركان .

* * *

وأحيانًا يذهب الناس هنا إلى المطاعم عند السوق الدولية . . وهذه السوق الدولية يحاول أصحاب المطاعم أن يقدموا فيها الطعام والسلع من كل بلد فى العالم . . فقد عثرت على محل لبيع السجائر . . عنده سجائر من القاهرة ويقول إنه يحصل على هذه السجائر من شريك له فى أمريكا . . وهذا الشريك له شريك آخر فى تركيا . .

وفى قلب السوق الدولية يوجد شبه مسرح وعلى هذا المسرح تتوالى الفرق الغنائية الموسيقية ، وتعرض فنون الرقص والغناء الغريب فى كل الجزر الجنوبية أو فى جزر الهاديات أو جزر المحيط الهادى . . وهذه الحفلات تقام مجانًا . . وفى نفسى أقول : أدى الدعاية واللا بلاش .

ولا بد أن الذى يقوم بهذه الدعاية هو إحدى شركات السياحة أو أحد المطاعم أو أحد المسارح . . ولكن لا تمضى لحظات على الرقصة الأولى والثانية حتى نعرف من الذى يقدم هذه الحفلات . . إنها إحدى شركات الطيران التى تدعوا الناس لزيارة الجزر الأخرى . . حيث الحياة أجمل وأروع . .

وكل شىء هنا تستغله الشركات للدعاية لشىء ما .

فمنذ أيام انفجر بركان فى جزيرة هاواى ، وكان البركان خامدًا منذ خمس سنوات . . هذا البركان أدى إلى انفجار محطة الإذاعة - وأقصد محطات الإذاعة - هذه المحطات قد سخرت كل شىء للدعاية لزيارة البركان بأساليب عجيبة . . فمثلا يقرأ المذيع نشرة الأخبار فى أقل من دقيقة . . ونشرة الأخبار هنا كل نصف ساعة ، ولا تكاد تنتهى النشرة حتى ينطلق مذيع آخر قائلا : البركان انفجر . . إن أروع منظر تراه فى حياتك هو من نافذة شركة

خطوط أهلا . . ثم أغنية بعد ذلك . . ومذيع ثالث يقول . . لا شىء يقى العين من شر البركان إلا منظار زجاجى ماركة كذا . . وأغنية . . وصوت مذيع رابع ينطلق كالمدفع قائلا : بعد عودتك من البركان الذى درجة حرارته ١٨٠٠ مئوية حسب آخر تقارير العلماء فى المرصد، بعد هذه العودة يجب أن تأخذ حمامًا دافئًا، وعلماء النفس يقولون إن النوم هو الشىء الوحيد الذى يريحك، وإذا لم تتمكن من النوم فعليك بأقراص كذا . . وأغنية . . ومذيع خامس أو سادس يقول : الساعة الآن التاسعة بتوقيت البركان أكثر من ٢٠٠ ساعة وثلاث دقائق . . وأغنية . . ثم مذيع يقول : ماذا تصنع لو انفجر البركان تحت نافذتك لا تحاول أن تفكر . . أنا أقول لك الحل ! ضع أذنك على مخدة ماركة كذا . . لمدة ٢٤ ساعة كل يوم . .

هذه هى جزيرة أواهو التى عاصمتها هونولولو . . .

الحياة فيها هادئة جدا . . ناعمة جدا . . المطاعم كلها موسيقى وغناء ورقص كل يوم . . فكل يوم عيد هنا . . كل يوم ربيع . . وكل الناس هنا معهم فلوس وأغنياء . . ولا يشكون من الأسعار مثلى، ولا يضعون أيديهم على معدتهم أو قلوبهم قبل وبعد الأكل ثلاث مرات يوميا .

وعندما زار الأديب الأمريكى مارك توين هذه الجزر منذ مائة سنة قال : هذه الجزر هى أجمل سفن ألقت مراسيها فى هذا المحيط .

ولم يكن مارك توين قد رأى الجزر الأخرى ليقول إنها أجمل جزر ألقت عندها السفن مراسيها، وألقت عندها الطائرات سلالمها فى هذا المحيط وفى أى محيط آخر .

موسيقى وغناء بلا توقف

هذه الجزيرة التى أعيش فيها الآن ليست لها مواعيد للرقص أو الغناء . . فالرقص والغناء يبدآن من الساعة التاسعة صباحًا أو قبل ذلك لا أعرف ويظلان طول النهار وطول الليل . . وبعد نهاية الرقص تظل الإذاعة تغنى حتى اليوم التالى . . ولا أحد يعرف إن كان الذى تسمعه فى الشارع أو البلكونة هو صوت الناس فى الميكروفون أو من غير ميكروفون . والإذاعة هنا تعمل ٢٤ ساعة . وعيبها أنها تكرر أغانيها فى اليوم ثلاث وأربع مرات . وهذا هو أحد عيوب الاستماع إلى إذاعة واحدة فقط !

ففى الدور الذى أقيم فيه توجد حفلة لجمعية اسمها «جمعية المتفائلين وأصدقاء الطفل» . . وفى الدور الذى يعلو هذا الدور توجد حفلة أخرى لبعض شركات الطيران . . وفى الدور الذى فوقه توجد حفلة مدرسة «وكيكى» الثانوية . . وفى حديقة السطح توجد حفلة غداء لجمعية أصدقاء الكتاب المقدس . . هذا فى الغداء . . أو بين الفطور والغداء . .

وفى العشاء ينتهى برنامج الحفلات وتبدأ حفلات الشكر . . فالذين دعوا لهذه الحفلات يشكرون الذين وجهوا لهم الدعوة .

ثم حفلات الأزياء . . والورود . . ويسمون الورود هنا اللؤلؤ . . ربما لأنها ليست نادرة . . فاللؤلؤ مثل أم الخلول عندنا لا عدد له !

ثم موسيقى هاوائية ورقص هاوائى وتصفيق وصلوات هادئة . . وحتى بعض الأحيان يشكرون الله فى نفس واحد . . طبعًا يجب أن يشكروه على ما أعطاهم من هواء وأرض وفواكه ومصانع . . وأمريكا !

وفى ساعة متأخرة قليلا من الليل يبدأ الغناء على الشاطئ الرملى . . يبدأ عادة بأن يتحرك أحد الموسيقيين من أبناء هاوائى وفى يده جيتار ، ويمر بأصابعه على الجيتار تحت

نوافذ الفندق، وكأنه روميو تحت شباك چولييت، ويظل كذلك يلعب بأصابعه ويلعب بلسانه . . لأن الأغاني كلها هنا تلاعب باللسان والأسنان . . وبين الحين والحين يقول: هؤ . . هؤ . . وهى نوع من الزغطة الغنائية . . وكأن «فلة» قد وقفت فى حلقه وكأن لسانه مربوط بها . ويحاول هو أن يقتلعها مستعينًا بضغط الهواء إلى الخارج . . ولكن لا فائدة فيظل طول الليل يحاول بتشجيع الناس له . . إلى أن تطل عليه من النافذة أية فتاة فى مايوه ـ وكل الفتيات هنا بالمايوه ـ وتبتسم وتطلب منه أن يعيد الأغنية . . والتقاليد تقضى فى مثل هذه الحالة أن يعيد من الأغنية ولو جملة واحدة . . ويمضى إلى مكان آخر فهو يتفاءل بالفتيات الحسان اللاتى يقابلنه فى أول الليل . . والتقاليد تقضى بأن تنزل الفتيات من الشرفات ويمشين وراء هذا الموسيقار المتجول .

وهى طريقة لطيفة للإعلان عن مكان حفلة ستقام هذه الليلة . . وفى مكان على الشاطئ يتجمع الموسيقيون والراقصات ويتناقشون بصورة غنائية أو مجرد مناقشة باللغة الإنجليزية أو باللغة الهاوائية ، وبعد ذلك يمشون فى الشوارع إلى أماكن كثيرة جدا فى نفس مدينة هونولولو . وفى هذه المدينة تجد ما هو أغرب . فالغناء فى كل مطعم . . فى كل بار . . فى كل حانة . . وهذا يحدث كل يوم وكل ليلة . . فليس فى هذه الجزيرة أية مواسم للسياحة أو للغناء أو للرقص . . فكل سنة هى فصل واحد . . وكل يوم هو حفلة واحدة غنائية أو راقصة .

وهذا يضايقنا نحن الأجانب بعض الشىء . . ففى الصباح عندما نجلس إلى المائدة ونضع على كل مائدة شيئا نحجزها به . . كجريدة أو جاكته أو مفتاح الغرفة . . ثم نذهب ونملأ أطباقنا ببعض الفواكه وعصير الطماطم وكلها مثلجة ونجلس ونرفع رءوسنا إلى أعلى لنبتلع هذه المثلجات من ناحية ، ومن ناحية أخرى نحاول أن نلفت نظر الجرسونة إلينا . . لكنها مشغولة جدا . . فهنا حفلة على اليمين وحفلة ثانية على الشمال . . والحفلات التى فوق قد استعارت بعض الجرسونات وبعض الثلج . . ونحن لا نريد ـ يعنى أنا وغيرى ـ إلا بعض الشاى الساخن أو حتى القهوة . . أى شىء ساخن . . وفى كل المرات لا تنظر إلينا الجرسونة أو تتجاوزنا كأننا قمنا من وقت طويل . وأخيراً تلتفت إلينا الجرسونة وتكتب الحساب وتتركه وتتركنا . . وفى الورقة مكتوب أننا شربنا الشاى .

وأحاول أن أقنعها بفنجان واحد . . ولا داعى للدورق الذى تملؤه بالشاى الساخن . . وأخيرًا تطلب منى أن أذهب إلى غرفتى وأطلب الشاى بالتليفون . . وفعلا أذهب إلى غرفتى وأنزع ملابسى وأمسك الصحيفة الصباحية وأتمدد فى الفراش عريانًا كأى شاب

رياضى أو كأى أمريكى مولود فى هاواى وأمد يدى إلى التليفون وأقول: أريد بعض الشاى من فضلك.

وأسمع من الناحية الأخرى من الخط «زومان» لا أفهمه.. فأحاول أن أستوضح عاملة التليفون إن كانت قد قالت شيئًا له معنى وفاتنى أن أفهمه. ولكنها تصر على أن الذى قالته له معنى، وأنها ستحاول أن تجد لى فنجان الشاى.. وأقرأ الصحيفة مرة ومرتين، وأقلب فى بعض الكتب والنشرات وأدون بعض الملاحظات، وقبل أن أرتدى ملابسى يرن جرس التليفون وأسمع أن هناك محاولات جادة لكى أحصل على فنجان الشاى، وقبل أن أعلن لها عن عدولى عن الشاى تقفل عاملة التليفون السماعة.. وقبل أن تقفلها ببضع لحظات أستمع إلى بعض الموسيقى فى راديو مجاور لها أو فى حفلة مجاورة أو فى غرفة مجاورة.. كل شىء هنا موسيقى ورقص.. فى كل مكان..

وأنزل وأبقى فى الخارج ساعات أشرب فيها الشاى.. وأتناول غذائى.. وعندما أعود أجد الشاى فى غرفتى.. وألمسه بيدى فأجده قد برد وإلى جواره ورقة يجب أن أوقعها.. وأنظر فى الورقة فأجد أن فنجان الشاى ثمنه خمسون قرشًا. ويدق جرس التليفون و«أزوم» أنا.. ويكون المتحدث جرسون البوفيه ويسألنى إن كنت قد وقعت على الورقة الموجودة مع فنجان الشاى.. وأسكت لأستمع إليه وهو يغنى فأقول: الله..

ويسألنى: ما هذا؟ فأقول: مبسوط.. ويستوضحنى بصوته الشجى ويقول: تقصد.. آلوها.. آلوها.. ومعناها مرحبًا ومعناها وداعًا..

أقصد أهلا يا بلاد الموسيقى والرقص.. ووداعًا يا فلوسى!

* * *

كل شىء هنا فى سباق، فى منافسة..

المجتمع الأمريكى مجتمع صناعى تجارى قائم على المنافسة فى البيع والشراء عن طريق الدعاية.. شركات ليس لها أول ولا آخر.. كلها تحاول أن تكسب الزبائن.. أن تأخذ كل ما فى جيبك من مال دون أن تجعلك تشعر أنك صاحب فضل عليها.. وأنك كريم جدا لدرجة أنك فضلتها على غيرها.

واللافتات الملونة والإعلانات فى الصحف وفى الإذاعة وفى الشوارع والسينما والسيارات، كل ذلك لكى تلفت الشركات نظر الزبون.. تلفت نظره ثم تلفته هو وأسرته وأصدقاءه.. إلى أن تستولى عليه.

ولكن أمريكا باعتبارها أكبر دولة صناعية تجارية فى العالم فالمنافسة فيها أقوى وأقسى . . وهذه المنافسة هى التى تؤدى إلى تحسين السلعة وترخيصها .

والمجتمع التجارى هو مجتمع على كثير من الأخلاق . . فالصدق والأمانة والوفاء بالوعد وعدم الغش، كل هذه صفات المجتمع التجارى . فالتاجر لا يكذب لا لأنه مؤمن بمزايا الأخلاق أو مؤمن بدين معين . . ولكن لأن الصدق هو أحسن إعلان له عند الزبون . . والغش هو أسوأ دعاية ضده . .

فهو لا يكذب ولا يخلف الوعد لأن هذه جميعًا دعاية طيبة له .

والصحف هنا ـ أى فى أمريكا ـ صفحاتها بالمئات . . فالصحيفة المحلية المتواضعة جدا عدد صفحاتها ثمانون صفحة . . وثمنها قليل جدا . . ولماذا؟ لأن الصحيفة مليئة بالإعلانات . . ومن أجل هذه الإعلانات الكثيرة جدًا صغرت المقالات وصغرت الأخبار وأصبح الكلام المكتوب هو مجرد ملء للفراغ الذى تتركه الإعلانات . .

والإذاعة كذلك . وهى قادرة على تحطيم أعصاب أى إنسان ميكانيكى . . أنت لا تستطيع أن تستمع إليها أكثر من نصف ساعة أو ساعة إن كنت من الصابرين .

تصور نفسك تأكل مثلا وفى كل لقمة تجد ورقة وهذه الورقة مكتوب عليها إعلان . . تقرأ الإعلان ثم تبصق على الأرض . . هذا إذا كان الإعلان عن صناعة الورق . . ولكن هناك إعلانات أخرى عن صناعة الأحذية والطوب وفرش الأسنان والسخان الكهربائى والمسامير .

وأنا سأحاول هنا أن أترجم لك جانبًا من الإذاعة الأمريكية التى لم تتوقف منذ سنوات . . لم تتوقف لا ليلا ولا نهارًا إلا لكى يبلغ المذيع ورقة ثم يعلن أنه ابتلع قرصًا من الإسبرين الذى تباع الأقراص العشرة منه بعشرة قروش فى محلات كتكوت شارع حسب الله رقم ١٢٤٧!

فأنا أستمع إلى الإذاعة طول الليل . . أو على الأقل حتى الساعة الثالثة صباحًا . . وتبدأ الإذاعة بأغنية ولتكن الأغنية لأم كلثوم فيقول المذيع : أغنية ياللى كان يشجيك أنينى . . وهذا الأنين سببه وجع فى الظهر وأحسن علاج هو مرهم «الإكسبريس» العجيب ، إنه يشفى وجع الظهر فى أقل من خمس دقائق حسب توقيت ساعات شيكوريل المدهشة . ياللى كان يشجيك أنينى لأم كلثوم أيوه أم كلثوم . . كلثوم . . وكالسيوم . .

أملاح الكالسيوم تباع الآن بعد أن اختفت من السوق حوالى أربعين ساعة منذ احترقت مدينة المنيا التى تستطيع أن تراها من خلال نافذة الطائرات الجديدة التابعة لشركة «الطيران العربية» . . أغنية ياللى كان يشجيك أنيني . . وتبدأ الأغنية : يالى كان يشجيك أنيني . . كل ما أشكى لك أسايا إلخ . . الأغنية التى كان يجب أن تستغرق خمس دقائق . والآن أغنية عبد الحليم حافظ ، أول مرة تحب يا قلبى . . عبد الحليم حافظ . . أحسن حافز لك على السهر دون إرهاق هى حبوب «القط الأسود» إنها على هيئة أقراص . . كل علبة بنص جنيه . . لا يضر بالأعصاب . . وليس فيه مخدر يجعل هذه الحبوب عادة عندك . . أول مرة تحب يا قلبى وأول يوم اتهنا . . سيحدث هذا لك قطعًا إذا ذهبت إلى مطعم «شجرة الدر» أحسن الأطعمة وأروع الأنغام فى شارع سليمان باشا رقم ٢٣٢٣ وبعدها ٢ ، ٣ وبعدها ٣ . . كمان مرة ٢٣٢٣ ثم يعطس المذيع وتسمع صوت مذيع آخر صارخ يقول : ألم أقل لك لا تفتح النافذة . . استخدم ف . ت . ! إنها أحسن أنواع الستائر ، رخيصة متينة ، وبعد ذلك استخدم أقراص «شفيتم» للسعال والعطس . . أغنية «أول مرة تحب يا قلبى» مسجلة على أسطوانات أخبار فون ثمن الأسطوانة ٧٠ قرشًا . . وأحسن جهاز لكى تستمع إلى صوتها نقيا هو جهاز صوت الغراب للأصوات الناعمة . . إلخ ، ثم تبدأ أغنية عبد الحليم حافظ . وإليكم الآن أغنية الحرف الأول من اسمه طلبها اليوم مائة مستمع ومستمعة . . مائة . . لا تنس هذا الرقم . . إنه رقم محلات حسب الله لبيع الملابس الداخلية . . وردت كمية كبيرة من الحراير لمحلات حسب الله . . الحرف الأول من اسمه هو اسم الأغنية . . استمعوا إليها . . وتمضى الأغنية تقول : الحرف الأول من اسمه ومن اسمى . . وبعد الأغنية يطلب المذيع فتاة صغيرة بالتليفون ويسألها . . ماذا تأكلين يا ماما . . فتقول الطفلة الصغيرة وكأنها نسيت الدرس الذى ردده المذيع على أذنها ألف مرة . . وتقول : أنا مش باكل حاجة . . ويقول المذيع مستدركًا : أمال فين علبة الشيكولاتة اللى معاك واللى أنت بتحبيها . .

وتقول الطفلة : أنا ما حبش الشيكولاتة .

ويتلخم المذيع أو يمثل دور الملخوم ويقول : ياه . . قد كده أنت بتحبى اللبن المجفف . . أحسن الألبان المجففة هى ألبان أبقار فتحى أبو جاموس . . لا تخلطوا بين فتحى أبو جاموس المؤلف الإذاعى . . وفتحى أبو جاموس صاحب مزارع قصب السكر . . على كل حال سكر فى سكر . . وكله حلو . . وعلى ذكر السكر والحلاوة يباع الآن فى الأجزاخانات . . سكارين . . وهو خاص بالمصابين بالسكر . . اطلبوه فهو رخيص . .

وإليكم أغنية: زعج الوابور ع السفر عيطت رايح فين.. طبعًا رايحين نشوف كفر الدوار.. لماذا؟.. اسمع السبب:

إن كنت يوم رايح كفر الدوار

على الشمال زور أبو حمص

تلاقى محل عليه فنيار

فيه البضايع راحه ترقص

طول الليل.. طول النهار وأكثر من عشرة مذيعين ينفخون فى قربة مخرومة هى أذنى وأذن عشرات من الناس.

ومن المؤكد أن محطة الإذاعة هى سبب استهلاك الإسبرين وقطرة العين ومراهم الظهر، واستخدام المراتب الكاوتش.. لأنها ورشة لجارة وجزارة صاروخية أخطأت الطريق إلى جيب المستمع فأقامت فى أذنه!

* * *

ملحوظة: هذا الزجل كان فى إمساكية شهر رمضان فى بلدة أبو حمص ولا أعرف لماذا تذكرته هنا فى هاواى.. مع أننى تركت أبو حمص من ٣٠ عامًا فقد كنت تلميذًا فى مدرستها الابتدائية ثم تلميذًا فى مدرسة دمنهور الثانوية.. ولم أتذكر هذا الزجل طول عمرى!

هذه الملحوظة ربما أعود إليها وأتناولها بالتفكير بعد ذلك. فأنا أفاجأ كل يوم بانفجار لغم عائم فى بحر ذكرياتى!

مبادئ جمعية المتفائلين

كل يوم فى الصباح أمر على غرفة مفتوحة وبها ستة جالسون وأمامهم أوراق وعلى بابهم خادم وأمامهم رجل يخطب بأعلى صوته وهم ساكتون. وعند الظهيرة يظل الاجتماع منعقداً، وفى المساء الاجتماع مستمر. والكلام يشمل أموراً كثيرة جدا. . أسمع بعضها وأنا فى الطريق إلى السلالم. . وحاولت أن أعرف اسم هذه الجمعية. فلم أجد لافتة لا على الباب ولا على السلالم، كما هى العادة. . وذهبت إلى استعلامات الفندق فضحكت الموظفة الشقراء وقالت لى: أنت متفائل! فقلت: تقصدين إن كنت عضواً فى هذه الجمعية. فقالت: نعم. . وأجبت: إننى متفائل دون جمعية!

ولم يكن هؤلاء الناس سوى جماعة جلسوا يتحدثون بصوت مرتفع وبصورة جادة. الناس يبحثون فى موضوع حماية أنواع نادرة جدا من الضفادع والحشرات التى تعيش على أشجار جوز الهند. .

وفى يوم عدت إلى غرفتى فوجدت هذا الاجتماع قد زاد أفراده حتى بلغوا أكثر من عشرين رجلا وعشرين سيدة. . وعلى صدورهم ورود، وأمامهم أكواب من العصير ومن الماء. ورأيت لافتة لم أتمكن من قراءتها بوضوح ولم تكن هناك خطب ولا كلمات وإنما بعض الموسيقى. .

وفى الصباح الباكر وجدت المناضد كما هى، لم يتقدم أحد ليرفعها من هذا المكان. ثم وجدت اسم الجمعية فعلا. وعرفت أن موظفة الاستعلامات كانت فى الواقع عضواً فى هذه الجمعية. . فالجمعية اسمها «جمعية نادى المتفائلين وأصدقاء الطفل بمدينة هونولولو». اسم غريب جدا. جمعية المتفائلين. . وأصدقاء الطفل، لا بد أنهم أصدقاء أى طفل يولد فى هذا العالم الذى نعيش فيه. .

وعلى الحائط وجدت الوصايا العشر للمتفائلين . . مطبوعة على ورقة كبيرة . ومطبوعة على منشورات صغيرة . . ومطبوعة على علب الكبريت . ولا بد أنهم يتباحثون فى توزيعها على أوسع نطاق . . مثل طبعها على أوراق العملة ، أو وضعها على ظهور الكتب المقدسة . ولكن اجتماعات المتفائلين هذه تطول جدا جدا . وربما كان هذا هو الدليل الوحيد على أنهم متفائلون !

وقد لاحظت أنهم وهم يبحثون نصائحهم العشر هذه، جادون جدا ، وعلى وجوههم كآبه وربما كان انتصاراً لفكرتهم ، وليس مهمّا أن يكون انتصاراً أو إنكساراً ولكنها أعجبتنى .

أولا : يجب أن تكون قويا ، وأن تشعر بأنك قوى ، أقوى من أية فكرة تزعزع ثقتك فى نفسك .

ثانيًا : يجب أن تجعل كلامك دائما عن الصحة والسعادة والنجاح وعن نجاحك ، وعن نجاح كل إنسان أيضًا .

ثالثًا : يجب أن تجعل كل صديق لك يشعر أن فيه شيئًا ممتازًا ، شيئًا يسره هو .

رابعًا : يجب أن تنظر إلى الجانب المشرق من الحياة ، وأن تعمل على تحقيق كل آمالك ، وأنت على يقين من أنها ستتحقق بشكل ما .

خامسًا : لا تفكر إلا فيما هو أبسط وأسهل ، ولا تتوقع إلا ما هو أحسن .

سادسًا : يجب أن تكون جادًا متحمسًا بالنسبة لنجاح الآخرين ، بنفس الدرجة التى تتحمس بها لنجاحك أنت .

سابعًا : حاول أن تنسى دائما أخطاء الماضى ، وأن تتجه إلى المستقبل دائمًا .

ثامنًا : يجب أن تكون بشوش الوجه وأن تبتسم لكل إنسان تراه . .

تاسعًا: يجب أن تقضى أطول وقت ممكن فى تحسين نفسك وبذلك لا يتسع وقتك لنقد غيرك من الناس .

عاشرًا: لا تأسف على ما فات . وكن أقوى من غضبك . وكن أقوى من الاستسلام للتعب فسيكون لديك وقت دائمًا لشىء جديد .

وقد علمت أن هذا الاجتماع هو الثامن والثلاثون فى مدينة هونولولو ، ولما سألت عن

نتائج هذه الجمعية . علمت أنه لا نتائج ولكن هناك شعور عام بين الأعضاء وأصدقاء الأعضاء بأن الحياة تستأهل أن نعيشها وأن الصعوبات يمكن أن نتخطاها وأن الحياة تستأهل أن نعيشها وأن الصعوبات يمكن أن نتخطاها وأن الحياة أقوى من الموت وأن الإنسان يجب أن يشعر أنه حى ، رغم أن الموت يمضى فى اختصار أسنانه وضوء عينيه ويرخى عضلاته ويفرغ جيوبه ويباعد بينه وبين الناس . . حتى هذا يجب أن نراه إجراء عاديًا . . يجب أن ننظر إلى الحياة على أنها مثل مستأجر ظريف لطيف كان يسكن عندنا وبدأ يترك البيت ولكنه لم يأخذ من عزاله إلا القليل . . أما الكثير فقد أخذناه نحن . . لقد دفع الكثير وهو الآن يسكن بإيجار اسمى . . . !

والله كلام معقول!



حتى فى جزر هاواى بعض الضوضاء .

فيها صوت الأطباق والملاعق والسكاكين . . فيها صوت النوافذ وهى تفتح وتقفل ، فيها أصوات الأطفال وهم يلعبون . . فيها صوت الموسيقى التى تتكرر كل يوم حتى مللناها . فيها ضوضاء طبعًا . هذه الضوضاء بالنسبة لمدينة كالقاهرة تعتبر لا شىء . . يكفى . ألا تكون هنا زمارة واحدة أو كلاكس واحد . وليس فيها واحدة تقول من أعلى السطوح : يا واد يا عبده . . يا متنيل على عينك تعال شيل أختك وهات لى بطيخة؟!

فما بالك بواشنطون أو موسكو أو باريس أو روما أو لندن أو حتى طوكيو . . كل هذه العواصم مجنونة ، فيها ضوضاء وفيها ترام وتليفون وفيها سيارات وفيها زعيق . . كل هذا يحطم أعصاب الناس ويزلزل راحتهم . . ومن سوء حظ سكان المدن الصغيرة والقرى أن الذين يحكمونهم يسكنون العواصم . . ولذلك فأعصابهم مضطربة وأحكامهم مهزوزة ، وهم أولا وأخيراً بشر من لحم ودم مربوط بخيوط معقدة اسمها الأعصاب وهذه الأعصاب هى الخيوط التى تضم القلب والمعدة والكبد والكلى والعقل وتهزها معًا فى وقت واحد . . فالذى يصيب العقل يربك القلب ويربك الكبد ويملأ المعدة بالأحماض . . والأحماض تحطم الأعصاب والأعصاب تربك العقل والقلب وهكذا . .

ولذلك يجب على الشعوب أن تطالب زعماءها بأن يستريحوا . . بأن يذهبوا إلى الريف إلى شواطئ البحار . . بأن يبعدوا عن الناس بعض الوقت . . وليس هذا البعد عن الناس هربًا من المسئولية . . ولا هربًا من الناس وليس رفاهية ، وإنما هى ضرورة عقلية ،

ضرورة معوية، ضرورة كبدية قلبية مصارينية. ضرورة.. إننا نطلب من الركاب ألا يتحدثوا إلى سائق الأتوبيس.. بعض البلاد كإنجلترا تزيل المقاعد المجاورة لسائق التاكسى حتى لا يجلس أحد إلى جواره، ويحدثه ويشغله عن النظر إلى الطريق، حتى لا يدوس أحدًا أو حتى لا يعطل المرور.. سائق التاكسى وسائق الأتوبيس وهذا النوع من القيادة هو أبسط أنواع القيادة.. فما بالك بالذين يقودون الشعوب. يقودون ملايين التاكسيات الحية فى سكك دبلوماسية وسياسية واقتصادية وعسكرية.. كلها مطبات!

هذا السائق الجماهيرى يجب أن يستريح بعض الوقت.. يجب أن ننزع الكرسى المجاور له ويجب أن نخلى له السيارات من الركاب.. يجب أن يكون له مكان يستريح بعض الوقت.. كلما أحس بإرهاق يجب أن نطلب إليه أن يستريح، أن يهدأ حتى تثبت يده وحتى تصبح الرؤية واضحة أمامه وتصبح الأصوات صافية فى أذنه..

وكلما سمعت أن رئيس الولايات المتحدة قد ترك عاصمة بلاده ليلعب الجولف اندهشت لحظة. وبعد ذلك أرى أنه على حق فأعباؤه ثقيلة ويجب بين الحين والحين أن يريح كتفه بالطريقة التى تريحه..

وكلما سمعت أن رئيس وزراء روسيا ذهب إلى أقصى جنوب الاتحاد السوفيتى ليستجم أرى أن هذا من حظ شعب الاتحاد السوفييتى والشعوب الأخرى.

وكلما سمعت أن ماوتسى تونج كان يذهب إلى بيته الريفى وينظم الشعر ويستمع إلى بعض الموسيقى والأغانى أحسست بشىء من الارتياح..

وكلما سمعت أن رئيس وزراء الهند كان يذهب إلى شمال بلاده ويعطى لنفسه إجازة أسبوعين أحسست أن راحة نهرو هى واجب قومى، هى ضرورة يجب أن يلجأ إليها وأن يطالبه الشعب بها.

وعندما ذهب ويلسون رئيس وزراء بريطانيا إلى الريف ورفض أن يتصل به أى أحد، لا الصحفيون ولا أعضاء الحزب احترموا شعوره واحترموا حقه فى الراحة.. لأن راحته ليست راحة شخصية ولكنها راحة قومية، راحة وطنية، راحة دولية..

فالزعيم أى زعيم ليس شخصًا فقط ولكنه: شعب ورأى وموقف وعامل من عوامل التاريخ أيضًا..

والناس أيضًا فى حاجة إلى هذه الراحة.. فإذا استراح الزعماء استراح الناس!

ولو تحولت مقاعد الأمم المتحدة إلى مقاعد طويلة بدلا من أن يجلس فيها الأعضاء «على أعصابهم» ثم راحوا يتمددون ويسترخون وتصبح أصواتهم كأصوات شهر زاد «فى ألف ليلة وليلة» وهى تقول: مولاى ـ فإن هؤلاء الناس لا يمكن أن تصدر عنهم أحكام عنيفة أو أحكام شريرة. . لأنه يكفى أن يتثاءب واحد منهم ليكبس النوم على الباقين. .

والرجل النائم لا يقتل ولا يذبح ولا يتآمر. . إنه يريد أن ينام وأن يحلم. . والناس فى هذا الزمان ليسوا فى حاجة إلا لشىء واحد هو: الكثير من النوم. . الكثير من الراحة. .

يجب أن يضيفوا شبرًا فى كل مقعد وأن يجعلوا ظهر الكرسى متراميًا إلى الوراء قليلا. . بشرط أن نبدأ بالسائق. . بالقائد. . بالرجل الذى يملك مصير الملايين. يجب أن يستريح السائق. . فراحته تريح السيارة والركاب والسيارات الأخرى التى تنطلق فى شوارع الحياة. . والتاريخ!

يا آلهة البراكين!

عندما ذهبت للفرجة على بركان جزيرة هاواى استرحت فى بيت اسمه «بيت البركان» وصاحب البيت رجل يونانى عمره الآن أكثر من مائة سنة وهذا الرجل تنبأ بأن هذا البركان لن يسكت أبدًا. . ليس لأسباب علمية ولكن لأنه رأى فى نومه صورة الآلهة بيلة. . وبيلة هذه هى آلهة البراكين والنيران. . وبيلة هذه قالت له فى المنام: سأكون هنا دائمًا.

هذا الرجل اليونانى يؤمن بهذه الآلهة إيمانًا تاما، وقد أعلن فى الراديو أنه يراها فى نومه كثيرًا وأحيانًا فى يقظته وأنه يحتفظ بتمثال لها دائمًا فى غرفة نومه. .

أهو التمثال الذى انطبعت صورته فى عينيه؟. . أهو البركان الذى هو مصدر حياة هذا الرجل، فكل الناس الذين يقطعون مسافة ٢٠٠ كيلو من هونولولو إلى هذه الجزيرة يأكلون ويشربون وينامون فى فنادقها الكثيرة. . أهو الوهم. . ؟ أهى الشيخوخة. . ؟ أهى المنفعة. . ؟ أهى الحماسة لهذه الجزيرة أو لهذا البركان؟

وفى بيت البركان تباع قصة قصيرة لأديب أمريكا مارك توين. . والقصة موضوعها: أن مارك توين عندما زار البركان سنة ١٨٦٦ أقام فى بيت هذا الرجل اليونانى ورأى فى نومه هذه الآلهة بيلة ومشى وراءها من واد إلى واد ومن جبل إلى جبل ومن مغارة إلى

. ثم نام بعد ذلك. . . فرأى فى
ج ولم يفكر طويلا ثم عاوده النوم

ـر فى هذا الأمر وأن يتساءل من أين

جاءت له هذه الأفكار؟ ولماذا جاءت أفكاره بشكل واحد؟ ومن الذى أدخل هذه الأفكار فى رأسه وكأنه حريص على تثبيتها فيه؟!

يقول مارك توين إنه لاشك أن الآلهة بيلة هى التى وضعت هذه الأفكار كلها، وأن الإنسان عندما ينام فإنه يكون خاضعًا لقوى غريبة لا يعرفها أبدًا.. وأن الإنسان ليس له سلطان كبير على أحلامه.. فالأحلام عالم آخر ولهذا العالم عقول وأرواح أخرى.. وفى الصباح نزل مارك توين إلى الوادى فإذا به يرى نفس الطرقات ونفس الأحجار ونفس المغارات.. ولم يجد الآلهة «بيلة».. ولكنه عندما عاد إلى غرفته لاحظ أن تمثال الآلهة «بيلة» كان قريبًا من فراشه طول الليل..

وأشار مارك توين بأصبعه إلى التمثال وكأنه يقول: إذن هذا هو السبب!

* * *

وفى قصة لأديب إنجلترا كونان دويل يقول: إن رجلا كان يحلم حلمًا واحدًا مدة طويلة.. وذهب إلى أحد الأطباء ثم إلى أحد رجال الدين. وكلهم لم يجدوا تفسيرًا له. ولكن الرجل لاحظ تطورًا فى أحلامه فقد أصبحت هذه الأحلام على هيئة سلسلة مرتبة الواحد بعد الآخر... وكل هذه الأحلام تروى قصة أسرة كانت غنية فى هذه المنطقة واختفت معالمها ولم يعد أحد يعرف عنها شيئًا.

وكان هذا الرجل صاحب مكتبة يبيع فيها إلى جانب الكتب بعض اللوحات والمخطوطات القديمة.. وقد سمع بهذا الرجل أحد أساتذة الجامعة وعن معرفته للتاريخ.. وذهب إليه الأستاذ وطلب أن يعاونه فى بعض الأحداث التاريخية وضحك صاحب المكتبة وقال للأستاذ:

ـ هذه الأسئلة تحتاج إلى أن أنام لها!

ولم يفهم الأستاذ الجامعى.. وفى اليوم التالى جاء إليه.. وجلس صاحب المكتبة يروى له بعض الأحداث التاريخية التى أذهلت الأستاذ الجامعى.. فقد كان يظن أنه عندما عرف هذه الحقائق التاريخية كان هو أول من وصل إليها..

واتهم صاحب المكتبة بأنه يخفى بعض المخطوطات النادرة التى يجب نشرها على الناس جميعا.

ولكن كونان دويل يختم القصة بأن صاحب المكتبة لا يعرف شيئا إلا من أحلامه، وأنه

يحتفظ بكوب نادر كان يشرب فيه عميد هذه الأسرة التى اندثرت كلها . . وهذا الكوب موجود فى غرفته دائمًا . .

إذن هو الكوب الذى يعكس تاريخه على الأحلام . .

وكما أن كل شىء فى الدنيا له إشعاع من نوع خاص . . إشعاع حرارى أو عطرى أو نفسانى . . فهذا الكوب له إشعاع تاريخى .

. وأدباء آخرون مثل الكاتب الأمريكى هرمان ملفيل والكاتب الإنجليزى روبرت لويس أستفنسون لهم قصص من هذا النوع عن السحر فى هذه البلاد . .

* * *

وكثير من الأشياء التى نحتفظ بها أو نراها كثيرًا أو نهتم بها أو نخاف عليها أو نخفيها تتردد فى أحلامنا بشكل ما .

وفى اليابان يبيعون بطاقات مطبوعة قبيل رأس السنة . هذه البطاقات مطبوع عليها أبيات من الشعر . . وهذه الأبيات تتحدث عن السعادة وعن الحظ . . فهذه البطاقة تشبه النشافة التى تمتص الأحداث السيئة فى السنة القادمة . . وهذه الأبيات مكتوبة بصورة يمكن قراءتها من الطرفين أى من اليمين ومن الشمال . . مثل كلمة : توت . . أو خوخ . . أو مثل هذه العبارة كلها : قلع مركب ببكر معلق . . أو كبيت الشعر المعروف الذى يمكن قراءته من الطرفين .

مودته تدوم لكل هول　　　　وهل كل مودته تدوم

فهذا البيت يمكن أن تقرأه من الناحيتين دون أى تغيير . . ويروى اليابانيون أن هذه الأبيات هى المصفاة التى تحجز متاعبنا وتسمح بالحوادث السعيدة أن تتوزع على السنة القادمة .

وعند اليابانيين اعتقاد آخر هو أن النائم إذا وضع تحت رأسه صورة لحيوان غريب اسمه «باكو» فإن باكو هذا هو القط وأحلامنا هى الفئران . وباكو يتصيدها الواحد بعد الآخر . . فإذا نهضنا من النوم لا نتذكر أننا حلمنا بشىء مع أننا قد حلمنا بأشياء مزعجة جدا . . هذه الأحلام كلها قد استقرت فى جوف باكو !

وتمنيت أن أصدق هذا ولذلك وضعت تحت رأسى صورة تحتها عبارة كل سنة جديدة وأنا طيب . . !

وأنتم طيبون . . وأنصحكم بأن تضعوا هذه العبارة تحت المخدة فإما أن تتحول إلى أحلام سعيدة وإما أن تأكل أحلامكم السعيدة . . وكل واحد وبخته!

أما أنا فقد قضت على أحلامى لأنها حرمتنى من النوم نهائيا . . . !

* * *

الاستعداد هنا لرأس السنة أو عيد الميلاد على أشده . . على الآخر فى كل مكان . . فى طوكيو . . رأيت مصلحة البريد تنبه الناس إلى أن يعجلوا بإرسال بطاقات المعايدة قبل موعدها، لأن هذا يخفف الضغط على مصلحة البريد، ولكن المعايدات اليابانية جميلة . . أشكال وألوان وأحجام تبدأ من مجرد البطاقة إلى البطاقة البارزة، إلى التماثيل الصغيرة المصنوعة من الورق، ويمكن وصولها على أثر إرسالها مباشرة . . وهناك خطابات لها روائح؛ فبمجرد أن تفتح الخطاب يتطاير العطر إلى أنفك . . وليست لديهم هنا أية ألعاب مؤذية كالبسكوت أبو شطة والشيكولاته أم ظلط ولا الروائح المسيلة للدموع . . التى نعتاد أن نلعب بها فى الأعياد!

وهنا أيضًا فى هونولولو أرى الاستعداد لرأس السنة فى كل مكان . . والأمريكان يجعلون من هذه المناسبة المتجددة صوراً من النكت والمرح وأحيانًا يطبعون بعض الصور العارية الضاحكة أيضًا . . .

وأغرب ما وجدت هنا مجموعة من الشهادات المطبوعة . . وهذه الشهادات تشبه الشهادات الجامعية ملونة ومزوقة ومكتوبة بخط أنيق جدا . . ولكن هذه الشهادات تتحدث عن أشياء أخرى غريبة . . عن الجنون والعقل والاقتصاد والزيارات المفاجئة .

وأنا أنقل هنا بعضها على سبيل الفكاهة . . أو فكرة يمكن استغلالها فى مثل هذه المناسبات :

«جواز سفر إلى القمر . . فرصة نادرة ولا يمكن أن تحدث لمن هو ألطف منك . . .

لما كان حضرتك هو الرجل الوحيد الذى اختاره أعز أصدقائه، ولم يجدوا من هو أفضل منه لكى يبعثوا به إلى القمر فإننا نحب أن ننبه سكان الفضاء والكواكب الأخرى إلى أن المذكور عاليه، ليس إلا عينة علمية فقط وأنه لم يسافر إلا لغرض علمى . . وأنه لا يمثل سكان الأرض فى شىء . . وأنه من النوع الذى يمكن الاستغناء عنه . وعلى سكان الفضاء ألا يقرضوه أى مبلغ من المال وألا يصدقوا أيه قصة يرويها وألا يسمحوا له بأن يجلس إلى أية فتاة مهما كانت .

(ملحوظة: هذا الجواز للذهاب فقط!)».

وهذه الشهادة عليها صورة مزعجة للمسافر وحول هذا الجواز برواز مكتوب عليه عشرات المرات كلمة: «بيب.. بيب.. إلى غير عودة!»

وهذه «وثيقة زواج» تقول:

«وثيقة زواج.. لما كان من الخرافات المنتشرة أنه من الأرخص للإنسان أن يعيش متزوجا على أن يعيش عازبًا فإن المذكور.. والمذكورة.. من حقهما الآن أن يرتكبا الزواج بالشروط التالية: فالزوج - وهو ما يعرف عادة باسم مصاص الدماء - يوافق على أن يعطى الزوجة - وهى ما تعرف باسم ست البيت - كل ما لديه من أموال وشيكات كسبها فى البوكر أو فى سباق الخيل.. وأن تفرغ جيوبه من كل أرقام التليفونات، وأن تهيىء السكن اللازم لكل إخوانها المتعطلين بما فى ذلك النوم والإقامة ومصاريف الهلس والعلاج والأقارب أيضًا. وأن تقول له: نعم ياروحى(عندما يتشاجران) وأن تضع قدميها الباردتين على ظهره العارى فى الليل.. خصوصًا فى ليالى الشتاء.. وفى مقابل ذلك يجب أن تهيىء للزوج مصروف البيرة ووجبة واحدة ساخنة ولو مرة كل سنة.. وكل ما تراه هى يتناسب مع وضعها فى البيت كزوجة..».

هذه الوثيقة محاطة.. بسلسلة طويلة جدًا طرفها الأول دبلة الزواج، والطرف الآخر كرة من الحديد.

وهذه شهادة ميلاد:

«ليكن معلومًا أن «فلانًا» عندما لاحظ أن هذه الفتاة تخيط فستانًا صغيرًا ولاحظ أنها عندما تعود إلى البيت تكون محملة بهدايا صغيرة ولفائف وأحذية وقبعات. كلها صغيرة.. وأن وجهها يصفر فى كل مرة ترى فيها أكواب القهوة أو أطباق البيض فى الصباح.. وأنها تنهض فى الساعة الثانية صباحًا وتطلب أنواعًا غريبة جدًا من الأطعمة، ثم إنها أخبرت المذكور أعلاه أن الدكتور فى طريقه إلى البيت وأن هذه نصيحة أمها.. وأن الدكتور سيقدم له فاتورة طويلة عريضة عن الأدوية والخدمات التى ستؤدى لها فى المستشفى، لهذا قد حررت له هذه الشهادة بناء على طلبه، ليكون معلومًا أنه أب وأنه يتوقع مولودًا من وقت لآخر وأن من حقه الآن أن ينظر إلى المستقبل بعين قريرة، فبعد اليوم يجب أن يدخن علبة سجائر كل شهر، وأن يكف عن تناول قدح البيرة التى كان

يتناولها مرة كل أسبوع وأن يبحث عن خادمة ومربية، وأن يفتح أذنيه لنصائح الآخرين الذين فوجئوا بعدد من الأولاد. من الغريب أن بينهم وبين آبائهم شبها كبيرا» .

* * *

وشهادة الميلاد هذه محاطة ببرواز عليه أطفال كثيرون كلهم ببزازة ولهم أرقام، وكلهم يبكون وزجاجة اللبن في أيديهم.

* * *

وهذه رخصة لمن يجلسون في المقعد الخلفي من السيارة هذا نصها : «بما أن فلانا قضى مدة طويلة في ركوب سيارات التاكسي والشعبطة على بعض سيارات النقل والقطارات دون أن تسجل ضده أية حوادث، فهو لذلك يعتبر نفسه مستشارا ومتخصصًا لكل من يريد أن يقود طيارة، وهو يجلس في المقعد الخلفي. ولذلك نشهد بأن المذكور أعلاه مفوض تمامًا أن ينصح كل سائق سيارة تاكسي أو سيارة أخرى يركب فيها في الشوارع الداخلية للمدينة أو الطرق الزراعية تنطلق بسرعة أو في غاية الهدوء. . وأن ينبه السائق قبل وقوع حوادث التصادم. . وأن ينبهه إلى إشارات المرور، من النافذة الخلفية. . فهذا المستشار سيغنيه عن ذلك. . ويجب على السائق أن يلعن بالنيابة عنه كل السائقين الآخرين في السيارات المجاورة. وأن يشتبك باليد أو بالرجل أو باللسان في أية معركة يقتضيها الموقف، على أن يختار الكلمة النابية وأماكن الإصابة للمذكور أعلاه. ومن حقه أيضًا أن يتولى التعبير عن السائق في حالات الموت أو القلق أو الفزع أو الإغماء. . والمذكور أعلاه من حقه أن يرتدي القبعة التي يرتديها وبالحجم الذي يريده فليس مهما أن يرى السائق من النافذة الخلفية. . فهذا المستشار سيغنيه عن ذلك. . ويجب على السائق أن يعتمد عليه اعتمادا تاما» .

وحول هذه الرخصة برواز به عبارة: انتبه فهناك سيارات اصطدمنا بها من الخلف. . وعبارة أخرى: انتبه. . فهنا رائحة شياط في السيارة المجاورة وربما انتقلت إلينا. حاسب هل تريد أن تقتلني أنا وزوجتي؟ . . قف هنا أريد أن أرى شيئا في الفترينة» .

وشهادات لتطليق الزوجة بعد زواجها بساعة، وأخرى للتخلص من حماتك عن بعد.

وشهادة أخيرة للضحك على الناس بترجمة هذا الكلام إلى اللغة العربية!

* * *

واشتريت مجموعة من بطاقات الأعياد . .

وأرسلتها إلى عدد كبير من الأصدقاء ، والحقيقة أنه لم يكن الدافع هو أن أعيد عليهم . . بقدر أن أبين لهم أين أنا من العالم . . أريد أن أخبرهم أنى فى جزر هاواى . .

فى هذه الجنة المنعزلة تمامًا عن الدنيا . . إنها تبعد عن أقرب ميناء فى أمريكا ٢٥٠٠ ميل . . وتبعد عن أقرب جزيرة مثل ساموا حوالى ٢٥٠٠ ميل . .

حتى الذين لم تكن لى بهم أية صلة أرسلت لهم بطاقات ، ولا أعرف هل وصلتهم أم احتفظ بها ساعى البريد . . ولو كنت ساعيا للبريد لاحتفظت بها . فالبطاقات عبارة على لوحات جميلة ، ثم إن العبارات التى كتبتها لأصدقائى لم تكن جميلة ، وإنما هى أقرب إلى الشتيمة . ولا أفهم لماذا تطفو على نفس الإنسان هذه العبارات النابية وهو سعيد؟

لماذا لا أبعث لهم بهذه العبارات : أنا فى الجنة والعاقبة عندكم . . بدلا من أن أقول : أنا هنا فى الجنة وأنتم واقفون على الأرصفة فى القاهرة والإسكندرية والمنصورة وطنطا . .

فبدلا من أن يقولوا : والله فيه الخير . . ربنا يرجعه بالسلامة . . فإنهم يقولون : إنه يغيظنا إياك تقع بيه الطيارة!

والله يعلم أننى ضيعت مبلغا من المال فى هذه البطاقات التى تبدأ عادة بكلمة كل سنة وأنت طيب وتنتهى عادة بما معناه الله يخرب بيتك . . !

حدث أمس شىء غريب . .

تعرفت على اثنين من الأمريكان . وليس أسهل من أن تعرف أى أمريكى أو يعرفك هو . فهو يبتسم لك ويدخل معك فى موضوع يدهشك . . فهو يحدثك عن نفسه وعن الفلوس التى فى جيبه وعن الكلام الذى دار بينه وبين زوجته . . وماذا قال لها وقالت له . . وقبل أن تستوضحه عن اسمه يكون قد انتقل إلى أبنائه . وقبل أن نتأكد أنه رجل عاقل وليس مجنونًا يكون قد دخل فى السياسة ولعن آباء روسيا والصين وأبدى خوفه من اليابان . . وإذا كان مثقفًا جدا فإنه يتحدث عن عمر الخيام دون أن يعرف أنه إيرانى وليس مصريا . وإذا كان من علماء الچيولوچيا فسيسألك إذا كان الهرم الأكبر مصنوعًا من الطوب الأحمر أو من الجير وإن كانت له نوافذ قبلية أو بحرية . وتأكد أن أى كلام ستقوله له بلهجة جادة سيصدقه ، ولكى تكون جادًا يحسن بك أن تكشر وأن تنظر إلى الأرض مرة ـ غير مهم أن تفتح عينيك ـ وإلى السماء مرة . . وإذا تصادف مرور ذبابة فافتح لها عينيك ،

لعلها تلمسها فتحمر، وهنا يجب أن تنتهزها فرصة وتبكى على الأموال التى أضعتها فى البحث بنفسك عن كل شىء . . أؤكد لك أن هذا الأمريكى سيجمع لك الناس ويدعو إلى مذهبك الجديد فى الفلسفة!

وشىء من هذا قد حدث لهذين الأمريكيين . .

فهما يسكنان فى بيت . . والبيت تملكه سيدة عجوز، وهى عجوزجدا جدا . . - هذا رأيهما - فعندها حوالى سبعين سنة . . هذان الأمريكيان فى الخامسة والعشرين من العمر! وهذه السيدة تعرف تاريخ جزر هاواى وتاريخ الجزر المرجانية الصغيرة المجاورة لها . .

وصمم هذان الشابان على أن أذهب لرؤية هذه الوثيقة التاريخية الحية. هل أقول لهما إن أى أثر تاريخى عمره سبعون سنة، لا يلفت نظرنا نحن الذين بنينا الأهرام من ألوف السنين . . وقلت: يا واد. دول أغنياء حرب وليس لهم تاريخ . . وليس لهم أصل . . إنهم أبناء المهاجرين من كل الشعوب الأوربية وغيرها . .

وذهبت إلى بيت السيدة العجوز . .

السيدة عمياء . . وسعيدة بأن الأمريكان قد أوجدوا لها هذا العمل . . بأن يسألوها فى سذاجة، وترد عليهم فى سذاجة أيضًا . .

وكلما سألاها سؤالا بائخًا، نظرا ناحيتى . . لكى أنتبه جدا إلى الجواب . . ويجىء الجواب لا معنى له . .

وحاولت أن أجعل لهذه السيدة أى معنى . .

فسألتها: هل رأيت آلهة البراكين؟

وهنا انزعجت جدا وصرخت: لا تسألنى هكذا . . من أنت؟! اخرج . . خربت بيتى . . لقد مات زوجى . . ومات ابنى . . وفقدت نظرى . . اخرج . . اللعنة عليك وعلى الذين أتوا بك . . اخرجوا يا أولاد . . (وهنا ذكرت أسماء بعض الحيوانات المحلية).

وكانت مفاجأة لهذين الأمريكيين أيضًا . .

فقد تقدمت ثلاث خادمات، كن واقفات عن قرب . . ودفعتنا جميعًا إلى الشارع دون اعتذار . . وانغلق الباب ورحن يلقين بالكولونيا على وجه العجوز، ولم تنطق بكلمة واحدة . .

وقررنا فى الطريق أن نسأل أحد العلماء الأمريكان الموجودين فى المدينة . . والعلماء الأمريكان كثيرون فى كل مكان . إنك تجدهم بين الجرسونات والمضيفات فلا أحد يعرف بالضبط من هو العالم . . ومن ليس عالمًا . ليس من الضرورى أن يكون قد وضع منظاراً على عينيه . . ولا أعرف كيف اهتدى هذان الشابان إلى وجود أحد العلماء من أبناء الجزيرة . .

ووجدناه صاحب أحد محلات بيع الأسطوانات ، وسألناه ، وروى لنا قصة هذه السيدة . وعرفنا أنها من الذين يؤمنون بتحضير الأرواح والاتصال بالشياطين . . وأنها ضحية لهذا السحر الأسود . . وأنها ليست مؤمنة بأى دين . ثم لفت نظرنا إلى لوحات وتماثيل موجودة فى بيتها . . وكلها لآلهة البراكين والزلازل وآلهة البحر . . وأنها كانت سببًا فى القضاء على عائلات كاملة . . وأنها كانت من أجمل نساء هاواى لولا هذه الخرافات التى آمنت بها . .

ودعانا إلى بيته لنرى بعض اللوحات التى رسمها فنانون عالميون لهذه القصص الخرافية . .

واعتذرت . . .

وعدت إلى غرفتى . وكانت الساعة متأخرة جدا . .

ومع كوب اللبن ابتلعت قرصين من الحبوب المنومة . . ونظرت إلى نفسى فى المرآة وقلت : كل كريسماس وأنت طيب . .

ووضعت تحت مخدتى ورقة مكتوبًا عليها هذه العبارة ـ تمشيًا مع التقاليد اليابانية ـ كل سنة وأنت فى هاواى !

وفى الصباح أحسست أننى مكسر . . وعرفت أن العفاريت وآلهة البراكين قد اخترقت الستار النومى الذى نصبته حول أحلامى . . وأن هذه العفاريت قد تسللت إلى أحلامى ونسجتها على طريقتها . . لقد كان النوم خيوطًا من حرير ، وجاءت هذه العفاريت وبطريقة شيطانية حولت هذه الخيوط إلى سرير من الشوك الناعم . . ظللت أتقلب عليه طول الليل . . وكلما صحوت تقدمت هذه السيدة العجوز تحشرنى فى البيجاما من جديد . .

وعرفت العفاريت طريقها إلى فراشى !

وهذا هو جزاء من يمشى وراء العيال الأمريكان !

دروس من هنا

قبل أن أغادر القارة الآسيوية أرجوك أن تعطينى فرصة لكى أتفلسف شوية!

* * *

هنا أعظم مساحة من الغابات التى رأيتها فى حياتى. رأيت الغابات فى ألمانيا وسويسرا والنمسا وفرنسا وإيطاليا واليونان والسويد.. ولكن غابات آسيا أغنى وأوسع. ففى كل مكان أجلس فيه أرى أمامى غابة.. بل إننى رأيت حيوانات الغابة تنطلق بالألوف كأن الدنيا لم تتغير حولها.. رأيت النمور والفيلة فى منطقة كاتاكى فى جنوب الهند..

* * *

وعرفت أن الشجرة الواحدة لا تكون غابة، والبيضة الواحدة لا تكون عجة، والريشة الواحدة لا تكون عصفوراً والأصبع الواحدة لا تكون يداً..

وعرفت أن مجموعة من الأشجار إذا انتظمت تكون حديقة، وإذا لم تنتظم فإنها تكون غابة.. فالغابة هى جماهير من الأشجار، ومظاهرات من الطيور، وحشود من الثمار..

وجماهير الأشجار لها قوة مخيفة، ولا يمكن أن يغلبها إلا العقل.. إلا النظام والتفكير..

فمهما كانت جماهير الأشجار والحيوانات قوية، فإن تفكير العقلاء أقوى..

ورأيت أشجاراً كثيرة ملتوية السيقان.. وعرفت السبب.. فالأشجار كلها تتسابق نحو الشمس.. فرأيت أشجار المانجو تخفى الشمس عن أشجار جوز الهند.. ولكن هذه

الأشجار تلتوى وتتلوى وتتفادى أشجار المانجو وبعد ذلك تصل إلى الشمس . . تصل إلى النور والحياة . .

وكنت إذا رأيت شجرة ملتوية عرفت أنها عندما كانت صغيرة حرمتها شجرة كبيرة من الحياة فانحرفت والتوت . .

فلا تزال الحياة أقوى من الاعتدال والاستقامة ولا تزال الحياة غاية . . وكل شىء من أجلها وسيلة . .

والجوع إلى الشمس، إلى النور، مثل الجوع إلى الطعام كافر بكل دين!

* * *

ورأيت الثمار فى هذه المناطق الحارة تنمو بسرعة وبكثرة . . فالحرارة شديدة والأمطار غزيرة دائمًا . . وإذا لم يكن هناك رطوبة كثيفة فى الجو . . فالهواء بخار ساخن دائما . . وهذا البخار الساخن هو الذى ينفخ فى الجذور فتقفز من الأرض، ومن الأرض إلى الجو، وتتدلى منها ثمار صغيرة لا تلبث أن تكبر وتنتفخ بسرعة عجيبة . .

فهذه البلاد غنية بالفواكه . .

ولكن هذه السرعة فى النمو، حرمت هذه الثمار من الطعم الحلو وحرمتها من الغذاء . . . إن الثمار هنا كالطفل الذى تفطمه أمه بعد أيام من ولادته، فالطفل يكبر فى السن ولكنه ضعيف تنقصه الفيتامينات الضرورية للحياة .

وعرفت أن النمو الشيطانى، وأن الذى يكبر بسرعة ويعلو بسرعة إنما يكون على حساب حيويته، على حساب عناصر الحياة فيه . .

فالطبيعة تقدم الكم ولا تقدم الكيف، فهو «كم» كبير و«كيف» ضعيف ولذلك جاء الرجل الأبيض وهو قليل العدد ولكن فيه عناصر الحياة والبقاء، وظل الرجل الأصفر الكثير العدد تنقصه عناصر المقاومة فترة طويلة!

ورأيت فى الهند دفاعا حارًا عن الأفاعى؛ لأنها تأكل الفئران التى تأكل محصول الأرز والقمح . .

رأيت الناس يختارون الأقل ضررًا .

فاختاروا الثعبان لأنه أهون من انتشار الفئران وضياع المحصول .

ورأيت أن الأصل فى كل شىء هو مدى ضرورته للإنسان فإذا كان الشىء ضروريًا، جاء الدين ووضع عليه تاج القداسة!

* * *

ورأيت إندونيسيا المكونة من ثلاثة آلاف جزيرة . . بها مختلف اللغات واللهجات وبها دين واحد هو الإسلام . . . ولكن المسافة بين الجزر تقطعها الطائرة فى ساعات . . . وبعضها غنى جدا فى الثروات، قليل جدا فى العدد . . ولكن هذه الجزر اتحدت ضد العدو الواحد وهو هولندا . . . رغم الخلافات فى الجنس وفى اللغة وفى المكان، ورغم المساحات المائية بين الجزر . . .

ولكن عندما يتهددهم خطر واحد . . . يتحد الناس؛ لأنهم حريصون على أنفسهم وعلى مصالحهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية . . على مصالحهم الحيوية . . .

وأيقنت أن اتحاد العرب ليس مستحيلا بل ليس صعبا . . . فاللغة تجمعنا والأهداف تجمعنا . . . والأرض متصلة بعضها ببعض . . . والعدو واحد . فنحن نخاف من رءوس الأموال اليهودية . . . نخاف أن تحولنا إسرائيل إلى مستهلكين لإنتاجها فقط . . . نخاف أن نصبح دكاكين نبيع منتجات مصانع إسرائيل . . . نخاف أن نتحول إلى هنود حمر فى بلادنا!

ولذلك سنتحد اليوم أو غدًا، هذا الجيل أو الجيل القادم . . وحتمًا!

* * *

لقد استعمر الرجل الأبيض هذه البلاد مئات السنين . . استعمرها أيام كانت الحياة مستحيلة . فلابيوت ولا علاج ولا وسائل للراحة . . . ولكن الرجل الأبيض . . . أصلح الأرض، وسوى الطريق، وواجه الشمس، وقاوم الحرارة والمرض والجهل . . . وعاش وحرص على البقاء مئات السنين .

كان الرجل الأبيض قادرًا على التكيف مع البيئة قادرًا على أن يمشى إلى جوار البيئة وينحنى لها ليتحكم فيها بعد ذلك . . . فيشق الجبل ويبنى السقف ويقيم المستشفى والمدرسة . . .

فنحن ـ نساء ورجالا ـ نجد صعوبة فى الحياة فى أى بلد آخر غير البلد الذى ولدنا فيه ويجب أن نموت فيه . . .

وهذه حقيقة مؤلمة يجب أن نواجهها بصورة جادة جدا.

فنحن نرى أن الحياة خارج القاهرة صعبة ونرى أن الحياة خارج بلادنا مستحيلة أيضا.

إننى لا أستطيع أن أنسى خجلى وأنا أسعى لنقل أحد رجال البوليس من الجيزة إلى القاهرة... لقد اضطررت تحت إلحاح شديد أن أقابل أحد المسئولين... واندهش المسئول لهذا الطلب الغريب جدا.. إننا ننظر إلى الموظف المنقول إلى الصعيد على أنه مغضوب عليه!

طبعًا هذا الموظف معذور، فليس فى الصعيد وسائل الراحة أو الترفيه التى يجدها فى القاهرة أو فى الإسكندرية. ولذلك يجب أن نعمل على توفير هذه الوسائل فى المدن الأخرى.. وأن نقلل من الإنفاق على القاهرة والإسكندرية ونزين المدن الأخرى لأن هناك قضية أخرى أهم، وهى تخفيف الضغط على القاهرة وتعويد الناس على الحياة بعيدًا عن العاصمة تمهيدًا لتعويدهم على الحياة خارج بلادنا..

ويجب أن نقلل بقدر الإمكان من المركزية الإدارية والصناعية والسياحية... ومن المؤكد أن بعد كهربة السد العالى ونشر المراكز الصناعية فى أماكن مختلفة من بلادنا ستنتقل المدرسة والمسرح والسوق والصحيفة إلى جوار المصنع..

وفى كلمة أخرى اكتشفت أننا «مدللون».. فليس فى حياتنا بساطة وجلد. وأننا نشبه النباتات التى تنمو فى بيوت الزجاج.. أو كالقمح الذى ينمو فى أوراق النشاف.. فنحن نعيش فى ظروف واحدة لا تتغير وإلا فلا.. فى العاصمة وإلا فلا.

والنتيجة طبعًا.. فلا.

كالسمك تمامًا فى الماء وإلا فلا... فلا نحن هاجرنا إلى أمريكا أو إلى آسيا أو إلى أستراليا.. وإنما فقط عشنا فى بلادنا...!

وإن كانت الهجرة أصبحت فى حلم الكثيرين... وأسعدت الكثيرين بحياة أفضل.

* * *

وعرفت أن العرب الحضارمة هم أول من اكتشف إندونيسيا... وأول من نزل فيها... وأول من نقل إليها الإسلام... ولكن كانوا أول من ترك هذه البلاد... فلا يمضى يوم واحد لا تنقل فيه السفن مئات من الحضارمة عائدين إلى بلادهم ومعهم جوازات سفر عربية أو بريطانية.

وعرفوا أن الصينيين هم آخر أقلية جاءت إلى هذه البلاد وسيكونون آخر من يترك هذه البلاد . . .

والحضارمة مغامرون أفرادًا . . .

والصينيون مغامرون جماعات . . .

والحضارمة فيهم طبيعة السياح الهواة وليست فيهم طبيعة التجار المحترفين.

وعرفت أنه ليس من المهم أن تكون أول من يعمل شيئًا وإنما المهم هو أن تبقى وأن تستمر وأن تصبر.

والمثابرة تغلب الذكاء، والصبر يغلب الحظ . . . والعبرة دائما بالنتيجة!

* * *

وعرفت أن الناس فى هذه المنطقة من العالم لا يتعجلون أى شىء . . إن كل شىء هنا يمشى على مهل. إنهم لا يخافون من شىء . . فالطعام معلق فى الأشجار والماء تحفظه السماء فى خزانات من السحاب . . والحرارة ترميها الشمس بغير حساب . . وإذا مات واحد منهم فهناك ملايين، وإذا عاش واحد فلن تضيق به الأرض . .

وغدًا تطلع الشمس، وينزل المطر، وتنمو الثمار . . . وكل فصول السنة حارة . . ولا يوجد أى تغيير ولا توجد أية مفاجأة . . . ملابس العام الماضى تصلح لهذا العام فى كل الشهور وكل الليالى . . . لا تغير لا فصول . . . لا مفاجآت . . . فلا داعى للاستعجال . .

وأنت فى هذه البلاد تشعر كأنك تفكر بعقلية الثوانى، أما هم فيفكرون بعقلية عقرب الدقائق أو الساعات . . أو حتى بحركة الشمس . . . إن الصبر استعاروه من الجبال، والابتسام استعاروه من الضوء والزهور . .

فالحياة ممكنة بمنطق آخر غير منطق بلادنا، وفى ظروف أخرى أغرب وأقسى من ظروف بلادنا . . . ولا يمكن أن يسود الدنيا كلها فكر واحد وعقل واحد وزى واحد . . فالناس مختلفون كأشكالهم وألوانهم وطريقة تناولهم للطعام والشراب وتناولهم للفكر والفن والحياة . . .

وأنا لا أزعم أننى تعلمت منهم كل شىء . . لقد تعلمت الابتسام ولكنى لم أتعلم الصبر . . . ولذلك أسارع فأنهى هذه الملحوظة لأننى زهقت!

* * *

إن مستقبل العالم كله هنا فى آسيا . .

هنا أكثر من نصف سكان العالم ولم يعد الرجل الأبيض خطراً على أحد . . لقد كان مستعمرا ثم خرج . . . كان مصاصًا للدماء ثم طردوه . . ولكنه لا يزال أقوى لأنه أكثر تطوراً ولأنه لا يزال هو الذى ينتج ، ولا تزال هذه البلاد هى التى تستهلك . . إنه هو الذى يعد الطعام وهو الذى ينصب المائدة وهو الذى يبعث بالسفرجية . . . وهذه البلاد ما تزال هى الزبائن . . .

وإلى أن يتحول أهالى هذه البلاد إلى منتجين ؛ فسيبقى الرجل الأبيض هو السيد وهو الأقوى . .

فالرجل الأبيض يتخبط فى هذه المنطقة . . . والحركات القومية هنا عنيفة وكلها مجموعة من الشلاليت للرجل الأبيض .

وإذا كان الرجل الأصفر خطراً على العالم . . . فهناك رجل أكثر صفرة ، هذا الرجل هو الصينى .

الصين الشيوعية عددها ٨٠٠ مليون «ثمانى مئات من الملايين» يعملون كالنمل فى داخل الصين ، وفى خارج الصين أيضا . . . إن التجارة والصناعة والمواصلات والبنوك كلها فى أيدى الصينيين فى كل هذه المنطقة ، بل إن الدول الغربية عندما تبعث بالبضائع إلى هذه البلاد فعن طريق التاجر الصينى . . . أمريكا تبيع الطعام والشراب والملابس والآلات عن طريق الرجل الصينى .

وهو صاحب رأس المال والمصانع والشركات والبنوك ووسائل المواصلات والصحف فى معظم هذه المنطقة . . . إنه يملك البيوت والأرض . . . وعدد الصينيين لا يزيد على خمسة ملايين .

إن الرجل الصينى هو الذى يملك أرض وشواطئ وفنادق وبنوك سنغافورة .

الرجل الصينى هو الذى يتحكم فى جزر الفليبين وجزر هاواى وفى كمبوديا ولاوس والهند الصينية وبورما .

إن أبناء الصين هم أقلية مالكة . . . أقلية تتجمع فى أيديها كل وسائل الثروة والإنتاج والاستهلاك والتوزيع .

والصينى يريد أن يدخل الجيش كأى مواطن إندونيسى .

ولكن ما زال الصينى هو الذى يبيع الأرز ويبيع الزيت والسكر، والحكومة تتولى توزيع الأرز، ولكن الذى يشترى الأرز هو الصينى والذى ينقل الأرز هو الصينى، والذى يستطيع أن يوقف البيع والشراء هو الصينى .

وكل الصيارفة فى كل البنوك صينيون .

ويكفى أن ترى معرض الصناعات فى جاكرتا لتجد أن ٩٥٪ من المعروضات من الأقمشة والمنسوجات والصناعات الجلدية والزجاجية وبيع السيارات والمشروبات كلها صينية !

والحزب الشيوعى يؤيد الصينيين الرأسماليين . .

والأحزاب الإسلامية تؤيد بقاء الصينيين . . .

فالصينيون وراء كل حزب وكل صحيفة وكل جمعية . . .

ولم يفلح هذا الرجل الأصفر جدا فى أن يدخل الهند . . .

فالهنود عندهم من الهموم والزحام ما يجعل الحياة صعبة على أى صينى . . . ولم يفلح هذا الرجل فى أن يدخل اليابان فالموقف أصعب جدا . . .

هناك عدد من الصينيين مسلمون . . ولهم أسماء إندونيسية إسلامية مثل عبدالرحمن وأمين وحسنى . . وتكون أسماؤهم هكذا : عبد الرحمن إونج تسن وحسن لى فو . . . إلخ . .

وعلى الرغم من أن حكومة إندونيسيا استطاعت أن تجمع بين ثلاثة آلاف جزيرة مختلفة اللغات إلا أنها لم تفلح فى من إدماج الصينيين فى الحياة .

استمعت إلى عدد كبير من الأغانى فى هذا الجانب من العالم . . . إنها تختلف جدا عن أغانينا . . ونحن لسنا أكثر شعوب العالم حبّا للغناء أو الرقص أو الموسيقى . . إن الغناء والموسيقى والرقص شىء مهم جدا فى إندونيسيا مثلا . . . بل إن الثقافة من أهم معانيها الموسيقى والرقص والغناء . . .

وكل وفد ثقافى إندونيسى أكثر من نصفه من الراقصات .

والأغانى هنا ليست حزينة أو باكية لاطمة مثل أغانينا . . . والكلام عن البكاة واللطم فى أغانينا قديم جدا . .

ولكن الإحساس بالفرق بين الأغانى هنا والأغانى هناك هو الذى يجعلنى أفكر فى هذه المشكلة أو هذه الأزمة من جديد .

وقد يقال إننا أكثر شعوب العالم حبًّا للغناء .

ولا أعتقد أن هذا صحيح . فهناك من يفوقنا بمراحل وهناك من يتأثرون بالأغنية أكثر منا .

ولكن يمكن أن يقال إننا أكثر شعوب العالم تأثراً بالغناء ومن أكثر شعوب العالم ميلا إلى كل ما هو خفيف فى الثقافة ، إلى كل ما لا يحتاج إلى مجهود أو تعب أو عرق فى الفهم أو فى العمل أو حتى فى التذوق .

ولا أعرف كيف أتناول هذه الأزمة .

هل هى أزمة المستمع الذى يطلب نوعًا معينًا من الكلام . . أو هى أزمة مؤلف الأغنية الذى لا يستطيع أن يخرج عن «عادة» تأليف الأغانى بهذه المعانى المحزنة . . أو هى رغبة الملحن فى نوع معين من الكلام . .

وأنا لا أقول إن الملحن يجرى وراء اللحن الغربى بل أطالب الملحن العربى بأن يلحق بالملحن الغربى وأن يرتبط به . . . أن يرتبط بالعلم والحضارة .

ولا يمكن أن يكون الملحن العربى سارقًا لألحان الملحن الغربى إذا كانت أغانينا تقوم على أوزان التانجو والرومبا والفالس . . لأن التانجو والرومبا بالنسبة للموسيقى كالنسخ والرقعة والثلث بالنسبة للخط . . . أو كالأقة والرطل والدرهم والكيلو بالنسبة للموازين . .

والمهم أن أضع هذه الأوزان أو هذه القوالب وأن أملأها بما أريد . . وليس فى هذا سرقة وإنما هى محاولة «تعليم» ـ أى جعلها علمية ـ للمعانى الموسيقية . . وأنا أطالب بهذا ولا أخاف منه . . وليست هذه هى السرقة . . . إن النقل لابد منه فى المرحلة التى لا يستطيع فيها ملحن واحد فى بلدنا أن يكتب نوتة موسيقية !

ليس الملحن مشكلة . . والحزن والأسى والبكاء ليست مشكلة طبعًا . وإنما هى عادة . .

عادة استحكمت. والحضارة أو المدنية هى مجموعة من العادات . . . فلبس البدلة عادة، والأكل بالشوكة والسكين عادة، والوقوف للمرأة عادة . . . وكل هذه أشياء ليست ضرورية . . . فالبدلة ليست ضرورة حيوية لأن هناك أناسًا يلبسون الجلباب وأناسًا عراة وكلهم قادرون على الحياة . . . ومن الممكن أن يأكل الإنسان بيده . . . وبالنسبة للإنسان والمعدة والكبد ليس مهما أن يجىء الأكل باليد أو بالملعقة . . . إلخ.

وهذا النوع من الغناء أو التلحين أو التأليف هو مجرد عادة يمكن تعديلها بعادة جديدة.

وأنا لا أطالب بدراسة الحالة النفسية لمؤلفى الأغانى . . من هم وأى نوع من الناس هم وفى أى ظروف يؤلفون أغانيهم ولا أقول إنهم مرضى . . .

ولا أطالب بعلاج الملحنين عندنا ولا أقول إنهم يؤلفون الألحان فى ظروف غير عادية . .

ولا أطالب بعلاج النقاد الذين يدمنون الكلام عن الموسيقى والأغانى . . ولا أقول إن الناقد مريض ومرضه هو الملحن الذى مرضه هو المؤلف الذى مرضه هو المستمع!

ولكننى أنبه فقط إلى أن معانى الأغانى عندنا لم تتغير من عشرات السنين . . فلا توجد أغنية واحدة تقول لى يجب أن تحب وأن تتمسك بحبيبتك، وإنما كل الأغانى تشجعنى على أن أعجل بهجر الحبيبة والبكاء عليها . . كل الأغانى تطالبنى باستدراج الحبيبة إلى هجرى أو الفرار منى لكى أجلس إلى جوار الراديو أبكى وأدفع الملايين للسادة المطربين وأصحاب شركات الأسطوانات وأشرطة التسجيل . .

ولو ارتبطت الأغنية عندنا بالرقص لخف هذا الحزن. فليس من الممكن أن كون حزينًا ذائبًا فى دموعى وفى نفس الوقت أرقص وأحرك رجلى ويدى ووسطى.

بصراحه كده . . نحن جامدون!

بل ليتنا جامدون بل نحن ذائبون وفى حاجة إلى أن نجمد ولو قليلا لنقف ونرقص . . . فإن الرقص يذهب بالدموع والحزن . . .

وإذا كان كلامى غريبًا . . فتعال فى مكانى وانظر إلى بلادنا سترانا مهياصين جدا . . وترى أننا ينقصنا «العلم» فى الغناء والموسيقى والتأليف والنقد!

أمريكا

الاستقبال العظيم

وحلاوة الأناناس على لسانى، ولسعة السمراوات فى مكان لا أعرف بالضبط من جسمى ونفسى، وصورة بريجيت باردو عارية تماما فى أحد الأفلام التى رأيتها هنا، والمحطة التى تتابع الأقمار الصناعية حول الأرض، وملايين الدولارات التى رأيتها وقليل من الرمل فى قفاى من أثر النوم الطويل على شاطئ وكيكى تشبها بأصحاب الجزيرة، الوهج المخيف الذى رأيته فى بركان هاواى. . بهذا كله فى عينى وفى أذنى وفى عقلى، ركبت الأتوبيس مارّا بالطريق الحلو الناعم كأنه ظهر سيارة كاديلاك، إلى مطار هونولولو فى طريقى عبر المحيط الهادى إلى أمريكا.

لم تطاوعنى نفسى أن أشعر لحظة أننى سأغادر هذه البلاد السعيدة: الأرض فى لون المانجو، والبحر فى لون البنفسج، والموج ناعم كالشفاه، والأشجار متراخية كأنها ما تزال نائمة. . . وكل شىء يغرينى أن أبقى، أن أتمهل، وأنه لا داعى لأن أهرب من الجزيرة بسرعة ٩٠٠ كيلومتر فى الساعة فى طائرة نفاثة. .

وفى المطار نظرت إلى الساعة ولا أعرف كم كانت ولا يعنينى كم تكون، وفى هذه الأثناء تقدم شاب مصور ومعه فتاة جميلة. لا أعرف لماذا ترافقه هذه الفتاة. وبعد لحظة عرفت. طلب منى أن أقف لكى يلتقط لى «آخر» صورة وضايقتنى كلمة «آخر» صورة، ووقفت وجاءت الفتاة تنبهنى بأصابعها إلى أننى يجب أن أبتسم. وابتسمت. . وحاولت أن تجعل لهذه الابتسامة لونا. قالت إن ابتسامتى صفراء، وهى تشير إلى فستانها الأصفر. . ونزعت من شعرها وردة حمراء وطلبت منى أن أجعل شفتى فى لون ورق الورد. وابتسمت للوردة ولها وللمضيفة التى وقفت على السلم تستعجلنى. . وتصرخ: لا تجعل ساعة الوداع أليمة هكذا. . ستعود قريبًا!

قالت «ستعود قريبا» ببساطة. كأننى طيار أو مضيفة طيران وأنه لن يمضى وقت طويل حتى أعود إلى الجزيرة. على كل حال هذه الأمنية أسعدتنى. . .

وطلب منى المصور أن أدفع ثمن الصورة وهو سيبعث لى بها فى أى مكان فى العالم ودفعت بلا تفكير. وبعد أيام وصلتنى الصورة التى التقطها.

وفى الطائرة قاومت جاذبية الأرض التى نغادرها. . قاومت النظر إليها، وإلقاء آخر تحية عليها واتجهت إلى الذين حولى. . كلهم من الأمريكان طبعا ومألوف جدّاً أن يدخل أى واحد منهم فى مناقشة معك من غير مناسبة، ويتأثر لمشاكلك ويروى لك مشاكل مماثلة. والفرق دائمًا بينى وبين أى أمريكى أنه وجد حلا لمشاكله. . أو أنه وجد مشاكله محلولة، وأن مشاكلى لا حل لها، أو أننى يجب ألا أجد لها حلا، فهى مشاكل معقدة إلى الأبد!

وفى إحدى المناقشات ـ كل هذا فى الطائرة وأنا لا أعرف جارى ولم أره إلا منذ دقائق وعلى ارتفاع ٣٠ ألف قدم فوق المحيط الهادى ـ رويت له أننى فى حالة فزع دائما من الحياة. فسألنى إن كنت آخذ حبوبا منومة. .

والسؤال سخيف، إنه يتصور أننى أشكو من قلة النوم. .

فقلت له: لا.

ولم تكن كلمة «لا» تعبر عن شعورى بسخافة السؤال وتفاهة السائل وإنما جاءت «لا» مثل طوبة جاءت من الأرض لتستقر فى فمه لتسده حتى لا يسألنى بعد ذلك.

وعاد إلى الكلام يقول: أعتقد أن النوم هو العلاج الوحيد لكل متاعب الناس. فالناس يبالغون فى متاعبهم. ولو عرفوا النوم، لنامت هذه المشاكل أيضا. . .

وضحك ليقول: لا تظن أن هذه فلسفة منك. . . إن هذا أرق فقط. . وأنت تحاول أن تبرر أرقك، فتجعل له معنى فلسفيًا.

وأعجبنى كلامه واعتدلت. كأننى أحاول أن أسحب السخافة التى لففت بها كلمة «لا» فقلت له: جربت النوم. . ولكن. . ما هو حل مشكلة الفزع من الحياة؟

وعاد يقول: إذًا اذهب إلى طبيب نفسى ليحل متاعبك. فأنت لا تستطيع أن تعرفها لوحدك. أنت ترى وجهك بمرآة. . ولكن لكى ترى قفاك. . أنت محتاج إلى مرآة أخرى. .

وأحسست أن هذا قلم على قفاى فعلا . . فالرجل ينظر لى على أننى رجل مجنون أو على أبواب الجنون. وحاولت أن أقدم نفسى فأقول له إننى رجل يشتغل بالأدب وأننى كنت مدرسًا فى الجامعة . . وأننى متخصص فى الفلسفة وعلم النفس. وكأننى قلت له إننى أسكن فى الشقة المجاورة له دون أن يعرف، فأبدى دهشته وأخرج من جيبه كارتا وأمسك قلمه وغير رقم تليفونه وقدم لى الكارت لكى أرى أنه أستاذ لعلم النفس فى إحدى جامعات أمريكا وأن له عشرين كتابًا، وأنه بهذا التواضع . . وأنه يرى أن مشكلتى أتفه من أن تكون مشكلة، وأنه خير لى أن أنام . .

وأخرج من جيبه علبة بها حبوب حمراء . . وفى الحال جاءت المضيفة بكوب من الماء . واختفت الحبة الحمراء والماء، وغطس الرجل فى مقعده. وسألتنى المضيفة إن كنت أريد شيئا من ذلك فقلت لها : نعم . . وجاء الكوب والحبة الحمراء وابتلعتها . . ونمت ساعة .

وصحوت من النوم لأجد جارى يقرأ فى صحيفة . .

وابتسمت خجلا، كأننى نمت فى أثناء المناقشة. فقال لى : كيف حال المشاكل بعد أن نمت . . إن حبة حمراء صغيرة تضيف إلى عمرك ساعات هادئة !

وعرفت أن هذه حبة منومة .

والتصقت هذه الحبوب بعد ذلك فى يدى وفى جيوبى . . كانت آخر شىء أراه كل ليلة فى أمريكا وأوربا. وأضافت هذه الحبوب ساعات إلى راحتى وحذفت من متاعبى مشكلات كثيرة . . وبقيت مشكلة واحدة هى : كيف أتخلص من هذه الحبوب الحمراء؟

* * *

وعندما هبطت الطائرة فى مطار لوس أنجليس كنت أتصور دائما أن يقع شىء غريب . . أن تنزل بقرة من الطائرة وعلى ظهرها أحد رعاة البقر ويمسك مسدسه ويطلب منا أن نسلم أنفسنا جميعا . . أو تقترب منا طائرة أخرى وتضربنا بالقنابل . . أو يدخل الطائرة أحد قطاع الطرق الجوية ويختار من بيننا واحدًا . . ثم يهرب إلى حيث يفعل به أى شىء . . يقتله مثلا !

ولم أجد بين الأمريكان المسافرين معى واحدًا يلبس البنطلون بالمقلوب أو يدخن سيجارتين فى وقت واحد . . ولم أجد فتاة حلوة . . كلهن من العواجيز . .

ووقفت الطائرة ونزلنا بنظام وترتيب وهدوء شديد . . وفى المطار كل شىء يدل على أن هناك نظاما دقيقا . وعلى أن هناك طائرات كثيرة . . وعلى أن هناك ملايين من الناس فى غاية النشاط . . على أننى نزلت كقطرة فى محيط . وعلى أننى ضائع مائة فى المائة . . وأننى إذا طلبت إلى أى إنسان شيئًا فيجب أن أعتذر له فوراً ؛ لأننى عطلته عن القيام بشىء أهم من هذا الطلب العيالى !

والمضيفات هنا أشكال وألوان ، وأحجام ومقاسات . . حتى الابتسامات مختلفة . . كأن كل شركة قد حددت مساحة الابتسامة . . فشركة المتحدة : ابتسامة بالعين فقط . . وشركة بان أمريكان : ابتسامة على الجانب الأيسر . . وشركة الخطوط العالمية على الجانب الأيمن . . وشركة المتحدة فى الوسط . . ولما لاحظت المضيفة التى وقفت أمامها أسألها عن الأتوبيس الذى سينقلنى إلى الفندق تبتسم ، من كل شفتيها ومن جميع الزوايا أدركت أنها مضيفة عالمية ، ولذلك كان ردها عالميّا أيضًا . فقد قالت وهى ضاحكة : الأتوبيس الذى ينقلك قد غادر المطار منذ دقيقة واحدة !

أى منذ اللحظة التى وقفت أمامها لأسألها وأترجم ابتسامتها لأعرف إن كانت هذه المضيفة خاصة بالشركة التى نقلتنى من هاواى إلى أمريكا أو بأية شركة أخرى ! وبذلك أضعت فرصة ركوب الأتوبيس والسبب هو ضعفى فى الترجمة ! وجاء أتوبيس آخر . .

وكأنى قروى جاء من أقاصى الصعيد إلى القاهرة لأول مرة ، سألت السائق بأسلوب واضح جدّاً إن كان هذا الأتوبيس سيذهب إلى هوليود . . فهز رأسه . . وكانت رأسه مائلة عند الاهتزاز كأنها هزة «خنفاء» مثل صوته عند الكلام . . وعدت أسأله بقلب يثير الشفقة إن كان الأتوبيس سيقف أمام فندق روزفلت الذى سأنزل فيه والذى حجزته من هونولولو تلغرافيّا ، فهز رأسه ومد يده لكى أفسح الطريق للركاب لكى يحتلوا أماكنهم فى السيارة ، وتحتل أسئلتهم مكانها فى أذنيه . .

وكأننى لم أسافر فى حياتى ، مع أننى سافرت أكثر من عشرين مرة . إلى أوربا . . ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب . . وأننى الآن أدور حول الأرض . . فكل شىء يدل على أننى ضائع خائف . . كأننى أتحرك فى بطن حوت . . وأننى أنتقل بين أنيابه لكى أستقر فى أحشائه .

لقد تذكرت ما كتبه الفيلسوف الوجودى ألبير كامى عن بطن حوت مخيف اسمه : الناس . . فالإنسان يعيش من أجل الناس ، ويعيش بالناس ، ويموت بالناس أيضا . . فهو

يعيش فى بطن الحوت، ويحرص على أن ينجو من الحوت . . فالفنان ضحية لا تريد أن تموت . . ولكن لابد أن يعيش كالضحية . .

وأنا ضحية . . أما القاتل، أما الموت فهو هذه الشوارع الطويلة جداً . . الواسعة جداً . . التى تنطلق عليها صواريخ أرضية . . لا أحد يتوقف . . لا أحد يمشى على قدميه . . لا أحد ينظر إليك . . ولا تستطيع أنت أن تنظر إليه . . فلست أعجوبة . . ولست جديداً فى ملامحك . . فهنا مثلك ٢٠٠ مليون نسمة . فلا السفر من اليابان يثير أحداً . . ولا من هاواى . . ولا من أمريكا إلى أوربا . . كل شيء عمله الأمريكان . . فهم الذين اخترعوا السيارة والطيارة . . وهم الذين اخترعوا الملايين والمليونير . . وهم الذين اخترعوا السينما . . ومهما كانت ملامح وجهك فمثلها على الشاشة كثيرون . .

لا شيء يبهرهم ولا شيء يرد لك عقلك!

وبفرملة تكاد تقتلعنى من مقعدى أنا وحقائبى وقف السائق أمام فندق روزفلت . . ونزلت . . وبحركة فيها كثير من الاضطراب حاولت أن أجد فكة فى جيبى . . ولم يكن لهذه الحركة أى معنى . . فلا السائق يقبل البقشيش . . ولا يوجد كمسارى . . وإنما هى حركة تعويضية يقوم بها الإنسان عند الخجل أو الحرج حتى يهرب من نظرات الناس!

واكتشفت أن نظرات الناس تحتاج منى لكى أواجهها إلى مجهود أكبر من مجرد وضع اليد فى جيبى أو حتى فى جيوبهم . .

وشعرت بشيء من الارتياح عندما نظرت إلى البيوت فوجدتها متوسطة الارتفاع . . خمسة أدوار . . سبعة أدوار . . فلا توجد ناطحات سحاب هنا . . أحسست كأننى لم أبرح أوربا التى أعرفها، أو مصر التى ولدت فيها . .

وقلت فى نفسى: عندنا صور كهذه . . وشوارع كهذه . . فأنا لست غريبًا إذن! وجاء بواب الفندق فقلت له بشيء من الثقة التى عادت إلى نفسى: فين غرفتى من فضلك!

ثم سبقته إلى مكتب الاستعلامات . . ووجدت غرفة محجوزة باسمى كما وجدت ابتسامة محجوزة أيضًا. فهذا الرجل الذى يعمل فى استعلامات الفندق كان فى مصر أيام الحرب الأولى، ويعرف القاهرة، وكأنه أراد أن يسحب منى الثقة، سألنى عن أماكن حقيرة فى القاهرة القديمة، فأنكرت وجودها، لعلى بهذا الإنكار أسترد الأرض التى احتلها هو وطردنى منها، ولكنه أكد لى أنه يعرف هذه الأماكن . . وظللنا نتنازع هذه الثقة . . ثقته هو بمعلوماته وثقتى أنا بنفسى ومعلوماتى أيضا . .

وانتهى لقاؤنا نهاية سيئة . . وقضى هذا اللقاء على كل صورة حلوة، وكل حلم لذيذ، وكل راحة نفسية، وكل أمل فى الاحتفاظ بالذكريات الجميلة لجزر هاواى . .

وأحسست بالشوق إلى البلاد الشرقية التى رأيتها قبل ذلك . . وتمنيت لو أننى كنت فى الهند أو إندونيسيا أو اليابان لكى أتمدد على المقعد متباهيا بأننى أبيض اللون طويل القامة عسلى العينين، أبيض الأسنان لأقول للجرسون عندما يدخل: واحد شاى من فضلك!

وقبل أن ينحنى هذا الجرسون أكون قد أغمضت عينى زهداً فى هذه الاحترامات والتحيات!

ولكن أين هذا مما حدث لى بعد خمس دقائق من دخولى هذا الفندق . . دق الباب فقلت: ادخل . .

ودخل عملاق ضخم طويل . . وقد ارتدى بدلة سمراء والياقة منشاة والنظرة منشاة . . والابتسامة مسرحية والانحناءة رسمية وقال: حضرتك ضربت الجرس . .

قلت له: إننى لا أعرف أين الجرس.

وتقدم وأشار بيده إلى الأجراس . .

وسألنى إن كنت بهذه المناسبة أريد شيئا. فقلت: واحد شاى من فضلك واقترح هو أن يكون الشاى كاملا، لأننا كنا بعد الظهر . . فلا هو موعد غداء ولا عشاء وإنما هو بين بين . . واقترح بعض العصير، فلم أمانع. واقترح بعض السندوتشات، ولكى أبدو غير جائع جداً قلت لا مانع. واقترح بعض الفاكهة، ونسيت أننى أكلت جبالا من الفواكه فى قارة آسيا، فقلت لا مانع . . ولا أعرف إن كان قد ذكر كلمة «فطائر» . . ولكن كلمة «فطيرة» رنت فى أذنى على أنها «فاتورة» فقلت لا مانع . . وربما كان السبب فى أننى سمعت كلمة «فاتورة» هذه، هو أننى كنت أحلم بإيطاليا . . وفاتورة كلمة إيطالية وليست إنجليزية . .

ومهما وصفت لك كيف جاء هذا الشاى الكامل، فإنك لاتستطيع أن تتصور ما حدث . . لا يمكن . . لاأنت ولا غيرك . . ولا حتى أنا . .

ولكن سأحاول أن أصف لك الجو الذى دخل فيه الشاى إلى غرفتى . .

انتهزت هذه الفرصة وأخذت دشّا من الماء الساخن . . فنحن هنا فى ديسمبر . .

وغيرت ملابسى. . لكى أرتفع معنويًا ومظهريًا إلى مستوى الجرسون الضخم والطعام الأضخم. .

وجلست. . وقبل أن ألمس المقعد دق الباب وانفتح قبل أن أقول. . ادخل. . وجاء جرسون آخر يحمل وردًا. . فظننت أن هذه هى تقاليد الفندق مع النزلاء الجدد. . وسألنى الجرسون إن كنت أحب هذه الورود؛ فأبديت إعجابى بلونها وتنسيقها.

وأغلق الباب وخرج. . ودق الباب ودخلت منضدة كبيرة. . ودق الباب ودخل جرسون معه مفرش أنيق. . ودق الباب ودخل جرسون يدفع أمامه ترابيزة لها أربع عجلات وعليها علم الولايات المتحدة. . ومكان شاغر لعلم آخر لا أعرف إن كان هذا الجرسون سيسألنى عن علم بلادى. . ولم يفعل. ولم أسأله فقد كنت فى حالة «اللهو الخفى». . واللهو الخفى معناه: أن بطنى تلعب سرًا. . فهى تلهو بصورة خفية. . ولم أهتد إلى هذا المعنى إلا الآن فقط. .

وانفتح الباب وجاء الجرسون الأول ليشرف بنفسه على العملية. . وهى بالفعل عملية. . براد شاى ضخم. . وبراد اللبن. . وفطيرة بالفراولة والتفاح. . وسندوتش جبنة ولحمة وكبدة. . وكوب عصير الأناناس. . وكوب عصير طماطم. . وشعرت بذهول شديد. . وتحايلت على هذا الذهول فحولته إلى حركة. . فتظاهرت بأننى أصلى لله. . وأننى أشكره لأنه أعطانى كل هذه النعمة. . ونظرت إلى السقف. . وأمام هذا المنظر الدينى الفريد. . انسحب الجرسونات. . وعندما أقفلوا الباب نهضت لكى أرى الفاتورة.

وأمسكت الفاتورة بيدى ووقعت على المقعد. لقد كان الثمن المطلوب هو سبعة جنيهات!

ولاحظت كثرة التحيات والسلامات الموجودة فى الفاتورة. وعرفت أنها تشبه التحيات المألوفة فى رسائل الحكم بالإعدام عند الإنجليز. . ففى إنجلترا عندما يصدر الحكم بالإعدام على أى مجرم تكون صيغة الحكم هكذا: «تقرر إعدامكم مع فائق الاحترام».

أى احترام بعد الإعدام؟!

خفايا هوليود!

هوليود هى أشهر مدينة فى العالم . . ففيها مصانع الجمال والمال والمجد، فيها استديوهات السينما . . بعض هذه الاستديوهات مساحته ٣٠٠ فدان . . كل شاب يحلم بأن تتعثر فيه رجل أحد المخرجين. وكل فتاة تحلم بأن يتجنن عليها أحد المنتجين العواجيز ويرفعها على يديه المرتعشتين من الرصيف إلى جوار مارلين مونرو . . والمشى فى شوارع هوليود متعة . . فالبنات يقلدن كواكب السينما، وكذلك الشبان، ومعظم البنات الصغيرات هنا قد صبغن شعورهن وجعلنها مثل بريجيب باردو فى فيلم «المرأة شيطان»، وأضفن إلى ذلك الكحل . . وبعضهن يقلدن صوفيا لورين فى نعكشة الشعر على الرأس وإضافة بعض سنتيمترات إلى كعب الحذاء . . وقد نجحت صناعة الكاوتشوك والنايلون فى أمريكا فى رفع صدور الفتيات إلى مستوى جينا لولو بريجيدا، ولكن لم ألاحظ أن هناك فتيات يقلدن مارلين مونرو . . إلا فى بعض الأماكن الخاصة جدًا جدًا . . أما الشبان فهم يقلدون دين مارتن فى فيلم «الأشبال» فينكشون الشعر ويكومونه على الجبهة، وقد نجحوا فى التقليد جدًا لأن دين مارتن له مطاعم كثيرة هنا وعلى كل مطعم توجد له صورة بالألوان. فإذا مر أحد الشبان بجوارها فإنه يخرج المرآة من جيبه ويقارن بين الأصل وبين الصورة . . وشبان آخرون يصلبون جذور رقبتهم مثل شارلتون هستون فى فيلم «الوصايا العشر» وفى فيلم «بن هور» . .

وكثيراً ما شعرت أن بعض هؤلاء الشبان والشابات كأنهم مجموعة من الصور حطمت براويزها وانطلقت على الأرصفة . . أو كأنهم صور متتابعة فى فيلم بطىء . . وأحيانًا تجد على هذا الفيلم بقعة سوداء تروح وتجيء وتعترض الوجوه والسيقان وتفسد جمال الاستعراض . . أنا هذه البقعة فاعذرونى!

واستديوهات هوليود بعيدة جدًا عن المدينة، هناك فى الصحراء أو حول الجبال . .

ولها أبواب عالية جدًا وأسوار وسلاسل وحراس والدخول فيها صعب، وعلى الأبواب تجد لافتات تقول لك: ممنوع الكلام.. ممنوع التدخين.. قف عندك.. امش على اليمين.. أعطني الكاميرا من فضلك!

وهذا ينطبق أيضًا على الطلبة الذين يدرسون التصوير والإخراج هنا!

ووجوه المشتغلين بالسينما لا تصلح فعلا للشاشة.. وجوههم كشرة صفراء مكرمشة وملابسهم قذرة، وكلهم عصبيون وفيهم جفاف كأنهم جزارون أو سماسرة ومهربون.. وتدهش كيف أن هؤلاء الناس هم الذين يصنعون الجمال والفتنة.. ولكن الأرض السوداء هى التى تخرج لك التفاح والعنب.

رأيت ممثلة كبيرة تقول هذه العبارة ١٨ مرة: ولكن يا أخي أنا لا أعرفك ولم ألتفت إليك إلا بمحض الصدفة فقط.. فأنت شكلك غير ملفت!

هذه العبارة قالتها الممثلة ١٨ مرة وفى كل مرة تنسى كلمة أو حركة، وفى كل مرة يطلب منها المخرج أن تعيدها، أخيرًا صرخ المخرج وهنا امتدت يد مرتجفة فضغطت عليه كأنها تقول له: كويس كده.. كتر خير الدنيا.

وسكت المخرج فقد كانت هذه اليد هى يد المنتج صاحب المال وصاحب هذه الممثلة الكبيرة..

تعريف المنتج: غنى له أصابع شمعية وشعور كتانية وعيون خرزية وأسنان ذهبية وأطراف صناعية.. وعلى حق دائمًا!

واستوديوهات هوليود فيها استعدادات هائلة. وأى استوديو هنا أكبر من استوديو مصر واستوديو الأهرام مئات المرات.

استعدادات ميكانيكية ضخمة، وأموال من غير حساب..

ومئات الألوف من دور السينما تعرض أى فيلم.. وفى داخل الاستوديوهات تجد الناس منفوخين على الفاضى وعلى المليان.. كل موظف يحرك فانوسًا أو يسند برميلا يتصور أنه المخرج فيتظاهر بالتفكير والاهتمام بصورة مسرحية ملفتة جدًا..

أذكر أننى قابلت فى استوديوهات مترو جلدوين ماير رجلا عملاقًا فى يده جوانتيات من الجلد ويرتدى سويتر من الجلد وعلى أنفه منظار غليظ وعلى جبهته خمسة خطوط متقاطعة كأنه نام طول الليل فوق جلد غربال قديم، سألته: استوديو رقم ٢٧ من فضلك؟

فطلب منى أن أعيد له هذا السؤال عدة مرات . . ثم أشار لى أن أتبعه إلى هنا . . وركبنا أحد الأتوبيسات الموجودة فى داخل الاستوديو . . ولم أنطق ولم ينطق ونزلنا وسرنا فى شارع طويل ووقفت أمام الاستوديو وفتح لى الباب ودخلت وبقى هو فى الخارج ، وبعد أن مكثت حوالى ساعتين خرجت لأجد هذا الرجل جالسًا على مقعد ومعه مكنسة . . حضرته كناس!

أما الممثلون ففى الغالب ليس لهم شخصية ؛ لأن الممثل يعتمد اعتمادًا كاملاً على المخرج وعلى المؤلف وعلى الحلاق . . فإذا أردت أن تلتقط له صورة مثلا فهو يقول : كيف؟ هل أضحك؟ هل أبكى؟ هل تريدنى أن أنظر نظرة فيها جنس أو فيها طمع أو فيها إشفاق . . . قل لى وأنا أقف كما تريد . .

وتستطيع أن تحركه كما تريد . . لأن حياته كلها هى فى الطاعة التامة للمخرج . . فكل ما تسمعه من الشاشة وما تراه . . كل ذلك صنعه المؤلف وكاتب السيناريو والمخرج والمنتج ، ولا يبقى بعد ذلك إلا جسم الممثل أو الممثلة . . حتى هذا يمكن تغييره وتبديله كما يريدون هنا . . وظهور ممثل أو ممثلة فى الشارع هنا لا يلتفت إليه أحد . . وقد ينظر إليه أو إليها الناس ثم يقولون : ياه . . بس كده .

ولكن ظهور سعاد حسنى أو نادية لطفى فى شارع سليمان باشا يربك المرور وقد تقع حوادث . . فممثلاتنا لهن بخت!

وفى شوارع هوليود الطويلة جدًا التى يصل بعضها إلى ٥٠ كيلومترًا . . كلها تدل على أن هذه مدينة لصناعة السينما فعلا . فكثير من دور السينما لها أنوار كشافة وأنوار متحركة ليلا ونهارًا . . وعلى مداخل السينما توجد إمضاءات منقوشة على الأرض وهى أسماء النجوم الذين افتتحوا هذه الدور ، وبعض البنوك نقشت أسماء النجوم الذين افتتحوها . .

وأشهرها جميعًا : المسرح الصينى ، فعلى مدخله انطبعت أقدام وأيدى كل النجوم . .

والكباريهات تكتب أسماء النجوم على الجدران من الخارج . وبعض المطاعم تضع مئات الصور للنجوم أيضًا . ومعظم الممثلين لهم شركات ومحلات تجارية ومطاعم وسيارات تاكسى . . فالممثل هنا تاجر أولا وأخيرًا . . له مدير أعمال ومدير دعاية وضابط علاقات عامة ومستشار قانونى ومالى . . وكل شىء يعمله بحساب ؛ بفلوس يعنى!

والممثل ليست له أية حرية فى أن يقول أو يظهر . . وكثيرات من الممثلات يرفضن الكلام فى أى موضوع أو الاشتراك فى أية حفلة إلا بعد استشارة مدير الأعمال .

* * *

وهوليود هذه مدينة كبيرة كأية مدينة أخرى فى أمريكا . .

وإلى جوارها لوس أنجليس الكبيرة جدًا بعماراتها وشوارعها العالية . . وجسورها المركبة بعضها فوق بعض . . وتوجد إلى جوار هوليود بيفرلى هيلز وهى ضاحية تابعة لهوليود ولكنها أكبر منها فى المساحة . . وهى المنطقة الأرستقراطية فى كل ولاية كاليفورنيا . . فكل أصحاب الأموال والأعمال يسكنون فيها . . وفى هوليود أحسن وأكبر مطاعم وصناديق الليل، والأسعار كلها غالية، وغالية جدًا . . الفطور يصل إلى جنيه ونصف جنيه، والغداء إلى ثلاثة جنيهات، والعشاء إلى خمسة جنيهات للشخص الواحد . . طبعا أنا حذفت أجرة التاكسى . . وتوجد مطاعم شرقية يملكها لبنانيون ويملكها سوريون . . ويوجد بعض المصريين، طلبة وعلماء يدرسون . . ويوجد فنانون فى النوادى الليلية . . وكلها أسماء غير معروفة تمامًا فى القاهرة ولكنهم ناجحون هنا وعليهم إقبال كثير .

وعدد العرب الموجودين فى هوليود ولوس أنجليس حوالى سبعين ألفًا . وأشهر الجرسونات والبنات يرتدين الملابس الهندية التى تعرى الخصر كله . . أما صاحب المحل فيرتدى العمامة الهندية . . وهو يتمسك بالعروبة بمعنى خاص غير مألوف عندنا . . وقد احتفل أخيرًا فى هذا الكباريه بعيد ميلاد دولة إسرائيل!

ومحل آخر اسمه الطربوش يملكه لبنانى أيضًا . ويتردد عليه الكثير من العرب ويتحولون بسرعة من متفرجين إلى راقصين ومطربين وتتحول السهرة إلى جلسة عائلية .

* * *

وهنا توجد أنواع غريبة من النوادى الليلية تشبه النوادى الوجودية فى باريس، فى أن كل الذين يترددون عليها من الشبان والشابات . . وهذه النوادى بها أضواء خافتة، والجرسونات بنات بالبلوزة الضيقة جدًا والبنطلونات التى ترتديها الفتيات ويهرشن طول الليل من شدة ضيقها والتصاقها بشعر السيقان . . وفى هذه النوادى يعيش طول الليل الجيل الجديد الذى يسمونه فى أمريكا الجيل الصارخ أو الجيل الصاخب . . وهم فى الواقع

وجوديون ولكن بلا فلسفة ولا ثقافة ولا مشكلة ولا أزمة . . فالجيل الجديد فى أمريكا جيل لا يقرأ. فالتليفزيون قد أرغم الناس على أن يجلسوا إليه طوال الليل يسمعون ويتأثرون ويقرفون فلا يفتحون كتابًا واحدًا . . ومعظم هؤلاء الساخطين شبان دون العشرين . . يشربون الشاى أو السجائر ساعات متوالية ويستمعون إلى موسيقى زنجية عاوية داوية . . وبعد ذلك يخرجون . .

وأشهر هذه النوادى الساخطة مقهى بندورا . . وهو عبارة عن غرفة واحدة جلست فى أحد أركانها فرقة موسيقية زنجية تدق بعنف . . وبعد ذلك يتثاءب أحد العازفين ويقول : الحب . . الحب . . أبيع الحب . .

ويضحك الناس دون أن تكون هناك نكتة . .

وفى شارع كوزموس يوجد ناد آخر . . عبارة عن جراج للسيارات أخفى الظلام معالمه . . وفى هذا الجراج وضعت الدكك والمناضد وأطفئت الأنوار إلا من بعض الشموع . . وبعد ذلك يتقدم أحد الممثلين وفى يده كتاب ويجلس على مقعد ثم يقرأ كلامًا فارغًا والناس يضحكون . . وهذه عينة من الكلام المكتوب الذى يقوله : عندما سقطت فى البحر ابتلعتنى قطة ، وهذه القطة كانت تتوحم على جاموسة ، وكان بينى وبين التمساح علاقة ما ، خصوصًا وأن شعر رأسى يشبه أجنحة الطاووس وبعد ذلك قلت للبقرة : إن حياتك ليس لها نهاية اذهبى إلى إحدى شركات التأمين فهذه الشركة وحدها هى القادرة على أن تصف لك الطريق. الأفلام الجديدة مأخوذة من الكتاب المقدس. العودة إلى موطنك الأصلى فى السماء الرابعة على اليسار!

قطعًا «أبو لمعة» عندنا أحسن . . ومعروف أنه يفشر وفشره يرغمك على الضحك على أبو لمعة أو على نفسك لأنك جلست تستمع إلى كلامه الفارغ .

وبعد ذلك ينهض هذا الممثل ويعرفنا بالجيل الساخط ويتساءل : ما هو الجيل الصارخ؟

ويظل السؤال بلا جواب حتى تنتهى السهرة فى هذا الجراج . .

ومحلات (الشبان الصارخين) هذه أسعارها مرتفعة . . بعضها يتقاضى جنيهًا رسمًا للدخول . ثم يرغمون الزبائن على أن يشربوا شيئًا ما أيضًا .

ويبدو أن الحياة مملة فى أمريكا ولذلك فالأمريكان يحرصون على التغيير ويكرهون الشىء الواحد المتكرر فى حياتهم وفى حياة غيرهم من الناس . . فمثلا أنا أتردد على أحد

المطاعم وأطلب كل يوم فنجانا من الشاى وبعض الخبز الجاف وأنا راض بهذا . . ولكن الجرسونة تتضايق جداً من أننى لا أطلب إلا شيئًا واحداً .

والمحلات العامة تحرص على أن تكون لها شخصية خاصة . . لابد أن تكون مختلفة ، لابد أن يكون فيها شىء جديد ، شىء مختلف عن المحلات الأخرى فى الأثاث أو الطعام أو فى الملابس التى ترتديها الجرسونات البنات . . فتجد محلات على طراز القرن الثامن عشر أو التاسع عشر فى الطعام والملابس والزينة والموسيقى . . فتدخل هذا المحل وكأنك قد عدت إلى الوراء مائة سنة أو مئات السنين . . وأكثر الأطعمة هنا انتشاراً هى الأطعمة الإيطالية خصوصًا البيتسا والمكرونة الإسباجتى . . .

ومن الغريب أن معظم النوادى الليلية هنا تشترط أن يرتدى الزبون الكرافتة . . فى حين أن المطاعم لا تشترط الكرافتة . . يعنى الأماكن التى يذهب إليها الإنسان ليشعر بشىء من الحرية ، أو التى يريد أن يهيص فيها تختنق رقبته بكرافتة . . أما الأماكن التى يضطر فيها الإنسان إلى الجلوس هادئا قليل الحركة فلا مانع من أن يذهب بالقميص والبنطلون الطويل أوالقصير . . أو المايوه إذا أراد .

* * *

والشوارع هنا فى هوليود مشرقة ليلا ونهاراً . . نهاراً لأن الجو هنا معتدل . . لاسحب ولا أمطار ولا برودة حتى فى الشتاء . . وفى الليل منيرة متوهجة ؛ فالبلاد منذ أوائل شهر ديسمبر تستعد لعيد الميلاد . . فأشجار الميلاد على الجانبين . . وصورة بابا نويل – وهنا يسمونه سانتا كلوز – فى كل مكان ، فى كل محل ، وأمام كل سينما . والمحلات كلها مملوءة بالزبائن . . فعيد الميلاد هو عيد الهدايا . . لابد من الهدايا . . وكثير من البيوت تخربها هذه الهدايا مثل كعك العيد وخروف العيد عندنا كثيراً ما يؤدى إلى خراب الجيوب بالإفلاس وخراب البيوت بالطلاق . . . !

وفى الشوارع تماثيل للمسيح والعذراء . . وتماثيل للمسيح وهو راكب حماره . . وتماثيل لنجمة بيت لحم وهى تلمح فى السماء إعلانًا لميلاد المسيح . . وصورة للكهف الذى اختفى فيه المسيح فى مصر ، وهذا الغار معروض بصورة فنية جميلة . . الإبل والنخيل والأحجار والآبار وفيها الحواريون . .

وهناك صور رائعة للعشاء الأخير . . وصورة بارزة لخطبة الجبل أو لموعظة الجبل . .

وصور كبيرة لمريم المجدلية وهى تبكى عند قبر المسيح . . ثم تماثيل كبيرة للمسيح مصلوبًا وحوله اثنان من اللصوص اليهود .

والشركات كلها تعلن فى فتريناتها عن قصة المسيح .

هنا شركة السكك الحديدية ـ والحكومة هنا لا تملك السكك الحديدية أو التليفونات وإنما هى كلها شركات أهلية ـ وضعت فى فتريناتها صوراً رائعة لحياة المسيح منذ ولد حتى صلب وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

وفى مدينة لوس أنجليس يوجد مقهى اسمه كلفتون . إنه رائع والجو داخله يوحى بأنك فى إحدى جزر هاواى . . فأشجار جوز الهند تناثرت فى المقهى . . والمياه نزلت من السقف . . والشمس لها حرارة دافئة . . والجرسونات قد وضعن عقود الورد حول أعناقهن . . فى هذا المقهى الجميل جداً توجد مغارة . . هذه المغارة تنزل إليها بسلم صخرى . . والمغارة مكونة من خمس غرف . . وفى هذه الغرف جلست الراهبات بالملابس التى كان يرتديها اليهود فى أيام المسيح ، وفى هذه المغارة يروين قصة المسيح وعذابه . . وهناك تماثيل ولوحات . . أشهرها تماثيل المسيح عندما ألقى القبض عليه وهرب من حوله الحواريون . . وهناك أشرطة مسجلة وموسيقى تصويرية لآيات من الكتاب المقدس .

كل هذا فى مقهى ومن صنع فرد لا هيئة حكومية أو هيئة دينية . . ومثل هذه الأماكن الأثرية كثيرة جداً فى أمريكا . . فإذا كان الأمريكان يصعب عليهم أن يسافروا إلى القدس وبيت لحم فى الأردن أو الناصرة فى إسرائيل فإن المحلات التجارية هنا تنقل إليهم هذه الأماكن التاريخية . .

هذا الجو الدينى قد أضاف إلى هوليود ولوس أنجليس وبيفرلى هيلز وعيًا جديداً ووقاراً . . أو أعطاها بعض الصدق . . !

وكل الأفلام المعروضة هنا فى هوليود مأخوذة من الكتاب المقدس . . فهنا : الوصايا العشر . . وبن هور . . والصياد الكبير . . وشمشون ودليلة . . وسليمان وملكه سبإ . . وابن الإنسان . . وملك الملوك . . ويوسف وإخوته . . وأعظم قصة رويت للناس .

وفى التليفزيون يظهر بابا نويل يعلن عن الصابون وأمواس الحلاقة والبطاطس والسيارات موديل العام القادم وعن أحسن وسيلة لشراء السيارة من غير قسط أول . . .

نشاط وحياة وبيع وشراء وحظ وهيصة . . بلاد غنية صناعية ناجحة . . وكل ما تريده تجده .

إن أحسن السيارات التى تراها فى شوارع هوليود رخيصة جدًا . . السيارة الكاديلاك المستعملة وفى حالة جيدة جدًا يصل ثمنها إلى سبعين جنيها ومائة جنيه . وأسهل للسائح الأجنبى هنا أن يشترى سيارة من أن يركب التاكسيات أو الأتوبيسات . . وعندما يسافر من هذه البلاد يبيعها بسعر أرخص قليلا .

والسيارة الصغيرة بدأت تملأ الطرقات . . ولكن الأمريكى يفضل السيارة الكبيرة . . السيار المريحة . . التى تتسع لكل أفراد أسرته فى رحلة نهاية الأسبوع التى يقطع فيها مئات الأميال لكى يجلس فى هدوء أو فى مرح لمدة ساعتين أو ثلاث ، وقد حمل معه أدوات الطهى . . ومعظمها فى علب من الورق . . ومعه أيضًا عدد لا يحصى من الحبوب ، هذه للكبد وهذه للأعصاب وهذه للنوم وتلك للبشرة وغيرها للصدر والأنف والشعر ويملأ يديه بحفنة من الأقراص قبل الأكل وبعده ووراءه الراديو يعلن عن ظهور أقراص جديدة لم يسمع بها أحد . . هى سر السعادة فى العالم . . ويطلب إليك أن تنزل وتشتريها الآن . . إنها أعظم هدية لك . انزل الآن ، هكذا يقول الراديو !

وفى الليل يعود الأمريكى إلى البيت ويرى التليفزيون . . التليفزيون كله أفلام ومغامرات وقصص . هذه الأفلام كلها أعدتها واشترتها شركات تجارية . . فمثلا تجد فيلمًا لرعاة الأبقار تقدمه شركة كاوتش جوديير ، ثم تجد فيلمًا قديمًا لروبرت تايلور تقدمه شركة «سليب أيز» للحبوب المنومة . . وتوجد هناك ست محطات تليفزيونية . . وتستطيع أن تنتقل بينها كما تريد !

والصحف تصدر فى نهاية الأسبوع فى ٢٠٠ صفحة وأحيانًا ٢٥٠ صفحة للصحيفة الواحدة . . وكل صحيفة عبارة عن عدد كبير من المجلات . . مجلات للأطفال وللشبان ولست البيت وللمهندس وللطبيب والسينما والتليفزيون ومجلة سياسية وأدبية . . ويباع العدد عادة بحوالى ثمانية قروش . . والصحيفة الواحدة تكفى لجميع أفراد الأسرة . .

وفى أمريكا ينادون أى إنسان باسمه . . ابتداء من رئيس الجمهور حتى الجرسون الذى يقدم لى الشاى هنا . . على فكرة الجرسون عنده سياره وابنه وبناته الأربع وزوجته عندهن جميعًا سيارات . وكل العائلة تعمل جرسونات وعاملات تليفون . . لا تدهش فنحن فى أمريكا ! !

ولا شيء يتعب السائح فى أمريكا إلا الأسعار وإلا المسافات البعيدة جدا . . فالأسعار أغلى من أى مكان فى الدنيا وأنا أقول الدنيا عمداً لأننى رأيت كل القارات : أوربا وآسيا وأستراليا وأمريكا . . ثم إننى من أفريقيا . . والمسافات هنا مخيفة ، فإما أن يركب الإنسان التاكسى وهذا غال جدا أو الأتوبيس وهذا يضيع له وقته أو الطائرة وهى سريعة وغالية أيضًا . .

والأثر الذى تتركه هوليود فى النفس : أنها مدينة كبيرة والناس فيها جامدون أو وجوههم لا ترحب بك . . وهذا صحيح فى أول الأمر . . ولكن يكفى أن تعرف أمريكيا واحدا أو فتاة أمريكية . . وبعد ذلك ستشكو من كثرة الأصدقاء الطيبين الذين يدعونك إلى الحفلات والغداء والعشاء . . وإلى حفلات الرقص وإلى النوادى والجمعيات . . وكل شيء يتم فى بساطة وسهولة من غير أى تكلف . .

* * *

ولكن المجتمع الأمريكى رغم هذه الأنوار والهيصة مجتمع صناعى تجارى . . كل شيء فيه بالورقة والقلم والساعة وكل شيء قابل للبيع فى أمريكا ، كل شيء وأى شيء . . وربما كانت هذه هى أسباب كراهية الأمريكان لليهود مثلا . . واليهود هم المتحكمون فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما ويحكمون أمريكا من مدينة نيويورك حيث البورصة العالمية ، ومن مدينة هوليود حيث السينما .

واليهود تجار مبادئ وأخلاق وأعراض ورقيق أبيض . وفى هوليود جريمة كبرى ، جريمة بيع رقيق أبيض يقوم بها يهودى اسمه ميكى كوهين .

وهناك فى هوليود جمعيات لا يدخلها اليهود . هكذا نص القانون ، والسبب هو أن اليهود يحولون كل شيء إلى بيع وشراء .

إن المسرحية التى كتبها الأديب اليهودى آرثر ميللر باسم «بعد السقوط» وتحدث فيها عن انتحار زوجته مارلين مونرو قد اتهم فيها تجار الرقيق الأبيض . . ولم يشأ أن يذكر أن هذه تجارة يهودية !

وهنا جمعيات غريبة جدا فى هوليود . . فهنا جمعية الإخوة وجمعية الأخوات ولا يدخلها إلا الأرستقراطيون جدا . . فجمعية الإخوة تشترط شروطًا عسيرة فى أى عضو ، فالجمعية تنعقد وتطلب من العضو أن يفعل شيئًا غريبًا ، وإذا فعله قبلوه عضواً واحتفلوا به

احتفالا ضخمًا . . وفى الأسبوع الماضى مات عضو جديد . . والسبب هو أن الجمعية قررت أن يأكل العضو رطلين من الكبد النيئة واضطر العضو الجديد أن يأكل الرطلين وهو قرفان جدا . . ومات وعرضت القضية أمام المحكمة وحكمت المحكمة ببراءة مجلس إدارة الجمعية . . واعتبرت العضو مسئولا . .

وجمعية الأخوات لها شروط قاسية ومن أهم نشاط الجمعية أن يبيت الأعضاء كل أسبوع مرتين أو ثلاثًا فى بيت واحد وقد علمت أن هذه الجمعية لها نشاط شاذ!

ومعنى ذلك أن هوليود فيها الأرستقراطيون جدا وفيها المتحررون من هذه القيود . . فيها الذين يسكنون فى أعالى الجبال ، وفيها الذين يجلسون فى النوادى على الأرض ويأكلون فى أحواض تشبه الزرايب!

ويوجد ناد اسمه «بيت الغاز» إذا رأيته فزعت من شكله من الخارج أو من الداخل فلا توجد به مقاعد ولا مناضد . . وإنما توجد به أحجار وأحواض فارغة ، ويضاء بمصابيح من الغاز ، وعلى الجدران صور للعفاريت والأفاعى . . هذا النادى يجلس فيه الطلبة والفنانون والأدباء ولهم مبادئ ولهم فلسفة . .

هوليود صورة لأمريكا كلها . . وهى حية . . فيها مرح وعمل وشركات تجارية متماسكة وجمعيات علنية وسرية فى غاية الانحلال . . وهذا هو مقياس المجتمع الصحيح . . فالمجتمع الذى لايعرف المرض لا وجود له أو هو مجتمع غير طبيعى .

المجتمع الذى لا يعرف إلا المرض والانحلال ليس مجتمعًا وإنما هو مستشفى أو ملجأ فهو يشبه «بيت الموتى» الصينى الذى يعيش فى العواجيز ينتظرون قدوم الموت وأقاربهم يبكون أمام الباب .

وإذا كانت هناك جرائم فهناك احترام للقانون أيضًا . . يكفى أن ترى نظام المرور ، وكيف أن ألوف السيارات يجب أن تقف لأن أحد المشاة يعبر الطريق بين الخطوط البيضاء ، وكيف أن السيارات تقف عند إشارات المرور وتتجه إلى اليمين وإلى الشمال فى الخطوط المرسومة . . أنا لا أذكر أننى رأيت سيارة اصطدمت بأخرى فى أى شارع وفى أى وقت . . رغم أن عدد السيارات هنا أكثر من ثلاثة ملايين سيارة . . طبعًا فى داخل المدن ، أما فى خارج المدن فلا عدد للحوادث .

فى مدينة السينما والهباب :

أعتذر عن استخدام كلمة «الهباب» . . ولكنى فى الحقيقة لم أجد أية كلمة أخرى تدل على «الهباب» . . والهباب كلمة تنشرها الصحف هنا يوميا وباهتمام شديد . . وفى النشرة الإخبارية فى التليفزيون يرسمون خريطة لدرجة كثافة الهباب اليوم وغداً . . وأول كلمة نسمعها فى الصباح هنا بعد كلمة صباح الخير كلمة الهباب وأنه اليوم قليل لحسن الحظ أو كثير لسوء الحظ .

وإذا مشيت فى شوار هوليود وجدت إنساناً يغمز بعينيه الاثنتين فلا تسىء الظن به . . وإذا وجدت فتاة تقف فى جانب من الشارع وتمسح عينيها الحمراوين وإذا وجدت رجلا يمسك أنفاً كبيراً ثم يدخل به - أقصد هو وأنفه - إلى الأجزاخانة فليس معنى هذا إلا شيئاً واحداً . . «إنه السموج» أى الهباب !

والسموج كلمة أمريكية هى اختصار لكلمتين هما : «اسموك» أى الدخان و«فوج» أى الضباب . .

فهذه المدينة لا يشوه معالمها ، ويدمع عيون بناتها الحلوة ، ويسد أنوف رجالها إلا هذا الضباب . وليس له حتى الآن أى علاج .

ففى مدينة هوليوود حوالى ثلاثة ملايين موتور سيارة وموتوسيكل . . وكلها لا تتوقف ليلا ونهاراً . . ويوجد هنا عشرات المصانع وعشرات من مستودعات البترول . . وهى جميعاً تخرج كميات هائلة من الغاز المحترق . هذا الغاز المحترق يملأ الجو بسحب كأنها مسحوق الشطة أو الكحل أو «ششم الديك» الذى اكتوينا به جميعاً ونحن صغار ـ هذا الكلام فقط لأبناء المنصورة ! - ثم تبقى هذه السحب عالقة فى سماء المدينة إلا إذا هبت بعض النسمات من المحيط الهادى ، وهذا نادر جدا . .

والأغنياء هنا يسكنون التلال العالية . . فوق مستوى الهباب . .

وخارج هذه المدينة توجد إستوديوهات السينما كلها : مترو جولدوين ماير وفوكس ووارنر وبارامونت واستوديوهات ديزنى . . وسبب وجود هذه الإستوديوهات طبعًا ليس وجود الهباب هنا . . وإنما وجود الجبال والغابات والوديان والمحيط والسماء الصافية الدافئة طول السنة .

ولا أعرف إن كان انتشار السل هنا سببه هذا الهباب أو هباب السجائر التى يدخنها الأطفال والعواجيز . . أو سبب انتشاره هو حرص أمريكا على أن يكون لديها كل شىء : الصحة والمرض والمال والجمال ـ نسبة المتعلمين هنا ٨٠٪ وفى اليابان ١٠٠٪ ـ والحرص على القانون فى النصب والاحتيال ، والمشى بين العلامات البيضاء فى الشوارع ، وتجارة الرقيق الأبيض ، وقراءة الكتب الطويلة والعريضة ، والجلوس إلى التليفزيون ساعات طويلة بلا قراءة ولا كتابة ولا كلام !

وقد سألت عن الطرق التى تفكر فيها هيئات هوليود للتخلص من الهباب . . وقد علمت أن هناك طريقة واحدة حتى الآن : وهى أن أصحاب السيارات يجب أن يمشوا بسرعة أكثر . . أقولها مرة أخرى . . أصحاب السيارات هنا يجب أن يدوسوا على البنزين بأقصى ما يستطيعون . . والسبب هو أن السيارات عندما تسرع يخرج منها الدخان «ناضجا» ولكن عندما تمشى على مهلها ، فإن الهباب يخرج نيئًا . . يخرج أسود ثقيلا . .

ولكن هذه الطريقة مع الأسف لا يمكن أن تنجح ، لأن هوليود ما تزال مليئة بالسكان . . والسيارات كثيرة جدا فلابد أن تمشى على مهل فى داخل المدينة ما يزال عدد المهاجرين لها من كل الولايات الأخرى يتزايد يومًا بعد يوم . .

ومعنى ذلك مئات الألوف من السيارات الأخرى المتسكعة !

والعلاج الوحيد هو أن ولاية كاليفورنيا عليها أن تختار بين السيارات وبين الناس . . ويبدو أن الولاية اختارت السيارات . . أما الناس فهم الذين اختاروا هوليود ويفضلون الحياة فيها . . رغم الدموع السوداء !

* * *

أصبحت الآن أعرف كل الجرسونات الذين يعملون فى فندق روزفلت .

وليس هذا بالشىء القليل . . وإذا نزلت فى هذا الفندق . . فالجرسونات طراز غريب

جدا من الناس : واحد منهم من أصل سورى واسمه : حنالطوف وعنده ١٤ ولدًا ، والآخر من البرازيل ، والثالث من الفليبين ، والرابع من إيطاليا ، والخامس من إسرائيل ، والسادس من كندا . . وكلهم طوال عراض . .

وفى أول اليوم دق الباب وفتحته . وكان أمامى رجل أنيق ومددت يدى أسلم عليه . فقد ظننت أنه مدير العلاقات العامة بإحدى شركات السينما . . أو أنه ضابط اتصال إحدى شركات الطيران . . وفوجئت بعد ذلك بأنه يسألنى : مفيش عندك غسيل!

وفى اليوم التالى دخل الغرفة أحد الجرسونات واتجه مباشرة إلى جهاز التليفزيون ولعب فى بعض مفاتيحه وابتسم ولم أفهم فسألته . . فعرفت أن التليفزيون كان مفتوحًا رغم أن الصور لا تبدو على واجهته . وبعد ذلك ألقى محاضرة فى تطور التليفزيون ، وعرفت منه بعد ذلك أنه اشتغل فى إحدى شركات التليفزيون وكان له برنامج وأخرج من جيبه بعض الصور التى نشرت له فى الصحف والمجلات . . وبعض النقاد وصفه بأنه موهوب . ولم أسأل الموهوب عن الأسباب التى ألقت به فى هذا الفندق . . والسبب طبعًا هو أن هذه الصور كلها إعلانات من جيبه هو ، وأنه ليس موهوبًا ولا حاجة!

وأول أمس دخل جرسون طويل جدا وقال بالعربية : السلام عليكم يا أفندم . . كيف حالك اليوم . . إن شاء الله مليح؟!

وعرفت أنه عاش فى البلاد العربية ست سنوات فى الحرب العالمية الأولى وأنه يعرف رجلا فى مصر اسمه : الشيخ عبد الباسط المتولى نور . . وأن الشيخ عبد الباسط هذا كان يعيش بالقرب من حديقة الأزبكية . . وطلب منى أن أبلغه السلام . . وألح فى الطلب . وهو يستبعد أن يكون الشيخ عبد الباسط قد مات لأنه من أسرة كل أفرادها يعيشون حتى المائة وزيادة . وكان الشيخ عبد الباسط فى الحرب العالمية الأولى قد تجاوز العشرين قليلا . . وليس بعيدًا أن يكون حيًا . . فإليه السلام والتحية من جاك أرهرت جرسون رقم ٣٧ فى فندق روزفلت بمدينة هوليود!

وأمس دخل الغرفة جرسون أسمر اللون وأنيق فى ملبسه وفى كلامه وفى حركاته . . يحمل صينية الشاى وكأنه يحمل ميدالية ذهبية يريد أن يعلقها على صدرى فى احتفال كبير بمناسبة أننى ضربت الرقم القياسى فى تناول الشاى من غير سكر منذ ستة شهور . وقد لاحظ الجرسون أننى أعطس فقال : أنت مزكوم . .

فقلت : نعم . .

ـ اخلع حذاءك وجوربك حالا . . . خلينى أشوف عندك إيه . !

قالها بلهجة جادة وظننته يقوم بدور تمثيلى . . فنحن هنا فى مدينة التمثيل والسينما . . ونزعت الحذاء والشراب ومددت ساقى على المقعد الذى سحبه . . وراح يضغط على أصابعى . وقال بعد تفكير : إنك من السهل جدا أن تصاب بزكام أليس كذلك؟!

ـ تمامًا !

ـ وربما تبقى مزكومًا شهورًا؟

ـ تمامًا . . ولو عطست أنت الآن فسوف أصاب برشح بعد ثانية واحد!

ـ هل تعرف السبب؟

ـ أعتقد عندى حساسية شديدة . . أو حساسية أكثر من اللازم . وهذا يتعبنى كثيرا جدا . . يكفى أن أقول لك إننى كنت مزكومًا فى الهند الحارة وفى إندونيسيا الاستوائية وفى الفليبين الحارة وفى اليابان المعتدلة . . مزكوم دائمًا وإذا تغيرت درجة الحرارة حولى تغيرت درجة الحرارة فى داخلى . .

ـ هل أصبعك هذا يوجعك؟!

ـ أيوه يوجعنى . . وهذا الأصبع أيضًا .

ـ السبب هو أنك لا تأكل الفواكه والسبب هو أنك . . (وهمس فى أذنى بكلام طويل أضحكنى) .

وانتهت النكتة عند هذا الحد . .

ولكن الجرسون أخرج بطاقة من جيبه وقدمها لى مع بعض صور جميلة عارية!

وقرأت فيها : الدكتور إيزادور الكافورى طبيب أمراض نفسيه وعقلية ويعالج بلا عقاقير . . شارع . . شقة . . تليفون . . وعرفت فيما بعد أنه ينصحنى بأن أتردد عليه فى اليوم التالى لأشاهد العيادة بنفسى أو ليعرضنى على طبيب آخر . . على طبيب زميل له فى نفس العيادة ـ وعرفت فيما بعد أن هذا الزميل يعمل جزارًا فى حى بيفرلى هيلز، وهو حى الطبقة الأرستقراطية ونجوم السينما هنا . .

وقرأ «الجرسون الدكتور» على وجهى سطوراً ملخبطة للدهشة والسخرية فقال: أنت لا تصدقنى.. اقرأ ما كتبته الصحف عنى!

وأخرج من جيبه مجموعة من الأوراق وكلها إعلانات عنه.. إعلانات بفلوسه هو.. ثم كلمة عابرة عنه، كلمة شكر من مريض يقول فيها: إننى أدين للدكتور أيزادور بسعادتى الزوجية.

وسألت الدكتور عن معنى هذه السعادة الزوجية.. فعرفت أنه أصلح بين هذا الرجل وزوجته وتم الاتفاق على الطلاق.. وكل منهما يعيش فى بيت مستقل مستريح البال!

وقد قابلت أول أمس فى صناديق الليل عدداً من الأطباء والمهندسين وكلهم يحملون ألقاباً علمية.. وعرفت فيما بعد أن أمريكا متسامحة جدا مع أبنائها.. فليس هناك قانون يحمى الدكاترة الحقيقين من حملة الشهادات العلمية من أمثال الدكتور أيزادور.. الذى يهوى خدمة الناس، فى الفنادق.

وقد سألت الدكتور أيزادور: ولماذا لا تهتم بالعيادة وتترك الخدمة هنا؟

فاعتدل فى وقفته ووضع يديه حول وسطه وقال: اسمع يا ولدى.. الحياة علمتنى أن الذى لا يعمل لا يأكل، وأن الذى لايجرى وراء اللقمة تجرى منه اللقمة.. فأنا هنا أدعو لنفسى وأتصيد زبائنى.. فهذه أحسن وأرخص طريقة للدعاية للعيادة التى أديرها..

ثم اعتدل أكثر مقلداً تمثال سعد زغلول وقال: وأهم من هذا كله أننى أدرس الناس!

ورويت هذه المناقشة لأحد مديرى الفندق.. فضحك وقال لى إنه على استعداد لأن يعرفنى برجل آخر يعمل فى المطبخ ويتوهم أنه أول من اخترع صاروخاً للقمر..

وسألته: إن كان هذا الفندق تابعًا لمستشفى الأمراض العقلية؟ فأجاب: بأنه تابع لأحد الملاهى.. المهم أن يضحك الزبون ويتذكر شيئًا يرويه لأصدقائه عندما يعود إلى بلده.. وإذا كان عندك فى القاهرة جرسونات أعجب فابعث بهم إلينا!

* * *

ما يزال فى رأسى شىء أريد أن أقوله عن «الجيل الجديد» فى أمريكا.. الناس الذين سيتصرفون فى مستقبل العالم كله.

أريد أن كلمك عن هؤلاء الساخطين هنا..

لأن كل شىء هنا واسع وطويل وعريض ومنير وواضح، فالموضة هى أن الإنسان يهرب إلى الأماكن الضيقة المظلمة المزدحمة القذرة!

ولأن كل شىء فى الدنيا يخضع لنظام أو لهيئة أو لمؤسسة أو لنقابة، ولأن الفرد لا وجود له إلا باعتباره عضواً فى هيئة، فإن الشبان هناك يهربون من النظام ومن القيود والتقاليد، إلى أماكن لا نظام فيها ولا ترتيب ولا أرقام ولا درجة ولا طوابير . .

ولأن كل عمل يقوم به الشاب، فى هذا المجتمع يقتضى منه الانتباه والوعى وإلا ضاع وراحت عليه كل فرص الحياة، ولأن الحياة تحتاج هنا إلى كفاح شديد، وليست سهلة ولا هينة كما نتصور، ولأن كل شىء هنا فى أمريكا بالفلوس . .

كل شىء . . وفى استطاعتك أن تتخيل أى شىء، أى مبدأ أى دين أى فلسفة أى عمل تجارى أى عمل أخلاقى . . كل شىء فى أمريكا تجارة فى تجارة . . فالجيل الجديد من الشبان يذهب إلى أماكن سرية ويظل جالسًا فى استسلام لا يفكر ولايقول شيئًا، وإنما يركن عقله كأنه سيارة قطعت طريقًا طويلا وموتورها يكاد يحترق . . يركن السيارة ويترك أبوابها ونوافذها وأغطيتها كلها مكشوفة ويجلس فى استسلام وسلبية تامة . . كأنه رحالة ضل الطريق فى الصحراء وفى انتظار من ينقذه . .

ولأن الصحف والإذاعة والتليفزيون والسينما تضغط على عقل الأمريكى الشاب . . لأنها كلها مؤسسات تجارية تريد الربح، ولأن هذه المؤسسات تخدم أناسًا لهم مصالح فى الحروب وفى تجارة السلاح، ولأن بعض هؤلاء الناس يغامرون بسلامة أمريكا من أجل مصالحهم الخاصة، ولأن هؤلاء الساسة قد ورطوا أمريكا والشعب الأمريكى فى مواقف ضد مصالحه، فهؤلاء الشبان يهربون من الكلام فى السياسة والاستماع إلى الساسة وإلى الإعلانات وإلى القصص والأفلام التى تقدمها شركات البطاطس وشركات البيض وأمواس الحلاقة . . يهرب من هذا ويجلس فى صمت دون تفكير ودون قراءة ودون كتابة . .

ويستسلم إلى الجلوس فى الظل، إلى الجلوس على الرف.

لقد رأيت عددًا من الشبان كالورد بلا شوك . . كالورد فى اللون والنضارة والذكاء . . كل هؤلاء جالسون يستمعون إلى موسيقى عاوية نادبة من أصابع الزنوج . .

وهولاء الشبان يشربون الشاى أو القهوة ويدخنون ولا يقولون شيئًا . .

وحاولت أن أسأل واحداً منهم إن كانوا يترددون هنا كل يوم. . وهز رأسه يقول نعم. . وسألته إن كانوا يفضلون الجلوس هكذا فى صمت. . وعلمت منه ومن غيره أن هذا هو المكان الوحيد الذى لايقول فيه إنسان أى شىء. . فالكلام فى أمريكا كثير ومكتوب بالنور وبالحبر وبالخشب، ومكتوب بهذه الأجسام الشابة المستسلمة. .

وكل يوم أقرأ فى الصحف عن ارتفاع نسبة الجرائم بين الشبان. . فى المدن الأمريكية الكبرى. . جرائم السطو والاعتداء. . وكل يوم نسمع علماء النفس وعلماء التربية يصرخون بأعلى أصواتهم أن الجيل الجديد فى خطر وأنه لابد من تغيير أساليب التدريس؟!

تدريس إيه؟! وإنما هى الحياة المنزلية المعدومة. . الحياة الاجتماعية المفككة. المجتمع الصناعى التجارى الساحق الذى أصبح يعبد كل ما هو «هيئة». . وكل ما هو «منظمة». . وكل ما هو «مؤسسة» ويعبد «النقابة» ويعبد الوقوف بين العلامات البيضاء على الأرض وعلى السقف وفى البيت وفى المكتب وفى المصنع وفى المعبد. .

والناس فى أمريكا يعبدون النظام لا للفائدة التى يحققها النظام، ولكن لمجرد طاعة النظام. . طاعة الهيئة. . والمؤسسة. . ولأن حياة الفرد فى المجتمع الصناعى لا معنى لها وحدها وإنما معناها بالجملة مع الآخرين. .

وثورة الشبان هى ثورة على قيود هذه الهيئات. . وتكون النتيجة دائمًا أن يموت الفرد والفردية وتبقى الهيئة.

والمجرم الشاب الذى يقتل. . إنه فى الواقع أخطأ الطريق إلى جريمته. . فإنه بدلا من أن يقتل كل المجتمع قتل الحروف الأولى منه. . قتل أحد أفراده. .

والإحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشبان فى أمريكا. . ضائعون تائهون لا يرتبطون بأى شىء. . إنهم يريدون أن يعيشوا فى سلام مع أنفسهم ومع غيرهم. . ولكن أعصاب الناس فى أمريكا منهارة. . فالتليفزيون والسينما تحطمها نهائيًا لتظهر أدوية وعقاقير وحبوب وسوائل وفيتامينات تصلح هذا الجسم المتعب والعقل المجهد. .

ويظل الشاب الأمريكى حائراً بين السينما والمصنع والأجزاخانة حتى يموت وهو يعمل. . وفى النهاية تقبض زوجته بوليصة التأمين على حياته وتنفقها على أولادها أو على زوجها الجديد. .

إننى أعذر الشبان ولا أرى غرابة فى الاتجاهات الصارخة فى الأدب الأمريكى الشاب

بزعامة چاك كيرواك، وهو الذى أطلق على هذا الجيل الجديد اسم «الجيل الصارخ» أو «الجيل الصاخب» . . وهو جيل عنده شعور بالفشل وخيبة الأمل والضياع . . وهو جيل أعجز من أن يقوم بأى إصلاح . . إنه جيل قد أسند ظهره للحائط الذى يملكه التجار والسماسرة فى أمريكا . . إنه جيل ساخط اليوم وحاقد غداً . . وصوته أضعف من أن يسمعه أحد . . ولذلك فكل أفراد هذا الجيل يتجمعون فى الظلام ويضغط بعضهم على بعض، ويحطم بعضهم البعض دون أن تتناثر شظاياهم إلى عيون الآخرين من الراضين اليوم والساخطين غداً!

إن هؤلاء «الهيبيز» ليسوا إلا شباناً احتجوا على المجتمع الأمريكى . . وانسحبوا منه إلى حياة بدائية . . وانسحبوا مرة أخرى بعدم المشاركة فيه . . وانسحبوا مرة ثالثة بتدخين الحشيش . .

إنهم «اعتذروا» عن أن يكونوا مواطنين . . ورفضوا أن يكونوا سفاحين فى ڤيتنام . . وارتدوا إلى ماضى الإنسانية كلها . . أيام كان الإنسان فى حاله . . وحاله هو السلام مع نفسه ومع غيره من الشبان!

هارب من الأحذاخانة!

اقترحت على أحد أعضاء نقابة العمال هنا عملا جديداً . . عملا ليس معروفًا فى أمريكا ولا فى أى بلد فى العالم . . وهذا العمل من اختراعى ومن ملاحظاتى ومن تجاربى . . وسألته إن كان من حقى أن أسجل هذا الاختراع فقال جادا جدا ممكن ومن حقك .

أما العمل فهو أن يقوم أحد الناس أو أكثر من واحد بارتداء الأحذية الأمريكية الجديدة ويمشى بها فى كل شوارع المدينة والقرى ويركب الأوتوبيسات بقصد «توسيعها» . . فقد لاحظت أن كل الأحذية الأمريكية هنا ضيقة جدا . وليس سبب ذلك أن قدمى كبيرة بل هناك أمريكان كثيرون أقدامهم أطول من قدم آدم عليه السلام ـ قدم آدم مرسومة فوق جبل فى جزيرة سيلان وهى فى طول الباخرة تيتانك ـ ولكن الأحذية الأمريكية نجدها ضيقة دائمًا . . من الخلف أو من البوز أو من الجوانب . . قد تكون طويلة جدًا ولكن لا بد أن تكون ضيقة فى مكان ما ، ومعنى ذلك أنها مسألة لا علاج لها . . إذن فالحل الوحيد أن يجىء بعض الانتحاريين ويرتدون هذه الأحذية أسبوعًا أو أسبوعين حتى تتسع ثم تعرض للبيع ـ الإنجليز يفعلون نفس الحكاية فى ملابسهم . . فى إنجلترا لا تجد أحدًا ابتداء من رئيس الوزراء حتى الكناس يرتدى ملابس جديدة . . والسبب هو أنه يبدو أن الإنجليز يفصلون ملابسهم ثم يبعثون بها إلى المستعمرات ليلبسها آخرون بقصد التجربة والتوسيع ثم يردونها إلى إنجلترا!

وعرفت فيما بعد أن الأمريكان ليس لديهم أحد متخصص فى توسيع الأحذية ولكنهم يقومون بهذا العمل من تلقاء أنفسهم اقتصاداً للأرجل العاملة . . فالأمريكى يشترى الحذاء الضيق . . لابد أن يكون ضيقًا ويرتدى بعد ذلك حذاءه القديم بعد أن تسلخت قدماه من الحذاء الجديد . . وبعد أن يتم شفاء قدميه يرتدى الحذاء الجديد الذى يكون قد ضاق مرة

أخرى . . فيعود يوسعه مرة أخرى وتنسلخ قدماه من جديد . . وهكذا . . وربما كان هذا هو السبب فى وجود كثير من الأمريكان يعرجون فى أيام السبت والأحد من كل أسبوع . . !

وقد ذهبت إلى أحد محال الأحذية . . المحل عبارة عن مطعم ومعه مقهى ثم جناح لبيع الأدوية . . وجناح آخر لبيع السجائر وبطاقات عيد الميلاد . . وجناح آخر خاص للّعب والعرائس . . وفى جانب كبير منه يوجد جناح بيع الأحذية . . جناح الأحذية نظيف وأنيق . . الصناديق كثيرة . . والأحذية معروفة كأنها مجموعة من الكتب . . وكل حذاء تحته ورقة ورسم وكلام كثير وأرقام ورسوم بيانية ومطرقة كهربائية تضرب حذاء كهربائيًا .

وتقدم منى البائع وسألنى إن كان فى استطاعته أن يخدمنى . . فقلت له :

ـ أنا أبحث عن حذاء لا يوجع قدمى .

فضحك . . ولكنى لم أضحك . . وطلب منى أن أنزع الحذاء . . وراح يقلب فى حذائى . . وعرف أنه من اليابان ونزع جوربى وراح يقلبه أيضًا . ثم أتى بفرخ نشاف ووضع قدمى فوقه وضغط على أصابع قدمى ثم وضع بعض المسحوق الأسود على آثار قدمى على النشاف . . ورأيت أصابعى سوداء على الورق . وأمسك مسطرة وقلمًا وراح يقيس الطول والعرض . . ثم عاد فقاس التجويف الموجود فى باطن القدم ثم قاس دوران الكعب . . وبعد ذلك أتى بفرخ من النشاف اللين جدا . . إنه يشبه اللباد . . وطلب منى أن أقف فوق اللباد وبعد لحظات كانت قدمى مطبوعة غائرة فى اللباد . . وقاس قدمى الأخرى . . وجلس أمامى وكأنه عالم فى طبقات الأرض أو أحد علماء الفلك . . وضع منظاره على أنفه وقال لى : هل تعلم أنه لا توجد قدمان متساويتان . . لا توجد قدمان فى أى إنسان متساويتان لا فى الطول ولا فى العرض ، حتى ضغط الإنسان على القدمين ليس واحدًا . . وقد مضى ذلك الوقت الذى يرتدى فيه الإنسان أحذية جاهزة . . إننا لا نرتدى منظارًا طبيًا جاهزًا فكل عين لها مقياس ولها قدرة على الإبصار . . وإذا كان هناك علم للكف فمن المؤكد أن القدم لها علم وعلم يعتمد على أسس صحيحة .

وبعد ذلك أعطانى درسًا آخر عن أنواع الجلد . . ودرسًا آخر عن جزمة العمر كله . . ثم بعد ذلك عن أحسن أنواع الجوارب ، ثم أحسن أنواع البودرة التى توضع بين الأصابع ، ثم عن حمام القدم ، ثم عن أحسن الأوضاع للقدم عند النوم .

وبعد ذلك مد يده إلى فاتورة وبدأ يكتب . . ولمحت فى السطر الأول ٢٠ دولاراً ثم ١٠ دولارات ثم الضريبة . وبعد ذلك ١٠٪ للمحل .

مصيبة سوداء!

إننى لم أر فى حياتى أجزخانة للأحذية . . فهذه أول أجزخانة رأيتها فى حياتى . . وهذه أول روشتة يكتبها جزمجى لا طبيب .

هذا الطبيب مجنون . . إنه لو وضع فرخًا من النشاف تحت جيبى ؛ فإن جيبى لن يترك أى أثر!

وقلت لصديق كان معى : يجب أن نتظاهر بأى شىء . . نتخلص من هذه الكارثة بسرعة . . فمن الممكن أن تستريح قدمى بعد هذا الحذاء ، ولكن سيطير عقلى حتما . وتظاهرنا بأن زميلا ثالثًا يقف أمام الباب . ولابد من استدعائه . . وعندما وصلنا إلى الباب الخارجى قال لنا : مع السلامة!

لقد قالها بالعربية!

وقررت عندما أعود إلى مصر أن أقترح اسمًا جديداً للأجزاخانة الخاصة بالأحذية هذا الاسم هو : الأحذاخانة!

* * *

لا أعرف من الذى يستمع إلى الراديو أو التليفزيون فى أمريكا . . لقد سألت الكثيرين هنا فقالوا : الأطفال والشبان يستمعون إلى الراديو ويجلسون إلى التليفزيون!

ومعنى ذلك أن نصف الشعب الأمريكى يستمع إلى الراديو ويرى التليفزيون ولكن المشكلة هى : كيف يستمعون إلى الراديو وكيف يتحملون التليفزيون؟

إننى أجلس إلى التليفزيون ساعات ودهشتى وانزعاجى لا ينتهيان . . إن الأمريكى لا يدفع ضريبة للراديو ، تمامًا مثلنا فى مصر . . ولكنه فى الواقع يدفع ما هو أكثر من ذلك علاجًا لأعصابه وعلاجًا لأطفاله .

فالراديو فى أمريكا والتليفزيون مأساة . .

كل شىء بصوت عال وكل شىء هنا صارخ . . فألوان الفساتين وقمصان الرجال ،

والحلو والمر معًا كالصلصة . . وكل شيء هنا إعلانات . . كل شيء . . حتى بدأت أشك في الأحاديث الدينية التي تذاع في الراديو .

والذي أدهشني أن أي برنامج يجب قطعه بعد بدايته بلحظات ليذاع إعلان عن دواء لقتل الصرصار أو شيكولاتة جديدة . . حتى الأفلام العادية لا يكاد الفيلم يبدأ حتى يظهر أحد الممثلين في هذا الفيلم وفي يده شيء يعلن عنه . . لقد رأيت ديبوراكير في أحد الأفلام العاطفية المؤلمة جدا . . واقتطع الفيلم عند موقف مثير وظهرت ثلاجة جديدة وأمامها ديبورا كير وتبتسم للمتفرجين وتهتف بحياة الثلاجة الجديدة ، وبعد ذلك رأيت الدموع في عينيها . . !

وسمعت ورأيت أمس إحدى المحاكمات المسلسلة . . المحاكمة طريفة ممتعة فعلا . . موضوعها سرقة سلم من فوق أحد البيوت . . دارت المحاكمة والمرافعة . . ورفعت الجلسة ليشرب القاضي زجاجة الكوكاكولا . . هكذا قال المذيع وابتسم القاضي لذلك . .

وفي أحد البرامج ظهرت الممثلة المجرية زازا جابور . . في بساطتها وأسلوبها الذي يشبه أسلوب الأطفال ؛ هاجمت الإعلانات في الإذاعة الأمريكية . . ولكن المذيع نظر إليها نظرة رآها الجمهور كله وقال لها : هذا الإعلان هو الذي اشترينا به هذه الملابس وهذه السجائر الفاخرة وهذه الأحذية الجيدة وانظري إلى هؤلاء العارضات الجميلات ؛ أن ملابسهن من محل كذا وكذا . . إلخ .

إن أحدًا هنا لايستطيع أن يعترض على هذه البرامج فليس له أي حق . . فهو لايدفع لها مليما واحدًا . . وعلى الرغم من أن الإذاعات المختلفة تتنافس على المستمع بالأخبار والأفلام والفكاهات والمسابقات والأموال . . فإن الإذاعة الأمريكية مزعجة .

وهي كالقضاء والقدر تصيب الناس في بيوتهم وفي سياراتهم وفي أي مكان . . ولا يستطيع أحد أن يهرب منها . والراديو موجود في كل مكان . . تجده في المطعم وفي البار وتجده عالي الصوت كالمقاهي البلدية . . ولانجد أحدًا يستمع إليه ولكن أحدًا لايريد أن يسده . . والبارات بها سينما . . بها أفلام وبعض هذه الأفلام عن مصارعة الثيران وعن رعاة البقر . . كل هذه البارات حيث الضوء خافت والمقاعد ضيقة ومريحة لاثنين . .

ويبدو أن الأمريكي لم يعد يحب العزلة . . إنه يحب الهيصة . . يحب أن يكون مع الناس . . أن يكون معهم في المطعم وفي الشارع وفي النادي . . ويكفي أن يجلس إلى الراديو دون أن يسمعه .

وكل شيء عند الأمريكى هو هيصة . . المشى متعة، وركوب السيارة متعة، والجلوس فى البيت متعة، والأكل مع الأصدقاء متعة . . وكل شيء يعمله بحرارة وبحماسة وبلذة . . يحدث كثيراً أن تسأل أحد الأمريكان عن كيف أمضى نهاية الأسبوع . . فترى السعادة على وجهه وتتوقع أن يكون قد سوى الهوايل فى هذا اليوم . . ولكنه يقول : ذهبت لزيارة والدتى . . إنها تبعد عن هنا حوالى مائتى كيلو . . !

وإذا قال لك رجل أمريكى إنه أمس هيص فلا تذهب بعيداً فقد يكون من هواة سماع الإعلانات فى الراديو!

* * *

أذكر أننى رأيت فى مدينة هونولولو شوارع كاملة مضاءة على الجانبين وبها ألوف السيارات وفى أعلى السيارات توجد عبارة : سيارات مستعملة .

ولما اقتربت منها وجدت أن السيارات كلها موديل العام الماضى، والقليل جدا موديل العام الأسبق!

ولم أحاول أن أجد تفسيراً لذلك إلا أن أمريكا هى التى اخترعت السيارة وفيها شركات لصناعة السيارات وبيعها بالأقساط . . شراء السيارات القديمة وتقسيط السيارات الجديدة . . وأن شراء سيارة هنا كشراء حذاء لا يكلف الكثير .

ولكنى رأيت فى لوس انجليس، وفى هوليود، وسان فرانسيسكو، وكثير من المدن الأمريكية الأخرى ما هو أعجب من هذا كله . . وجدت شوارع وميادين كلها تبيع السيارات المستعملة . . وتعلن عن هذه السيارات فى الإذاعة والتليفزيون . . ورأيت هذه المعارض قائمة ليلا ونهاراً والسماسرة يتنافسون فى إرضاء الزبون . . فالسمسار لديه استعداد لأن يغير لون السيارة ولون مقاعدها ويبعث بها إلى أى مكان فى العالم وبالتقسيط أيضًا . . ويعطيك عناوين بعض العملاء لشراء قطع الغيار . . ويبدى استعداده لتبديلها مرة أخرى إذا ظهر الموديل الجديد .

ولاحظت أن السيارات المستعملة هذه جديدة جدا ونظيفة جدا وكأنها لم تتحرك من مكانها . . وسألت بعض الأمريكان عن الحكمة فى تغيير سيارتهم بهذه السهولة؟

فهناك رأى يقول : إن الأمريكى بطبعه يحب التغيير . . فالأمريكان مدينون لهذا التغيير بكل حياتهم . . فقد كانوا فى أوربا وجاءوا إلى هنا . . وغيروا وجه الأرض وحولوا

الغابات إلى مزارع، والمزارع إلى مصانع، والمصانع إلى حدائق وحمامات سباحة ومسابقات للجمال.

وآخرون قالوا: إن الرجل الأمريكى تاجر وهو يحب الظهور.. فهذا الظهور يؤثر على الزبون.. على المستهلك.. فيقنعه بأنه غنى وأنه ناجح وأن بضاعته هى أحسن بضاعة وأنها هى التى عادت عليه بهذا الثراء وهذه السيارة الفخمة...!

وقليلون من رأيهم أن المصانع الأمريكية هى التى شجعت المستهلك على تغيير سيارته وإلا أقفلت هذه المصانع أبوابها إذا اعتمدت فقط على المستهلك الأجنبى.. وعلى تمسك الأمريكى بسيارته القديمة.. والرجل الأمريكى لا يحب القديم ولا ينظر إلى الماضى نظرة إنجليزية فرنسية خيالية حالمة.. فلا يوجد أمريكى يقول لك إن هذه السيارة عزيزة عليه.. فقد قابل فيها فلانة لأول مرة.. وذهب بها لأول صفقة كبيرة..!

ولكنه يقول لك دائمًا: اللى معرفوش أحسن من اللى أعرفه.. الجديد أحسن من القديم، والمستقبل أحسن من الماضى.

وهناك من يرى أن الطرق فى أمريكا طويلة جدا وأنها تغرى صاحب السيارة بأن ينطلق بسرعة مخيفة.. ومن النادر أن تجد سيارة فى هذه الطرق الطويلة تمشى بسرعة أقل من ١٢٠ كيلو.. ولذلك فهذه السيارات تتحطم موتوراتها بسرعة.. أما جسم السيارة فيبقى سليما.. والسيارة هى الموتور.. وتغيير الموتور يساوى الفرق بين سيارة جديدة وسيارة قديمة..

وجحا كان يقول: اللى عنده حنه يحنى ديل حماره..!

والأمريكان عندهم أكثر من الحنة وليس غريبًا أن يغيروا ديل الحمار والحمار أيضًا..!

عندما تكون زوجتك أمريكية

إذا كانت المرأة الشرقية تمشى وراء زوجها ووجهها إلى الأرض . .

وإذا كانت المرأة الأوربية تمشى إلى جوار زوجها وتنظر إلى رجل ثان وتفكر فى رجل ثالث هربًا من رجل رابع وأملا فى رجل خامس . .

فإن المرأة الأمريكية تمشى أمام زوجها وأحيانًا تخرج أصبعها من جيبها الأيسر فتقول لزوجها إنها ستتجه إلى الشمال ، أو تعوج جزمتها اليمنى لتقول لزوجها إنها ستتجه إلى اليمين . وأحيانًا تتدلى من يدها سلسلة يتعلق بها كلب نظيف من كثرة قبلات الزوج المطيع ، وأحيانًا يتعلق الزوج من هذه السلسلة فى يوم الراحة الأسبوعية للكلب . !

. . . والكلاب فى أمريكا مستريحة جدا جدا . .

لقد زرت عددًا كبيرًا من بيوت الأمريكان . وكتبت ملاحظاتى . . ولكن البيوت التى أدهشتنى فعلا هى بيوت الشرقيين الذين تزوجوا من نساء أمريكيات . .

زرت أكثر من تسعة بيوت لأصدقاء من القاهرة وزوجاتهم أمريكيات ، لم أذهب على سبيل الشماته بهم . . فلا شماتة فى الموت ، وإنما ذهبت لأرى كيف يلتقى الشرق القديم جدا بالغرب الحديث جدا . . أو المحدث جدا . .

وسأضرب لك عدة أمثلة رأيتها وسمعتها وكنت أحد المشتركين فيها . .

مثلا : لا يصح للزوج أن يدعو إلى البيت أى عدد من الناس . فمن رأى الزوجة أنه يجب أن يدعو أربعة أو خمسة مثلا ، لأنها لا تستطيع أن تطبخ لهذا العدد ، وليس لديها عدد من الأطباق أو الملاعق يكفى لهذا العدد . ولا يصح للزوج أن يسمح لضيوفه أن يحضروا إلا فى الوقت المحدد وبالضبط ، وقد رأيت زوجة تترك البيت فى هدوء تام لأن الضيوف تأخروا عن الموعد نصف ساعة !

وبعد الفراغ من الطعام يجب على الزوج أن يقوم بعملية - أقصد عمليات - الغسل والكنس وتجفيف الأطباق والملاعق ووضعها فى المكان المناسب .

ولا بد أن يكون التعليق على الأكل ممتازًا .

يجب أن يقول الضيوف إن الطعام رائع مهما كان طعمه أو كانت رائحته أو كانت الزوجة غشيمة .

وقد لاحظت أن الأزواج يطلبون من الضيوف أن يقولوا عبارات معينة لأن هذه العبارات بالذات تسعد الزوجة !

وإذا حدث أن دعا الزوج إلى البيت سكرتيرته فى العمل أو زميلة له . . فأهلا وسهلا . ويجب ألا يندهش الزوج الشرقى إذا عاد إلى البيت ووجد رجلا غريبًا يتمشى فى البيت وفى فمه سيجار ضخم وأمامه كأس من الويسكى وبعض الفول السودانى وفى هذه الحالة يجب أن يقدم الزوج نفسه هكذا : أنا فلان ويقول الرجل الغريب : أهلا وسهلا وأنا فلان . كيف حالك؟

وفى هذه الحالة تصرخ الزوجة من الداخل : هذا رئيسى فى العمل . . يا حبيبى تحب تشرب إيه؟

طبعًا الزوج الشرقى يحب أن يشرب كوبًا من الماء أويحب أن يضع قطعة من القطن المبلل بالنوشادر فى أنفه قبل أن يغمى عليه !

نسيت أن أقول إن الزوج عندما أحضر سكرتيرته إلى البيت . . كانت مفاجأة للزوجة ؛ فهو لم يخبرها قبل ذلك بأيام أنه سيدعو سكرتيرته إلى البيت . لعله نسى ، لعله مشغول . ولكن هذا لا يكفى لإقناع الزوجة . فالزوج يجب ألا ينسى ويجب ألا يكون مشغولا ؛ لأن الأجهزة الأوتوماتيكية فى أمريكا تفكر وتكتب ولا تنسى فكيف ينسى الإنسان مخترع هذه الأجهزة؟ !

وقد حدث أكثر من مرة أن خرج الزوج الشرقى من البيت احتجاجًا على تصرف زوجته . . ولم تجد الزوجة حلا لهذا الإحراج الشديد أمام رئيسها إلا أنها اعتذرت لهذا الرئيس عن حماقة الزوج وعن غيرته العمياء ، ثم تركت البيت هى والرئيس وذهبت إلى أى مطعم أو ناد ليلى وسهرت هناك تحاول الاعتذار للرئيس بكل الوسائل . وعندما عادت الزوجة إلى البيت وجدت الزوج سكران على الآخر ؛ فنظرت إليه من فوق إلى تحت ثم

قالت له: برضه كده ترمى السجائر على الأرض. . مين اللى حيكنسها. . الخدامة إجازتها بكره. !

ثم ذهبت إلى غرفتها لتنام ومدت يدها إلى الراديو لتستمع إلى الموسيقى وفى يدها كتاب ظهر حديثا عنوانه «كيف تجدين رجلا أحسن فى ٢٤ ساعة؟».

وقصص كثيرة غريبة. . ولكن المرأة الأمريكية تتصرف كأنها تثأر لبنات أوربا وأفريقيا وآسيا وأستراليا. إنها تشخط فى الرجل فيتحول إلى شىء صغير. والفزورة القديمة التى تقول: إيه اللى أد الفيل وينصر فى منديل؟ والجواب التقليدى هو: الناموسية. ولكن الجواب الجديد هو: الرجل الأمريكى!

والقانون يعطى المرأة الأمريكية نصف ما يملكه الرجل عند الزواج. . فوثيقة الزواج هى وثيقة تمليك لكل ما فى البيت من أثاث وثلاجات وراديوهات، حتى السكينة التى فى يدك عندما تحاول ذبح زوجتك الأمريكية فنصف هذه السكينة من حقها. .

وأغرب حادث رأيته وسمعته وناقشته هو أن هناك زوجة أمريكية ستلد بعد أيام وزوجها صديق من القاهرة. . هذه الزوجة ستلد على الطريقة الجديدة - أى من غير تخدير، من غير بنج - ولابد أن تتردد مرتين فى الأسبوع على الطبيب ليعرف حالتها النفسية وليشرح لها ماذا سيحدث قبل وبعد وفى أثناء الولادة. . . وليس فى هذا كله أية مشكلة. فالزوجة مقتنعة بأن هذه العملية مريحة وسهلة جدًا. . وقد تمت ألوف الولادات بهذه الطريقة دون أية حوادث.

والمشكلة الآن هى: من الذى سيجلس إلى جوار الزوجة فى أثناء الولادة؟ من الذى يسلى الزوجة حتى لا تشعر بكل ما يحدث لها وفيها وحولها؟ من الذى يشجعها؟ إن عملية الولادة تستغرق ثلاث ساعات طويلة مملة الأصوات والوجوه والروائح فمن الذى سيقوم لها بتغير هذا الجو؟

والجواب: الزوج وحده هو الذى يجب أن يقوم بهذه المهمة. والمناقشة دارت هكذا أمامى:

الزوجة (وضعت ساقًا على ساق ونظرت لنا جميعًا باحتقار شديد وعيناها تتهمنا على الأقل بالأنانية): تفتكر أننى يجب أن أكون وحدى؟ وأين أنت؟ إن هذا الطفل قد خلقناه معًا. . هل تتصور أن مهمة الزوج هى مجرد عملية الإنجاب. . وأى مجهود فى هذه العملية؟ وأى بطولة؟ . . عمل الرجل فى خلق طفل ليس فيه بطولة. .

الزوج (فى يأس وتطلع إلى وجوهنا لكى نساعده لأنها قضيتنا جميعًا) : ولكن لا أعرف هذه الأشياء . . إننى لم أحضر ولادة فى حياتى . . الموقف محرج جدا . .

الزوجة : وأنا لم ألد قبل ذلك . . وموقفى مؤلم . . ومحرج لى أيضًا . . إذا حضر جميع الأزواج وتخلفت أنت! ثم هناك شيء آخر . . هو أنه يجب أن تقابل الطبيب . . إنه يريد أن يجلس معك . . يريد أن يتأكد من أعصابك . . هل هى قوية تتحمل مثل هذه العملية أو لا تتحملها . . وهل أنت فى حاجة إلى فيتامينات مقوية . .

الزوج : مش فاهم . . ماذا أعمل . . ؟ ماذا أقول لك . . ؟ أقول لك بعض النكت . . ليس لدى نكت تكفى لثلاث ساعات ولا أضمن إن كانت نكت مصر تضحك بنات أمريكا ! !

الزوجة : هناك كتاب صدر أخيرًا عن النكت . . تستطيع أن تقرأ هذا مقدمًا أو حتى تقرأ لى الكتاب فى أثناء الولادة . . وإذا لم يعجبك هذا كله فعندى اقتراح . .

الزوج (فى خوف شديد) : أنا فى عرضك بلاش اقتراحاتك الرهيبة ، أى شيء إلا اقتراحك .

الزوجة : انتظر شوية ـ عندى فكرة . . وهى أن أستاجر رجلا يقرأ لى الكتاب فى أثناء الولادة وهذا الرجل سأسأله فى أثناء الولادة أن يعطينى معلومات أولا بأول عن الأعضاء التى ظهرت من المولود إن كان ولدًا أو بنتًا . . إلخ . وأن يكون له منظار غليظ كمنظارى ليرى كل شيء بوضوح . . كأنه فى بلاد المشرق حيث السماء الصافية دائمًا . .

الزوج يقول : كان يومًا أسود يوم تزوجت حضرتك !

طبعًا الزوجة لم تفهم هذه العبارة التى قالها بالعربية . . ولكن الموقف كما هو . . ولابد أن يذهب الزوج . فهل تذهب أنت أيها القارئ إذا كانت هذه زوجتك الشرقية ؟ !

فيأيها القارئ الشرقى أنت فى نعمة . . لأنك تذهب إلى السينما أو إلى الكباريه عندما تكون السيدة حرمك فى حالة وضع !

أما الأزواج العرب الهاربون من زوجاتهم الأمريكيات فلهم ناد خاص . لم يكن خاصًا بهم . . ولكنهم جعلوه خاصًا !

الدخول للأعضاء فقط . وكل عضو معه مفتاح الباب الخارجى . . ومجرد أن يضع

المفتاح فى الباب ويدخل معناه أنه عضو . . ولو سقط هذا المفتاح من أى عضو وعثر عليه إنسان آخر فهو عضو . . عقابًا للأعضاء الذين لا يحرصون على هذه المفاتيح!

دخلت فى هذه النوادى فى واشنطون.

الباب وراءه باب وباب . . الأضواء خافتة والأرض مغطاة بالأبسطة القطيفة والسلم إلى أعلى كذلك . . والفتاة التى تأخذ منك البالطو ترتدى المايوه . . والمايوه قطعتان . . قطعة ارتفاعها أربعة قراريط عند الجانبين، ولكنها من الأمام والخلف عبارة عن قيراطين بارزين، طبيعى أو صناعى . . والصدر فى الغالب منفوخ والنفخة إلهية . .

وبابتسامة حلوة مغرية تمد الفتاة ذراعها الأبيض العريان الناعم أيضًا وتأخذ البالطو . .

ولا تفهم لماذا هى تتعمد أن تدخل ذراعها فى كم البالطو . . تمامًا كما فعلت ريتاهيوارث فى فيلم جيلدا وهى تنزع الجوانتى، أو كما تفعل إحدى راقصات الكباريه عندما تختارك لتنزع من يديها هى الجوانتى الضيق جدا كجلد الثعبان . .

وبنفس الرشاقة والإثارة تضع يدها فى أحد جيوب البالطو . . وتتلفت إليك . . ثم حزام البالطو بين أصابعها . . وعيناها . . وعيناها أعوذ بالله . . !

وتصعد إلى السلم، وتفاجأ بأن كل الجرسونات بالمايوه . . وكل مايوه لون . . وهناك مباراة بين الجرسونات على أعصابك . . وكل واحدة تحاول أن تستخدم أقل مساحة ممكنة من القماش وأكبر عدد ممكن من الألوان . . وتفتح فمها ضاحكة إلى أقصى ما تستطيع . . وعندما تجلس أنت على المقعد غير المريح، لا لأنه من قطيفة غليظة وإنما لأنك غير متعود على ذلك . . وأمامك كل الجرسونات يرحن ويجئن بالجنب وبالظهر وبالوجه وبالذراع وبالبطن وبالصدر . . وتحس أنك فى حمام سباحة أو فى حديقة أسماك غريبة . . وأن بينك وبين هذه الأسماك ألواحًا من الزجاج الشفاف الرقيق جدا . . وإذا ابتلعت ريقك وأحسست أنه ينحاش فى زورك، وارتفع ضغط الدم عندك، وزادت دقات قلبك وجعلتك تقوم وتقعد وتحس بضيق شديد فى ملابسك . . فلا تخف فهذا لا يدل على مرض الكبد أو الأمعاء الغليظة أو ضغط الدم، وإنما هى حالات ضرورية بالنسبة لكل زبون . . وهى تحيات مستمرة لذوق النادى فى اختيار الجرسونات من طراز قاذفات اللهب والعرق والأرق!

وإذا مالت عليك الجرسونة العارية ولفحك عطرها الخفيف وسألتك ماذا تأكل وهى تعرف ماذا تريد بالضبط، وأنت لست أول واحد طبعًا فقل: بعض اللحم المشوى!

ولا تقل هذا بنغمة خاصة فهى تعلم مقدمًا أنك لا تعنى ما تقول وإنما تعنى أنك تريد بعض اللحم الذى يشوى ويلسع ويحرق ويوجع .

وهناك على جانب من النادى توجد منضدة وعلى هذه المنضدة كل أنواع الساندويتشات وهى أحيانًا مجانًا . . وتستطيع أن تأكل منها ما تريد . . والذوق يقضى بأن تدفع مبلغًا رمزيًا هو ما يساوى قرشين . . إنها مسألة ذوق ، وليست مسألة إجبارية ، وهذه هى تعاليم النادى . . وهى صريحة ومكتوبة وراءك وأمامك .

وفى أول لحظة ستعجبك هذه الفكرة . . ولكن حاول أن تجربها . . ثم تنفذها بعد ذلك !

أمام الساندويتشات أجمل جرسونة ، وقد غطت جسمها كله بشبكة سوداء . . وعلى هذه الشبكة السوداء توجد بعض بقع سوداء من القماش فى أماكن مختلفة وطبعًا أنت تعرف أين؟ . . ستقف أمامها وتنظر إلى وجهها وتقول : ساندويتش جبنة . .

وتمد ذراعيها الناعمتين الممتلئتين وتعطيك الساندويتش وتنظر إلى عنقها وإلى صدرها وإلى وسطها وإلى . . . وإلى . . وتطلب بعض اللحوم وبعض الطماطم وبعض التفاح أو لا يعجبك التفاح فتعطيك الموز . . وبعد ذلك يطلب منك النادى أن تدفع قرشين . . طبعًا مش معقول . . فتدفع خمسين قرشًا أو جنيهًا . . ولا تحاول أن تعطيها بطاقة عليها اسمك ورقم تليفونك ؛ فالنادى يشكو من ضيق المكان ، وهناك غرفة مخصصة للبطاقات التى تعطى للجرسونات الفاتنات !

يعنى بالاختصار يحسن أن تدفع الحساب وتقوم . .

وهناك تحت . . تنتظرك فتاة أجمل ستقدم لك البالطو . وغرفة البالطوات كبيرة . . وعندما تراك فإنها تشعل الأضواء التى يستخدمونها عادة فى غرف العمليات . . والفتاة تتعمد أن تضع البالطو فى آخر الغرفة . . وعليك أن تراها فى الذهاب والإياب . . وعلى هذه الغرفة مكتوب : لا تدفع أى بقشيش !

وأنت لا تستطيع أن تطيع أوامر النادى فلا تعطها قرشًا واحدًا ، فإذا استطعت فأنت ثانى إنسان فعل ذلك . أما الأول فهو أنا ، إننى لم أعطها قرشًا واحدًا ، وإنما أعطيتها ألف قرش !

هذا النادى يناسب جدًا كل رجل عربى هارب من طغيان الزوجة الأمريكية . . وطريقة الهرب هى المفتاح . .

* * *

الفندق الذى نزلت به فى واشنطن اسمه فندق «فيرفاكس» . . لم أختر هذا الفندق ولم أنزل به من قبل . . ولكن اختارته زوجة أحد الأصدقاء . . لماذا؟ لا أعرف . . ربما كان السبب هو أنه قريب من السفارة أو كان أرخص ، أو لسبب آخر لم أعرفه إلا فيما بعد!

وكانت غرفتى فى الفندق كبيرة ومزودة بسراير مريحة وفيها تدفئة . . ورائحة جهاز التدفئة تشبه رائحة الأفران الريفية التى يضعون فيها روث البهائم الجاف ، مع خليط التبن ، وربما كانت هناك بعض الأعشاب التى يستخدمونها فى الريف لقتل الناموس . .

ويبدو أن أمريكا قد أضافت إليها مواد أخرى تستخدم فى قتل الأجانب . . فقد نهضت من فراشى أكثر من مرة دفاعًا عن نفسى ، . . لاحظت أن هناك أصابع غليظة تلتف حول عنقى تريد أن تقتلنى . . واكتشف بعد ذلك أنها أصابعى ، وإننى أحاول أن أساعد الهواء على الدخول والخروج . . ثم اكتشفت أن التدفئة الخانقة هى السبب!

وفى الصباح المبكر ينفتح باب الغرفة وتدخل سيدة ضخمة جدا وسوداء جدا وفى صوت ضفدعى تقول : إنت لسه نايم . .

والحقيقة أننى أكون فعلا «لسه نايم» . . لسه أحاول أن أنام . . فهى بالضبط ضبطتنى فى لحظة انتصارى على الأرق . وتهز رأسها أسفًا على مصيرها الأكثر سوادًا منها الذى جعلها تعمل منذ ساعات بينما آخرون ينامون حتى التاسعة صباحًا!

وفى يوم قررت أن أنام بعد أن تقوم هى بتنظيف الغرفة وإعدادها . . وبذلك أضمن ألا تدخل فى أى وقت وتزعجنى وتخيفنى بهذا الشكل المؤلم . . وانفتح الباب وكل مرة ينفتح الباب على خادمة زنجية ـ فالزنوج هم نصف سكان واشنطن عاصمة أمريكا . . وقلت للخادم : أمامك الغرفة رتبيها كما تريدين . . ولم أقدر خطورة هذه العبارة . والذى حدث هى أنها نظفت الحمام ، ثم راحت تنزع أغطية السرير والمفارش وتمسح الزجاج والأكواب . . ونبهتنى إلى أن اليوم هو يوم الغسيل وإذا كانت عندى ملابس فيجب أن أقدمها حالا وإلا فسأبقى بلا ملابس نظيفة كل أيام عيد الميلاد ورأس السنة . . والعمل إيه؟

ودخلت إلى الحمام وبدأت أنزع ملابسى، . . وفجأة انفتح باب الحمام ودخلت الخادمة ونظرت لى فوجدتنى عاريًا «ملط» وانكسفت جدا، ولكنها لم تخجل كأننى ماسورة مياه أو لوح خشب . . وفوجئت بأنها أمسكت ليفة وصابونة ومدت يدها إلى صدرى وراحت تمسح بعض الحبر .

وسألتنى : وما الذى أتى بالحبر هنا؟

فقلت لها : إنها أفكارى!

ولم تضحك . . وابتلعت أنا ضحكتى!

قلت : انتظرى حتى أرتدى ملابسى وبعد ذلك أكلمك عن الحبر .

وعادت تسأل : هل تضع القلم فى عبك؟

قلت : أحيانًا أتركه فوق صدرى هو وورقة أو كتاب وأنام .

قالت : أنت تعمل بوهيجى فى بلدكم؟

وقلت لها إننى تعلمت من الهند بعض الألعاب السحرية . . وفى استطاعتى أن أحول القلم إلى ثعبان يقرصك . .

وصرخت وهربت . . فهى من قبيلة تقدس الثعابين!

ومنذ ذلك اليوم بدأت أنام وباب غرفتى مفتوح، وفى أذنى قطن واللحاف فوق رأسى . . وأتجاهل أصوات المقشات والبخاخات والزنجيات وأقسمت ألا أنام بعد ذلك فى أية لوكاندة يديرها وينظفها ويخيف الناس فيها، هذا العدد الكبير من الهجانة!

. . وألا أستمع إلى نصيحة زوجة أمريكية تريد أن تنتقم من كل أصدقاء وأبناء وطن زوجها!

حياتهم أغرب من السينما

قبل أن أرى أمريكا كنت أتصور وأنا جالس فى السينما أن كل هذا الذى أراه ليس إلا تمثيلا فى تمثيل. . السيارات الكبيرة الكثيرة السريعة، واللبان الذى يمضغة نصف الممثلين ومعظم المتفرجين، والتليفونات التى تدير قرصها عشر مرات وتطلب أسوان وأنت فى القاهرة أو تطلب الخرطوم وأنت فى روما؛ فتجىء بعد لحظة أو لحظتين. . وكنت أتصور أن الأمريكان عندما يرتدون القمصان المبقعة بالأحمر والأزرق والبنطلونات التى تشبه جوارب السيدات لأنها ملتصقة جدًا، كل ذلك كنت أتصوره «شغل سينما».

ولكن الحقيقة أن الأفلام أقل بزمان جدًا من الواقع. . بل إننى أؤكد أن الأفلام لا تصور الواقع الأمريكى تصويرًا دقيقًا. والمخرج الأمريكى يحاول دائمًا أن يقلل من هذه المناظر؛ لأن المتفرج الأمريكى يعرفها جيدًا ويمارسها كل يوم. . تمامًا كما يفعل المخرج فى القاهرة عندما يحذف من الفيلم صور الصلاة والتردد على المسجد، لأن هذه الأعمال يؤديها معظم الناس كل يوم. . وليس فيها جديد. فإذا رأى هذه الأفلام العربية أحد أبناء إندونيسيا واستنتج من هذا أن العرب لا يترددون على المساجد. فقد ظلم العرب. والحقيقة أن المخرج العربى قد استبعد هذه المناظر المألوفة.

وهذا بالضبط ما فعله المخرج الأمريكى. .

وحكاية التليفون الذى تدير قرصه عشر مرات. . ليس أكذوبة سينمائية. فأنت تستطيع أن تطلب أى أمريكى فى أمريكا من نفس التليفون الذى أمامك. ففى استطاعتك أن تطلب بغداد من أسيوط فى ثانية. لقد جربت هذا عدة مرات فقد كنت أطلب سفارتنا فى واشنطن من هوليوود فلا تكاد تمضى لحظة حتى يكون أحد موظفى السفارة على الخط وبصوت واضح جدًا. . وبعض المكالمات هنا شخصية: فتطلب صديقًا مثلا ولا تجده فى

البيت، فتحولك عاملة التليفون على مكتبه فلا تجده، فتحولك على المعمل أو النادى فلا تجده. . وبعد ذلك لا تدفع مليما واحدًا، لأن هذه المكالمة كلها شخصية . . أى من شخص إلى شخص!

وحكاية اللبان الأمريكى . . هذا اللبان من غير سكر، وهو مفيد للأسنان فعلا . . وقد قرأت بحثًا طبيًا عن بعض اللبان . . وأنا تعودت مضغ اللبان . . ولكن سأعدل عن المضغ قبل عودتى إلى القاهرة، فليس شيئًا لطيفًا عندنا.

ولاحظت أن اللبان يجعل الإنسان أقل توترًا . . ولا يجعله عصبيًا . . وقد رأيت فى التليفزيون هنا أحد علماء النفس يتحدث إلى أحد مرضاه . . وقد بدا المريض عصبيًا . . فطلب منه الطبيب أن يأخذ قطعة من اللبان . . فأخذها بعد تردد وارتاحت أعصاب المريض بعض الشىء وأشهد أن هذا لم يكن إعلانًا عن أى نوع من أنواع اللبان.

والتليفزيون هو الآخر يصور الواقع . . وإن كنت قد رأيت فيه أخيرًا شيئًا يضايقنى جدًا . إنه شىء واقعى ولكن الإنسان لا يحب أن يراه . . لقد رأيت أحد رعاة البقرة يضرب والده . . يضربه ويوقعه على الأرض ويحاول قتله . . يحاول قتل والده!!

منظر بشع وأعتقد أن الأفلام البريطانية تحذف هذا النوع من العنف بالنسبة للأب والأم وتمنع ضرب الزوج لزوجته أو العكس . .

وقد سألت أحد الأمريكان إن كان هذا المنظر لا يؤذيه، فأجاب أنه موجود فى الواقع؛ فلماذا لا يظهر على الشاشة؟

إلى هذه الدرجة من «فوق» الواقعية فى التليفزيون، وهذه الدرجة من «تحت» الواقعية فى السينما، يذهب الشعب الأمريكى فى تسلية نفسه وغيره من الناس . .

وهذا ليس كلام سينما، وإنما هو الواقع فعلا!

وهنا فى المكتبات مئات الكتب تروى لك كيف نجح ملايين الأغنياء . وهذه الكتب ليست ممتعة وليس فيها فن ولا عبقرية . ومعظم الأغنياء ليسوا فلاسفة ولا أدباء ولا يعرفون فن الكلام أو التعبير؛ ولكن شيئًا واحدًا تستطيع أن تجده عندهم جميعًا: إنهم عملوا وصبروا ونجحوا . .

وكما نجحوا فى الكويس نجحوا فى الشر أيضًا: عصابات وحروب!

إنه عالم أزرار.. أزرار

الحقيقة أن أمريكا بهرتنى، رغم أننى رأيت أوربا عدة مرات وعشت فى آسيا وأستراليا أكثر من خمسة شهور. . بهرتنى فعلا . . الناس وحياتهم ونظرتهم للدنيا!

كل شىء واسع فى أمريكا إلا البنطلونات. . كل شىء موجود فى أمريكا: الطعام والأمن والعلاج والتجارة وفرص النجاح فى الحياة وحب السلام. . كل شىء إلا: الذوق!

فليس عند الأمريكان أى ذوق فى الأكل أو فى اللبس أو تأثيث البيت. . وفى الأكل ذوقهم عجيب جدًا. . كل شىء جائز عندهم. . فهم يبدءون الطعام بالبارد جدًا وينتهى طعامهم بالبارد جدًا. . فى الصباح يشربون العصير المثلج واللبن المثلج. وفى الغداء يسألونك إن كنت تريد شوربة باردة أو ساخنة. . ثم يقدمون لك القهوة أو الشاى مع الأكل. . وكل شىء «منقوع ومزروع» فى السكر أو فى العسل أو فى المربة الحامضة الحراقة أيضًا. . فالصلصة عليها سكر واللحم عليه سكر حتى الخيار مخلل فى السكر أو مسكر فى الخل، وتستطيع أن تلخبط أى أكل. وقد يتفرج عليك بعض الأمريكان وأنت تضع العدس على اللبن وتضيف إليه بعض الخيار. . وإذا نظر إليك الأمريكان ووجدوك جادًا جدًا فى هذه اللخبطة، فمن المؤكد أن موقفهم منك سيكون كما يأتى: إذا كان المتفرج فتاة فإنها ستطلب توقيعك وعنوانك ومن أى بلد أنت، وعن أثر هذه الخلطة فى الصحة، وهل هى السبب فى أن لك أظافر لامعة وشعرًا أكرت؟ أما إذا كان المتفرج رجلا فإنه يطلب إليك تسجيل هذا الاختراع العجيب على أن يكون مديرًا للدعاية وأن نصيبه خمسين فى المائة من صافى الإيراد. .

وأؤكد لك أن هذا يحدث وينجح فى أمريكا. . فكل شىء ممكن هنا. . !

أما ملابس الأمريكان فهى مضحكة جداً . . كل شىء ممكن ارتداؤه فى أى وقت . . الألوان الفاقعة جداً ممكنة . . كل أذواق الأمريكان هنا تؤكد لك أنهم ليسوا من أوربا وإنما هم من الهنود الحمر . أما بياض الوجه وزرقة العينين وصفرة الشعر فكلها مسائل سطحية جداً . . والمرأة الأمريكية لاتعرف كيف تلبس وتجعلك تدهش كيف أن مثل هؤلاء الفتيات الجميلات السليمات الجسم الكاملات الصحة لهن هذا الذوق المريض . . فمن الممكن أن تجد المرأة الأمريكية العجوز فى ملابس الفتيات الصغيرات ، والفتيات الصغيرات فى ملابس العجائز . . ولكن إذا عرفت أن الأمريكان يعيشون بلا كلفة فالابن ينادى والده باسمه العادى والبنت تعامل أمها كأنها أخت كبرى أو كأنها صديقة . . وإذا عرفت أن أى أمريكى يقابلك فإنه بعد خمس دقائق يكون قد روى لك تاريخ حياته ولماذا هو هنا وما الذى يسعده وما الذى يشقيه . . وبعد ذلك يسأل عن اسمك ثم يحدثك عن بلدك . . وأنت لم تتكلم كلمة واحدة ويصبح هذا الأمريكى كأنه يعرفك منذ سنوات . . إذا عرفت ذلك أدركت أنه من الممكن أن البنت الصغيرة تدخل فى ملابس جدتها والجدة تدخل فى ملابس حفيدتها وتخرج الاثنتان إلى الشارع ولا يدهش الناس . . . فالحال من بعضه !

وحكاية الأزرار التى نراها فى الأفلام الأمريكية يظهر أنها صحيحة هنا جداً . . فقبل رؤية أمريكا كنت أميل إلى الذين يقولون إنها تخريف . . . فالمخرج يضع البالونات فوق رءوس المتفرجين فتطير بهم إلى أعلى ولم يكن المتفرجون يشدون شعرهم ولكن البالونات تتولى عنهم ذلك وتطير بهم إلى عوالم غريبة . . عوالم كل شىء فيها يتم بسهولة . . هناك زر تضغط عليه فتطير البنت التى تحبها وتدخل فى حضنك وهى تلهث ولسانها مطبوع عليه كلمة : أحبك . . وزرار آخر تضغط عليه فإذا بك تضغط على «زمارة» رقبة حماتك فتموت فى لحظة . . وزرار للكذب وآخر للصدق . . وزرار يفتح لك كنوز سليمان . . وزرار للنوم وزرار للأرق . . .

وكان كثيرون يقولون إن المخرج ليس حالماً ولا مستخفاً بعقول المتفرجين ، وإنما هو يلعب دوراً سياسياً خطيرا . . فليست هذه الأزرار إلا حبوباً مخدرة لكى تشغل الناس عن حاضرهم ، تشغلهم عن مشاكلهم السياسية والاجتماعية ، وتجعلهم ينامون ويمدون أرجلهم وأيديهم للغد الذى يبشر به الأمريكان . . فالأمريكى رجل يحاول أن يذر الرماد السحرى فى عيون القراء وأن ينقلهم على بساط سليمان إلى دنيا من ذهب وفضة وحرير ونعيم ليس له أول ولا آخر . .

ليست هذه الأزرار كلها أوهاماً فى أمريكا . . فإذا جلست فى غرفتك فى الفندق فكل

شيء حولك يتحول بزرار صغير جداً . . هذا الزرار يطفئ النور ويفتح جهاز التليفزيون ويفتح الراديو على المحطة رقم ٣ أو رقم واحد . . وفى الأسانسير هناك صوت يقول لك : صباح الخير . . وقبل أن تصل إلى الدور الذى تريده يقترح عليك طبق اليوم والمكان الذى تجلس فيه وأحيانًا يروى أهم الأحداث التى وقعت فى نفس اليوم . . وباب الفندق ينفتح بمجرد وقوفك إلى جواره ، وإذا أشرت إليه أن يقف فإنه يقف . . وفى الأتوبيس توجد ماكينة حاسبة تضع فيها ثمن التذكرة بعملات مختلفة وهذه الماكينة تفرز العملات وتضع كل عملة فى المكان المخصص لها . . وفى المطعم وفى الشوارع آلات لبيع السجائر ، السجائر العلب والسجائر الفرط . . اضغط على زرار صغير ، إن هذا الجهاز يرد لك العملة إذا أخطأت فى الحساب أو إذا تعمدت الخطأ ويرد لك بقية الحساب إذا وضعت فيه أكثر مما يجب . . وعلى المائدة فى المطعم تجد ماكينة صغيرة تقول لك عن بختك هذا اليوم . . ولكن قبل أن تضغط عليه تضع القرش . .

وفى دورات المياه توجد آلات أخرى فيها كل ما تحتاج إليه . . ففيها مشط وفرشاة وقطعة قماش لمسح الحذاء ، وفيها فرشاة أسنان وفيها لبان وفيها إسبرين وفيها صابون . . اضغط على الزرار وضع القرش . . والمطعم الكبير جداً تجد فيه عدداً قليلا جداً من الجرسونات إنهم ينقلون إليك ما صنعته الأزرار . . فكل شيء تصنعه الآلات تصنعه الأزرار ، والأغانى لها أزرار ، والموسيقى لها أزرار ، والروائح لها أزرار . . الأزرار تفتح لك الأبواب والنوافذ ، وتنقل سريرك من جانب الحائط إلى جانب السرير الآخر وترفع لك المخدة وتنزلها . . لقد دخلت أحد المطاعم هنا ولم أجد فيه جرسونًا واحداً ولكنى وجدت الكثير من الزبائن يأكلون ويخرجون . . ضع العملة واضغط على الزرار ينزل لك الطبق الذى تريده ومعه ملعقة وشوكة وسكين وورقة وفاتورة بالحساب وكلمة شكر . . كل واشرب واضحك واخرج . . هذا المحل يعمل ٢٤ ساعة ولم يختف طبق واحد ولا شوكة ولا سكين ، يظهر أن هناك زراراً آخر فى قلب كل زبون . . إنه ضميره !

ولكن أمريكا ينقصها زرار واحد مهم جداً .

وقبل أن تعرف هذا الزرار أرجوك أن تستمر فى القراءة .

قبل أن تدخل أى مطعم وتشير إلى الجرسونة أرجوك أن تقرأ السطور التالية :

ويكفى أن تنطق الحروف الأولى من أى طعام تريده حتى تجد الجرسونة قد كتبته ، وبعد لحظات ، تعود إليك بشيء آخر غير الذى طلبته . . وهى تحضره فى «حماشة» وفى جفاف

جاويش فى الجيش وكأنك عسكرى «دفعة» . . وتدهش لهذه الخشونة فتحاول أن تعترض فإذا هى تخرج ورقة أخرى وتكتب لك ما تريد وحالا تحضر لك شيئًا آخر وإذا أبديت أية دهشة لغرابة الطعام كانت دهشتها هى أكثر منك فالأمريكان يدهشون من الناس الذين لا يعجبهم الأكل الأمريكى كأن أمريكا هذه هى الدنيا .

هل عرفت الزرار الذى لم تخترعه أمريكا . . !

إنه زرار الأنوثة . . وأنا لا أريد أن أظلم الأمريكان فقد دللتنا جرسونات اليابان وهونج كونج وسنغافورة . . حتى تعودنا على الركوع والسجود فشعرنا أننا من نسل الآلهة . . وربما كان هذا هو السبب .

وهناك سبب آخر . . هو أننى لم أر من أمريكا إلا القليل جدًا . . رأيت جزر هاواى ولوس أنجليس وهوليوود وإستوديوهات مترو وبارامونت وفوكس ووارنر ووالت ديزنى وسان فرانسيسكو . . ومارلين مونرو!

* * *

اليوم هو يوم الشكر فى أمريكا كلها .

إنه اليوم الذى تجلس فيه الأسرة كلها : الأب والأم والأولاد والأحفاد ويشكرون الله على ما أعطاهم من صحة ومال ومن ديوك رومى . . !

وكان الفيلسوف اليونانى أفلاطون يشكر الله على أنه خلقه إنسانًا ولم يخلقه حيوانًا ، وعلى أنه جعله رجلا ولم يجعله امرأة وعلى أنه جعله يونانيًا ولم يجعله همجيًا . . وأفلاطون كان يعتقد أن كل الناس عندا اليونانيين همجيون!

والأمريكان يشكرون الله فى هذا اليوم على ما أعطاهم من كل شىء وخصوصًا على أنه جعلهم من أبناء أمريكا . . وهم يحتفلون بهذا اليوم منذ مئات السنين أى منذ هاجروا من أوربا إلى أمريكا ووصلوا إلى الأرض الجديدة بسلام .

وقد استقر المهاجرون فى أمريكا . . ولكنهم الآن يشكرون الله على المال والصحة والأولاد والجنسية الأمريكية وعلى أموالهم التى تزيد . . وعلى الطمأنينة التى يعيشون فيها ، والتى يحرصون على أن تبقى كذلك دائمًا . . ولذلك فالأمريكان يخافون من الشيوعية خوفًا جنونيًا . يخافون من الحرب . . يخافون على المدن الجميلة أن تنهار ، على

الأرض الواسعة أن تتحول إلى معسكرات للسخرة. يخافون على السيارة الأنيقة التى خلقتها المنافسات الحرة، يخافون على أجهزة التكييف وعلى الغسالات الكهربية، وعلى التليفزيون، وعلى أولادهم على حرياتهم وعلى نشاطهم المستمر.

هذا هو الجنون الأمريكى.. الذى على أصله!

الأمريكان يجب عليهم أن يشكروا الله.. فقد أعطاهم باليدين وجعل السماء تمطر لهم الذهب والفضة.. ولكن الأمريكان كانوا يمدون أيديهم إلى السماء يلتقطون الذهب والفضة.. إنهم لم يضعوا أيديهم فى جيوبهم ثم ينتظروا الذهب أن يتحول من تلقاء نفسه إلى عملة وإلى مصانع وإلى حدائق.. إنهم عملوا الكثير ولا يكفون عن العمل.. وكل إنسان يعمل يلقى جزاءه المادى.. أى عمل له ثمن والسلعة المنتشرة والغالية الثمن هنا هى: العمل!

فالخادم مرتبه ١٠٠ جنيه فى الشهر ويصل إلى ٣٠٠ جنيه، والعامل فى مصنع الصلب مثلا يصل مرتبه إلى ٥٠٠ جنيه و٧٠٠ جنيه.

فالله يستحق الشكر من كل أمريكى..

فى هذا اليوم تلتف كل أسرة أمريكية حول الديك الرومى وتشكر الله بصورة عملية.. فالدعاء فى أفواههم واللحم فى أيديهم!

أما الشوارع ففيها مهرجانات.. فالمدينة تزدان بالأشجار المضيئة على جانبى كل شارع.. فشارعنا ـ هوليوود بوليفار ـ طويل جدًا، عريض جدًا، مضىء منذ ثلاثة أيام ليلا ونهارًا.. ويبدأ المهرجان بمجموعات من الفتيات الحلوات جدًا بالشورت الأبيض والقمصان الضيقة القصيرة، وفى يد كل فتاة منديل أو علم، وعلى رأسها قبعة تختلف باختلاف كل مجموعة، ووراء كل مجموعة فرقة موسيقية تعزف ألحانًا جميلة.. وبعد كل مجموعة توجد سيارات مكشوفة يركبها ناس.. شبان وشيوخ، ملكات جمال وملكات وحاشية، والتصفيق لهم جميعًا والصراخ من الأطفال.. هؤلاء جميعًا نجوم التليفزيون، والغريب أن الأطفال يعرفونهم جميعًا ويستمعون لهم ولقصصهم. وبعض النجوم يرتدى الملابس التى يظهر بها فى التليفزيون كملابس رعاة البقرة أو البهلوان.. والأغرب من هذا كله أن الأطفال الواقفين إلى جوارى كانوا يقولون: إن فلانًا هذا أقصر مما كنت أتصور أو هذه زوجته الثانية.. وهذا ابنه الذى كان مريضًا!

وبعض السيارات كانت تعرض مناظر من الأفلام المعروضة هنا فى هوليوود وبعض السيارات كانت تعرض مناظر من القصة المسلسلة فى إحدى محطات التليفزيون.

ويستغرق المهرجان الغنائى الراقص الضاحك المثير مدة ساعتين وتبقى المدن الأمريكية كلها حية ساهرة حتى الصباح، وتبقى الشوارع مملوءة بالأوراق والقراطيس حتى اليوم الثالث.. فالناس فى إجازة!

فاشكروا الله أيها الأمريكان، واعملوا على أن يسود السلام فى العالم كله، لينعم بالديوك الرومى التى تلتهمونها اليوم وغداً!

ليلة من نار؟!

لم يعد «هز البطن» من الفنون الشرقية . .

فكل راقصة تستطيع أن تهز بطنها على أنغام الموسيقى أو بلا موسيقى .

وإذا كانت الراقصة الشرقية قد اختشت وغطت بطنها أو وضعت غلالة شفافة على بطنها ، فالمهم ألا ترى بشرتها . . وفى كثير من الأحيان تشكر الذى اتخذ هذا القرار بتغطية بطن الراقصات ، فإن الراقصة الأوروبية أو الأمريكية فى استطاعتها أن تتعرى تمامًا وتنتهزها الكباريهات فرصة للتنافس على اختصار الأماكن المغطاة من جسم المرأة . والإعلانات عن هذه الكباريهات تقول : إن شجرة التوت قد أصبحت موضة قديمة . .

ومعنى ذلك أن الراقصة التى تهز بطنها أمامك لا تستخدم ورقة التوت . . وإنما تتغطى بشىء أقل من ورقة التوت . . ورقة البوستة مثلا . . .

فورقة التوت هى أضيق مساحة يلتقى فيها الدين والفن معًا!

ففى مدينة بالتيمور وهى تبعد عن واشنطن العاصمة الأمريكية بحوالى ٨٠ كيلو توجد بها كباريهات كثيرة جدا . . تحت الأرض ، وعلى وجه الأرض ، وفى الأدوار العليا من بيوت قديمة ، وفوق الأسطح . . وأحيانًا فى البلكونات . . فمن الممكن جدا أن نجد كباريهًا فى بلكونة ، ويجلس الناس ويقفون فى زحام شديد . . لا هم جلوس ولا هم وقوف . . ولا هم فى طريقهم إلى الخروج أو فى طريقهم إلى الدخول . . وأنا مثل لقمة انحشرت فى الزور . . وفى هذا الزحام الشديد تظهر الأجسام العارية والتى تزداد عريًا . . «وعلى فكرة لا يعرفون العطور الجيدة فى أمريكا»!

أذكر أننى وقفت عند إحدى المكتبات . . ليس فى المكتبة أحد . . الكتب كثيرة ولكنها

من أنواع غريبة . . وأسماء المؤلفين لم أسمع بهم . . طبعًا لا أستطيع أن أقول : إننى أعرف أسماء المؤلفين فى كل الدنيا . ولكن من المؤكد أنى أعرف أسماء أشهر الأدباء فى الدنيا . . أو على الأقل أشهر الأدباء الأمريكان . . أو كل الأدباء الأمريكان الذين فازوا بجائزة نوبل فى الأدب . . لم أجد اسمًا واحدًا أعرفه . . ومددت يدى إلى الكتب أقلبها ، ومن بعيد كانت عين ضيقة ترمقنى ، وبادلتها النظرات وانزلقت النظرات من العين الضيقة فوق الأنف الطويل ، وهرشت فى أنفى كأننى أؤكد له أن أنفى أيضًا طويل .

والمجلات التى أمامى كلها جنسية عارية . . أو عارية بلا جنس . . فقط عارية فى كل الأوضاع . . عارية تمامًا فيما عدا ورقة التوت . . فهذه الورقة ليست فى مكانها . . مجلة وراء مجلة . .

واقترب منى الرجل ذو الأنف الطويل والعيون السوداء الضيقة ذات الأهداب الحمراء ، وسألنى عما أريد . فقلت لا أعرف بالضبط ، ولكن أقلب فى الكتب لعلى أجد شيئًا جديدًا . وأعاد الرجل نفس السؤال : أى أنواع المجلات العارية أو الصور العارية تريد؟ فقلت له : ليس من الضرورى أن تكون عارية المهم أى شىء جديد .

ونظر الرجل إلىّ نظرة لها معنى وسألنى ، وكأننى فهمت ما يريد أن يقول فقلت له : نعم .

وقال : طبعًا أنت من إسرائيل؟

قلت : نعم .

وسألنى : وكيف الحياة هناك؟

فقلت : له : زفت . . إياك أن تذهب!

وهز رأسه وهو أكثر اقتناعًا منى : أعرف ذلك . .

ومع يأسى من أن أجد كتابًا جديدًا ، هز الرجل رأسه مودعًا . وجلس وتركنى أخرج . . ودخلت مكتبة أخرى . . نفس الكتب . . نفس المجلات . . نفس الوجوه . . ومكتبة ثالثة ورابعة . . كلها صور عارية وكتب عارية ومذكرات فتيات عاريات . . وشىء جديد جدا وهو عناوين وأرقام تليفونات لفتيات حقيقيات . . شىء جديد جدا هو أن صاحب المكتبة يطالب بالعمولة!

وكانت الدنيا مظلمة . . والمطر بدأ ينزل .

وسحبت البالطو على عنقى . . وخنقت نفسى بزرار . . وتحت إغراء الإعلانات

الملونة . . ومشيًا فى طابور طويل من الناس الذين نزلوا السلالم . . واتجهوا إلى اليمين . . إلى الشمال . . إلى أسفل ثلاث أو أربع درجات . ثم إلى أعلى سبع درجات وإلى اليمين . . وانفتح الباب وانفجر بركان من الدم والموسيقى والسجائر والضحكات والهيستيرية . . وعلى مقعد طويل جلست بين رجال ونساء . . وكأننا على ظهر سفينة . . فالمكان على شكل سفينة مع فارق واحد هو أن السفينة أمامنا . . ونحن نجلس بعيدًا عنها ، أو بالقرب منها . . وعلى ظهر السفينة التى أمامنا تدور فتيات عاريات تمامًا . . والناس حولهن فى ذهول ويمزقهم الصراخ ، كأنهم فى الأدغال . . كأنهم محرومون . . كأنهم يرون النساء لأول مرة . .

وعرفت أن الغرائز تجعل الناس متساوين . . الجوع يمزقهم . . والشبع يدوخهم . . تمامًا ككل الناس . . الغنى والفقير ، والأمريكى الأبيض والأمريكى الأسود . . والأبيض والأسود اللذان ليسا من أمريكا سواء!

وعلى ظهر السفينة جلست فتاة عارية فى طشت من الماء . . وراحت تنزع ملابسها وتستحم . . ويظهر أن هذه ليست نمرة مسرحية . . وإنما هى تستحم بصابون حقيقى وهى بالفعل فى حاجة إلى الاستحمام . . فقد غير الصابون والماء لون بشرتها!

وكانت حريصة على أن يدخل الصابون فمها ، ثم تبصقه بصوت تجعله الموسيقى قويًا . . ثم حرصت على أن يدخل الصابون عينيها وتبكى . . وتأخذ الشهامة أحد المتفرجين فيعطيها منديله ، وفى المنديل ورقة مالية ، أو ورقة بها عنوانه ، لا أحد يعرف ولكن لابد من أن يؤذيها الصابون . . لابد أن يرى الناس دموعها! . شذوذ فظيع!

ثم يجىء دور زوج يبحث عن زوجته ، على ظهر السفينة أيضًا . . ويجدها تحدث رجلا آخر أو تقبله . . وينهال الزوج على زوجته . . ويمزق ثوبها . . ويترك علامات على جسدها . . وهنا تتكهرب الصالة . . ويتكهرب المسرح وتولول الموسيقى ويتفرق الضوء . وتظلم الصالة كلها ويظهر رجل خائف تبحث عنه زوجته . . ثم تجده وتنهال عليه ضربًا حقيقيًا . .

ولابد أن هؤلاء الناس «ينضربون» كل ليلة . . فهناك علامات على الجسم والوجه . .

ولابد أن أناسًا يجدون لذة فى هذا التعذيب لغيرهم ولأنفسهم أيضًا .

وهذه هى «السادية» أى المتعة فى تعذيب الغير .

وهذه هى «الماسوشية» أى المتعة فى تعذيب الإنسان لنفسه . .

والناس يدفعون الفلوس لكى يتعذبوا هم أنفسهم ، ويشربوا الخمر وهم يتعذبون ، فهم يبحثون عن العذاب ويجدون لذة كبرى فى أن يروا غيرهم يتعذب!

ومثل هذه الكباريهات . . كثيرة جدا أو مثل هذه النمر فى الكباريهات كثيرة فى هذه المدينة وفى كل المدن .

وعندما تلفت حولى وجدت وجوهًا غريبة . .

وجدت السعادة فى وجوه الناس . . سعادة شاذة . . سعادة أناس يحسون بالكرابيج تنزل على ظهورهم ووجوههم . . وعيونهم تطلب المزيد من الضرب .

وبحثت عن ورقة فى جيبى وقرأت فيها اسم إحدى دور السينما . ثم انسحبت أنزل وأطلع السلالم أتجه يمينًا وشمالا كأننى أمشى فى أحشاء حيوان مفترس مات . . لأن له رائحة كريهة . . أو فى طريقه إلى أن يموت فلايزال دمه ساخنًا وأنفاسه لاهثة . .

وخرجت . .

ومررت من جديد على أحد أصحاب المكتبات أسأله عن مكان هذه السينما وأشار بيده إلى نهاية شارع آخر . ومشيت فى الشوارع . . وأنا أعرض وجهى لقطرات المطر ، ولبرودة شديدة فى الجو . . وتلفت حولى لعلى أجد أجزخانة فلم أجد .

واقتربت من أحد المشاة أسأل عن أجزخانة ، ولكن عندما اقتربت منه أكثر وجدته يترنح بشدة وخجلت أن أسأل عن الأجزخانة رجلا فى حاجة إلى إسعاف!

ومضيت فى الشارع والموسيقى تتجدد طول الطريق . . ففى كل مكان كباريه أو حفلة فى بيت خاص أو بيت عام . . واتجهت عينى ورأيت أضواء الفلورسنت الصفراء على شكل فستان . . وتحتها أضواء النيون الحمراء على شكل جسم بلا فستان . . مفهوم إذن أن هذه السينما للأفلام العارية . .

الصور على الباب عارية . . الأسماء غير معروفة . . الفيلم غير معروف الاسم . . عاملة التذاكر قد ارتدت الفستان الغامق والبالطو . . فى غاية الحشمة . .

وتبدو أنها غير مقتنعة بالصور العارية التى على الشاشة ، أو أن صاحب العمل لم يرغمها بعد على أن تنزع ملابسها . .

ولكن لاحظت أن فستانها الغامق له فتحة طويلة جدا . فهى إذن قد تعرت قليلا . . ومعنى ذلك أن صاحب السينما قد فكر فى نزع ملابس بائعة التذاكر ثم عدل عن هذه الفكرة فى آخر لحظة . .

والسينما تعمل ٢٤ ساعة بلا توقف . .

ففى استطاعة أى إنسان أن يدخل فى أى وقت ، ولم أعرف لماذا يدخلها أى إنسان . إنها ذات موضوع واحد ومل وسخيف ولا يمكن للإنسان أن يحتمل إلا عشر دقائق على سبيل الاستطلاع . . وخمس دقائق أخرى فى انتظار الموضوع . . وخمس دقائق أخرى فى انتظار النهاية . . وخمس دقائق لملاحظة ما يفعله الناس فى أثناء عرض الفيلم . .

الغريب أن كل المتفرجين من الرجال . .

ولا يوجد اثنان يجلسان متجاورين . كل واحد يجلس وحده . . ويحرص على أن يكون بعيداً عن أقرب جار له بخمسة أو ستة مقاعد . .

أما الأفلام فهى تدور فى إحدى مستعمرات العراة . . وهى تبدأة بفتاة عارية تماماً . . وتمشى طول الوقت بالجنب . . أى أنك لاترى منها إلا جانبها فقط . . أو ظهرها ولا تراها مواجهة أبداً . . وكل حركاتها عبارة عن تحايل لكى تراها مواجهة . . ولكنها لا تظهر كذلك . . وهى تحكى حكاية من غير كلام . .

مثال ذلك : أنها خرجت من بيتها وفوجئت بسيدة تستدرجها إلى سيارة وفى السيارة تنزع السيدة ملابسها . . ثم تلقى بها فى الماء . . وتصرخ الفتاة . . وينهض رجل لإنقاذها . . هذا الرجل عريان جاهز ، ولا تعرف أين كان . . ويأخذها إلى الغابة ويجلسان معاً . . متجاورين . . لا قبلات ولا عناق . . وإنما حركات بلا كلام ولا صوت . .

أما الكلام والحركات فهما فى صالة السينما . .

وهى حركات مقرفة وأصوات تبعث على الغثيان . . وحتى لا أصاب بشىء من هذا ، فالذى عندى من القرف يكفى المتفرجين فى هذه السينما أياماً كاملة . . خرجت . . وفتحت فمى أبتلع قطرات المطر . . ماء من السماء . . أى شىء من السماء .

* * *

وعلى باب السينما قابلت رجلا . . أعرف وجهه . . أعرف ابتسامته . . قابلته قبل ذلك فى باريس وفى روما وفى لندن . . وفى خرائب برلين وفى بيروت . . وقابلته فى آخر مرة فى طوكيو . . إنه نفس النوع من الرجال يطلب إليك أن تقضى سهرة على النحو الذى يعجبك وفى جيبه صور لفتيات ولنساء . . ويؤكد لك أنهن أجمل فتيات المدينة . . وأنهن لسن محترفات ، وإنما هن فتيات من صاحبات المزاج . . ويشير : هذه سمراء من إيطاليا . .

وهذه من إسبانيا . . وهذه من السويد . . وهذه من أصل زنجى . وهذه لم تعرف الشقاوة إلا من أسبوع . . لقد خدعها أحد البحارة فقررت أن تنتقم منه، بأن تعطى نفسها لأى إنسان . . أى إنسان . وهذه من تركيا وهى لأسباب سياسية خرجت من تركيا فهى لا تحب كمال أتاتورك، وهو لا يعرف أن كمال أتاتورك لم يعد له وجود من عشرين سنة . . وهذه ابنة غير شرعية للملك فاروق . . وهذه صديقة لأحد أصحاب الملايين الذى أضاع أمواله على جريتا جاربو، ثم فضل هذه الفتاة على الممثلة السويدية . وهى معلومات لا بأس بها، وطريقة مثيرة لتسويق هذه اللحوم البيضاء . . أو هذا الرقيق الأبيض، ولما لاحظ الرجل ضيقى وقرفى، ويبدو أنه قد اعتاد شكلى أنا أيضًا فأخرج من جيبه ورقة مكتوبًا عليها اسم كافتريا . . وسألته أين توجد؟ فأشار إلى شارع قريب . . وإذا رفضت أن أذهب إلى الكافتريا فإنه سيعطينى عنوان إحدى شركات الأتوبيس أو أحد الفنادق . .

المهم أن هذا الرجل إعلان متحرك عن عدد كبير من السلع وهو ينادى عليها ويبيعها بحماس متعادل . . وإخلاص واضح . وربما كان هذا هو الإخلاص الوحيد الذى رأيته فى تلك الليلة!

وفى الكافتريا وجدت عددًا من الناس قد تجاوروا فى جلوسهم دون أن ينطق واحد منهم بكلمة . . أمام كل واحد كوب كبير من اللبن . . وبعضهم يأكل السندوتشات ولكن أحدًا لا يتكلم . . واقتربت وهززت رأسى، على غير العادة الأمريكية . . ولم أكد أجلس حتى وجدت أمامى كوبًا من اللبن . . اللبن بارد . . ورشفت منه القليل . . لقد كان دسمًا . . شديد الدسم . . وبلا سكر . وسألت إن كان يمكن أن يضع لى فى اللبن بعض القهوة . . وهز الرجل كتفيه يقول: على كيفك .

وسألته: إن كان هذا اللبن لا تناسبه القهوة . .

فعرفت أن القهوة لها لبن أخف دسمًا . أما هذا اللبن الذى لا أعرف قيمته فهو وجبة غذائية . فالقهوة يجب أن أشربها بعد ذلك . . وإذا لم أصدق ذلك . فمن الواجب أن أنظر إلى الإعلانات الملصقة فى داخل الكافتريا والتى تؤكد ارتفاع نسبة الفيتامينات فيه . . كل أنواع الفيتامينات، ولاحظت أن معظم الجالسين إلى جوارى بلا أسنان . . إنهم يتثاءبون فتصبح أفواههم مثل أفواه السلحفاة . . عبارة عن حفر سوداء وصفراء . . بقايا أسنان . . أو بقايا تجاويف كانت بها أسنان . . مقابر أسنان! .

وأدركت أن هؤلاء يشربون اللبن، لأنهم لا يستطيعون أن يأكلوا أى شىء آخر . .

وتمنيت لو طلبت منه عود قصب، لكى أمصه بأسنانى مؤكداً لهؤلاء الناس أن أسنانى سليمة . . وأن الغربة وجهلى بالمدينة، هما اللذان جعلانى أذهب إلى هذا المحل . . ورغبتى فى أن أبين أننى صاحب أسنان، تدل على أننى شعرت بشىء من الهوان أو شىء من الإهانة، وأن حرصى على أن أبدو أحسن منهم يؤكد أن أبحث فوراً عن رد اعتبار . .

وجاء رد الاعتبار فوراً . .

ودخل واحد وتحدث بالفرنسية التى لم يفهمها أحد. وطلب بعض اللحم المشوى وبعض القهوة السادة . . ولم يفهم صاحب المحل. وتقدمت أترجم له: وتطلع لى صاحب المحل يسألنى إن كنت فرنسيّاً أنا أيضاً. فأكدت له أننى لست فرنسيّاً، أى أنه ليس من الضرورى أن يكون الإنسان فرنسيّاً ليعرف الفرنسية . . فأنا لست أمريكيّاً ومع ذلك أتحدث الإنجليزية وأقرأ بها مئات الكتب أحسن منك. إن هذا البائع الأمريكى قد قذف بكوب اللبن أمامى، كأنه يلعب هاندبول . . بلا ذوق ولا أدب ودون أن يرى منى غير يدى . . لم ير وجهى . . لم يسألنى . . ثم إنه رأى أصابع يدى كأنها شفاه مفتوحة عطشى . .

ونبهت الرجل الفرنسى إلى أنه يجب أن يجلس . . لأننى أشك فى قدرته على التقاط كوب اللبن أو فنجان القهوة إذا قدمه صاحب المحل. وبدت الدهشة على وجه الفرنسى وظللنا نتحدث عن الجو . . وصاحب المحل ينتظر أن يجد الفرنسى مكاناً ليرميه بفنجان القهوة. وأخيراً طلب منى أن أفسح له مكاناً . . وأفسحت له مكاناً . . وطار الفنجان على حجر الفرنسى . . وسقط على بنطلونه الرمادى . . وانسحبت وتركت الفرنسى يلعن آباء هذا الأمريكى دون مترجم!

وعندما خرجت وجدت الرجل نفسه . . ذلك الإعلان المتحرك يعرض أسماء عدد من الفنادق المريحة . . أو المطاعم التى يمكننى أن أتناول فيها غدائى فى اليوم التالى . .

وقد زاد من قرفى حماسه الشديد . .

ولا أعرف بالضبط ما الذى أغاظنى فيه . . ربما كانت «آليته» أى تحوله إلى آلة . . إلى شريط مسجل . . إلى شىء ليس فيه إنسانية . . ولا كرامة . . أو لأنه لا يتعب ولا يقرف ولا يمل . . فكأنه بذلك يحتقر تعبى ومللى، أو أنه يهون من قيمة كل ما أشكو منه . . فهو يعمل . . طبعاً هذا عمل . . ليلا ونهاراً . . بلا تعب وبحماس شديد . .

أما ما الذى يعمله فهو موضوع آخر!

حكاية بالطو!

وأنا جالس فى المطعم وعلى المقعد المواجه للبنك الدولى فى مدينة واشنطن، تذكرت قصة للأديب الروسى تشيخوف. . والقصة لها دلالة خاصة. .

ففى قصة تشيخوف يروى حكاية طفل وحيد ذهب لطبيب يشكره على أنه أنقذ حياته، ويقدم له تحفة ثمينة عبارة عن تمثال من البرونز لامرأتين عاريتين بينهما شمعدان، والشمعدان له معنى مثير ومقصود فى القصة. . ويرفض الطبيب فى أول الأمر. ولكن أمام إصرار الطفل يوافق. . ولا يدرى أين يضع هذا التمثال. فالعيادة يدخلها الرجال والنساء. . ثم إنه زوج وله أولاد. . ولا يعرف ما الذى يقوله لهم. . ثم إن التمثال ليس صورة يمكن وضعها وإخفاؤها فى أى وقت. . .

ويبدى الطفل أسفه، وأسف والدته على أنه كان من الأفضل أن يأتى له بتمثال آخر شقيق لهذا التمثال. . لولا أنه لم يجد من كل ما تركه أبوه من التحف الفنية غير هذا التمثال.

ويخرج الطفل ويقرر الطبيب أن يهدى هذا التمثال إلى صديق له. . ويذهب إلى صديقه المحامى ويعطيه التمثال فى إحدى المناسبات ويصر على موقفه. وصديقه يرفض لأنه هو الآخر يخشى من الزبائن. . ويخشى ما سيقولونه عنه إذا رأوا هذا التمثال العريان الفاجر. .

وأخيراً يوافق المحامى وفى ذهنه أن يعطيه لصديق يعمل ممثلا. ويقول إن الممثل لا يهتم كثيراً بمثل هذه التماثيل العارية. . ففى حياته نساء وخمر وحفلات أكثر فجوراً من هذا التمثال. .

ويذهب إلى صديقه الممثل. . وتكون مفاجأة. فالممثل يرفض هذا التمثال. . فهو وإن

كانت حياته عريانة إلا أنه يريد أن يبدو محترمًا. فإحساسه بأنه فاجر يجعله يبالغ فى الاحتشام أمام الناس.. ولكن الليلة تمضى والنساء يضحكن والرجال أيضًا.. ويخفى الممثل هذا التمثال. وفى نيته أن يبيعه لسيدة صاحبة دكان التحف الفنية.. إنها أم هذا الطفل!.

وفى الصباح يذهب إلى السيدة ويبيع لها التمثال.. وتشكره السيدة على هذا التمثال الذى كانت تحلم به من وقت طويل..

وفى المساء يدخل الطفل عيادة الطبيب وفى يده ورقة ملفوفة ويقول له: لا تعرف مدى سعادتى.. أنت أنقذت حياتى.. وأنا الابن الوحيد لأمى.. وأمى بعثت لك بهذا التمثال الذى هو شقيق للتمثال الذى عندك.

ويغمى على الطبيب!

* * *

اليوم ذهبت أشترى بالطو مطر.

دخلت أول محل. وكان فى نيتى أن أدخل أى محل آخر، إذا لم تعجبنى البضاعة. وهذا قرار نادر لا أعرف كيف اتخذته. فأنا من الذين إذا دخلوا أى محل فلابد أن يشترى أى شىء. لابد. إننى لا أستطيع أن أناقش وأفاصل. مستحيل وقد اكتسبت هذه العادة ـ عادة الشراء فى أول لحظة ـ من سنغافورة وهونج كونج.. فهناك يوجد كل شىء فى الدنيا ولا يمكن أن تطلب شيئا لا تجده. يستحيل، فأمام المستحيل، كنت أشترى أى شىء.

واستقبلنى أحد الموظفين وعرف أنى أريد بالطو مطر. وسألنى من أى نوع، فلم أحاول استعراض معلوماتى القليلة فى البلاطى. فقلت وأنا أضحك وأدارى جهلى: بالطو للقيام برحلة للقطب الشمالى..

وضحك الرجل وهو يقول: موجود..

ومن الممكن أن يكون هذا النوع من البلاطى موجودًا.. فالقطب الشمالى ليس بعيدًا عن هنا.. يعنى ليست هذه نكتة تستحق الضحك من جانبى!

ورحت أقلب فى البلاطى.. الأبيض والأسود والجلد والصوف.. والقصير والطويل والذى له جيوب من الخارج والذى له جيوب من الداخل.. والذى بمائة جنيه، والذى بنصف وربع هذا المبلغ..

ووجدت البالطو المناسب. وكلمة المناسب رددتها وراء البائع بعد أن رأيت منظرى فى المرآة. . وبعد أن قلت: والله خسارتك. . لو كان معك مليون دولار فقط!

ولففت البالطو القديم الذى كان معى فى ورقة وقبل أن أخرج من باب المحل ألقيته بالقرب من الباب وتظاهرت بأن شيئًا لم يحدث. . واتجهت بعيدًا عن المحل ليستوقفنى أحد موظفى المحل ويعطينى البالطو ولا ينتظر أن أشكره. .

ومعظم سكان واشنطن من الزنوج. . إنهم أكثر من ٨٠٪ من السكان. . فواشنطن العاصمة يحكمها رئيس الجمهورية شخصيًا. ولا يوجد بها أى تفرقة عنصرية. . وتوجد بها كل السفارات الأجنبية. . فالزنوج هنا فى حماية الدستور. . وكلهم يرتدون بلاطى أحسن وأفخم من البالطو المناسب لى. .

وظللت أبحث عن مكان ألقى فيه بهذا البالطو وأخيرًا وجدت. . رأيت سيارة طويلة عريضة واقفة على جانب من الشارع. . ولا أحد ينظر ناحيتى. . الناس كلهم فى حالهم. . يدبدبون فى الأرض. . وكل واحد منهم ينظر إلى فوق كأنه ينظر إلى ذبابة وقفت فوق أنفه.

وبحركة رشيقة ألقيت بالبالطو تحت السيارة. . ووقفت إلى جوارها. . وتلفت بنفس الرشاقة فلم أجد أحدًا. . ورحت أتطلع إلى اللافتات هنا وهناك. .

ومشيت بعيدًا لتلحقنى سيدة عجوز لعلها لاحظت أننى فى أثناء قراءتى للافتات لم أتنبه إلى أن البالطو سقط. . وشكرتها وخجلت منها.

وذهبت إلى المطعم الذى يواجه البنك الدولى. .

وعندما دخلت المطعم لم أجد به أحدًا. . وإنما وجدت الجرسونات مشغولات جدا. . وأول شىء فعلته هو أننى تركت البالطو القديم بجوار الباب، على مقعد. . وجلست على أبعد مقعد من الباب. . وطلبت قدحًا من الشاى وبعض السندوتشات ولكنى حمدت الله أننى تخلصت من هذا البالطو الذى يرفضه أى أمريكى. .

وقلت لنفسى: ربما كان السبب فى رفض هذا البالطو أنه من اليابان، وأن العلاقات بين أمريكا واليابان هى الاحتقار المتبادل. . فالأمريكان لا يزالون يحتلون اليابان. . واليابانيون يحاولون أن يتحرروا منهم. . بل إن اليابانيين رفضوا وبإصرار أن تحتل اللغة

الإنجليزية ولو مكانًا صغيراً جدا من أفواههم أو آذانهم . . ولقد عانيت الكثير جدا فى العثور على واحد، فى أى مكان، يتكلم الإنجليزية .

ولكن على كل حال لقد تركت البالطو فى مكان أمين . . ولابد أن يعثر عليه أى إنسان ولا يهمنى ما الذى سيفعله به . . قد يحرقه . . قد ينزع العبارة المكتوبة عليه : صنع فى اليابان . . ثم يرتديه بعد ذلك . على أساس أن المطر والبرد والعواصف لا تفرق بين يابانى وأمريكى . . وبين صناعات يابانية وصناعات روسية!

وبارتياح شديد . . ولذة واضحة شربت الشاى ونفضت ما تساقط من السندوتش على البالطو الجديد . . الذى لا يشعر أحد أنه جديد إلا أنا، ولا يعرف أحد أن ثمنه يساوى ستين جنيها إلا أنا .

ولمحت بعينى منظر البالطو اليابانى وهو يشبه جلد حيوان سلخوه . . ثم تركوا الجلد فى انتظار سيارات الإسعاف، كما يحدث عندنا فى عيد الأضحى عندما تمر سيارات الإسعاف تجمع جلود الضحية!

ودخلت سيدة وظننتها لأول وهلة أنها نفس السيدة التى التقطت البالطو قبل ذلك . . ثم دخل رجل . . وجلس إلى جوار البالطو . . وسقط البالطو على الأرض فوضعه فى مكانه . . وكنت قد فرغت من الطعام . . ونهضت وتفاديت بحركاتى ونظراتى أن أقترب من البالطو . . ونادانى أحد الجرسونات ونبهنى إلى أننى نسيت البالطو . . فقلت بلهجة جادة جدا : لست فى حاجة إليه!

وتفاديت نظرته وأخفيت رأسى فى البالطو الجديد، واختفيت أنا بين الناس . .

ويظهر ـ وهذا أكيد ـ أن الجرسون لم يستمع بوضوح إلى ما قلته فلحقنى وأعطانى البالطو . . وحملته على ذراعى . . وقررت أن آخذه معى إلى الفندق .

وفى الفندق أعطيته للسيدة الزنجية العجوز ونظرت إليه باحتقار ضايقنى فقلت لها : إن هذا بالطو أثرى جدا . . لقد كان هدية من إمبراطور اليابان . . ومكتوب عليه أنه مصنوع فى اليابان!

ويبدو أنها لم تتهوش من هذا الكلام . . فأخذت منها البالطو وألقيته على أحد المقاعد . .

وانتهت حكاية البالطو الذى اشتريته من الهند، وهو صناعة يابانية . . وأخذته معى

وأنا مسافر إلى أستراليا . . ونسيت أن أبيعه فى أستراليا وأشترى بدلا منه بالطو جديداً . . وظللت أحمله على ساقى من أستراليا إلى أمريكان خوفًا من أن أضعه فى إحدى الحقائب فتحاسبنى شركات الطيران على وزنه . . وتكاليفه . وزنه يساوى ثمنه عدة مرات . !

ومن نافذتى نظرت إلى شوارع مدينة واشنطون . . إنها هادئة . . والبيوت فيها على الطراز الإنجليزى القديم . . وهى شبيهة بمدينة كانبرا بأستراليا . . والشوارع فيها أهدأ . . والأضواء فيها خافتة . . والألوان باهتة . . كأنها ليست أمريكية . .

وأحسست أننى أعطيت لعينى إجازة . .

وفجأة «لعلعت» الدنيا مرة واحدة . . .

وعلى فكرة كلمة «لعلعت» مأخوذة من كلمة «اللعل» وهو نوع من الياقوت الأحمر . . والأنوار كانت حمراء . . وعلى درجات . . وبأحجام مختلفة . . وسألت عامل التليفون عن مصدر النور الذى أضاء كل المنطقة فجأة . .

وبسرعة مجنونة قال لى عامل التليفون : إنها حريقة . .

وقبل أن أقفل السكة سمعته يقول : هنا . . الحريقة هنا . . وفتحت النافذة وألقيت البالطو . .

وحملت حقائبى التى كانت مقفلة . . وتركت أمواس الحلاقة والصابون وزوجًا من الأحذية ونزلت السلالم بأقصى سرعة . .

وفى الشارع ، وأما الفندق وجدت الجرسون فى انتظارى ومعه الفاتورة والدموع فى عينيه ومعه بالطو . . ولحسن الحظ أنه بالطو آخر!

درس فى الكراهية !

منظر نيويورك من الجو لا يمكن أن تنساه . .

فكلمة نيويورك لها معنى خاص للذى لم يرها بنفسه . . وإنما رآها فقط فى السينما . . فهى مركز القارة الأمريكية . . مركز الذهب . . وفيها خمسة ملايين يهودى . . وهى مدينة . . عليها عفريت . . ألف عفريت . . وهؤلاء الناس المجانين هم الذين يتحكمون فى العالم كله .

وهذه البيوت العالية . . التى تنطح السحاب . . سواء كان السحاب موجودًا أو غير موجود . . عبارة عن أشجار من حديد وصلب فى غابة مخيفة اسمها نيويورك . . غابة يأكل فيها الإنسان الصغير جدا ملايين الناس فى أى مكان بجرة قلم أو بجرة قدم . . أو غمزة عين . . هنا أناس يتحكمون فى ملايين الناس فى أركان العالم الأربعة . . هنا الناس الذين يتاجرون فى الحروب ويتاجرون فى السلام . . هنا أناس صناعتهم الكراهية . . إنهم يصدرون الكراهية لكل مكان ومجانًا . . إنهم لا يريدون للإنسان أن يهدأ ، إنهم يريدون للإنسان أن يموت محاربًا ويعيش محاربًا .

لأن الحرب معناها صناعة الأسلحة وترويج الأدوية . . واضطراب الأعصاب يؤدى إلى أن يضغط إنسان على زرار فى طائرة لتنفجر قنبلة خطأ وتقوم الحرب . وفى أثناء الحروب يبيعون ويشترون من أى مكان . . ومن أى طريق . .

اليهود يحكمون نيويورك ونيويورك تحكم أمريكا وأمريكا تحكم الدنيا . . اليهود لا وطن لهم إلا أخيراً . . ولذلك يريدون أن يهدموا كل وطن . . وكل قومية . . وهم حاقدون على أى دين وأى جنس . . وهم الذين يملكون الفلوس وأجهزة الإعلام فى أمريكا . .

منظر نيويورك من الجو عبارة عن سهام مرفوعة . . عبارة عن صواريخ منصوبة إلى أعلى . . إنها شيء يخيفك ولكنك إذا أحسست أنك لا تستطيع أن تحبه ، فأنا أهنئك لأن هذا هو إحساس صادق . . فحتى عندما تنزل من الطائرة لا تستطيع أن تحب هذه المدينة . إنها تتحداك . . إنها تحتقرك . . إنها لا تدرى بك . . لا هى ولا سكانها ولا أحد فيها يدرى بأحد . .

المطار الذى اسمه الآن مطار كنيدى ، وكان اسمه إيدل وايلد هو من أكبر مطارات الدنيا وأكثرها ازدحامًا ونظامًا . . ومن الممكن أن تضيع فيه بسهولة ، ولا يهتدى إليك أحد . . ولا تهتدى أنت إلى أحد . .

لم يكن من السهل أن أجد فندقًا . فالفنادق هنا مرتفعة الأسعار جدا . والحياة من نار . والنار إذا أراد إنسان أن يشعلها فى نفسه فإن هذا يكلفه الكثير جدا . . يكلفه أولا ثمن النار ، ويكلفه غرامة لإزعاج الناس . . ويكلفه تهديداً بإحراق فندق من مائة دور ، وهذه الغرامة يجب أن تدفعها لإحدى شركات التأمين . . وقد تكون محاولة الانتحار هذه معناها الهرب من التاكسى الذى نقلك من المطار إلى الفندق . .

كل شيء هنا غال جدا . . ومع ذلك فالحياة أرخص من الموت ! .

وحمدت الله أن استضافنى أحد الأصدقاء . .

بيته صغير جدا . ولحسن الحظ كان على خلاف مع زوجته . فأنا الآن سأنام فى سريرها . وتركت له ولديها الاثنين . ويكفى أن أنام فى بيت هذا الصديق لأوفر عشرين جنيها فى اليوم الواحد على الأقل . .

أما الطعام الذى كنت أتناوله فهو ولا شك فضل منه وكرم . .

فى الصباح نتناول الشاى مع اللبن والبليلة . .

وفى الظهر كذلك مع البطاطس الجافة . .

وفى الليل بلا بطاطس ولا بليلة . وهى ولا شك غالية التكاليف . . ويستحق هذا الصديق على كل هذه الوجبات الكثيرة كل الشكر وكل الاحترام والامتنان وبعملية حسابية وجدت أننى فى عشرة أيام فى نيويورك قد كلفت صديقى هذا حوالى ٢٠ جنيها ووفر لى هو أكثر من ٣٠٠ جنيه . . نعم مائة جنيه مضروبة فى ثلاثة !

حتى لو كان السرير الذى أنام عليه ليس مريحًا . . وأن بعض ألواح السرير مكسرة مما يقطع بأن العلاقات بين الزوجين فى الأيام الأخيرة لم تكن على ما يرام، يشهد بذلك بعض ضربات على جانبى وجه صديقى هذا، لكن هذا السرير الرخيص المجانى يساوى أفخر جناح فى فندق والدروف استوريا الذى أعجبت به جدا، عندما مررت به صاعداً هابطًا أحيى الجرسونات كأننى أعرفهم أو كأنهم يعرفوننى بسبب تحياتى الطويلة والتى عدلت عنها لأسباب اقتصادية . . ولكثرة وجود سعوديين وكويتيين فى الفندق فى تلك الأيام!

شوارع نيويورك متشابهة . . وكلها متقاطعة . . ولها أرقام . . والمشى فيها ليس متعة . . وركوب السيارة ليس متعة . . ولا توجد بها أية متعة على الإطلاق . وربما كانت المتعة الوحيدة هى أن تدخل المحلات، وتتفرج . وهنا تشعر بألم خفيف فى أعلى الصدر إذا لم تكن تفهم فى الطب فهو على كل حال من أعراض وجع القلب . وهذا الوجع سببه الحسرات التى تشيلك وتهبدك لأنك مفلس فى نيويورك، مفلس فى مركز ملايين الملايين .

ولابد أن تبقى فى نيويورك بضعة أيام لتعرف أنك لن تتحسر طويلا . كل شىء موجود وبأسعار معقولة . . ففى المحلات الكبيرة جدا توجد بضائع قديمة . . بضائع فيها عيوب . . فستان فيه ثقب فى حجم هذه النقط . . أو بالطو من غير زراير . أو جزم بها خربشة قطة . . أو كرافتة سقطت عليها سيجارة . . أو بدلة بها بقعة لا تخرج بسهولة . .

وأنا أنصحك إذا ذهبت إلى نيويورك واشتريت بعض هذه السلع، فلا تشتر الكثير منها فربما تقع على الأرض وتتزحلق . . ولو وقعت فلن تمتد لك يد واحدة . . تمامًا كما يفعل بعض حكام كرة القدم عندما يسقط اللاعب فى منطقة الجزاء حتى يحتسبها الحكم ضربة جزاء . . فهم فى نيويورك مشغولون بشىء أهم منك . ولا يمكن أن تكون أنت، أيا كنت، أهم من الفلوس، والنظر إليك وسؤالك عن صحتك وعن الذى أصابك، تضييع للوقت الذى هو من ذهب!

سمعت هنا عن سيدة حامل وقعت على الأرض على أثر دوخة أصابتها فلم تمتد لها يد، ومعظم الأرجل كادت تمتد لها وتصطدم بها لأنها تعترض الطريق العام . ولكن طفلا صغيراً لم يتحول بعد إلى مواطن نيويوركى أصيل، وقف إلى جوارها ولفت نظر الناس لها . ومضى الناس فى طريقهم . . وتساندت على الجدران ووقفت . . وتلفتت لتشكر

الطفل فوجدته يمسح دمعة على خده. إن أم هذا الطفل قد عاجلته بصفعة شديدة لأنه تركها وانصرف عنها بسبب شيء تافه!

وأنا أصدق هذه الحادثة . .

وكل يوم أجد طعم نيويورك مرّاً على شفتى . .

وأحس بما أصاب أوسكار وايلد عندما دخل ميناء نيويورك وسألوه: هل معك شيء ممنوع؟ فقال: عبقريتى!

والشيء الممنوع الذى أحسست به هو إنسانيتى . . أى مجرد أننى إنسان. لا يمكن أن تحس بأنك إنسان . . وإنما تحس هنا بأنك إنسان فى طريقه إلى النهاية . . بأنك مهدد فى إنسانيتك . . بأن واحداً من هؤلاء الملايين قد اقترب منك ونشل منك إنسانيتك . . ولكى يقلد أرسين لوبين ترك لك بطاقة . . وهذه البطاقة تضعها فى مخك وأنت تمشى كأنك نائم . . ومكتوب على هذه البطاقة: عش فى قرف!

هذا القرف جعلنى أكره نيويورك . .

وأحتقر جوها وأهلها . . مع أننى لا أعرف واحداً منهم . . وإنما جوها هو الذى جعلنى أكثر قرفًا وسخطًا وأتمنى أن أمسك ورقة وقلمًا وألعن الأيام التى حملتنى إلى مدينة كلها تصدك . . كلها تردك . . كلها تصفعك . . جدرانها حديد وشوارعها حديد وأهلها صلب . . باردة جامدة . . إنها تنحيك عنها . . إنها لا تريدك أن تلمسها . .

إن جوركى معذور عندما جاء إلى نيويورك وخرج منها بقصة واحدة اسمها «الأم» هى عبارة عن منشور ثورى ضد الرأسمالية!

وأحسست بما أحس به بطل مسرحية «القرد الكثيف الشعر» للكاتب الأمريكى أونيل. إن بطل هذه المسرحية نزل ميناء نيويورك . . كل شيء فيها لا يعبأ به . . كل شيء لا يريده . . كل شيء ليس فى حاجة إليه . . كل شيء يبصقه كأنه نواة . . كأنه قشر لب . . كأنه مسمار فى جزمة . . كأنه ذباب . . مع أنه شيء . . مع أنه هو الذى صنع نيويورك . . فهو الذى يعمل فى السفن . . وهو الذى يضع الفحم فى الفرن .

والفرن يطلق البخار والبخار يدفع السفن بكل ما حملت . . فهو أسود كالفحم، وهو لزج كالزيت، وهو حديد كالآلات . . وهو صانع الآلات والتروس وهو الذى يعيش ويموت منبوذاً كأنه زنجى . . مع أنه أبيض . . ولكنه أبيض حقير . . فهو أبيض زنجى!

وكان بطل هذه المسرحية يدق الجدران بيديه . . ويدقها بنظراته أيضًا . . وتبقى نيويورك كما هى . . نوع من اللامبالاة الشاهق . . نوع من عدم الاكتراث الذى ينطح السحاب .

وعندما أعود إلى البيت ، أمسح عينى أمام قنوات التليفزيون وأتثاءب بين البرامج . . وأنام وأنا أحاول أن أتذكر أيامًا هادئة ناعمة أمضيتها فى مدينة هوليوود وأنا أتحسر على أيام جزر هاواى!

الليلة كانت رأس السنة . .

كل شىء يدل على أن حادثًا غريبًا سيقع . . العرب يتحدثون عن الفول المدمس والملوخية والكشك والطعمية . وهى أطعمة لا يأكلها الإنسان عادة بهذه الكثرة إلا إذا سافر خارج القاهرة . فالجاليات العربية تقدمها على أنها أغلى ما عندها!

وإمعانًا فى المجاملة كنت أجد لها طعمًا مختلفًا عن طعمها فى القاهرة . وأتهم ذاكرتى . وأقول إنها هنا مختلفة . وإنها فى القاهرة شىء آخر . . . والحقيقة أنها فى القاهرة أحسن لأن سيدات السلك الدبلوماسى لايعرفن الطبخ . ونظرًا لصعوبة نقل هذه الأطعمة مطبوخة فى الحقائب الدبلوماسية فلابد أن يقمن بطبخها ، والمجاملة وحدها هى التى تتولى بلع الظلط الصغير الذى يقرقش فى الطعمية وذرات الرمل التى هى عبارة عن جثث سوس مات فى الفول .

وهناك حركة غير عادية فى المترو تحت الأرض . .

والمترو فى نيويورك هنا شىء مزعج . . فهو سريع جدا وله ضوضاء شديدة . . والناس ينزلون فى صمت ويصعدون فى صمت . . وعلى وجوههم كآبة قائمة أو نائمة . . ويبدو أنهم بدءوا يوقظون هذه الكآبة استعدادًا لقبلة رأس السنة .

وقبل موعد هذه القبلة بنصف ساعة كنت أقف أمام «راديو سيتى» أعظم معالم نيويورك . . وعلى رأسى طرطور وفى يدى مزمار وفى فمى بعض اللبان الذى جعلنى أشعر بشىء من «الأمركة» . . وكأى عبيط أزمر وأنفخ حتى لا أبدو شاذًا بين الناس أو غير مهتم بنهاية عام وبداية عام آخر . .

ولاحظت أنه من الممكن أن يشعر الإنسان بأنه سخيف جدا ، ومع ذلك لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستمرار فى هذه السخافة . . وزمرت سخافتى ، وصفقت سخافتى ، وفى لحظات صرت من أصحاب السخافة . . ومعى مائة ألف نسمة فى هذا الميدان!

ولا أعرف كم مضى من الوقت . . وأنا على هذه الحال . . ونسيت تعبى . . واقتربت من أحد أعمدة النور أو التليفون . . عمود والسلام . . وركنت ظهرى لأستريح . . وكأن للعمود أصابع ناعمة امتدت واحتضنتنى . . وقلت فى نفسى : يجوز . . فنحن فى بلاد العجائب . .

واستدرت لأرى إن كان هذا صحيحًا . .

وهنا اكتشفت أن البالطو الجميل الذى اشتريته من أيام قد التصق بالعمود التصاقًا تامًا . . ولا ينقص البالطو والعمود إلا قسيس يعلن زواجهما وارتباطهما إلى نهاية الحياة!

وعلى العمود مكتوب أن هذا العمود مخصص لإعلانات شركة مش عارف إيه الخاصة بالصباغة والصمغ ، . . وأن أى إنسان يصاب بضرر فالشركة ـ مع الأسف له والشكر له أيضًا ـ على استعداد لدفع التكاليف!

وتعاونت أنا وأربعة ونزعنا البالطو . . وبعد أن ترك أحد جيوبه كذكرى لعناق بالإكراه فى ليلة رأس السنة . .

ولم يختلف أهل نيويورك عن أهل أى بلد فى الدنيا فى ليلة رأس السنة . إلا فى أن أهل نيويورك يفتعلون الإنسانية . . ويفتعلون الطفولة . . فى حين أنهم فى أى بلد آخر ـ حتى فى أمريكا ـ أناس عاديون بلا افتعال . . وبلا محاولة كاذبة لكى يتذكروا أنهم كانوا بشرًا فى قرن من القرون!

وفى نيويورك حى اسمه «قرية جيرنيتش» . .

وهى أخذت الاسم طبعًا من مدينة صغيرة بالقرب من لندن اسمها جيرنيتش وهى التى تقع على خط طول : صفر . . والعالم كله يضبط ساعاته على توقيت هذه المدينة التى عدد سكانها تسعون ألفًا ولها عضو فى البرلمان وبها مصانع وبها متحف القائد نلسون ، إننى أتكلم عن جيرنيتش الأصلية!

أما هذه الجيرنيتش أو هذه القرية فهى شىء آخر . .

فالأمريكان يحاولون أن يقلدوا الحى اللاتينى فى باريس . .

ففيها زرائب تحولت إلى بارات ومطاعم تحت الأرض . . وإصطبلات للخيول تحولت بفضل الإضاءة الحالمة إلى جنات تجرى من تحتها أنهار البيرة والويسكى . . ومعظم هذه

الأماكن يقف فيها الناس. . فلا مكان لإنسان يحاول أن يجلس. . فهو يشرب وهو واقف، ويأكل وهو واقف، ويدفع وهو واقف. . ويخرج من غير مطرود إلى مكان آخر ليحجز له موطئًا لقدم. . لقدم واحدة طبعًا. لأنه بعد هذا التعب لا يمكن أن يقف على قدم إلا ليرفعها ويقف على القدم الأخرى ويجد نفسه طول الليل فى هذا الوضع الغريب، ويقف كالأوزة، ويشرب البيرة كأنه سمكة، ويترنح كأى مسطول، ويدفع كأى قروى من أقاصى الريف المصرى!

وإذا حاول أن يتظاهر بفقدان الوعى، فهناك فتوات فى استطاعتهم أن يردوه إلى وعيه. . بعدة طرق: بأن يضربوه حتى يفيق. . وبأن يلطشوا المحفظة. . أو ينزعوا ملابسه. . وبخبرة السماسرة يقدرون بالضبط كم تساوى ملابسه الخارجية والداخلية. . وجواز السفر أو البطاقة الشخصية. . أو يسلموه لرجال البوليس. وهذا لا يعفيه من دفع التكاليف نقدًا أو حبسًا!

ولاحظت أنهم يطيلون شعر اللحية. . والشارب. . وأنهم يرتدون بنطلونات مقلوبة. . وأن بعضهم يرتدى قمصانًا سوداء. . أو بيضاء. . وهذا شىء غريب. . لأن الأمريكانى العادى أو الأمريكى الوجودى يلبس القميص السادة. ولا يحمل فى يده ساعة. . ولا فى جيبه ورقة ولا قلمًا ولا مفتاحًا للبيت ولا نوتة بها أرقام تليفونات ولافى جيبه فلوس. . لأن الأمريكى العادى يحمل فى جيبه شيكات. . مضمونة من أحد البنوك وبذلك يكون قادرًا على تناول الطعام فى أى مطعم!

سألنى واحد من هؤلاء الأمريكان ذوى القمصان السادة: هل رأيت باريس؟

فقلت: عدة مرات. .

وسألنى: هل هذه القرية شبيهة بها؟

قلت: بصراحة لا. .

قال: كثير من الفرنسيين يؤكدون هذا الشبه. .

فأفهمته أنهم يقصدون الشبه الموجود بينه وبين شباب الحى اللاتينى!

فأخرج من جيبه نصف سيجارة وابتلعها أيضًا. . وشرب وراءها وسألته: ماذا فعلت؟

فقال: ابتلعت بعض الدخان الذى لم يحترق بعد!

وسألنى إن كانوا فى باريس يفعلون مثله؟

فقلت: فى نيويورك فقط؟

وضحك وأخفى وجهه فى كوب كبيرة شربها وانهار.. وقبل أن يلمس الأرض امتدت أربع أذرع قوية وحملته وأسندته ليكمل الشراب. وأكمله واختفى مع الأذرع الأربع. وجاء شاب آخر بقميص أسود.. فى جيوبه كتب وقصاصات من الصحف وبعض الصور.. وعلى خده شفاه حمراء وفى وجنتيه.. وفى صدره وعلى قميصه الأبيض..

وسألنى إن كنت أريد بعض هذه الشفاه. فلم أفهم السؤال. أو حاولت أن أبدو كأننى أريد مزيدًا من المعلومات.. فأخرج من جيبه ورقًا مطبوعًا عليه بعض الشفاه.. وألصق هذه الأوراق على وجهه المبلل بالعرق.. فانطبعت هذه القبلات!

فقلت له: ولكن كل الناس يعرفون أن هذه قبلات صحفية.. قبلات ورق جرائد!

فهز كتفيه بعدم اكتراث.

وسألته إن كان سبب ذلك هو أنه لا يهمه الناس أو أنه لا يجد فتاة فى هذه الليلة السعيدة.. فقال عبارات فهمت منها أنه يفعل ما يعجبه ولا يهمه الناس..

ثم مد يده وأخرج قبلات سوداء وألصقها بوجهى..

وذهبت إلى زريبة أخرى فى هذه القرية التى بيوتها تصل إلى عشرة أدوار وعشرين دورًا.. وهى طبعًا بالنسبة لناطحات السحاب تعتبر أكشاكًا صغيرة.

فمدخلها لا بأس به.. ستائر حمراء.. وأضواء حمراء.. وكل شىء فيها تحول إلى لون الدم.. حتى الأحجار كأنها دماء جفت.. أو قلوب انخلعت وكادت تقع لولا خوفها أن تسقط على الزجاجات المكسورة التى فى أيدى الزبائن. الأكواب كلها مكسورة عن عمد.. ولها أطراف مدببة.. والناس يشربون من خراطيم من الجلد..

أوضح لك هذه العبارة مرة أخرى: الناس هنا ارتدوا الچاكتات بالمقلوب. واضح هذا. والچاكتات مزررة أيضًا. والبنطلونات واسعة جدا والشعر منكوش.. والخراطيم تشبه «اللى» الموجودة فى الشيشة.. أما الأكواب فكلها مكسورة أو مشروخة.. وزجاجات البيرة لا يفتحونها وإنما يكسرونها فى الحائط.. فيكون لانفجارها دوى.. وما تبقى من الزجاجة يضعونه فى الأكواب المكسورة ويشربونها.

وليس من العقل أن تسأل مجنونًا عن الحكمة وراء هذا الجنون فلو كان يعرف الحكمة لاختار شيئًا آخر. ولكنه لايعرف. ولا يريد أن يعرف وليس من الضرورى أن أعرف. فإما أن يعجبنى، أو أذهب إلى أى مكان آخر. . ولن يدرى بى أحد، داخلا، أو خارجًا مندهشًا أو معجبًا!

وقبل أن أستقر على رأى. . انفجرت زجاجة ودخل خرطوم فى فمى، وسالت البيرة على ملابسى، وتقدمت فتاة شبه عارية تطالبنى بالحساب. وحارت يدى بين الخرطوم وبين بقايا الزجاجة. . ويصطدم بى أحد السكارى فتسقط الكوب والزجاجة والخرطوم. . وتظهر فتاة أخرى معها خرطوم آخر. . والخراطيم هنا من الورق ويغيرونها مع كل كوب وكل زجاجة. . سواء كانت زجاجة كوكا. . . أو زجاجة عصير. . أو زجاجة بيرة. . وطلبت من الجرسونة المصبوغة بلون الدم، كأنها دجاجة فى أحد المطاعم الهندية، أن تقف إلى جوار الحائط حتى لا أصطدم بأحد. . وحتى أتمكن من دفع الحساب أولا بأول. . وهنا اصطدمت بى الجرسونة نفسها. أين شهامتى؟! أين رجولتى؟! لا يمكن أن أبدى أى ضيق أو أى قرف. . بل هذا شرف عظيم. . ليتها تفعل ذلك مرة أخرى. . واعتذرت الفتاة واعتذرت أنا لاضطرارها لأن تعتذر عن عمل غير مقصود، وحتى لو كان مقصوداً فهى مداعبة لطيفة. . ولا شك أن قدمى فى حاجة إلى أى سائل بارد يدخل فيهما ليخفف من حرارة المشى والوقوف!

وفى المرة الرابعة عندما حاولت أن أخفى ضيقى الشديد كسرت الزجاجة بشكل غير فنى. . فسقطت كلها على الأرض!

وخرجت أبحث فعلا عن زريبة حقيقية. فلا يمكن أن تصدر عن إنسان هذه التصرفات كلها، ولا يستحق فى آخر الليل أن يتعلق من حبل والحبل فى وتد والوتد فى زريبة والزريبة فى نيويورك!

وكأننى أريد أن أعفى نفسى من هذه المحنة، دخلت أحد المطاعم وأكلت بعض السبانخ المسلوقة، وهى أقرب الأطعمة شبهًا بالبرسيم!

والأمريكان فى الحقيقة عندهم كل شىء يتمناه أى إنسان. . إلا شيئًا واحداً: الإحساس بالحياة!

إن هذه القرية فى حاجة إلى ألف سنة لتكون فى قذارة وبدائية وظلام وبساطة الحى اللاتينى فى باريس. . أين الموسيقى. . أين الرقص. . أين النعومة. . أين الهمس. . أين

اللمس . . أين الكلام الحلو الذى تسمعه من فتاة مسحورة بك أو بغيرك . . أين الغناء الذى يتردد من حنجرة ذات حشرجة بفعل السجائر والسوائل الباردة والملابس الشفافة . . أين الآه . . والليل والعين . . تسمعها من عربى سعيد مع فتا سعيدة فى كل ركن من أركان باريس . . أين عشرات الأيدى ملفوفة فى حنان حقيقى . . لا حنان سينمائى فى سان ميشيل . . وسان جرمان دبرى . . وفى مقاهى الفوكيه والديبون ودى فلور . . ودى لابيه . . إلى آخر الأسماء الساحرة فى باريس . . أين الليل الذى تنتشر سحبه القاتمة . . فوق أبراج الكنائس وأقواس النصر والطيور ترفرف كأنها مناديل حريرية . . أو كأنها أعلام نصر . . إن انتصار الإنسان على حياته الآلية يستحق التكريم . . إنهم فى باريس أناس أولاد ناس . . لهم قلوب . . كلهم قلوب . . ولكنهم فى أمريكا . . لا أحد يعرف إن كانوا من الناس . . لا أحد يعرف إن كانوا عندما هاجروا من أوربا قد نزعوا قلوبهم ورموها فى البحر!

لا أعرف ماذا حدث . .

إن المقارنة بين أمريكا وأوربا صعبة . . بين بلاد بلا حضارة ، وبلاد الحضارة العميقة ، مقارنة ظالمة لأمريكا . .

والمقارنة بين «عشش الترجمان» الأمريكية هذه وبين الحى اللاتينى فى باريس ، إهانة لباريس كلها . .

وعشش الترجمان هى أحد الأحياء المهدمة فى القاهرة ، والمرشحة للاختفاء قريبًا جدا ، أو هكذا أتمنى!

* * *

وأنا أقفل باب غرفتى . . أقفلت فمى على هذه العبارة : عندهم فلوس . . ولكن ليس عندهم ذوق!

فالذوق هناك على الجانب الآخر من المحيط!

قبلة فى النهاية !

اليوم أول يناير سنة ١٩٦٠

وكل الناس ينصحوننى بالبقاء بضعة أيام، إذا كان فى نيتى أن أشترى شيئًا لأن كل هدايا عيد الميلاد يعيدها الأمريكان بنصف السعر إلى المحلات . . فكل إنسان أهداك شيئًا، لست فى حاجة إليه تذهب ببساطة جدا وتبيعه. ومن الممكن أن تبيعه للشخص الذى أهداه لك إذا كان هذا الشخص صاحب محل!

ولا شىء يدل على أننا فى بداية عام جديد . . ربما كان عدد الناس فى الشوارع أقل . . وربما كانت وجوههم أكثر اصفراراً . . أما الأوراق والطراطير والزمامير والأحذية والبرانيط الموجودة فى الشوارع، فسوف تبقى يومًا آخر . . لأن الكناسين فى إجازة أيضًا . . إنهم بشر أو على الأقل فى هذا اليوم!

ولم أشغل نفسى بموضوع الكناسين. وإنما اتجهت إلى أحد مكاتب الطيران. أريد أن أحجز مكانًا إلى روما. واندفعت فى داخل مكتب شركة الطيران أحاول أن أسبق أحداً إلى حجز مكانى. وبعد لحظات عرفت أن الذين سيعبرون الأطلنطى من أمريكا إلى أوربا قليلون جدا. وربما يسعدنى الحظ فأكون المسافر الوحيد. وكيف يكون شعورى عندما تقوم الطائرة من مطار نيويورك وليس فيها إلا أنا . . ثم عندما تهبط فى مانشستر بإنجلترا ويرتفع السلم وينفتح الباب وأنزل وحدى . .

الفكرة غريبة ولكنها مخيفة أن أعبر الأطلنطى ليلا فى طائرة ليست نفاثة وأكون أنا المسافر الوحيد . !

لم تعجبنى الفكرة وكدت أتراجع فى حجز تذكرة وفى نيتى أن أذهب إلى شركة طيران

أخرى . . وخشيت إن أنا عدت إليها بعد لحظات ألا أجد لى مكانًا . واستسلمت . . فلم أجد فكرة أخرى وحجزت مكانًا .

وفى المطار وجدت اثنين آخرين مسافرين على نفس الطائرة . . ثلاثة مسافرون إلى أوربا ليلا . وفى طائرة تتسع لمائة راكب!

وشعرت بشىء من الخوف . . أو بكثير جدا من الخوف . . فهذه أول مرة أعبر فيها الأطلنطى . وقد لاحظت أن رياحًا باردة كانت تهب على المطار . وأن إحدى الطائرات قد اصطدمت بطائرة أخرى فى المطار بسبب الضباب واتجاه الريح . .

ولابد أن هذه الطائرة ستكون ورقة أو ريشة فى قلب العاصفة التى فوق الأطلنطى فى هذه الليلة . .

وإذا سألت الطيار فسوف يؤكد لى أن الجو معتدل . . وأن الارتفاع سيكون عشرين ألف قدم . . والسرعة ٥٠٠ كيلو . . والطائرة فى أحسن حالة ، وكل هيئة قيادة الطائرة فى خدمة الركاب . . وفى انتظار أية إشارة منهم!

وهى عبارات لطيفة تقال فى كل الظروف . . ولو احترقت الطائرة لاقتربت المضيفة تعلن أن الطائرة تسقط فى غاية الهدوء إلى قاع المحيط!

واستسلمت وحشرت نفسى فى المقعد ونظرت من النافذة إلى الظلام الذى يفرز وهجًا مخيفا يخرج من محركات الطائرة ومن ماسورة العادم . . وهو منظر لا يراه المسافرون إلا فى الليل!

ولا أعرف إن كانت هذه عاصفة تلك التى تهز الطائرة بعنف وهى تبرح الأراضى الأمريكية . . على كل حال يجب ألا أهتم كثيراً ، فما تزال الرحلة طويلة جدا . وقد قرر المسافران الآخران اختصار هذه الرحلة ، بأن تمددا وسحب كل واحد منهما بطانية على رجليه ، وبسرعة غريبة فى وقت واحد ، أخذ كل منهما يصدر الصوت المعروف لأى إنسان مستغرق فى النوم وعنده بعض الزكام .

وصحوت من نومى على ضوء النهار . . وعلى إحساس بتجمد أطراف يدى ورجلى . . وعلى الرغم من أننى ارتديت جوربًا فوق حذائى . . وعلى الرغم من أننى لففت ثلاث بطاطين حولى . . وعندما طلع النهار كانت روحى قد رجعت لى . . ولم أر ما الذى أفعله بهذه الروح بعد أن عادت إلى جسمى . أول شىء فعلته هو أننى جعلت أنبه

يدى النائمة . . ورجلى أيضًا . وشعرت بالعطش والجوع وبالأمان . . وبرغبة شديدة فى استئناف الحياة التى استولى عليها الظلام والخوف والعواصف فوق المحيط . .

وكانت والسحب تحت الطائرة . . وفوقها أيضًا .

فما نزال على مسافة طويلة من الجزر البريطانية . وتقدمت المضيفة وبالابتسامة التى تراها على شفتى إحدى الممرضات وهى تداعب طفلا صغيراً قالت لى : ما الذى أستطيع أن أقدمه لك؟

قلت ضاحكًا : قطعة أرض!

فضحكت وقالت : إن الأرض قريبة جدا . . بعد كوب من الشاى وسندوتش وفنجان قهوة وثلاث صفحات فى هذه المجلة نصل إلى مطار مانشستر .

وجاء الشاى والسندوتش . . وشربت القهوة وتصفحت المجلة . . ومجلة أخرى . . وشربت شايا وقهوة ومجلة وكتابًا . . وأضيئت الطائرة وممنوع التدخين واربط الحزام . . استعداداً للهبوط .

وبعد عشر ساعات من الطيران فوق الأطلنطى هبطت الطائرة إلى أرض إنجلترا . . وكانت السماء صافية . . شىء غريب . . والشمس طالعة . . شىء غريب جدا . . والجو دافىء . . والناس فى دهشة رزينة . .

وهذه هى المرة الرابعة التى أسافر فيها إلى الجزر البريطانية . .

وفى مطعم المطار ، رأيت الوجوه الوقورة ، والملامح الهادئة ، والابتسامات المتزنة ، واللغة الإنجليزية الأصلية . وكأننى أعرف الجرسون ، وكأننى أريد منه أن يكرر كلمة : سيدى .

طلبت منه شايا . . أية كمية من الشاى . . فهذه بلاد الشاى . . وطلبت منه أى فاكهة وأى سندوتش . .

ولاحظ الرجل لهفتى على الشاى وعلى الطعام . .

وسألنى إن كانت الرحلة مرهقة عبر الأطلنطى . . فأشرت إليه بأنها كانت كذلك . وقلت هذه العبارة بصوت منخفض حتى لا يسمعها أحد الطيارين ؛ لأن الرحلة لم تكن ـبة بالمرة . إنما أنا أحاول أن أبرر تعطشى للشاى .

وبعد لحظات جاء الجرسون ومعه الشاى ومعه سلة فاكهة ومعه سيدة تقول لى : صباح الخير ، والحمد لله على السلامة . .

وانتشيت من هذه الكلمات وأحسست أننى فى أوربا . . أننى قريب من أسعد أيام حياتى . . ففى هذه الجزر العريقة أحسست لأول مرة فى حياتى عندما زرتها ؛ ما معنى أن تكون للإنسان شخصية مستقلة ، فالرجل الإنجليزى العادى جدا له رأى . وله موقف . . وهو حريص على حريته . . ولكنهم ـ كشعب ـ حريصون أيضًا على أن يعيشوا على حساب حريات الشعوب الأخرى!

ولكن الإنجليز يفهمون فى الحياة . ويفهمون فى السياسة . ولذلك لهم أدب عظيم ؛ لأنه قائم على الفهم السليم العميق للحياة الإنسانية . . ولو كانت هذه السيدة التى جاءت مع الجرسون كبيرة فى السن قليلا لنهضت وقبلتها . وكأننى أقبل أوربا كلها . . أقبل فيها باريس وروما ومدريد وبرلين وڤيينا وأثينا وكوبنهاجن وبروكسل واستكهولم . . أقبل فيها الحضارة العريقة . .

ولكنها ـ مع الأسف ـ كانت شابة صغيرة .

وليس من الأدب ولا من الفلسفة أن أنهض بكامل قواى العقلية ، وأصاب بالجنون عند أول قطعة أرض فى أوربا وفى الساعة المبكرة من الصباح .

واكتفيت بنية أن أقبلها . . وقبلتها فى سرى . .

وعدت إلى الطائرة أحسن حالا وأهدأ بالا . . وأكثر اطمئنانًا على نفسى . . فبعد ساعة نصل إلى مطار بروكسل ببلچيكا . .

وكان الجو دافئًا فالطائرة تتجه إلى الجنوب . .

وكانت السحب منخفضة ولكنها ممزقة . .

ونزلت الطائرة إلى بروكسل . . وهذه هى المرة الثالثة التى ألمس فيها الأرض البلچيكية . . وكانت فى المطار بقايا مطر . . وتغيرت معالم الوجوه . وتغير اللسان أيضًا . إنهم هنا يتكلمون الفرنسية إلى جانب اللغة الفلمنكية . يتكلمون الفرنسية بلهجة خاصة وبتغيير فى نطق بعض الحروف . .

وفى بروكسل أنت على مسافة دقائق من باريس . .

ومن بروكسل سافرت إلى چنيف، وهذه هى المرة العشرون التى أعبر فيها جبال الألب. . من الشمال إلى الجنوب. . ومن الجنوب إلى الشمال. . وهذه هى المرة السادسة التى ألمس فيها الأراضى السويسرية. . ومن طائرة بدت الجبال مغطاة بالجليد. . كانت أقرب ما تكون إلى سقف من الحرير الأبيض. . ولاحظت أن الأوربيين ينظرون إلى الثلج بلهفة. . كما ينظر الإنسان إلى لوح ثلج فى عز الصيف. .

ومرت الطائرة على بحيرة چنيف. . ومن الطائرة لمحت جزيرة چان چاك روسو. . ولمحت الحديقة الإنجليزية. . وبحيرة چنيف وكازينو چنيف. . والجو المغسول النظيف. . والناس فى دقة الساعات، وفى نظافة الصينى بعد غسيله. وسويسرا هى سقف القارة الأوربية. . إنها جافة وهواؤها منعش؛ له رائحة خاصة وطعم خاص وملمس غريب على الخد. . وعلى الشفتين. هواؤها أنثوى. ولكن فى صلابة وفى كبرياء. يلمس فقط، ويثير فقط. ولكنه يجعلك تشعر بالجوع. ويجعلك تتمنى أن تعيش هنا إلى الأبد. . والأبد هذه كلمة ليس لها معنى إلا فى سويسرا. فكل شىء على ما هو عليه من مئات السنين. . لا شىء يتغير. فهم هنا لا يعرفون الخوف، إنهم لا يخافون الحرب، فهم على الحياد. ولا يخافون الفقر، فكل فلوس الدنيا عندهم. ولا يخافون المرض فبلادهم هى مصحة البشرية. . إنهم شعب لايعرف الخوف من الموت!

ومن عشرات من تفاحات الخدود، واللولى بين الشفاه، والذهب المنثور تحت البيريهات الزرقاء والرمادية، والقطن المصرى على شكل بلوزات محشوة بالورد، ومن رنة أوتار صوتية ناعمة جدا. . ومن طرقعات الأحذية على أرض المطار الجليدى. ومن نشوة الهواء والصحة والراحة. . من هذا كله استأذنت وسحبت نفسى وصعدت الطائرة المتجهة إلى روما!

ولم أشأ فى الطائرة أن أنظر من النافذة. . أو أطلب شرابًا أو طعامًا. . ولم أنظر إلى وجه كأننى أريد أن أدخر كل قواى من أجل روما. . أريد أن أغسل أذنى وشفتى وعينى. . ونفسى وقلبى وعقلى. . أن أولد من جديد. . ففى روما ولد الكثير من الأشياء السعيدة فى حياتى. .

وفى روما عرفت الشوق واللهفة وعرفت الألم والفراق. . وعرفت كل ما حرك جوانبى وكل ما أثار عقلى. وعرفت معنى الجاذبية الأرضية وعرفت معنى انعدام الوزن قبل أن يعرفه رواد الفضاء. وعرفت معنى كل شىء له معنى.

كل شىء محبوس فى داخلى . .

كل شىء يتفجر فى أذنى وفى عينى . .

كل شىء يريد أن يمزقنى . .

لا أعرف ما الذى أفعله عندما أهبط فى مطار روما . . إننى أتخيل الوجوه . . بل أعرفها . . إننى أتخيل الطريق . . أى طريق، فكل الطرق عرفتها . . كل الشوارع . . كل المطاعم . . كل الفنادق . . كل التماثيل . . كل النافورات هنا . . وهنا . . وهناك . . وفوق . . وتحت .

هنا فى مطار روما . . وهنا فى محطة روما . . وفى شارع فنيتو . . وفى شارع الكورسو . . وفى ميدان البندقية . . وفى ميدان الشعب . . وفى حديقة بورجيزة . . وفى ميدان ديوان المحاسبة . . وفى الكامبودوليو . . وفى البانثيون . . وفى مقهى الدونى . .

وفى كل مكان من مدينة روما . .

إننى أستطيع أن أمشى فيها مغمض العينين . .

إن أذنى تستطيع أن تدلنى . .

وأمشى فيها مغلق الأذنين أيضًا . . إن أنفى يعرف رائحة الزهر والشجر والماء ويعرف رائحة المكرونة والنبيذ والسمك . .

إننى أستطيع أن أمشى نائمًا . .

إن فرحتى يوم أن رأيت روما لأول مرة من عشرين عامًا لا يمكن أن أصفها . وظللت هذه الأعوام أحاول أن أصفها . . ولكن لا تزال معانيها غامضة . . معانيها بعيدة عن متناول أفكارى . . عن متناول ألفاظى . . كأنها حريصة على أن أظل طول عمرى أحاول وأحاول أن أقترب منها وتظل هى بعيدة عن العين، وليست بعيدة عن القلب . .

وفى مطار روما . . رأيت الوجوه التى أعرفها . . أعرفها كلها . . أعرف هذه العيون العسلية . . أعرف هذه الوجوه السمراء . . أعرف هذه الشعور السوداء . . وهذه الأصوات العالية لا تضايقنى . . وهذا القوام المشدود . . وهذه الأحذية السميكة وكلمات سى . . ونو . . كما تفعل بنات روما . .

ويوم قرأت قصة «فتاة روما» لألبرتو مورافيا لأول مرة . .

ومورافيا هو الرجل الذى قدمته لأول مرة باللغة العربية ولم يكن يعرفه أحد. وكتبت عنه أول مرة سنة ١٩٤٧ . وصارحته بذلك عندما قابلته فى روما. وعندما قابلته فى القاهرة وعندما قلت له رأيى فى أدبه. وأسعدنى بما قاله لى بعد ذلك . . يوم قرأت هذه القصة ويوم بكيت مع البطلة أدريانا . . لم تكن أدريانا تستحق البكاء. ولكن حياتها مؤلمة وبساطتها تبعث على الألم أيضًا. لقمة العيش مرة . . والبحث عن الطعام مر . . والحب مر . .

والذكريات أكثر مرارة.

ومشيت فى شوارع روما . . فى نفس الحوارى الضيقة . . وكنت أرى أدريانا فى كل فتاة . . الفتاة التى خلفتها الحرب فى إيطاليا وتركتها تتضور جوعًا. ولا تعرف كيف يمكن أن يكون الإنسان شريفًا وجائعًا فى الوقت نفسه . . وحاولت أدريانا أن تقف بين الجوع والشرف . . هى وملايين من الرجال والنساء فى أوربا بعد الحرب . . وراحت أدريانا ضحية هذه المعادلة الصعبة!

لا أعرف كم من المرات دخلت روما وكم من المرات خرجت منها . . ربما عشرين مرة . . ربما ثلاثين مرة . . ومن المؤكد أننى لم أخرج منها حتى الآن . .

وهبطت من الطائرة إلى مطار روما؛ لأتمرغ بعينى فى كل هذه الوجوه وكل هذه الصدور . . وكل هذه العيون . .

فقد احتفظ أبناء وبنات إيطاليا بكل ما فى بلادهم من جمال . . زرقة البحيرات وسمرة التربة وعلى صدورهن براكين فيزوف وسترومبولى . . كل هذا أعرفه . . كل هذا عرفته . . كل هذا اقتربت منه . . كل هذا عشته . . وبكيت له . . وبكيت منه . . وبكيت عليه .

وكأى مخمور نزل من الطائرة . .

وكأى بطل حملوه على الأكتاف . . وهتفوا فى أذنه . . وهو لا يدرى .

وكأى ميت وضعوه فى نعش العطر المميت والسحر القاتل . .

وكأى جريح عائد من ميدان القتال إلى أهله ووطنه . . مع أن إيطاليا ليست أهلى ولا وطنى . . ولكن الأيام . . الشهور . . السنوات السعيدة التى أمضيتها هنا . . قد «أهلتنى» قد أعطتنى كل حقوق المواطنين على المواطنين وعلى الوطن نفسه . .

عندما كنت فى مدينة هيدلبرج فى ألمانيا كنت أتغنى مع الألمان وأقول على أنغام الفالس: فقدت قلبى فى هيدلبرج . .

ولكن فى روما فى إيطاليا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ما الذى فقدته . . لم أفقد إلا مللى وإلا قرفى وإلا تفاهة الدنيا . . وإلا اليأس من الحياة .

وفى روما طال بقائى . . وأقمت أيامًا كاملة أمشى فى الشوارع . . وأتوقف عند النواصى . . وأضع الورود فى النوافذ . . وأشد على يدى الذين مات أعزاؤهم وأعزائى . . ولأرفع سماعة التليفون لأقول إلى اللقاء . . ووداعًا . .

وقبل أن أغادر روما ذهبت برغبة غريبة لا أعرف سببها، إلى ميدان أيسديرا . وهو أشهر ميادين روما . . وقفت عند بائعة الصحف . واشتريت كل الصحف التى صدرت فى نفس اليوم . . بكل اللغات التى أعرفها . .

وبصدفة غريبة جدا . . وقفت فى الميدان . . وإلى جوار أحد التاكسيات تمامًا كما فعلت فى أول يوم ذهبت إلى روما من عشرين عامًا .

وبصدفة أغرب رأيت أول وجه عرفته فى إيطاليا . .

ووسط الزحام والكلاكسات والسيارات والذين يشيرون إلىّ أن أحترس . . والذين أمسكونى من يدى . . والذين توهمت أننى أمسكتهم من أيديهم . . ومن شعورهم حتى لا تدوسهم العجلات . . ووسط هذا الفيضان المفاجئ فى الميدان ضاعت صرخاتى وأنا أنادى صاحبة الوجه بأعلى صوتى . . أناديها بكل أيامى بكل سنواتى . . بكل الذى وكان وراح وضاع ولن يعود . . ليته يعود . . ليتنى . . ليتنا . .

واختفى الصوت والصدى والوجه والظل والميدان، ونسمة الهواء، وقطرات الماء على الحجر، ولون السماء، ورائحة القهوة، وطعم النبيذ، ومرارة الفراق . . وبعد ذلك رجعت إلى دنياى كل ما كان فيها: الأرق عاد، والملل عاد، واليأس عاد . . وصغرت الدنيا حتى أصبحت كعين الإبرة . . وأصبحت أحس فى كل لحظة أننى فيل أريد أن أنفذ منها إلى العالم الآخر . .

وكانت الدنيا قبل ذلك حلوة . . لولا هذه الساعات فى روما . . لولا هذه اللمسات لأحجار الميادين . . لولا هذه الرشفات من مياه النافورات . .

لولا لوحات دافنشى . . ولولا الشفاه والصدور والسيقان . .

وحملت حقائبى وكانت أخف منى . .

فأنا الآن أصبحت أثقل من حقائبى . وصعدت الطائرة عائداً إلى القاهرة . وقد نقص وزنى ، وجف عودى ، واقترب جلدى من عظمى . . واختفت عينى تحت حاجبى . .

وكأننى كنت قادمًا من الإسكندرية ثم نزلت أرض مطار القاهرة . . كأنى نزلته على يدى . . فقد أحسست بأرض المطار لينة كأنها صدر حنون . .

وتمنيت لو ألقيت نفسى على هذا الصدر . . لقد كان الصدر الوحيد الذى ينتظرنى أو الذى كنت أنتظره . . أو الذى توهمت أنى على موعد معه!

لا أعرف أحدًا من هذه الوجوه . . ولابد أن بعضها قد قرأ كل ما كتبت وأنا أدور حول الأرض . . ولابد أن واحدًا منهم تمنى أن يدور دورتى ، وأن يدوخ دوختى ، ولابد أنه تمنى ذلك فى ساعة . . فأصابنى ذلك بالمرض والخوف . . وقد مرضت كثيراً . وخفت كثيراً . وأخفيت دموعى فى عرقى ، وأخفيت عرقى فى حبرى . . وكتبت . . وبكيت وتعبت . ولكن رأيت أجمل ما فى الدنيا . وعرفت أقسى ما فى الدنيا : الوحدة . .

وحققت أعظم ما فى الحياة : أن أسعد الآخرين . .

وفى اللحظة التى هبطت إلى أرض المطار .

كانت شفتاى فى قدمى . . فقبلت أرضًا حبيبة عزيزة . .

وكانت هذه القبلة هى فى الوقت نفسه نقطة البداية والنهاية فى وقت واحد . . فمن هنا بدأت دورتى حول الأرض ماراً بالهند . . وهنا أنهيت دورتى حول الأرض قادمًا من إيطاليا . .

وهذه النقطة هى الشىء الوحيد الذى أحاول منذ مائتى يوم ، ومنذ مئات الصفحات أن أضعه فى نهاية هذه الرحلة ، وفى نهاية هذا الكتاب .

رقم الإيداع ١٠٦٥٦/٢٠٠٠
الترقيم الدولى 0 - 0653 - 09 - 977